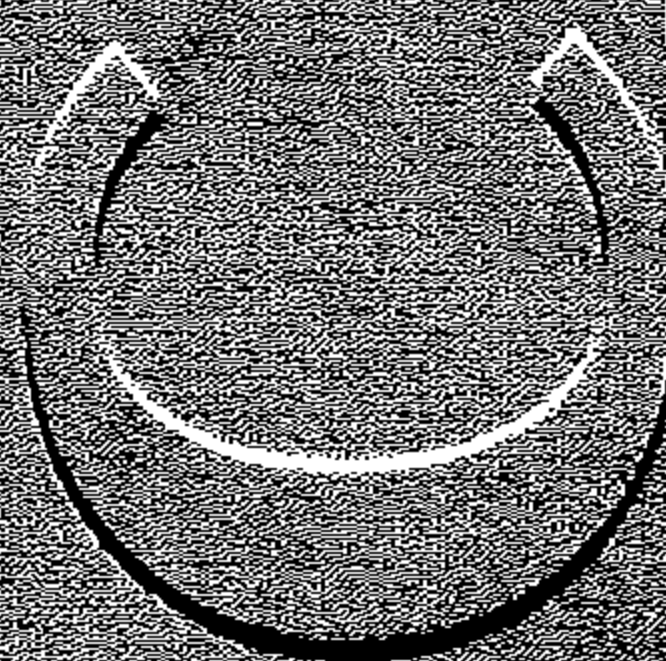


كتاب  
سجود

# مايكل آشور



## لورانس

## الملك

ترجمة: د. فاطمة نصر  
تقديم: د. عاصم الدسوقي



Bibliotheca Alexandrina



# لورانس ملك العرب غير المتوج

تأليف: مايكل آشر

ترجمة: فاطمة نصر

هذه ترجمة كاملة لكتاب

Lawrence: The Uncrowned King  
Of Arabia

بقلم: Michael Asher

الصادر عن دار نشر، Viking

في عام ١٩٩٨

طبعة أولى ٢٠٠٠

## كتاب سطور

هيئة التحرير :

اعتدال عثمان

فاطمة نصر

— الكتاب : لورانس ملك العرب غير المتوج

Lawrence The Uncrowned King of Arabia

— المؤلف : مايكل آشر : Michael Asher

— ترجمة : د. فاطمة نصر

— المراجعة التاريخية : عاصم الدسوقي

— غلاف وإخراج : جوبى

— الجمع والتنفيذ : عصام عيسوى

— المراجعة اللغوية : عمر الشناوى

الطبعة العربية الأولى ٢٠٠٠

رقم الإيداع ١٤٦٤١ / ٢٠٠٠

جميع حقوق النألف محفوظة للمؤلف

جميع حقوق الترجمة والطبع محفوظة لـ سطور

٨ و ٢٣ تقسيم الشيشينى بجوار الكوبرى الدائرى

كورنيش المعادى ت : ٢٠ ٥٢٤٠٠ / ٥٢٦٣٥٩٩

e.mail address. sutour@nmsnet.com.eg

## إصدارات سطور:

مجلة سطور

مجلة شهرية ثقافية عربية

كتاب سطور:

١ - محمد «سيرة الرسول»

٢ - صدام الحضارات

٣ - عصر الجينات والإلكترونيات

٤ - القدس مدينة واحدة عفاند ثلاث

٥ - العولة والعولة المضادة

٦ - التاريخ السرى للموساد

٧ - حريم محمد على باشا

٨ - من يخاف استنساخ الإنسان؟

٩ - عولة الفقر

١٠ - صور حبة من إيران

إصدارات خاصة )

البحث عن العدل ( السلطة والفانون والحربة )







لورانس

تفكيك الأسطورة

## عاصم الدسوقي

---

اقترن اسم لورانس في كتب التاريخ

---

بثورة الشريف حسين أمير الحجاز

---

ضد الحكم التركي في يوليو ١٩١٦

---

المعروفة بالثورة العربية الكبرى حتى

---

لقد أصبح يعرف في الأدبيات

---

«بلورانس العرب».

---

وقد خلعت هذه الكتب على لورانس ألوانا من البطولة وصنوها من الشجاعة جعلت منه شخصية أسطورية تخلق لب القراء وتوقعهم أسرى سحرها. وربما ترجع «أسطورة» هذه الشخصية إلى الغموض الذي اكتنف صاحبها عند الذين التقوا به من العرب ومن الإنجليز على السواء، وهو غموض تعمد لورانس أن يظهر به أمام الآخرين، وحرص على تسجيله بأسلوب غير مباشر في رسائله إلى والدته وإخوته وأصدقائه، ثم كانت وفاته وهو على ظهر دراجته التي كان يعشق ركوبها ونشعره بأنه بدوس العالم لنجعل منه بطلا تراجيديا بالمعنى المسرحي.

ولم ينشغل العرب الذين التقوا بلورانس قبل الحرب العظمى وأثناء الصراع مع الأتراك بالتعرف على حقيقته، ولماذا ينصل بهم ويعرض خبراته لمساعدتهم في الإعداد للثورة. كما لم يتوقفوا أمام ما لاحظوه عليه من سلوك شاذ، بل لقد اطمأنوا إليه طالما انضح لهم صدق تصوراتهم في التطبيق العملي. وطالما أنه يساعدهم «فعلا» لإعلان مملكة عربية مستقلة طبقا لمراسلات الشريف حسين مع



هنرى مكماهون المندوب السامى البريطانى فى مصر (١٩١٥ - ١٩١٦) . كما لم يدرك العرب آنذاك - ولم يكونوا منفردين فى هذا - أن لورانس ينفذ خطة فى استراتيجية بريطانية تمت صياغتها سرا منذ انضمت تركيا إلى جانب ألمانيا والنمسا فى الحرب العظمى ضد إنجلترا وحلفائها . وقد استخدمت بريطانيا فى هذه الخطة وبمهارة ملحوظة التناقض بين عرب الحجاز ( الشريف حسين ) وحكومة الاتحاد والترقى التى استولت على السلطة فى الدولة العثمانية فى يوليو ١٩٠٨ ، ولعبت على وتر العواطف القومية عند العرب تجاه الأتراك بحرص شديد حتى تحقق أغراضها .

والحاصل أنه فى ١٩١٢ أرسلت حكومة الاتحاد والترقى وهيب باشا ليكون واليا على الحجاز وليس على باشوية جده كما كان الحال أيام السلطنة العثمانية الأمر الذى جعل الشريف حسين يتوجس خيفة من نيات الحكومة التركية الجديدة . فماذا يفعل ؟ ... بحث عن ظهير يستند إليه فى الصراع الذى قد ينفجر ضد الأتراك . وآنذاك لم يجد سوى إنجلترا التى تحتل جيوشها مصر ، ويخضع لها أمراء

الخليج العربى من مسقط جنوبا إلى الكويت شمالا ، وتحتل عدن فى مدخل البحر الأحمر ، فأرسل ابنه عبد الله ( أول أمير لإمارة شرق الأردن ) إلى القاهرة والتقى باللورد كتشنر المعتمد البريطانى وعرض عليه الموقف ، وحاول أن يحصل على وعد بتأييد الإنجليز للشريف فى الصراع المرتقب مع الأتراك . غير أن كتشنر أبقى لوزارة الخارجية فى لندن بخلاصة المقابلة وحذره المسئولون من الالتزام بأية وعود . وكل ما خرجت به السياسة البريطانية من هذا الموقف أنها عرفت بوجود تناقض فى المصالح العربية التركية ففتحت له ملفا قد تستخدمه فى الوقت المناسب .

ثم جاء الوقت المناسب عندما انضمت تركيا فى نوفمبر ١٩١٤ إلى جانب ألمانيا والنمسا ( دول الوسط ) ضد الحلفاء ( إنجلترا وفرنسا وروسيا وإيطاليا ) . وأنداك كان اللورد كتشنر قد ترك منصبه فى مصر وأصبح وزيرا للحرب فى بلاده ، وتذكر مقابلاته مع الأمير عبد الله بن الشريف حسين ، ففتح الملف العربى التركى ، وبدأ تشغيل التناقض لصالح الإنجليز وحلفائهم . كيف ؟ . . يقوم الإنجليز بتشجيع الشريف حسين للقيام بالثورة ضد الحكم التركى لإعلان المملكة العربية طبقا للمراسلات ، وبهذا تفتح جبهة على الأتراك لمواجهة الثورة تضطربهم لسحب جزء من قواتهم المحاربة فى أوروبا فيضعف بذلك مركز أعداء إنجلترا .

وعندما تمت اتصالات الإنجليز فى القاهرة بالشريف حسين فى مطلع عام ١٩١٦ للإعداد للثورة لم يتساءل الحسين عن أسباب صمت الإنجليز طوال أربع سنوات منذ مقابلة ابنه عبد الله مع كتشنر ( ١٩١٢ ) عن الوقوف معه ضد الأتراك . . ولماذا جاء الاتصال للقيام بالثورة فى هذا التوقيت بالذات ، وغير ذلك من الأسئلة التى يطرحها العقل المركب غير البسيط فى مثل هذه الحالات . وكل ما لفت نظر الشريف أن الإنجليز أخيرا يدعمونه ليس فقط ضد مركزية حكومة الاتحاد والترقى وإنما بالثورة ضدها وإعلان المملكة العربية من دمشق .

إن هذه البساطة فى التفكير عند العرب بشكل عام وعند عرب الحجاز بشكل خاص كما وضح من تبادل المراسلات هو ما شد لورانس إلى العرب حيث وجد فى خصالهم ما ألهم خياله المريض الذى كونه قراءاته عن قلاع العصور الوسطى . وقد خرج من هذه القراءات بأن العصور الوسطى هى العصر الذهبى لتاريخ

الإنسانية الذى توقف فى رأيه عند عام ١٥٠٠ حتى أنه لا يعترف بالتاريخ الحديث الذى يبدأ بالقرن السادس عشر . لقد كان العرب - دون أن يدروا - هم ضالة لورانس فى تجريب أفكاره وتصوراته عن التفكير البسيط غير المركب ، وعن العقل الخام الذى يمكن تشكيله بمعرفة فنان يجيد التعامل مع الأشياء على طبيعتها .

والحقيقة أن شخصية لورانس التى انجذبت للعرب لم تكن متوائمة مع المجتمع الإنجليزى الذى نشأت فيه فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، فبقدر بعده عن الإنجليز كان قربه من العرب وليس العكس . ومن ناحية أخرى أن ينخلع إنسان عن محيط مجتمعه ويغوص بكل ثقله فى مجتمع جديد لأمر شاذ وغير سوى . وهذا هو المدخل الذى اعتمد عليه مؤلفنا لكشف الوجه الحقيقى لشخصية لورانس التى حاول صاحبها إخفاءها عن الناس لتبقى متوارية ، وفى هذا يقول لورانس : « إن أفضل وسيلة لإخفاء الحقيقة الإتيان بتعبيرات محيرة ومتضاربة ومضللة » .

فما مفتاح فهم شخصية لورانس ؟ !

كان لورانس ثمرة لعلاقة غير شرعية بين والده سليل لوردات الإقطاع الإنجليزى ، وسارا مربية الأسرة التى وقع فى غرامها . ويفهم من سياق سيرة حياته أن والده كان يحب حياة اللهو والترف ، وزوجته امرأة شديدة التمسك بأهداب الفضائل الدينية ولم تكن تجاربه فى مجونه . ومن هنا وقع فى غرام سارا فى زمن كانت العفة فيه علامة أساسية للشرف وعنوانا له . وهنا اضطر العشيقان لمغادرة أيرلندة إلى ويلز لبدء حياة جديدة ولكن فى عزلة عن مجتمع ويلز ، لا يختلطان بأحد حتى لا يفتضح أمرهما . وبعد عدة تنقلات من مكان لآخر استقرت الأسرة الجديدة فى أكسفورد عام ١٨٩٦ .

وفى أكسفورد التى شهدت صبا لورانس سيطرت عليه أمه تماما بل كانت شديدة القسوة فى تربية أبنائها تقربا إلى الله ليغفر لها خطيئتها . ولعل هذه التربية القاسية وظروف مجيئه إلى الدنيا دون إخوته كانت وراء مازو كيته والبحث عن اللذة الأليمة فى التعذيب الجسدى والنفسى والجنسى . ولهذا حمل لورانس فى نفسه مجموعة من العادات المتناقضة غير المألوفة جعلته موضع فضول الآخرين

فأصبحت عيون الآخرين بالنسبة له هي الجحيم بعينه كما يقول سارتر . ومن ذلك أنه لم يحب المنافسة في مجتمع رأسمالي تقوم الحياة فيه على أساسها ربما لأن المنافسة تفرض عليه الاختلاط بالآخرين في الوقت الذي كانت أمه تريد إبعاده عن هذا المجتمع . وأيضا كانت سيطرة أمه والإحاطة به ليل نهار سببا في ابتعاده عن التعلق بالنساء ، وحولته إلى خنشوى يحب اللواط مع من هم أكبر منه ويجد في ذلك لذة اليمة وألما لذيذا . وعاش مختنقا تحت جناحي أمه حتى لا يفلت منها إلى العالم الخارجي . وهكذا لم يعيش طفولة عادية أو مرهقة عادية شأن أقرانه . وعندما أراد الهرب من سيطرة أمه وجد في التاريخ المهرب والملاذ الآمن .

وهكذا وفي مدرسة سانت جون بأكسفورد قضى عشر سنوات لم يعشق من مواد الدراسة غير التاريخ وبصفة خاصة تاريخ الشرق ومصر القديم . وربما كان حبه للتاريخ من باب الاغتراب عن مجتمعه بالتعلق بآخرين . وفي عام ١٩٠٦ جاءته منحة لدخول جامعة أكسفورد لدراسة الرياضيات ولكنه رفضها لحبه للتاريخ . وفي تلك الأثناء وهربا من الواقع غير المواتي التحق بسلاح المدفعية الملكي مجندا وكانت تجربة قصيرة وفاشلة استغرقت أقل من ستة أشهر . ثم جاءته المنحة التي يريدونها لدراسة التاريخ ( ١٢ يولييه ١٩٠٧ ) وعمره إذ ذاك تسعة عشر عاما . ومع هذا لم يكن منتظما في حضور الدروس وانصرف إلى القراءة الحرة عن الزمن الذي يحبه قبل القرن السادس عشر .

وفي العام الأول بالجامعة وفي مطلع عام ١٩٠٨ كان قد فقد إيمانه بالمسيحية واستبدل باليقين الإيماني الحداثي ، وفي مرحلة تالية اتجه تفكيره إلى العقلانية لقياس كيفية حدوث الأشياء وإلى أين تتجه . ومن هنا حمل تفكيره بعض المفارقات ، فهو شديد العقلانية لدرجة أنه لم يكن يوسعده أن يؤمن بشيء ، أى أنه عاقل إلى درجة الجنون . وفي الوقت نفسه كان يرى أن الإيمان هو كل شيء ، وربما جعلته هذه المفارقات التي لم يكن يدري بها بطبيعة الحال غير راض عن أعماله بشكل عام ، وفي هذا يقول : « لا شيء فعلته يبدو لي جيدا بالقدر الكافي » .

كانت تلك معالم شخصية لورانس النفسية والعلمية التي قابل بها العرب في أول رحلة له لبلاد الشرق في سوريا في ١٨ يونيو ١٩٠٩ على ظهر السفينة

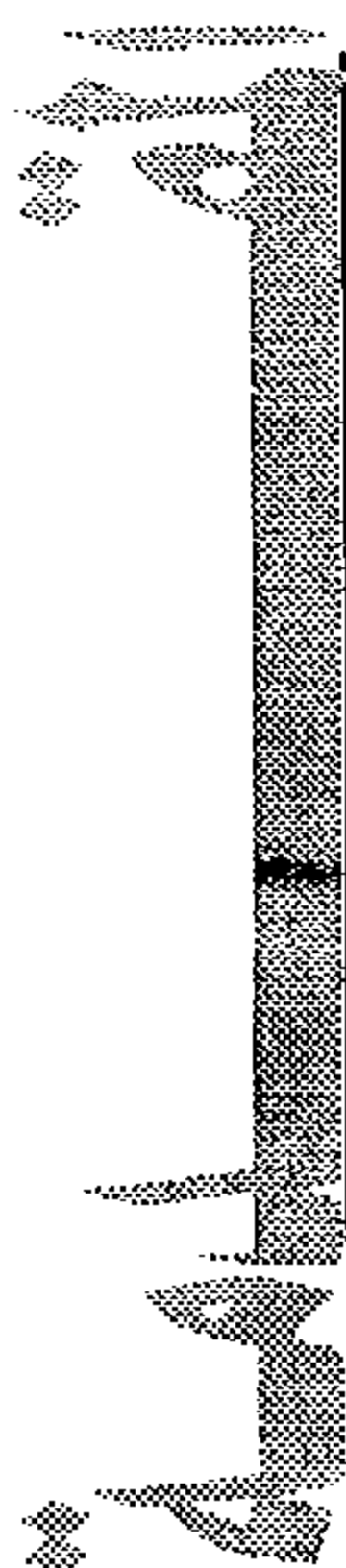


منغوليا إلى بورسيعد ومنها إلى بيروت ليلنقى وجهها لوجه بتاريخ الشرق الذى أحبه . وكانت هذه الرحلة حاصة بالتنقيب عن آثار حصاره الحيشين القديمة شمالى سوريا حيث عمل مساعدا لعالم الآثار هوجارث . وكانت فرصته فى التعرف على الناس وعلى الأماكن وهو يلتقط ما نجود به الحفريات من آثار ليرضى استاذ هوجارث . ثم غادر الشرق ليعود بعد ذلك فى مهمة أخرى اختلطت فيها مزاعم مساعدة العرب ضد الأتراك بحقائق دعم قضية الحلفاء فى الحرب ضد الأتراك ، كما تقاطعت فيها خيوط حلم لورانس - كما قال بنفسه - بتحرير العرب من قيد الأتراك بإنشاء مملكة عربية بواقع تحريرهم من الأتراك ليقعوا صيدا سهلا فى شباك الإنجليز لنصفية المسألة الشرقية كما كانت تمثلها الدولة العثمانية التركية .

وليس من باب المغالاة القول إن المؤلف يثار من لورانس لسبب أو لآخر . . يريد أن ينزله من عرش مزيف توج عليه ملكا للعرب أو زعيما لهم ، إذ نراه ينعقبه فى رحلاته التى كتب عنها فى مذكراته ويقارن ما ورد بها بما ورد بمفكرنه الصعبة وبما ورد فى رسائله إلى الآخرين ، ثم نراه يقيس المسافات بين كل الأماكن التى ذهب إليها لورانس والزمن الذى استغرقه التنقل عبر هذه الأماكن ليقول للقارئ فى النهاية كم كان لورانس كذوبا ومخادعا . ثم نراه يكرر تركيزا شديدا على شذوذه الجنسى ويعتبره مفتاح فهم شخصية لورانس . وليس من شك أن التركيز على هذه المداخل الشخصية بسهم فى تهشيم الصورة المثالية التى أراد لها لورانس أن تستقر فى مخيلة الناس وخاصة فى مخيلة أهل الشرق حيث نحتل الأخلاق مرتبة عليا فى تقويم حركة الناس ونصرفاتهم وسياساتهم ، وحسنا فعل .

فهل نخج المؤلف فى هذا ؟ إننى أدعو القارئ العربى ليتعرف على العالم الحفى للورانس « العرب » فى الصفحات التالية .

عاصم الدسوقي



وادی

القمر

---

إن القصة التي أوريها هي إحدى

---

أكثر قصص البشرية روعة من ت. إي.

---

لورانس إلى فيثيان ريتشاردز يتحتم

---

علينا أن نعاني كي نرضى من ت. إي.

---

لورانس إلى شارلوت شو

---

ذات صباح قانظ في أبريل ، تسلقت جانب تل بوادي رُم في الأردن متوقعا بين الحين والآخر أن أستشعر رياح الصحراء التي كانت تنقض على الأودية على مرمى بصرى وتعوى في الضوء البرتقالي العتيق . قد يكون هذا الوادي بقايا مدينة مريخية قديمة أصبحت منبعجة مشوهة بفعل الزمن وبالفعل ، فالبدو يطلقون عليه اسم « وادي القمر » ويعتقدون أنه قد هوى من النجوم . كنت أبحث عن البقعة التي تسمى « نبع لورانس » حيث كان « لورانس العرب » يستحم أثناء إقامته بالوادي عام ١٩١٧ . كانت حقيبة الظهر التي أحملها لا تحوى سوى وعاء الشرب المطفى بالمينا وسخة من كتاب « أعمدة الحكمة السبعة » الذي كنت قد قرأته وأعدت قراءته على طوال سنوات عديدة . واليوم ، كنت أشعر أن هذا الكتاب في ثقل حجر الطاحون . كنت قد غادرت لتوى أحد خيام بدو الحويطات وهم أحفاد رجال القبائل الذين خرجوا للغزو مع لورانس وفد أدهشني ما أخبروني به : « لم يكن لورانس قائدا للثورة العربية ، كان مجرد مهندس يعرف كيف يفجر خط السكك الحديدية - رجل ديناميت - هذا كل ما كانه » . لقد كان لورانس بطل طفولتي ، كما كان بالنسبة



لآلاف الآخرين، ومن ثم، كان لكلمات الأعراب تلك وقع شبيه بالكفر .

استغرق عشورى على ضالتي نحو عشرين دقيقة فقط . كان النبع يقع فى صدع على شكل V وكانت المياه تندفع من قمة جبل «الرّم» من ارتفاع آلاف الأقدام وتتدفق مفرقة فى صهريج صخرى لتنساب منه فضة سائلة عبر قنوات ضحلة ونباتات يانعة وفيرة من النعناع والزعر البرى . ملأت الإناء بمياه الصهريج وتذوقتها : كانت عذبة باردة شهية ، ثم جلست فى ظل الحائط الصخرى وفتحت «أعمدة الحكمة السبعة» على الصفحة التى كنت قد علمتها حيث كتب لورانس : «على معقل نأتى من صخرة تزحف على سطحها القرمزى أوراق خضراء متسلقة، وأيضاً على نتوء أعلى الصخرة، كانت هناك كتابات نبطية محفورة بوضوح . . . وخربشات عربية، يشهد بعضها على هجرات منسية، إلا أن ما استحوذ على انتباهى كان فقط المياه المتساقطة فى فتحة تحت ظل صخرة علوية» . ونظرت إلى أعلى لأجد الكتابات النبطية والعلامات العربية القبلية تماماً كما وصفها لورانس منذ ما يقرب من الثمانين عاماً . احتضنت اندفاع المياه والأعشاب البرية المتسلقة

العبيقة، وللحظة روعني وصف لورانس الحميم لها. بدا لي وكأنما لورانس، الذي توفي قبل ميلادي بثمانية عشر عاما، كان هناك بجوارى، استشعرت حضوره كما لو كان ينظر من أعلى كتفى. ولدى عودتي إلى الصفحة انتابني إحساس قوى لا عقلاني أنه يخاطبني مباشرة كما لو كان يعرف بشكل ما أنني سأقتفى خطواته، وأنه كان قد كتب هذا خصيصا لي كي أقرأه في هذا اليوم وهذه اللحظة.

طالما خبرت مثل هذه الرؤى فوق الطبيعية أثناء سفرى فى الصحراء حيث يولد الاتساع والسكون والفراغ شعوراً باللازم يكاد يلمسه المرء: طالما التقطت فئوسا قبل تاريخية من على السطح وأنا أعلم أن يديّ هما أول ما لمسها بعد أن تركها صانعوها منذ مائة ألف عام. فبمقدور الروح الإنسانية، بشكل ما فى الصحراء، القفز عبر مثل هذه الفجوة. كنت واثقا أن لورانس قد شعر بهذا أيضا إذ يسود «أعمدة الحكمة» إحساس بالرهبة التى هى بالنسبة لى جوهر تجربة الإنسان فى الصحراء. أثر «ت. إى لورانس» على حياتى بقوة متفردة؛ فبدون لورانس كان بالإمكان ألا أكون متحدثا بالعربية، وألا أمتلك القدرة على امتطاء الإبل وعلى قطع مسافة ١٦,٠٠٠ ميل على ظهر بعير، أو أن أحقق أول عبور للصحراء من الشرق إلى الغرب أى مسافة ٤,٥٠٠ ميلا، أو أن أعيش البدو التقليديين سنوات ثلاث. وبدون لورانس كان من المحتمل ألا أخدم فى الفرقة الجوية الخاصة، إذ إن بدونه لم تكن لتوجد هذه الفرقة (SAS) إن كلمات مضيفى من الحويقات مازالت مشتتة فى رأسى، وتساءلت وأنا أجلس هناك، كما تساءل عديدون آخرون، من لورانس الحقيقى؟ فالبنسبة لمداهنيه، فإن كل كلمة قالها هى الحق، على حين ذهب ناقدوه بعيدا ليبرهنوا العكس. وفكرت أنه بالتأكيد، وبعد ثمانين عاما، بالإمكان الوصول إلى رؤية أكثر تعقلا وصدقا واعتدالا.

ولمدة عامين أخذت أقتفى أثر لورانس من مكتبة لأخرى، وعلى طول آلاف الأميال عبر صحراء الشرق الأوسط، على ظهور النوق أحيانا وعلى الأقدام أحيانا أخرى. وكان يحدث أن أشعر بحضوره، فى أماكن غير متوقعة فى ركن ظليل بأشمولية، أو عند بوابة برج قلعة الأزرق، أو عند قمة جبلية فى المدورة، وأسمع صوته مرة أخرى. وأحيانا، وبينما كنت أعبر سيناء على ظهر الناقة، أو أتسلق ممر الحفيرة، كنت أحس به هناك يتقدمنى بخطوات ويضاحكنى وأنى لو أسرعت للحققت به. لقد اكتسب سعى وراء لورانس صفة الحج، وأخذت أنظر إلى هذه

المسيرة كطقس ديني، شكل من أشكال تقديس السلف، تأكيد الماضي، أو إعادة اخراعه. بحثت وقرأت وسافرت، بيد أنه في اللحظة التي كنت أعتقد فيها أن لورانس في قبضتي، كان هو يفر مني ضاحكا ويظهر في بقعة أخرى. كنت أجد فقط صورتى في مرآة: لورانس وأنا يواجه أحدهما الآخر في مرآتين متقابلتين تعكسان كلا منا إلى ما لانهاية. وأخيرا، في هذه الصحراوات النائية، عرفت أن المشاهد جزء من موضوع مشاهدته، واستوعبت أنه لا يمكن أن يكون هناك لورانس محدد، بل عدد لا متناه من صور لورانس، مثل بلورات الكريستال، في أعين باطربه. أما من اكتشفته فكان لورانس الخاص بي، والحقيقة الخاصة بي، فالحقيقة أنواعها عديدة. نوع يظل ساكنا راكدا، وآخر بنشني وبتنقل ويتبدل تبعا للفرد والزمان.





الباب الأول

الجـوال

١٨٨٨-١٩١٦

# الملكة المزيفة تكشف عن نورها الأخاذ

الطفولة المبكرة

١٨٨٦-١٨٩٦

---

# 1

---

عام ١٨٧٩ هبطت في دبلن شابة

جميلة تدعى سارا لورانس من عبارة، كى

تبدأ مغامرة حياتها. أتت لتعمل مربية

لأطفال أسرة «جنتلمان» ثرى يدعى

توماس تشابمان الذى كان يمتلك قصراً

وضيعة شاسعة قرب دلفن فى إقليم

وستميث.

ورغم أن سارا كانت لم تتجاوز الثامنة عشرة، فقد كانت ذات مقدرة غير عادية ونزوع إلى السيطرة، وكانت قد تخطت الحواجز الاجتماعية التي وجد العديدون أنه من الخال تخطيها. كانت قد ولدت ابنة غير شرعية لصانع سفن في تاينسايد بدعى جون لورانس الذى هجرها، ثم تيتمت على يدى أمها السكيرة فى سن التاسعة ليتولى تنشنتها راعى كنيسة أسقفية وزوجته فى مرتفعات اسكتلندا وتلالها وفى آيل أوف سكاى. كانت سارا مصرة على أن تقفز عبر الفجوة التى تفصل الفتاة اليتيمة التى تنتمى إلى طبقة العمال وبين ربة المنزل التى تنتمى إلى الطبقة الوسطى فى زمن كان طفل السفاح يحمل معه وصمة العار فى المجتمع، وكانت الطبقات شبه ثابتة فى مداراتها مثل الأجسام السماوية. وفكرت أنه إن لم تستطع أن تصبح ملكة أو سيدة البيت الإقطاعى، فبإمكانها على الأقل توظيف قوتها للإيقاع بقلب السيد النبيل، وهذا تحديدا هو ما فعلته.

و كان توماس تشابمان، الذى التحقت بخدمته، قد تلقى تعليم الصفوة فى إيتون

وسرينسستر . كان حفيدا لأحد البارونتيات وسلسلة سبعة أجيال من ملاك الأراضي الإنجليز الكولونياليين الذين منحوا أراضي في إقليم كيرى برعاية السير ولتر رالى . امتلك تشابمان مزايا أرباب الحسب من التعليم والنشأة وملكية أراضي وضياع وخيول وعربات وخدم وثروة إلى جانب وقت الفراغ اللازم للتمتع بكل هذا . إلا أنه لم يكن سعيدا إذ كانت زوجته إديث سليطة اللسان تعتبر المتعة خطيئة وكانت ، كما قال أحد الجيران ، من نوع النساء المتزلمات دينيا بأسلوب رهيب واللاتى يذهبن إلى الكنيسة فى جميع ساعات النهار ، واللاتى لو حدث وسقطت إحدى خادمت المطبخ فى الخطيئة يقمن بطردها بعد تلويث سمعتها . وكان نروع إديث القتالى -والذى كان يجد تعبيره المفرط فى محاولاتها إدخال الفلاحين الكاثوليك إلى البروتستانتية قد أصبح مؤلما لدرجة أن توماس تحاشى صحبتها . وحينما ظهرت سارا فى الأفق لأول مرة ، كان توماس أبا لبنات أربع ، وقد وجد نفسه على شفا أواسط العمر وهو فى براتن زواج من امرأة قد توقف عن حبها منذ أمد طويل . وكان ، وهو السوداوى المزاج ، عديم الجدوى ، السكير ، قد ألق

حتى عن المباحج التي كان النبلاء يقضون أوقاتهم في ممارستها مثل الصيد والقنص وصيد الأسماك . وانطلقت سارا الجميلة إلى عالمه المظلم كالشهاب وأسرتة . وكانت مرحلة مليئة بالحيوية بالقدر الذي كانت به إيديث لا دنيوية تملؤها المرارة ، هذا بالإضافة إلى قدراتها التنظيمية الفذة . كانت قد قدمت إلى قصره - ساوث هيل - لرعاية بناته إلا أنها سرعان ما تولت رعاية شئون المنزل بأكمله وأصبح من الملاحظ أن تعود الحيوية إلى توماس لدى ولوج سارا الغرفة . وسرعان - وربما كان هذا حتميا - ما وقع السيد الإقطاعي في حب المربية .

وبالطبع ، فلم يكن من غير المألوف « لجنتمان » فيكتوري ضجر أن يغازل خادمته . إلا أن فكرة هجر شخص من النبلاء طبقته من أجل علاقة مع خادمة كان أمرا لا يخطر على بال في زمن كانت فيه الأرستقراطية البريطانية مازالت تحتفظ بسمعة شبه إلهية . وكانت سارا تعلم أنها تخطو على حبل مشدود . فلم يكن لديها ما تقدمه سوى نفسها . وكان من السهل أن ينتهي أمر أية فتاة أخرى أقل تصميمًا وقوة حضور أن تصبح أما شابة غير متزوجة مصيرها الإصلاحية أو ما هو أسوأ . إلا أن سارا تمكنت من إحكام قبضتها تدريجيا حول توماس ، وتركت منصبها كمربية في قصره لتعود للظهور عشيقة له في منزل في مدينة دبلن . وهناك ولد ابنهما الأول مونتاجيو روبرت - بوب - عام ١٨٨٥ . وعاش توماس لفترة من الوقت حياة مزدوجة متنقلا بين زوجته وبناته في ساوث هيل وبين عشيقته وابنه . وسرعان ما لاكت الألسن سيرتهما . فقد لمح نادل تشابمان سارا في أحد المتاجر وسمعها تقدم نفسها على أنها « مدام تشابمان » ، ثم تبعها بدافع الفضول حتى منزلها حيث شاهد توماس تشابمان يخرج من هناك ، فاندفع إلى إيديث حاملا إليها الأخبار . وانفجرت الأخيرة بضراوة . وأجبر توماس على الاختيار ما بين حياته الزوجية المتميزة الفاحلة معها وبين علاقته غير التقليدية وغير المربحة ماديا بسارا . وباختياره لسارا اتخذ تشابمان أكثر قرارات حياته شجاعة . ومن ثم ، وذات يوم عام ١٨٨٧ ترك قصره بحدائقه الشعشاء ، ومروجه الحضراء وأشجاره الصنوبرية الأيرلندية ، وبذ إرته وثقافته إلى الأبد ولحق بسارا في دبلن ثم طلب الطلاق من إيديث التي رفضت بعناد . ومن ثم ، فررا التحدي والهرب إلى لندن حيث يمكنهما البدء من جديد . ثم غادرا أيرلندا ذات مساء قرب

نهاية عام ١٨٨٧ بالعبارة، وحينما هبطا على الساحل فى شمال ويلز فى اليوم التالى كانا قد أصبحا السيد توماس لورانس وحرمة، لا توماس تشابمان اللورد الإقطاعى وسارا لورانس المريية، وقد لازمتهم هذه الصفة طوال ما تبقى من حياتهما.

وتكاد تكون اللحظة التى تخيراها ليتزوجا عرفيا أكثر اللحظات قمعا فى تاريخ الأخلاقيات البريطانية برمته. فمنذ نهاية القرن الثامن عشر الذى تميز بلببرالية نسبية، أخذ المجتمع يتحول باتجاه التعصب البيورناني نتيجة لحركة الإحياء البروتستانتى الإنجيلى. ومن المفارقات، أن سارا كانت ضمن أتباع هذه الحركة. وكان عام ١٨٨٥ هو العام الذى بلغت فيه «حملة الطهارة» ذروتها، وكانت هذه حملة صليبية ضد التسيبات الجنسية حملت فى ركابها الرعب الفيككتورى من الفوضى الاجتماعية ومن تحلل «الجنس الإمبريالى». ومن ثم، أصبح الجنس التابو الأعظم، وكانت المجتمع ينظر نظرة متعصبة إلى كل ما يتعلق بالجسد أو العرى حتى وصل الأمر بالمجتمع المتحضر إلى تغطية أرجل آلات البيانو بالقماش حتى لا ترى عارية. غدا القانون الأخلاقى صارما وأصبحت العذرية هى المثال والأسرة مقدسة إلى أبعد مدى، أما المرأة الساقطة التى تم التغرير بها فكانت مدعاة لأشد أنواع الاحتقار. وقد أدى الحظر الشامل على كل ما يتعلق بالجنس إلى جهل لا يمكن تصديقه فى جميع مستويات المجتمع حتى أن طبيباً من أكسفورد أعلن أن تسعا من بين كل عشر نساء لا يبالين بالجنس أو ببغضنه بالفعل. أما الجزء الباقى من النساء، واللاتى يتمتعن به، فهن العاهرات». وقد عالج روبرت لوى ستيقنسون بخياله المتألق هذا الاحتشام الفيككتورى فى روايته «الحالة الغريبة» للدكتور جيكل ومستر هايد» عام ١٨٨٦ إذ إنه فى ذروة حملة الطهارة تلك كانت لندن بالفعل مركزاً دولياً للدعارة حيث فاق عدد بيوت الدعارة بها عدد المدارس. وكان الكثيرون من مرتادى هذه الأماكن من النبلاء الذين كانوا أعمدة المؤسسة الأخلاقية أثناء النهار. ورغم الحظر الصارم على ممارسة الجنس قبل الزواج فقد كان كثير من صبية الطبقة المتوسطة والعليا يخبرون أول ممارسات لهم مع الخادومات المقيمات بالمنازل.

كانت تلك هي الأشباح القوطية التي تتحرك في خلفية الواجهة الفيكترية المحترمة، والمحيط المظلم الذي أتى إليه إدوارد لورانس - أو نيد كما كانت تدعوه العائلة - باكيا في الساعات الأولى من صباح ١٦ أغسطس عام ١٨٨٨، ابناً لوالدين غير متزوجين كانا قد اختفيا من حياتهما الأصلية ليعيدا خلق نفسيهما في حياة أخرى. ولد في منزل يدعى جو - فرويا آت تريما دوك - على شاطئ ويلز، قريبا من محطة عبارات دبلن بدرجة كافية توحى بأن عائلة لورانس استقرت في أول مكان مريح قابلها. وربما كان مما يتفق مع شخصية لورانس أن يزهو لاحقا بأنه يشارك نابليون بونابرت - أحد عقليات القرن التاسع عشر الحربية العظيمة - تاريخ ميلاده رغم أن نابليون كان قد ولد في الخامس عشر من أغسطس. وبعد أن اكتسب لورانس شهرته العالمية كبطل حربي قام بإعادة تقييم نابليون ووصفه بأنه «عبقري جلف كان يفعل ما يرضى الغوغاء».

لم يتح الخوف من الافتضاح الذي لازم هرب والديه للعائلة فرصة للاستقرار. فقد غيرا مكان سكناهما بعد سنة من ميلاد لورانس وانتقلا إلى كيركودبرايت على شواطئ اسكتلندا القريبة، ثم أقاما لفترة قصيرة في آيل أوف مان وسانت إيريه بجيرسي، ودينارد في بريتاني - وكانت كلها أماكن بعيدة عن مراكز المجتمع المتمدين حيث بالإمكان التعرف على توماس تشابمان. وفي تلك الأثناء ولد لهما ابنان آخران: ويليام وفرانك. وأخيرا حدثت نقطة تحول في ربيع ١٨٩٤ كان قد مضى على ارتباط توماس وسارا ما يقرب من عقد من الزمان لم تُكتشف خلاله هويتهما المزعومة وكان أولادهما الأربعة يكبرون سريعا وتتولى تعليمهم مربيات. إلا أن الابن الأكبر كان يحتاج إلى الالتحاق بمدرسة محترمة وأيضا إلى حياة أكثر استقرارا. ومن ثم، اقتحما في البداية الحياة في بعض الأقاليم الإنجليزية واستقرا لبعض الوقت في فولى على شواطئ ساوثامبتون، ثم قاما في سبتمبر عام ١٨٩٦ بهجرة حاسمة إلى أكسفورد واستقرا في منزل متسع شبه منعزل حيث ولد ابنهما الخامس آرنولد عام ١٩٠٠.

وكان منزلهما الجديد على شكل قلعة مصغرة من الطوب الأحمر ذا نوافذ ناتئة وتحصينات طبقا للأسلوب القوطي الفيكترى. ولو كان الشارع الذي قطناه جزءا



من مجتمع أكثر عراقية لتمييزت العائلة، إلا أنه كان يرجع إلى عام ١٨٩٠ فقط وكان يسكنه مغتربون مثلهما. لم يشك أحد في حقيقة أمرهما، على الأقل خلال حياة توماس كما لم يتأثر الأولاد. ومن الواضح أن عدم شرعية ميلاد لورانس لم تكن مصدرا للذنب أو الخجل إلى أن تكونت شخصيته. بيد أن هذا كان مدعاة إلى توتر كبير لتوماس وسارا وكان رعبهما من اكتشاف سرهما سبب امتناعهما عن الدخول إلى حياة اجتماعية نشطة حتى إنهما تحاشيا حفلات الشاي الأنيفة المتزمته التي كانت تقيمها أرامل هيئة تدريس جامعة أكسفورد. واستقرت الأسرة في حياة داخلية منعزلة. وقد قال عنهم أحد جيرانهم لاحقا إن الأسرة لم تكن تتجول كثيراً في أكسفورد وكان لديهم بعض الأصدقاء شديدي الإخلاص. وكانوا دائماً سعداء يتبادلون الفكاهة والنكات التافهة. إلا أن مسر لورانس كانت تتولاهم جميعاً بالطبع.

وكانت سارا لورانس تتولاهم جميعاً داخل المنزل بسوط من حديد. وقد لاحظ أحد الأصدقاء أنها كانت أسرة إلا أنها كانت مصدر خشية الآخرين إلى حد ما حيث إنها كانت تمارس تحكما مفرطاً في جميع التفاصيل المنزلية. أما من حيث المظهر، فكانت صغيرة الحجم، أنيقة لها رأس جميل ويدان وقدمان صغيران، وشعر أشقر كث وعينان زرقاوان صافيتان ثاقبتان وفك يوحى بالإصرار. كانت حركتها دقيقة وكلامها واضحاً مدروساً ومظهرها نبيلاً. وكانت تنظر مباشرة إلى من تخاطبه بأعين مفتوحة وتعبير ساحر، ولا يفوتها شيء، وكانت ملاحظاتها ذكية وذاكرتها هائلة، ولها قوام يشع سلطة. كانت أيضاً حريصة تصنع خبزها وتطعم العائلة العصيدة التي كانت تعدها بعناية وتطهوها على نار خافتة طوال الليل. أما أسلوب العمل في المنزل فكان هو أسلوب سارا فقط ولم يسمح للخدم أو للأطفال بالنقاش. لم تكن تسمح بإهدار أي شيء من المأكولات أو الفضلات. ونظراً لمعلوماتها الموسوعية عن النباتات فقد كانت تزرع أنواعاً غريبة من الخضروات ولا تكل من زراعة الحديقة وتقدم الحبوب للآخرين لزراعتها وتنتظر النتائج. أيضاً، كانت سارا قارئة نهمة تتكلم الفرنسية وتكتب مراسلات صحيحة بنفس الخط الذي كانت تكتب به حسابات بيتها الدقيقة. وإضافة إلى كونها ذكية، وعنيدة، ومترئسة، أو كما وصفتها إحدى جاراتها بأنها بدت وكأنها تعلم

كل شيء، كانت أيضاً كريمة إلى حد الإفراط، قادرة على العطاء والتفاني، وبالنسبة لمن أحببتهم، كانت صديقة حقة مخلصه. ورغم عدم شعورها بالاسترخاء التام في حضرة من هم أسمى منها اجتماعياً، إلا أنها كانت بالتأكيد أوتوقراطية متعنتة مع الآخرين جميعاً.

وكانت الدنيا بالنسبة لسارا إما سوداء أو بيضاء، صواب أو خطأ. لم تسمح بمساحة للمناقشة أو بهامش للحوار. أما المعيار الأخلاقي الوحيد فكان الوصايا العشر، والسلطة الوحيدة هي الإنجيل. لم يكن مما يبعث على الدهشة أن تلقى منها مبادئ الحركة الإنجيلية الأصولية القبول. ورغم أن خطيئة الزنا مع توماس ظلت عبئاً تحمّله طوال حياتها، إلا أن مقولة أن الرب يبغض الخطيئة ويحب الخطائين كانت تذكرها بأنه مازال هناك أمل في الخلاص. كانت تستبصر هذا الطريق من خلال أطفالها الذين أنجبتهم من علاقتها الخاطئة وجعلت مهمتها تربيتهم جنوداً أنقياء للمسيح. وجدت حافزاً مشجعاً لها في شخص أ. و. د. كريستوفر راعي كنيسة سانت آلديت بميدان پيمپروك في أكسفورد. وقد يعزى سبب انتقال عائلة لورانس إلى أكسفورد، إلى اللحاق برعايا هذا القسيس، حيث كانت العائلة قد استمعت إليه في آيل أوف وايت أثناء سكناهم فولى وتركت فيهم رسالة الحب التي بشرها بها أعمق الأثر.

وكان ينظر لرجل الدين هذا كشيخ ذى قدسية حيث كان يقارب الثمانين حينما عرفت أسرته لورانس لأول مرة وعرف عنه رفته وحماسه وحيويته التي كانت تدفعه للخروج في جميع الأجواء وفي أى من ساعات الليل لعيادة المرضى والمسنين. وكانت الأصولية التي اعتنقها كريستوفر، قد تنامت كرد فعل للآراء الناقدة للكنيسة الأنجليكانية الرسمية التي أحبطت الطبقات الفقيرة. كان كريستوفر يدعو إلى تأكيد واضح للمبادئ المسيحية وإلى التفسير الحرفي للإنجيل والعودة إلى الأرثوذكسية المتطرفة للبروتستانتية الإنجليزية التقليدية ومن غير المحتمل أن يكون لورانس وامراته قد اعترفا بسرهما له، إلا أنه من المؤكد أنه أصبح شخصاً عزيزاً شديد التأثير في حياتهما. كانت الأسرة تذهب للصلاة في الكنيسة بشكل منتظم وأصبح توماس عضواً في مجلس الكنيسة ربما نتيجة للمبالغ

السخية التي كان يتبرع بها، وكان كريستوفر أيضا نائب رئيس جمعية الكنيسة للتبشير شديد الزهو بأن كنيسة سانت آلديت قد أمدت المبشرين بكثير من رجالها. وفي الوقت المناسب تولى كل من تيسد وبوب التدريس في مدراس الأحد التابعة لسانت آلديت كما أصبحا عضوان في فرقة الصبية الخاصة بالكنيسة. وكانت غاية طموحات سارا أن يصبحا مبشرين، ومن ثم يخلصان الأسرة من الظروف غير المقدسة لمولديهما.

وبحلول وقت التحاقهما بأكسفورد كانت سارا قد نجحت في أن يقلع لورانس عن الخمر، وطبقا لتعليق سير باسيل بلاكويل لاحقا، فقد اكتسبت عائلة لورانس سمعة الحرص الشديد على الذهاب إلى الكنيسة بانتظام والامتناع عن المسكرات والاقتصار على شرب الماء بشكل صارم حتى بمعايير تلك الأيام القاسية. وأمدت هذه القناعات الدينية توماس براحة روحانية، وأصبح يتلو على أولاده صفحات من الإنجيل يوميا قبل ذهابهم إلى المدرسة ويؤم الصلاة المنزلية يوم الأحد. أما خارج نطاق العائلة فلم يكن له تأثير. كان طويلا ملتجيا متقاعدا. قالت عنه مسز بالارد التي اعتاد ابنها اللعب مع أبناء توماس، أنه كان ودودا ساحرا إلا أن روح القيادة كان مصدرها مسز لورانس حتى إنها عندما سألت ابنها عن سبب تكرار ذكره لمسز لورانس وعدم ذكر زوجها أجاب بأنه مجرد زوج مسز لورانس. ونظراً لأنه كان خجولا يشعر بالاغتراب في مجتمع أكسفورد شبه الأرستقراطي، فنادر ما كان يعبر عن مشاعره. رأى البعض أن مظهره كان متميزاً، بينما تذكره آخرون شخصا هزياً تلتف حوله ملابسه كخيال المآة. ظنه البعض غريب الأطوار مثالياً أو حتى معتوها. أما لورانس، فقد رسم لاحقاً صورة رومانسية لأبيه كرجل «ذى شخصية متسعة الأفق، متسامح، ذى خبرة، مهيب، مندفع، له حس فكاهي... «لوردا» بطبيعته، وأنه قبل أن تروضه سارا كان مسرفاً، رياضياً، كثير ركوب الخيل وشرب الخمر». كان توماس «جنتلمان» ينتمى لطبقة الملاك، ورغم قلة موارده النسبية، إلا أنه لم يحتاج إلى العمل أبداً، وكان يقضى أيامه يمارس اهتماماته مثل التصوير وركوب الدراجة وممارسة النجارة ودراسة معمار الكنائس وأحياناً ركوب اليخت واقتناص الطيور في نيوفورست حيث كان قد استخرج تصريحاً بالقنص هناك. ونظراً لوجود وقت فراغ كبير لديه، فقد تمكن من تعليم أبنائه هذه المهارات

مما جعل لورانس يجيد التصوير حتى قبل انتهائه من دراسته . كما أصبح مثل والده مغرماً بركوب الدراجة والمركبات المائية وأعمال النجارة وخبيراً في معمار العصر الوسيط وماهراً في استعمال البندقية . كان توماس يستمتع برفقة أبنائه ويمارس معهم ألعاب الكلمات ويطلع على المجلات التي يقرأونها ويصطحبهم في نزهات للبحث في الحفريات أو آثار العصر الوسيط . إلا أن تأثيره كان أقل بكثير من سارا . كانت شخصياتهما متضادتين لدرجة أن لورانس أرجع أثر «الشياطين التي كانت تراوده» إلى طبيعتهما المتنافرتين . إلا أنه في الواقع لم يكن هناك سوى القليل من الشواهد على التنافر . فطبقاً لكل التقارير ، كانت علاقتهما دافئة وكان الجو المنزلي متآلفاً . ويبدو أن طبيعة توماس المتحفظة كانت تكمل روح سارا النارية ، كما أنه نظراً لحبه للسلام ورقته ، فقد عمد إلى الاحتفاظ بمهاراته الفائقة لنفسه وعبر فقط عن ديلوماسيته وتسامحه ، إلا أن لورانس قدس الصورة التي رسمها بنفسه له كشاب مولع بركوب الخيل العنيف والشراب . كان توماس في جوهره رجلاً سهل القيادة تهيم عليه سارا وكان لورانس دون وعي منه يحتقر افتقاده للسلطة . لذا ، ظل يبحث عن شخصيات أبوية أكثر قوة طوال حياته ، ومن ثم ، كتب إلى اللورد ترنشارد ، أحد هؤلاء ، عام ١٩٢٨ قائلاً «لو كان أبى بمثل حجمك ما تملك الدنيا آذاناً كافية (للاستماع) إلى نزواتي وأفعالي الغريبة» . وظل توماس ، إلى جانب سارا ، شخصية هامشية : سكيراً أقلع عن الشراب يطوى أيامه في مقعده مدخناً ، أو ربما ليقرأ كتاباً ، هكذا تذكرته مسز بالارد .

إلا أن الأسرة كانت تعتمد على دخله . فبعد ميلاد ابنه الثاني بوقت قصير ، أي عام ١٨٨٨ ، وقع اتفاقية تنازل بمقتضاها عن إدارة ضيعته في أيرلندا لأخيه الأصغر فرانسيس مقابل دخل سنوي له قدره مائتا جنيه ، إلا أن لورانس ادعى فيما بعد أن والديه كانا يعيشان حياة شبه فقيرة وتبنى مؤرخ لورانس ، بازيل هارت ، هذه الأسطورة باقتناع . وفي الواقع ، فإن دخل الأسرة من الأموال الأخرى والإرث ربما كان يصل إلى ستمائة جنيه اسرليني سنوياً ، وكان هذا كافياً لجعلهم في وضع اجتماعي متميز . إذ إنه ، فيما بين عام ١٩٠٣ و ١٩٠٤ ، كان عدد سكان بريطانيا ٤٣ مليوناً كان خمسة ملايين منهم فقط يعيشون على دخل يزيد على ١٦٠ جنيهها استراليا سنوياً . وكانت الملايين الثلاثة التي تسراوح دخولها ما بين ١٦٠ ،

٤٠٠ جنيه سنويا توصف بأنها تحيا حياة مريحة بينما كان يقال عمن تجاوزت دخولهم الـ ٧٠٠ جنيه سنويا أنهم أثرياء. ورغم عدم انتماء العائلة للفئة الأخيرة أثناء طفولة لورانس. فقد كان بإمكانهم توظيف خادمتين والاستمتاع بإجازات مكلفة كل عام. فقد تكلفت رحلة لورانس إلى سوريا عام ١٩٠٩، مثلا، ما يربو على مائة جنيه استرليني أى ما يعادل الدخل السنوى لمعظم البريطانيين فى تلك الفترة. أى أنه، طبقا لكل المعايير، سوى الأكثر ارتفاعا، كانت أحوال الأسرة المالية سعيدة إلى أبعد مدى.

قال لورانس، فى وقت لاحق، عن أبيه إنه كان صديقا أكثر منه مصدرا للسلطة، موحيا بمساواة غير معهودة فى علاقات الأبناء بالآباء فى ذلك الوقت. وفى الواقع، كان توماس رقيقا ورومانسيا بدرجة لم يستطع معها ممارسة العقوبات الجسمانية على أبنائه، تاركا هذه المهمة لسارا ذات العزيمة القوية؛ وكان هذا قلبا للروح الساندة فى العصر الفيكتورى. وكان لتربية والدى سارا بالتبنى البيوراتينيين أثر فى استبطانها المثل القائل «وفر العصا، تفسد الطفل» فكانت تعتمد إلى جلدتهم على مؤخراتهم العارية عقابا على العصيان والعناد والكذب معتقدة أنها بهذا تنفذ المشيئة الإلهية. فالأطفال، طبقا لعقيدة المذهب الإنجيلي لا يولدون أبرياء، بل ملوثين بخطايا أسلافهم؛ فأطفال الزنا معرضون لأن يطوروا رغبات جنسية عارمة فى سن مبكر. ومن ثم، كان كلما كبر الأبناء مارست سارا يقظة الصقور تحسبا لأى مظاهر شهوانية لتعمد إلى قتلها فى مهدها. وكانت تحرص على رعيتهى بشراهة وتملك من عرف الانغماس، وتشك فى مكائد النساء وخداعهن. وفى هذا الصدد، تعلق مسز بالارد قائلة إنها لم تكن تريد لأى من أبنائها أن يتزوج حتى إن إيرنى (شقيق لورانس) حينما خطب كتب خطابا إلى مسز بالارد يطلب منها إبلاغ أمه بالنبا.

كانت حاجة سارا للهيمنة على عالمها عمياء، ويائسة، ولا عقلانية. وكان مظهرها المسيطر، العالم ببواطن الأمور يخفى غضبا وألما وشكوكا يتعذر سبر أغوارها. لقد أحست فيكتوريا أو كاميو، التى عرفتها فى شيخوختها، أنها كانت امرأة تغلى بالعواطف الجياشة التى حبستها فى قميص حديدى من تصميمها الذى لا يلين. فقد ترك فيها حرمان طفولتها خوفا مزمنا من النبذ، وفراغا عاطفيا هائلا

كانت تملؤه فقط باستنزاف طاقة واهتمام وتوكيدات زوجها وأبنائها وأى شخص يقع تحت يدها. كان بوب، أكبر أولادها وهو العطوف الخجول المحتشم، أول من أذعن لطلبها النهم للحب والاهتمام، ولم يتمكن قط من الفرار؛ فتبنى فلسفتها الأصولية الدينية ولم يتزوج، وبقي ملتصقا بها بقية حياته. كما أنه كان الوحيد من بين أبنائها الذى حقق طموحاتها وأصبح طبيبا ومبشرا فى الصين، حيث لحقت به سارا بعد وفاة توماس عام ١٩١٩. وحينما زارتها فيكتوريا أو كامپو فى الخمسينيات، وجدتها فى سريرها تعاني من ساق مكسورة، بينما كان بوب، وقد أصبح كهلاً، يقطن الغرفة التى تحتها مباشرة حيث كان يسارع بالصعود إليها، كما لو كان خادماً، حينما كانت تدق الأرض بعصاها. وقد وصفت سارا هذا الترتيب بأنه مريح.

أما نيد (لورانس)، فقد نما لديه فى طفولته رعب من أن تكشف سارا عن مشاعره وقد كتب نيد لاحقاً يقول إنها لو تمكنت من كشفها لفستد مشاعره وانتهكت وكفت أن تكون ملكه. وخلافاً لبوب، كان لورانس ذا مزاج انفعالى، وكانت الضغوط عليه تولد المقاومة حتى إن مدرسيه فى المدرسة كانوا يتراجعون تلقائياً بعد أن يحاولوا إجباره على ما لا يريده. وكان من الحتمى أن ينجم تصادم فى الشخصية بينه وبين سارا، وفى هذا الصدد، كتب لورانس قائلاً: «لم تكن هناك أبداً ثقة بينى وبين والدتى فقد كان كل منا يسعى إلى حماية ذاته كلما التقينا». كان وسارا صورتين متطابقتين تنجذب إحداهما للأخرى وتنفران من تطابقهما. ورغم أنه كان حساساً لرغباتها يتوق لإرضائها إلا أنه كان يعلم يقيناً أنه إذا رفع درعه العاطفى فإنها ستتغلغل داخله وتلتهم استقلاله كما التهمت استقلال بوب. ورغم أنه لم يكن ابنها المفضل، إلا أنها كانت تعقد عليه آمالا كباراً، وكان عليه طبقاً لها أن يكون كاملاً، وشجاعاً، ونبيلاً، وقوياً، ويعمل جاهداً، وصدوقاً، ويحترم الآخرين، ومطيعاً ومحباً، أى «فارساً أبيض نقياً». وقد كشف آرنى النقاب عن أن نيد كان هو من يتلقى النصيب الأكبر من ضرب أمه سارا، وشعر أنها قد أصابته بالأذى بشكل دائم. ورغم أنه لم يحدث أن ضرب بوب أو ويل، وأن آرنى قد ضرب مرة واحدة فقط، إلا أن عناد نيد الدائم كان يؤدى إلى ضربه باستمرار. ولم يكن التبرير الإنجيلي للضرب إلا قناعاً لهذا الصراع على القوة. فلم يحدث

مثلاً أن تم جلد بوب لأنه لم يكن يبدي أية مقاومة فقد كان ووالدته على وفاق تام. أما نيد، فكان يستشير عزمها على كسر إرادته إلا أنها لم تنجح في هذا بل إنها في الواقع أدت إلى تقوية إصراره حيث إنه كان يزداد تصميمًا على عدم الخضوع مع كل ضربة يتلقاها. أصبح منفصلاً عن الألم وعن الجسد الذي كان يتلقى العقوبة، إلا أنه نفي إرادته لدرجة أصبحت معها وحشا ذا حياة مستقلة - أفعى ستؤدى لاحقاً إلى خنق قوته الإبداعية. إلا أن شخصيته كانت في النهاية من صنع سارا بدرجة لا تقل عن أخيه الأكبر. فقد كان الولدان الأكبران يميلان إلى الاستجابة لمتطلباتها بأسلوبين متضادين تماماً - خضوع تام من جانب بوب ومقاومة كلية من جانب نيد - وقد تركت التجربة الجراح في كليهما. وقد قال أحد الأصدقاء أن نيد وأمه كانا صديقين وهما بعيدان، أما إذا اجتمعا لمدة قصيرة، فإنه كان يجد نفسه مجبراً على أن يعاود القتال من أجل حريته العقلية. أما آرنى، الذي كان يصغر نيد باثني عشر عاماً، فقد خاض معارك شاقة ليحرر نفسه من قبضة والدته سارا، إلا أنه مع مرور الوقت نجح في اختيار طريق ثالث، فقد تعود ببساطة ألا يلقي إليها بالاً وكان الوحيد من بين الإخوة الثلاثة الذين نجوا من الحرب والذي تزوج وأنجب طفلاً وعاش حياة تقليدية.

وكان لورانس، في وقت لاحق من حياته، يستأجر رجلاً يدعى جون بروس ليجلده بين الحين والآخر على مدى ثلاثة عشر عاماً، وقد لجأ إلى اختراع مزيج معقد من الأكاذيب كي يفسر ضرورة هذا الإجراء. وقد كشف بروس عن حقيقة أن لورانس كان يجد إرضاء جنسياً من هذه الممارسات. إلا أنه من المحتمل أيضاً أن مثل هذا السلوك كان يعزى إلى الخبرات المروعة أثناء الحرب. وعلى الجانب الآخر، فهناك آثار واضحة لمازوكية لورانس (حبه المرضي لإهانة وتعذيب ذاته) في اهتمامه المبكر بعقاب الذات ونكرانها. فكما هو، تعود أن يصوم، ويظل دون نوم، ويحرم نفسه من اللذة، ويجبر نفسه باستمرار على السير وركوب الدراجة الطويل المضني. وكان أيضاً يمارس الغطس في الثلوج في نهر تشيرويل المتجمد خلال ليالي الشتاء القارسة. ويبدو أن المحتمل هو أن الأزمات العنيفة التي خبرها لورانس أثناء الحرب عملت فقط على تكثيف المازوكية التي كانت جزءاً من تكوينه منذ أيامه المبكرة جداً - والتي انبثقت من خلال علاقته بسارا. فكان الصراع غير

المختل بين الانجذاب والنفور لا يحسمه سوى العقاب الجسماني، ولم يكن بمقدور الضرب القاسي أن يبعد شبح الشبق الجنسي، لكنه كان تعويضا عن الرغبة المحظورة. ومع تقدمه في السن، نما لديه رعب من المشاعر المرتبطة بالفعل الجنسي وأصبح مجبرا على أن يقلل من قلقه بإيجاد الموقف الذي كان يخشاه: فبدلا من الهروب بعيدا عما يتهدهه أخذ يهرب باتجاهه. وقد نصح تشارلوت شو بعد ذلك بسنوات عديدة، قائلا «اعمل على استثارة مالا مفر منه بأشد الأساليب اكتمالا وسرعة». وكان الألم مصدر رعب للورانس طوال حياته طبقا لما كتبه لأخيه لاحقا: «لقد كان أقل القليل من الألم هاجسيا ورعبي الخفي منذ أن كنت صبيا». وقد أكد أخوه آرنى أن خوفه من الألم كان غير طبيعي. ومن ثم، كان يتمكن من توقع ما كان يخشاه ويكتسب قدرا من التحكم فيه عن طريق إيقاع العقاب بنفسه: الغطس في المياه المتجمدة، والصوم، وحرمان نفسه من النوم كي يصل إلى أقصى حدود التحمل الجسدي. وقد يكون لورانس هو الذي كان يعتمد إلى استشارة التصادمات العنيفة مع أمه، لا شعوريا، كجزء من «هروبه القسري إلى الأمام».

لم يكن ما يشعر به من التهديد جسديا فقط بل أيضا نفسيا. فقد كانت أمه تحاول باستمرار سبر أغوار أحاسيسه الدفينة مما تسبب في كراهيته مدى الحياة لما كان يدعوه «الأسرومحاكم التفتيش». وتخير أن يحمي نفسه من هذا التهديد النفسي بالانسحاب العاطفي - باكتساب نوع من التحفظ الذي تجاوز أمه ليشمل كل من تعامل معهم من الأفراد تقريبا. فقد كان يبدو، حتى أثناء طفولته، متباعدا عن مجاميع الأطفال الآخرين وبدا وكأن هناك حزنا دفيناً لا يمكن سبر غوره. وقد لاحظ مدرسه أنه كان صامتا، رابط الجأش غامضا، وكان ثمة ملمح لقوة داخلية لا يمكن الإلمام بها. وكانت معرفته كشاب أمرا عسيرا، وتميز بكونه غير فضولي، مرح لدرجة الصخب أحيانا إلا أنه كان شديد كتمان ما بداخله. وفي هذا الصدد، كتب عنه أرنست التونيان أنه كان ببساطة «لا شخصي، فرد يشق الحياة، تدفعه ما كينة شبه صامتة». وكثيرا ما كانت حاجته لحماية نفسه تظهر في صورة هاجسية ترافقها صور حصار حربي وهجوم ودفاع. وقد كتب في هذا الشأن عن والدته قائلا: «أعتقد أنني أخشى أن أدعها داخل دائرة نفسي المنغلقة ولو بقدر طفيف. فقد كنت أعتقد أنها ما فتئت تحاصرني وأنها ستنتصر لو تركت شقا دون



حماية». وستعاود هذه الصورة عن نفسه كدائرة أو قلعة مكتملة الظهور تكراراً. وحتى كصبي، فقد كان يقص على إخوانه قصة لا تنتهي عن الدفاع عن قلعة بواسطة عرائس حربية ضد حشود الأعداء الهمجيين. كما تظهر هذه الموتيفة مرة أخرى في دراسته عن قلاع الصليبيين في بريطانيا وفرنسا وسوريا التي كرس لها جل شبابه والتي قادته إلى بحثه الذي قدمه للحصول على درجته العلمية. وقد لاحظ سيريل «سكروجز» بيسون الذي رافقه في بعض رحلاته للقلاع في فرنسا أن اهتمامه لم يكن أساساً بالتاريخ الحربي بل بعقول المصممين وقلوبهم والمدى الذي أخضع التاريخ نواياهم للاختبار. وفيما بعد، وضع أسس نظريته في الحروب غير النظامية على المعرفة التي اكتسبها من دراسته لتلك القلاع. وهكذا، فقد كان لهذا النموذج الذي تم تشكيله في الأعماق السحيقة لطفولته أن ينبثق يوماً إلى الضوء كاستراتيجية يستخدمها ببراعة وبدرجة من النجاح الفذ في «الثورة العربية».

قال نيتشه - الذي كان محل إعجاب لورانس الشديد - إن كل روح عميقة تتطلب قناعاً. وكان القناع الذي ارتداه لورانس هو قناع المفارقة. فكان تباعده يخفي شوقاً إلى انتباه الآخرين، وإلى الشهرة والتميز، أي تلك الأمور التي كان يحتقرها ولم يسمح لنفسه بإظهارها. فكان التباعد حاجزاً خلقه في مواجهة العالم الخارجي، ووسيلة لمنع أي أحد من الاقتراب أكثر مما يجب. لم يكن بإمكانه أن يسترخي في حذره إلا في حضرة من هم أصغر منه سناً أو أقل منزلة، ورغم أنه في وقت متأخر من حياته كَوّن علاقات مع العظماء والمشاهير، إلا أنه اعترف لجون بروس - وهو رجل قليل الحظ من التعليم ينتمي إلى الطبقة العاملة - أنه لا يمكن الوثوق بمعظم عليّة القوم هؤلاء. وكان شعوره بأنه غير جدير بالحب مظهراً من مظاهر طبيعته المازوكية، كما منعه رعبه من الفشل من الكشف عن دخليته. ومن ثم، وجد وسيلة أخرى لاجتذاب الناس موظفاً تباعده كأداة لجذب الانتباه، فكان يفصح عن لمحات ما يلبث أن يعتمد إلى إخفائها ويغلف نفسه في عباءة من الغموض الخير. وباختصار، وكما قال السير هارولد نيكلسون عن حق، فقد اكتشف لورانس مبكراً أن الغموض أنباء تتداول. فكان زملاؤه في المدرسة والجامعة ينظرون إليه كشخصية شاذة، وكان يشير حيرة الآخرين بخصائصه غير المألوفة، كأن يصعد

المرتفعات راكباً دراجة ثم يهبط على قدميه ، أو أن يجلس فى قاعات الطعام بالجامعة ولا يأكل شيئاً ، أو أن يتبنى أنظمة غذائية غير مألوفة أو يرفض المساهمة فى الألعاب المنظمة أو أن يصوم يوم عيد الميلاد بينما ينشغل الجميع فى الولايم . وكان هذا البحث عن الاهتمام البالغ فيه ظلاً لتباعده ، والمظهر الاجتماعى لمازوكيته .

وسرعان ما تعلم لورانس أن يغلف كل ما يفعله بالطقوسية والرومانسية ، وقد وجد هذا الأسلوب ناجحاً بشكل ملفت ، ومن ثم عمد إلى شحذه ليجعل منه الشفرة ذات الفاعلية القصوى فى أسلحته . وتعلم منابله الآخرين بواسطة هالة الغموض التى أحاط بها نفسه واختلاق آثار زائفة وتلفيق شباك لا نهائية من الألغاز والأحاجى ، كما أتقن إثارة حيرة من هم موضع اهتمامه بما أسماه المشاكسة غريبة الأطوار أو « الجدية فى غير موضعها » بحيث يستحث فضولهم ، ثم يندفع هارباً بشكل فجائى على أمل أن يتعقبه من هو موضع اهتمامه لمعرفة من هو هذا الشخص غريب الأطوار . وكان القليلون فقط هم الذين استطاعوا مقاومة نزواته . كما منحته نكاته وتهريجه والتوهجات المفاجئة لألمعيته ، أو ممارساته الخبيثة الشيطانية ، مقدرة لا تكاد تخفق على سحر الآخرين والإيقاع بهم حتى إن بازيل ليدل هارت شبهه بالمرأة التى ترتدى الحجاب وتكشف عن صدرها ، هذا ، بالرغم أن ليدل هارت قال عن ميول لورانس الاستعراضية إنها كانت « استعراضية مقلوبة » ، أى الرغبة ، لا فى استعراض جماله ومهارته ، بل لعرض قبحه ومعاناته وخزيه . وكأبعد ما يكون عن عشق الذات ، فقد كتب لورانس قائلاً إنه يحتقر هذه الذات التى يكاد يسمعها ويرأها .



امنحنى النوريا إلهى

سنوات الدراسة

١٩٠٥-١٨٩٦

---

## 2

---

رغم أن أكسفورد كانت

على مدى نصف قرن، وقبل

وصول عائلة لورانس إليها عام

١٨٩٦، آخذة في التغير البطيء،

إلا أن حركتها كمدينة ظلت

بخطوة زمن

عربات الخيل.

كان الرجل الذى حولها فيما بعد إلى مركز صناعة سيارات، أى اللورد نافيلد، مازال يدعى مستر ويليام هنرى موريس مجردا من أى لقب، وكان حينذاك صانع دراجات وصاحب حانوت. وظلت المدينة كما قال عنها جان موريس ورشة تحييطها هالة لا أرضية، مليئة بالحرفيين المحترمين الذين تنبعث أصوات مطارقهم من الحوارى الخلفية، تخالطها طقطقات أنوال النساجين المنبعثة من شارع مجدولين. وكانت القليل من الكليات الجامعية قد اقتنت بعض السيارات إلا أن وسيلة النقل الشائعة فى شوارع أكسفورد كانت كراجات مصانع جعة هول أو موريل. كما كان المفروض ألا تتجاوز سرعة الترامات التى تجرها الأحصنة - كان هناك تسعة منها عام ١٩١٠ - ثمانية أميال فى الساعة كما كان يتم التنبيه على سائقيها بالإبطاء لدى مرور قطعان الماشية والتوقف تماما لدى مرور قطعان الأغنام. كانت أكسفورد مدينة محترمة ذات إيقاع بطيء، مكانا تضاء مساكنه بالكيروسين، بها قوارب للكليات الجامعية، وفرق إطفاء خاصة، وعربات تجرها الخيول، وكان بائعو الحليب مازالوا

يحملون بضائعهم فى مخمضات على عربات يد من مستودع ألبان سانت آلدين كما كان الكتبة الذين يعملون بالجامعة مازالوا يزنون الزبد فى السوق المغطى أمام كلية يسوع، والصبية يرتدون السراويل القصيرة الواسعة المزمومة تحت الركبة والقمصان ذات الياقات المجنحة، والفتيات تركب الدراجات مرتدية فساتين شبيهة بتلك التى كانت ترتديها شخصيات «أليس فى بلاد العجائب»، وبعضهن يمارسن رياضة التنس فى ملاعب الجامعة بمظهر خجول وهن يرتدين التنورات التى تغطى السيقان وقبعات من القش.

سافرت إلى أكسفورد لعلى أستعيد شيئاً من الجو الذى نشأ فيه تى. إى. لورانس، وأتذوق رؤياه لبريطانيا التى حملها معه إلى الصحراء والشرق. ورغم أن الأيام قد ولت، وحل الترام ذو الطابقين محل ترام الأحصنة منذ زمن بعيد، فقد وجدت أن جزءاً كبيراً من أكسفورد بداية القرن مازال باقياً. عفت أمام المنزل رقم ٢ فى شارع پولستيد، الذى قد أصبح الآن مبنى رثا محاطاً بعناية القمامة التى تطفح بمحتوياتها، وتقف سيارات صدئة من ماركة موريس فى الفناء الأسمنتى،

وأجهدت أذنى مخترقا عقودا مضت على أستمع إلى أصوات أبناء أسرة لورانس الكبار، بوب ونيد وفرانك وويل وهم يغادرون المنزل إلى المدرسة كل صباح في ذلك الصيف القانظ المشرق في إنجلترا القديمة قبل أن تغير الحرب العظمى العالم إلى الأبد. سرت في شارع وود ستوك باتجاه وسط المدينة ممسكا في مخيلتي بصورة الأولاد وهم يركبون دراجاتهم صفا واحدا في نظام صارم طبقا لتتابع أعمارهم ويرتدون الملابس الصوفية من ماركة بيرتون القلمة بالأزرق والأبيض والتي كادت تكون زيا رسميا للعائلة. مررت بتلك الفيلات الحجرية الضخمة ذات الدرجات الجرانيتية والأروقة ذات الأعمدة المنمقة والتي كانوا يبصرونها في طريقهم، نفس القصور من الحجر الجيري الأصفر ذات القوانم من خشب الصنوبر، ومررت بقاعة الصلوات القوطية الفيكتورية، في شارع جي. إي، النابعة لكنيسة سانت فيليب، وسانت جيمس في مقاطعة أو ضيعة والتون، ومنها إلى المتراس الأنجلوساكسوني لكنيسة سانت ماكيل في كورنر ماركت. مررت بنفس المحلات القائمة على نواصي الشوارع وبنفس الأكواخ ذات الشرفات، ونفس الحانات ذات الإسمين مثل الحصان والجو كى، والنسر والطفل، وأيضا نفس الواجهات التي تدل على التقشف الإليزابيثي لكليات باليول وسانت جون. ملت يمينا قبيل برج ساكسون وسرت بطول شارع جورج في اتجاه مدرسة الصبية على ناصية شارع نيو إن هول. كان المبنى مازال هناك، لكنه لم يعد مدرسة ولم يعد أيضا يقع في مقابل كنيسة سان جورج كما كان الأمر في زمن لورانس، فقد هدمت الكنيسة وحل محلها دار عرض إي. بي. سي. كان مبنى المدرسة فيكتوريا مهيبا صلبا، ذا أقواس وشرفة كنسية نقش على جانبيها الشعاران اللاتينيان: «امحني القوة يا إلهي» و«الحق هو القوة». قضى لورانس عشر سنوات في هذه المدرسة. وحلم أثناء وجوده هناك بتحرير العرب من قيد الأتراك العثمانيين حيث كتب قائلا: «كنت أستدعى في مخيلتي آسيا الجديدة التي كان الزمن المتسلط يأتي بها إلينا ببطء، استحوذت فروسية العرب على غريزتي الصبية بينما كنت طالب ثانوى ناكسفورد وفكرت حينذاك أن أجعل منهم أمة». وقد يكون هذا هاجسا غير معتاد لطالب مدرسة لم يسبق أن ذهب إلى الشرق. إلا أن لورانس كان قد عرف الجغرافيا والتاريخ. فكانت دراسته اليومية للإنجيل قد جعلت جبال مدين ومواب Moab وإيدوم Edom



ويهودا والأماكن الأخرى شبه معروفة لديه كشوارع أكسفورد، كما أمده كتاب صغير يدعى «المساعد فى دراسة الإنجيل» بتفاصيل عصرية إذ وجد بين غلافه المتواضعين مسحا للأرض المقدسة وفهارس للنباتات والأزهار والتدييات والزواحف والطيور والأسماك التى وردت فى الإنجيل، وأسماءها بالإنجليزية واللاتينية والعبرية وأحيانا بالعربية. وكفى، تخير جائزتين مدرستين عبارة عن كتابين عن تاريخ مصر. واقتنى بعد ذلك أعمال هنرى ليارد عن الحفريات فى بلاد الشام القديمة ولم تكن تلك الأعمال أكاديمية متحجرة بل مغامرات مثيرة تمثل النظرة الفيكتورية إلى الشرق كمكان للغموض والغرابة والمدائن الخرافية المدفونة تحت رمال الصحراء التى تجوبها قبائل البدو. واكتشف لورانس فى كتابات ليارد كل العناصر التى لا بد وأن الشرق كان يمتلكها: الغرائبية والحسية والفتنة. كان لا يمكن مقاومة هذه الصورة، وظل طيلة شبابه يعى الشرق كعالم مواز، أو كبعد قد يجد الفرصة فى الفرار إليه مستقبلا.

إلا أنه كانت ثمة مهمات مدرسية أقل إغراء يجب الالتفات إليها أولا. ولقد تذكر لورانس أيام دراسته كزمن بانس، ورغم ذلك فقد برهن على كونه سريع التعلم بدرجة غير معهودة حيث تفوق على بوب الذى كان قد علمه القراءة والكتابة. كانت لديه مقدرة مبكرة على تعلم اللغات، وكان يعرف الفرنسية الدارجة منذ الأيام التى قضاها فى بريتانى، وأيضا بعض اللاتينية التى كان يدرسها الأولاد على يد مدرسين متخصصين استعدادا للالتحاق بالمدرسة. وكان يمتلك ذاكرة قوية وأصبح قارئا سريعا قادرا على استيعاب جوهر أى كتاب خلال نصف ساعة طبقا لقوله. فاز بجائزتين فى عامى ١٨٩٦ و ١٩٠٣، ثم حصل على جائزة السنة الخامسة فى اللاهوت رغم زعمه عدم إكمال إجابته كى يعطى لبوب فرصة للفوز وكان مازال فى الفرقة الخامسة. وفى السنة نفسها جاء ترتيبه الثمانين فى امتحانات أكسفورد المحلية. ورغم نجاحه الواضح إلا أن المدرسة لم تستحوذ على اهتمامه لأنها لم تعلمه ما يريد أن يعرفه وكان أن كتب فيما بعد أنها «كانت مضيعة للوقت، بغیضة، غير ذات جدوى، لقد كرهتها وازدريتها».

وربما كان شعوره بعدم الانتماء بين أقرانه أحد أسباب ذلك. فقد نما لديه منذ

أيام الدراسة شعور بالغربة لم يفارقه تماما . . وكتب لاحقا يقول «إن هذه الغربة لا بد وأنها اخترقتني حتى النخاع. فقد شعرت بالغربة في أكسفورد وكذلك في مطاعم الضباط (أثناء خدمتي). كنت أشعر بالاختناق كسمكة تم اصطيادها وتركت في قارب مليء بالسواح». وكشاب، كان لورانس يرى نفسه دوما عملاقا محبوسا في جسد قزم وكان لصغر حجمه ومظهره غير الملفت أن يؤثر في مفهومه عن نفسه طوال حياته. وفي زمن لاحق، كان يستعمل لفظ «كبير» كلاحقة منفصلة ينعت بها من يعجب بهم بما في ذلك الأعمال الفنية والأدبية التي كانت تلقى إعجابه. ورغم ادعائه احتقاره للألعاب المنظمة لأنها تجري طبق قواعد ونتائج، إلا أن ما أدى به حقيقة إلى رفضها كان إحساسه بعدم اللياقة البدنية. أصبح شعاره الشخصي «لا تتنافس أبدا على أى شيء». وقد أثر هذا في أخيه الأصغر أرني لدرجة أنه اعترف بعد سنين أن الحرج اعتراه حينما سأله نيد ذات مرة عن نتيجة سباق كان قد اشترك فيه. ورغم أن إخوته وافقوه ظاهريا على نزوته غير التنافسية احتراماً له، إلا أن صفاتهم الجسمانية غطت على صفاته. فقد كان ويل - الذى كان يصغره بثمانية عشر شهرا فقط وكثيرا ما يقارن به - طويلا، رياضيا، ومثالا للتفوق الجسدى الكلاسيكى. وكانت المقدرة الرياضية التي فاز بمقتضاها ويل بجائزة في كلية سانت جون، تفوقها مقدرة أخيه الأصغر فرانك الذى كسب كأس التحدى في الرياضة حينما كان في المدرسة الثانوية وكان بطلا لألعاب القوى لمرات ثلاث، وقائد فريق كرة القدم ونائب قائد فريق الكريكييت. وقد شعر لورانس بالإهانة بكسر تقاليد الأسرة اللاتنافسية. وفي الواقع، فإن شعاره «لا تتنافس أبدا» كان أحد المظاهر المتناقضة لقناع لورانس الذى حجب به طبيعته التنافسية القوية لدرجة أنه لم يكن يستطيع أن يسمع مديح أحد دون أن يشعر بالتضاؤل. إلا أن تقديره لنفسه كان من الضالة بحيث إنه كان إذا امتدح مباشرة أنكر ذلك المديح كأمر غير مستحق. كان رفضه لمعايير الطبقة الوسطى مظهرا لاستعراضيته المقلوبة، وكان رفضه المشاركة في أى رياضة منظمة أكثر تعبيراته المعلنة لهذا الرفض. وقد يكون من الصعب الآن معرفة كيف كانت البراعة الرياضية في الفترة الفيكتورية / الإدواردية تقترب من القدسية، وكان من المفترض أن الرياضة تولد «العزم الحق»، و«الإنصاف» و«الصحة الجيدة» و«روح الفريق»

و«التهذيب»، تلك الصفات التى كانت وثيقة الارتباط بأسطورة الإمبراطورية. وكان ثمة اعتقاد جدى فى أوساط كثيرة أن بريطانيا تدين بإمبراطوريتها للرياضة، وأن المعارك التى جعلتها إمبراطورية عظيمة قد كُسبت أولا «فى ملاعب مدرسة إيتون». وكانت «حملة الطهارة» فى أواخر القرن التاسع عشر قد أدت إلى تغيير مفهوم الرجولة وحلت القوة الجسدية محل القوة الأخلاقية، والعذرية الجنسية محل النزاهة الأخلاقية. وفى هذا الوقت عرّف أحدهم الذكورة بأنها «الواجب الوطنى، والجمال الأخلاقى الجسدى الرياضى، والتأثير المحبب للعادات الإسبرطية والتحكم فى الذات، واكتساب كل ما هو ذكورى والتخلص من كل ما هو أنثوى، لا إنجليزى، وعقلانى مفرط».

ولمعظم سنى حياته، كان لورانس يقدس الصفات الذكورية لأنه عرف أنه ليس ذكوريا بالمعنى التقليدى رغم قوته الجسمانية العظيمة. ورغم أن الكثيرين شهدوا أنه كان أقوى من معظم من هم فى حجمه ووزنه، إلا أن مظهره وهو شاب لم يترك هذا الانطباع، كما أن حساسيته لهذا الأمر توحى بأنه كان يؤرقه. ففى خطاب لوالدته من فرنسا عام ١٩٠٦، ثمة تلميح دفاعى فى إصراره على أن الناس هناك يقولون إنه أنحف من بوب لكنه أكثر قوة رغم أنهم يفضلون ضخامة بوب على عضلاته هو باستثناء مدام شانيون التى صدمت حينما رأت عضلاته وهو يستحم واعتقدت أنه هرقل. كما أنه تفاخر أنه فى أثناء مسيرته فى سوريا عام ١٩٠٩ بأنه قطع ١٢٠ ميلاً على الأقدام فى خمسة أيام، ثم أضاف قائلاً إن بوب وويل قد يضحكان من ذلك لكنهما لن يفعلا ذلك إن كان عليهما السير متعثرين فى تلك الطرق البشعة. وهناك تقارير كثيرة عن معارك لورانس الجسدية حيث يبدو أنه كان يهزم باستمرار حتى إن ساقه كسرت فى إحدى تلك المعارك بالمدرسة. وفيما بعد، أخبر ليدل هارت أنه لا يوافق على التعارك بالأيدى، كما أنه كتب قائلاً إنه إذا اقتضى الأمر العراك الجسدى فهو مقضى عليه. كما ترد على لسانه عبارات «صبيانى» و«بناتى» كثيراً بدرجة تسترعى الانتباه فى وصفه لمن حوله حتى آخر أيام حياته مما يوحى بأنه كان ينظر لمظهره على أنه خنثوى. وكان وهو فى الثانية عشرة من عمره ذا حساسية نادرة بين الصبية المراهقين، فكان يغمره السرور لرعاية أخيه الوليد آرنى، وكان يقوم أحياناً بغسله فى حوض حديدى وجره فى

عربته إلى ملعب كرة القدم حيث كان يمارس رفاق دراسته الأقوياء هذه الرياضة الذكورية. وحدث حيما تملك الخوف أرني وهو فى الثالثة من عمره من التماثيل فى أحد المتاحف، أن قام لورانس بنحت وجه حجرى وأعطاه إياه كى يحطمه بمطرقة ليطرد الخوف. وكانت تلك استراتيجية مؤثرة إذ أصبح أرني أستاذًا للآثار فى كامبريدج وألف كتابه الشهير عن فن النحت الكلاسيكى، بالإضافة لما يوضحه تصرفه من مقدرة لورانس المدهشة على التوحد مع الأطفال. وكان أرني يعتقد أن مقدرة لورانس الخاصة على معرفة ما تعبر عنه عيون الآخرين نتجت عن فقدان داخلى للثقة، كما وصف كيفية تلبسه صفات الشخصيات التى كان يراها. ومن المفارقات أن هذه المقدرة على الاستجابة بتغيير الصفات كانت أحد مصادر قوة لورانس الفائقة، وكانت أيضا هى ما ميزه عن جنرالات الحرب المتحجرين السلطويين وجعلت منه قائدا عظيما حقا وإن كان غير تقليدى.

وترجع صفات لورانس الحساسة إلى الأثر العميق لشخصية والدته. فورا تباعده، كان يملك مقدرة عظيمة على الصداقة مع الرجال والنساء. وكانت معظم روابطه العميقة مع الرجال. وكانت تلك الصداقات، فى رأى أرني، تماثل فى عمقها الحب الجنسى وقد جعل منها لورانس بديلا لهذا الحب. وحينما كان فى المدرسة أقام صداقة مع رجل أكبر سنا هو لينارد جرير وكان طالبا جامعيا فى كلية سان جون. وكان لورانس يزعم بأنه يكسر قواعد الكلية ويزور صديقه فى مسكنه هناك، وكان الاثنان يحلمان بإصدار كتب جميلة والعيش معا فى طاحونة هواء على لسان بحر تتلاطم عليه الأمواج. وكان جرير، وهو شاعر طموح، ينتمى لتنظيم للرجال الشواذ ولدائرة من الشعراء والفنانين والروائيين عرفت فيما بعد «اليورانيين» (أورانوس هو إله إغريقى وأحد الكواكب السيارة) وكان مصدر وحيها «براءة وجنسانية الصبية الصغار». وكان أحد أعضاء تنظيم الشواذ البارزين لورانس هاوسمان الذى وجدت ستة من كتبه فى مكتبة لورانس الشخصية بعد وفاته مع ثلاثة من أعمال ف. و. رولف الأيروسية المثلية، وكان الأخير أحد أعضاء «اليورانيين» ويحتمل أن يكون لورانس قد عرفه شخصيا أثناء سنوات الدراسة. وكان جرير شاعرا «يورانيا» أعجب لورانس بأعماله بدرجة كافية لأنه يخبره عام ١٩١٠ أنه رغم صعوبة أن يجد ناشرا لأعماله فلا يجوز له أن يزيّفها بأى شعور

بالخطينة أو أى شىء مفرط . وقام لورانس بضم عمل شاعرين آخرين من «اليورانيين» إلى مجموعته التى صدرت فى العشرينيات وحت اسم هنرى سكوت تيوك الفنان «البوراني» كأحد ثلاثة من الرسامين المفضلين لديه . وقد يكون قد التقى بتيوك وهو طالب فى المدرسة بأكسفورد ، وأيضاً يحتمل أن يكون قد جلس إليه ليرسمه إذ إن تيوك كان صديقاً لشارلز بل أمين المتحف الأشمونى وكان رائداً مبكراً للورانس . ورغم أن نظرتهم للحب المثلى ، خاصة بين الرجل الناضج والصبي الصغير ، كانت مثالية - وغالباً ما كان صغار الصبية ينتمون إلى طبقة اجتماعية أدنى - فإنهم نادراً ما مارسوا الشذوذ . وكان الكثيرون منهم رجال دين محترمين . وعلى أية حال ، فقد كان العقد الأول من القرن العشرين زمناً غير موات للشواذ . فقد كان شبح أوسكار وايلد الذى حكم عليه بالسجن لعلاقاته بصبية مكاتب التلغراف عام ١٨٩٥ مازال يلقي بظلال كئيبة على الدوائر الأدبية فى العصر الإدواردى . وغالباً ، فمن المؤكد أن علاقة لورانس بليينارد جرين كانت أفلاطونية . وقد أوحى آرني لاحقاً بأن يكون لورانس قد شارك فى بعض مشاعر الشباب «اليوراني» بقوله إنه كان كثيراً ما يعجب بالجمال الجسماني والرشاقة الحيوانية خاصة لصغار الذكور فى المجتمعات غير المتمدينة .

ورغم أن لورانس كان يحتقر الدور الجنسي للنساء ، فقد تمكن من تكوين علاقات حميمة مع بعضهن أكثر من معظم الرجال الطبيعيين . وكان يشعر بالألفة مع من هن أكبر سناً «من نوع الزوجة وربة المنزل الطيبة والأم» وقد كتبت كلير سيدنى ، وكانت من هذه الفئة ، قائلة إنه كان قادراً على الصداقة العميقة وثيقة الروابط والتعاطف والفهم رغم عدم احتواء العلاقة على أى عنصر مرتبط بالحب . كما أنه لم يبذل جهداً فى سبيل هذا ، فقد كان حضوره غير جسماني ولم يبد أنه كان يعنى حضور المرأة الجسماني . إلا أن سيدنى ، زوج السيدة سميث ، لابد وأنه وعى أن لورانس لم يكن يمثل تهديداً جنسياً لأنه حينما قال بعضهم بوجود علاقة بينه وبين زوجته كان رد فعل سميث هو أن ألقى رأسه إلى الخلف وانفجر ضاحكاً . كان جهد لورانس الأعظم فى طفولته هو محاولة تخليص نفسه من برائن أمه الخائفة ، وظل بعد ذلك بارداً تجاه النساء خاصة من كانت منهن مملكة أو مندفة . كان ذا مقدرة على رفقة النساء من أمثال كلير سيدنى سميث اللاتى لا يرسلن

إشارات جنسية ويتصرف كالرجال. فقد كانت حواجزه الجسمانية تنغلق سريعا بمجرد استشعاره أية إشارات جنسية وكان يفر هاربا إذا أبت النساء التعامل كالرجال. وقد كتب يقول «ليست النساء بمصدر لذة لى، ولم أفكر أبدا مرتين، أو حتى مرة واحدة فى قوام امرأة، بينما تجد أجساد الرجال الساكنة أو المتحركة، خاصة فى الحالة الأولى، صدى فى نفسى مباشرة وبصفة عامة».

كان لورانس ثائرا ضد التقاليد بالفطرة رغم عمق حسه التاريخى. كان مغرما بقوله إن العالم توقف عام ١٥٠٠ بمقدم الطباعة والبارود، كما أنه تظاهر باحتقار عصر النهضة بعقلانيته وتوجهه الإنسانى. وقد سحره كصبرى عالم العصور الوسطى وأصبح اهتمامه بها غراما ألقى بظلاله على واجباته المدرسية. كان يركب دراجته فى أنحاء أكسفورد ويفهم بطبع نسخ ورقية rubbings من التماثيل النحاسية للقساوسة وفرسان العصور الوسطى المدرعين. وحينما بلغ الخامسة عشرة كانت لديه مجموعة من تلك التماثيل المنسوخة من جميع أنحاء جنوب وشرق إنجلترا زين بها غرفة «الإخوة» التى كانوا يتقاسمونها فى رقم ٢ شارع بولستيد. وقد تذكر سيريل «سكروجز» بيسون أنه قد قام بعمل أول مستنسخ تحت إشراف لورانس فى ويزام فى أكتوبر عام ١٩٠٤ وقال «ومنذ هذا اليوم، كنا نقوم برحلات على الدراجة إلى كل قرية تقريبا فى الأقاليم الثلاثة وفى أماكن أخرى أكثر بعدا». وكان لورانس يتابع تنفيذ هوايته بدقة ويجرب طرقا مختلفة. وكان يجوب المكاتب والمتاحف لجمع المعلومات عن الفرسان والقساوسة والسيدات الذين كان ينسخ تماثيلهم ومعلومات مفصلة عن أزياء ودروع العصور الوسطى. وأصبح هاجسه المسيطر هو أساليب أنساب النبلاء، كما جمع التعبيرات المرتبطة بهذه الأساليب وأتقن بطقها وترديدتها. وكان يقوم بجمع لفافات طويلة مسجل بها شعارات الأسر النبيلة ورسومات هذه الشعارات ورموزها بالألوان الصحيحة وبناية فائقة. وكان لورانس يستغرق تماما فى الأدب الرومانسى مثل قصائد تينيسون عن فرسان الملك آرثر، وأيضا الملاحم الفنلندية، وأشعار شارلمان الفرنسية من القرن الثالث عشر. كان بحثه عن الآثار النحاسية يأخذ شكل مسعى مقدس فى حد ذاته، فعلى حين كان الشباب يخرجون للنظر إلى الفتيات فى سوق سانت جايلز، أو فى احتفالات الأعياد، كان لورانس يتابع مسعاه فى السرايب الخلية

والكنائس . وكان لا يلقى بالاً إلى قدسية الأماكن ، ووظف قدراته على الإقناع فى التعامل مع الحراس ، كما حدث عندما أمسك به وبيسون يخرجان من أحد السرايب لكنيسة سانت كروس محملين بالعظام الآدمية ، وقد تذكر ثيوتشوندى ضحكته «الشريرة» وهو يخترق طريقه إلى قطعة نحاسية محطما بعض مقصورات الكنيسة التى اعترضت طريقه . وقد كان إى . إم . فورستر هو أول من أشار إلى التوازي بين مسعى لورانس وراء الآثار النحاسية وبين مغامراته الأثرية اللاحقة فى الشرق ، مشيراً إلى أن القطع النحاسية تم استبدالها ببقايا الآثار القديمة ، والحراس القساة بقبائل البدو المتوحشة .

وكان جوهر اهتمام لورانس بما هو عصر أوسطى محاولته الهروب من ظروف الحياة وإعلان ازدرائه لتقاليد المشهد الاجتماعى البرجوازي الذى كان يعزو إليها علاقته غير المستقرة سارا . وقد أسهمت مشاعر النقص والحزى التى ولدتها العلاقة فى الخجل المؤلم الذى لاحظته غالبية من التقوا به . وقد اعترف هو بأنه كان خجولاً بدرجة غير طبيعية «خجولاً من عدم لياقته ومن مظهره الجسدى وغرابته الانعزالية التى منعتة أن يكون رفيقاً لأحد بل مجرد شخص يتعرف به ، كاملاً ، حاد الزاوية مثل قطعة من الكريستال» . بيد أنه لم تكن ثمة حاجة لأن يشعر بالغرابة أو العزلة فى المدرسة . فرغم خجله ورفضه للألعاب كانت له شعبية حيث كانت عدم لياقته أمراً فى مخيلته هو . وفى الواقع ، فقد لعب الكريكييت ممثلاً عن مدرسته واشترك فى سباقات للسباحة وركوب الدراجات ، وشارك بحماس فى ألعاب أخرى فى فناء المدرسة . ولم تكن تعوزه الصداقات الشخصية ، فكسبى صغير ، كان له صديق يدعى جون سنو ، ثم كَوْن معه سكروجز بيسون صداقة لم تفصم عراها أصبحت ذائعة الصيت وعلى قدر من سوء السمعة نظراً لمغامراتهما المتعلقة بالآثار ونسخ النحاسيات . ورغم أن لورانس كان العنصر المهيمن وصاحب المبادرات لخطتهما ، فقد استرجع بيسون هذا «الرباط الوثيق» بحب . كما ذكر ثيو تشوندى أن لورانس قام بتعريف زملاء كثيرين له فى المدرسة بأسرار نسخ الآثار النحاسية ، وكان هو ضمن هؤلاء ، كما أنه نجح فى إقناعه . وقد أصبح ثيوتشوندى أستاذاً للرياضيات فيما بعد . بأن يؤدى بعمل واجب الجبر نيابة عنه وهو فى السنة الخامسة ، مما يوضح أنه لم تكن تعوزه قوة التأثير . كما تذكر صديق طفولة آخر له

أنه كان مترنسا بأمر الآخرين بأسلوب محجب . وتذكر أيضا بوب لورانس ، الذى كان أكبر منه سنا ، أن لورانس كان من يفود الإخوة فى ألعابهم بوجه عام . وقد وصفه آرني بأنه أحد أكثر من عرفهم لطفًا وقد يكون أكثر الناس جميعًا رقة ورحمة وأنه كان أحد أشد الناس إبهاجًا فى صحبته . كما كتب ميدج هول الذى عرف لورانس فى المدرسة قائلًا إن أية فكرة مؤداها أنه كان طالبًا منعزلاً منقلب المزاج يتحاشى رفة الآخرين هى فكرة بعيدة كل البعد عن الصواب . فهو أياته المثيرة و غرابة أطواره كان يستحيل معها أن يكون غير ذى شعبية . وقد شعر آرني أن موهبة لورانس فى التوحد مع الآخرين وعلى أن يعكس احتياجاتهم ومشاعرهم منحته المقدرة الفائقة على إلهام الآخرين وتمكينهم من نجسب أفضل إمكاناتهم و طاقاتهم .

أما سارا ، فقد اعتقدت أنها أم منفانية وعمدت ، بعد وفاة لورانس ، إلى رسم صورة مثالبه للحياة العائليه ردد صداها «مساعدها» بوب الذى كتب بقول «لقد كانت طفولتنا جد سعيدة ولم يحدث وأن أفسدتها أية مشاجرات بين أى من الأفراد . كان والدانا برففتنا دوما ، مما عاد علينا بالإمتاع والفائدة ، حيث إبهما شاركنا فى تقدمنا وجعلنا من المنزل مكان سلام ، وحططنا لمستقبلنا وتعلمنا وكان لهما أعظم الأثر على حياتنا» . وبالتاكيد ، فقد كانت طفولة لورانس سعيدة من حيث إنه لم يعوزه شىء مادي ، وكان ناجحًا فى المدرسة محاطًا بأصدقاء وأخوة أوفياء كان هو قائدهم دون منازع . إلا أن طفولته لم تكن تنع أضواء زاهية كما توحى الصورة الما قبل رفانيلىة التى رسمها بوب . وبقدم وصف آرني لحة أشد قتامة حيث يقول « كانت هناك بيوريتانية قوية فى الأسرة ، وروح خطينة ، وأمور غير طبيعية . فقد كانت مواضع عدة تابوهات بينما لم تكن كذلك بالنسبة لعقل طفل مما أدى إلى حيرة الأطفال وإلى تشككات وفقدان ثقة فى النهاية» . أما تأكيد بوب بأن نيد تمتع بأيام الدراسة فلا يتفق مع ذكريات لورانس الذى قال «مازال الخوف من المدرسة يطاردنى ؛ هذه العقوبة المعلقة دوما التى جعلت من السنوات بين الثامنة والثامنة عشرة نعاسة مجردة» . وكأبعد ما يكون عن «المتعة والفائدة» التى قد تكون سارا قد تمتعها ، فقد حطمت حياة لورانس وجعلت من المؤكد عدم تمكنه من السعادة أو التحقق . فقد خضعت حاجته لأن يكون مفردًا منفصلاً عنها ،



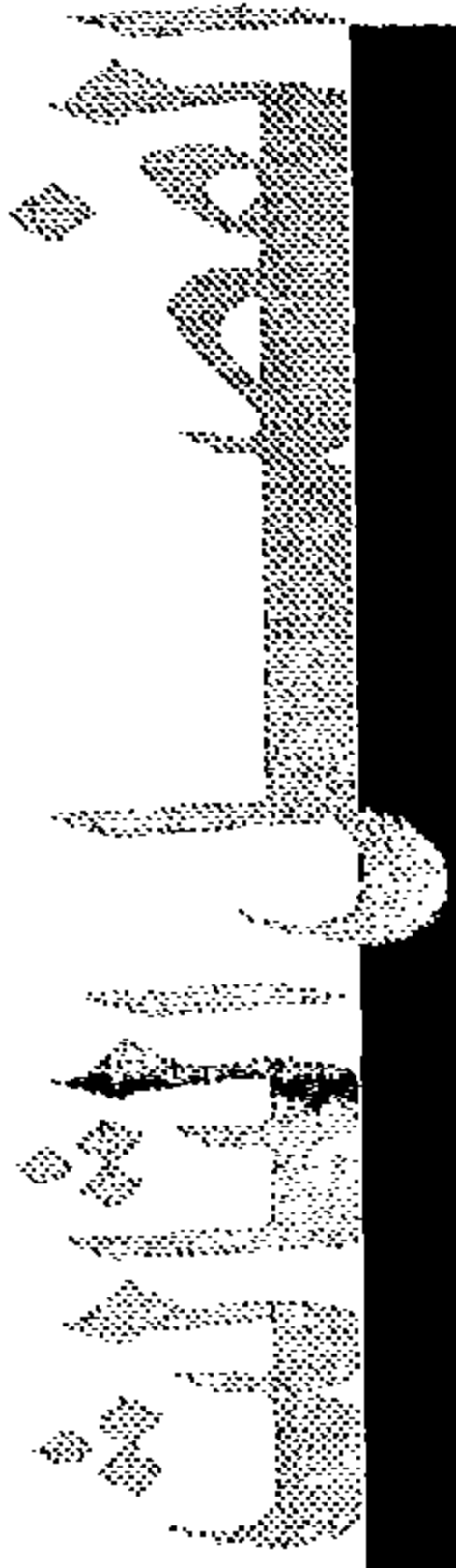
محبوبا ، سواء كان قويا أم ضعيفا ، صادقا أم مخادعا ، مصيبا أم مخطئا ، لاحتياجات روحها الضارية . لم تكن تملك من أمرها سوى هذا . فقد ترسخت فى مخيلتها صورة تلك الفتاة المرتعدة التى لم تعرف أبدا سبب نبذها بذلك الأسلوب الشائن وتركها وحيدة لتقلبات الكون المظلم . لم يُشف ذلك الجرح ، ولم تكن لتسمح لأحد أحبته أن يتركها مرة أخرى أبدا . كان لورانس بحاجة يانسة إلى حب أمه . إلا أنه كان يحتاج أيضا أن ينظر إليه كشخص مستقل . فقد شغفت به أمه كامتداد لذاتها لدرجة أنها نظرت إلى أى تعبير عن التفرد من جانبه كتهديد : لقد كانت القوة التى فرضتها على أبنائها مرعبة . فحينما قرر أنى فى النهاية أن يتزوج عمد إلى إخبار سارا من أثينا ، من مسافة مأمونة . وفى اليوم المفترض لاستلامها خطابها ، استيقظ من نومه فى غشية ولم يدر أين كان ، ثم سار مترنحا فى الحديقة حيث تمكن من جمع شتات نفسه بعد جهد . فنظرا لأنه كان يعلم أن سارا تعارض زواجه بعنف فقد شعر أن تأثيرها قد « غمره برغم المسافة » . فإن كان هذا « عينة » للقوى الروحية التى كانت تنطلق فى مواجهة نيد ، فمن غير المستغرب إذا أن يدافع عن « دائرة استقلاله » . كان كثيرا ما يبغض والدته ولا يتحمل أن يتواجد معها فى نفس الغرفة ، إلا أنه لم يظهر هذا أبدا . فقد ظل سلوكه إزاءها لا تشوبه شائبة لكونها والدته ، وكان يشعر أن من واجبه أن يمثل دور الابن المطيع . أما كعب أخيل فى صراعه معها فكان شعوره بالذنب . فكان يبالغ فى التظاهر بالبهجة وخلق البال فى حصرتها ويكبت مشاعره ويتحدث فقط عما يسره حتى يظهر بمظهر سعادة لا يشعر بها . وكان يعلم جيدا أنه لن يتمكن من إطلاق البطل الذى بداخله حتى يتحرر من سارا . فغدت مهمة حياته الأساسية أن يفر من قبضتها .

وفى وقت ما من عام ١٩٠٥ وصلت الأمور إلى ذروتها . فقد لحق لورانس بأبيه فى صيف هذا العام فى رحلة بالدراجة حول إيست أنجيليا حيث كان يقوم أيضا بنسخ الأثرىات النحاسية وزيارة المواقع الرسمية ، ويرسل التقارير الواجبة الرسمية إلى سارا .

وبعد أن تمتع بهذه الرحلة ، بدأ الفصل الدراسى بأكسفورد فى ظل غمامة من التهديد . فقد رُشح لمنحة لدراسة الرياضيات بجامعة أكسفورد وكانت تلك المادة لا تلقى منه قبولا . فقد أراد أن يدرس التاريخ ولم توافقه سارا التى أحست بغربزنها

أنه يسعى للابتعاد عنها. وأصبح الأمر موضع منازعات ولم تفلح مناوراتها القديمة من وعيد وعنف ومناولة، فقد كان لورانس فى السابعة عشرة ولم تتح له سارا فرصة للمرافقة. وكان مازال متعلقا بأربطة منزرتها وهذا ما كان له أن يؤثر فى مجرى حياته. ومن ثم، قرر أن يتبنى موقفا قاطعا. لم يحاول أن يتصارع معها علنا، فقد حالت تنشنته كجنتلمان إدواردى دون هذا. وتخير بدلا من هذا السبيل الوحيد المفتوح أمام مرافقته المختنقة وكان هو الهروب من المنزل.





---

عامه الأخير بالمدرسة

---

وأعوامه الأولى بالجامعة

---

١٩٠٦-١٩٠٨

---

# 3

---

كان بإمكان لورانس

أن يفر إلى البحر لو أن هذا حدث

من قرن مضى، إلا أنه التحق بالجيش

بدلاً من هذا. وجد لورانس نفسه خلال

أيامه الأولى مدفوعاً في سلاح المدفعية

الملكي يؤدي واجب الحراسة في سانت

جاست بكورنوال، هذا الموقع الذي

يطل على نهر الفال.

وفجأة وجد هذا الفتى الصغير «البنوتة» ذو الصوت الرفيع نفسه يحتك بالصبية الأجلاف ممن نشأوا في شوارع أقل مستوى بكثير من مستوى ضاحية شمال أكسفورد المرفهة. وكثيرا ما راودت فكرة الخدمة بالجيش مخيلته، إلا أنه وجد في الواقع كثيرا مما أسى له. كان الرجال أفظاظا بشكل يبعث على الدهشة، وكان كل حوار ينتهي بالعراك بالأيدى أو ببلطجة جماعية ضد الطرف المستضعف. وطوال ليالى الجمعة والسبت، كانوا يتشاجرون صاخبين مخمورين وكان الخوف يملكه من خشونتهم، وكان كل طابور عرض صباحى يشهد خمسة أو ستة منهم مصابين بإصابات جسيمة. شعر لورانس بالقلق وعدم الاستقرار حينما شاهد زميلا له يشج رأس آخر كان قد سرق أحد منعلقاته وكان هذا المشهد آخر قشة بالنسبة له، فقام بإطلاع والده على مكانه، وحضر الأب ودفع غرامة إعفاء ابنه من الخدمة.

وفيما بعد، أخبر لورانس ليدل هارت أنه استمر بالخدمة لمدة ستة أشهر، إلا أن

هناك روايات أخرى تذكر أن المدة كانت ثمانية أشهر، أو ثلاثة أشهر ولا بد أن يكون أحد هذه الأرقام فقط صحيحاً. ففي يناير عام ١٩٠٦ حاول لورانس وصبي يدعى هـ. إي. ماثر التجديف في قارب على نهر تشيرونيل أثناء فيضانه والوصول إلى بانبرى، إلا أن القارب انقلب. وقد أكدت (سارا) أن نيد وشقيقه ويل قاما بتكرار المحاولة في عطلة عيد القيامة. فإن كان هذا صحيحاً، فمن غير الممكن أن يكون لورانس قد بدأ خدمته العسكرية قبل فبراير بوقت طويل واستمر فيها بعد مارس عام ١٩٠٦. ولا يوجد سجل يوضح أن لورانس قد خدم في المدفعية عام ١٩٠٥ - ١٩٠٦، رغم احتمال استعماله اسماً مستعاراً، كما لم يتذكر أحد من أصدقائه أو إخوانه غيبة طويلة له. وأيضاً فقد كان بالتأكيد موجوداً في أكسفورد لتأدية الامتحانات المحلية النهائية. وانتهى كثيرون من كتاب سيرته إلى أن هذه الحادثة لم تقع أبداً. وقد عثر على لوحة بعد وفاته رسمها له هنري سكوت تيوك، الفنان «اليوراني»، وهو بالزي العسكري واعتبرت هذه اللوحة شاهداً على إقامته

فى قاعدة فالماوث عام ١٩٠٦ . وقد تعرف إيريك كنيجتون على أن شارة الكاب العسكرى التى يرتديها - رغم عدم وضوحها - هى شارة سلاح المدفعية الملكى . وفيما بعد أخبر لورانس أحد معارفه أنه كثيرا ما جلس إلى نيوك ليرسمه . بيد أن تيوك ، الذى احتفظ بسجل للوحاته ، قيد هذه اللوحة بوضوح على أنها رسمت عام ١٩٢٢ ، وكان لورانس قد زار كورنويل فى تلك السنة . أما عنوان اللوحة فكان «بورتريه لجرى» واقتناها رجل يدعى أيضا جرى . ولم يعرف كيف انتقلت اللوحة إلى حوزة لورانس إلا إذا كان هو نفسه «جرى» . فهل قابل لورانس تيوك فى أكسفورد أثناء زيارته لصديقه تشارلز بل ؟ وهل تمت رحلته إلى كورنويل عام ١٩٢٢ بهدف تجديد صداقة نشأت أولا وهو مدفعى عمره سبعة عشر عاما ؟ وكأشياء كثيرة فى حياة لورانس ، فبالإمكان القول إن قصته عن تطوعه المبكر فى المدفعية ليست كل الحقيقة .

وقد اعترف لورانس أن إحساسه بعدم كفايته فى صحبة الآخرين من الرجال دفعه للتعويض بما أسماه «المبالغة» أو خطبته الهواة . وكانت مهاراته فى المبالغة آلية دفاعية أضفت عليه هالة أكبر كثيرا من مظهره فى عالم فنية أكبر منه ، وأقوى جسديا ، وأكثر لياقة رياضيا . ورغم قدرته على تشييد بناء محكم دائم من الزيف ، كما فعل فيما بعد مع جون بروس ، فقد كان يميل ، ليس إلى اختراع ، بل إلى تضخيم ما هو عادى ليجعل منه أمرا ينتمى إلى المنظومة البطولية . وكان تراجعته المخزى قد أفسد إيماءاته المهيبة للتمرد بهروبه إلى الجيش إلا أن لورانس أنقذ هزيمته بأن حول المغامرة إلى أسطورة رومانسية غامضة ، وكان من اللافت أن تدخل فى الأسطورة عناصر العنف والمعاناة والهوان التى داعبت مخيلته . والفانتازيا ، والمبالغة ، والتشويه هى آليات للمازوكية ، وكانت الفانتازيا المتدفقة لتحقير الذات إحدى تعبيرات مازوكية لورانس ، كان يتخيل نفسه وقد استعبد طوال حياته يعمل فى صفوف الجيش كحيوان وسط القطيع ، أو بين النبوذيين يعمل على أرصفة بورسعيد : فقد كتب قائلا : «بدا لى أن هناك نوعا من اليقين فى الهوان .. أمان نهائى .. بإمكان الإنسان أن يرتفع إلى أى علو ، إلا أن هناك مستوى حيوانيا لا يستطيع السقوط أدنى منه» . كان أحد اكتشافاته المبكرة عن البشر أن كلهم تقريبا ، بمن فيهم ، واسعى المعرفة ، يصدقون ما يودون تصديقه ، ومعظمهم يودون



تصديق ما هو رومانسي وليس ما هو واقعي كان هذا كشفاً عظيماً بالنسبة للورانس مكنه من شحذ مهاراته كمخادع إلى أقصى درجة. وفي أحد خطاباته إلى أمه تباهى قائلاً: «من السهولة بمكان أن يكتسب المرء مكانة (زائفة) كباحث في الكلاسيكيات». كان هذا بعد أن تفوه بمقولة لثيوقريطس، كان قد تعلمها لتوه، في أحد الأحاديث أثناء زيارة له للكلية الأمريكية بببيروت. وكان كضابط مخبرات شاب يقرر مبتهجاً أنه «من السهل خداع العاملين بمكتب الحرب فيحترمون شخصاً ما معتقدين أنه «ذو علم خاص إن هو تفوه عالياً بأمر من هذا القبيل». وكانت عملية الزخرفة بالنسبة للورانس هي تحديداً من أجل إحداث مثل هذا الأثر لأنه غالباً لم يكن لديه سبب للمبالغة. ولننظر مثلاً إلى خطابين كتب كليهما في عام ١٩١٢ عن عملية شراء «أجراس جمال» كان لورانس يعرضها بمنزله. أول هذين الخطابين كان بتاريخ ١٨ فبراير ومرسل إلى جيمس إروى فيلكر، والثاني في ٢٠ مارس مرسل إلى والدته. يقول الخطاب الأول: «مرت اليوم في السوق قافلة طويلة من مائة بغل من بغداد.. وكانت تخطو على الرنين الهائل لجرسين عملاقين من الحديد يتأرجحان تحت بطن البغل الذي كان في المقدمة.. فذهبت واشتريت الجرسين، وسرت إلى المنزل منتصراً وأنا أحدث صوت قافلة بغداد...» أما الخطاب الثاني فيرد فيه «التقيت في سوق البهارات بحلب بقافلة جمال آتية تتراقص على رنين اسطوانتين عملاقتين من الحديد تتدليان من بطن الجمل الذي كان في المقدمة، فأوقفت الصف وابتعت الجرسين ومشيت راجعاً إلى الفندق وأنا أحدث صوتاً مثل الصوت الذي كان يصدر عن قافلة الجمال».

لقد كانت الحيوانات إما بغلاً أو جمالاً، وإلا فأحد التقريرين مزيف كما أنه من غير المحتمل أن يكون لورانس قد نسي في غضون شهر أي الحيوانات كانت. وللإنسان أن يسأل «ماذا يهم إن كانت بغلاً أو نياقاً؟»، وليس هناك سبب منطقي للكذب. ولنا أن نستخلص إما أن لورانس كان يستمتع بخداع الآخرين، أو أنه كانت له فكرته الخاصة عما هو حقيقي. وفي الحقيقة، فإن موقفه من الوقائع سيتضح بعد هذا بسنوات حين نصح روبرت جريفز قائلاً إن أفضل وسيلة لإخفاء الحقيقة هي الإتيان بتعبيرات محيرة متضاربة أو مضللة. كما أنه اعترف حين اشتغاله مع العرب أثناء الحرب أنه لم يكن يخبرهم، ولم يكن يخبر رؤسائه

البريطانيين بالحقيقة كاملة، بل إنه كان يقوم بتصميم رواية الحقيقة التي تناسبه. كما كتب قائلاً إنه لا يستطيع القول أين كانت تبدأ الخدعة وأين تنتهى، ويعترف أنه كان يكذب حتى فى رسائله وتقاريره الرسمية ثم أضاف «لابد وأنه كان لدى ميل وقدرة على الخداع، وإلا لما خادعت الناس بهذه المهارة». وقال عنه رونالد ستورز الذى كان يعمل معه عن قرب فى القاهرة إنه «غير مبال فى أحاديثه، وغير مسئول، ومراوغ، ومتعب، ومثير للغضب وفاقد السيطرة. كان يقرر كوقائع أشياء كان يعلم أن أحدا لن يتقبلها - مثله، مثل أى شخص عربى من الشارع وأى عربى من الجزيرة».

وقد يكون انسحابه السريع من المدفعية عام ١٩٠٦ قد حطم وهمه عن نفسه بشأن كونه «الرجل الصلب» الذى تمنى أن يكونه، إلا أن المغامرة نجحت بنجاح كبير فى اتجاه آخر. فلم تحاول سارا بعد ذلك فرض إرادتها عليه أو اللجوء إلى العصا. وبدأت أية حرية شعر بامتلاكها فى السنوات التالية فى اللحظة التى أوضح فيها لأمه قدرته على الانفصال عنها. وقد كتب بعد هذا بسنوات طويلة ذاكرة أن السابعة عشر كانت السن التى وجد فيها نفسه. وكانت الحادثة قد عكرت صفو مسيرة الأسرة الهادئة، وأصبح عليهم أن يحتفظوا بواجهة محترمة أمام المجتمع، ومن ثم، تم احتواؤه سريعاً لدى عودته وطمست الحادثة ومنح، فى مقابل صمته، رغبته فى التقدم بأوراقه للحصول على منحة لدراسة التاريخ، وأدى الامتحانات المحلية ذلك العام فى سلام.

كما سمح له أيضاً أن يقوم برحلة بالدراجة حول الكوت دو نور فى فرنسا التى كان قد أعد لها لوقت طويل مع صديقه سكروجر بيسون. ومن أجل هذا، طلب دراجة جديدة من شركة موريس من طراز خفيف مصمم لهذا الغرض، ذات مقود سباق ولها سرعات ثلاث، وكان يحب أن يذكر عنها فيما بعد، أن اللورد نافيلد الذى كان حينذاك السيد ويليام هنرى موريس مجرداً من أى لقب، قد صنعها بنفسه. كان ركوب الدراجات ظاهرة جديدة نسبياً فى بداية القرن. ورغم أن الدراجة التى تدفعها السلسلة الخلفية، ذات الإطارات الهوائية كانت قد اخترعت قبل عام ١٨٩٥، إلا أنها ظلت رفاهية مكلفة حتى عام ١٩٠٠ حيث تم

إنتاجها بالجملة. وكان توماس لورانس متحمساً للدراجة حتى في التسعينيات حينما كانت الأسرة تقطن دينارد في بريتانى. وكان قد حصل على أول دراجة له وهو طالب عام ١٩٠١. وليس معروفا حتى الآن إن كانت الدراجة التي ابتاعها من أجل رحلته قد صنعت فعلا بأيدي اللورد نافيلد، إذ إن هذه قصة لورانسية نمطية أنكرها نافيلد. إلا أن القصة محتملة نظريا بما أنه كان قد عُرف عن نافيلد أنه كان يقوم بصنع الدراجات في أكسفورد هاى ستريت حتى عام ١٩٠٨. بيد أنه أياً كان الأثر، فلا يوجد رمز أكثر إضفاء للجمال على شباب لورانس من دراجة السبق هذه، والتي تذكرها أصدقائه فيما بعد بوضوح، كما لو كانت امتداداً للورانس نفسه. فتذكر إدوارد ليدز كيف كانت تختفى بسرعة وثقة أعلى الطريق قبل أن تتاح للمرء فرصة كي يستدير وينظر إليها، بينما تذكرت فيثيان ريتشاردز ببهجة كيف كانت الدراجة تنزلق في صمت في إيقلى رود بعد منتصف الليل. وقد قام لورانس بثمانى رحلات بالدراجة إلى فرنسا وقطع آلاف الأميال وهو يركبها.

في الثالث من شهر أغسطس عام ١٩٠٦، غادر لورانس إنجلترا على عبارة إلى سانت مالو وهو منشراح السريرة. فقد انتهت الامتحانات، وكان بعيداً عن والدته. بدا العالم الجديد الشجاع مليئاً بالأضواء. كان غروب الشمس رائعاً، ووقف لورانس يرقبه على سطح العبارة وترك أبياتاً طويلة من الشعر الرومانسى تتلاعب في رأسه. استوعب بهاء القمر منعكساً على الماء. وقد استعاد هذه الليلة كحلم بهيج وهو يغادر إنجلترا بعد ذلك بعشرين عاماً، أى عند بداية أسفاره الاختيارية. أمضى شهراً في الكوت دو نور، وقطع ما يقرب من ستمائة ميلاً مسافراً مع بيسون. كان يقيم في الفنادق، ويتسكع بين أرجاء الكاتدرائيات العظيمة والكنائس وأطلال القلاع العتيقة. وقد انعكست البهجة التي خبرها في كتابات منطلقة في بعض الخطابات التي أرسلها إلى إنجلترا. فقرب نهاية عطلته وصف لوالدته بهاء شاطئ بريتانى في أشعار لكيثس وشيلي، واختتم برسالة ضمنية إلى سارا بأن كل شيء رائع «لأن لا أحد غيره هناك». ويعكس هذا الخطاب حالة قريبة من النشوة، لأن لورانس كان عادة ما يجد سعادة في الإشادة بصناعة الإنسان أكثر من جمال الطبيعة. فخطاباته تحوى أوصافاً للمعمار، والكنائس من الداخل، وكان هذا يستغرق أحياناً صفحات. ورغم أنه كان يسجل هذه الأوصاف

للرجوع إليها شخصيا في المستقبل ، إلا أنه استخدمها في خطابه حاجزا يحجب به عواطفه الحقيقية التي تخلو منها تماما هذه الخطابات باستثناء بعض التعبيرات غير المهمة عن المشاعر الأسرية . وتعتبر خطابات عام ١٩٠٦ نموذجا ممتازا يوضح عزلته العميقة عن أسرته ، وعن الأم التي اعتقدت بعدم وجود أسرار بينهما . فإن كان لابد وأن تعلم سارا كل ما يشعر به ، فليخبرها إذا بكل شيء . غير أنه بدلا من التعبيرات الدافئة التي كانت تتوق إليها ، كان يمنحها فقط حجارة جافة . فعلى حين أن العواطف الإنسانية قد تكون جامحة لا يمكن التنبؤ بها ، فإن المعمار انتصار للنظام والتنظيم البشري ، مزج ناجح للوعي واللاوعي ؛ رمز لمقدرة الإنسان على تغيير الجماد . وقد أكد فيما بعد - بشبه جدية - عدم إمكان وجود عمل إبداعي حق لا تتدخل فيه الأيدي ، وأصبح مقتنعا أن الفعل الإنساني يتم التعبير عنه بشكل أكثر اكتمالا في تطويع المادة سواء كانت حجرا أو طفلا أو جلودا أو صلبا . ومقارنة بالجسد الإنساني الضعيف ، تبدو النتاجات الفنية لصنع الإنسان صلبة باقية . وكانت الرغبة القسرية في الوصف هي الدافع الآخر من الإسهاب الوصفى الذي لا ينتهى . بدا الأمر كما لو أن ما رآه لورانس وما سمعه لم يكن ليصير له وجود موضوعي إلا إذا وصفه لشخص آخر . وقد اعترف في وقت لاحق أن ممارساته الكتابية كانت للتعبير عما رآه وما سمعه بشكل أكثر دقة . ومن ثم ، أصبحت موهبته في الوصف مصدر قوته وضعفه ككاتب : قد كان حسه بالتفاصيل حسا تصويريا ، إلا أن مهاراته كانت تصور الأحداث منفصلة بأسلوب يعوزه الاقتصاد والتتابع .

وفيما بعد ، استنتج جورج برنارد شو أن لورانس كان «أحد أعظم كتاب الوصف في الأدب الإنجليزي» . أما فرانسيس بيتس براون فقد أضاف أن «لهفته على الوصف .. قد تطورت وأصبحت جنونا» .

كان همه الأول في رحلته إلى فرنسا هو قلاع العصور الوسطية ، وكانت جوهرة هذه القلاع قلعة توقويدو ، وهي قلعة من القرن الثالث عشر تقع على تل يطل على وادى الجوير المغطى بالغابات . وصل لورانس وبيسون إلى موقع الآثار بعد أن غادر لانيون عشية عيد ميلاد لورانس الثامن عشر وقضيا ساعات أربع يتجولان بين الآثار وسط شمس ساطعة رعوية . وجد لورانس أثناء تفحصه القلعة

برجا برجاً وحجراً حجراً أنه يمارس لعبة هجوم ودفاع عقلية، ويضع نفسه موضع المحاصرين، ثم قرر وهو يشعر بالانتصار «أنه من المستحيل دخول المكان إذ إنه كان على العدو أن يصنع جسرين كي يصل إلى المدخل. وكان الهبوط إلى الأرض يستلزم النزول من ارتفاع ٤٠ قدماً...» وأعلن أن توقويندو أفضل قلعة رآها وأن وصفه إياها لا يفيد حقها من العظمة. ولم يكن قد أحضر معه آلة تصوير ومن ثم أوكل إلى بيسون مهمة عمل رسوم تخطيطية. وتمتع الصديقان برفقة أحدهما الآخر، إلا أنهما وكما هو محتم، كانا كثيراً ما يتجادلان. واعتقد بيسون أن لورانس كان يقوم بمخاطرات لا داعي لها فكان يقفز على الخنادق بدلاً من أن يستخدم الجسور ويتسلق أسواراً تكثر بها الأحجار المخلخلة وكان حدسه أن هذا لم يكن مرجعه الشجاعة بل حب الاستعراض. وقد تأكد له هذا وهو يرقب ساقى لورانس ترتعدان خوفاً أثناء محاولته جاهداً تسلق بعض الصخور الخطرة، فقدم له يد المساعدة، إلا أن لورانس أزاحها غاضباً. وعلى حين كان بيسون متحمساً للطبيعة لاحظ أن لورانس لم يكن لديه حتى اهتمام تلاميذ المدارس العادى بالتاريخ الطبيعى. وقد يكون هذا قد نجم عن نفور لا إرادى من فكرة التكاثف، وهو أمر سيظهر بشكل أوضح فى حياته فيما بعد، حيث كان ينظر لكلمة «حيوان» على أنها لفظ للسباب يستدعى معه الغرائز البهيمية والعقل اللاواعى. وقد كتب فيما بعد يقول «إن أكثر ما كان يخشاه فى العالم هو «الحيوية الحيوانية». وقد كان لورانس يغتاض من بيسون ويدعوه «جحشاً» حينما كان يتسبب فى إبطاء سرعة سيرهم بالدراجات، إلا أن دراجة بيسون لم تكن ذات سرعات ثلاث مثل دراجة لورانس الذى كان يستعرض تفوقها مزهواً على المسطحات فى إيركوى حيث قطع نصف كيلو متر فى ثلاثين ثانية. بيد أنه لم تكن حتى هذه السرعة لترضيه ومن ثم ألح إلى فاعلية الدراجة البخارية فى أحد خطاباتة إلى أسرته.

وبعد عودة بيسون إلى إنجلترا فى ١٩ أغسطس مكث لورانس هناك أسبوعين آخرين. وقبل سفره تلقى نتائج امتحاناته التى كان ينتظرها بشغف. كانت النتائج ممتازة إذ كان ترتيبه الثالث عشر من أربعة آلاف وخمسمائة متقدم، وجاء ترتيبه الأول فى مادة اللغة الإنجليزية والثالث فى المعلومات الدينية. بدا مكانه فى جامعة أكسفورد مضموناً، إلا أن هذه النتيجة لم ترضه فكتب يقول «بشكل عام،

فالنتيجة ليست جيدة بالقدر الذى كنت آمله». وسيظل عدم الرضا هذا أحد سماته طوال حياته، فمهما بلغ قدر العلو الذى كان يخلق فيه، لم تكن روحه الدائمة السعى للكمال لترضى. فكان يكتب قائلاً: «لا شيء فعلته يبدو لى جيداً بالقدر الكافى.. إنه لشعور مروع بعدم الرضى ينتهى بان أتمنى أنى لم أفعل شيئاً على الإطلاق». وقد ظهر هذا بوضوح فى رحلته بالدراجة. فقد قطع لورانس ٦٠٠ ميل، حتى إنه فى أحد الأيام الأشد قيظاً فى تلك السنة قاد الدراجة ١١٤ ميلاً إلى دينارد ذهاباً وعودة. إلا أن هذا لم يكن ليرضيه. فلدى عودته إلى أكسفورد أخبر سكروجر بيسون أنه واصل رحلته بمفرده «متشوقاً لأن يحقق السرعة التى يرغبها» وقدم «وصفاً متوهجاً لما تحويه نورماندى ووادى اللوار من مواقع يجب مشاهدتها» حتى إن بيسون تملكته الرغبة فى لقائه هناك فى العام التالى. بيد أن خطابات لورانس توضح أنه لم يذهب أبداً بالقرب من نورماندى أو وادى اللوار فى عام ١٩٠٦، وأنه ظل متمركزاً فى دينارد بعد رحيل بيسون حيث كان يذهب للسباق كل يوم تقريباً، باستثناء قيامه ببعض الرحلات الثانوية.

وفى هذا الخريف، وبينما كان لورانس وبيسون يستعدان لامتحان القبول فى أكسفورد، كانت هناك مشاريع إنشائية تنفذ فى أكسفورد خاصة فى شارع كورنماركيت، وفى كليات جامعية مختلفة، وأيضاً فى هاى ستريت. كان لورانس يترقب دوماً احتمال وجود كنوز أثرية. لذا، فقد كان يجوب تلك المواقع كل يوم تقريباً. ويقوم برشوة العمال بقليل من النقود نظير احتفاظهم له بما يجدونه. وبعد شهر من المثابرة تمكن هو وبيسون من اقتناء مجموعة رائعة من الفخار، والأوانى المصقولة، والزجاجات، والأنابيب، والعملات، ورغم أن هذه المقتنيات كانت تنتمى لعصور أحدث مما يروق للورانس، أى للقرنين السادس والسابع عشر، إلا أنها كانت مثيرة بدرجة يمكن معها إهداؤها إلى متحف أشموليان، حيث كان لورانس قد تعرف على وكيل مساعد قسم المحفوظات، لورنادر وولى. وكان وولى، الذى عرف لورانس أكثر من غالبية الآخرين فى فترة ما قبل الحرب، فى الخامسة والعشرين، وكان قد تخرج لتوه فى نيو كويلدج، وبدأ وظيفته التى جلبت له رتبة الفروسية اعترافاً بعمله الفذ كعالم آثار وحفريات. وكان وولى، وهو الإنسان العطوف النشيط الحساس أحد القلائل الذين لم يخضعوا أبداً لسحر شهرة لورانس

اللاحقة، كما اعترف أنه رغم أنه وجد الشاب لورانس ساحراً، وحتى موهوباً، فإنه لم يتعرف فيه على أية عبقرية فذة. وقد وصف معرفتهما المبكرة بأكسفورد بأنها سطحية. وبالمقابل، كان اهتمام أمين متحف الأشموليان به أعظم كثيراً، حتى إنه سرعان ما قبله معاوننا غير رسمي بالمتحف. فكان يوكل إليه مهاماً متفرقة مثل فرز مجموعات طبقات الآثار النحاسية، والفخار. وسرعان ما أصبح لورانس ذا معرفة بمجموعة العصر الوسيط أكثر من موظفي المتحف أنفسهم.

وفي تلك الأثناء، كان قد تقدم للحصول على منحة بكلية سانت جون، حيث كان أخوه الأكبر بوب يدرس الطب، بيد أن لورانس لم يوفق. إلا أنه في يناير التالي نجح في الحصول على منحة ممولة من إقليم ويلز للدراسة بكلية يسوع، وقد نال المنحة لأنه ولد بويلز، وكان قدرها خمسين جنيهًا استرلينيًا لدراسة التاريخ الحديث. وكانت كلية يسوع ويلزية إلى حد كبير لدرجة شعر لورانس معها بضرورة القيام برحلة بالدراجة إلى ويلز في عطلة عيد القيامة عام ١٩٠٧ - وكان لم يرها أبداً - كي يتعرف على مسقط رأسه. ويظهر في خطابه إلى عائلته التي كتبها من هناك نوع جديد من البلاغة، قد يكون مديناً بها لجون راسكين، وكان لورانس قد قرأ له كتاب «حجارة فينيسيا» في العام السابق. وكان راسكين الشاعر أحد مؤسسي حركة إحياء «القوطية الفيكتورية»، كما أنه كان معنياً بانعكاس الروح البشرية في المعمار وقد اعتقد أن دقة الأعمال الحجرية القوطية الحقيقية من العصر الوسيط كانت نتيجة تمتع صناع ذلك العصر بحرية التعبير أكثر من نظرائهم المحدثين الذين فرض عليهم أن يكونوا أصفاراً في خط الإنتاج. وقد حفز أسلوب راسكين (الذي اعتُبر نموذجاً للنشر المنمق لكتاب المجتمع الراقى الفيكتوري) لورانس على محاكاته حيث كتب لدى قراءته راسكين لأول مرة قائلاً: «لدى الآن إدراك ما عن الأسلوب الصحيح لدراسة المعمار، وعن كيفية استخلاص أصدق الدروس منه». إلا أن إحدى أكثر اللحظات إحباطاً في رحلته كانت حينما استمع إلى الشابة صاحبة فندق البليكان بكديويللي وهي تناقش أمره مع عائلتها. إن قلة مناهم الذين يستطيعون الإحجام عن التنصت. أما لورانس، الذي تسبب انعدام صورة داخلية عن ذاته لديه في أن يتلمس معرفة فكرة الآخرين عنه، فقد بذل جهداً ليتنصت على كل كلمة وكتب في تقريره يقول: «كان الأمر

طريفا هنا.. فقد انتهى مجلس العائلة إلى احتمال أن أصبح «شينا ما».. واعتقد أن هذا استنتاج غير مجد.

ذهب لورانس إلى كلية يسوع في ١٢ أكتوبر عام ١٩٠٧، إلا أنه ظل يعيش في رقم ١٢ شارع بولسنيد معظم الوقت أثناء دراسته الجامعة، واتخذ سكنا جامعيًا لمدة فصل دراسي واحد نزولا على نظام الجامعة. وقد اعترف نيو شوندي الذي التحق بكلية كرايست تشيرش في نفس العام، إنه وزملاءه أصابتهم الدهشة لدى معرفتهم أن لورانس تقدم لمنحة دراسية، ليس لأنهم شكوا في ذكائه، لكن لاعتقادهم أنه ليس لديه الالتزام الكافي المتطلب للحياة الأكاديمية. وقد ادعى لورانس فيما بعد أنه لم يحضر أية محاضرات في كلية يسوع، وأنه كان يقضي وقته في القراءات الخاصة التي لم تكن ذات علاقة في أغلب الأحيان بمواد دراسته. وكان أي شيء في التاريخ بعد عام ١٥٠٠ بصيبه بالملل. وكان مفهومه عن العصور الوسطى هو عالم الملك آرثر الفروسي أكثر منه عالم العبودية والطاعون الواقعي. وقد لاحظ المدرس النابه الشاب إل. سي. جين، الذي تولى إعداد لورانس لامتحانات القبول بأكسفورد، وكان ذا شخصية متوترة إلى حد ما، أن لورانس لم يكن أكاديميًا بطبعه. كما لاحظ أن الكتب التي كان يقرأها كانت هي فقط الكتب غير المعتادة، أو بمعنى آخر، تلك التي كانت تتوافق مع حسه بغموض ذاته. كما لاحظ أنه كان متباعدة وكان يأتي بمقولات مستفزة كي يختبر شخصيته. كما اعتقد إرنست بيكر، أن لورانس اختار أن يدرس التاريخ كسياج للقفز من فوقه، ورآه كفارس يتقلد سيفًا استعدادًا للمعركة. أما ميدج هول زميل لورانس في كلية يسوع، والذي كان أكثر قدرة على الملاحظة، فقد تحقق أنه «كان جوالًا لا هدف له سوى التجوال» وكان هدفه الأوحده هو الهروب. واعتقد ريجينالد لين بول، معلم لورانس في مادة تاريخ العصور الوسطى، أنه شخص رومانسي رغم ملاحظته المغايرة بأنه كان يبدأ مقالاته بجملة متحدية، وكان أسلوبًا تعلمه من نصيحة سير تشارلز أومان، الذي سيقوم لورانس فيما بعد بدحض نظرياته عن قلاع العصر الوسيط. وحدث أن كتب لورانس مذكرة إلى معلمه يعتذر فيها من عدم حضوره إحدى حصصه، فأجابه معلمه ببديهة لاذعة قائلاً إن هذا غير ذي أهمية إذ إنه سيتيح له ساعة من العمل المجدي.



لم يشارك لورانس كثيرا في حياة كليته، وجذب إليه الأنظار بانعزاله. وكان رفضه الاشتراك في النشاط الرياضي يشير دهشة البعض. لكنه كان من الحصافة بحيث إنه لم يشارك في الجدل بشأن المراهانات مع المتحمسين من الكلية، فضلا عن أن يسخر منهم بأن يتبعهم في الشوارع وهم في طريقهم إلى الملاعب أو نادى التجديف، ويهزأ من صفاتهم الجسدية. وامتنع لورانس أيضا عن أشياء أخرى. فرفض أن يدخن أو يتعاطى المسكرات، ونادرا ما كان يحضر المآدب الرسمية في قاعة الجامعة. وقد أوضح الأمر لأحد زملائه في الجامعة، ويدعى إيه. جى بريس جونز، فقال إنه لا يجلس على الكراسي إن استطاع هذا، ولا يتناول الإفطار أو الغداء أو شاي الساعة الخامسة أو العشاء، كما أنه لا يقرب الدخان أو المشروبات المركزة وقال جونز: «في الواقع، لم يكن يفعل شيئا يؤهله ليكون عضوا عاديا في المجتمع». وحدث ذات مرة أن لورانس اندفع إلى غرفة ميدج هول وقد ارتسم على وجهه تعبير غريب مضحك مشوه وبدأ في إطلاق الرصاص من النافذة في اتجاه أسفل. وتحقق هول بعد ذلك أن الرصاصات كانت «فشتك» وأن لورانس أراد أن يكون مشهدا تمثيليا رغم ادعائه أنه كان يروح عن نفسه بعد خمس وأربعين ساعة عمل متواصلة دون راحة أو نوم. وقد شغل مسكنا جامعيًا عام ١٩٠٨ أثناء أحد الفصول الدراسية وكان المسكن يطل على السوق المغطى ويعلو مطبخ الكلية حيث كانت روائح طهو الطعام العفنة تهب خانقة على الغرفة. وحين كان الجميع يستعدون للنوم في وقت متأخر، كان لورانس ينشط «مثل القطعة» ويجوب الشوارع المظلمة على دراجته، أو يقطع المربعات السكنية بمفرده. وأثار تجواله الليلي فضول طالب بالفرقة الرابعة يدعى فيفيان ريتشاردز حيث ذهب لبحث حالة طالب الفرقة الأولى المنعزل، وسرعان ما أولع به، وكان ريتشاردز، وهو شاب ذكي، حاد زوايا الجسد، حساس، ابنا لمخترع من ويلز تزوج من أمريكية وكان والده قد قضى حياته يجمع أوسمة التفوق ويسخر من الفن والتاريخ والأدب. وقد أدى افتتاح ريتشاردز بلورانس إلى منعطف آخر فجأة، أى إلى عالم الأشياء القديمة: «القلاع، والكنائس، والنحاسيات التذكارية والأواني الفخارية والكتب ثم الكتب ثم الكتب». ولم يكن بالإمكان تجمع شخصين بهذه الدرجة من الاختلاف: فكان ريتشاردز رياضيا، متعاليا، لا يستهويه الفكر، منتقدا لما حوله، وتقليديا. أما

لورانس فكان زئبقيا، ومتقلبا، وغير تقليدي، ذا ميول عقلانية متطرفة، ومستغرقا في كل ما هو قديم ورومانسي، ورغم هذا، فلدى أول لقاء به كتب ريتشاردز قائلا: «تملكنا ود عميق سريع مازالت حيويته تحرك جوانحي بعد مرور ثلاثين عاما». سيطر هاجس حب لورانس على ريتشاردز فأفاض على محبوبه ودا غير محدود، وخضوعا، وتضحية. إلا أن عاطفته لم نجد لها مردودا. فلم ينجذب إليه رغم أنه كان يتمتع بصحبته التي كان فيها إرضاء لغروره حيث كان ريتشاردز يسبغ عليه عظيم الاهتمام. إلا أنه لم تبد منه بادرة أبدا توحى بأنه فهم طبيعة اهتمام صاحبه به. وعرف أن ريتشاردز شخصية صعبة معقدة، يميل إلى ازدراء ما لا يفهمه، ويرتعد رعبا من الفجاجة التي كان يشير إليها بلاغيا «بالمهنية». أحب لورانس موهبة ريتشاردز الفنية الخبيثة، وكان يسعده أنه يساهم في تنقيتها، إلا أنه تجاهل الطاقة الرهيبة التي كانت تنبعث من ريتشاردز قبالة، محولا إياها إلى مصلحتهما المتبادلة. أحب أسلوب ريتشاردز المباشر وخبر معه ألفة لم يعرفها من قبل. إلا أن العلاقة ظلت بريئة، الأمر الذي أصاب ريتشاردز بالإحباط. وبعد سنوات طويلة، ادعى ريتشاردز أن لورانس غير ذى نزوع جنسي. ويعتبر اعتقاده بأنه لم يكن لدى لورانس أي «حس جسدي» من أي نوع صدى لرأي كلير سيدني القائل بأن «حضور لورانس كاد ألا يكون جسديا». إلا أن أيا منهما لم يستوعب حقيقة كون لورانس مازوكيا، ارتبطت أحاسيسه الجنسية ارتباطا وثيقا بخوفه من الألم. ورغم تفضيله الرجال على النساء، إذ توضح كتاباته المتأخرة انبهاره بفكرة الجنس الإيروسى المثلى، إلا أنه كان يملكه الرعب من حقيقة الألفة الجسدية التي ارتبطت ارتباطا مباشرا بعلاقته المبكرة بوالدته حتى إنه كتب قائلا: «يصيبني الاشمئزاز من التلامس بالغثيان والنفور». كما أنه أخبر إي. إم. فورستر لاحقا «أن تكوينه الجنسي» غريب. وكتب قائلا بخصوص الفعل الجنسي المثلى «أعتقد أنني لا يمكنني أبدا فعله.. فلم يولد في بعد الحافز القوى بدرجة كافية لأن يجعلني المس مخلوقا آخر».

وفيما بعد، أخبر ريتشاردز روبرت جريفز أنه بعد انتقاله إلى مسكن خارج الكلية، كان لورانس يزوره باستمرار هناك بعد منتصف الليل، وقال إنه طلب من ريتشاردز ذات مرة مرافقته في رحلة سباحة مجنونة للغطس في الجليد في نهر

تشير ويل المتجسد كى يكتشفا ما إذا كانت طبقة الجليد رقيقة بحيث يتاح لهما الغطس ثم الخروج من الماء مرة أخرى. وقد رفض ريتشاردز الفكرة على أساس أنها مغامرة سخيفة محفوفة بالمخاطر. إلا أن لورانس انطلق بمفرده وكرر هذا عدة مرات فيما بعد. وقد بين ريتشاردز اعتقاده أن متعة صديقه بهذه الرحلات الغريبة كان مصدرها جزئيا الدهشة التى كان يراها مرتسمة على وجوه التقليديين من الأفراد مثله. وهذه ملاحظة رئيسية فعلى حين كان صوم لورانس واتباعه أنظمة غذائية قاسية وحرمان نفسه من النوم تعبيرات عن طبيعته المازوكية، فقد كانت أيضا أوجها لميول استعراضية مقلوبة إذ إنه لو كان لا يتمرس فقط على قوة الاحتمال لمواجهة المحن المحتملة القادمة «بالمعنى البطولى الكلاسيكى»، لما كان هناك داع لمتفرجين، إلا أن لورانس لم يكن يميل للمعاناة الصامتة، إذ كان لابد من وجود شهود على محنته. وكما يقول ريتشاردز، كانت هذه إحدى سماته طوال حياته، أى السعى وراء صالة عرض خاصة لعرض بطولاته.

وقام ريتشاردز ولورانس معا باستكشاف عالم ويليام موريس، ذلك الصرح التليد للفن والتصميم الفيكترى والذى ترك أثره على لورانس بقية حياته. ومن غير الواضح متى تعرف لورانس لأول مرة على موريس الفنان، وليس سميه ويليام هنرى موريس أو اللورد نافيلد رجل صناعة السيارات. لكن لورانس كان يسكن شمال أكسفورد خلال تسعينيات القرن التاسع عشر، ومن ثم كان من المحال تحاشى السماع عن موريس حيث كانت تصميماته لورق الحائط المزخرف برسوم الرمان أحدث صيحة فى منازل أساتذة جامعة أكسفورد. وكان موريس تحديدا هو نوع الشخص المتعدد الثقافة الموسوعى الذى كان لورانس يتمنى أن يكونه، كان شاعرا متميزا، وروائيا، وحرفيا من الطراز الأول، ومصمما، وطباعا، ورساما، وكان رائدا لفن الطباعة من الأعمال النحاسية، كما أنه طاف بالكاتدرائيات الفرنسية فى الخمسينيات من القرن التاسع عشر، وشق طريقه خلال صحراوات أيسلندا الباردة، وأعاد إحياء العمل الكلاسيكى «موت الملك آرثر» للكاتب مالورى، وكان مصدر إحياء لحركة الفنون والحرف التى تبنت الاشتراكية الراديكالية، وساعد فى تأسيس جماعة «إخوان ما قبل رفائيل» وأنشأ دار كيلمسكوت الشهيرة للنشر والطباعة. وكانت فترة العصور الوسطى هى مصدر

إلهام موريس مثلما كان الحال مع لورانس . وكان هدفه إعادة إحياء روح الحرفية الفردية التي اعتقد أن الزمن الفيكتوري الصناعي قد فقدها . وجعل منه هذا ماردا في نظر لورانس الذي كان كشاب مشغولا دائما بممارسة حرفة ما كالطباعة من الأثريات النحاسية أو نحت الحجر أو الأعمال المعدنية أو نحت الخشب وحتى الحياكة . وعلى حين أعجب ريتشاردز بمثابرة لورانس في ممارسة هذه الحرف ، إلا أن النتائج لم تكن تحوز إعجابه إلا فيما ندر . وذات مرة ، أراه لورانس مصباحا كهربائيا كان قد صنعه من النحاس المطروق وصممه طبقا لنموذج مصباح مغربي مأخوذ عن أحد نقوشات هولمان هانت وكانت تدعى « ضوء العالم » . واعتقد ريتشاردز أن المصباح ردىء . بيد أنه أبدى إعجابه بحفر لشكل كلب بلجيكي كان لورانس قد نفذه على قضيب لمائدة في غرفته . أما بوب ، شفيق لورانس ، فقد كتب قائلا إنه كانت لدى نيد ، حنى وهو طفل ، مقدرة عظيمة على تحسين وإصلاح الأدوات المنزلية . وقد تفاخر لورانس فيما بعد بتلك المقدرة وأسمائها « الاستعداد لصنع وإصلاح الأشياء » . ورغم أن نيد دعا نفسه « جوالا يبحث عن الأحاسيس وفنانا من نوع ما » فقد اعتقد آرنى أن أخاه حرفي أكثر منه فنانا ، واعتقد أن لأخيه حاسة لتقدير الصنعة الجيدة والحامة الجيدة بغض النظر عن القيمة الفنية . وأثناء عمله بالكتابة فيما بعد ، كان لورانس يتصرف كما لو أن هناك تقنية حرفية للتعبير الأدبي التي لو تعلمها المرء لأمكنه الإتيان برائعة أدبية كما لو أن الأمر لا يخرج عن كونه « عملية حسابية » . وكان ماهرا في استعمال التقنية إلا أنه اكتشف أن الأدب العظيم لا يكمن في إتقان « الحيل » ، لكن في قوة الرؤية الإبداعية ، الأمر الذي سبب له قدرا من المرارة . والحقيقة ، أن القوة التي كانت تهيمن على روح لورانس ( أى الإرادة العظمى التي شيدها في مجابهة الجحافل البربرية التي ما فتئت تطرق تخوم وعيه فتستنزفه ) كانت مضادة للإبداع . وهى إن كانت تستبعد العواطف الشاردة ، فإنها أيضا قد أوهنت خصوصية الرؤية المرتبطة بتلك العواطف . فقد كان لورانس شخصا متحكما في ذاته ، عقلانيا بدرجة لا يمكن معها أن يصبح شاعرا أو فنانا أبدا . وكانت مأساة حياته الكبيرة هى اكتشافه أن الإبداع هو فى واقع الأمر تدفقا للجانب المعتم الذى قضى حياته محاولا كبتة .

وقد استوحى لورانس من موريس فكرة إنشاء مطبعة يدوية إذ إنه بدا له وأن

الطباعة هي المهنة المثلى لهاوى الفنون الذى توقع لنفسه أن يكونه فى المستقبل ، ولدى تفكيره فى عمل دائم له كان لا يقوى على احتمال فكرة أن يحدد بمهنة ما أو أخرى . وعلاوة على هذا ، فقد بدا الأمر وأن الطباعة تحيطها هالة روحانية كان لها قبول فى نفسه ، حتى إنه قال لوالدته فيما بعد إن « الطباعة ليست تجارة بل حرفة » .

ومثله مثل موريس كانت الخاصية الحسية للكتاب جيد الطباعة تجذبه ليس فقط من الناحية الجمالية لشكل الطباعة ، بل أيضا الإحساس بالورق ، وبنية التغليف . وتمتلى خطاباته بإشارات نخبوية شبه روحانية لمزايا جلد التغليف الرقى ، ولتعقيدات عملية الحصول على اللون الأرجوانى الجيد من اللون الأحمر الأرجوانى الشامى . وعلى حين اكتفى موريس بمكان فى سوق هامر سميث التجارى ، لم يكن للورانس وريتشاردز أن يكتفيا إلا « ببهو عصر أوسطى » حقيقى . وقد تكون الفكرة قد راودتهما لدى قيامهما « بالحج » إلى « ضريح » لموريس فى بورد كامدن ، حيث كان زوجان يدعيان الكومرسواميس قد قاما بتحويل كنيسة صغيرة من القرن الرابع عشر إلى منزل حشدا فيه أشياء موريس التذكارية ، بما فيها نسخة من أعمال تشوسر « أمير الطباعة الحديثة » التى تم تغليفها تغليفا رائعا فى الاستوديو الخاص « كليمسكوت » . وهناك توفرت لهما ميزة اطلاعهما على المطبعة الحقيقية التى استعملها موريس فى الاستوديو الخاص به فى كليمسكوت والتى كانت مازالت تعمل . وقد تعمد ريتشاردز أن يسجل أن رد فعليهما لم يكن فقط عاطفيا بل « كان حافزا غير عادى للحماس العملى الذى أخذ يتجذر فى عقلينا . فسنقوم نحن أيضا بالطباعة ، وسنحقق المكاسب من هذا كما نأمل بحيث يكون بإمكاننا العيش دون أن ننحنى لأى نوع من المهن » . وأيضا ، حفزت هذه الزيارة لورانس على قراءة رواية موريس « جذور الجبال » وهى رواية خيالية عن قبائل قوطية كانت تحيا جماعيا فى أبهاء وتنام فى أسرة يتم إغلاقها ، وتعقد مجالس شعبية على الطراز الإنجليزى القديم وتحارب بشجاعة فى المعارك . وقد قادته « الجذور » إلى روايات أخرى مثل « البئر التى تقع فى نهاية العالم » و « الغابة الواقعة خارج حدود الدنيا » . ونقلته كل منها إلى عالم أسطورى بطولى . وقد ظل لورانس معجبا بموريس طوال حياته على حين خبت أحاسيسه تجاه الكتاب الأكثر شهرة . وكتب لتشارلوت شو فيما بعد

قائلا: «أعتقد أن كل فرد يحب كاتباً واحداً بدرجة غير عادية ودون تعقل... وأنا أفضل موريس على العالم أجمع» و«إن عقلى يخبرنى أنه ليس كاتباً جيداً، إلا أنه كتب فقط المادة التى أهواها». وقد اعتقد لورانس أن فكرة بهو عصر أوسطى هى فكرة موريسية حقيقية أكثر من «بيت موريس الأحمر» فى آتون. وذات مرة، سحب ريتشاردز معه كى يريه كنيسة صغيرة من الحجر غير مستعملة قرب ويموث كان يفكر فى شرائها. كانت ذات بساطة عارية محببة إلى لورانس «وكانت الفانتازيا الموريسية» قد مارست قوة هائلة على لورانس، رغم أن عصر أوسطية موريس لم تكن حقة بدرجة أكثر من تلك التى تبناها لورانس. وهناك أكثر من تلميح أن للأبهاء الجماعية فى رواية «جذور الجبال» أثراً فى تعلقه اللاحق بحياة ثكنات الجيش، كما ألمح ريتشاردز أيضاً أنه بالنسبة للورانس «كانت خيام الصحراء المصنوعة من شعر الماعز الأسود هى أيضاً أبهاء عذبة مظلمة ذات أعمدة».

غير أن شطحات لورانس أثناء وجوده فى كلية يسوع لم تقتصر على كونها مغامرات فى أجواء عقلانية وجمالية فقط. ففي صيف ١٩٠٨ طلب من ريتشاردز أن يلحق به فى مغامرة مدينية للإبحار فى قناة طاحونة تريل. وتمدنا هذه المغامرة بالصورة الأولى للورانس كمنظم ومنفذ، وهذه شخصية حاول إنكارها لاحقاً. كان لورانس دوماً مهتماً بالقوارب وتسييرها. واكتشف فى سنواته الأولى فى كلية يسوع دلائل على وجود مجرى مائى عصر أوسطى أو قناة طاحونة تريل التى كانت تجرى تحت المدينة. وبعد جهد استطلاعى مدروس توصل إلى أن القناة كانت تبدأ عند فوهة بالوعة مجارى قرب كوبرى هايت، وعزم على أن يتأكد من شكوكه بشأن تدفق تلك القناة فى نهر إيزيس عند كوبرى فولى. وكان ريتشاردز قد أخذ مجموعة من الأصدقاء جمعهم معاً فى قوارب ثلاثة للقيام بهذه المغامرة وكانوا: هيدج هول، وثيوشوندى، وإى. تى. بى ويليامز، وهى. إى ماثر وكان من المتحمسين للرياضات المائية وكان لورانس قد شاركه فى مغامرة فاشلة عام ١٩٠٦. وفى اليوم الموعد، أنزلت القوارب إلى المجارى عند كوبرى هايت وهى مضاءة بالشموع ومصابيح الغاز، وكان النفق شديد الضيق بحيث كان على الشباب أن يقبعوا فى القوارب منحنين إلى الأمام وأذرعهم تلامس جوانبهم لعدم

وجود فضاء كاف . وقال لورانس إنه قد يكون من دواعى التسلية أن يروا أى مصدر للضوء سيخبو أولا وكان الهواء قد أصبح فاسدا ، ثم تعجب بصوت عال عن موقف الفئران التى تحتل المكان ، وأضاف ، وقد أخذت القوارب تنساب فى الظلام «ليس هناك فضاء يسمح لدوران القوارب والعودة بنا» . وكان كيان لورانس وكأنما قد تكهرب بفعل روعة إثارة الخوف التى دفعته مرة أخرى للتظاهر بالشجاعة . أما فى حقيقة الأمر فكان الرعب قد تملكه من انسياب المياه من خلال تركيبات القضبان الأمر الذى كان سيؤدى إلى ارتفاع منسوب المياه وتعطيل القوارب ، أو أن يرتفع منسوب المياه نتيجة لهطول الأمطار المفاجئ فيغرقوا . ولحسن الحظ لم تكن ثمة عوائق أو توقف مفاجئ من أى نوع . وحاول لورانس أن يدارى شعوره بالارتياح بإطلاقه قذائف فارغة من مسدسه أسفل تركيبات قضبان التجارى كى يجذب انتباه المشاة فى الطريق الذى يعلوهم . ثم اندفعت القوارب إلى ضوء النهار بالقرب من كوبرى فولى بعد عشرين دقيقة فقط من الإقلاع .

وبما أن اهتمام لورانس بهذه النشاطات التى تخرج عن نطاق المقررات الدراسية أو بهروبه إلى عالم موريس كان أكبر كثيرا من اهتمامه بالمحاضرات ، فقد كان من حسن حظه أن أدخل الأساتذة המתحنون فى مواد التاريخ فى عام ١٩٠٨ خيار التقدم ببحث عن أى موضوع ذى صلة واعتبار البحث مادة دراسية خاصة . وتحقيق لورانس أنه إذا اختار «التاريخ والاستراتيجية العسكرية» مادة خاصة سيصبح بإمكانه التقدم ببحث عن قلاع الصليبيين يعكس فيه كل ما تعلمه بشق النفس عن الحروب الدفاعية فى العصر الوسيط . وكان قد قام برحلته الثانية إلى فرنسا مع بيسون عام ١٩٠٧ ، والآن ، وفى عام ١٩٠٨ قرر أن يقوم برحلته الثالثة كى يشاهد ما فاتته من قلاع صليبية ويرى بعض الكاتدرائيات التى استلهمها موريس فى خمسينيات القرن التاسع عشر . وقد كان لهذه الرحلة أن تكون أكثر من رحلاته السابقة طموحا إذ إنه كان سيسافر بدراجته عبر فرنسا بمفرده إلى أن يصل إلى البحر المتوسط .

وفى منتصف يوليو وصل إلى الهافر ، وتصارع مع عواصف البرد عابرا جيسور إلى كومبين ، ومن هناك إلى بروفان قرب باريس حيث اكتشف أسوار صد المدينة خربة تنتمى إلى القرن الثانى عشر كادت تتحدى لعبته الذهنية الخاصة بالهجوم

والدفاع. وظل بحوم حول الأسوار ساعات حتى توصل إلى نتيجة أن الأسوار ربما كانت قد أقيمت كتجربة وقرر «أن الصد كان يكاد لا يقوى على الدفاع، ورغم هذا، فالتجربة في جوهرها متقدمة على عصرها بنحو نصف قرن». ثم وصل بدراجته إلى شامبين، وكان يحى على الخبز واللبن والمشمش إذ إن الجو كان قد أصبح حارا بدرجة مخيفة. كان في هذه الأونة يتبع نظاما صارما: يصحو في الفجر حيث يصل إلى القلعة التي يريدتها في منتصف النهار تقريبا ويفحصها لمدة ساعتين. ثم يستمر في رحلته بالدراجة بعد الظهر حتى يعود إلى فندقه في الساعة أو الثامنة مساء. وسرعان ما طغى الإحاح الخض للرحلة على فرحه بوصوله إلى القلاع وأدى إلى خفوته، رغم أنه كان يشغل فكره بنظم صفحات كاملة من رسالته المقترحة وهو يقود دراجته. كانت بلاد الشمبانيا جميلة جمالا مذهلا، وشعر بنفسه يمتلىء طاقة وهو يسير بدراجته في بساتين الكرز وعبر القنوات المتألنة؛ وهو يقطع حقول القمح والشعير الناضج الذهبى بينما يراقب المزارعين جماعات في طريقهم للحصاد، ومناجلهم تبرق في أشعة الشمس كالسيوف، وعربات النبن الضخمة تجرها الثيران البيضاء المصفرة. ثم شق طريقه جنوبا بثبات. وفي أواخر شهر يوليو كان هناك في أوفرني يحاول أن يجد طريقا أسفل المرتفعات المتعرجة البركانية الصارمة الكالحة مارا بحدائق تحوطها أسوار ضخمة من الصخور الجافة، ومتسلقا آلاف الأقدام بصعوبة وهو يواسى نفسه أن أحدا من الزمن الكلاسيكى لم يكن يحلم بمثل هذا العناء - خليط من عذابات سيزيف الذى كان عليه أن يدحرج حجرا أعلى الجبل دون توقف، وتانتالوس الذى حكم عليه أن يمسك بثمر لا يستطيع مطاولتها، وثيشيوس الذى أجبر على أن يظل جالسا إلى الأبد، أما مكافاته، فكانت الاندفاع بالدراجة هبوطا دون توقف من أعلى ارتفاع ٤٠٠٠ قدم إلى وادى الرون. كان هذا الاندفاع محفوفًا بالمخاطر ومثيرا لدرجة شعر معها بالغثيان لدى وصوله إلى القاع. ثم واصل رحلته في إقليم البروفانس وأحراش كامارو الجميلة الموبوءة بالبعوض حيث أصيب بأول جرعه له من الملاريا التى ستظل تزعجه طوال حياته. وأخيرا وصل إلى جبل لى بو المنعزل المغطى بالزيتون حيث نظر بعيدا من أعلى حافة خطيرة عبر السهل. وفجأة راقب الشمس وهى تقفز من خلف سحابة وترسل ضوءها وميضًا فضيا. كانت هذه إحدى أكثر لحظات حياته



إثارة، واحتفى بها بأسلوب لم يكن يملكه سوى شخص من جامعة أكسفورد في تلك الحقبة، حيث صاح بكلمات إكسنافون بصوت مرتفع أزعج بعض السواح القرييين وقال: «البحر.. البحر».

السلطان يحتسى الشاي كعادته

ثورة تركيا الفتاة

# 4

بينما كان لورانس يقود دراجته

في اتجاه الجنوب في طريقه إلى

البحر المتوسط

في شهر يوليو ذاك، قفزت إلى

وجهه عناوين الصحف

التي تحمل أنباء الانقلاب في تركيا.

وكانت الصحف تؤكد أحياناً أن

ثمة ثورة قائمة،

ثم تعود في اليوم التالي لتؤكد

لقرائها أن كل شيء هادئ،

وأن السلطان يحتسى شايه كعادته.

كتب لورانس لوالدته سائلا إياها بإلحاح أن توضح الأمر الذى قد يكون مهما . أما ما كان يحدث فى الواقع فكان بداية النهاية للإمبراطورية العثمانية، هذا العملاق المترنح الذى هيمن على الشرق الأوسط وأوربا الشرقية قرابة خمسمائة عام. وكانت حفنة من شباب الضباط الأتراك قد استولوا على مقاليد الأمور فى الجيش الثالث العثماني فى أوربا فى ٢٢ يوليو. ثم قاموا بتوجيه إنذار إلى السلطان عبد الحميد الثانى (الباديشاه) بأن يمجح البلاد دستورا أو يتنحى. وأيا كان الطريق الذى كان سيختاره، فقد كانت هذه هى النهاية الفعلية لسطوة الطاغية.

كان عبد الحميد يُنعت بـ «عبد الحميد الملعون»، و«السلطان الأحمر» و«عبد الحميد الدموى». وكان قد ترأس لسنوات ممالك عديدة فاسدة مستبدة امتدت من رمال الصحراء إلى تلال فارس. وكان الـ «الباديشاه» (وهو لقبه بالتركية) يصرف أمور مملكته خلف أسوار قصر يلدز وهو محاط دائما بجاحفل الخصييان والأقزام والياوران شبه البكم والراقصات الشركسيات، بصرفها من خلال شبكة عريضة

من الجواسيس وجواسيس على الجواسيس، وكانت الشبكة تتصل به عن طريق أسلاك البرق البالغ طولها آلاف الأميال. وكان القصر نفسه عبارة عن أيقونة لخوفه المرضى المتفرد حيث إنه نادرا ما كان يغامر بتخطي حدود القصر، وفي نطاق تلك الحدود، أنشأ عددا هائلا من الممرات الخفية التي لم يكن يعرف خريطتها سواه. كانت نورات غضب عبد الحميد غير متوقعة لدرجة أن حتى رجال البلاط المتمرسين كانوا يرتعدون في حضرته. كان يتذوق طعامه جماعات من خبراء اكتشاف السموم، وكان أحد خصيانه «يأخذ نفسا» من سجائره أولا. وكان يتم إحضار الحليب الذي يشربه في زجاجات محكمة السدادات بعد أن يحلب من الأبقار التي عليها حراسة مشددة. كان يحتفظ بآلاف المسدسات في أماكن خفية في أرجاء القصر ومنها عدد خبيء في الحمام الإمبراطوري وحدث مرتين أن أطلق النار على شخصين برنين تصادف وقوفهما فروعا، ويقال إن أحدهما كانت ابنته. أما إدارته فكانت قد أصبحت محاكاة ساخرة للإدارات لدرجة أنها ضمت مهرج سيرك، وماسح أحذية، ورجلا يعمل في الأراجوز وابنا لأحد طهاته، وعبدا اشتراه في

السوق المفتوحة. وكان «عبد الحميد الملعون» قد فقد الصلة بالواقع كلية. وكانت الإمبراطورية العثمانية قد استشرى فيها الفساد حتى النخاع ولم يبق سوى دفعة واحدة كي تسقط متهاوية. وقد قام بهذه الدفعة شباب من «لجنة الاتحاد والترقي» الثائرين المتحمسين الذين كانوا في غالبيتهم ضباط جيش تم تدريبهم في أكاديميات السلطان العسكرية. كان هدفهم تحجيم الباديشاه (السلطان) إلى مجرد رمز. ووافق عبد الحميد على منح دستور على أمل الانتقام فيما بعد. فامتألت شوارع إسطنبول بالجموع التي خرجت لأول مرة يتذكرها الناس لتعبر عن بهجتها.

وكان بين هؤلاء الذين احتفوا بتقليص سلطات الـ (الباديشاه) الشريف حسين بن علي أحد الأعضاء الأكبر سناً في الأسرة الهاشمية التي تنتمي إلى الحجاز غرب الجزيرة العربية. وكان الشريف منفياً في إسطنبول تحت رقابة مشددة من قبل جواسيس الطاغية، ولم يكن قد غفر للسلطان أنه قد أمره باغتيال عمه الذي تم طعنه حتى الموت في أحد شوارع جدة عام ١٨٨٠. ولم يتوقف حسين عن التدبير والتخطيط ضد الحكومة إلى أن أمره السلطان في النهاية بالذهاب إلى إسطنبول مع جميع أفراد عائلته التي كان ضمنها أبناءه الثلاثة الصغار. ولا بد أن الذعر قد تملكه لدى مغادرته سفينته إذ إنه كان يعلم أن منتقدي السلطان كانوا عادة ما يجدون أنفسهم في جوال مخيط يلقي به في مضيق البوسفور في الليالي المظلمة غير القمرية. وكان السلطان قد احتجز شقيقه في زنزانه لمدة عشرين عاماً، إلا أنه ولدهشة حسين فقد سمح له أن يعيش في هدوء شديد لمدة خمسة عشر عاماً كان ينتظر خلالها فرصته بحصافة، ولم يغفل لحظة عن عزمه على الرجوع إلى بلاد العرب كأمير لمكة. وكان قد اكتسب احترام من قابلهوه إذ إنه كان شديد التأدب رغم كونه عنيداً متسلطاً وشديد التصميم. وكان في عام ١٩٠٨ رجلاً يبلغ من العمر ما يقرب من خمسة وخمسين عاماً، صلباً، ضئيل الجسم، ذا لحية شعثة، وعينين واسعتين باردتين كعينى صقر. كانت يداه مرهفتين وملامحه حسنة واضحة توحى بهالة بدبعة من النبيل. وكان يرتدى عباءته السوداء، وعمامة أهل مكة المحكمة بوقار وبساطة تليق بمكانته الشريفة. وكان محافظاً ينتمي للمدرسة القديمة، يتحدث التركية بفصاحة أكثر من العربية، وعرف عنه علمه الديني ومعرفته في الشؤون الدولية وحبه للشعر ومعرفته الموسوعية في التاريخ الطبيعي.

وكان أهله الهاشميون أكثر العائلات المبجلة بين المسلمين حيث كان بإمكانهم تتبع نسبهم عبر سبعة وثلاثين جيلا إلى الرسول وابنته فاطمة، وكانوا هم الرعاة التقليديين لمكة والمدينة، تلك المواقع المقدسة في الإسلام والتي كان لتملكها قيمة رمزية حاسمة للباب العالي. ورغم أنه، ولمدة مائتي عام، كان السلاطين العثمانيون يعتبرون (خلفاء) الرسول، فقد كان عبد الحميد أول من استعمل هذا اللقب رسميا. ونظرا لأن إمبراطوريته كانت تنهار، فقد أرتأى أن يلعب بالورقة الإسلامية في محاولته الأخيرة البائسة لتجميع شتات الشعوب المتفرقة بين حدودها. كان السلطان يرتعد من الثورات الداخلية لدرجة أن أثارت القلقة بين الأرمن عام ١٨٨٨ رد فعله المتوتر الفوري. فتحركت جيوشه وأعملت بينهم القتل المنظم: رجالا ونساء وأطفالا: قرية قرية، في محاولة وتصميم لإبادتهم. وعلى حين كان الأرمن أقلية مسيحية، فلم يكن العرب فقط إخوة في الإسلام، بل أيضا كانوا يكونون نصف سكان الإمبراطورية تقريبا أي عشرة ملايين ونصف من إجمالي اثنين وعشرين مليونا، وكانوا أيضا يتفوقون عددا على الملايين السبعة والنصف الذين ينتمون للإثنية التركية. ومن ثم، صمم السلطان على خطب ودهم. فاستدعى العواطف الإسلامية ومنح الوقفيات للمدارس الإسلامية ورقى العرب للمناصب العليا. وفي عام ١٩٠١ بدأ إقامة خط سكك حديد الحجاز بزعم تسهيل الحج. ولم يكن من قبيل الصدف بالطبع أن يعمل خط السكة الحديد على نقوية قبضته على هذه المدن التي كانت جزءا حيويا من الواجهة الإسلامية. وكانت الحجاز تدار رسميا بواسطة عضو ذي منزلة رفيعة من الأسرة الهاشمية الذي كان يعين أميرا لمكة. وتمكن السلطان من الهيمنة على المنصب بنجاح بالنزاع بالتنافسات بين أفرع الأسرة الثلاثة التي كان رجالها مؤهلين ليكونوا أمراء. كانت اللعبة أشبه بالعبة البيزنطية ذات العجلات داخل العجلات، لدرجة كادت معها أن نستعصى على فهم أي أحد خارجها. وقامت لجنة «الاتحاد والترقي» لدى استيلائها على السلطة بتنحية الأمير الحاكم لفساده، وولت مكانه، بعد بعض المداولات، الأمير حسين. وكان الأتراك الشبان قد أرادوا للحجاز شخصا ينحني لسلادته ويحافظ على الأمر الواقع. وقد أقنعت حكمة حسين العملية، واستحوذه على الاحترام على مدى عقد ونصف، الحكومة أنه الشخص المطلوب.

ولابد وأن الشريف حسين لم تفتته المفارقة من أنه، وهو الذى كان قد تم نفيه لمدة خمسة عشر عاما كشخص خطير مخرب يتم اختياره الآن على أساس أنه إنسان محافظ.

رست السفينة «طنطا» فى ٣ ديسمبر من عام ١٩٠٨ فى ميناء جدة وعلى متنها حسين وجميع أفراد عائلته. كان هناك من يختلسون النظر من مساكن الميناء البيضاء بياض الكريستال ونوافذها الشبكية وشرفها المختبئة ذات الطراز الباروكى عبر البوابة البحرية شبه المهدمة، حيث تجمع عدد من الشخصيات الرسمية والعرب المحليين لاستقباله. ووقف الشريف على سطح السفينة «طنطا» حيث أكوام الخزانات البحرية والصناديق والسجاجيد الملفوفة، أو تراكمات خمسة عشر عاما فى المنفى، يراقب أشعة الشمس تومض على قلاع عشرات المراكب الشراعية (الدهو) وهى تشق طريقها فى اتجاه السفينة. كانت المراكب مزدحمة بأفراد تتردد هتافاتهم من أقصى السفينة إلى أقصاها: شيوخ قبائل البدو، والتجار، وأصحاب المراتب الرفيعة والثانوية، والقضاة، وأقرباء العائلة الهاشمية من بعيد: كلهم أتوا كى يشاهدوا الأمير الجديد ويقدموا فروض الولاء إن أمكن. لم يكن للحسين إلا أن يوارى ابتسامة ساخرة، فقد كان سلفه فى الواقع لعبة فى يد الوالى العثمانى الذى كان يسيطر على المدن والجيش والمحاكم، وكان مسئولاً عن الميزانية والضرائب والأمن والدفاع. وعلى المستوى النظرى. اقتصرت مسئولية الأمير على قبائل البدو الجامحة التى لم تكن لتخضع لأحد. أما على مستوى الممارسة، فكان الأمر مختلفاً إذ كان معظم الحجازيين المحليين الذين كان خمسة أسداسهم بدوا رحلاً أو شبه رحل ينظرون للإدارة التركية على أنها سلطة غريبة. كان حسين قد تعلم أساليب منابذة القبائل منذ أن كان طفلاً إذ إنه كان قد شأ فى بلاط عمه الأمير، ومن ثم، كان على اتصال يومى، برؤساء البدو وتمرس جيداً فى التعامل مع القبائل والفصائل، وعلى إدارة دفعة الأمور وسط مشاهات الاتهامات والقذح والتذبذبات والمناقشات التى كانت تشغل يوم الأمير. كان الأتراك يسيطرون على المدن إلا أن المدن كانت تفصلها صحراوات يتحكم فيها البدو. وكان خط سكك حديد الحجاز هو فقط الذى يصل المواقع العسكرية العثمانية بالعالم الخارجى. وكثيراً ما فكر حسين وهو شاب فى العصيان وكان أيضاً ضالعا فى مؤامرة عمه



للقيام بثورة فى عسير الإقليم الذى يتاخم الحجاز جنوبا ، وهو ما أدى مباشرة إلى اغتيال الأمير . كان حسين ماكرا بدرجة كافية ليعلم مزايا خطب ود بريطانيا ، فقد كانت الحجاز تعتمد على الهند البريطانية لاستيراد الحبوب ، كما كان الأسطول الملكى يسيطر على البحر الأحمر . كان معجبا بالبريطانيين لاستقامة تعاملاتهم وصلتهم وكان هذا يتباين مع لسان السلطان المتشعب الثعبانى . وكان ميله للبريطانيين معروفا لدى الباب العالى . ولدى قيام حسين بزيارة السفارة البريطانية فى إسطنبول بعد اغتيال عمه بوقت غير طويل ، حذره السلطان بعنف ونبهه إلى أنه يجب أن يصطاد «فى مياه صحية أكثر» . وفى نفس الوقت ، كان أحد جواسيس الحكومة قد كتب تقريرا وصفه فيه بأنه «عنيد متمرد... ذو مقدرة خطيرة على التفكير المستقل» . وكانت هذه هى المقدرة التى عزم على أن يمارسها الآن كى يعيد إلى مكانة الأمير مجدها الشرعى . وحينما خطى على تراب بلده فى ذلك اليوم من ديسمبر عام ١٩٠٨ ، كانت أحلام الأمير تتجاوز حدود الحجاز بمسافة كبيرة .

حينما توفى الرسول عام ٦٣٢م لم يترك ورثة من الذكور ، كما أنه لم يعين خليفة يتولى من بعده . ولبرهة ، تارجحت كفتا الميزان بالنسبة لمستقبل الإسلام . فقد أوضح محمد ﷺ أثناء حياته أنه «خاتم الأنبياء» ، وآخر سلالة رسل الله إلى الخلق التى بدأت بآدم أبى البشر وتضمنت يسوع المسيح . ولذا ، فالنسبة لبعض أتباعه ، كانت مجرد فكرة «خليفة» له ، أمرا مشكوكا فيه . وفى النهاية ، أعلن المسلمون تفضيلهم لأكبر صحابة النبى سنا ، وهو أبو بكر ، وابتدأ بذلك حكم ما سمي بالخلفاء الراشدين ، وكانوا جميعا من أوائل من اعتنق الإسلام . ولم يكن بينهم من يرتبط بصلة قرابة مباشرة بالرسول . وقد اعتاد الغربيون النظر إلى الخليفة على أنه «بابا» مسلم ، واستمر سوء الفهم هذا حتى القرن العشرين . وفى الواقع ، لم يكن الخليفة مسئولا عن التعاليم الدينية التى كان يقرر شأنها «العلماء» الذين كانوا يكونون إجماعا من أهل المعرفة وكبار السن . أما دور الخليفة فكان سندا دفاعيا أى دورا يوازى دور الإمبراطور الرومانى المقدس بالنسبة للكنيسة الكاثوليكية ، فى العصور الوسطى ، ثم عادت الخلافة عام ٦٦١ إلى سلالة الرسول ، وانتقل مركز السلطة من الحجاز إلى دمشق فى سوريا فى ظل الأمويين . ثم انتقلت العاصمة مرة أخرى بعد قرون إلى بغداد فى ظل العباسيين ، ويعتبر

هارون الرشيد أكثر سلالتهم شهرة. وكان العباسيون متأثرين إلى حد كبير بالفرس، وكانوا منذ وقت طويل قد نبذوا جنود البدو مفضلين عليهم المماليك، وهم طبقة من العبيد العسكريين الذين جلبوا بشكل أساسي من القوقاز. وبفعلهم هذا، بذر العباسيون بذور سقوط دولتهم، فقد كان من الحتمي أن يصبح العبيد أسيادا، وأن يتقلص دور الخليفة ويصبح مجرد لعبة وظيفته إضفاء الشرعية على نظام المماليك. وحينما كسر السلطان سليم الرهيب شوكة جيش المماليك في سوريا عام ١٥١٦، وجد بين المسجونين شخصا لا يوحى مظهره بأية أهمية يدعى المتوكل واتضح أنه آخر الخلفاء من سلالة بنى العباس عم الرسول. ورغم أن سليم الرهيب لم يتخذ لنفسه أبدا لقب «خليفة» فقد اتخذ اللقب ابنه سليمان العظيم (القانوني) الذي امتدت إمبراطوريته من بغداد إلى بودابست واستمرت الخلافة في أيدي الأتراك منذ ذلك الوقت.

وحتى لو أن الخلافة داعبت أفكار حسين، فقد كان يسودها أمر إعلاء شأن عائلته، خاصة أبناءه الأربعة على وعبد الله وفيصل وزيد، الصبي الذي ولد في إسطنبول من زوجة الشريف الثانية الشركسية الجميلة عادلة هانم. وكان الأبناء الآخرون في العشرينيات من عمرهم، وولدوا في الحجاز، لكنهم نشأوا في تركيا نشأة نبلاء الإمبراطورية وتلقوا تعليما جيدا. فكانوا يتحدثون التركية بطلاقة أكثر من العربية وعرفوا الإنجليزية والفرنسية. كانوا شبانا رفيعى الثقافة، (كوزمبوليتانيين) إلى حد كبير، يتحدثون عدة لغات متدينين اكتسبوا مظهرا تركيا. ورغم أنهم كانوا على علم وثيق بحيل البلاط، فلم يعرفوا سوى القليل عن الصحراء مما تنامي إلى سمعهم، أو عن البدو والخيام السوداء وغارات الجمال. ورغم الطموحات التي كانت تحرك الشريف، فمن غير المحتمل أن يكون أولاده الشباب قد تخيلوا وهم يهبطون إلى الشاطئ في شهر ديسمبر ذاك أن الأمر سينتهى باثنين منهم أن يصبحوا ملكين، أو أن أداة رفعتيهما سيكون خريج أكسفورد الشاب الذي كان له أن يخطو على تراب بلاد العرب، والذي كان وقف منذ أسابيع على تل في لين بو وقد تملكته النشوة لدى رؤيته الأولى للبحر المتوسط.



## شاب شبه مرموق

اگسford و سوريا ۱۹۰۸-۱۹۰۹



عاد لورانس من رحلته في فرنسا

وقد امتلأ رأسه بالشرق ، وريتشارد

قلب الأسد ، والحروب الصليبية .

وقد قام حتى بتصوير

نقش عربي على قلعة منثرويل

بليان - التي يفترض أن ريتشارد قد

بناها - واعتقد أن

هذا النقش لم تسبق ترجمته أبدا .

كان قد قاد دراجته مسافة ٢٤٠٠ ميل، وعاش على اللبن والفاكهة، وعاد إلى وطنه وقد لوحته الشمس، وزادت نحافته، منتشيا بفكرة أطروحته عن المعيار العسكري: قائلا «لقد وجدتها»، هكذا كتب إلى سكروجر بيسون «لقد وجدت الأطروحة أخيرا الانتقال من شكل المربع السياجي.. حقا، إنها لأعظم من أن تعبر عنها الكلمات».

كانت له أيضا رؤية عن العصور الوسطى الحقيقية مغايرة للصورة الموريسية الرومانسية لتلك العصور. فقد سحقه الإحساس بالفضاء والضوء في كاتدرائية شارتر - تماما كما كان قد حدث لوليام موريس منذ خمسين عاما. وفي هذا الصدد كتب قائلا: «لقد كان شعور لم أخبره من قبل أبدا... كان كما لو أنى قد وجدت سبيلا... يمتد حتى بوابات السماء، ولتحت ما بالداخل حيث كان الباب مواربا». ومن هذه الكلمات، تشع النشوة الحقيقية التي اجتاحتها، بعد أن تخلى عن الأسلوب الراسكيني المتأنق الذي استعمله في خطابه كي يحدث أثرا في فترة ما

قبل الحرب . كما أنه قد تحقق لأول مرة أن الإيمان المطلق ، لا الحرية كما اعتقد راسكين ، هو الذى مكن حرفيى العصور الوسطى من خلق تحفة مثل كاتدرائية شارتر . فقد كان عالم البنائين فى العصور الوسطى ضيقا جدا ، إلا أنهم امتلكوا اليقين . صلة ما بالرب . . معرفة ما بمكانهم فى الكون . ولم تكن الحرية هى ما فقده الزمن الصناعى حيث كان التقنيون فى النهاية قوة محررة ، بل إنه كان اليقين . فبينما أتى عصر النهضة ، الذى كان يحتقره لورانس ، بالتنوير العقلانى ، فإنه أتى أيضا بالشك الذى سيسميه فيما بعد «تاجنا الحديث من الأشواك» . واختتم لورانس قائلا : «إن كاتدرائية شارتر بالتأكيد هى مشهد العمر . . مكان يستطيع المرء فيه عبادة الرب بحق . كانت العصور الوسطى أكثر صدقا فى هذا منا ، رغم ضيق أفقهم وجمودهم وجهلهم بالحقيقة كما نقول الآن ونحن فى حالة رضى عن النفس . . إلا أن الحقيقة غير ذات أهمية إن كان الناس يعتقدون فَمَا يَفُولُونَ ، أو كانوا على استعداد أن يوضحوا أنهم يعتقدون فى شىء ما» . كانت هذه إحدى

مفارقات حياة لورانس ، أى أنه وهو رجل شديد العقلانية ، كان يستطيع أن يرى أن الإيمان هو كل شيء ، إلا أنه كان عقلانيا بدرجة لم يكن بوسعها الإيمان بشيء . وكان التعبير الكامل عن هذه المفارقة هو حكمه على نفسه بأنه «عاقِل إلى درجة الجنون» . وفيما بعد ، كان يحسد العرب الذين جعلوه يشعر بالتواضع بإيمانهم البسيط . فقد رآهم أناسا مازالوا يعيشون فى اليقين الروحاني للعصور الوسطى : «أناس مازالت ألوانهم أولية» كما كان يقول أو «أن هذه الألوان كانت فقط الأبيض والأسود وكانوا يرون الخط كفاف العالم فقط» . وكان لورانس قد بدأ يفقد إيمانه بالمسيحية بحلول ١٩٠٨ ، وطبقا لإحدى الروايات ، كان قد فقد وظيفته فى مدارس الأحد لأنه قرأ على الصبية إحدى قصص أوسكار وايلد الموصوم . كانت أمه سارا هى من دمرت إيمانه ، كما دمرت كل شيء آخر فى حياته تقريبا . وقد كتب إلى تشارلوت شو قائلا : «إنها تستجدي حبا لها وتحيلنا إلى المسيح الذى تقول إن فيه السعادة والحق . ولا يعنى هذا أنها تجد السعادة .. فهى تسبب لى ولأخى ولأرنى التعاسة العميقة . إننا بلا حيلة ونشعر أننا لا نتسبب أبدا فى إيلا م إنسان كما تتسبب هى فى إيلا منا بطلباتها المستحيلة .. فلا يمكن أن ( نفتح ) حبا لها .. كما لو كان صنبور ماء . كما أن المسيح ليس رمزا بل شخصية أفسدها تلاحم مؤمنين مثلها بها» . وكانت أية ذرة من الإيمان قد تكون قد ملكها يوما ما اختفت وهو فى العشرين عندما كتب يقول : «ليس لدى أى يقين أو عدم يقين باستثناء يقينى بأنه لا يوجد يقين» . وقد اعترف لاحقا أنه بالرغم من أنه «أحاط حياته بأسيجة احترازية بشكل ما أو بآخر فبالإمكان القول إنه ليس بمقدرة الإنسان أن يعرف شيئا حقا» . وهذا يتناسق مع لورانس الذى قال لروبرت جريفز : «إننى أسقط فى العدمية حيث لا تستطيع أن تجد حتى ربا زائفا فى الكون يمكن الإيمان به» . واستبدل لورانس باليقين الإيمانى الحدس أو القدرة العقلانية على حساب كيفية حدوث الأشياء وإلى أين تتجه . وقد منحته هذه الخاصية مظهرا من البصيرة الذى ستصفه كلير سيدنى سميث بعد إضفاء الرومانسية عليه «بالقدرة على التنبؤ» . ولم يملك لورانس بالتأكيد مقدرة سحرية على التنبؤ بالحظ كما تخيلت سميث . فرغم أن حدسه كان أحيانا دقيقا بدرجة مذهلة ، فقد كان أحيانا أخرى خاطئا بشكل بشع . وكان لورانس خبيرا فى انتقاء سبل ممكنة والإبحار فيها ، وكانت له ، وفقا لتعبير لويد



جورج «عبقريّة التفكير المتقدّم التي يسبق بها تسعة أفراد من عشرة». فقد كان الحدس الصحيح، هو ما أخبره قبل رحلته إلى فرنسا بوقت طويل أن قلاع الصليبيين في سوريا سوف تكون الترويج المحتوم لرسالته المقترحة. بيد أن تشارلز بل من المتحف الأشمولي كان هو الذي أرشده في اتجاه موضوع الأقواس والأسقف ذات الرؤوس الحادة والمديبة. وكان مجال الجدل الدائم هو إذا ما كان الصليبيون قد تبنا هذا الشكل من مصادره الشرقية، أم أنهم كانوا هم الذين استحدثوه في الشرق. وقد أهلت معرفته بقلاع العصور الوسطى في بريطانيا وفرنسا تأهيلاً تاماً لمثل هذه الدراسة. واقترح عليه تشارلز بل وجوب زيارته لسوريا ليحسم هذه النقطة حسماً نهائياً.

وعاد لورانس إلى حجرته في شارع بولسنيّد متحسراً على فقدان سكنه في الجامعة، تواقاً إلى الإحساس بالانفصال عن الأسرة. كان يحتاج إلى بعض الهدوء من أجل دراسته، ومن ثم أقنع والديه أن يبنيا له كوخاً صغيراً في طرف الحديقة مزوداً بغرفة مكتب للدراسة وتصله المياه وموقد تدفئة وتليفون. ولكي يعزلها عزلاً مزدوجاً عن العالم الخارجي قام لورانس بتغطية جدرانها بطبقة مزدوجة من رقائق البولون. وكان فيقيان ريتشاردز كثيراً ما يجده هناك راقداً على السجادة بجوار المدفأة وسط طقطقة النيران، يقرأ من كومة كتب أو منكباً على رسم قدمه بعناية. وذات مرة فاجأه صديقه ريتشاردز وهو يخطو ذهاباً وإياباً على لوحة خشبية ذات مظهر غريب دقت فيها مسامير. وشرح لورانس له الأمر قائلاً إنه كان يتمرس على تخطي المسافات خفية، الأمر الذي سيكون ضرورياً لرحلته القادمة. إن رغب أن يتحاشى القبض عليه كجاسوس. كما أن ثمة مؤشرات أخرى على أنه كان بعد نفسه لرحلته إلى الشرق أثناء شتاء ١٩٠٨. فقد بدأ في أكتوبر قراءة كتاب تشارلز دواتي «الصحراء العربية Arabia Deserta»، ذلك الكتاب الكلاسيكي عن بلاد العرب والبدو الذي كتبه أبرز رحالة الصحراء في تلك الفترة، والذي سيمتدحه لورانس فيما بعد «كإنجيل بين نوعه». وقد كان الكتاب ذا جاذبية وأثر محبب عظيم في نفس لورانس نظراً لخليطه من النشر التشويسي والبنى الإليزابيثية، خاصة وأنه قد علم أن دواتي قد عمد إلى محاولة تنقية اللغة الإنجليزية كما فعل موريس. إذ إنه، بالنسبة للورانس، لم يكن للمغامرات المثيرة

والتجارب الدرامية أية جدوى إن لم تقدم بأسلوب أدبي مثالي، ومن ثم، فلم يعجب بريتشارد بيرتون الذى قد يعتبر أكثر مستشرقى القرن التاسع عشر ورحالته أهمية وإثارة. وأصدر حكمه عليه، وهو الشخص شديد التوتر سريع الغضب ذو الموهبة الهائلة، بأنه «جلف»، ومن ثم نبذ كتبه على أساس أنها «صيغت بأسلوب نثرى إنجليزى صعب لدرجة يتعذر معها قراءتها». أما «صحراء العرب» فقد ظل، مثل روايات موريس، محبباً إلى نفسه بقية حياته.

وفى شتاء عام ١٩٠٨ التحق لورانس كمجنّد مبتدئ بالفيلق المنشأ حديثاً بأكسفورد لتدريب الضباط. وقد تسبب هذا الفعل فى دهشة زملائه. فقد كان اللامنتمى المعلن الذى رفض الاشتراك فى الألعاب المنظمة لكونها «منظمة ولها قواعد» يرتدى الآن البزة العسكرية طوعاً ويتلقى الأوامر بتواضع وينحنى للنظام العسكرى. وقد تكون الحقيقة أن فيلق التدريب قد استهوى فانتزيتته المازوكية عن الحياة العسكرية - الأمر الذى قد لا يكون بدرجة الإرضاء الذى وجدّه كجندى متواضع فى سلاح المدفعية الملكية - إلا أن البزة العسكرية كانت هناك فى الحالتين. وكانت فرقة كلية يسوع وحدة إشارة من راكبى الدراجات، الأمر الذى منحه فرصة ركوب الدراجة، بالإضافة إلى أنه اعتبر بعض التدريبات ذات قيمة خاصة. وقد كتب فيما بعد أنه قد تعلم هناك إطلاق مدفع فاىكرز الأمر الذى أفاده إبان ثورة العرب، بالرغم من أنه أخبر ليدل هارت أن خبرته فى الفيلق كانت غير ذات قيمة من ناحية تعلمه الاستراتيجية. بيد أنه لم يواظب على ممارسة إطلاق النار من المسدسات. ثم وجد فى ديسمبر فرصة لممارسة الاهتداء بالبوصلة حينما سار هو وسكروجرز بيسون فى أحد الاتجاهات من قمة كومنر هيرست أثناء عاصفة ثلجية ووجدا نفسيهما يخوضان فى القنوات المتجمدة ويواجهان زخات الثلج حتى كادا يسقطان فى نهر أيزيس عند كوبرى فولى.

كان هذا فى الواقع هو اليوم الأخير الذى قضاه لورانس وبيسون معاً، فقد كانا قد تعديا مرحلة هذه الصداقة. وكان بيسون قد هجر علم الحفريات إلى علم الحيوان أى إلى اهتمامه الأول تاركاً لورانس ليقوم وحده بالحفريات. وفى أواخر عام ١٩٠٨ ارتبط لورانس بدرجة أعمق بنشاط المتحف الأشمولى. فذات يوم،

وبينما كان يشاهد مجموعة العصور الوسطى، التقى مصادفة بإدوارد ليدز، وكان شابا خجولا يكبره بثمانى سنوات، وكان إلى وقت قريب يؤدي الخدمة العسكرية الكولنيلية فى الملايو. وكان ليدز قد حل محل لينارد وولى كمساعد أدنى لأمين المتحف، ووجد لورانس وليدز أشياء كثيرة مشتركة بينهما لم يكن الخجل أقلها. وفى يناير التالى قدم ليدز لورانس إلى أمين المتحف الجديد دافيد هوجارث الذى كان له أن يمارس أثرا كبيرا على حياته. كان هوجارث حينذاك فى الخامسة والأربعين من العمر، مستشرقاً وآثارياً من المدرسة الكلاسيكية، وكان قد سافر إلى سوريا وتركيا وفلسطين وحده سيرا على الأقدام وبصحبه مسدس، إذ إنه كان لا يطيق صبرا على سفساف الأمور التى تبدو من الأهالى هناك. ثم كتب كتاباً مرموقاً عنوانه «باحث متجول فى بلاد الشام». وكان آثاريا ذا منزلة، وعمل مرة مديراً لمدرسة الآثار البريطانية فى أثينا، وقام بعمل حفريات فى قبرص ومصر تحت إرشاد فليندر بترى الشهير. كان يتحدث الفرنسية والألمانية والإيطالية واليونانية والتركية واشترك فى لجنة الجمعية الجغرافية الملكية، كما أنه عمل مراسلاً صحفياً للـ «تايمز» فى جزيرة كريت أثناء ثورة ١٨٩٧. وكان هوجارث «جنتلمان» إمبريالياً إدواردياً نمطياً. وكان شوفينياً، ومحافظاً، وأتوقراطياً، معادياً للديموقراطية بشكل شبه فطرى، وكان أرسطوياً على المستوى الفكرى. كما كان أبوى الأسلوب ذا مزاج هادئ. ونظراً لما تلقاه من تعليم رفيع المستوى فى كلية ونشستر ومودلين فقد عاش هاوياً للفن مدى الحياة. لخص لورانس صفاته فيما بعد فى كلمة واحدة بقوله إنه «متمدن». أما الآخرون الذين لم يعجبهم خليطه من المظهر المنفر والمعارف الواسعة فقد رأوا فيه «قرداً ذا تعليم عال». ورغم قدراته، فلم يحز هوجارث أبداً على مركز عظيم فى أى مجال. فقد كانت مواهبه غير مركزة، وكان مثل لورانس ضجراً، لا يهدأ بدرجة لا يمكن معها وضعه فى إطار تعريف معين. كان يتأرجح بين الأكاديمية والمغامرة، حتى يمكن القول إن أكثر إرثه قيمة هو تعرفه على موهبة فذة فى شخص تى. إى. لورانس. أما بالنسبة للورانس، فقد كان له هوجارث أن يصبح رمزا أبوياً وأباً بديلاً. كان دائماً «مثلاً احتياطياً، دائماً أجده ورائى إذا ما اعترائنى الارتباك أو الحيرة». وخلافاً لتوماس لورانس الذى كان قد قطع صلته دون داع بكل شخص ذى تأثير، ولم يكن بمقدوره أن يلجأ إلى

«المدرسة القديمة» طلبا للمساعدة كان هوجارث يعرف الجميع تقريبا . ولما لم يكن المجتمع الإدواردى محتما بقدر الجدارة ، فقد كان لورانس يعرف أنه ، رغم مواهبه ، بحاجة إلى راع ما ليصبح بإمكانه التقدم . وقد اعترف فيما بعد أنه مدين لهوجارث بكل وظيفة جيدة حصل عليها . ولخص لورانس رأيه فيه قائلا إنه «رجل مدهش . . إنسان فى المقام الأول ، ثم إنسان خير ، ثم شخص حى . . . إنه الأب الذى أستطيع أن أنق فيه دون تحفظات إذ إنه سيفهم ما يشغلنى» وقد عرف لورانس منذ البداية ما يمكن أن يقدمه له شخص مثل هوجارث فسعى إلى كسب مودته .

لم يكن هوجارث يهتم كثيرا بقلاع لورانس الصليبية . كان لا يهتم ، ويتغاضى عن أى شىء أركيولوجى غير متعلق بالآثار الكلاسيكية والشرق الأدنى القديم . أما ما كان يحرك مشاعر هوجارث ، فكان هم الحثيين ، هذه الجماعة الإنجيلية الغامضة التى لم يكده يعرف عنها شىء قبل عام ١٨٧٠ . كانت قصة الحثيين غريبة . ففى عام ١٨١٢ اكتشف المنقب الرحالة السويسرى جوهان لاتفيش بر كارت حجرا مثبتا فى جدار فى سوق مدينة حماة السورية والذى كان منقوشا عليه كتابات بدت هيروغليفية . ولم يستطع فحصه تفصيلا نظرا لعداء السكان المحليين ، إلا أنه شعر منذ اللحظة الأولى أن الكتابة الهيرغليفية كانت تختلف عن الكتابة المصرية القديمة . ولم يكن لحجر حماة أن يدرس بدقة حتى عام ١٨٧٢ ، وحيداك ، تمت مقارنة النقوش التى على الحجر بأخرى على حجر مماثل فى حلب ، وبعدد آخر من النقوش المتناثرة فى أنحاء اسيا الصغرى . وبحلول عام ١٨٧٦ تم اكتشاف كتابة حضارة الحثيين المفقودة . وكان هوجارث قد قام بالعديد من الرحلات بحثا وراء تلك الحضارة ثم عاد إلى أكسفورد ومعه مجموعة من أختام الحثيين الأسطوانية التى كانت فريدة من نوعها على مستوى العالم . فقد كانت هذه الأختام التى فى حجم عقلة الإصبع أو أطول قليلا فى حالات نادرة قد نقشت عليها صور معقدة التصميم ، وأحيانا كانت تلك الصور سيريالية . نباتات منتفخة . حيوانات شائكة . . بشر فى هيئة حشرات . ورغم أنه كان بشار إليها على أنها أختام ، إلا أنها كانت تستعمل أدوات للطباعة ، وكانت حين غمسها فى أصباغ ملونة يمكن دحرجتها بحيث تنتج تشكيلات على جلد الإنسان أو أقمشة الزينة ، أو على الأشياء كعلامة على ملكيتها . بيد أن أختام الحثيين الأسطوانية لم يكن

لها مكان في فانتازيا لورانس عن العصور الوسطى، إلا أنه أبدى اهتماماً بها ووجه إليه أسئلة عن المكان المحتمل لوجود آثار تلك الحضارة، تملقا منه لهو جارت. كما بين له اعتزامه بالقيام برحلة حول القلاع الصليبية في سوريا في الصيف التالي وأنه بالتاكيد سيتمكن من توفير بعض الوقت للبحث عن الحيشين. وحاول هو جارت، الذي لم تهتز مشاعره، إثناؤه عن الرحلة قائلاً إن الجو سيكون قائظاً في الصيف لا يسمح بالقيام برحلة سيرا على الأقدام هناك. وإزاء إصرار لورانس، نصحه هو جارت بالاتصال بداوتى خبير الرحلات في البلاد العربية. ومن ثم كتب لورانس إلى داوتى الذي لم يكن موقفه أكثر تشجيعاً من هو جارت إذ أوضح أنه لم يذهب في المقام الأول، أبعد من دمشق وأضاف «إن الحرارة شديدة طوال الليل والنهار في شهرى يوليو وأغسطس... إنها أرض قاذورات لن يجد فيها الأوربي سوى المتعة الشريرة والرجل العاقل الذى يعرف البلد لن يفكر فى القيام برحلات طويلة سيرا على الأقدام». وأضاف داوتى إنه فى حالة إصرار لورانس على زيارة الشرق فعليه تعلم العربية.

أثارت توقعات داوتى القائمة المخاوف فى نفس لورانس. إلا أنه كان كلما زاد إصرار الأكثر منه علماً على حماقة الرحلة، ازداد هو إصراراً عليها. وكانت رحلته بالدراجة فى فرنسا عام ١٩٠٨ إعداداً له: فسيوفر الشرق الخلفية للمغامرات التى يتوق إليها الفارس المتجول. ومن ثم، بدأ فى تعلم العربية على يد رجل دين سورى بروتستانتى هو المبجل نصار عودة، ومنه تعلم أساسيات القواعد وحوالى مائة كلمة اعتقد أنها كافية لإرشادات الطريق والطعام والمسكن والمعاملات المالية. وأمده والداه بأربعين جنيهًا لشراء كاميرا وحامل، ومن أجل دعم الصور التى سيلتقطها، تلقى دروساً فى الرسم من إى. هـ. نيو، وهو رسام معمارى، وكان من دواعى سرور لورانس أن نيو كان قد رسم حديثاً رسوماً توضيحية لكتاب عن سيرة ويليام موريس. وقبل رحيله، قابل لورانس هو جارت مرة أخرى وأوكل إليه معلمه مهمة إحضار أختام أخرى للمتحف الأشمولى من منطقة جنوب تركيا التى كانت فى برنامج رحلته والتى سبق لهو جارت زيارتها ووجد بها العديد من أختام الحيشين الأسطوانية، وخصوصاً أن الأختام صغيرة ومن اليسير نقلها. وبهذا حقق لورانس مسعاه. ولإعداد نفسه للظروف قام باستظهار مقتطفات طويلة من كتاب

«الصحراء العربية»، كما قرأ كتاب «إرشادات عملية للمسافرين في الشرق الأدنى» للكاتب إي. إيه. رينولدز - بول. وعملا بنصيحة بول، ابتاع لنفسه مسدسا أوتوماتيكيا لحمايته من قطاع الطرق. وقام بتفصيل بذلة من قماش خفيف بها عدة جيوب لحمل أشيائه. كما أنه التقى، عن طريق هوجارث، بهارى بيرى جوردون الذى كان قد تجول فى أنحاء سوريا فى الموسم السابق، والذى ابتاع منه خريطة ذات حواشى. وفى ذات الوقت، كان قد تقدم بطلب للحصول على خطاب «الرضا»، أو الخطاب الرسمى للسفر الآمن من الحكومة العثمانية، عن طريق السير جون رايس، مدير كلية يسوع بواسطة اللورد كيرزن رئيس جامعة أكسفورد. وفى ١٨ يونيو عام ١٩٠٩ صعد إلى السفينة «منغوليا» المتجهة إلى بورسعيد ومنها إلى بيروت، وفى أحد جيوبه خريطة بيرى جوردون، وفى جيب آخر مسدسه البندقية.

كانت بيروت حينذاك من أكثر مدن الشرق الأوسط حيوية: وقد وصفها لورانس نفسه بأنها «بوابة سوريا» و(باراقانا) شاميا ملونا تتسلل منه.. التأثيرات الأجنبية». وبعد ذلك بتسعين عاما، حينما وصلت أنا هناك اقتفاء لأثره، كانت بيروت هيكلا للمكان، وكانت منطقة وسط المدينة الشهيرة قد أصبحت كسارة أحجار - متاهة أصابتها القذائف بدون مداخل أو أسقف. ورغم أن الحرب بين المسيحيين والمسلمين كانت قد توقفت، منذ وقت طويل، وانسحبت القوات الإسرائيلية، فقد كان (الإسرائيليون) مازالوا يحاربون الفلسطينيين فى الجنوب اللبناني، الأمر الذى جعل من المستحيل بالنسبة لى أن أقتفى أثر رحلة لورانس عام ١٩٠٨. وبدلا من ذلك، كان على أن أسلك طريقا غير مباشر، مستقلا حافلة من القاهرة إلى القدس، وعبر وادى الأردن إلى طبرية على بحر الجليل حيث وجدت غرفة فى نزل كنيسة اسكتلندية. وكانت غرفتى التى تشبه الزنزانة، تطل على حديقة شاطئية مليئة بأشجار صنوبرية وأشجار السرو والبلوط القديمة. كانت هناك سحب متوهجة فوق البحيرة ومصدر إضاءة دوار متباطئ يلقي بأشعته على المياه المائجة. وكانت النوارس والطيور البحرية الأخرى تعلو وتهبط فوق الأمواج كأنها قوارب من الورق. وكان لورانس قد وجد البحيرة «شديدة الزرقة، فيها الحركة دائمة، لا تهدأ تماما أبدا». إلا أنها «جميلة» وليست «مهيبة». أما طبرية

نفسها فقد وصفها بأنها «مدينة قذرة شديدة الحرارة». لا تعوزها المناظر التصويرية، وأحب ميناءها الصغير وقوارب الصيد فيها، كما اعتقد أن أسوارها المهدامة «جذابة». وعند زيارتي، كانت الأسوار مازالت هناك، إلا أن عددا من الفنادق الحديثة متعددة الطوابق التي ارتفعت غطت عليها وقد أفسدت الأثر الذي تحدثه.

وفي اليوم الثاني لزيارتي استأجرت دراجة جبال كي أتمكن من الذهاب إلى صفد، وهي أكثر مدن الجليل ارتفاعاً، وكان لورانس قد قضى فيها أياماً قلائل. كانت الأمطار قد تساقطت أثناء الليل. وكان الطريق على طول البحيرة الذي يخترق المجدل مبتلا ومن ثم استثارت العجلات الأوحال التي تناثرت على جاكيتي المصنوعة من الشمع. وبصعوبة، تسلقت أعلى قبر نعوم حول سلاسل المنعطفات الحادة التي لا تنتهي، وخلال مروج خضراء تكثر فيها الصخور الرمادية والأبقار السمينة التي كانت ترعى وطائر البلاشون الأبيض الأنيق. وعند روش بيناع Rosh Pina كان الهواء سميكا نتيجة الضباب، والطريق قد أظلمته صفوف أشجار الصنوبر. توقفت لاحتساء القهوة في مكتبة ملحق بها مقهى، حيث جلس رجل شديد البدانة (صاحب المكان) على مائدة يقرأ صفحة الرياضة في صحيفة عبرية. بدا الرجل مهتما باقتفائي أثر لورانس وأخبرني «كان لورانس صديقا لليهود. وآمن بإسرائيل وطنا قوميا لنا. ولهذا، لن ننساه أبدا». كان هذا حقيقيا في جوهره، فمثله مثل بريطانيين عديدين في زمانه كانت فكرة إعادة اليهود إلى أرض آبائهم بعد ٢٠٠٠ سنة شديدة الإثارة. ونظر البريطانيون إلى أنفسهم على أنهم رعاة سريون للزمن، قادرون على توظيف ثرواتهم الضخمة لإعادة تشكيل التاريخ. وكان لورانس قد أصابه الإحباط خلال رحلته إلى الجليل عام ١٩٠٩ لأنه وجد البلدة مهجورة بالمقارنة بالصورة التي كان قد كونها في ذهنه من دراساته الإنجيلية. وكان قد تصورها ذات «شوارع مهيبة، ومنازل ذات أعمدة، وحمامات على طراز الروكوكو»، إلا أنه بدلا من ذلك وجد مكانا «به خيام بدو مهترئة، وأناس ينادون على الأفراد كي يأتوا ويتحدثوا معهم، وكلاب هجين تعض قدمي المرء». ولا تجد في هذه التعليقات أثرا للشخصية لورانس اللاحقة كمحب للعرب. وكان يعتقد أن فلسطين بلدا لطيفا في عهد الرومان، وأنه «بالإمكان جعلها كذلك

مرة أخرى» وكتب قائلاً: «كلما أسرع اليهود بزراعة المكان كان هذا أفضل. إن مستعمراتهم تمثل نقاط مضيئة في الصحراء».

سرت بالدراجة من روش بيناع صعوداً وسط ضباب بارد برودة الثلج، وكان الضباب قد استقر على الجبال كالبطانية، وأصبح الضغط على دواسة الدراجة أمراً مؤلماً. وكانت الأضواء الأمامية للسيارات تلوح في الأفق مخترقة الضباب على فترات منتظمة كأعين شيطانية. كانت نفحات الريح تدفع الشابورة إلى الأمام بين الحين والحين. كانت أيضاً ثمة ومضات عابرة من البلدة أسفل التلال، بدت سحرية، بلدة من التلال والحقول تضيئها الشمس. لم أتخيل أبداً أن الطريق إلى صفد يصعد هكذا مسافة ٢,٧٠٠ قدماً بلا هوادة حتى بدأ الأمر أحياناً وكأنني أقود الدراجة صعوداً إلى السماء. وكنت قد واصلت قيادتها في اتجاه علوى على السرعة الأولى لمدة ساعات خمس تقريباً. كان ألم ساقي صارخاً. وفجأة، انزاحت الغيوم ووجدت نفسي في صفد وهي مدينة كبيرة تمتد حول حواف خمس أو ست قمم جبلية. ثم هطلت الأمطار على أشجار البلوط وأنا أتجه بدراجتي نحو وسط المدينة. بدأ الأمر وكأنه لبس ثمة أثر لأية قلاع صليبية. ثم أوقفت رجلاً مسناً كي أسأل عن الطريق. هز ذلك الرجل الودود رأسه وقال «لا إنجليزية، لا عبرية، لا عربية، فقط اليديش (لغة كان يتكلمها اليهود في وسط وشرق أوروبا)». إذ كانت صفد ملجأً للناجين من الهولوكوست ولسلااتهم. ومن ثم عدم وجود أى سبب لاهتمامهم بشيء مثل القلاع الصليبية إذ إن هناك بالنسبة لهم تاريخ واحد فقط. لم أعرش على القلعة أبداً. إلا أن مشهد جبل حرمون Hermon المذهل والمطر يزيح آخر خيوط الضباب كان إرضاء كافياً لي.

وصل لورانس إلى صفد في مساء ١٦ يوليو عام ١٩٠٩، كان منهكاً بعد ما أسماه «تسلقاً رهيباً من الوادي إلى أعلى البلدة المتعوجة». وكان قد غادر تبين Tibnin ذلك الصباح وتوقف عند الظهيرة ليشرب من عين قادش الشهيرة بعد ما قطع هبوطاً وصعوداً في يوم واحد مسافة تعادل ارتفاع قمة مونت بلانك وكتب قائلاً: «إن فلسطين كلها هكذا.. فالطرق إما صاعدة أو هابطة.. لكنها لا تصل أبداً إلى أى مكان». ولما لم تكن هناك فنادق حينذاك، فقد وجد سكناً مع عائلة



طبيب : إنجليزى كان يعمل فى مستشفى إرسالية يهودية . كان الطبيب عطوفاً على ضيفه الشاب ، واصطحبه بعد الظلام ليرى القلعة ، بيد أن متاعب الرحلة كانت قد بدأت تؤثر عليه ، ثم مرض لورانس مصاباً بأول هجمة من هجمات الملاريا التى ظلت تتبعه طوال رحلته .

وكان بعد أن بدأ رحلته وحده من بيروت فى بداية شهر يوليو ، قد استمر مرتحلاً على الأقدام لمدة تربو على الأسبوعين . سار فى اليوم الأول بطول ساحل صيدا مخترقاً بساتين التوت والزيتون . كان الطريق يعج بالحركة : فلاحون يرتدون السراويل الواسعة والطرابيش ، منتصبى القامة ، يحملون بنادقهم ومسدساتهم يتمنطقون بأحزمة الطلقات النارية . كان بعضهم يمتطى الخيول ، وآخرون يسوقون أعداداً كبيرة من الجمال محملة بمحاصيلهم فى اتجاه الأسواق الساحلية . نظر لورانس باهتمام إلى الجمال التى وجدها فى كل مكان واعتقد أن جوهها « بشعة » ، إلا أنه أحب النغمات الخشنة لأجراسها ، تلك النغمات التى كانت تتوارى بهدوء مع توارى القوافل فى ضبابية غروب الشمس . كانت صيدا التى تقع على حافة لسان بحر مدينة عصور وسطى بدرجة أرضته . . مدينة مسورة ذات طرقات ضيقة لدرجة عدم استطاعة مرور شخصين فيها جنباً إلى جنب ، ولم يكن بمقدور عربية ذات عجلات الدخول إليها . ومن صيدا ، تسلك لورانس الجبال فى اتجاه نبطية سائراً أعلى تخوم عميقة ومتمتعاً بنسيم البحر المتوسط المنعش . مر خلال قرى صغيرة بيوتها من الطين وسط رقع من الحقول الخضراء ومارس لغته العربية مع القرويين . ومكث لأول مرة مع العرب فى منازلهم وأبهجه تعلمه الطقوس الاجتماعية المطلوبة . فكان يحيى مضيفه قائلاً « السلام عليكم » فيُدعى إلى الداخل حيث كانت النساء تسحب لحافاً ثقيلاً ليجلس عليه . وبينما يقوم مضيفه بإعداد القهوة ويهيل عليه الأسئلة المعهودة كان الأطفال يفحصون متاعه . وبعد الشاي والقهوة ، تعد وجبة العشاء من البرغل المسلوق والخبز الرقيق وتقدم له . ولم يكن يسمح بالحديث أثناء الوجبات . وبعد ذلك ، وحوالى الساعة التاسعة ، كان ينسحب مع الحفته إما إلى السطح أو إلى الشرفة . ثم اكتشف أن الأحفة سميكة جداً لا تناسب حرارة ليالى الصيف ، ولما كانت مليئة بالبراغيث ، فكان يفتريشها بدلاً من استعمالها غطاء . كان يصحو عند شروق الشمس ويلحق بمضيفه عند نار المدفأة

ويرش وجهه بالماء . ثم يذهب حال سبيله بعد الإفطار الذى كان يتكون من الخبز واللبن الرايب ، أو الحليب الطازج إن كان محظوظا . أعجبت به بساطة أسلوب حياة الفلاحين الذى استدعى مشاهد طبيعية من مالورى وموريس . شعر بالارتياح فى المنازل ذات الأثاث الإسبرطى . حصير ومقاعد صغيرة دون مساند ، وألحفة للنوم تطوى وتستعمل للجلوس عليها ، أو تخزن فى فجوات فى الحائط ذات درجات فى حال عدم الاستعمال . أعجب بأسلوب ازدواج المنازل حيث خصص الطابق الأول لحيوانات المزرعة والأغنام والماعز والحمير والخيول ، والطابق العلوى للآدميين . كما وافقه الاقتصاد فى الأكل بالأيدى من طبق مشترك ، وباستعمال قطع الخبز كملاعق . وأعجب أيضا بطريقة غسل العرب أيديهم بصب المياه فوقها بدلا من حكها فى الحوض وبدت له أكثر نظافة بكثير من الأسلوب الإنجليزى . وقد اعترف بكرم الضيافة العربى وكتب إلى أبيه قائلا : «إنها لمدينة مجيدة بالنسبة للمسافر المتجول .. إذ إن كرم الضيافة أكثر من مجرد اسم .. فالأشخاص العاديون مستعدون لاستضافة فرد لمدة ليلة ، كما أنهم يسمحون لى أن أتناول معهم وجباتهم دون أدنى فكرة عن تقاضى نقود من مسافر متحول » . ورغم أن هذا لم يكن صحيحا تماما ، لأن مضيفيه كانوا أحيانا يتقاضون نقودا ، فمن الواضح أنه قد جذبتهم إليه كبرياؤهم البسيطة . كان هذا التقدير جماليا ، فقد كانت بعض أساليب حياتهم طريفة وغير مألوفة . كانوا محبين وذوى كبرياء إلا أنهم « كانت لهم صفات شديدة الطفولية ، وكانوا بالطبع شديدي البساطة وعلى قدر مذهب من الجهل » . ومكث لورانس أيضا مع مبشرين أجانب ، وامتدح عملهم فى سبيل « تمدين » و« تعليم » السكان المحليين . وفى خطاباتة إلى أهله ، أظهر حاجته المعتادة إلى دعم تقديره لذاته باستعراض تفرد الواضح . فكان يقول إن نظامه الغذائى هو نفس نظام السكان المحليين ، الأمر الذى كان يعتبره الأجانب ضربا من الجنون بينما كان ينظر العرب المحليون إلى عادة شرب الحليب الطازج والسير بدلا من الركوب على أنه جنون . كما اعتقد الأجانب أنه معتوه لأنه كان يتجول فى قيظ ما بعد الظهيرة . كما أنه أخبر والدته أنه قد أصبح « عربيا فى عاداته » إلا أنه فى نفس الجملة أخبرها أيضا وهو مزهو كيف اعتقد أحد الفرنسيين أنه فرنسى ، دون أن يعى التناقض . وتوضح القراءة المتفحصة لخطابات لورانس من سوريا امتلاكه

لشخصية ذات قدرة على التكيف السريع مع المجتمع الجديد، على حين أنه ظل في جوهره غير منتم لأي مجتمع.

ووجد نفسه في شوارع نبطية الضيقة وسط مظاهر احتفالية. كانت الشوارع تعج بالجماهير التي تساوم على البضائع، وبالسقائين، وبائعى المرطبات، والفلاحين ومعهم منتجات حداثتهم الطازجة، والرجال وهم يندفعون حاملين على ظهورهم الذبائح التي يغطيها الذباب، أو حاملين أجولة فحم. وهناك، استأجر مرشدا مسيحيا اسمه باراك كي يقوده إلى قلعتي بوفورت وبانياس اللتين اعتقد أنهما مهمتان لبحثه. وقال عنه بوفورت إنه يميزها المنظر الأخاذ، فإلى الغرب كانت هناك زرقة البحر المتوسط المتألقة وإلى الشرق، وعبر وادي الأردن كان جبل حرمون وتخومه التي يغطيها الجليد المتلألئ. ومن نافذة القلعة قذف بحصاة في نهر الليطاني على مسافة ١٦٠٠ قدم إلى أسفل. ولكي يصل إلى بانياس أو قيسارية فيليبى الإنجيلية، اصطحبه باراك خلال مروج الأردن الخضراء المزدهرة والتي بدت له شبه مدارية مقارنة بقحل المرتفعات اللبنانية. كانت القرية التي تقع فيها غير جذابة، إلا أن لورانس اكتشف نبع مياه باردة شهية في كهف خبيء. كما أبهجه عشوره على نقوشات إغريقية قديمة فوق الكهف مكرسة للإله بان. وتقع قلعة بانياس التي بناها الفرسان الإسبتاريون في القرن الثاني عشر على أنف جبل حرمون الذي تسلقه لورانس متحمسا، حتى إنه تشجع وأوقد نارا في الأجمة الموجودة بالفناء الداخلى كي يرى بوضوح. وكتب قائلاً: «لابد وأن تلك النار المشتعلة قد بدت بهيجة من بعد». ومن ثم، أسرع مالك القلعة مهرولاً ليرى ما يحدث، رغم أن لورانس ذكر أن الرجل لم يبد اعتراضاً لأنه تمكن أخيراً من دخول الفناء بعد عشرين سنة، ثم ارتحل بمفرده من حنين إلى تبين ووصل إلى صفد في اليوم التالي. ونظراً لأنه كان قد شفى من هجمة الملاريا فقد قام برحلة جانبية إلى شاستليه حيث تعرف لأول مرة على رياح الشيروكو الحملة بالأتربة والتي تهب من الصحراء العربية في الصيف، وجعلته يشعر بالفضاء الشاسع خلف تلك التلال الأليفة. ثم هبط إلى منطقة بحر الجليل وتوجه أماماً إلى البحر المتوسط عبر سهول أزدريلون التي تشبه رقعة شطرنج شاسعة من اللونين البنى والذهبي تتخللها ممرات كالجبال الرفيعة وتتناثر فيها الخيام السوداء التي تشبه أعشاش الطيور بينما

كانت قوافل الجمال الهائلة دائمة الحركة فيما بينها . كانت النساء يغربلن الحبوب على أرضيات فرشت بالدريس ، وكان بين الحين والآخر يرى سحابات من العصافه والتبن والغبار تتصاعد فوق الحقول ، على حين كان الفلاحون يجمعون المحصول أو يدرسونه بالمدراسات والمدارى . ثم انتقل من شاطئ حيفا متجها شمالا إلى ما يعرف الآن بجنوب لبنان ، مرتحلا على الأقدام ، ومخترقا صور وصيدا ، وبعد ذلك قفل عائدا إلى بيروت .

وبعد أن استراح أسبوعا في فندق فيكتوريا ببيروت ، بدأ الشق الثانى من الرحلة الذى أمل أن ينتهى به إلى اللاذقية وأنطاكية وحلب . وصل فى الأسبوع الأول إلى جبيل شمال بيروت ، حيث توقف فى مدرسة الإرسالية الأمريكية التى كانت تديرها الأنسة هولمز . وتذكرته الأنسة فريده العقل ، وكانت مدرسة بالمدرسة ، وقد وصل إلى هناك متربا ومتعبا « يحمل صرة ربطها على ظهره » . كما تذكرت الأنسة عقل ، والتى أصبحت فيما بعد مدرسة له تعلمه اللغة العربية ، كيف اندفع إلى أعلى خلف الخادمة دون أن ينتظر الإذن له بالدخول ، وكيف أمتعها بعد ذلك بحكاياته عما احتمله « من مغامرات ومتاعب » أثناء الرحلة ، التى كثيرا ما نجا فيها من موت محقق على أيدي « الأكراد والأتراك القساة » . وكان تفضيل لورانس المعلن « للمصاعب » ، وللنوم فى العراء أحد أوجه استعراضيته المقلوبة التى كانت تتطلب مشاهدين . بيد أنه كان ، بينه وبين نفسه ، يحب الراحة حبا شديدا ، وكانت سعادته كبيرة بالأيام القليلة التى قضاها فى إرسالية جبيل ، حيث كان يأكل جيدا ، ويستحم ، ويجلس باسترخاء فى الحديقة تحت « أشجار خضراء خضرة حقيقية ويقرأ فى مكتبة زاهرة بالكتب . وبعد أيام قليلة ، تم استقباله فى الإرسالية الأمريكية بطرابلس ، غالبا مع خطاب تعريف من الأنسة هولمز . ومن هناك ، كانت ثمة مسيرة أيام ثلاثة إلى قلعة الحسن أو كرك الفرسان الشهيرة ، حيث استقبله الوالى العثمانى ، أو القائمقام ، الذى برهن أنه أبعد ما يكون عن القسوة ، بل كان حانيا وعلى استعداد للمساعدة ، وكما عبر لورانس ، كان « مريحا جدا » . وقد كان لهذه القلعة ، أن تحتل مكانا مركزيا فى بحثه . قضى هناك ثلاثة أيام مسترخيا ، يتفحص المكان ، ويلتقط الصور . ومثل بانياس ، كانت هذه القلعة قلعة فرسان اسبتاريين . كانت شاسعة ذات أسوار مزدوجة مهيبة ، تقف

وحدها في أرض قاحلة بها شجيرات خفيفة وتسلق لورانس وهو حافى القدمين، إلى منتصف جانبها المنحدر الداخلي المغطى بالطحالب، وكان تفكيره يجول بين ميزاتها ونقائصها. ورأى أن تسلقها لم يكن يصعب على الجيوش المحاصرة المزودة بسلاالم لتسلق الأسوار، إلا أن ميلها الخفيف كان يعنى أنهم لن يصلوا أبدا تحت وابل الحجارة المستديرة والقار المشتعل الذي كان يلقيه عليهم من أعلى المدافعون في الداخل. كما لاحظ بهجة الفتحات التي كانت في الجدران والتي كان يلقي منها المدافعون قذائفهم، وأعتقد أن تلك الفتحات لم تكن معروفة في أي مكان آخر في سوريا رغم أنها كانت معروفة في أوروبا الأمر الذي يوحى بأن الفرسان أتوا بها فكرة جديدة من الغرب. وقد أعجب لورانس أيما إعجاب بالكرك وكتب لاحقا يقول: «إنها أفضل القلاع في العالم وأحسنها صيانة». وأمده «الحاكم المريح» بمرافق كي يزور قلعة صفيتة القريبة والذي أعجب بها لجدرانها الدفاعية النورماندية ذات الفتحات المبتكرة، التي لم ير لها مثيلا في أوروبا. وكانت ذروة رحلته هي قلعة الكرك و صفيتة، وصهبون، تلك القلعة التي كانت مسلتها الصخرية الرشيقة تدعم مركز جسر متحرك، والتي اعتقد لورانس أن هذا الجزء هو أكثر أجزاء بني القلاع التي رآها إنارة، وبعد زيارته هذه القلاع الثلاث كتب إلى والدته قائلاً: «قد يسعدك الآن انتهائي من عملي المبدئي بنجاح: أي أنني قد ضمنت (كتابة) بحثي».

بعد أيام قلائل، ترك حاكم الكرك ورحل في اتجاه الشاطئ، وقضى الليلة الأولى نائما على أرض مفروشة بالدريس مع مجموعة من الفلاحين. وكان الرجال يدرسون حبوبهم ويعملون في مجموعات بالتناوب معظم الليل. وحينما حل عليهم جميعهم الإجهاد أيقظوا لورانس وطلبوا منه أن يقوم بالحراسة بمسدسه أثناء نومهم نظرا لوجود لصوص كثيرين، كما قالوا. ورغم اعتقاد لورانس بأن ما قالوه هراء إلا أنه نفذ ما طلبوه منه. وفي الصباح التالي، قيل له في طرطوس إن هؤلاء الرجال كانوا يحاولون إخفاء حجم ما جمعوه وأن من كانوا يخشونهم هم أصحاب الأرض لا اللصوص. إلا أنه تأكد من وجود اللصوص فيما بعد حينما كان قرب مسياف وحاول رجل يمتطي جوادا إطلاق النار عليه من على بعد ٢٠٠ ياردة. وكان مهاجمه، طبقا لما ذكرته الأنسة عقل «تركيا ضخما قاسي الملامح»، إلا أنه أخطأ

التصويب فسحب لورانس مسدسه الموتزر بهدوء وصوب إليه طلقة قاتلة تصويبا دقيقا فأصاب إصبعه الأصغر ونزعت عنه الجلد. وصعقت اللص دقة لورانس السحرية في التصويب، ووقف التركي وقد تجمد في مكانه بينما تقدم لورانس وضمد له إصبعه وربت على ظهره وأرسله في طريقه بعد أن منحه نصف نقوده. وكتبت الأنسة عقل قاتلة: «إنها قصة داود وجوليات مع فارق أن داود هزم خصمه بسيفه على حين أن السلاح الذي كسب به لورانس يومه كان مودته». وهذه أسطورة أخلاقية من المحال تقرير كم منها اختلاق من خيال الأنسة عقل وكم منها اختلاق خيال لورانس. وكتب لورانس عقب هذا مباشرة إلى والدته قائلا: «إن التركي الضخم قاسى الملامح كان ببساطة جحشا ومعه بندقية عتيقة». وأنه أطلق عليه النيران ممتطيا جواده فرد عليه لورانس فورا بإطلاق النار عليه فجرح الحصان الذى اندفع بضراوة. إلا أن قاطع الطريق تمكن من التحكم فى الحصان وأسرع يدور فى حلقة قطرها حوالى ٨٠٠ باردة ليحاول مرة أخرى إلا أن لورانس أطلق قذيفته ثانية فوق رأسه، الأمر الذى جعل الرجل «يفر كمتسابق يتخطى الحواجز». ومرة أخرى، لابد وأن واحدا من هذين التقريرين كان حقيقيا، إذ إنه على حين أنه أشار للحادث «كفكاهة» فهناك من الشواهد ما يرجح أنه لم يكن على هذا القدر من التفاؤل فى واقع الأمر. فلم يسبق أن أطلقت عليه النيران أبدا. وإذا أخذنا فى الاعتبار خوفه المرضى من الألم، فإن فكرة الرصاصة، وهى تنغرس فى لحمه (مهما كانت قديمة) لا يمكن أن تكون فكرة لطيفة. وفى الواقع، فقد هزه الحادث بدرجة كافية لأن يبلغ الوالى التركى المحلى عنها. كما جعله قلقه من تكرارها بقبل رفقة دورية من الفرسان الأتراك رغم علمه أن هذا سيكون عائقا لحركته. وبدأت ثقة لورانس من تلك اللحظة، تضعف. وظهرت عليه آثار الخوف والحمى والحرارة والمتاعب والألم الشديد من ارتحاله راجلا. وبدأ اهتمامه بالقلع يذوى وحل محله الإنهاك والقدمين الموجعتين والملاريا. كان ينوى التوقف فى أنطاكية لعدة أيام، إلا أنه، ولأول مرة، يغفل أحد أهدافه الرئيسية. ورغم أنه زعم فيما بعد أنه رأى أسوار أنطاكية عن بعد، إلا أنه يبدو من غير المحتمل أنه قد اقترب منها. وأضاف مرافقوه الفرسان إلى متاعبه مجرد أنه رفض الركوب. ورغم أنه أخبر إدوارد ليدز لاحقا، متظاهرا كعادته بالشجاعة، أنه «جعلهم يسировون» فى اليوم الأول على أقدامهم

حتى عجزوا عن الحركة، ثم أجبرهم على العودة لنقطة البداية ليصحبوا خيولهم، فقد كانت الحقيقة هي أنهم بمجرد امتطائهم خيولهم، كان عليه هو أن يجاهد من أجل اللحاق بهم. ولا بد أن مشهد الشاب الإنجليزي وهو يسير، نصف أعرج، يتناقل مقتفيا أثر سرية خيالة كان من المفترض أن ترافقه، كان مشهدا عجيبا ومثيرا. ولم يكن لأحد أن يلومه إن هو امتطى الخيل. إلا أن إرادته الصلبة جعلت من المستحيل عليه الخضوع. ومن ثم، سار على قدميه المقروحتين المليئتين بالكدمات، ربما كان يلعن الخوف الذي تسبب في أن يبلغ الحاكم عن الحادث «التافه» في المقام الأول. وكادت مسيرة الأميال المائة والعشرين الأخيرة في زمن قدره خمسة أيام أن تقضى عليه.

وحيثما دخل حلب في السادس من سبتمبر وهو يعرج، بعد مغادرته بيروت في المرة الأولى بشهرين، كان لحمه قد نحل حتى العظم، وكان حذاؤه متهاككا، وقدماه كئلتين من القروح التي لم تستطع إرادته «النتشوية» احتمال آلامها. كان قد أقسم أن يسير على قدميه بينما يمتطى الآخرون الخيول.. إلا أنه لم يعد باستطاعته السير. كان قد اعتقد بعدم وجود حد للألم الذي يمكنه إجبار جسده على تحمله، إلا أنه وجد أنه قد بلغ هذا الحد. ولم يكن من الأمور الهامة التي تدخل على نفسه الرضا أنه قد قام بالفعل برحلة مرموقة على مسافة ١٠٠٠ ميل. إذ إنه قد فشل في الوصول إلى أنطاكية، وفي الوصول إلى أورفه وبلغا. كما فشل في الحصول على أختام الحثيين ليقدمها لهو جارت.

ومن المحتمل أنه قد خطر له وهو مسترخ في حمامه في فندق البارون بحلب أن خوفه كان سبب هزيمته. فقد كانت أورفه على بعد ١٠٠ ميل عبر الفرات - أي على مسافة مائتي ميل ذهابا وعودة. كان هذا يعني، في أحسن الأحوال، رحلة ثمانية أو عشرة أيام سيرا على الأقدام. بيد أنه شعر بعدم استطاعته فعل هذا. وتراخ شديد، قرر أن عليه، بعد كل شيء، أن يلعب دور السائح ذي الامتيازات، وأن يستأجر عربة بسائسين ويدفع أجرة باهظة بالنسبة لما في جيبه قدرها سبعة جنيهات. وكتب إلى والدته في اليوم التالي مخبرا إياها بقراره إلا أنه لم يذكر شيئا عن شعوره بالإنهاك. ولا بد أنه قد بدا لها فارسا أبيض لا يقهر. فقد أوحى أنه

فقط يعوزه الوقت إذ كتب : «لابد أن أسرع». كان هذا الخطاب قد كتب في ٧ سبتمبر. أما ما حدث للورانس بين هذا التاريخ وبين يوم ١٩ سبتمبر حينما كتب مرة أخرى من حلب، فقد ظل سرا.

وظهر لورانس في أكسفورد في منتصف أكتوبر وقد تأخر أسبوعا عن بداية الفصل الدراسي. وطبقا لإرنست باركر فقد كان «الحرمان قد أنحفه حتى العظام»، كما فقدت آلة التصوير التي ابتيعت له بتكلفة باهظة. ورغم أن خريطة بيرى جوردون القيمة كانت مازالت في حوزته، إلا أنها كانت مغطاة ببقع الدم - ومن ثم بدا الأمر وأن هناك حكاية وراء هذا. وأسر لورانس زملاءه من غير المغامرين بالرغم من قوتهم العضلية وأجسادهم الرياضية بأقاصيص عن مهاجمة الأكراد المتعطشين للدماء له أثناء بحثه عن اختام الحيشيين، وعن سرقتهم ممتلكاته وضربهم إياه حتى كاد يموت عندما أحبطهم عدم وجود كنوز معه كما اعتقدوا. ثم قال إنه تمكن من الزحف حتى نجأ، إلا أنهم تركوه دون نقود مما اضطره إلى العمل على سفينة شحن غير نظامية حتى يجد طريقه إلى مرسيليا وبهذه الطريقة وفر تكاليف رحلة العودة إلى أكسفورد. وحاز على إعجاب أصدقائه، وكذا راعيه ومرشده المحتمل هوجارث، وكان هذا أمرا أكثر أهمية بالنسبة له. وبالنسبة لهوجارث فقد أدى الشاب مهمته المقدسة وأحضر معه ثلاثين من اختام الحيشيين لتضم إلى المجموعة الفريدة في المتحف الأشمولي. وقد لا يكون لورانس قد أخبره مباشرة أنه جازف بحياته ليحصل عليها إلا أنه أوصل إليه المعلومة بأساليب غير مباشرة. فقد كان بالفعل قد أصبح خبيرا في «تدليك الحقيقة» كي يصل إلى أهدافه، وكان هدفه في هذه الحالة هو جذب اهتمام هوجارث الذي لم يكن قد منحه اهتماما كافيا من مركزه المتعالي حتى هذه اللحظة. ولا يعلم أحد ما قيل أثناء لقائهما الأول بعد عودته. فقط أخبر هوجارث ليدز فيما بعد أن «هذا الشاب مرموق. لقد ذهب إلى أماكن قلما زارها أجنب».

فأين كان لورانس أثناء الأسبوعين الثاني والثالث من سبتمبر عام ١٩٠٩. كان آخر ما كتبه إلى والدته قبل ذلك هو عن اعتزامه زيارة أورفه Urfu في ٧ سبتمبر وذكر أنه «يجب أن يسرع» ويوضح كشف مصروفاته أنه تلكا في حلب لمدة



أسبوع في هذه المناسبة، الأمر الذي يجعل احتمال تاريخ رحيله هو ١٣ سبتمبر في أفضل الأحوال. فنحن نعلم أنه كان قد عاد إلى حلب في ١٩ سبتمبر لأنه كتب إلى إدوارد ليدر من فندق دو بارك في هذا التاريخ. وكانت الرحلة إلى أورفه بالعربة التي تجرها الخيول تستغرق من ثلاثة إلى أربعة أيام بأكثر الطرق مباشرة، أي ذلك الطريق الذي كان يخترق قرية الشراكسة منبعج ويعبر نهر الفرات عند تل الأحمر ويخترق السروج قبل أن يصل إلى أورفه. فإن كان لورانس قد رحل يوم ١٣ سبتمبر، لسمح له الوقت بصعوبة أن يصل إلى أورفه ويعود يوم ١٩ سبتمبر، إذا افترضنا أنه قضى يومين أو ثلاثة متفقدا القلعة. وفي ٢٢ سبتمبر كتب إلى والدته من فندق البارون بحلب يخبرها أن رحلته إلى أورفه كانت بهيجة، إلا أن سرقة آلة التصوير في السروج في طريق عودته حينما نام سائق العربة الذي أوكل إليه الحراسة قد أفسدتها. أما الحادثة الأخرى التي رواها فكانت أن حصانا جامحا تسبب في انقلاب العربة رغم أنه هو لم يصب بإصابات خطيرة. ويظهر في هذا الخطاب حرصه على العودة إلى الوطن. فقد كانت نقوده قد نفذت تقريبا، وكان متعبا نتيجة لهجمة ملاريا رابعة، كما أحبطه هطول الأمطار المبكر الذي كان قد بدأ منذ أيام قليلة وكان كفيلا أن يجعل السير محالا. كما أنه ذكر تقريراً نشر في صحيفة حلب مفاده أن شخصا يدعى السيد ادقارد لوفانس «قد اغتيل قرب عينتاب». وذكر، على سبيل التفكه، أن العاملين بالفندق استقبلوه كما لو كان شبحا، وعلق على التقرير قائلا إنه «إشاعة مضللة عبثية»، مؤكدا لوالدته أنه لا توجد في أي مكان قرب عينتاب مدينة تركية على بعد ستين ميلا من حلب وثمانين ميلا غرب أورفه.

أما خطابه إلى ليدر الذي كتبه قبل ذلك بأيام فكان يروي قصة مختلفة. فقد ذكر أنه أثناء بحثه عن أختام للحيثيين إلى الشمال من تل بشار - وهي قرية في إقليم عينتاب قفز عليه رجل كان يقتفى أثره وعض يده وضربه بحجر على رأسه وسرقه. وقال إنه استرد ما سرق منه بعد أن دفع بقشيشا وأضاف أن هذا كلفه مجهودا ضخما وأصابه بالقرف من الإقليم مما دفعه إلى العودة إلى حلب. وطلب من ليدر ألا يذكر الهجمة مراعاة لوالديه، لكنه لم يذكر الرحلة إلى أورفه أو آلة التصوير المسروقة. ولم يذكر أيضا العربة أو سائسيها اللذين يفترض أنهما كانا

برفقتة . كما أنه لم يصرح لليدز بأية نوايا عن العودة مباشرة ، بل إنه أعلن أنه مازال يريد الذهاب إلى الكرك وبتراء اللتين تقعان في ولاية سوريا ، بعيدا جدا عن جو حلب . فلو أن لدينا فقط خطاب ليدز الذى كتب فى ١٩ سبتمبر لاعتقدنا أنه كان فى رحلة مختلفة تماما عن تلك التى وصفها لوالدته قبل ذلك بأيام ثلاثة .

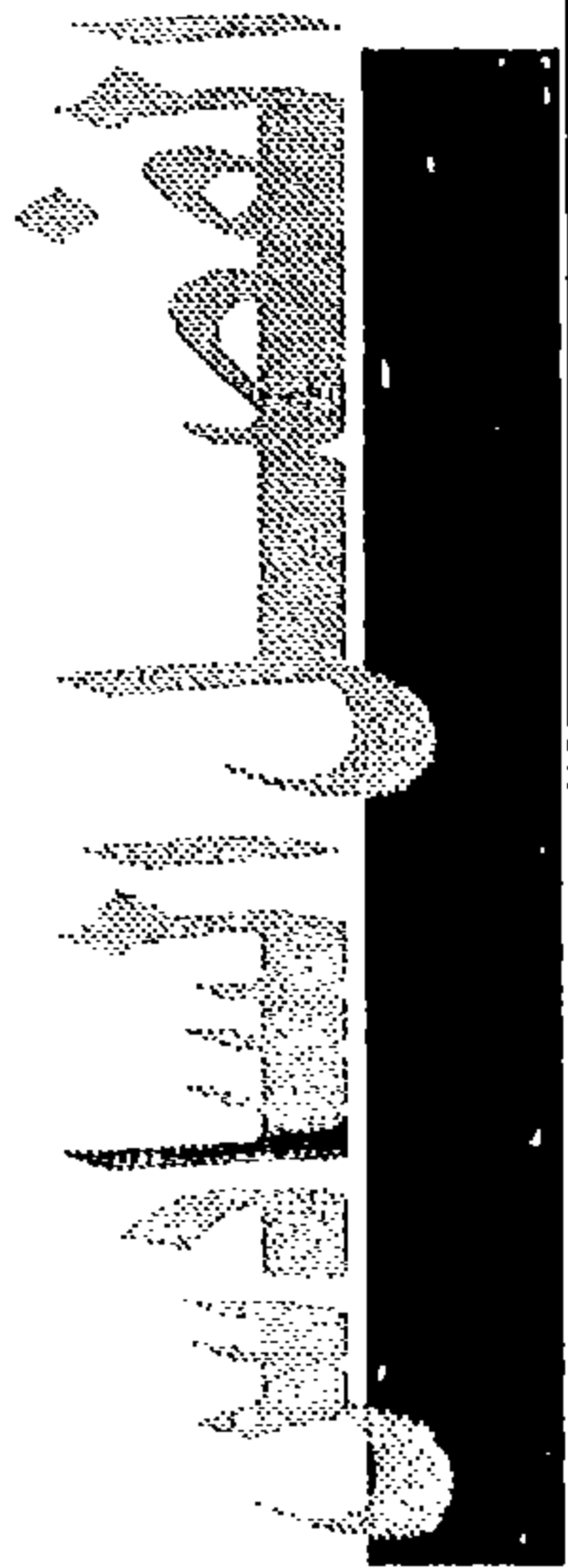
غير أنه كتب خطابا ثالثا أثناء وجوده فى حلب . وفى يوم ٢٤ سبتمبر ، أى بعد يومين من الكتابة إلى سارة ، وخمسة أيام بعد خطابه إلى ليدز ، كتب إلى السير جون رايس مدير كلية يسوع موضحا أنه لن يحضر الأسبوع الأول من الفصل الدراسى . ويعتبر هذا الخطاب نموذجا رائعا للكتابة الإنجليزية المكبوحة وعرضا للتعالى يجعله جديرا بأن ينسب لشخص مثل اللورد نيلسون ذاته . فقد أخبر لورانس رايس أنه أصيب بأربع هجمات من الملاريا فى حين أنه كان قد «أعد نفسه لهجمتين فقط» وأنه «قد سرق وكسرت عظامه تقريبا» فى الأسبوع السابق على كتابة الخطاب فقط . وحال هذا الخليط من الظروف التى تسببت فى المضايقة دون تنفيذ خطته لزيارة الكرك والشوبك نظرا لحلول الفصل المطير بمجرد استعادته القدرة على السير . وأخبر رايس أيضا أنه باستثناء هذا ، فقد كانت رحلته «مبهجة» إذ إنه قام بزيارة ست وثلثين قلعة من مجموع خمسين فى طريقه ، كما أنه جمع لهو جارت ثلاثين ختما حيثيا . وقال إنه سافر «على قدميه بمفرده» طوال الوقت ، وعاش «كعربى وسط العرب» واكتسب بناء على هذا بصيرة فى أسلوب معيشتهم ، الأمر الذى كان سيفشل فيه إن هو سافر مع قافلة .

كانت زيارته لست وثلثين قلعة حقيقية (أخبر ليدل هارت فيما بعد أنه زار ستين قلعة) ، وأيضا كان قيامه برحلة مرموقة سيرا على الأقدام لمسافة ألف ميل فى سوريا أمرا لا يمكن إنكاره . إلا أن باقى خطابه إلى رايس كان مجرد تجميل غير ذى معنى . فلم يكن قد سافر بمفرده طوال الوقت ، إذ إنه استأجر مرشدا عند نقطة معينة ، كما أنه ، ولشق طويل من الرحلة ، كان فى صحبة مرافقين ممتطين الخيول . أما فى الجزء الأخير من الرحلة ، ومدته أسبوعان ، فإنه طبقا لكشف نفقاته ، استأجر عربة وسائسين لزيارة أورفه رغم الغياب الواضح للعربة من خطابه إلى رايس وليدز . لم يكن هذا الأسلوب يقرب من «العيش كعربى وسط العرب» كما

فعل داوتى . بل إنه فى الواقع كان دوماً يرتدى الزى الأوروبى بما فى هذا الخوذة التى كان العرب ينظرون إليها بكراهية لا عقلانية كما قال هو لاحقاً . ثم إنه نزل ضيفاً على مسئولين أتراك وإرساليات غربية ونام فى فنادق من بينها فنادق مريحة كلما أتاحت . وعلى حين أنه مكث على فترات مع العرب المحليين ، فقد كان هذا نظير مبالغ نقدية أحياناً . ربما أن كثيراً مما قاله كان اختراعاً ، أو على الأقل «مبالغة» كما فى خطابه لرئيس ، فلماذا لا تكون قصته عن تكسير عظامه كذلك أيضاً ؟ فهل أصيب لورانس فى حادث انقلاب العربى الذى ذكره لوالدته ، لكنه شعر بخرج لأن يخبر به رئيس ؟ وبقينا ، أن حادث ضربه بعنف لدرجة فقد معها قدرته على السير لم تكن حقيقية كما أوحى خطابه بذلك ، فقبل الخطاب بأيام كان قد أخبر ليدز بعزمه على زيارته بتراء . كما أن إصابته لم تكن شديدة بدرجة يلجأ معها إلى علاج طبي ، ولا يبدو أيضاً أنه قد رفع تقريراً بالحادث إلى القنصلية البريطانية فى حلب . فقد أخبر رئيس أنه قد تم القبض على اللص خلال ثمان وأربعين ساعة ، كما أمتع روبرت جريفز فيما بعد بقصة طويلة مفادها أنه رافق مجموعة كبيرة من الشرطة التركية والمتطوعين إلى قرية قاطع الطريق الكردية كي يطلب تعويضاً . إلا أن الواضح هو أنه غاب عن حلب لمدة سبعة أيام ، وإذا نحن أخذنا فى الاعتبار عامل الوقت وحده فلا يحتمل أن يكون فى خلال تلك الفترة قد انحرف عن طريقه فى رحلة على قدمية إلى تل بشار فى إقليم عينتاب والتى لم تكن على الطريق المباشر المؤدى إلى أورفه ، مع الانتظار ليومين إضافيين لاسترداد ممتلكاته . وحينما قام بنفسه باقتفاء أثر الرحلة نفسها مرة أخرى عام ١٩١١ استغرق منه هذا ما يربو على الشهر . وإن كان قد ذهب إلى تلك الرحلة الجانبية فى عربة مستأجرة ، فأين كان سائق العربة الموثوق به حينما هوجم ؟ ولماذا يدعى فى كشف مصروفاته أنه استأجر العربة والسائسين لمدة أسبوعين ، الأمر الذى يعنى أنه قد غادر حلب قبل وصوله إلى هناك يوم ٦ سبتمبر ؟ وعلاوة على هذا ، فمن الواضح أنه ابتاع بعض أختام الحيشيين فى حلب ، إذ إنه كان قد أخبر ليدز يوم ١٩ سبتمبر أن لديه عشرين ختماً فقط ، على حين ارتفع هذا العدد إلى ثلاثين يوم ٢٤ سبتمبر . فإن كان من السهل الحصول على الأختام فى حلب ، فلماذا تكبد المشاق والنفقات للذهاب إلى تل بشار ؟ هل كانت القصة مخترعة برمتها من أجل الفوز بالحظوة لدى هوجارث

بأنه يدعى أنه «كاد أن يقتل» لتحقيق بغيته؟ لماذا اختار أن يكتب أولا لليدز بدلا من أن يكتب للمقربين من أصدقائه مثل فيثيان ريتشاردز ولينارد جرين إلا إن كان قد أراد لفت نظر هوجارث؟ فقد عرف لورانس أنه لم يحقق كل ما سعى إليه في الرحلة. فقد كانت الرحلة بالغة المشاق، بالضبط كما حذره من هذا هوجارث وداوتى. وكان قد أصابه الإنهاك لدرجة عدم استطاعته إكمالها سيرا على الأقدام. فهل كانت قصة السرقة تكفيرا متخيلا لخطيئة الفشل، أى أنها كانت المثل الأول لنموذج النجاح العام والفشل الخاص، ثم التكفير بالعنف الذى سيصبح معتادا فيما بعد؟ وعلى الجانب الآخر، فإن كان لورانس لم يقم بزيارة تل بشار فكيف تأتى له مقابلة «أحمد أفندى» وهو رجل كان يسكن قرية قريبة من تل بشار وأشار إليه لورانس فى مذكراته كصديق من الزيارة الأولى؟ وأخيرا، كيف لم يكتشف هوجارث كذبه وهو الذى كان قد زار تل بشار منذ عام فقط؟ ولا بد أن لورانس كان سيشعر بالسعادة لو عرف أنه قد أورث كتاب سيرته هذا النوع من الألغاز. وفي النهاية، فهو يتركنا مع سلسلة من الأسئلة ومجموعات دائرية من القصص وبقع من الدم على الخريطة التى قد توحى بقصص ما.





---

هوجارث يذهب للتقيب

---

أگسفورد وکرکمیش

---

۱۹۰۹-۱۹۱۱

# 6

ذات يوم في عام ١٩١٠ ،

وبعد فترة من عودته من سوريا ،

دعا لورانس ميدج هول لمرافقته في

رحلة بالقوارب على نهر الأيزيس .

واصطحب لورانس معه فتاة جذابة

هي چانيت لاوري ، وطلب من هول أن

يصحبها في قاربه ( البنط ) بينما

يتبعهما هو في

زورقه الخفيف .

أدهش الطلب هول الذى طلبه منه فيما بعد إيضاحا لمقصده . وأخبره لورانس بأنه « يريد أن يفيق من إحباطه بجعل رجل آخر يتحدث نيابة عنه إلى الفتاة التى يعبدها » . واستنتج هول من هذه الجملة المشوشة أن لورانس كان يحب چانيت وأنها قد رفضته . وكان قد رآهما معا من حين إلى آخر وتشكك فى وجود علاقة حب بينهما . وفيما بعد ، سأل هول چانيت ما إذا كانت على علم بمشاعر لورانس وكانت إجابتها أنها تعرف ، إلا أنها ، ببساطة ، لا يمكن التفكير بجدية فيه كخطيب . وبعد ذلك بسنوات طويلة ، وحينما كانت چانيت فى السادسة والثمانين ، ادعت أن لورانس كان قد طلب منها الزواج وأنها قد رفضته .

وكان لورانس قد عرف چانيت لاورى منذ الطفولة المبكرة . كانا رقيقى لعب حينما كان يسكن فى فولى أون ساوثا مبيتون ووتر ، وكان والد چانيت وهو ناظر إحدى الضيعات المحلية ، كثيرا ما يذهب مع توماس لورانس فى رحلات باليخت . وكانت چانيت قد التحقت بمدرسة داخلية فى أكسفورد عام ١٨٩٩ ، واستمرت



قريبة من عائلة لورانس دائمة الزيارة لهم حتى إنها كانت أحيانا تقيم معهم فى منزلهم بشارع بولستيد، وبذلك، كانت إحدى النساء القليلات التى سمحت لها سارا والددة لورانس بالدخول إلى المنزل، ومن ثم، أصبحت اختا بديلة لصبية عائلة لورانس، ورغم أنها عادت إلى هامبشاير بعد وفاة والدتها، إلا أن زياراتها لهم لم تنقطع. وكانت كثيرة اللقاء بلورانس أثناء سنوات دراسته بالجامعة، وكانا أحيانا يلتقيان فى منزله لتناول شاي الساعة الخامسة أيام الأحد. وفى عام ١٩٠٨، تجاهلت وشقيقها لوائح الجامعة وزارته فى مسكنه بكلية يسوع حيث تخلت عن قناعها الأرستقراطى لوقت كاف جعلها تسمح لنفسها بقذف قوالب السكر من خلال نافذة على أحد أساتذة الجامعة من الجيران. وكانت وهى الفتاة المليئة بالحبوية، الدافئة، الشقية المشاغبة، ذات الروح المسيطرة والتى تكبر لورانس بسنوات ثلاث، تنظر إليه كأخ أصغر شديد الذكاء. وكان لورانس بحب التفكه

معها ويتحداها أن تأتي بأفعال صبيانية، ويشاكسها إن هي عجزت عن الإتيان بها. وقالت چانیت إنه فی أحد أيام عام ١٩١٠، وكانت بمفردها فی غرفة المائدة فی شارع بولستید، قفز لورانس فجأة، وأغلق الباب لیمنع الخادمة من الدخول، ثم طلب منها، دون عناق أو قبل، أن تصبح زوجة له. وانفجرت چانیت، التي لم تكن تُكن أية مشاعر رومانسية، ضاحكة. وهنا نظر إليها لورانس بإذعان وقال «حسنا».

وهذا هو الشاهد الوحيد لدينا على أنه قد جذبتة امرأة أبدا. كما أن هذا يبدو غير متوافق مع الكثير مما كتبه. إلا أنه ليس بالطبع من المحال أن يشعر فجأة بالمشاعر الذكورية الجنسية تعتمل داخله رغم كل شيء. بيد أنه يبدو من المستغرب، ومع الأخذ فی الاعتبار الجدال الذي اشتعل حول جنسانية لورانس، أن تحتفظ چانیت بالسر طوال هذه المدة. وقد أخبر أشخاص عديدون چيرمى ويسلون المؤرخ المعتمد للورانس، أن تقرير چانیت «مبالغ فيه». كما أوضح ديزموند ستیوارت وهو مؤرخ آخر للورانس، أن للقصة شبها «غير طبيعى» بحكاية رفض «بوو» للشاعر الجرنون سوينبرن. وقد كشف لورانس القدر الكبير عن ذاته فی خطابه، إلا أنه لم يوضح أية مشاعر دافئة تجاه چانیت. كما أنه أخبر تشارلوت شو فی عام ١٩٢٧ أن صلتة العاطفية بوالدته تمنعه أن يجعل من أية امرأة أخرى أما أوسبا فی إنجاب أطفال. وعلى حين أن الزواج وإنجاب الأطفال ليسا بالضرورة شيئا واحدا (كانت السيدة شو متزوجة لكنها لم تنجب أطفالا)، فقد أخبر لورانس روبرت جريفز أنه لم يستطع أبدا حب أى أحد، وأنه لم يكن له أى شأن مع النساء فی صباه، ومن ثم تعود العيش دونهن. ورغم أنه كتب إلى روبرت جريفز لاحقا أن مقولته الأخيرة لم تكن صحيحة كلية، وأنه قد أحب مرة واحدة، فقد ظهر أن هذا الاستثناء كان شخصا يدعى (س. أ) الذى ألهمه بدوره فی الثورة العربية، والذى أهدى إليه كتابه «أعمدة الحكمة السبعة». وبشكل عام، فمن المتوافق عليه أن «س. أ» هو سليم أحمد المكنى بدهوم، وهو فتى عربى تعلق به لورانس فی سوريا فی فترة ما قبل الحرب. وصلات لورانس «باليورانيين» وغيرهم معروفة، رغم أن طبيعته المثلية ما كانت لتحول كلية دون احتمال عرضه الزواج من چانیت لاورى. وكان شقيق لورانس ويل الأكثر وسامة قد حاز إعجاب چانیت. وقد يكون لورانس

قد لاحظ ذلك مما أوحى إليه بدخول المنافسة . ويحتمل أن چانیت قد رفضته ، إن كانت قصة عرض الزواج حقيقية ، لأنها أحست بعدم مبالاته الأساسية بجنس النساء .

وسواء كانت چانیت لاورى قد جذبتة أم لا ، فإن لورانس سخر معظم اهتمامه فى أوائل عام ١٩١٠ لبحثه . وكان يقضى وقتاً طويلاً يعمل به حتى إنه أهمل مواده الدراسية الأخرى ، خاصة مقرر «الدراسة الخاصة» أو الحروب الصليبية . وأهمل مراجعتها حتى الأسابيع الأخيرة من الفصل الدراسى مركزاً فقط على الحقائق المجردة لمدة ثلاث ليال بينما كانت الامتحانات قائمة . أما البحث فكان نجاحاً هائلاً ، وحصل لورانس فيه على تقدير امتياز مع مرتبة الشرف ، لدرجة أن المشرف عليه ، ريجنالد لين بول ، أقام حفل عشاء خاصاً احتفاءً به . وأكسفورد ، كآية مؤسسة أخرى ، معرضة للتأثر بالشخصية . فعلى حين كان لورانس ذا عقلية فذة ، إلا أن مقدرته على أسر ومناولة من هم أعلى منه مرتبة كانت فاضحة بدرجة أكبر . ويمكن تلخيص موقفه من أساتذته فى النصيحة التى وجهها إلى أخيه ويل فيما بعد ، والذى كان قد تتلمذ على بعض هؤلاء الأساتذة إذ كتب إليه قائلاً : «أحذرك من صعوبة قيادة المسترجين والمستر باركر معا ( فى عربة واحدة ) ، وأن الطريقة الوحيدة للتحكم فيهما هى الإبقاء على خطك الخاص بينهما وأن تستغل من كل منهما ما يناسبك ، وهذا أمر مرهق إلا أنه مريح للغاية » . وكان فى الظاهر يبدو ثائراً نارياً على المؤسسة بأسلوب أسماه «أسلوب الفارس الصعلوك الذى يطاعن كل قادم» . كما لاحظ إدوارد ليدز «جسارته فى مهاجمة آراء ونظريات الكتاب الآخرين» . إلا أن «ثورات» لورانس كانت من أجل تبني أسلوب ما ، إذ إنه كان يملك موهبة خارقة على أن يخبر من هم فى مركز السلطة بما يريدون سماعه على وجه خاص . فقد كان لنظريته القائلة بأن أوجه المعمار العسكرى الرئيسى قد وصلت العرب من الصليبيين لا العكس ، أساس أيديولوجى يروق للإمبرياليين فى العصر الإدواردى ؛ وبالمثل كان اهتمام رجل مثل هوجارث بالحيشيين ينبع من اعتقاده أن الحيشيين كانوا من أصل هندى أروبي ، لا سامى ، ومن ثم يمكن تقديم البرهان على أن للأوروبيين دوراً فى خلق حضارة الشرق . فقد كانت ملكات لورانس قد اكتملت تماماً فى سن العشرين : الذاكرة الفذة للوقائع ؛ قوة الحدس الحادة كالموسى ( حادة

أحيانا لدرجة كافية أن يجرح بها نفسه) ! والقدرة على تقصى الوضع المؤثر، والقدرة على خلط الفانتازيا بالحقيقة، وعلى أن يفتن ويغوى ويسلى ويقنع ويحفز الآخرين للعمل؛ وتكريس نفسه للعمل باتحاه تحقيق هدف بعبد المدى؛ والقدرة على أن يكون مرنا في مواجهة التطورات وعلى أن يدفع بنفسه قدما في ظل خوف غير عادى وعزم لا يكل. ورغم أن لورانس كان غير تقليدى، فمن غير المحتمل أن يكون هوجارث والآخرين قد رأوا فيه شخصا ضد المؤسسة، ورغم أنه كان لويليام موريس، بطل لورانس، شطحات فى الاشتراكية الراديكالية، فليس هناك أى شاهد على أن لورانس كان قد نخلى عن التوجه المحافظ العتيد لوالديه. فكان يسخر من القوانين والمؤسسات الليبرالية مثل قانون المعاشات لكبار السن، وحركات المساواة بين الرجل والمرأة. ورغم أنه كان يكره السلطة، خاصة النوع الجامد غير المنطقى منها، إلا أنه كان أيضا يحد فيها سحرا خاصا. وقد كتب فيما بعد يقول إن ليبرالية الجسد والروح والنظافة والحيوية والمزاج المعتدل، لا يمكن لها العيش فى ظل ظروف عبودية العمل الشاق الشائعة.

ورغم أنه كان يرغب فى العودة إلى الشرق بعد التخرج، فإنه لم يجد فرصة فورية سانحة. وإزاء هذا قرر التقدم للحصول على منحة زمالة من كلية «أول سولز». ولما لم يتمكن من الحصول على أحد المركزين المتاحين، فقد قام بالتسجيل للحصول على درجة الـ B.A. (تبادل الماجستير) فى الآثار، وتقدم بمقترحات لرسالة عن فخاريات العصور الوسطى. ونال من كلية يسوع منحة قدرها ٥٠ جنيه استرلينا وتقدم باطروحتة التى تمت الموافقة عليها يوم أول نوفمبر. ومن ثم قام بالإبحار إلى فرنسا فى نفس اليوم للمرة الثانية فى ذلك العام ليشاهد مجموعة هائلة من فخاريات العصور الوسطى فى روان حيث وجد نفسه يعامل «كبالة» من قبل العاملين بالمتحف نتيجة خطاب توصية من الباحث المرموق سالومون ديناس. إلا أنه كان قد حمل معه على العبارة إلى الهافر خططا أكثر إثارة من الفخاريات. فقد كان هوجارث قد أبحر إلى القسطنطينية كى يبحث إعادة فتح الموقع الأركيولوجى فى كركميش بالقرب من جرابلس، فى منطقة الفرات العليا. فقد كانت ثمة مدينة حيثية جاء ذكرها فى الإنجيل وأعاد اكتشافها جورج سميث عام ١٨٧٦، وبناء على ذلك، قام المتحف البريطانى بتنفيذ أعمال التنقيب. وفى عام

١٨٨١ تم التخلي عن أعمال التنقيب . إلا أنه بعد مرور ثلاثين عاماً عاد الحثيون للأذهان مرة أخرى . كان هوجارث يأمل أن يجد مفتاح الهيروغليفية الحثية ، الأمر الذى كان العالم ينتظره ، فى كركميش . وفى سبتمبر ، أصدر الباب العالى فرماناً بإعادة التنقيب ، إلا أنه حدد ثلاثة شهور لبدء العمل . وحيث إن هوجارث كان يريد البدء فى فبراير التالى ، فقد سافر إلى تركيا للبحث فى أمر التأجيل .

وكزائر دائم التردد على المتحف الأشمولى ، تمكن لورانس من كشف خطط هوجارث ، ومن ثم ، سأل ليدز بأسلوب بدا عشوائياً « عما إذا كانت لديه معلومات عن أية حفريات وشبكة الحدود فى الشرق الأدنى » . وأجابه ليدز بأنه كان عليه التحدث فى الموضوع منذ وقت مبكر إذ إنه قد تم اختيار أخصائى فى الكتابة المسمارية يدعى كامبل - طومسون مساعداً لهوجارث فى عمليات التنقيب فى كركميش . واقترح لورانس أن يرافق البعثة بغير أجر إلا أن ليدز اعتقد أن المتحف البريطانى لن يقبله حتى بهذه الشروط . وكان هذا بمثابة صفة له . إلا أن لورانس كان قد تعلم المثابرة . فلدى عودة هوجارث فى نهاية شهر أكتوبر حادثه شخصياً فى أمر طلب الالتحاق بفريق كركميش . وكان يعلم أن مؤهلاته لا ترقى إلى مستوى مؤهلات كامبل - طومسون ، إلا أنه كان واثقاً أن هوجارث لم ينس كيف أن عظامه كادت تنهشم بواسطة رجال القبائل المعادية فى محاولته جمع أختام الحثيين له قبل عام . وقد كسب مناورته كسباً حسناً إذ إن هوجارث قفز مرحباً بالفكرة وأخبر لورانس أنه لن يصطحبه معه فقط كمساعد إضافى بل إنه سيحصل له على منحة زمالة من الدرجة الأدنى من كلية مودلين بحيث يتقاضى مائة جنيه سنوياً أثناء عمله فى الموقع . وكاد لورانس ألا يصدق ضربة الحظ هذه . فقد انشق الشرق له فجأة فاتحاً أبوابه ؛ وصارت الأرض التى طالما حلم بها كصبي منفتحة أمامه . لم يخبر أحداً فى بادئ الأمر عن هذه الترتيبات . إلا أنه ، وبينما كان فى روان لم يقدر على احتواء انفعاله وكتب إلى ليدز وهو منتش قائلاً : « سيذهب هوجارث للتنقيب ، وسأذهب إلى سوريا خلال أسبوعين كى أمهد الأودية وأسوى الجبال تحت قدميه » . وأضاف بلهجة تجمع بين البهجة والوقاحة أنه يحتضن أملاً أكبر من هذا وهو أن يتمتع بإبحار أكثر هدوءاً من إبحار اليوم السابق على العبارة العائدة إلى نيوهافن ، إذ إن حركة الرياح قد أوقعته الليلة السابقة من سريره

العلوى على أحد المسافرين، ولدى محاولته شكر الرجل الغريب على أنه حال دون ارتطامه بالأرض انحصرت إجابة الرجل في أن صاح «يا إلهي». وأضاف «لقد أخذت أضحك بعد هذا لمدة نصف ساعة بعد أن عدت إلى سريري. إلا أنني لا أعتقد أن الرجل قد تحقق من موطن الفكاهة في الأمر».

وصل لورانس وهو جارت وكامبل - طومسون إلى قرية جرابلس في عصر يوم ١١ مارس عام ١٩١١، وقد تجمدوا من البرد بعد أن خاضوا مياه نهر ساچور وصارعوا رياحا سيبيرية البرودة، وكانت معهم قافلة قوامها عشرة جمال وأحد عشر حصان تحميل. كانوا قد غادروا حلب قبل ذلك بأيام وقد تأخروا أسبوعا عن البرنامج المقترح بسبب ظروف المناخ إذ إن الشتاء كان الأكثر برودة في الشرق الأدنى منذ أربعين عاما. ولدى اختراق القافلة لطرق القرية، تراحم الأعراب لتحيتهم، وتطوع الكثيرون لمساعدتهم على تبريك الجمال وإنزال حمولات الخيل. وكان قد تم إخلاء منزل تمتلكه شركة محلية لحلوى السوس (العرقسوس) لسكناهم، وأسرعوا للاحتماء من قسوة الرياح القارسة، بينما كانت الجموع من السكان المحليين تتولى تفريغ المخازن ووضع متعلقاتهم بها قطعة قطعة.

كانت حفريات كركميش تقع على بعد حوالي ثلاثة أرباع ميل بعيدا عن القرية، وتتكون من ثلاث كومات ضخمة من الركام، كان يعتقد أن الأكبر حجما بينها - الوسطى - تغطي المدينة الحثيثة الرئيسية. وكان جورج سميث قد اكتشف الموقع ملهما بحاسته السادسة، لأنه رغم ذكر الإنجيل للمدينة في سفر إرميا، فلم يوضح التقرير الإنجيلي سوى أن المدينة كانت تقع في مكان قرب نهر الفرات. كان سميث يعمل بالحفر على الخشب إلا أنه اكتسب شهرة عالمية بعد أن قام بترجمة بعض النصوص التي عثر عليها في نينوى القديمة والتي أكدت قصة الطوفان الإنجيلية. وكانت تلك النصوص مكتوبة باللغة المسمارية البابلية - الأكادية، التي كانت نظاما مشتركا بين حضارات كثيرة في العالم القديم، وسمى كذلك لأن رموزه الهيروغليفية (البنكتوغرافية) اتخذت شكل إسفينات مخروطية يمكن نقشها بسهولة بواسطة قصب مشطورة على طفل مبلل. وأمكن فك شفرة الرموز الهيروغليفية عام ١٨٦٠، إلا أنه في حين أن الحثيين استعملوا

تلك الرموز في نصوصهم، فقد اتخذت معظم نقوشهم الطقوسية أشكالاً هيروغليفية لم تكن رموزها قد فكت شفرتها بعد. وكانت أسرار الهيروغليفية المصرية قد كشفت بواسطة حجر رشيد. ونظراً لأن سميث قد علم أن مدينة كركميش كانت تضم مستعمرة من كتبة الهيروغليفية الأجانب، فكان يؤمل أن تكشف الحفريات عن مفتاح ما للحيثيين القدامى.

وكانت كركميش قد أقيمت على تقاطع مجريين مائيين وارتكزت على حصن ارتفاعه ١٣٠ قدماً هيمن على المشهد المسطح وكان يطل مباشرة على منطقة ضحلة رئيسية من الفرات. وكانت مياه الفيضان الفجائي في الربيع تتقاذف وتماوج وتزيد بلونها البنى أسفل متاهة من القنوات مكونة قناة عرضها ١٠٠٠ ياردة تجري متماسة مع جزر على شكل أوراق الأشجار يسودها اصفرار ألوان زهورها. وعلى الضفة الأخرى كانت تقع قرية سامراء بين الحقول والبساتين ويكون مشهدها الخلفي جبال طوروس التي يكسوها اللون الأخضر صيفاً وتتوجهها الثلوج شتاء. كانت كركميش عاصمة للحيثيين في وقت مبكر حوالى عام ٢٥٠٠ ق. م. إلا أن موقعها على النهر منحها أهمية بالنسبة للجيش الغازية ولذا توالى عليها الأيدي مرات عديدة؛ فاستولى عليها سرجون الأشوري عام ٧١٧ ق. م. وبعد هذا بقرن هزم الفرعون المصري نخاو الآشوريين، ذلك الحادث الذى سجله العهد القديم. وقد كشفت الحفريات المبكرة عن بعض النقوشات الهيروغليفية التى كانت تبشر باكتشافات جديدة. إلا أنه لم يكن قد حدث تقدم فى فك طلاسم هذه النقوش. ثم تسبب الكشف عن حاضرة الحيثيين عند بوغاز كوى بالقرب من أنقرة عام ١٩٠٧ فى إثارة التساؤل حول الهيروغليفيات مرة أخرى. وهكذا وجد هوجارث، ولورانس، وطومسون أنفسهم مرة أخرى فى جرابلس عام ١٩١١.

بدأ العمل خلال يومين من وصولهم بقوة قدرها مائة رجل استأجروهم من جرابلس والقرى المجاورة. وبينما قام طومسون بعمل مسح للموقع، قام لورانس بتشغيل العمال بادئاً من حيث انتهى المنقبون السابقون. وسرعان ما اكتشفوا درجات سلم ضخمة إلا أنها كانت من العصر الرومانى وكانت جزءاً من طبقة متأخرة جداً أقيمت على الطبقات الحيثية. وكانت المهمة الكبرى فى الأيام الأولى

هى إزالة رقائق العصر الرومانى من أجل الوصول إلى الطبقات الأكثر أهمية التى كانت تقع على عمق حوالى عشرين قدما . وتحت إشراف جريجورى ، وهو ملاحظ عمال قبرصى استقدمه هو جارت خصيصة لهذه المهمة ، استخدم الرجال الحبال والعتلات وأخذوا يزيحون ألواحاً ضخمة من الأسمنت الرومانى ، كان الجميع يتصايحون ويصدرون الأوامر فى نفس واحد . وكان لورانس يستيقظ فى الفجر ليتناول طعام الإفطار من الخبز الذى يشبه المطاط والذى كان يصنعه طاهيهم الحاج وليد الذى كان أيضا يعمل ترجمانا ومستخدما يقضى المهمات المختلفة . وكانت شخصية الحاج مميزة ، إذ كان رجلا من أهل المدن مفتول العضلات من حلب ، وبرهن على أمانته وإخلاصه وتفانيه فى العمل ، إلا أنه كان كثير المكابرة ، خاصة بعد احتسائه الخمر القوية وكان كثيرا ما يفعل هذا . كان موظفا سابقا عمل ترجمانا فى القنصلية البريطانية فى حلب ، وكان فى الأربعين من عمره . وقد قيل إنه وبينما كان فى حالة سكر شديدة ، حدث وأن منع دخول قوافل الجمال إلى حلب من بوابة أنطاكية بأن أطلق النيران على الجمالين من سطح منزله . وكان أيضا قد ضرب ضربا مبرحا من خمسة إخوة لامرأة كان على علاقة سرية معها ، وقال إنه أطلق النيران على أربعة منهم فقتلهم ومن ثم التجأ إلى جرابلس هربا من الثأر حيث أصبح طاهيا ويضع مسدسه فى حزامه . ورغم أنه كان طباحا ماهرا بأسلوبه الخاص ، فلم تتعد مهاراته صنع الخبز بدون فرن ، حيث كان يمكن للفريق ابتلاع خبزه فقط بإضافة كميات كبيرة من أحد أنواع المربى التسعة التى كان هو جارت قد أحضرها معه .

وبعد الإفطار ، كان لورانس وطومسون يسيران حتى الموقع حيث يكون الرجال قد بدأوا العمل فى حوالى الخامسة والنصف صباحا . وأخذوا ينقبون فى الأسابيع الأولى عند قاعدة درجات السلم حيث لم يقرب المنقبون السابقون هذه المنطقة ، وكان الفريق يعتقد أن القصر الملكى يقع هناك . وقد وجد لورانس التنقيب الفعلى «متعة كبرى» . كان الرجال عادة يعملون فى مجموعات كل مجموعة من أربعة وكان كل فريق يتكون من حفار وجارف واثنين من الرجال يجمعون النفايات فى السلال «المقاطف» ويلقون بها فى النهر . وكان الجميع يتقاضون أجورا متساوية إلا أن معظمهم كان يطلب وظيفة الحفر التى كانت أسهل المهام ومعها الاحتمال



الأقوى للكشف عن «الأنتيكات». كان هذا الكشف حافزاً كبيراً إذ كان مكتشف «الأنتيكة» يُمنح بقشيشاً حيث تنعكس أهمية الأثر على المبلغ الذى يتقاضاه. ومع اقتراب أعمال التنقيب من النهر أصبحت الاكتشافات أكبر قيمة، لذا كان رجال النفايات يولون اهتمامهم لما قد يكون الحافرون أو الجارفون قد غفلوا عنه. وقد أظهر لورانس تمكناً كبيراً من فهم نفسية الرجال بأن استحدث نظاماً يقضى بأن يطلق ملاحظ العمال الرصاص إعلاناً عن كل اكتشاف، وكان عدد الطلقات يختلف باختلاف أهمية الأشياء المكتشفة؛ فكانت قطعة من العمل المنحوت يعادل طلقة بينما كان العمل الكامل يساوى سبع أو ثماني طلقات. وقد نظر الرجال إلى جوائز الطلقات كشرف أعظم من البقشيش التى كان يصحب الكشف إذ إنه رغم كل شيء، فقد كان البقشيش مجرد نقود، وكان المكتشفون يتجادلون بشدة مع الملاحظين بشأن عدد الطلقات التى يستحقونها حتى كان الأمر يصل أحياناً إلى حد تبادل اللكمات. وكان الذين لا يحصلون على أية طلقات لعدة أيام ينفجرون فى البكاء. وسرعان ما برهن لورانس على أن سر قوته كان مقدرته على حفز العمال، وكان كثيراً ما يحول العمل إلى لعبة بأن يشير الحفارين على الجارفين وناقلى النفايات حتى يأخذ كل فريق، بمن فيهم هو، فى الصياح والجري بحيث ينجز عمل يوم كامل خلال ساعات.

وبحلول الساعة الثامنة صباحاً كانت تُشاهد صفوف من النساء والأطفال فى ملابسهم الحمراء والزرقاء الزاهية وهى تخرج من القرى الواقعة على سهول النهر تحمل أوانى اللبن الرائب فوق رؤوسها. وكان هذا الوقت من اليوم يستهوى لورانس حيث إن الحرارة الشديدة لم تكن قد بدأت وحيث يكون الرجال نشطاء بدرجة كافية تسمح بتبادل الأحاديث والغناء والعزف على مزامير الرعاة. ورغم الثقافة العربية المهيمنة على هؤلاء الرجال، إلا أنهم كانوا خليطاً من الشعوب؛ الأكراد، والشراكسة والعرب والتركمان وكانوا أحياناً يتحدثون ثلاث أو أربع لغات وأحياناً يخلطون جملاً من كل تلك اللغات معاً. وكان لورانس الذى تلقى دروساً فى العربية المكتوبة من الأنسة فريدة العقل فى جبيل قبل أن يلتقى بهوجارث يجد لهجتهم العربية «كريهة» وغير مفهومة تقريباً. وبينما كان الرجال يعملون، كان لورانس وطومسون -الذى كان يتحدث العربية أيضاً- يشغلان نفسيهما بقياس

الأعماق وأخذ البصمات ونقل النقوشات ورسم الاسكتشات والتصوير . وسرعان ما تحققا أنه لا يوجد عمل كاف لكليهما . لذا قررا تقسيم الوقت إلى نوبات بالتبادل مع فترات في المنزل يفحصان فيها ما تم اكتشافه . وكان الرجال ينتهون من عملهم في الخامسة ، ويرجع لورانس إلى المنزل ليكتب السجل اليومي وقوائم الموجودات ويفحص الفخاربات التي عثروا عليها أثناء اليوم والتي كانت عهدته الشخصية . وقد خدمته ذاكرته الرائعة ، فكان بإمكانه أن يجانس بين الكسارات بشكل شبه فوري حتى ولو كانت قد اكتشفت - على مدى أشهر متفرقة . وكان ذا مقدرة على تذكر التفاصيل المعقدة للطبقة التي تم اكتشاف القطع بها حتى وإن لم يكن هو نفسه الذي اكتشفها وفيما بين السابعة يكون الحاج قد فرغ من تجهيز الطعام الذي كان محدودا حتى طرأت لهو جارت فكرة امتناع الخبز من الأتراك . وحدث أن كان الأسى يمتلك من لورانس ورفاقه حينما أفرغ الطاهي وعاء كاملا من بودرة الكاري على وجبة الأرز واللحم حتى إن لورانس قال «إنه كان مثل تناول لهب مخلوط بالشطة . إن الاثنين الآخرين يشتكيان من آلام في كبديهما» .

وتعتبر إشارته إلى « الاثنين الآخرين » هامة ، حيث إنه رغم حالة الرضى التي اعترته في كركميش إلا أنه من الواضح أنه قد عاود ارتداء معطف العرابية الذي صممه لنفسه . فالتأكيدات المتواصلة في خطاباتة على تفردة وتميزه وعظم قوة احتماله كانت في الواقع نتاجا لحالة عدم رضاء عميق عن النفس . فعلى حين امتنعت أسنان هوجارث عن مضغ الخبز « المطاطي » مثلا ، وكان طومسون يأكل القدر القليل بصعوبة ، كان لورانس في حالة « ازدهار » ، كما أنه كان الوحيد من الثلاثة الذي ينام الليل بعمق لمقدرته الخاصة على النوم في أية ظروف ( هذا على الرغم من أنه كان قد طلب بناء كوخ له في حديقة المنزل تحت زعم عدم تحميله الضوضاء ) . وقد كان هو الذي ثبت الأبواب والنوافذ والأرفف في المنزل لأنه كان الأكثر قدرة على عمل هذه الأشياء ، ومن الواضح أنه هو الذي كان يقوم بحل كل مشاكل الحفر نظرا لما له من مقدرة أفضل على « تركيب الأشياء وتحسينها » . أما هذه الهالة من السمو فكانت بالطبع متبناة - قوقعة لحماية ضعفه الداخلي - إلا أن البعض وجد هذا النوجه مقلقا ومن بين هؤلاء إرنست آلنويان الذي زار كركميش تلك السنة . كان والد آلنويان أرمنيا يدير مستشفى حلب ووالدته أيرلندية ، أما

هو فكان طالب طب وذهب في إجازة إلى كركميش حيث التقى بلورانس وشعر أنه شاب «نسج حول نفسه شرنقة، إلا أنه لم يكن لديه ثقة الرجل الناضج التي تمكنه من مغادرة الشرنقة في الوقت المناسب». وقد وجد آتونيان ذلك الشاب الهش الشاحب الصامت «متعاليا ومستحيلا». «بالوجه الأكسفوردي الخالي من التعبيرات، والأعين المسدلة، والحديث الخافت الممنوع؛ كان كيسيًا، لا شخصي، مثيرا للإعجاب، مقلقا، وغير محبوب». كما اعتقد أنه متكلف وقال إن مقدرته كانت ستكون بناءة لو أنه فقط «اعترف بقدرات الآخرين بأسلوب أقل إنكارا». وكان لورانس يخشى آتونيان الذي كان يتحدث العربية بطلاقة، وجمع بين خليط من السكان المحليين والأوروبيين، وكان مثقفاً، وأمكنه أن يبصر من خلال كل أقنعة الكلونبالية. أما لورانس فكان ببساطة غير مستطيع الاعتراف بمقدرة آتونيان لشعوره في أعماقه أن كل الرجال كانوا أكثر منه «رجولة».

وأبقى لورانس على شعوره بالرهبة إزاء هوجارث معتقداً أنه «رجل رائع» لخبرته الشاسعة عن الشرق ومقدرته على التحدث بوضوح بلغات ست ومعلوماته الموسوعية. ومن ثم، حاول باستمرار أن يحوز على إعجابه، وعلى سبيل المثال، فقد أيقظه ذات مرة خلال رحلة بالقطار ليشاهد قرية حاروشيث مسرح أنشودة ديورا بالعهد القديم. ولحسن الحظ، فإن هوجارث كان يشاركه الإعجاب بالقصيدة وملأته البهجة. وكتب لورانس وهو راضٍ إلى أهله قائلاً: «لقد سارت الأمور سيراً حسناً». ومن جهته، اعتقد هوجارث بإمكانيات لورانس كأثاري وظنه أفضل من طومسون في النواحي الأركيولوجية. ورغم أنه كتب فيما بعد عنه «أنه مساعد يحوز الإعجاب». إلا أنه شك في مقدرته على تشييد العمل قدماً. وقد لاحظ لينارد وولي الذي حل محل هوجارث في كركميش في الموسم التالي أيضاً توجه لورانس الطائش اللامبالي وكتب يقول إن لورانس كان متقلب الأطوار فيما يتعلق بالعمل بشكل مثير للفضول: «كان إذا استثير اهتمامه ذا مهارة متميزة، أما إذا كره شيئاً أو اعتقد بعدم أهميته تجاهله». وقال وولي إنه كان يجيد الانسجام مع العمال لدرجة أنه كان يعود أحياناً من جزء آخر من الحفريات ليجد لورانس جالسا مع العرب يتناقش في موضوع عن التراث الشعبي أو إحدى اللهجات المحلية. وكان لا يمكن مثلاً أن يرتكب شخص مثل كامبل - طومسون الذي كان إنجليزيا متعاليا

ضيق الأفق لدرجة احتقاره للسكان المحليين مثل هذا «الخطأ». ومن ثم كان بإمكانه تسخيرهم دون تردد مما حاز إعجاب هوجارث الذي كان يُكنى بين العرب «بملك الموت». وكتب لورانس عن طومسون قائلاً إنه كان «لطيفاً» و«ممتعاً»، كما أعجب بمعرفته اللغات السامية. وقد عملاً معاً، على حد قول هوجارث، باتساق ممتاز. إلا أن هذا كان يرجع إلى مقدرة لورانس على أن يسحر به الآخرين، وكان لورانس يخدم مصالح هوجارث إذ إنه كان له موقف تنافسي إزاء زميله الذي يكبره، وكان يسخر بينه وبين نفسه من استعراضه لفوته العضلية وللمجموعة بنادقه ومسدساته وسيوفه وأدواته الخاصة بالمبارزة التي أحضرها معه إلى الموقع.

ورغم أن لورانس كان انغزاليا نوعاً ما مع زملائه الإنجليز فقد كان يشعر بالراحة مع العرب حيث كان ينظر إليهم نظرة أبوية طيبة أو توقراطية. ولم تكن صلتهم بهم قائمة على المساواة. وكان إليك كير كبرابد هو من علق فيما بعد على أن لورانس كان أكثر استعداداً لحب من هم أصغر منه سناً أو أقل منزلة. كما أن تحدث كثيراً فيما بعد عن الإرضاء الذي كان يجده في العيش مع طبقات المجتمع الدنيا. بيد أن استجابته الأولية للعرب كانت استجابة جمالية فقد رأى فيهم الوسامة رغم أن غالبيتهم كانوا شديدي الخافة وكان بعضهم أطول منه. كما سحرته ثقافتهم، ومن ثم كرس نفسه لمهمة تعلم ما يتعلق بعاداتهم ولغتهم. فلم يكن فقط يحفظ أسماء جميع العمال، بل سرعان ما استوعب أسماء قبائلهم وأسراهم وطبيعة علاقاتهم. وقد أدرك لورانس بشكل شبه فطري أن الرجل في العالم العربي أكثر من مجرد فرد: فيما يعرفه هو أسرته وروابط قرابته. وسرعان ما أكسبته هذه المعرفة وضعاً خاصاً بين السكان المحليين، وأصبح باستطاعته استعمالها استعمالاً مؤثراً كسلاح نفسي. فكان مثلاً يسخر من المتباطئين بأن يحكى بعض أسرار عائلاتهم. ورغم كون هذا عملاً غير أخلاقى، إلا أنه كان أسلوباً مؤثراً في الإدارة، وأصبح في خلال شهر من وصوله يحكم في المنازعات بشكل غير رسمي ويحل خلافات التنازعات بين الحفارين والجرافين وناقلي النفايات، ويفصل بين أعضاء الأسر التي بينها ثأر، ينصح رجلاً بشأن مهر عروسه، ويدفع الكفالة لآخر ليفرج عنه، ويقوم بطرد بائع دخان أرمنى شك في أنه يرغب في شراء «الانتبكة». وكان يزهو بأنه يضمّد إصاباتهم وجروحهم التي كانت تحدثها الآلات والحجارة

المتساقطة ويداوى لذعات العقارب. ومن ثم، بدا يتصرف كمسئول بريطاني عن إقليم نموذجي في إحدى المستعمرات الإمبراطورية النائية، يدير شئون سكانه المحليين. حتى إنه كتب قائلاً: «كان على طومسون وأنا أن نكون أطباء وآباء روحيين ووكلاء للعrsan بالنسبة للجميع». وقد يكون هذا ترديداً لمقولات المسؤولين البريطانيين الكولونيين المتأدبين الذين «يحملون عبء الرجل الأبيض»، فمثلاً، كتب لوالدته قائلاً عن الشعب العربي «إنه مثير للعجب وأفراده جد بسطاء، إلا أنهم يملكون ذخيرة من الصراحة وحسن الفكاهة الطفولي اللطيف». أى أن العرب، طبقاً لهذه النظرة كانوا «المتوحشين النبلاء». وعلى حين أنه فى عام ١٩٠٩ امتدح تأثير الإرساليات الأجنبية بعملها على «تدوين» العرب، إلا أنه أصبح يدينها لتعريفها إياهم بالأفكار الأجنبية الغربية، الأمر الذى يؤدى إلى التأثير «الفج» على الثقافة التقليدية وذلك لأن العربى المتعلم «الفج» العالم بشئون دنياه والمتطلع إلى قوة خارج نطاق تحكمه يمثل تهديداً. ومن ثم، كان العربى التقليدى «النبيل» الذى يعرف مكانته ويتعامل معه باحترام مباشر غير واع ولا يتحدى أبدا حقه فى الهيمنة شخصاً أفضل. وبما أن لورانس كان هو الذى يستأجر الرجال للعمل ويفصلهم، فقد كانت له السلطة الكاملة على مقدراتهم، وقد استمتع دون أدنى شك بتلك السلطة إذ كتب يقول: «إنه لشيء عظيم أن يكون الإنسان مستخدماً للعمالة». وكان يبذل جهداً وعناية فى اختياره للعمال الجدد، ويرفض الكثيرين، ليس على أساس كونهم كسولين أو غير أكفاء، لكنهم لأنهم كانوا يبدون وقورين أو متأدبين أكثر من الحد المطلوب، أى أنهم كانوا يفتقدون بساطة الأطفال المتطلبة فى «المتوحش النبيل». ولسوء الحظ، فلم تجد معايير الجمالية إذ نشب فى شهر مايو خلاف خطير بين أولئك: العمال لم يحسمه سوى فصل حوالى ثلاثين منهم أى ثلث قوة العمل تقريبا. وقد أوضح لينارد وولى أن لورانس لم يكن يحب رجاله فى كركميش - جرابلس رغم ولعه الأبوى بالأعراب وثقافتهم إذ كان له صديقان فقط وهما الملاحظ المحلى أو حوجة - حمودى، والسقاء سليم أحمد المكنى بـ «داهوم».

وكان حمودى، وهو مغامر يتفاخر بجذوره البدوية، قد عاش شباباً طائشاً وتورط فى عديد من منازعات الدم والثار. وسبق أن أعلنت السلطات التركية أنه

خارج على القانون فاخترنا في التلال لمدة سنوات ثلاث كان يزور خلالها قريته متخفياً. إلى أن صدر عفو عنه عام ١٩٠٨ وعاش حياة رتيبة، حتى أتى هوجارث وافتتح عمليات التنقيب في كركميش، وسرعان ما لفت حماسه انتباه هوجارث فاختره ملاحظاً للعمال. كان طويلاً رقيقاً، ذا وجه مستطيل نحيل ومظهر مؤثر بمعطفه الاستراكان ذي الأكمام الطويلة وعمامته الحمراء. وكان لا يذهب إلى العمل أبداً دون أن يتمنطق مسدسه، وكثيراً ما كان يردد أنه لو تملك مائة جنيه فقط لاشترى حصاناً جيداً وبندقية وهجر الحياة المستقرة: «سأقتل رجلاً أو اثنين ثم ألتجئ» ثانية إلى التلال، وبحق الله سأكون أسعد حالاً من الحياة كالبقرة داخل الجدران». وإن كان إعجاب لورانس بحمودى قد أفسده أنه وجد أن «حديثه يبعث على الضجر الشديد» وأنه «لزوج كحيوان رخو» فلم يفسد أمر كهذا أحاسيسه تجاه داهوم الذي يظهر لأول مرة في يونيو عام ١٩١١ كسائق حمار في الرابعة عشرة من عمره أجبر على تجرع مسحوق مسهل Seidlitz Powder تحاشياً للضرب أو السخرية، وكجزء من حيلة لعبها على شرطى الدرك التركي، وأيضاً على أنه يعلن، مثل فرايداي تابع روبنسون كروزو أن الرجل الأبيض ساحر «خطير جداً لأن باستطاعته أن يحول الشخص فجأة إلى فرس أو قرد كبير». إلا أنه يظهر في خطاب آخر كتبه بعد ذلك بأيام «كشخصية مثيرة للاهتمام، وباستطاعته القراءة قليلاً»، وأنه أكثر ذكاءً من «عامية الجند»، وقد أبدى رغبة لإنفاق النقود التي يتكسبها في كركميش ليلتحق بمدرسة كي يصبح عربياً نصف «فج»، أى النمط الذي كان لورانس يبغضه. وفي الواقع، فقد وجد لورانس نفسه منقسماً أيدولوجياً تجاه داهوم، فعلى حين أعلن «بمبالغة متكلفة» أن «العرب في حالتهم الخام أفضل ألف مرة» إلا أنه اعترف أن حياة «العربي الخام» كانت «طاحنة بشكل بشع». لا تناسب سوى «المستوى المنخفض للعقول القروية المتدنية».

وخطابات لورانس، منتقد عصر النهضة و«عصر العقل» بالتساوى، في تلك الفترة تكشفه في أكثر حالات تناقضاته مع نفسه. فقد انتقد مثلاً «الأجانب الذين يأتون هنا ليعلموا الناس والأحرى بهم أن يتعلموا منهم»، إلا أنه يعلن بزهو في نفس الوقت أنه قد علم داهوم أن يستخدم عقله بجانب غرائزه. ورغم أنه قد أخبر والدته مبتهجاً أنه لا يوجد «بعد تأثير أجنبي» في الإقليم، إلا أنه تجاهل التأثير

الواضح لشخصين إنجليزين. فقد كتب يقول: «إن استطعت فقط أن تشاهدى التدمير الذى أحدثه التأثير الفرنسى بدرجة أقل من التأثير الأمريكى، فلن تمنى أبدا أن يمتد هذا التأثير». إلا أن الشهوة الكولونيالية «لتحسين الأفراد كسبت الموقف فى حالة داهوم، ففى غضون شهرين، كان لورانس يرسل الإرسالية الأمريكية فى جبيل لترسل له كتباً لتعليم داهوم. وطلب أن تكون هذه الكتب «عربية» لا «أجنبية» ولم يلاحظ لورانس فى هذا تناقضاً مع «العربى الخام» الذى كان قد دافع عنه بشدة منذ شهر واحد فقط. فالبنسبة له، كانت «لمسة» الأجانب الآخرين، خاصة الفرنسيين منهم، هى المفسدة إذ كتب يقول: إنه لا يرغب أن يفعل مع داهوم أكثر من إعطائه الفرصة لتحسين نفسه. ويمكن للمرء هنا أن يقول إن هذا ما اعتقدت الإرساليات الأجنبية أنها تفعله تحديداً. إلا أن لورانس استطاع بطريقة سحرية حذف نفسه من المعادلة لاعتقاده أن أثره كان طيباً خالصاً. وهذه النظرة بدأت من فرضية كمال الرجل الإنجليزى. فلا يمكن للعربى أن يطمح أبداً أن يكون إنجليزياً، إلا أن عليه أن يكون «إنساناً جيداً من نوعه». ومن أجل تشجيع هذا، اعتقد لورانس أن على الإنجليزى تعلم لغة العربى واستيعاب عاداته والإعجاب بتقاليده وعبر عن هذا بقوله «الإمساك بخصائص من حوله من الناس: حديثهم، وعادات تفكيرهم؛ وسلوكهم تقريباً». ولدى الانتهاء من إنجاز هذا، يصبح بإمكانه «توجيههم، وإرشادهم وفقاً لإرادته». وكان لورانس يزدري الأساليب الكولونيالية الأخرى، خاصة أسلوب الفرنسيين، لأن الفرنسى، على العكس، وضع نفسه فى موضع النموذج الذى يجب محاكاته: فبدلاً من أن يتعلم هو العربية، كان يشجع العرب على تعلم الفرنسية؛ وبدلاً من تعلم عادات العرب وتقاليدهم، شجع العرب على محاكاته. واعتقد أن نتيجة لأسلوب كونياليته الخاص سيكون هناك شعب له نماذجه الثقافية المميزة وفى نفس الوقت يصبح تحت الهيمنة البريطانية بشكل غير معلن. أما الأسلوب الفرنسى فقد أوجد أناساً أصبحوا «مبتدلين»، وشعوباً متناقضة ليس باستطاعتهم الوصول إلى المستويات الأوروبية المرتفعة فى الوقت الذى يكونون فيه قد تخلوا عن كل موروثاتهم. وكان لورانس شديد الحرص على تحاشي مثل هذا الموقف بأى ثمن. ونظراً لأنه اعتقد أن داهوم مادة ممتازة للتحسين، فقد علمه، ضمن أشياء أخرى، التقاط الصور فى

الموقع. بيد أن وولى وجد داهوم شخصا ذا ذكاء محدود بشكل مؤكد لدرجة أن غطى هذا العيب على شدة وسامة ملامحه. فقد كان جماله الجسدى، لا مقدرته على العقلنة، هو ما احتفى به لورانس، حيناً، وبعد عامين من هذا، نحت له تمثالاً وهو عار ووضعه على سطح منزله. وقد أبدى وولى ملاحظته، بشكل غير مباشر، على أنه، ورغم عدم اعتراف لورانس بأية مشاعر ود تجاه أى شخص فقد كانت ثمة «مشاعر حب عميقة تعتمل داخله تجاه أفراد معينين». وببساطة، فقد وجد لورانس فى داهوم، أو سليم أحمد (س. أ) حب حياته العظيم.

حينما رحل هوجارث وجريجورى فى ٢٠ أبريل، اتخذت أطوار لورانس الغربية شكلاً مريباً، فنراه يترك المنزل وينام فى الموقع. إما على تل الركام أو فى خندق، ولا بد وأن هذا التطور قد أصاب العرب بالدهشة. اعتقد لورانس أن هذا يقربه منهم، رغم أنهم أنفسهم ما كانوا ليحلموا بالنوم سوى فى منازلهم. ولم يكن التنقيب يسير سيرا حسناً إذ كان يكلف أربعين جنيه استرليني فى الأسبوع إلا أنهم حتى تلك اللحظة لم يكن لديهم ما يعلنون عنه من اكتشافات سوى رأس أسد غريب، ونقش نافر على البازلت، وأكوام من الفخاريات. ولم يتم العثور عن نقوشات حيثية. أو هيروغليفية. وحينما حل شهر مايو ولم يكونوا وعلى مدى أسبوع كامل، قد عثروا سوى على عملة رومانية، وجزء من شعر عنق أسد، وأساس لحائط بيزنطى، بدأت الفئوس تصطدم بطبقة من الصخر الصلد السفلية، وكانوا على وشك التخلي عن مواصلة الحفر. وفى ظل ظروف اليأس تلك، زارتهم جبرترود بل، وهى مستعربة وأركيولوجية متميزة، وكانت قد وصلت وهى تتوقع أن تلتقى بهوجارث وكانت جبرترود بل من نوع السيدات البريطانيات المتسلطات اللاتى تمكن بفضل مكانتهن الراقية فى المجتمع وتصميمهن من شق طريقهن إلى عالم الرجال. وكانت بل ذات نفوذ مؤثر ومن ثم خشى لورانس إن هى بعثت بتقرير عن الحالة الفعلية للتنقيب فى الموقع أن يغلق تلقائياً. وكان قد بدأ يتلذذ بحياة التراخى والكسل هناك، ويأمل فى العودة لموسم قادم. لذا كان من المفهوم أن يتخذ موقفاً دفاعياً عن الأنسة بل. كان لورانس يرى أنها لطيفة بشكل ما لكنها غير جميلة «إلا إذا أخفت وجهها وراء حجاب»، كما أنه وجدها فى البدايات جد مربكة لصعوبة إرضائها. وحينما انتقدت الأسلوب الذى يسير به



التنقيب حاول هو وطومسون «هرسها»، باستعراضهما لعملهما الغزير، والتسارع في الحديث عبر متاهات من المواضيع مثل المعمار البيزنطى، والتراث الشعبى الإغريقى، وأناطول فرانس، والتركيبات اللغوية العربية، وأسعار ركوب الجمال. وقال إنه بعد تسعين دقيقة وجدت الأنسة بل سعادة فى تناول الشاى والعودة إلى خيامها وهى تتمتم «إنها فعلا المعجزات». أما الأنسة بل فقد كتبت فى مذكراتها ببساطة ودون الإحساس بأن هناك خلافاً، إنها قد التقت بطومسون، وشاب آخر يدعى لورانس الذى تنبأت له أن يصبح رحالة، وأضافت قائلة: «لقد قدما لى عرضاً عن حفرياتهما وما عثرا عليه، وقضيت يوماً لطيفاً فى معيتهما».

بيد أن أسوأ مخاوف لورانس تحققت فى شهر يونيو حينما تلقى طومسون برقية من السير فردريك كنيون، مدير المتحف البريطانى، لتخبره بأن مجلس أمن المتحف غير راض عن نتائج التنقيب وبالتالى فلن يكون هناك موسم تنقيب آخر. ولم يكن أمامهم ما يفعلونه سوى تسوية الحفر. وترميم الأوانى التى بالإمكان ترميمها، وإنهاء العمل بالموقع. وفى شهر يوليو انتقل طومسون إلى تل الأحمر على الفرات لفك شفرة بعض الرموز الحيثية. ومن هناك رحل لورانس سيرا على الأقدام لزيارة أورفه ومشاهدة حران وبيره چك وتل بشار أو المنطقة التى ادعى أنه تعرض فيها للهجوم عام ١٩٠٩. وكانت نهاية تلك الرحلة مخزية كاسبققتها حيث عاد متثاقلاً بعد أقل من أسابيع ثلاثة إلى جرابلس وقد أنهكتة الملايا والدوسنتاريا، وامتلأت يده باللدغات المتقيحة، وتمزقت قدماه مرة أخرى. وخرجت القرية كلها تقريباً للترحيب به. وبعد مجلس استمر ساعة أحضر له حمودى الخبز والبيض المقلّى والزبادى وتركه ليأكل وحده. وفى تلك الليلة نام على السطح مصاباً بصداع واستيقظ ليشاهد شروق الشمس على السهل ما بين النهرين وهو محموم. وترنح يسير بتصميم إلى كركميش معتزماً قياس عمق بعض الخنادق، وحينما تبعه حمودى كى يساعده انتابته نوبة غضب شديدة ونهره بصوت عال ليعود من حيث أتى دون سبب واضح. وحينما وصل إلى تل الركام خر ساقطاً على ظهره ممدداً ورقد هناك مدة سبع ساعات ونصف يبلله العرق البارد ويكاد ينشق رأسه من الألم. وحينما استجمع قوته ليقوم، دهشه أن يجد أن الساعة كانت الثالثة عصراً. ثم ترنح فى اتجاه الخنادق ومعه شريط القياس

إلا أن بعضها كان عميقا ولم يكن ليثق بنفسه أن يستطيع قياس عمقها دون السقوط أسفلها. وكانت رحلته عائدا إلى قرية جرابلس إحدى أكثر رحلات سيره مشقة على الإطلاق. فقد قطع فيها ثلاثة أرباع ميل في ساعتين. وفي هذا المساء خط بين الخطابات بيد ثقيلة لدرجة أنه كاد لا يقوى على الإمساك بالفلم وأرسل بها عداء إلى بيره جيك ليستدعى له عربة ويطلب مساعدة الحاكم والطبيب المحلي. وعاده أعراب كثيرون من بينهم داهوم إلا أن شدة المرض أعجزته تقريبا عن رؤيتهم. ووقد منبطحا في اليوم التالي في منزل حوجة، تزعجه نوبات الإسهال التي حتمت عليه أن يندفع إلى الخارج لقضاء حاجته. ووصل به الحال لدرجة أن أغمى عليه في أحد الممرات وجرح خده جرحا عميقا على صخرة حادة الحواف. وفي المساء، أراحته مرة أخرى زيارة من داهوم. ولم تظهر العربة القادمة من بيره جيك في اليوم الثالث وخشى لورانس أن يكون العداء قد فر بنقوده. ورغم أن حمودى كان يبذل جهده من أجل راحته إلا أنه وجد أنه لا يطيق صبرا على هذا «الإنسان المضجر البشع». وكان من بواعث ضيقه بأسلوب جحا تكراره كل جملة خمس أو ست مرات موحيا بضعف لغة لورانس العربية ومؤكدا على كونه أجنبيا. ومن المحتمل أنه نظرا لضعفه فقد كان من الصعب فهم مايقوله بالعربية. أما الحقيقة، فإنه كان مدينا لحمودى بحياته.

وبينما كان لورانس راقدا في شبه غيبوبة، كان حوجة بقود معركة مع الراى العام. فقد نصحه جيرانه الذى عمل غالبيتهم فى الحفريات بواقعية وحشية أن يلقي به إلى الخارج إذ إنه لو حدث ومات الإنجليزى فلابد وأن يتهم حمودى، قاطع الطريق سابقا، بأنه دس له السم ومن ثم يلقي القبض عليه ويزج به فى السجن، إلا أن حوجة أرسى قواعده: فلو أنه طرد لورانس لما كان هذا انتهاكا لتقاليد الضيافة الإسلامية، إلا أن هذا سيكون إهانة شديدة لصاحب عمل قد يقدم له وظيفة فى المستقبل. ولابد أن لورانس قد استمع إلى بعض هذه الأحاديث. لأنه أعطى حمودى خطابا موجهاً إلى والده يقرر فيه إنه فى حالة وفاته لا يتحمل حوجة أية مسئولية. وظلت حياته معلقة بخيط رفيع لمدة أيام ثلاثة. ثم تحسنت حاله قليلا فى الأول من شهر أغسطس. وأجبر لورانس نفسه على التحرك نحو النهر بصعوبة مع فترات توقف للراحة للاغتسال الذى كان يحتاجه بشدة. وصل العداء فى

الساعة الرابعة والنصف عصراً من بيده جاك دون عربة وقال إن الطبيب المحلي والحاكم رفضا المساعدة. ومن ثم، وجد لورانس نفسه في مأزق كارثي وكان عليه أن يواجه فترة انتظار قدرها أيام خمسة كي يرسل من يبعث برقية لإحضار عربة من حلب، أو ليركب حصانا إلى ممبج حيث كانت توجد عربات أخرى. بيد أنه كان عليه أن ينتظر يومين كي يستجمع قواه. وبينما كان على وشك الرحيل انقلب عليه حمودى ورفض أن يعيره حصانه الذى لم يكن باستطاعته الوصول هناك بدونه. وترنح لورانس وهو ثائر بسبب انقلاب كرم مضيفه المفاجئ غير تفسير ووصل إلى جزء آخر من جرابلس بمساعدة داهوم وتمكن من استئجار حصان لإيصاله إلى تل الأحمر حيث كان يأمل أن يقدم له أحد ما يركبه إلى ممبج. وكانت هناك مشكلة أخرى وهى عدم وجود نقود معه لدفع إيجار الحصان، إلا أن مالكة كان كريما وائتمنه على الحصان حينما أبلغه لورانس أنه سيقوم بتحويل النقود من البنك في تل الأحمر ويرسلها إليه والحصان مع داهوم. ومن ثم، سافرا ليلاً في ضوء القمر ووصلا إلى جزء نهر الفرات الذى تقع عليه تل الأحمر ليجدا طريقهما وقد قطعتة مياه نهر ساجور الذى فاض بمياهه. وغاص داهوم فى المياه وعبر سابحا وأحضر قارباً لنقل لورانس والحصان إلى الشاطئ الآخر، وهناك، تمكن لورانس من تغيير النقود فى أحد البنوك السورية وأرسل داهوم إلى بلدته سعيداً بعد أن منحه شلنين ونصف وبرفقته حصان جاره. ثم رقد عاجزاً فى مزرعة للقنب حتى منتصف الصباح حين تمكن من استجداء ركوبة فى عربة بضائع متجهة إلى ممبج. وهناك، وبعد معاناة المشاحنات مع السائقين تمكن من استئجار عربة إلى حلب حيث وصل يوم ٥ أغسطس وألقى بنفسه شاكراً فى فندق البارون.

وتناوبت عليه هجمات الحمى رغم أنه تمكن من ابتياع بعض الأشياء من سوق المدينة مع الحاج وحيد، كما استجوب بعض البائعين المحليين بشأن آلة التصوير التى سبق أن سرقته منه؛ إلا أنه كان يجهد نفسه كثيراً وقد أصيب بشبه غيبوبة. وذات مرة، جلس لتناول الطعام فى الفندق وهو مصاب بالدوار، ثم استعاد إدراكه لفترة كافية أن يسب الجالس على المنضدة المقابلة داعياً إياه «خنزيراً» ومتسبباً فى حالة هياج هائل. وكان الرجل يهودياً يونانياً. وأراد أصدقائه أن يجبروا لورانس على الاعتذار فى حين أن بعض مهندسى السكك الحديدية من الألمان البدناء أخذوا

جانب لورانس . وأخذ مدير الفندق يعدو بين الموائد وهو يعتصر كفيه . وبعد أيام ثلاثة استقل لورانس القطار إلى دمشق ، وفي يوم ١٢ أغسطس وعقب ليلة فظيعة أصيب فيها بالحمى أبحر من بيروت . وتمكن أن يكتب في مذكراته : « السفينة مليئة بالناس ومن الواضح أن كلهم سوريون » و« غادرت بيروت الساعة ١١ صباحا . انتهى كل شيء » . وتمكن من أن ينجو من أكثر سنوات حياته إثارة وحسماً بمعجزة . إلا أن كل شيء لم يكن قد انتهى . فقد كان طوال الطريق من جرابلس يحتضن خطاباً من هو جارت يخبره فيه أنه ، ورغم كل شيء ، فما زال البحث جارياً بشأن موسم آخر في كركميش . ومن ثم كتب لورانس الآتى : « إنها أفضل أنباء سمعتها منذ مدة طويلة » .



# البارون والنظام الإقطاعي

كركميش ومصر

١٩١١-١٩١٣



---

عاد لورانس مرة أخرى

---

إلى جرابلس بعد أن شفى من

---

مرضه. وكان قد تم إقناع السير

---

فريدريك كينيون باستئناف عمليات

---

التنقيب، ويرجع هذا جزئياً إلى ضغط

---

الحملات الصحفية التي قاد الكثير

---

منها هو جارت بماله من نفوذ.

---

وفي أواخر شهر يوليو نُشر خطاب في صحيفة «التايمز» بعنوان «التخريب في أعالي سوريا وما بين النهرين» كان له أثره مما أثاره عن الشيفونية البريطانية إذ أوحى بأن حجارة كركميش القديمة كانت تستعمل في بناء خط سكك حديد برلين/ بغداد الذي كان قد أوشك على الوصول إلى الفرات. ورغم أن الخطاب نسب إلى مجهول فقد كان كاتبه هو لورانس في محاولة منه لاستغلال الرأي العام لصالحه باستخدام إعلام المؤسسة. ولم يوافق كينيون فقط على إعادة فتح الموقع بل إنه أيضا ضم لورانس للفريق المساعد براتب قدره ١٥ شلن يوميا. وعين صديق لورانس القديم لينارد وولي مديرا بدلا من كامبل - طومسون الذي كان قد قرر الزواج.

ولدى عودة لورانس كان أثر شركة السكك الحديد الألمانية واضحا، إذ إنها كانت تقوم بتشبيد سقائف لاستعمالها مخازن ومعسكرات للعمال استعدادا لإقامة الجسر الخشبي الذي كانوا على وشك بنائه. وكان راف فونتانا القنصل



البريطاني في حلب قد أبلغهم بأسلوب تعوزه الثقة أن موقع كركميش ملكية بريطانية وأن عليهم ألا يلمسوا أى حجر أو نصل عشب هناك. ولم يعلم الألمان لدى موافقتهم على تحريك الكوبرى بقدر طفيف أن ادعاء فونتانا زائف. وكانت مهمة لورانس أثناء شهر نوفمبر أن يكتشف من هو المالك الفعلي للأرض الأمر الذى اقتضى منه الغوص فى محفوظات الحكومة فى بيره چك بمساعدة الحاج وحيد و مترجم من القنصلية البريطانية فى حلب. وكان اكتشافهم غير مشجع إذ إن المتحف البريطانى كان قد اشترى فقط أربعين دونم من إجمالى مساحة قدرها ١٦٠ دونما وكانت المساحة الباقية وقدرها ١٢٠ دونما مملوكة لشخص من الأهالى يدعى حسن أغا. وقد توقع لورانس أن يؤدى هذا الموقف إلى مشاكل فى حينها. بيد أن إقامته كانت قصيرة حيث إنه كان قد قام بترتيبات للعمل تحت إشراف البروفسور فليندرز بيتري فى مصر من أجل تحسين معلومات عن الأساليب الميدانية للتنقيب. وفى يوم عيد الميلاد من عام ١٩١١ غادر هو والحاج وحيد جرابلس بعربة خيل وسط أمطار شديدة. وبينما كانت العربة تعبر كوبرى للمشاة على نهر ساجور

انزلقت في النهر وغمرت المياه أحد الخيول وشلت حركة الثاني بينما أخذ الثالث يضرب الهواء بأرجله بجنون. ولحسن الحظ، اندفع لورانس والحاج، اللذان كانا يسيران في المقدمة، إلى الماء لإنقاذ أمتعهما، بينما حاول السائق مهتاجا أن يرفع رأس الحصان الغارق. وتم إنقاذ الكثير من أمتعة لورانس، وعند مرحلة معينة أوشك الحاج على الغرق حينما انزلقت قدمه وسقط رأسا على عقب في دوامة مائية واستغرق إخراج العربية ساعتين وسط هطول الأمطار الصقيعية. وحيث إن وجبة غذائهما تشربت بالمياه فقد اكتفى كل منهما بثمرة جوز وشربا كمية هائلة من المياه العكرة. وفي هذا الصدد، قال لورانس «لقد كان عيد ميلاد لا تمحى ذكراه».

وفي ١٢ يناير لحق لورانس ببيتري في كفر عمار على بعد خمسين ميلا جنوب القاهرة، ورغم أن لورانس كان قد حلم بمصر كصبى، إلا أن نظام البروفسور الصارم ومنهجيته لم ترق له مما تسبب في كراهيته للعمل الذي كان يتكون بشكل أساسي من استخراج جثث محنطة من مقابرها. وكان بيتري، الذي التقى به لورانس لفترة وجيزة في متحف الأشموليان، أبرز علماء الآثار في زمانه. وكان، خلافا لهو جارت الأكسفوردي الأبوى المترفع، قد بدأ مساحا متواضعا دون دراسة منهجية، ووظف مواهبه العظيمة لتغيير أساليب علم المصريات. فقد كان المتخصصون في المصريات، قبل بيتري، لا يتعدون كونهم لصوص كنوز ونفائس محترمين يعملون تحت هاجس اكتشاف المعابد وتهريب أعداد كبيرة من التماثيل لا حصر لها إلى المتاحف في الخارج. وكان بيتري أول من لفت انتباه لورانس إلى تفاصيل الحفريات مثل النقوش وكسارات الأواني، أو أجزاء التماثيل أو بقايا خاتم.. إلخ. وكانت أساليبه للتاريخ تتضمن الأسلوب الذي أصبح سائدا الآن أي «التدهور الأسلوبى Stylistic degeneration». وعن قرب، وجد لورانس في بيتري قطعة أثرية «مثل الكاتدرائية». وحينما أتى لورانس إلى الموقع يرتدى قميصا واسعا و«شورت» أخبره البروفسور أن «القوم هنا لا يلعبون الكريكييت». ووجد لورانس رد الفعل هذا مبعثا للتسلية إذ إنه كان يرتدى نفس الملابس في كر كمش، إلا أنه تحقق أن ارتداء «الشورت» كان يعتبر انتهاكا للوقار في مصر بيد أن الإشارة إلى الكريكييت كانت مبعث سخرية لورانس الذي كتب قائلا: «أعتقد أنه كان يعنى كرة القدم». ورغم أنه كان يعتقد أن بيتري دوجماتي وعنيد إلا أنه كان يكن له احتراما كبيرا.

وأضمر لورانس عزوفا شديدا عن المصريين الذين كانوا، خلافاً لعرب جرابلس، لا يمارسون اللعبة الكلوניالية التي يؤكدون فيها للرجل الإنجليزي أن قوته لا تنتقص من قدرهم. وقد وجدهم لورانس قبيحى المنظر وقذرين ومتبلدين وعبوسين وتعوزهم حيوية رجال جرابلس. ولم يستطع التحدث إليهم بنفس «الألفة اللذيذة غير المقيدة» لأنهم كانوا إما أفضاظا مكفهرين يذكرونه بمكانته، أو أنهم كانوا «يستبيحون لأنفسهم حريات» ويتجاهلون مكانته. ولم يكن أى من هذين الأسلوبين مقبولا لديه، إذ إنه افترض أن على العربى أن يعامل الإنجليزي بصراحة جافة جاهزة توحى بوجه المساواة دون تخطى الحدود إلى عدم الاحترام.

وفى مصر، كانت الهوة بين الأقوياء والضعفاء واضحة، أما فى الشام فكانت مستترة بشكل مريح. إلا أن هذه التحيزات مضافاً إليها الحنين إلى عودته لكركميش لم تثبط عزيمته لدرجة أن أعجب به بيتري وعرض عليه راتباً قدره سبعمائة جنيه استرليني فى العام ليشرف على الحفريات فى البحرين أو فى مناطق أخرى من الخليج. ورغم إغراء هذا العرض إلا أن نداء سوريا برهن على أنه من القوة بحيث عاد لورانس إلى كركميش فى نهاية فبراير.

وكان على وولى أن يمكث بمصر حتى شهر مارس. وتلقى لورانس أوامراً بأن يمضى فى بناء منزل بعثة التنقيب كمقر دائم. ومن ثم استأجر بمجرد وصوله إلى جرابلس اثنين وعشرين رجلاً وبدأوا فى وضع الأساسات. بيد أن العمل توقف بسبب تدخل العريف قائد الحرس التركى الذى كان قد تموضع فى الموقع منذ زيارة لورانس الأخيرة. ومن ثم سأل العريف لورانس بأدب إن كان لديه تصريح ببناء منزل، وهنا أجابه لورانس بأن المسئولين قد حصلوا على تصريح وأن الحاكم المحلى على علم بذلك. وأجابه العريف قائلاً إن هذا قد يكون صحيحاً إلا أن ذلك الحاكم لم يعد موجوداً. ولم يكن هناك بديل من أن يوقف لورانس العمل وأرسل برقية إلى إسطنبول يطلب فيها تصريحاً. وبعض مضى أسبوعين كان لورانس مازال ينتظر التصريح. ثم سافر إلى حلب ليقابل وولى الذى كان قد وصل يوم ١٠ مارس متوقفاً أن يجد المنزل معداً وتملكه الغضب حينما علم أن العمل لم يكن قد بدأ ومن ثم أرسل برقية إلى كينيون فى لندن يطلب اتخاذ إجراء. بيد أنه كانت ثمة

أخبار أشد سوءاً. فلدى وصول لورانس وولى إلى الموقع بعد أيام وشروعهم فى استئجار عمال أخبرهم العريف أن العمل محظور. وأرسل وولى خطاباً قصيراً قاطعاً إلى الحاكم يطلب منه أن يمنع تدخل العريف، ونظراً لثقتهم فى تلقى إجابة سريعة شرع فى استئجار ١٢٠ رجلاً. وبعد فترة وجيزة وصل العريف بخطاب ينص على أن الحاكم لا يعرف من هو وولى وأن العمل لا يجوز أن يبدأ تحت أية ظروف و«كانت هذه صدمة كريمة» هكذا كتب وولى «فلا يعنى تأجيل العمل فقط إهدار الوقت، لكن أيضاً سيدمر ثقة الرجال واحترامهم، وهو أمر له أهميته فى بلدة تفتقر إلى المدنية».

واجتمع لورانس وولى وقررا مواجهة الحاكم. وفى ١٧ مارس ذهباً ممتطين صهوة جواديهما إلى بيرة جك على مسافة ٢٥ ميلاً إلى الشمال. وعبرا الفرات، وتركاً مطيتيهما فى الخان، ثم سارا بنشاط إلى سرايا الحكم التى كانت تظللها قلعة من القرن الثانى عشر. وأرسل وولى ببطاقته إلى مكتب الحاكم. ولما لم يتلق رداً، أرسل بطاقة أخرى بعد فترة. ومرت الدقائق دون أن يتلقى رداً. وشعر وولى أن هذه معاملة لرعاية بريطانيين لا يمكن احتمالها فانفجر غاضباً واقتحم هو ولورانس مكتب الحاكم وجلس دون استئذان أمامه. ثم نساءل وولى، بقدر من التهذيب، عن سبب حظر العمل فى الموقع. وأجابه الحاكم، وكان شيخاً بدنياً ذا لحية صغيرة ويبدو عليه اللؤم، أن الفرمان الذى يسمح بالحفر فى الموقع قد منح لشخص يدعى السيد د. ج. هوجارث، على حين أن أياً من الرجلين الجالسين فى حضرتة لا يحمل هذا الاسم، ومن ثم، لا يمكن السماح لهما بالعمل. واحتج وولى قائلاً إن لديه خطاباً من هوجارث ومن المتحف البريطانى، وبما أن تلك الخطابات كانت باللغة الإنجليزية، تجاهلها المحافظ وأخبرهما أنه قد يستطيع السماح لهما بالعمل إن كانا على استعداد لدفع مرتب مفوض غير رسمى. وتأكد وولى ولورانس أن الحاكم يبحث عن رشوة كبيرة. ولا نعرف ما تلى هذا على وجه الدقة. فقد ادعى وولى أنه قفز من مقعده وأمسك بمسدسه وصوبه إلى رأس التركى مهدداً إياه بإطلاق النيران عليه فوراً. بيد أن الأكثر احتمالاً هو أنه قد أخبره أن العمل سوف يبدأ سواء أراد ذلك أم لم يرد، ومن ثم أخبره الحاكم أنه سيمنعه بالقوة. وحينذاك أجابه وولى أنه يامل فقط أن يأتى هو على رأس الجنود إذ إن هذا سببمنحه فرصه إطلاق النيران

عليه أولاً . فأجابه التركي «هكذا!! إذن فأنت تعلن الحرب على الإمبراطورية العثمانية». وكان رد وولى هو «ليس على الإمبراطورية العثمانية، بل على حاكم بيره چك فقط».

ولدى تحقق الحاكم من عدم انطلاء خدعته عليهما تراجع معلناً أنه لا يرى سبباً لنلا يبدأ العمل فى اليوم التالى . وكان لديبلوماسية التهديد بالقوة «سفن المدفعية» هذه أثر كبير على لورانس، رغم احتقاره «لأوهام الجنس الحاكم»، إذ إنه بدأ فى محاكاة الأسلوب الحاد لمديره الجديد، مثل ما حاكى من قبل أسلوب هوجارث الرزين . فكتب لإدوارد ليدز قائلاً: «إن وولى إنسان ممتاز حقاً . كان عليك أن تستمع إليه وهو يعلن أسفه لحاكم الإقليم عن كونه مضطراً لإطلاق النيران على جميع الجنود الذين يحاولون منع العمل فى كركميش وأسفه على أن الضحية الأولى ستكون العريف الصغير».

وعاد الاثنان إلى كركميش منتصرين حيث كان جيش العاملين قد استعد بالمسدسات والبنادق لمواجهة الأتراك . ولدى رؤيتهم الرجلين الإنجليزين وقد عادا مطمئنين جواديهما بخفة ودون أن يصابا بأذى، هتف العرب بحماس صاحبه إطلاق النيران . وأطلق الحاج وحيد، الذى كان وولى قد أوكل إليه مهمة الإشراف على العمال، عشر طلقات من خلال سقف خيمته من بندقية لورانس ابتهاجاً بالمناسبة . واجتذبت الضوضاء مجموعة من المهندسين الألمان الذين اندفعوا لمشاهدة ما اعتقدوا أنه معركة ليصطدموا بموكب فرسان يرافق الحاكم نفسه الذى حضر لتقديم اعتذار رسمى وليؤكد للجميع أن بإمكانهم البدء فى العمل، وغض طرفه عن مشروعية بناء المسكن رغم أن لورانس لم يكن قد تلقى الإذن بذلك من إسطنبول . ومن ثم عمد لورانس، وقد ألهمته عدم المبالاة، إلى الإبراق بصلافة إلى العاصمة مرة أخرى مقترحاً أنه قد يكون من المناسب أن يحصل على إذن ببناء المنزل قبل أن يكتمل البناء بالفعل .

وبهذا، كسب البريطانيون الجولة الأولى . إلا أن الحاكم التركي سرعان ما وجد طريقة لتوجيه ضربة إليهم . فقد شرعوا، لفترة، فى بناء المنزل، واستخرج لورانس فسيفساء رومانية وجدها فى موقع على بعد ميل ذات ألوان رائعة ترجع إلى القرن

الخامس، وقام بتركيبها قطعة قطعة كأرضية لغرفة المعيشة. وأصبح منزل البعثة «قاعة من العصور الوسطى» التي طالما حلم بها مع ريتشاردز - مبنى متسعاً أنشئ حول صحن يحوى ما لا يقل عن إحدى عشرة غرفة منها غرفة مظلمة لتحميض الأفلام. ومارس لورانس الحرف التي كان قد تعلمها في صباه حيث نال من الاستحسان ما لم ينله في منزله. كما قام بصنع حوض استحمام وغطاء للمدفئة من النحاس المطروق، وصمم مقعدين صنعهما في حلب، وأقام أعمدة من البازلت وحلها للأبواب، وفيما بعد، وضع عتبات عليا للأبواب على الطراز الحيثي. ثم قام باختيار الستائر والسجاجيد وأوانى فخارية من بين الأوعية الحيثية التي لا تقدر بضمن وطاسات للشرب ابتاعها بأموال البعثة من قرية مجاورة، وإراحة لضفيره، قرر لورانس أن يعيد إلى المتحف أى شئ يتبقى بعد انتهاء المهمة. وتصور الأوصاف المتاحة لورانس في هذه الآونة كخبير متمرس فى السجاجيد والأطعمة العربية والقهوة والتحف الفنية والأشياء الأخرى. «الأشياء الجميلة التي يملأ الفرد بها منزله». وطبقاً لوولى فقد كان مظهر لورانس فى المساء يختلف تماماً عن مظهره فى الصباح كشاب ذى شعراً شعث، أما فى المساء، «فكان يصفف شعره بعناية ويجلس أمام مدفئة الشتاء ليقرأ... حتى إنه كان يبدو بشعره المصفف ومظاهر «الفخخة» التي تحيط به، لا يمت بصلة للورانس الصباح».

وكانت التحفة الفنية التي تتوسط غرفة الحلوس قطعة نسيج مطرز من تصميم ويليام موريس أرسلت من أكسفورد وأصبحت مصدر تسلية لا ينقطع للورانس. فحينما كان يصل زائرون من أوروبا كانوا، دون استثناء، يتجاهلون قطع الأنسجة العربية الرائعة التي جمعها، ويقفون محمقين فى قطعة موريس. وحينما كانوا يتساءلون عن «البازار» الذى ابتاع منه هذا النسيج المدهش، كان لورانس بجيب وقد تملكته البهجة «آه، بإمكانكم شراءها من شارع أكسفورد نظير شلنات قليلة للياردة».

وقد أبقى لورانس ووولى المنزل مفتوحاً لاستقبال أى قادم، وكثيراً ما كانا يدعوان المهندسين الألمان بأسلوب متحضر للطعام. ورغم أن مخاوف لورانس من أن تقوم الشركة الألمانية بنقل الحجارة القديمة إلى كركميش لاستعمالها فى بناء

السكك الحديدية كانت هواجسه لا أساس لها، فقد استمرت كراهيته للألمان، وظاهرياً، كان يسوءه منهم أنهم لا يعرفون كيف يعاملون العرب، بيد أن السبب الحقيقي كان تطفلهم على مجاله الخاص وتكوينهم مركز جذب بديل للأهالي. وكانت مهارات لورانس تتركز في كيفية تعامله مع العرب، وهذه مهمة كان يؤديها وفقاً للتراث البريطاني للكلونيالية الأبوية التي تكون عبر القرون. أما الألمان، فكانوا يفضلون الأساليب التيوتونية في الحكم، هذا رغم أن هدفهما كان واحداً في جوهره. ورغم أن لورانس حاول مخلصاً أن يرى الأشياء من خلال منظور عربي ونجح في هذا أكثر من كثيرين غيره، إلا أن أسلوب «التوحد مع العرب» كان أسلوباً للتحكم. فقد اعتقد أن العرب أسمى أخلاقياً من الأوربيين لأنهم «بدائيون» ومن ثم «أبرياء» دون أن يدركوا ذلك. أما حقيقة موضعه المتميز فقد قرره بصراحة حينما كتب «وحقيقة، فإن هذا البلد بالنسبة للأجانب أكثر روعة من أن تعبر عنه الكلمات: فالإنسان هنا سيد في نظام إقطاعي». وقد أخفى إحساسه التنافسي مع الألمان لأنهم كانوا في حالة تكافل: فقد كان المهندسون في حاجة إلى ما يصفون به الطرق، وكان البريطانيون بحاجة للتخلص من الحجارة التي كوموها في الموسم السابق كي يحفروا تحتها. ومن ثم، تم الاتفاق على أن يحمل الألمان أحجار البريطانيين وبهذا يتخلص البريطانيون من المخلفات دون نفقات. وناسب هذا الترتيب الجميع باستثناء حسن أغا، المالك الجزئي للموقع، الذي شعر أنه قد اعتدى عليه ومن ثم، دخل ذات يوم إلى المعسكر الألماني وطالب بثمان الأحجار وأصر الألمان على عدم قدرتهم على الدفع، وأنه إن تمسك بهذا فسيحصلون على الأحجار من جهة أخرى. وهرع حسن أغا إلى بيره چك ليشكو أمره إلى الحاكم الذي رأى في هذا فرصة للانتقام.

وعقب أيام قليلة، وصل رجل يمتطي جواداً ومعه استدعاء يقضي بأن يظهر لورانس أمام المحكمة الشرعية بتهمة سرقة ما قيمته ثلاثون جنيهاً استرلينياً من الأحجار وبيعها للألمان. وكان الاستدعاء غير قانوني نظراً لأن الأجانب كان يستثنون من المثول أمام المحاكم الشرعية. إلا أن لورانس صمم على حضور المحكمة من باب المجاملة لأن التهمة كانت عبثية. وفي اليوم المحدد، ركب إلى بيره چك وقدم إلى المحكمة، وكانت جزءاً من سراي الحكومة، وثيقتين: موافقة موقعة من

حسن أغا يتنازل فيها عن أى شىء يوجد فى الموقع ، وشهادة خطية موقعة من رئيس المهندسين الألمان يقسم فيها أنه لم يدفع شيئا فى مقابل الحجارة . كما كان فى حوزة لورانس أيضا وثائق تخولهم الحق فى العمل فى كركميش ، ومن ثم اعتقد أن هذه الأوراق كافية لرفض الدعوى . بيد أنه لم يضع فى حسبانہ ألا عيب الحاكم ، لذا ، فقد أصيب بصدمة حينما أبرز الادعاء ستة شهود مستعدين أن يقسموا على أنه قد تم دفع مبالغ نظير الخلفات . وطلب المجلس أن يرى وثائق لورانس التى قاموا بمصادرتها على الفور تاركينه عاريا دون سند بيروقراطى . وفى تلك الليلة ، حينما عاد إلى كركميش ، لم يكن سعيدا كما كان حينما غادرها فى الصباح ، واستمر العمل كسابق عهده ، إلا أن الحاكم أمر العريف بوضع حرس على البوابة . ومع هذا تمكن وولى من تخطى هذا الإجراء بأن استاجر سائقى حمير يعملون مع الألمان لإلقاء الحجارة بالقرب من موقع الألمان .

وفى اليوم المحدد للجلسة ، شق وولى ولورانس والحاج وحيد طريقهم إلى بيره چك ومعهم البنادق والمسدسات وكانهم فى طريقهم إلى غزوة بدوية . ولدهشتهم التقوا بحسن أغا فى طريقه عائدا من المحكمة وأخبرهم أن الجلسة قد تأجلت . إلا أن وولى لم يتقبل هذا ، وتصور أن هناك معوقات أكثر ، ومن ثم واصلوا سيرهم وطالبوا بمقابلة الحاكم الذى أخبره وولى أنه لا يمكنهم إيقاف العمل من وقت لآخر للحضور إلى بيره چك وأصر على عقد الجلسة فى ذلك اليوم . وبدا الحاكم ودودا لدرجة أن الشك لم يخامر وولى ولورانس عن دوره فى المؤامرة . وفى قاعة الجلسة كان هناك جمهور غفير أتى لقضاء الوقت بينما كان الكاتب يدون ما يحدث بالتفصيل . ووقف وولى وأعلن أنه مسئول مسئولية تامة عن القضية وأن الادعاء ليس لديه شهود . وهنا ، طلب المدعى التأجيل لاستدعاء الشهود ، ووافق القاضى فورا على الاقتراح رغم الاحتجاج وولى الشديد . وهنا ، ثار غضب وولى ورفض الاعتراف بالسلطة القانونية للمحكمة للنظر فى القضية ونادى على الحاكم بصوت مرتفع . لدى ذلك ، ضحك القاضى وأخبره أن الحاكم كان هو من احتجز الأوراق التى تخولهم حق العمل فى الموقع . وهنا فقط ، تحقق وولى من خلفية المؤامرة حيث كتب « لقد كنا ضحية خدعة ، وظهر الآن دور الحاكم فيها ، وطالما كانت الوثائق فى حوزته ، فأنا تحت رحمته » . ورأى وولى أن الأمر يتطلب اللجوء



إلى ديبلوماسية البنادق، لذا، فقد أخرج مسدسه وأعلن أن القاضى لن يغادر قاعة المحكمة حياً إلا إذا أعاد الأوراق. وهنا، تجمدت ابتسامة القاضى الساخرة على شفثيه وسقط جالساً فى مقعده. وأرسل وولى لورانس إلى مكتب الحاكم ليطلب الأوراق، وقد تذكر لورانس «أن وولى أبقاه جالساً فى مكانه، بينما ذهبت أنا إلى الحاكم وأوضحت له موقف القاضى السيء»، أما وولى فقد قال: «إنه قد غاب لمدة دقائق قليلة فقط ثم عاد ملوحاً بالأوراق وهو يقول إن الملعون كان يحتفظ بالأوراق فى مكتبه». وحينما سأل لورانس إن كان قد واجه أية مشاكل أجابه «لم تكن هناك مشاكل باستثناء أن الحاكم أراد فسخ العقد مع حسن أغا».

بيد أن الأمر لم ينته تماماً. فحينما وصل هوجارث فى مايو لتقييم الموقف، قام بزيارة الحاكم الذى قدم له اعتذاره المخلص وأخبر إياه بجزع بأنه «استعمل سلطته لإبطال قضية ما كان يجوز أن ترفع». إلا أنه من الواضح أنه لم يخبر بهذا موكب الجنود الذين وصلوا إلى منزل البعثة الأحد التالى ومعهم ورقة ليطلع عليها وولى وكانت تنص على حكم المحكمة بالإدانة بدفع ثلاثين جنيهاً والمصاريف، وكانت تصرف وولى حازماً، فقد قال فيما بعد «قمت بتمزيق الورقة وعاد الموكب أدراجه محبطاً».

كان عزم كينيون الأصيلى هو الاستمرار فى التنقيب لموسم قصير فقط، ولم يكن قد تم اكتشاف سوى عن مخطوطتين. وفى مايو، أعلن هوجارث الأنباء المدهشة عن تبرع شخص غير معروف وهو رجل أعمال ثرى يدعى وولتر موريسون بخمسة آلاف جنيه استرليني دعماً للتنقيب. أى أنه قد أصبح بالإمكان استمرار العمل دون توقف. ومن ثم، قرر لورانس ألا يعود لإنجلترا ذلك الصيف كما كان قد اعتزم، وأن يبقى فى الموقع لمراقبة الألمان. وكان أحد الأسباب الهامة لتغييره خطته هو أن داهوم، الذى كان لورانس يرغب فى اصطحابه إلى أكسفورد، قد رفض الدعوة. وقرر لورانس تأجيل عودته لما بعد موسم الشتاء. ثم أوقف العمل فى الموقع فى يونية، وشعر لورانس بالارتياح وهو يودع وولى فى الإسكندرونة، حيث كتب «إننى حرم مرة أخرى، وهذا حال يتحدث عن نفسه وعن مزاياه». واستراح لأيام قليلة فى حلب، ثم عاد إلى جرابلس حيث تمتع بالاستقلال التام. وكان أول فعل له هو أن ينتقل داهوم إلى منزل البعثة بحجة مساعدة والدته الحاج

وحيد التي كانت تعمل بالمطبخ، إلا أن السبب الحقيقي كان رغبة لورانس في تسلية وحدته. ومن ثم، شغل وقته بإعطاء دروس في الحساب والجغرافيا، حيث تغلب دافع تحسين الآخر على إعجابه بالعربي «الخام». ثم اضطر للتوقف عن التدريس لإصابته بالمalaria، وما إن شفى، حتى أصيب داهوم، وانتقلت العدوى إلى زوجة الحاج وحيد ثم طفلها. أما الحاج فقد لزم الفراش فيما بعد لاضطراب أمعائه نتيجة ما تعاطاه من شراب وتولى لورانس الرعاية الطبية للجميع.

إلا أنه في نهاية أغسطس أصيب لورانس بالمalaria مرتين متتاليتين فعدل عن قراره بالبقاء في جرابلس طوال الصيف، وانتقل إلى جبيل على شاطئ المتوسط ومكث مع الأنسة هولز في مقر الإرسالية الأمريكية. حيث كان قد لقي ترحيبا فيما مضى. وفي هذه المرة، اصطحب داهوم كطاه وخادم خاص. وقد أخبر روبرت جريفز فيما بعد أنهما قضيا صيفا ممتعا حيث كانا يتخفبان كسائقي جمال، ويساعدان الفلاحين في الحصاد، ويسبحان، ويجوبان المنطقة. وقد وصف هذه الفترة في خطابه بأنها أروع صيف قضاه. أما بشأن تخفيهما كسائقي جمال فامر مشكوك فيه لأن لورانس، لم يكن يعرف رأس الجمل من مؤخرته، ولم تكن معرفة داهوم بأفضل منه. إلا أنه من المؤكد أن لورانس كان يتجول في جبيل مرتديا الزي المحلي وأنه ذهب للفرجة على قصر ابن وردان الشهير في وادي ال-Orontes، كما كان يسبح في البحر مع داهوم كل يوم تقريبا. كان في حالة نشوة. فقد كان حرا وحيدا سوى من رفقة الصبي الذي كان يهيم به. كان يأكل وينام جيدا ويقرا في مكتبة الإرسالية ويمارس لغته العربية. وكان طوال حياته قد أخفى مشاعره تجاه الآخرين، وكبت أحاسيسه وتباعد عن الأفراد. أما مع داهوم، الذي كان «متوحشا» لم يشب عن الطوق، تمكن من الانفتاح عليه بشكل لم يستطعه مع أي فرد في مثل عمره أو جنسه أو مرتبته. كان لا يشعر بالتهديد معه بل بالتقارب، ولم تكن هناك حاجة في الواقع لأن يمثل دور المهرج أو يمارس «غرامة أطواره». ولم يشعر مع داهوم أنه خارج مجاله مثلما كان يشعر مع الرجال التقليديين الأكثر ذكورة. كان يشعر بالارتياح المطلق معه لدرجة أنهما كانا يجلسان صامتين لساعات طويلة متمتعين بدفء أحدهما الآخر وفي غير حاجة حتى للحديث. كانت قوته التي مارسها على داهوم عميفة، ولا بد أن الفتى قد بدا له «ساحرا» من أراضى بعيدة، أما روحيا

سحريا من النوع الذى يبصره المرء فى الأساطير فقط . ولم تكن العلاقة علاقة ندين ، وكان من غير المستطاع أبدا أن تكون كذلك . فقد كان الفرق الاجتماعى شاسعا . كانا كعبد من العصور الوسطى وسيده تقريبا ، أو على الأقل هذا ما تخيله لورانس الذى كتب فيما بعد عن هذه السنة قائلا : «إلا أننا هنا نعيش نظاما إقطاعيا يمنح السيد حقوقا كثيرة ؛ ومن ثم فليس لدى مشاكل معه» . فالصبى الذى كان لورانس قد امتدح قدرته على الكتابة والقراءة منذ عام ، ظل فى نظره «متوحشا» وكانت أكثر صفاته المحبة إليه هى أمانته وقوته وقدرته على المصارعة «بشكل جميل أكثر من كثيرين ممن هم فى مثل عمره وحجمه» . وكان ما نال إعجاب لورانس أكثر من أى شىء آخر ، هو «براءة» داهوم ، وكان يعنى بهذا براءته عن حقائق العالم السياسية ، وعن الهوة الثقافية والقوة الاقتصادية التى كانت تفصلهما . كان لورانس يحتقر العرب الأكثر تعليما لميلهم إلى مساءلة سلطة الأوربى ، الأمر الذى لم يكن يفعله داهوم «لبراءته» وباختصار ، فقد رأى لورانس داهوم صبيا جميلا يعتمد كلية على مقتضيات نبلة ، ولم يكن يبدو أن لورانس يمانع فى هذا . وكان داهوم فى هذا هو الموضوع الرومانسى الكامل لأفضل ما يمكن للورانس ( وهو الساحر ذو القدرة المطلقة ) أن يمنحه ، أى الحرية ، أو «المنزل النبيل ذو الأعمدة السبعة» . كان لورانس يهيم بالفتى الصغير وشعر أن باستطاعته تحريك الجبال من أجله ، وأن يلهم فيضانا عظيما من الحركة . ولا بد أن قصيدته التى أهداها إلى داهوم ( سليم أحمد ) التى يقول فيها «أحببتك ... فاستطعت أن أجذب فيضا من الرجال بين يدي .. وكتبت إرادتى نجوما عبر السماء ..» تحتل مكانها كأحد أكثر القصائد المؤثرة التى صيغت فى حب صبى .

وقد يكون حبه لداهوم هو ما دفعه لتبادل الملابس معه . فكان بارتدائه «الدشداشة» يشعر أنه بطريقة سحرية قد أصبح داهوم .. أصبح لوقت قصير «المتوحش» البرىء الجاهل الذى طالما حلم به ، يعيش عالم ما قبل عصر النهضة والعقلانية . وقد قضى لورانس حياته ، مدفوعا بخوائه الداخلى ، يتقمص خاصيات الآخرين فى بحثه عن ذوات بديلة . وقد اكتشف فى داهوم ذاته البديلة الأكثر فاعلية أى شخصية يمكنه أن يتلبسها أو يتركها حسب هواه . وبدأ هاجس صباه ، أخيرا ، أى الفانتازيا الموريسية العصر أوسطية تلتحم فى هذا السحر والبهجة

الساحقة لكونه «بارون في نظام إقطاعي» و«أوربي في الشرق»، فقد كتب أنه «لا أظن أن أي أحد تذوق الشرق مثله بقادر على التنازل عنه في منتصف الطريق». وقد تسببت سعادته في إغفاله الفضيحة الاجتماعية التي كان يثيرها خاصة في ضمير الأنسة هولمز الإنجيلية التي كانت قد رحبت بلورانس كمسيحي ملتزم ينتمي لأسرة إنجيلية وتفاخرت أمامه بحماس عام ١٩٠٩ عن انتصارات بعثتها التبشيرية. فقد تحول ذلك الطالب الجامعي الخجول الذي قابلته عام ١٩٠٩ أمام ناظريها إلى رجل يشعر بأهميته، ويدين التدخل الأجنبي، ويستعرض رفيقه الجميل ويتجول في البلد مرتديا الزي المحلي. ولم تعجب الأنسة هولمز، التي كانت قد تنازلت عن إجازتها في المناطق الجبلية الأكثر برودة، بسلوكه الجديد، أو بصديقه اللافت للأنظار. وقد ادعى لورانس، فيما بعد، أنها لم تستطع فهم لهجة جرابلس التي كان يتحدث بها داهوم، والتي كان قد دعاها هو «كريهة»، والتي اكتست فم داهوم الذهبي، إيقاعات الإغريقية القديمة الموسيقية. ومن غير المحتمل أن الأنسة هولمز، التي كانت قد قضت وقتا طويلا في الشرق الأدنى، لم تستطع التفاهم مع داهوم إن كانت قد رغبت في هذا. كما أنه من الواضح أنها لم تجد في داهوم تلك «المادة الممتازة» التي تفاخر بها لورانس أمام زميلتها رايدر. ولم ينزل لورانس في الإرسالية مرة أخرى، كما أنه لم يتلق خطابات أخرى من الأنسة هولمز أبدا. وحينما ذهب إلى بيروت في فبراير عام ١٩١٣، لم تكن جبيل ضمن برنامج.

وقضى لورانس وداهوم ثلاثة أسابيع في جبيل، ربما كانت قد امتدت لولا تلقيه برقية عاجلة من الحاج وحيد يخبره فيها عن مازق في كركميش. فقد قام الألمان، الذين كانوا قد أخبروا لورانس أنهم سيؤجلون العمل خلال شهر يونية، ببناء امتداد لخط السكك الحديدية يصل إلى تل الخلفات، وكانوا يستعدون لسرقة الأحجار التي استخرجها وولي ولورانس بعد جهد. وقد احتج الحاج وحيد لدى كونتزن، كبير المهندسين الألمان، الذي كان لورانس قد وصفه بقوله إنه «فتوة سييء السلوك». وأخبر كبير المهندسين الحاج أن لديه تصريحاً من وولي، بيد أن الحاج، الذي كان يعلم قيمة الأحجار، لم يتراجع وأجاب كونتزن أنه لا يستطيع السماح له باستمرار العمل دون أوامر أخرى. وإزاء سخيرية كونتزن منه، أرسل

الحاج من فوره رجلاً إلى بيهره چك ببرقية للورانس في جبيل، ثم تسلق تلك الخلفات في الصباح حاملاً مدفعاً ومسدساً استعداداً للدفاع عن كركميش. وحينما وصلت قوة العمل المكونة من حوالي مائة رجل إلى الموقع ومعهم الفئوس والجارف، هددهم الحاج بإطلاق النار على رأس أول رجل يلمس حوائط التل. ولم تكن لدى العمال شجاعة لخوض المشاكل، ومن ثم انسحبوا وجلسوا في الظل إلى أن وصل كونتزن وبدأ في الصباح، وعند ذلك، هددته الحاج بإطلاق النيران عليه أيضاً.

كان هذا هو الموقف لدى وصول لورانس إلى حلب حيث أرسل إلى الحاج برقية يخبره فيها أنه في طريق العودة. إلا أن الحاج أخبره أنه قرر قتل كونتزن، وأنه - استعداداً لذلك - أبعد زوجته وتجرع قارورة كاملة من الويسكي وشحن مدفعه بالقذائف. وتملك لورانس الانزعاج فبحث عن رئيس كونتزن في حلب (مدير السكك الحديدية) واندفع إليه أثناء حفل عشاء قائلاً إنه إن لم يرسل برقية على الفور إلى كونتزن للامتناع عما اعتزمه، فسيقتل المهندس. ووجد المدير في هذا مادة رائعة للتفكه بيد أنه سرعان ما غير رأيه حينما هددته لورانس بأنه سيوقع شهادة أمام القنصل البريطاني يقسم فيها أن المدير لم يفعل شيئاً لتهدة الموقف. ومن ثم، وضع المدير تروللي كهربائي تحت تصرف لورانس حيث وصل في اليوم التالي إلى كركميش ليجد أن كونتزن كان على وشك هدم حوائط التل المهيبة. ونجح لورانس، بمساعدة فؤاد بك الوزير المحلي للتعليم العام، أن يقنع كونتزن بالتراجع وإزالة قضبانه. وبناء على ذلك تلقى كونتزن تعنيفاً علنياً، على حين امتدح الحاج بحرارة. ولدى عودة وولي في آخر سبتمبر وجد المعسكر وقد عمه السلام.

واستؤنف العمل في الحال تقريباً. وشعروا بارتياح وكأنهم حصلوا على جائزة باكتشافهم إطار باب حيشي عليه نقوش في حالة ممتازة. وكان وولي قد طلب عربة سكك حديدية خفيفة من أوروبا إلا أن وصولها تأخر، لذا تطلب العمل قوة قدرها مائتا رجل كان الإبقاء عليهم أمراً مرهقاً لأن تركيا كانت تحارب في البلقان وكان الباب العالي يجند كل الذكور اللاتقين جسمانياً. واستعمل الإنجليز حصانتهم الدبلوماسية لحماية عمالهم كما وفروا ملاذاً للفارين من التجنيد في مقر البعثة.

وحظر وولى دخول الموقع من قبل رجال الشرطة والجنود. وكانت هذه الخطة فاعلة. فعلى حين تهالك معسكر السكك الحديدية لم يفقد فريق كركميش رجلا واحدا، وأدى هذا إلى زيادة قدر البريطانيين ومنحهم حماية ضد العصيان المحلي، إذ إن الأقليات من أمثال الأكراد والأرمن كانوا يستعدون لتسوية حساباتهم مع الأتراك مستغلين في هذا ظروف حرب البلقان. وفي خريف عام ١٩١٢ قام وولى ولورانس بزيارة بصراوى أغا زعيم إحدى الطوائف الكردية الذى كان يعتقد أن زعيمهم العظيم قد مات مسموما بواسطة رجال «جماعة الاتحاد والترقى CUP». وأعلن بصراوى أنه سيتخلص من الحكومة التركية كلية، وكان الإنجليز قد ساءهم ما علموه عن اعتزام تلك الطائفة القيام بأعمال نهب فى حلب انتقاما لموت قائدهم الأعظم. ومع قدوم الشتاء، وردت أنباء هزائم الأتراك فى بلغاريا وتقدم الجيش البلغارى باتجاه اسطنبول، الأمر الذى كان مبعث بهجة الأكراد والعرب. وكانت المفارقة هى أنه طالما بقى السلطان عبد الحميد الثانى فى السلطة كخليفة، استمر هؤلاء الناس فى ولائهم للباب العالى. إلا أن الولاءات القديمة تهاوت مع مقدم «جماعة الاتحاد والترقى» ومن غير المحتمل أن يكون قد فات لورانس أن الناس كانوا ينظرون للحسين بن على أمير مكة على أنه الزعيم الدينى. وإن كان الصوت الخافت الأول لبوق دعوة التمرد على الأتراك قد انطلق فى أذن لورانس الداخلية فى تلك اللحظة، فلا بد وأن مخاوفه على سلامة الحفريات وسلامة مواطنيه فى حلب قد أخدم مثل هذا الصوت. وكان قد سمع أن الأكراد قد أرسلوا عميلا هناك لتحديد أفضل المنازل للنهب المحتمل. وقد خامر وولى ولورانس الشك فى أن أحد هذه الأماكن قد يكون القنصلية البريطانية.

وهكذا اختار لورانس تلك الأوقات المضطربة ليجرب مهارته فى التخفى فى زى محلى. ورغم أنه كان يتكلم العربية بطلاقة حينذاك، فقد عرف أنه لا يمكن أن يظن أحد أنه عربى نظرا للون بشرته وسوء إلمامه بقواعد اللغة. غير أن شعوبا غير عربية عدة ذات بشرة فاتحة ودون إلمام بالعربية الصحيحة كانت تقطن شمال سوريا. واعتقد لورانس أنه بالإمكان الظن أنه ينتمى لإحدى هذه الأقليات. فما قدر إجادته للعربية فى تلك الفترة؟ كان لورانس، فيما بعد، يتظاهر بالتواضع المضلل بشأن إجادته للغة، حتى إنه أخبر روبرت جريفز أنه لم يكن يعرف كلمة

واحدة من العربية الفصحى التى تختلف اختلافاً كبيراً عن اللهجات المحلية . ولم يكن هذا صحيحاً إذ إن لورانس كان قد درس الفصحى مع فريدة عقل فى جبيل عام ١٩١١ ، وكتب ، على الأقل ، جزءاً من خطاب إليها بهذه اللغة . وهناك خطاب واحد مازال موجوداً وقعه لورانس وكان موجهاً لشريف مكة حسين ، ورغم أن لغة هذا الخطاب مفهومة فهى خليط من اللهجات والأساليب . وقد تم تحقيق هذا الخطاب من جانب الدكتور باسل حاتم من كلية الترجمة العربية والتفسير بجامعة هاريوت وات بإدنبرة ، الذى انتهى إلى أن من كتبه شخص لسانه غير عربى واستبعد أن يكون لورانس قد أملاه على أحد الكتبة . أما عن لغة لورانس العربية فكانت مزيجاً من اللهجات أساسها السورية والحجازية إلا أن نطقه كان ضعيفاً وقواعده «مغامرة» كما اعترف هو بذلك ، وكان يتحدث بلكنة إنجليزية واضحة . وقد علق أليك كيركبرايد الذى تربى فى مصر وكانت يتحدث العربية كأهلها ، وأصبح فيما بعد زميلاً للورانس ، فقال إن لكنة لورانس ونطقه فقط كانا يفضحانه كأجنبي . بيد أن لورانس قرر خوض المغامرة متخفياً ليرى ما إن كان الناس سيظنونه من أهل البلاد . وواته الفرصة قرب نهاية شهر نوفمبر حينما وصل قروى إلى موقع التنقيب ليبلغهم أنه قد تم اكتشاف تمثال لامرأة تتركب أسدين بالقرب من خلفاتى شمال بيره چك . وأعتقد لورانس أن القطعة قد تكون حيشية ، ومن ثم ارتدى الزى المحلى ورحل مع داهوم ليلبحث الأمر . ووجد الريف يغلى بالاضطرابات . فقد كان قد تم تجنيد الآلاف فى الجيش لدرجة أن قرى بأكملها قد أصبحت بلا سكان . وصدرت الأوامر من الرؤساء إلى رجال القبائل الكردية للالتحاق بالجيش الإمبراطورى ثم الفرار منه بمجرد تسلم الأسلحة . وكانت الشائعات قد سرت فى الإقليم بكامله عن عصابات النهب مما أدى إلى أن تنشط الشرطة التركية وتتوتر ، وأصبحت فى حالة ترقب دائم . وبمجرد أن دخل لورانس وداهوم إلى خلفاتى تم القبض عليهما بواسطة دورية عسكرية شكت فى كونهما هاربين من التجنيد . ثم قذف بهما بأسلوب غاية فى القسوة أسفل زنزاة قدرة . وأصيب لورانس بكدمات بينما التوى كاحل داهوم التواء أليماً . وقد قيل فى إحدى الروايات عن هذا الحادث إن لورانس تلقى ضرباً مبرحاً لدرجة نقل معها إلى المستشفى . وأيا كان الأمر ، فقد تمكن الاثنان من الهرب عن طريق الرشوة ، وتجاهلا

الاكتشاف ، وسارا مسرعين باتجاه جرابلس وقادهما طريقهما إلى منطقة نزيب حيث وجدا الأكراد فى حالة هياج وهم يهرلون بحثا عن أى مسيحى لقتله ولم ينقذ لورانس سوى تنكره . ثم اكتشفا أسباب ذلك السلوك الغريب لدى وصولهما إلى قرية نزيب ، إذ إنه قد حدث أن نهبت عصابة من الأكراد المسلحين المكان بقيادة رجل يدعى درعى وأطلقوا السيران على طبيب مسيحى أرمنى فقتلوه حيث كانت جثته مازالت هناك يغطيها الذباب . ومن ثم ، اختبأ جميع المسيحيين المحليين فى نزيب وبيره جك .

ورغم كدماته ، ومعرفته أنه قد نجا من الموت بأعجوبة فقد شق لورانس طريقه إلى الموقع وهو يشعر ببعض الرضا . إذ إنه ، أولا ، قد نجح فى التخفى وظنه الناس فلاحا محليا . وثانيا ، فقد اكتشف بعض المعلومات القصرية عن الأكراد . وثالثا ، فقد حدث ما هو أكثر أهمية له من الناحية النفسية ، إذ إنه حصل من خلال المعاملة التى لقيها فى خلفاتى على عناصر الفانتازيا التى ترضى مازوكيته . فقد كانت تخالجه منذ صباه أحلام مازوكية عن الجيش ، أحلام فام بتنفيذها وهو فى السابعة عشرة حينما تطوع فى حامية المدفعية الملكية . لذا ، فقد راققت فكرة كونه هاربا من الجيش تخيلته ، إذا كانت تمثل مقاومة لسلطة ساحقة ، بالإضافة إلى أنها أمدته بتبرير للعقوبة التى تمتع بها . ولم يكن الضرب الواقعى الذى تلقاه من الأتراك هو مصدر المتعة ، بل كان المصدر هو المشهد الذى عاشه فى مخيلته فيما بعد مضخما إياه مرة تلو الأخرى ، والذى أمدّه بمادة تخيلته فى السنوات التالية .





سلام لم تعرفه منطقة

ما بين النهرين منذ أجيال بريطانيا

وسوريا ١٩١٣

# 8

تم طرد البلغار بالقرب

من بوابات إسطنبول وتبخر الخطر

الذى كان يهدد حلب. إلا أن لورانس

كان قد تنسم أول نفحات للثورة،

ووجدها مسكرة، فقال فى أبريل

عام ١٩١٣ «أما عن تركيا.. فليسقط

الأتراك. فاخفأؤهم يعنى فرصة

للعرب الذين كانوا قادرين على تسيير

الحكم يوماً ما».

ولدى توقف الحفريات مرة أخرى، نجح في إقناع داهوم بمرافقته إلى أكسفورد. وكان الصبي حذرًا فما مضى بشأن السفر إلى بلد لا يعرف عنه شيئًا. فقد سمع حكايات عن إنجليز يستدرجون العرب الأبرياء بعيدًا عن أوطانهم ليصنعوا منهم لحومًا معلبة. وقد كان حمودي رجل العصابات التائب ذو الخبرة الكبيرة يميل إلى تصديق مثل تلك الروايات. وعندما رأى لورانس أن داهوم لن يوافق على الذهاب بمفرده تقدم بنفس العرض إلى حمودي الذي كان قبوله له يعد قفزة إيمانية شجاعة.

وفي أكسفورد أقامت المجموعة في كوخ بطرف حديقة المنزل رقم ٢ شارع بولستيد. وكان لحسن داهوم وقع كبير بين معارف لورانس، خاصة تشارلز بل الذي كلف الرسام فرانسيس دود برسم لوحة له. واستمتع داهوم بكونه مركز الاهتمام. وحينما قاطع شقيق لورانس وبعض أصدقائه دود أثناء لحظة هامة في رسم اللوحة نظر الصبي إليهم بضيق. وكان هذا هو تعبير الإثارة الذي كان الفنان يبحث عنه فالتقطه وأبرزه تاركًا لورانس ليعبر عن نشوته بشأن «الإلهام المطلق»

المتجسد في اللوحة . وعلى حين كان يتم إرسال حمودى أحيانا ليقيم مع وولى ، مكث داهوم مع لورانس ، وكان يساعد أحيانا فى إفراغ الأنتيكات التى وصلت من كركميش التى كان يكن لها صداقة وكان من مصادر راحته أن يعرف ما حدث لها بعد اختفائها .

ووقع داهوم وحمودى فى أسر سحر بريطانيا ، بيد أن آراءهما عنها كانت عقلانية بشكل أحبط لورانس الذى علق على هذا بقوله «لسوء الحظ أنهما على درجة من الذكاء تحول دون إتيانهم بردود أفعال مضحكة» . وجد داهوم بريطانيا بلدة «بدينة» يملؤها أناس بدناء ويسودها الخصب واللون الأخضر والمياه الوفيرة .. جنة شاسعة لا توجد فيها قرى بل مدن صغيرة آمنة مليئة بالسكان وذات مباني مرتفعة . ووجد الطعام دسم ووفير وتجول فى لندن راكبا مترو الأنفاق ، وتمتع بركوب الدراجة فى شارع وود ستوك مرتديا «دشداشته» ، وحدث ذات مرة أن شوهد يقف فى مراحيض عامة يربت على البلاط الأبيض اللامع ويتمتم قائلا «قوالب طوب جميلة .. جميلة» اعتقد أن سوريا ما هى إلا لدغة برغوث مقارنة

بإنجلترا وأن عدد العرب قليل جدا بالنسبة للإنجليز لدرجة لا يمكن لهم معها أن يكون لهم دور في سياسة العالم أبدا. ووافق لورانس على رأيه هذا؛ فقد كان جزءا من دافع لورانس لإحضار هذين الشخصين إلى بريطانيا هو أن يدركا حقيقة قوة بريطانيا ووجودها بالمقارنة مع فساد الأتراك وضعفهم. أما ما هدف له بالنسبة لقومه فكان إحداث الصدمة، كي يؤكد سمعته كرجل إنجليزي غريب الأطوار. كما أنه دأب على القول بأن داهوم من أصول حيثية رغم عدم صحة هذا على الإطلاق بيد أن هذه المقولة نجحت في أن ينظر للصبي كقطعة أثرية حية ضمن مجموعة كركميش الأثرية المعروضة بالمتحف. ومن ثم توافد الناس من على بعد أميال كي يلتقطوا الصور لهذين العربيين بزيهما القومي، وكأنهما وحشان غريبان. وساهم وولي في سريان مؤامرة الفانتازيا الحيثية التي تقول بأن وجه داهوم يشبه بعض وجوه التماثيل الحيثية. ولو أتيح لداهوم فهم هذا الادعاء لوجده نوعا من السخافة. فقد كان فلاحا عربيا يحيا على ضفاف الفرات ولا يعنيه الحيثيين في شيء. وبالنسبة للورانس وزملائه كان داهوم نموذجا لـ «المتوحش النبيل» حتى إن إدوارد ليدز كتب يقول: «ما زالت صورة داهوم تراود مخيلتي.. فقد كان على درجة من الأناقة والحسن لا يناسبه معها أى عمل يدوى.. كان ذا مظهر نبيل».

ولم يستطع أى من ليدز أو لورانس أن يدرك أنهما قد وقعا في فخ فكري بخلطهما «النبيل» وهو صفة أخلاقية «بالحسن» وهو صفة جمالية. وقد عبر ويل شقيق لورانس بشكل لا واعى عن هذه الوضعانية الجمالية الشبيهة بتلك التي تطبق في عالم الحيوان؛ وكان قد قام بزيارة لنيد في سوريا في وقت متأخر من هذه السنة وكتب عن البدو قائلا: «إن حوجة يكفي كنمط.. غير أننى رأيت نماذج أخرى أفضل». بيد أنه كان لدى لورانس حساسية من أن توجه إليه تهمة أنه يقوم «بعرض قرود»، لذا حاول المحافظة على كرامة أصدقائه العرب برفضه منحهم نقودا مقابل التقاط صور لهم. إلا أن حمودى لم يرق له هذا، فلم يعتقد أن كرامته ستؤذى بالتقاط الصور له، كما أن عادة تكريم الضيف بتقديم الهدايا له كان أمرا شائعا بالنسبة له. واعتقد ليدز أن العرب «طفوليون» وكان من مصادر تسليته أن سمع أنه حينما سئل حمودى عما يريد أن يأخذه معه إلى بلده أجاب بأنه يريد

صنبور ماء معتقدا أنه سبكفل له الإمداد الدائم بالماء، وأيضاً أراد أن يأخذ معه لافتة «انتعد عن العشب» التى ظنها تحمل قوة سحرية لمنع الناس من السير فى الأماكن غير المرغوب فيها. بيد أنه كانت ثمة لحظة مقلقة عكرت صفو إقامتهما حينما التقيا بمصرى يدعى عبد الغفار كان صديقاً لويل ويدرس بكلية سانت جون، فقد ادعيا أنه أخبرهما «أنا سنقطع رقاب هؤلاء الكلاب قريباً»، وكان يعنى الإنجليز. وحينذاك اندفع الرجلان عائدين إلى شارع بولستيد وطلبا بندقية لإطلاق النيران عليه. وأقلق هذا الحادث لورانس الذى كان قد أمر بإبعادهما عن أى عربى آخر؛ فقد كان يحتقر المتعلمين من العرب، ويكره المصريين، فمن كان هناك أسوأ من مصرى متعلم؟ بيد أنه كان للقصة رنين مرضى بالنسبة له، إذ برهنت ولاء العربى «النبل» الفطرى للأوربى بالتقابل مع العربى الذى أفسده التعليم. كان لورانس يريد الحرية للعرب، بيد أنه بالنسبة للمصريين، فقد كانت الحرية لا تعنى التحرر من تركيا بل من الإنجليز الذين كانوا قد ضموا بلادهم عام ١٨٨٢.

وحينما عاد العربيان فى أغسطس إلى جرابلس مضيا يتفاخران بين العمال الآخرين بتجاربهما بشكل مثير للاشمئزاز، الأمر الذى تسبب فى مضايقة ملاحظ العمال القبرصى وذلك لطبيعته الغيورة. ومن جهته فقد زاد شعور لورانس بالتملك إزاء داهوم عن ذى قبل. وحينما زاره فى وقت متأخر من تلك السنة ضابط جيش شاب يدعى هيوبرت يونج وكان يتحدث العربية وحارب فيما بعد إلى جانب لورانس أثناء الثورة العربية، جلس الاثنان لنحت ميزابين لسطح المنزل على شكل مخلوقات غريبة. فنحت هيوبرت واحداً فى هيئة امرأة بينما صنع لورانس نموذجاً عارياً لداهوم. وحينما رأى وولى التمثال على السطح أصيب بصدمة إذ اعتبره إعلاناً واضحاً عن طبيعة لورانس المثلية وقال إن هذا كان رد فعل العرب الذين اعتبروا الفكرة فاضحة. ورغم أنه كان يسره القول فيما بعد أن ممارسة المثلية أمر عادى مقبول لدى العرب، فهذا بعيد عن الحقيقة ونتاج تفكيره ورغبته. وفى الواقع، فقد كان الشرق فى موروث الاستشراق الأوربى مزبلة للنفايات الثقافية للصفات التى يحتقرها الغرب، وكان نمط العرب الشهوانى يكون جزءاً من هذا التراث. أما فى واقع الأمر، فلم تكن المثلية الجنسية أبداً موضع تقبل من العرب أو زهوهم، وهى إن مورست فإن ذلك يتم خلف الأبواب المغلقة. ورغم أن الاحتمال

الأقوى هو أن علاقة لورانس بداهوم كانت علاقة أفلاطونية، فإن التمثال العارى كان يعلن عن غير ذلك. ومن ثم فقد لورانس كثيراً من السمعة الطيبة التى اكتسبها بهذا الفعل اللاإرادى المتهور.

كان لورانس يرى أن شمال سوريا هى «البلدة العربية التى يمتلكها». وامتد توجهه التملكى هذا ليشمل جميع «رجال» حتى إنه كتب باستظراف يقول إنه يود أن يصبح شيخ جرابلس. وحينما زاره شقيقه ويل فى أكتوبر عام ١٩١٣ وجد أن أخاه يعامل كما لو كان «لوردا». فقال «إن نيد معروف لدى الجميع وإن حماسهم له أمر يبعث على التعجب». وكان لديه أصدقاء فى حلب من العرب والأكراد والأرمن والشراكسة واليونانيين. وكان التزامه بما يفرضه «النبيل» يسترعى الانتباه لدرجة اعتقد أنه الطبيب المحلى الذى يعالج كل الإصابات اليومية ويقوم بتمريض أصدقائه، ويرسل القرويين المرضى إلى المستشفيات فى حلب، ويحاول اتخاذ التدابير لتطعيم قرى بأكملها ضد الكوليرا حينما انتشر الوباء فى حلب عام ١٩١٢. كما اعتبر نفسه عمدة محلياً غير رسمى، وشعر بالزهو الشديد حينما التجأ إليه ثمانية عشر من رؤساء الأكراد ليجرى المصالحة بين الفصائل المتناحرة التى كانت الخلافات بينها قد استمرت أربعين عاماً فكتب: «... التقوا على أرض محايدة فى منزلنا... وتعلقوا بأعناق أحدهم الآخر مقبلين... ومنذ هذا الوقت ساد السلام شمال ما بين النهرين بشكل لم يحدث منذ أجيال». وكان يتولى الدفاع عن مصالح شعبه حتى إنه هدد أحد المهندسين الألمان بالجلد بعد أن تسبب فى ضرب داهوم. وكان مما قاله أيضاً، إنه عند استئناف الحفريات فى كركميش عام ١٩١٢، التحق عمال المعسكر الألمانى بالمعسكر الإنجليزى رغم أن شركة السكك الحديدية كانت تدفع أجوراً أعلى وقد اعتبر هذا مجاملة خاصة، إلا أنه كان فى الواقع انتصاراً للأبوية الخيرة؛ فقد كان المراقبون الشراكسة الأفظاظ فى المعسكر الألمانى يضربون العمال إن هم أساءوا التصرف، ولم يكن يسمح لهم بالتحدث إلى ملاحظيهم أو الحصول على بقشيش.

ورغم أن السجلات توضح أنه كانت ثمة خلافات بين العمال فمن المحتمل أن الجو فى المعسكر البريطانى كان أكثر بهجة. بيد أن علاقة لورانس بالعرب كانت



فى جوهرها إحدى الميزات . فقد كان يتمتع بالقوة الناجمة عن كونه أوربياً فى الشرق . كما أتاحت له تحركاته سيرا على الأقدام ، مرتدياً أحياناً الزي العربى ، أن يعلم الكثير عن تطلعات القوم العاديين أو أن « يدرس الجماهير » كما كان يقول . كما منحته حساسيته المفرطة المقدرة على أن يرى العالم من خلال أعينهم أكثر من غالبية الأوربيين . بيد أن ولاءه فى النهاية كان للنخبة الحاكمة كما توضح ملاحظته عن « النظام الإقطاعى » . وكان لورانس يدعى أنه يجد صعوبة فى التعامل مع الناس ويحب أن يصور نفسه كمثقف غريب الأطوار تشغل عقله الأفكار والأشياء الغريبة . وفى الواقع ، فقد اكتسب من عمله فى كركميش مهارة فائقة فى التعامل مع الرجال .

ويظهر التعبير الكامل عن نظرة لورانس الرومانسية لبلاد العرب والعرب فى هذه المرحلة فى المقال الذى كتبه عام ١٩١٢ ونشره فى مجلة إيزيس ( التى تصدر فى أكسفورد ) تحت عنوان « قصر ابن وردان » وكان قد زاره ذلك الصيف بصحبة داهوم . وكان القصر قد بناه الإمبراطور الرومانى جوستينيان فى القرن السادس . وقد قيل إنه كان قد تم عجن عطر الزهور مع الطين المستخدم فى البناء بأسلوب تكتسب به كل غرفة عباقراً مختلفاً . وتم اقتياد لورانس بين الأطلال حيث كان داهوم يتنشق الهواء ويقول « هذه رائحة ياسمين ، وهذه بنفسج وتلك ورد » . ثم قاده إلى نافذة مفتوحة وطلب منه استنشاق « أطيب عطر على الإطلاق .. أو ريح الصحراء الخالية المناسبة دون جهد التى لا طعم لها » . وكتب لورانس أن عربة يولون العطور والرفاهية ظهورهم ويتخيرون الأشياء التى لا يد للإنسان فيها . أى أن لورانس يوضح هنا أن العرب ينظرون للمدنية المادية كمجرد معوق للهدف الحقيقى للحياة . وكانت هذه نقطة فلسفية وجدت صدى طيباً فى أكسفورد ما قبل الحرب . إلا أنه من غير المحتمل أن داهوم كانت لديه المقدرة على فهم رومانسية لورانس التى كتبها من برج الرفاهية التى كان يحياها ، أو أنه قد قال فعلاً الكلمات التى استنطقه بها لورانس ، فلم يعتد فلاحو الفرات الذين كانوا يكافحون من أجل البقاء التغنى بالرياح التى كانت عدواً لهم أكثر منها صديقاً . ومن غير المحتمل أيضاً أن يدير داهوم ، الذى كان يرغب بشدة فى تعلم القراءة والكتابة كى يحصل على وظيفة أفضل ، ظهره للرفاهيات إن هى تيسرت له . بيد أنها كانت غير

ميسرة، إذ حظر لورانس وولى على رجالهم استعمال المنتجات الغربية، وكانوا يعيدونهم إلى منازلهم إن أتوا إلى العمل مرتدين أحذية. لقد أراد العرب الرفاهيات التي كان الإنجليز يتمتعون بها: أما الإنجليز فكانوا على استعداد لإجبارهم على البقاء على ما هم عليه كي يبقوا على الرؤية الرومانسية التي كانت محل إعجابهم. وتهدف قصة ابن وردان إلى التعبير عن ميل العرب الروحانية، وهذه نظرة غربية استشراقية خاصة مازالت سارية.

ولا يوحى هذا بعدم وجود بعض الأفراد العرب الذين كانوا يكونون الإعجاب الفائق بلورانس؛ فبعد عدة سنوات قال حمودى إن لورانس كان يتفوق على الرجال العرب منذ البداية فى الركوب والصيد والسير، وأنه كان يمتلك هدفا ووضوحا عقليا: «فبينما كنا نلف وندور بعيدا عما نريده، كان هو يبتسم ويوضح لنا ما نبغيه». ومن الواضح أيضا أن داهوم أخبر فريدة عقل عام ١٩١٢ أنه لم يكن ثمة ما يفعله العرب ويستعصى على لورانس بل إنه كان يتفوق عليهم: «إننا نحترم ونعجب بشجاعته جدا إننا نحبه كما يحبنا بل إننا على استعداد لفدائه بأرواحنا». كانت سنوات لورانس فى كركميش أسعد سنى حياته. وبحلول عام ١٩١٣ كان قد تخلص من فكرة ممارسة الطباعة مع قيقيان ريتشاردز. وطبقا لريتشاردز كانت كركميش «مثل مكان يتعاطى فيه ما يغيبه عن الوجود كل يوم، أو أنها كانت مثل رياضة عظيمة لها نتائج ملموسة فى النهاية». بيد أنه سرعان ما انتهى هذا الوجود الرعوى، حيث اصطدمت موجة تاريخ مهولة بالعالم وغسلت معها البراءة كلها.



---

أجبرني رجال التأمين على

---

البقاء في مكاني

سيناء وسوريا وبريطانيا ١٩١٤

---

# 9

---

فى نهاية ديسمبر

---

عام ١٩١٣ تلقى وولى برقية

---

من السير فريدريك كينيون من

---

المتحف البريطانى

---

يطلب منه هو ولورانس أن يلحقا

---

بمسئول فى هيئة المهندسين الملكية

---

لعمل مسح للنقب شمال سيناء تحت

---

رعاية « صندوق

---

فلسطين للتنقيب ».

---

كان الهدف هو الوصول إلى أثر طريق قديم للقوافل من فلسطين إلى مصر، والتعرف على بعض الوقائع المرتبطة بالأربعين عاما التي قضاها بنو إسرائيل متجولين هناك. أما السبب الحقيقي فكان عسكريا؛ مهمة جاسوسية داخل الأراضي العثمانية. ورغم أن تركيا كانت حليفا لإنجلترا، إلا أن اللورد كتشنر، المندوب البريطاني في مصر، تشكك أن العثمانيين سينضمون إلى ألمانيا في حالة دخولها الحرب مع إنجلترا. وكانت سيناء تحمي الشريان التاجي للإمبراطورية البريطانية، أي قناة السويس، كما أن فلسطين تقع على حدود سيناء. واعتقد كتشنر أن القيام بمسح دقيق للمنطقة أمر حيوي لمستقبل قناة السويس.

التقت المجموعة بقائد البعثة كابتن ستيفارت نيو كومب في بئر سبع. وذهل نيو كومب أن وجدهم على هذه الدرجة من حداثة السن. فقد كان ذكر المتحف البريطاني يستدعي رؤى رجال مسنين ذوى لحى بيضاء عششت فيها العناكب، يأتون وبرفقتهم الأطنان من الأثاث ومتاع السفر. لكن لم يكن مع وولى ولورانس

سوى القليل من الأمتعة، وبدأت أعمارهم تتراوح بين الرابعة والعشرين والثامنة عشر. وتحقق بيروكومب أن خطاباتته إلى لورانس و وولى كانت تحمل عبارات الاحترام المبالغ فيه، فقرر العدول عن هذا على الفور. ومن ثم، بعث بهم إلى الصحراء بتعليمات أن يلتقوا في القصيمة على الحدود المصرية في غضون أيام. وحينما لم يظهر ا هناك في الموعد المحدد انتاب نيوكومب القلق وأرسل فريقاً من الهجانة المصرية للبحث عنهما وعاد الفريق دون أن يجد أثراً لهما. وتبع هذا مكالمات هاتفية محمومة عبر الحدود، وتم تنبيه دورية حرس حدود في الجانب العشمانى. وثار الشكوك حول أسر البدو لهما ومن ثم تم القبض على أربعين رهينة. وبعد يوم وصل وولى ولورانس وداهوم إلى القصيمة وأقدامهم مقروحة، إلا أنهم دهشوا لاكتشافهم أن الهجادة كانت تقتفى أثرهم وأوضح لورانس أن الجنون أصاب الإبل فففزت أثناء الليل. ولذا، فقد ساروا إلى قاعة باريا Qadesh Barea على أمل وجود إبل هناك، إلا أنهم، بدون قصد منهم، اتبعوا طريقاً جبلياً لا تسير فيه الإبل، ولذا لم تعثر عليهم الهجانة. وكتب لورانس ملاحظة عن هذا، «يوضح

هذا كيف يمكن تحدى الحكومة بسهولة فى بلد مهجور كهذا» وكان هذا درسا لن ينساه. ومكثوا أياما قليلة فى قادش باريا التى ( كانت عاصمة بنى إسرائيل فى سنوات التيه !!! ) ثم رحل وولى إلى البحر الميت ولورانس إلى العقبة حيث كان مقررا أن يلتقى بنىو كومب. ووصل إلى رأس المنفذ بعد أيام خمسة ورأى خليج العقبة للمرة الأولى.

يقع هذا المنفذ الآن على الحدود الإسرائيلية المصرية. ولكى يصل إليه المرء، عليه تسلق مرتفع وعر من إيلات. وحينما كنت أمر عبر إيلات فى طريق عودتى إلى مصر قررت أن أقضى يوما هناك أتفحص فيه طريق الحجاج القديم الذى أبصره لورانس لأول مرة من وادى الرفث. واستأجرت دراجة جبلية إلا أنه تبين لى أن التسلق هنا كان أكثر صعوبة منه فى صفا بسبب الانحدار الشديد. كان اليوم قائظا ولم أكن قد أحضرت معى مياه لتأكدى من وجود أكشاك مشروبات فى الطريق. قادنى الطريق من مناطق إيلات السكنية فجأة إلى صحراء جرانيتية جرداء ورءوس جبلية حادة كالسيوف وسويقات ( جمع مصغر ساق ) أشجار متكسرة، وأظلاف حيوانات. ثم توقفت على منحنى وأنفاسى تتلاحق كى أبصر مشهد خليج العقبة المذهل ووادى عربة العظيم حيث يرتفع الصدع الإفريقى من البحر الأحمر بجدران الشاسعة من الحجر الجيرى ذى اللون الأبيض المائل للاصفرار، والصخور الجرانيتية الخضراء، والخليج ذا الشكل الهلالى المكتمل الذى تنمو عليه مجاميع شجيرات النخيل، وحافة مدينة العقبة وكأنها من البورسلين الزجاجى. ثم واصلت قيادة الدراجة وأنا أتصيب عرقا، وأخذ القيظ يشتد ويجف فمى أكثر وأكثر. لم يكن هناك أناس أو مساكن أو سيارات. كانت ثمة أشجار قليلة وندرة من النباتات، مجرد حجارة صوان عارية تكاد تشتعل. وأخيرا وصلت إلى لافتة تشير إلى صدع وقد كتب عليها «عين نيتافيم Netafim». ولفظ عين يدل على ماء من نوع ما. ومن ثم، انحرفت عن الطريق، وقدت الدراجة وهى تتقاذف فى مسار حجرى لأتوقف فجأة وأتجنب سقوطى من على منحدر فى واد عمقه ٥٠٠ قدم. وبدا أن العين كانت تقع أسفل نتوء صخرى، وكان على أن أتسلق أسفل صدع صخرة خطر كى أصل إليها. ورغم أن الإرهاق الشديد قد تملكنى من قيادة الدراجة، إلا أن العطش كان يحرق حلقى، وأدركت أنه كان على الوصول هناك



بأى ثمن . كانت الصخرة منزلقة وضيقة ، واستعملت يديّ للتسلق هابطا . وفى بعض المواضع ، كان الصخر مصقولا كالزجاج من مرور الناس عليه على مر السنين . كانت تسد بطن الوادى كُسارات الصخر التى تراكمت عبر السنين . ولم يكن النبع يتعدى قناة ضحلة مبتلة حيث كانت جنبات الصخر تلامس بطن الوادى . وكان شخصا ما قد قام بعمل حوض صغير تتجمع فيه المياه ملأته الطحالب ويرقات البعوض . وانحنيت وحملت الماء إلى فمى فى كفى بيرقاته وطحالبه . ولم تكن أفضل مياه تذوقتها ، فلم أعرف لها طعما ، إلا أننى كنت عطشان بدرجة لا تصدق . ثم تهالكت فى ظل صخرة وأنا أستمع إلى أغاريد الطيور العالية وصفيها . وتحققت حينذاك أن تلك كانت المياه الوحيدة فى المنطقة كلها . وشعرت أنه يحق لى أن أضرب نفسى لإغفالى إحضار ماء معى إلى الصحراء وكانت مشقة الحصول عليها درسا أستحقه . ثم تسلقت عائدا وسحبت دراجتى إلى الطريق . كان نمة مسار مغطى بكسارة الحجارة على بعد مسافة قليلة ولافتة تقول «توقف : هذه نقطة الحدود» . وهنا خامرتنى فكرة أننى كنت أسير فى أحد أقدم الطرق فى التاريخ ؛ فقد سلكه ملوك الهكسوس الرعاة فى عرباتهم الحربية لغزو مصر منذ أربعة آلاف عام . وأتى قمبيز الثالث ملك الفرس هنا على رأس جيشه عام ٥٢٥ ق . م ، وأدخل معه الجمال إلى شمال إفريقيا . أما الطريق الحالى فقد حفره ورصفه السلطان سليم الرهيب العثمانى الذى حطم قوة المماليك فى الشرق الأوسط ، كى ينقل مدافعه أثناء غزوه مصر عام ١٥١٧ . وطوال قرون كان الحجاج المسلمون يستخدمون هذا الطريق للوصول إلى مكة والمدينة . وفى عام ١٩١٤ أتى تى . إى . لورانس واستغرق الأمر منه ساعات ثلاث للوصول من الهضبة إلى الساحل .

أما الآن فيوجد ماكدونالدز إيلات بين إشارات المرور فى نفس النقطة تقريبا التى كان يتلامس فيها طريق الحجاج مع الشاطئ . بيد أنه لم تكن توجد مدينة تدعى إيلات أو أمة تدعى إسرائيل عام ١٩١٤ . وبدلا من الفنادق الفخمة وأماكن بيع الأيس كريم والملاهى والفتيات المستلقيات على الشاطئ فى لباس البحر ، وجد لورانس شجيرات ورمالا وبعض نخيل الدوم وأكواخ الصيادين المبنية من البوص . واكتشف أن نيوكومب كان ينتظر مستاء فى العقبة على بعد ميلين . فقد حظر

الحاكم المحلي عمل أية خرائط . وعلى حين أن لورانس رأى تجاهل أمر الحاكم، فإن نيوكومب ركب لمسافة عشرين ميلا في اليوم التالي لتلقى مكالمة هاتفية من كتشنر شخصيا حذره فيها ضد التصرف المندفع . وعلى الفور، استوعب لورانس الخطر . فقد كانت العقبة هي الميناء التركي الوحيد على رأس البحر الأحمر وكانت ذات أهمية حيوية لأية عمليات حربية. قد تحدث في الداخل في المستقبل . وسرعان ما فكر بأسلوب الهجوم /الدفاع . فبالإمكان الاستيلاء على العقبة من البحر بالطبع، إلا أنه رأى أنه سيكون بإمكان أية قوات هناك التراجع لأميال قليلة فقط إلى الجبال التي تحيط المكان من الجانبين في الميناء . ومن ثم، فلا بد لجيش الأعداء الذي يحاول التقدم أن يثبت في مكانه غير قادر على الحركة . وكان الطريق الرئيسي للعقبة هو وادي إثم Ithm، وهو صدع هائل من الجرانيت يفتح شرقي الميناء، وقد كان شديد الضيق وتسده جلاميد الصخور في بعض الأماكن لدرجة عدم تمكن الإبل من المرور إلا في صف مفرد . وفكر لورانس أن من يسيطر على وادي إثم يمسك بيده مفتاح الموقف .

ونظرا لأن مسح المكان الخرائطي كان ممنوعا، فقد قضى لورانس وقته يتفحص أطلال قلعة إيلا Ayla القديمة حيث التفت بعض الكسارات الفخارية . ثم حاول استئجار قارب يحمله إلى جزيرة فرعون على بعد عشرة أميال جنوب العقبة حيث توجد قلعة من العصور الوسطى، إلا أن الشرطة ألقت القبض على المراكبي، وحينما حاول لورانس وداهوم أن يبحرا بالقارب استوقفتهما الشرطة . بيد أن هذا لم يشبطه، فاستعار من نيوكومب بعض قرب المياه وسار بجماله حول الشاطئ إلى طابا حيث كانت الجزيرة على بعد أربعمائة ياردة من هناك . ثم قام بنفخ القرب واستعمل لوحا من الخشب كمجداف وسحب القربة التي ركبها داهوم خلفه . إلا أنه وجد أن الأطلال لم تكن تستحق هذا الجهد . ولدى عودته، أجبر على مغادرة المكان تحت حراسة عسكرية .

وقرر لورانس السير شمالا إلى وادي عربة، ومنه إلى البتراء مدينة النبطيين القديمة المحفورة في الصخر الأصم، وكان لورانس يريد الوصول إليها منذ أول رحلة له إلى سوريا عام ١٩٠٩ . ورغم أن التصوير كان ممنوعا وأنه كان تحت الحراسة المشددة، إلا أنه تمكن من التقاط بضع صور خفية بعد أن تظاهر بأنه يعاني من

الدوستاريا. ثم أرسل جماله الاثنى عشر ورجاله الخمسة إلى وادى موسى فى مدخل البتراء، وسار هو وداهوم خلسة وتمكنا من تضليل الحراس فى متاهات الوديان حول جبل حور ثم اكتشفا طريقا بين التلال كانت تستعمله جماعات البدو الغازية المتجهة إلى سيناء. ووجد لورانس فى البتراء نفسها وليمة ممتعة له ولم يكن مستعدا لأثر المكان الساحق. ولا يعزى شعوره بالرهبة إلى المعابد والمقابر المحفورة فى الصخر، بل إلى الجمال الطبيعى للمكان بألوانه الرخامية الحمراء والسوداء، وصخوره المهيبة وقممه الشامخة، وذلك الممر الضيق «الشق» الذى يبدو أنه كهف كبير تحت سطح البحر تغطيه زهور الدفلى واللباب والسرخس. وشعر لأول مرة بعجزه عن الوصف فكتب لإدوارد ليدز قائلاً: «لتأكد أنه لن تخطر فى خيالك ولو ومضة من جمال هذا المكان إلى أن تراه». ورغم أن آلاف الزوار الذين يتوافدون على المدينة الصخرية اليوم كانوا لم يفسدوها بعد، فقد كان هناك معسكر للسانحين يديره توماس كوك، وكان ثمة وفود قليلة تأتى للفرجة. وقد تمكن لورانس من أن يستجدى من الليدى إيفيلين كوبولد، وكانت فى زيارة للمكان، ثمن تذكرة قطار من معان إلى دمشق، وقرر فى نفس الوقت، منطلقاً من أسلوبه المترفع، أن يطلب من والدته أن تبحث عن هذه السيدة فى موسوعة الأفراد.

كانت معان على مسافة قصيرة من تلال البلقاء، وأرسل لورانس بقافلة أمتعته فى المقدمة كالعادة. وضايقه أن الشرطة استوقفت جماله لأنها كانت ترعى فى مرعى عام وقررت عدم الإفراج عنها إلا بعد دفع الغرامة. وكان لورانس قد تعلم من وولى رد الفعل المناسب لمثل هذه المشاكل. ومن ثم، التقط بعض من بنادق الشرطة وسار مسرعاً فى اتجاه مكتب الحاكم المحلى وهو يحمل الأسلحة تحت ذراعيه. وتبعه رجال الشرطة وقد منعهم الخوف من استرداد الأسلحة. ثم واجه الحاكم وطالبه بالغاء الغرامة مقابل إعادة الأسلحة. ورغم ثورة الحاكم فقد وافق على غير إرادته. وحينما أمر رجاله أن يطلقوا سراح الجمال أجابه لورانس بصلافة «أرجوك لا تنعب نفسك. لقد غادرت الجمال المدينة منذ ساعة ونصف». ثم انتظر القطار فى معان يومين ونصف متذمراً من عدم كفاءة مهندسى السكك الحديدية الأتراك. وأخيراً سافر بالدرجة الثالثة إلى دمشق، ولم يكن له أن يرى معان مرة

أخرى لمدة سنوات ثلاث ، وكان ذلك عن بعد حينما كان راكبا فى طريق العقبة على رأس الجيش الهاشمى .

سر لورانس بعودته إلى كركميش ، وكان قد عاف الصحراء ومن ثم تطلع مشتاقا إلى عمله الروتينى فى الحفريات وتمنى لو استمر لسنوات . وأخيرا ، وجد هذا الشاب الذى كان يمنى نفسه بأن يقضى حياته فنانا هاويا ، وجد نفسه وقد أصبح خبيرا محترفا . وكان قد اعترف لقيثيان ريتشاردز فى خطاب أرسله إليه الصيف السابق أن فكرة استقراره فى موطنه قد تلاشت منذ أن عرف الشرق : « ... انزلت تدريجيا حتى وجدت نفسى ، منذ أشهر ، وقد أصبحت أركيولوجيا عاديا . لقد قاومت بعنف وأنا فى أكسفورد حتى لا أنتمى لنمط محدد ، إلا أن رجال التأمين قد أجبروني الآن على البقاء فى مكاني » . بيد أنه لم يكن للعمل أن يبدأ حتى نهاية مارس لأن كينيون كان قد غفل عن تجديد التصريح ، وفى اليوم الذى وصل فيه وولى ولورانس بالتصريح كانت هناك معركة فى معسكر السكك الحديدية .

بدأت المعركة حينما اكتشف أحد العمال الأكراد ويدعى على أن أجره عن عمله الشاق طوال شهر كامل كان خمسة قروش فقط . وكان أجر العامل اليومى فى الشركة الألمانية ثمانية قروش ، إلا أن الصراف كان يخصم ثمن الخبز الذى كان يصل من الفرات دون مقابل ولا يراه العمال . واحتج على قائلا إنه يستحق أكثر من خمسة قروش عن عمله إلا أن الصراف لم ينصت لهم فقذف الكردي بالنقود فى وجهه . وهنا قام خادم الصراف الشر كسى بضرب على وطرحه أرضا ، إلا أن عليا نهض حاملا حجرا فحاول الخادم إطلاق النار عليه الأمر الذى دفع الأكراد الآخرين ، وكان عددهم مائة وخمسين ، إلى أن يثوروا ويلقوا بالحجارة على مكتب المهندسين الألمان فحطموا النوافذ . وحينذاك ، التقط الألمان بآدقهم وأطلقوا النيران على الجميع فأصيب ستة عمال من العرب الأبرياء الذين كانوا منهمكين فى أعمالهم على بعد ثلاثين ياردة . وهنا ألقى العرب معداتهم جانبا وأخرجوا مسدساتهم وأطلقوا النيران على العدو المشترك فعمد المهندسون المحاصرون إلى مهاجمة معسكرهم وسرعان ما اندفعت كتيبة مكونة من ثلاثين جنديا شر كسيا

وتركيا وبعض زملائهم من المهندسين عبر القنطرة وبدأوا في إطلاق النيران من مسافة قريبة. وعندما خرج لورانس وولي من منزلهما ليريا ما حدث تعرضا لقذف النيران ولمح لورانس شركسيا يدعى أحمد زكريا يخطو على بعد حوالي ستين ياردة ويصوب إلى وولي. إلا أن الرجل لم يحسن التصويب وارتدت القذيفة حول قدميه. ومن ثم، اندفع لورانس إلى مكتب المهندسين ليخبر الألمان أنه لا يجوز إطلاق النيران عليه هو وولي. وحينما وصل لورانس إلى التل أدهشه أن يرى أن حوالي ثلاثمائة كردي وعربي قد تسلقوه من الخلف واستعدوا لهجوم انتحاري على الكتيبة. كان من بحوزتهم مسدسات مشغولين بتعبئتها، أما الآخرون فقد أخذوا في التقاط العتلات والعصى. وحاول لورانس الدفع بهم إلى الخلف حتى إنه ألقى ببعضهم أرضا إلا أن أحمد زكريا بدأ في إطلاق النيران مرة أخرى، ورغم أنه لم يصب لورانس إلا أنه أصاب صبيا كرديا كان يتحدث إليه الأمر الذي فجر ثورة الأكراد المخمومة ولم يتمكن الإنجليز من منعهم من إطلاق النيران إلا بشق الأنفس. ومرت اللحظات الحرجة، ونجح وولي ولورانس أخيرا في إقناع الرجال أن يحملوا جرحاهم إلى منزل البعثة ثم تفرق الجمهور في القرية بعد حوالي ساعة. وكانت النتيجة هي قتل أحد الأكراد وإصابة حوالي عشرين برصاص الألمان.

وفي اليوم التالي، حينما وصل القنصل البريطاني والألماني برفقة كتيبة مكونة من ٢٥٠ جنديا عثمانيا كان المعسكر يسوده الهدوء. وطلبت شركة السكك الحديدية من وولي ولورانس أن يتفاوضا نيابة عنها للوصول إلى اتفاقية سلام وذلك عن طريق صديقهم الكردي بصراوى أغا. واقترح لورانس دفع ٨٠ جنيها استرلينا دية عن الرجل المتوفى و ٤٠ جنيها تعويضا لباقي المصابين. كما أوصى أيضا بفصل الشراكسة واستبدال الصراف وأحد المهندسين وتعيين ١٢ كرديا مراقبين بأجر بومي. وقوبلت تلك المقترحات بارتياح من الطرفين وسافر بصراوى أغا في حماية القنصل البريطاني راف فونتانا إلى حلب لتوقيع الاتفاقية هناك. بيد أن وولي ولورانس لم ينسيا أحمد زكريا الشركسي الذي حاول متعمدا إطلاق النيران عليهما، ومن ثم أصدرت السلطات العثمانية تعليماتها بالقبض عليه غير أنه فر إلى الجبال ولم يعثر عليه أبدا. وبعد أسابيع أوقف العمل بالحفريات. وكان وولي ولورانس قد أعدا جزءا من تقريرهما عن مسح النقب The Wilderness of

Zin. ولما كان الأمر يتطلب بحثا جوهريا عن خلفية أعمال الاستكشاف الذى لم يكن من الممكن إعداده إلا من خلال المكتبات فى بريطانيا، فقد قرر لورانس العودة إلى أكسفورد بدلا من التجوال هذا الصيف. ولم يأت له رؤية داهوم أو كركميش بعد ذلك أبدا.

ففى ١١ من أغسطس، وبينما كان لورانس فى شارع بولستيد بأكسفورد، سمع أن بريطانيا وألمانيا قد أعلنتا الحرب. وتدافع الشباب بمن فيهم إخوة لورانس وزملاؤه السابقون من كل الأنحاء للتطوع فى الجيش. أما لورانس فقد امتنع. ورغم أنه أخبر روبرت جريفز فيما بعد أنه حاول الالتحاق بوحدة لتدريب الضباط إلا أنه رفض لكثرة المتطوعين، فقد أنكر هذا واعترف لليدل هارت أنه لم يحاول التطوع أبدا. وقد أكد إدوارد ليدز، الذى كثيرا ما عمل معه لورانس فى المتحف الأشمولى، أن حمى التطوع لم تمسه أبدا «وعلى قدر ما أتذكر، فلم تكن لديه أية شكوك حول واجبه... فقد كان يريد أن يسهم وكانت شكواه أنه ليست لديه الفرصة للإسهام المجدى... إلا أنه انتظر». كان لورانس يرى بوضوح أنه يستطيع تأدية واجبه على أكمل وجه فى الشرق الأوسط، غير أن تركيا لم تكن قد لحقت بعد بالجانب الألمانى فى الحرب. وتوقعا منه لهذا، تقدم بطلب للالتحاق بالأركان العامة البريطانية فى مصر وفى سبتمبر كتب إلى صديق له يقول «إن المصريين يقولون إنهم يريدوننى لكن ليس الآن، وليس بإمكان وزارة الحرب قبولى حتى تبت وزارة الحرب فى مصر فى أمرى». كان لورانس ذا قابلية خاصة للتوتر، ومن ثم أقلقه الاحتمال المرعب ألا يدخل العثمانيون الحرب، لأنهم إن لم يفعلوا، فستصبح المهارات الخاصة التى اكتسبها على مدى السنوات الخمس الماضية غير ذات جدوى للمجهود الحربى. ولن يكون أمامه بديلا سوى الالتحاق بكتيبة مقاتلة ذاهبة إلى فرنسا. بدت أيام الانتظار القلق دون نهاية وكتب «يجعلنى الملل الرهيب عصيا دون فعل شيء، ودون الحصول على أنباء مرة فى الأسبوع، وقلق من حولى». ولدى انتهائه من تقرير The Wilderness of Zin فى أكتوبر لم يستطع صبرا، وتقدم بطلب إلى مرشده دافيد هوجارث كى يحصل له على وظيفة عسكرية. وكان هوجارث يجد صعوبة فى الحصول على عمل عسكري لنفسه، إلا أنه تمكن من إلحاق لورانس بوحدة MO4، أى القسم الجغرافى للمخابرات العسكرية وكان

رئيسه، الكولوسيل هوت هيدلي زميلا لهو جارت في مجلس الجمعية الجغرافية الملكية. ومن حسن الحظ، كان هيدلي قد سمع عن قدرات لورانس من ستيوارت نيو كومب ومن «صندوق التنقيب في فلسطين»، ووافق على ضمه كي يساعد في عمل خريطة موسعة لسيناء والتي كانت موجودة على شكل مسودة في ثمان وسنين صفحة. كانت تعليمات هيدلي للورانس جافة إذ أخبره «اذهب فانظر ما أنت فاعل بهذا الشيء الملعون». لم يعن لورانس أنه لم ير سوى جزء صغير من شمال سيناء أثناء مسح النقب، وانتهى في ذات الليلة من خريطة مساحتها ست باردات مربعة كان جزء منها دقيقا والأجزاء الأخرى من اختراعة كما اعترف بذلك. ومن الواضح أن هيدلي خدع فيما اعتقد أنه إحاطة كاملة من لورانس بالتفاصيل، إذ إنه حينما استعلم منه هو جارت بعد أيام عما إن كان قد وجد الشاب ذا نفع أجابه «إنه يدير قسمي بأكمله الآن نيابة عني» وكان بإمكانه أن بضيف أن لورانس قد أصبح هو القسم لأن جميع موظفي الخرائط الآخرين كانوا قد أرسلوا إلى فرنسا. إلا أن لورانس كان مازال مدنيا، الأمر الذي أثار جدلا حينما أرسل لإيصال بعض الخرائط إلى الجنرال رولينسون، وكان ضابطا من رتبة كبيرة اتابه الفزع حينما رأى ذلك الشخص «التافه» في زيه المدني فصاح «أريد أن أتحدث إلى ضابط». وسرعان ما قام هيدلي بتصحيح الوضع بأن أوصى بضم لورانس إلى الخدمة حتى دون كشف طبي وتم تعيينه فوراً «ملازما ثانيا لأعمال الترجمة بصفة مؤقتة». ومن ثم ابتاع زيه في اليوم التالي من على مشجب في محل يبيع ملابس للحيش والبحرية.

وبينما كان لورانس وولي يتجولان في النقب في فبراير عام ١٩١٤، وصل الشريف عبد الله، الابن الثاني لحسين أمير مكة إلى القاهرة في زيارة لسلطان مصر. ولم يكن عبد الله حينذاك نفس الشاب غير ذي الخبرة الذي هبط من السفينة «طنطا» في جدة عام ١٩٠٨، بل كان قد قضى سنوات مراهقته في ممارسات تشد عوده، مثل ركوب الخيل مع جنود أبيه من البدو، والخروج مع أخويه على وفبصل لشن غارات محدودة ضد القبائل المتمردة، أو القتال في عسير باسم الأتراك. وكان الكثيرون يعنبرون الشريف عبد الله الداهية ذا الشعبية الكبيرة، السلطة الحقيقية في الحجاز... وقد كان الآن في طريقه إلى إسطنبول للشكوى من

النظام الإدارى المحلى الجديد الذى كان المسئولون العثمانيون قد أعلنوه لتوهم . كان الهدف من هذا النظام، الذى سمي بنظام الولايات، هو إبعاد القيادات العربية التقليدية من أمثال والده الشريف حسين الذى استمر فى كسب قبائل البدو بشكل مطرد . وكان الباب العالى، من أجل تأسيس النظام الجديد، قد قرر مد خط سكك حديد الحجاز من نقطة انتهائه الحالية فى المدينة إلى مقر الأمير فى مكة . وبالفعل، قام بإرسال حاكم متشدد يدعى وهيب بك على رأس سبع كتائب مشاة وكتيبة مدفعية للمساعدة فى تنفيذ المهمة . وأدرك عبد الله أنه إن تم مد الخط فسيبنى هذا نهاية سلطة أسرته إلى الأبد .

وكان خط سكك حديد الحجاز قد وصل المدينة عام ١٩٠٨ أى العام الذى عاد فيه الهاشميون إلى مكة، غير أن الشريف حسين فضل السفر بالباخرة ويرجع هذا جزئيا إلى أن البدو كانوا يحاصرون المدينة . وكان الخط يعتبر انتصارا للنظرة الإمبراطورية العثمانية ولدقة الهندسة الألمانية، فقد كان يعبر ٨٠٠ ميل من الصحراء والتلال القاحلة التى ظلت صامتة لآلاف السنين إلا من خطو الرجال ودواب الجمال . وكان طريقا سميتريا من الصلب اللامع الغريب، من تصميم ميسنر باشا المهندس الألمانى ذى الدافع والعبقريّة الفذة . وتم تنفيذه بواسطة قوة من الجنود الأتراك قوامها ستة آلاف جندي صبغت دماؤهم كل ميل من الخط تقريبا، كان الأتراك يحركون مطارقهم بتصميم لا يثنى وهم يتقدمون ببطء ويعانون الحرارة والعطش والجوع والذباب والمرض . كانت هناك مشاكل كبيرة يجابهونها : الوديان الشاسعة التى كان يلزم مد الخطوط فوقها بدعامات بلغ عددها عشرين كوبرى مقوسا، وتكوينات الحجر الرملى التى كان يلزم شقها أو تفجير ممرات فيها . كان الخط بحاجة إلى صيانة متواصلة، فمثلا، كانت مواد الرصف تتآكل تاركة فتحات تحت القضبان، أو تسد الرمال القنوات التحتية، أو تمتلئ مياه الفيضانات بالرواسب وتجرف السدود، أو يخرب البدو المغيرون الطرق . وكان العمال يشتغلون فى مجموعات مكونة من عشرين إلى خمسين شخصا، وكانوا دائما مسلحين، بينما كان الحراس يتمركزون فى الأماكن المرتفعة لينبئوهم بمقدم جماعات البدو . ولم يكن يسمح لأى بدوى بالاقتراب من المحطة دون تصريح وإلا تعرض لإطلاق النيران . وكانت كل محطة فى الحجاز تقريبا



نحسبها قلعة حجرية، ولكل منها مخزن مياه جوفى، وفتحات لإطلاق النيران، وأسلاك شائكة تحيطها. فإن حدث ولمح الحراس قدوم جماعات مغيرة، أعطوا الإشارة لجماعات العمل، الذين كانوا يقفزون إلى المركبات ويندفعون نحو المحطة. وكان يحدث أحيانا أن يتعرضوا لهجمات عصابات السلب قبل أن يصلوا لبر الأمان، ويصرعون رجلا رجلا. وكانوا فى أحيان كثيرة يجبرون على الاختفاء لأيام عديدة. فقد كان من غير الممكن التحكم فى البدو إذ إنهم لم يكونوا ليشقوا فى أحد، وكانوا دوما فى حالة حرب مع الحكومة وضد أحدهم الآخر. بيد أنهم كانوا متحدين فى كراهيتهم للسكك الحديدية التى قللت من حركة نقل البضائع، ومكنت الأتراك من إحكام قبضتهم على الحجاز.

وفى يناير عام ١٩١٤، والحاكم الجديد فى طريقه مع كتائبه الثمانى، لعب حسين بكارت البدوية سريعا، فجند شيوخ القبائل وأخبرهم عن وصول وهيب وعن أهدافه: «إن السكك الحديدية ستقضى عليكم تماما، فبمجرد أن يتمكن الأتراك من الدفع بقواتهم إلى أجزاء الحجار، لن يكونوا بحاجة إلى دفع الذهب إلى البدو». ورأى البدو أين تقع منفعتهم، وأكدوا دعمهم لأمرهم. ولدى وصول وهيب قابلته حالة من الفوضى. فقد كانت قبائل البدو قد قطعت خطوط الهاتف، وكانت المدن جائعة، وأخذ المغيرون ينهبون المحلات فى جدة ويهاجمون القوافل. واخفى رئيس الشرطة الذى اختطفه البدو فى طريق الحج. وبعث الحاكم برسالة يانسة إلى إسطنبول، وللحظة، بدا الأمر وكأن الأتراك سيرسلون بعثة تأديبية من سوريا حرا. إلا أنهم تراجعوا، وعرضوا على عبد الله ٢٥٠,٠٠٠ جنيه استرليني ذهبى لإقناع والده بإنهاء العصيان، مع وعد بأن يكون له نصف دخل السكك الحديدية بمجرد مد الخط إلى مكة. وأدرك عبد الله بفطنته أنه بمجرد إكمال خط السكك الحديدية ستختفى هذه الوعود.

ومن غير المؤكد إن كان عبد الله قد حضر إلى القاهرة بهدف جس نبض البربطابين تجاه تركيا. وكان قد فكر بالفعل فى احتمال إشعال تمرد بين الوحدات العربية فى الحس العثمانى فى سوريا والعراق، ثم يضمن أولا استقلال الحجاز بمساعدة البريطانيين، وربما دولة عربية أكبر فيما بعد. وقد يكون لقاء عبد الله

وكيتشنر، المعتمد البريطاني في مصر وحاكمها الفعلي، أثناء حفل استقبال رسمي، قد تم مصادفة أم عمدا. وكان كيتشنر يهتم بالحجاز من أجل سلامة الهنود الذين يؤدون الحج. وكان هذا هو الموضوع الذي ناقشاه في لقائهما الأول. وفي اليوم التالي زار عبد الله كيتشنر واستعلم بأسلوب غير مباشر عن موقف بريطانيا في حالة تصاعد الصراع بين الهاشميين والأتراك. وكان كيتشنر حذرا، فهو شخصا كان يعتبر تركيا عدوا مرتقبا سيهدد قناة السويس الهامة في حالة الحرب. وكان هذا في الواقع سبب لزوم وجوده، وهو الرجل الإنجليزي، كقوة فاعلة في مصر، وهي بلد كانت من الناحية الفنية مازالت جزءا من الإمبراطورية العثمانية. إلا أن يديه كانتا مغلولتين رسميا. ومن ثم، فقد أوضح لعبد الله أن تركيا «بلد صديق حاربت بريطانيا في القرم من أجل حمايتها، ولهذا، فمن غير المحتمل أن تتدخل بريطانيا في صراع بين الحجاز والباب العالي».

ولم تجد احتجاجات عبد الله في إسطنبول لدى جماعة الاتحاد والترقي سوى آذان صماء. وعاد إلى القاهرة وهو يغلى لسوء استقباله. إلا أنه كان قد نعى إلى جواسيس الباب العالي معلومات عن مناوراتهم مع البريطانيين وأقنعوا كيتشنر بالعدول عن لقائه. وبدلا من هذا، تحدث عبد الله مع رونالد ستورز السكرتير الشرقي للوكالة البريطانية وطلب منه شحنة مدافع للتصدي للأتراك. وأجاب ستورز، إن اهتمام الإمبراطورية البريطانية الأوحده بالحجاز ينحصر من حيث «المبدأ» في سلامة حجاجها وكرر عدم استطاعة بريطانيا التدخل. إلا أن ستورز، بينه وبين نفسه، كان متعاطفا، وأوحى، عن طريق الكلمات المختارة أن إجابة بريطانيا ليست نهائية كما تبدو. وأحب الرجلان أحدهما الآخر؛ ستورز، المستشرق البريطاني التقليدي، وكان دمثا، مغرورا، مصقولا، وربما مخنثا، محبا للفنون الجميلة والموسيقى؛ وعبد الله، وكان أميرا عربيا حكيما مهذبا مصقولا، ومقاتلا ذا شعبية كبيرة يستشهد دوما بأبيات الشعر العربي، ويحب الصبية. وقد تكون الثورة العربية قد ولدت حينما واجه أمثلا الأمتين اللذان يتمتعان بقدر عال من الذكاء أحدهما الآخر في قصر عابدين وتبادلا تلميحات وتوجيهات بإشارات لا تكاد تلمح.

ولم يكن بدا حتى نهاية هذا الخريف أن دخول تركيا الحرب أمر لا مفر منه . واستطاع كيتشنر أن يخرج إلى دائرة الضوء فأرسل فى ٢٤ سبتمبر برقية من لندن بتعليمات إلى ستورز أن يبعث برسول سرى موثوق فيه إلى «عبد الله فى الحجاز ليعرف ما إن كان الهاشميون سيؤازرون بريطانيا أم يعادونها فى حالة الحرب» . ومن ثم ، كلف ستورز عميلا فارسيا سابقا يدعى على أصغر ، والذي عرف فيما بعد باسم «العميل X» بالذهاب إلى مكة مختفيا كأحد الحجاج . وفى ٥ أكتوبر ، غادر على السويس ووصل إلى جدة بعد ثلاثة أيام ، واستأجر حمارا نظير جنيهين استرلينيين . وبعد أن اختبأ طوال الليل ، وصل إلى المدينة المقدسة فى الصباح التالى . ثم تمكن من الاتصال بعبد الله بعد انتظار عدة أيام . وقبل نهاية الشهر وصل إلى القاهرة ومعه رسالة لم يتوقعها كيتشنر الذى كان سيسعده مجرد موافقة العرب على عدم دخول الحرب ، وبدلا من هذا ، وعد عبد الله أن يظل محايدا مؤقتا . لكنه كان على استعداد بدعم ديبلوماسى «أن يقود أتباعه المباشرين فى ثورة مسلحة» ، الأمر الذى أدهش كيتشنر وتم إبراق النص إلى لندن فى ٢٩ أكتوبر . وبعد يومين ، أعلنت الإمبراطورية العثمانية الحرب رسميا على بريطانيا . وفى أوائل ديسمبر ، تم إرسال لورانس و وولى ونيوكومب إلى هيئة الأركان العامة بالقاهرة .

القاهرة.. أشياء لا يُنطق بها

القاهرة وما بين النهرين

١٩١٤-١٩١٦

# 10

لدى مغادرتي

السيارة الأجرة ذات اللونين الأبيض

والأسود في ميدان الأزبكية

بالقاهرة، وجدت بعض الصعوبة في

العثور على فندق الجراندي كونتيننتال.

وفجأة تحققت أنه ذلك البنيان القبيح

المتهاالك المقابل لحدائق الأزبكية والذي

يخفيه جزئياً بعض

المحلات الكنيية.

كنت قد رأيت صورة لما كان عليه المكان عام ١٩١٤ تتوج خطابا كتبه تى . إى . لورانس ، وكان من الصعوبة أن أستوعب أن هذا المبنى المتهالك العفن هو نفس ذلك القصر الكلونيالى العظيم الذى أكد لى « كتالوج » إيه وسى بلاك A & C Black لعام ١٩١٦ أن قائمة نزلائه كانت من صفوة الصفوة . لقد انتهى العالم الفخيم للزمن الجميل فى مصر حين كانت القاهرة مشتى عصريا ينافس نيس ومونت كارلو . . . احنفى مثل الفندق نفسه خلف واجهة القاهرة الرثة كمدينة حديثة محمولة . ظهر لى فى الردهة المظلمة رجل يحوم الذباب حوله ذو أسنان صفراء ولحية لم تحلق منذ يومين وحينما سألته عن سعر الغرفة قال : إن هذا المكان لم يعد فندقا منذ عشر سنوات . ونلمس رجل آخر يدعى خالد أنهكه الزمن ، كان يجلس فيما كان يوما مكتب الاستقبال ؛ وأصبح الآن مكانا تساقط طلاؤه ، وبهتت ستائره الخملية ، تلمس طريقه وسط أرشيف الأوراق واستخرج كارت بوستال ملونا به صورة الفندق كما كان منذ عشر سنوات : كان مهملا كما هو الآن . وأخبرنى أنهم قالوا

إنه لا يمكن ترميمه ، ونظرا لأنهم لا يستطيعون استعماله كفندق فقد حولوه إلى مكاتب . ثم أخبرني أنه وإن لم تكن ثمة فرصة لأرى غرف الأدوار العليا ، إلا أنه سيريني الجزء السفلى . وهنا ، أحضر حلقة كبيرة بها مفاتيح ، وقادني كسجان عبر الردهة ، وفتح شفة كبيرة من الصلب كانت قد سُمّرت على أبواب قاعة الطعام . كانت الغرفة متسخة بشكل يبعث على الدهشة ، ومفروشة بسجاد مخملي خمري اللون وأضحى باهتا ومتعفنا ومغطى بروث الفئران وأجزاء من الكسارات المتساقطة من السقف . قال خالد : « لقد كنت خادما بالفندق في الزمن القديم . كان يؤمه الملوك والأمراء من جميع أنحاء العالم وكان أفضل فندق في مصر » . ثم أشار إلى لوحات جصية جدارية لآلهة مصرية قديمة ولفراعنة كانت تزين الجدران وقال « قام برسمها فنان إيطالي منذ أكثر من مائة عام » . وفكرت أنه لا بد وأن لوراس كان يعرفها جميعا إذ إن الجراندي كونتينتال كان قاعدته لشهور تسعة في عامي ١٩١٤ و ١٩١٥ ، وكان يتناول الغداء والعشاء في هذه الغرفة كل يوم تقريبا . كان بالإمكان رؤية نفايا كشك وكالة سياحية في الردهة ، ولوحة متآكلة

تعلن عن رحلة نيلية وبقايا محل مجوهرات . أرانى خالد أيضا ما كان بارا، رغم أن كل ما تبقى منه كان الأرفف المصنوعة من المرايا المزينة بالفسيفساء حيث كانت تعرض القوارير وقال : « كانوا يشربون الويسكى هنا » . وتخيلت القاهرة العظيمة الطيبة عام ١٩١٤ - رونالد ستورز، ويرتى كليتون، وجورج لويد، وأوبرى هيربرت، وستيوارت نيوكومب وآخرون - يحتضنون مشروباتهم، ويقلبون فى رءوسهم شديدة التمدين أحلامهم بالإمبراطورية وبالثورة العربية .

سرت خارج الردهة إلى ضوء الشمس الأصفر وإلى حركة مرور متخمة حول سور حديقة الأزبكية التى تقع مقابل الفندق . كانت الحديقة قد أغلقت للجمهور منذ أن أغتصبت فتاة هناك فى وضوح النهار، كما أخبرنى خالد . وبدأت الحديقة من خلال السور ذابلة مشعثة، إلا أنها كانت درة المدينة فى ١٥ ديسمبر عام ١٩١٤ حينما سكن تى . إيه . لورانس الجرانند أوتيل، تلمؤها الشجيرات الغربية من استراليا ومدغشقر وكوبا . فقد وجد لورانس القاهرة مدينة تملؤها الحياة . ولم تسهم الحرب التى كانت قد أعلنت مع تركيا قبل ذلك شهرين فى الإقلال من جاذبية موسمها الشتوى، بل استمرت حفلات الاستقبال المحمومة وحفلات الرقص التنكرية والعشاء، والرحلات، ومباريات سباق الخيل ومباريات التنس فى كامل أوجها . وكان الموسم يبلغ ذروته فى المهرجانات التى كانت تقام فى سراى السلطان حسين كامل بعابدين، وفى مقر المندوب السامى البريطانى بقصر الدوبارة، حيث كان السير هيو ماكماهون قد حل محل اللورد كيتشنر مندوبا بريطانيا . وكانت هناك مصادر أخرى للمتعة لمن لديهم الوقت الكافى من أعضاء الطبقة الراقية . فكان بإمكانهم لعب الجولف والبولو فى نادى الخدوى الرياضى فى جزيرة الزمالك، أو احتساء القهوة نظير قرشين فى جروبى أو الكافيه إجيبيسيان، أو أن يعبروا الجعة الإنجليزية فى بوفيه السافوى، أو أن يحملقوا فى عروض الغوازى الممنوعة فى إلدرادو، أو أن يركبوا الحمير فى ضوء القمر حتى أهرامات الجيزة، أو أن يذهبوا للصيد فى دلتا النيل فى عطلة نهاية الأسبوع .

وكانت الحرب الوشيكة قد أضفت على الضباط البريطانيين الذين يسكنون الفنادق الأنيقة مثل الكونتنتال وشبرد نوعا من الجاذبية، وكان الطلب كبيرا على الضباط غير المتزوجين من رتبة الملازم من الفتيات اللاتى يقضين الشتاء فى القاهرة .



فبعد الظلام، كانت تطفو، كالطواويس في الحديقة أعداد من الشبان متيبسي الظهر، في زيهم العسكري الذي صنع خصيصاً لهم، وإزاراتهم وأحذيتهم اللامعة من ماركة «سام براون» وقبعاتهم الحربية وقد ضبطت بزواية معينة محددة. ولا يبدو أن الملازم ثان لورانس كان ينتمي إلى هذه الطبقات الفاخرة من الرجولة البريطانية. فقد كان، وهو صغير الحجم، الأشعث المظهر، ذو الشعر الطويل أبعد ما يكون عن مظهر العسكرية، لدرجة أنه نادراً ما كان ينظر مباشرة في عين أحد، حيث ادعى أنه لن يمكنه التعرف على والدته إن هي ظهرت أمامه فجأة. وكان قد أتقن فن الحديث لمدة تتجاوز العشرين دقيقة دون أن يُظهر أن لديه أية فكرة عما يخاطبه. وبالتأكيد فإن لورانس لم يحاك أزياء زملائه التي خيطة خصيصاً لهم. فقد كانت سراويله واسعة غير مكوية، وأزراره غير مجلوة وأزرار جيوبه مفتوحة في الغالب، أما حزامه «السام براون» فكان، في حالة ارتدائه له، فضفاضاً ومتدلياً. وكان دائماً يرتدى شارات لرتب مختلفة على الكتفين. لذا، كان من المحال في أي وقت القول ما إن كان ملازم ثان متواضعاً أو مقدماً ذا مظهر غير متوقع. كان دائماً يرتدى قبعته بميل بحيث يظهر شعره القشبي اللون من تحتها. وامتنع عن تزيين نفسه بالأوسمة كازدراء نهائي للتقاليد العسكرية وتعبير مرئي عن كونه «مدنياً يرتدى الزي العسكري». وكان يرتدى حذاء من الجلد اللامع الذي يستعمل في المساء بدلاً من الحذاء العسكري، ورباط عنق من اللون الأحمر الدموي بدلاً من رباط الجيش الكاكي. وفيما بعد، كتب المقدم بيرس جويس قائده في الحجاز، عن لقائه الأول بلورانس أنه «يتذكر رغبته العارمة أن يخبر لورانس أن عليه أن يقص شعره، وأن أزاريره القذرة وزيه يحتاجان لعناية مراسلته». وكان لغياب الشارة من على قبعته سبباً في مواجهته مصاعب كانت تروق له. فذات مرة، حينما كان يحاول صرف شيك من شركة توماس كوك بالقاهرة سأل المدير عن وحدته فأجابه دون إيضاح «ليس لدى وحدة» حينذاك طلب المدير قائمة العاملين بالجيش فقال له لورانس «لا تزعج نفسك فاسمى ليس على القائمة إلا أنني أود أن أصرف الشيك». وحينما امتنع لورانس عن تقديم أية إثباتات عبر المدير عن أسفه لعدم استطاعته صرف الشيك إلا بعد أن يرسل برقية إلى إنجلترا.

وكان لورانس يميل إلى أن يمشي الهوينى بدلاً من المشية العسكرية، كان أيضاً

يتجاهل التحية من الآخرين بنفس الإصرار الذى كان يتجاهل به رؤساءه من الضباط ويحدث الجميع، سواء من رتبة أعلى أو أقل، بنفس اللهجة الأكسفورية العملية المدروسة المتحدلفة الغربية. كان يترك أثرا، قد درسه بعناية، بأنه ذلك الأكسفوردى، شارد الذهن، فى غير موضعه، وقد انتهى به الأمر دون قصد منه إلى ارتدائه الزي العسكرى. وكان يشير إلى قسم المخبرات على أنه «الكلية» ولا يخفى ازدرائه لضباط الجيش النظاميين البيروقراطيين، وللعسكريين الروتنيين، ولعشاق الصيد والقنص وصيد الأسماك من خريجى المدارس البريطانية العامة، هذا، رغم أنه كان يزهو لوالديه زهوا طبقيا من أنه يعمل مع «اللورد إنجلس، واللورد هارتينجنون والأمير ألكساندر من باتنبرج».

وكان مظهره الشاذ يناقض تفكيره الحاد. ومن ثم، أقسم أن ينهى حالة عدم الكفاءة، وقرر، وقد تم تعيينه مسئولاً عن جميع الخرائط التى أمدت بها المساحة المصرية القيادة العامة، أن يمارس إنتاج الخرائط كمن يتناول «شربة الملح». فقد كانت المعلومات الطبوغرافية عن كثير من مسارح العمليات الحربية نادرة، وكانت أسماء الأماكن تكتب بطرق متنوعة مختلفة اختلافا كبيرا. ورغم أن لورانس كان يعرف أنه لا توجد طريقة محكمة لكتابة العربية بالإنجليزية، فقد كان فيما بعد يزهو زهوا كبيرا لمقدرته على تهجى الأسماء العربية؛ وتحقق أنه لابد وأن تكون هناك خطة متسقة متشابهة مع النطق الفعلى. ولم يدخر وقتا فى أن ينتقد نظام النقل إلى الإنجليزية المتبع فى المساحة لمدير مكتب نسخ الخرائط، و. ه. كروثويت، وكان هو من ابتدع النظام. وكذلك، فقد أهان و. م. لوجان مدير مكتب جمع الخرائط الذى عارض بشدة أن يترأسه ذلك المدعى الصلف للمغرور. وتذكر إرنست دوسون أن أساليب لورانس لم تحل دون تعاون المغرورين وغير الأكفاء ومحبى التظاهر فقط، بل إن صلافته وغرابة أطواره وعاداته المستفزة فى الاستهزاء بغيره كانت تشبط رجلا عقلاء ذوى مقدرة. وكانت روح القاهرة تختلف تماما عن كركميش التى وجد لورانس فيها نفسه أوروبيا فى مساحة شاسعة كان فيها قنصلا غير رسمى، وصاحب عمل محلى، ورجلا ذا أهمية عظيمة. وفجأة تنبه إلى أن اللعبة التى كان يمارسها فى القاهرة كانت أكبر كثيرا. ومن ثم سعى من منطلق إحساسه الفطرى بعدم الكفاءة وتقديره الضئيل لنفسه إلى تثبيت نفسه فى مكانه.

فتباعد عن الدوامة الاجتماعية . فلم يكن بالتأكيد أحد الذين يزينون مقاعد حانة الكونتنتال . وكان يقول إنه ليس من الممتنعين كلية عن الشراب ولكنه فقط غير ذى ميول اجتماعية تجعله يستمتع به فى جلسة مسترخية . ولم يكن أبدا يشعر بالألفة مع المصريين ، فبعد عدد من غزواته فى الشوارع ، أيقن أن المصريين يمقتون سادتهم البريطانيين . وكتب بعد استقراره فى المدينة «إن بالقاهرة أشياء لا يمكن النطق بها . فقد قمت بإجازة الشهر الماضى لمدة يوم وذهبت لمشاهدتها : لا أرغب فى المزيد ، إننى لا أفكر أنه خلافاً لهذه الحماسة فقد كان من المحتمل الآن أن أكون فوق تل عند منحنى الفرات فى مكان نظيف حيث يوجد غير بعيد عنى أناس محبوبون . لا أعرف ما إن كنت سأستقر مرة أخرى أبداً أو أنى سأهتم بالأشياء المناسبة .»

وفى فبراير عام ١٩١٥ وصلت دراجة السباق الخاصة بلورانس من إنجلترا ، وصار يركبها كل صباح من الكونتنتال إلى مقر القيادة العامة فى فندق الساقوى الذى كان موجوداً بما يعرف اليوم بميدان طلعت حرب ، ويحتل مكانه الآن محل لبيع الملابس . وكان يدير قسم المخابرات الذى عين به صديقه ستيوارت نيوكومب ويضم ثلاثة من الضباط الآخرين : لينارد وولى وعضوى برلمان عن اتحادات العمال تم تعيينهما حديثا وهما جورج لويد وأوبرى هربرت . ورغم القصص التى شاعت فيما بعد عن «الفرسان الخمسة» فقد كان ، ومنذ البداية ، هناك قسمان بالمكتب : نيوكومب ، ولورانس ، وولى الذين كان يعرف أحدهم الآخر عن قرب منذ أيام عملية مسح صحراء النقب ، بينما كان هربرت ولويد كلاهما من ويلز وخريجى مدرسة إيتون وكانا قد خدما كملحقين شرفيين فى السفارة البريطانية فى إسطنبول ، وكانا هواة استشراف من نوع هوجارث يتحدثان «سنة» لغات فيما بينهما ، واكتسب هربرت صيت المغامر إذ إنه حارب فى صفوف الأتراك فى البلقان واليمن . كان الابن الأصغر للورد كارنافون ، وتم تخليده فيما بعد باسم ساندى آرشنوت فى رواية «المعطف الأخضر Greenmantle» للكاتب جون بتشان : «تسمع عنه فى موانئ الصيد الصغيرة المنسية حيث تنغمس جبال ألبانيا فى الأدرياتيك . وإن ذهبت إلى الحج فى مكة ، فقد تلتقى بين الحجاج بعدد من أصدقاء ساندى . وفى أكواخ الرعاة فى القوقاز ، ستجد قطعاً من ملابس خلعتها هناك ، فقد

كان ذا موهبة في خلع بعض من ملابسه في تحركاته». كان هذا الهاوى الاستقراطي الوثائق من نفسه يلقي القبول والنفور من لورانس الذى اعتقد أنه «غير مألوف» و«إنه من الطرائف» إلا أنه «لطيف جدا». وبادل هربرت لورانس نفس الخليط من الإعجاب والانتقاص فكان يدعو «مخلوق خرافى» و«نصف وغد» إلا أنه اعترف أن به مسًا من العبقرية. وكان لويد، الذى قسم وقته بين دائرته الانتخابية والشرق وإدارته للبنك، ويلزيا من الطبقة الراقية وقد وجده لورانس «مزعجا للغاية»، لكنه كان يقدر معرفته بالتجارة والسياسة، ومظهره الدال على الثقة، واستمرت صلاته بلويد بعد سفره وهربرت إلى غاليبولى، كما أنه سافر معه فيما بعد إلى المعركة. ولم يشعر كل من لويد وهربرت بالارتياح إلى نيوكومب، واعترضا على تلقى الأوامر من هذا «المتسلل Sapper، سيء التنشئة» رغم اعترافهما بشدة ذكائه ومقدرته. أما لورانس فكان له رأى مختلف فى نيوكومب وكتب عنه «إن نيوكومب نعمة كبرى.. فهو يدير كل الجواسيس، ويسب كل من لا يؤدى واجبه من المرءوسين، ويمتص غضب الجنرالات، ويلين الأشياء. وبدونه، فلا بد وأنى كنت سأصاب بالجنون». وكان رئيس نيوكومب المباشر هو قائد مخابرات الشرق الأوسط المقدم جلبرت «برتى» كليتون، الذى كان ضابطا سابقا فى الجيش المصرى، وكان قد حارب الدراويش فى أم درمان إلى جانب اللورد كتشنر. وكان كليتون النموذج الأصلي للشخص «الرمادى» هادئا، ومتواضعا، إلا أنه كان كما اكتشف لورانس «أكبر كشيروا... مما يبدو للوهلة الأولى». وكان قد خدم قبل الحرب كمندوب للسودان فى القاهرة، ومدير مخابرات للسردار أو القائد العام للجيش المصرى السير ريجينالد وينجيت، الذى كان يعمل أيضا حاكما عاما للسودان، ثم أعيد إلى الجيش مرة أخرى فى عام ١٩١٤ بواسطة السير جون ماكسويل القائد العام للقوات البريطانية فى مصر الذى منحه الحرية التامة فى إدارة عمليات المخابرات. وكان مركز كليتون يمنحه السلطة الكاملة، وآلى على نفسه ألا يقتصر على جمع معلومات الاستخبارات فقط، بل أيضا أن يتدخل، إذا تطلب الأمر، فى السياسة بحصافة. وحتى قبل إعلان الحرب مع تركيا فقد استقبل كليتون مقترحات ستورز بإشعال الثورة العربية بحماس، وكان من المؤيدين المبكرين للهاشميين. وفى أوائل عام ١٩١٤ أرسل خطابا إلى كتشنر يحثه فيه على

## الفصل العاشر، القاهرة.. أشياء لا ينطق بها القاهرة وما بين النهرين

الانصال الفوري بحسن. وفما بعد، اعترف لورانس بأعجابه بعد نظر كلبتون  
وسياسته في عدم التدخل، إذ إنه بطلق بد مرة وسنه في العمل. بيد أن وصفه  
لسانبره بأنه «كماء، أو زيت نافذ، يزحف في صمت ومنابرذ وينخلل كل شيء» هو  
وصف لا يحمل الإطراء الخالص. أما ستورز، فقد عرفه لورانس عن قرب، ووجد  
كل منهما الآخر، صعبة محبة. فقد كانا بنسركان في ندوف الأدب، وكان ستورز  
كثيرا ما يعود إلى منزله لبجد لورانس قابعا في المعهد بفرأ اللاتينية والإغريقية.  
واستعاد ستورز هذه الذكريات قائلا: «لقد وجدت منحنانا لاف النظر ومنفزا  
عن عمد، يحب التعامل مع صغائر الأمور على أنها صعائر ولا ينفلها أو يرفضها  
عشوانيا. وكان أحيانا ينفجر غاضبا بشكل مفاجئ لدى سماعه قصة نافهة خاصة  
إن كانت رسية، أو لطم ما قد وقع» وقد اعترف لورانس فيما بعد أنه يعتقد أن  
ستورز كان ألمع البربطانين الموحدين في الشرق الأوسط، إلا أنه علق قائلا إنه كان  
بإمكان تأنيبه أن يكون أقوى لو أن هدفه كان أكبر عددا. وكان افتقاد لورانس  
«للاتيكس» الاجتماعي بضايق ستورز أحيانا، ويذكر أنه حدث وأن رب الأمور  
دات مرة لحفل عشاء خاص للورانس ودعا إليه ضوفا أربع إلا أن لورانس لم بات  
ولم يقدم اعتذارا: «وقد أحيرني فيما بعد أسى انفس من تصرفه هذا بأن أحبرته  
بأنى لم أكن لأكرث لو أنه أحبرني في الوقت المناسب كي أدعو شخصا آخر بدلا  
منه».

وكان لورانس بصف عمله بأنه ، يعمل الرجا حات ويؤدى عمل ساعى المكتب  
حيت يرى الأفلام و يطف ريش الكنانه ، فى القسم ، إلا أنه ، ورغم كونه أقل  
الموجودين فى القسم مرتبه ، فقد شارك فى العمل مساره كليله ، كان سبب وجود  
البريطانيين فى مصر هو الدفاع عن قناة السويس ، وكان الرأى متقسما بين  
أفضل الوسائل لتحقيق هذا ، فقد كان فيه غرسون يعتقدون أن الحرب الخفيفة  
ثابت فى الخيه العرسه فى أوروبا ، وأن أى معركه أخرى على أن مسرح آخر ثابت  
مجرد سيهد حاسى ، وأنابا يصعظون من أجل سياسه دفاعه حاله فى مصر ،  
وهى سياسه ، كان لورانس ، سلك سبل ناهى قسم الاستخبارات ، يعارضونها معارضه  
سقطه فقد ثابوا سرهين ، يعتقدون أن اليهود هم أفضل وسلك للدفاع ،  
وأنابا يصعظون من أجل عربو بريطاني للإسراطوريه العيسيه ، وبالتحديد من

أجل إنزال قوات في الإسكندرونة على شاطئ سوريا . وادعى لورانس كذبا فيما بعد ، أن خطة الإسكندرونة كانت من أفكاره ، إلا أنه كان أحد معضدى هذه الخطة تعصيذا قويا . فقد اعتقد أن السوريين سينشرون ضد الأتراك بمجرد هبوط البريطانيين هناك ، وستقوم العناصر العربية في الجيش العثماني بحركة عصيان وتؤسس حكومة عربية هناك مستبقه بذلك الفرنسيين الذين كانت لهم خططهم بشأن سوريا . فقد اشتهم لورانس رائحة الثورة في الجو حينما كان في كركميش في عام ١٩١٣ ، وكان يعرف جيدا أن السوريين على غير استعداد للتخلص من سيد أجنبي ليفسحوا الطريق أمام آخر أكثر بعدا عنهم . ورغم أن اقتراح إنزال قوات في الإسكندرونة لقي ترحيبا من مجلس الوزراء ، إلا أن الفرنسيين وقفوا ضده ، لأنهم أدركوا ، كما أدرك لورانس ، المخاطر التي يحملها لسياستهم الكولونيالية . وسرعان ما محت خطة إنزال قوات كبيرة في غاليلوى هذا الاقتراح . ووجه لورانس اهتمامه إلى عسيرة ، المنطقة الحبلية الخصبة الماخمة للحجاز جنوبا . كان تحكم الباب العالي في هذا الركن القصي من الجزيرة ضعيفا ، وكان الإدريسي ، حاكم عسيرة ، مناونا شهيرا للأتراك . وفي فبراير ، وفعت الحكومة الإنجليزية / الهندية اتفاقا مع الإدريسي تدفع له بمقتضاه رانبا قدره ٧٠٠٠ جنيه استرليني سنويا . ولفترة ، راودت لورانس الآمال الكبيرة أن أتباع الإدريسي سينشرون ضد الأتراك وينشرون الثورة شمالا باسم أمير مكة . ومن ثم كتب «أعتقد أنني ونيوكومب سندهب إلى الفنفذة بعسيرة كمنششارين له . وإذا كان الإدريسي بالمستوى المأمول ، فبالإمكان أن نندفع فورا إلى دمشق ونوجه ضربة إلى الفرنسيين في سوريا . إنها لعبة كبيرة ، وأحيرا ، فهذه هي اللعبة الجديرة بأن نلعبها » . أما الإدريسي فقد برهن على كونه مجرد فقاعة ، وأما أمير مكة نفسه فقد حافظ على صمت منذر خلال النصف الأول من عام ١٩١٥ .

وفي أواخر عام ١٩١٤ ألقت السلطات البريطانية القبض على شاب هندي كان يحاول العبور من الحدود الشمالية العربية لأفغانستان إلى الهند . ووجدت قطع من الكتان مخبطة بملاسه تحمل تفاصيل مؤامرة عالمية لإشعال الجهاد الإسلامي ضد بريطانيا وفرنسا وروسيا والحلف الثلاثي . وكان الشاب هو رسول بركات الله ، حارح على الفانون ، وعمل للحكومة التركية في كابول ، وكان في

طريقه للقاء مصادر في الهند كان منوطاً بها العمل على تشجيع الفرق الهندية في الجيش البريطاني على العصيان واغتيال قاداتهم الأجانب والهجوم على مقارهم. وكما تبين فيما بعد، فقد كان الشاب أحد آلاف العملاء والدعاة والعلماء والاتقياء والجواسيس ومثيري الرأي العام الذي تبعث بهم جماعة الاتحاد والترقي لاختراق الهند وإيران ومصر وأفغانستان وبلاد العرب وما بين النهرين وصحراء ليبيا والسودان. وكانت خطة الجهاد تهدف إلى إشعال العالم الإسلامي. وفي يوم ٧ نوفمبر، بعد أسبوع واحد من اشتعال الحرب، أصدر شيخ الإسلام فتوى مفادها أن من واجب كل مسلم أن يحمل السلاح ضد الحلفاء. ولما كان أحد أسس الجهاد هو حماية المدينتين المقدستين، مكة والمدينة، فبدون مباركة راعييهما الشريف حسين، تصبح الفتوى مجرد قطعة من الورق لا أهمية لها.

وصمم الحسين على رفض منح مباركته. بل إنه كتب وفي نوفمبر، إلى أنور باشا، وزير الحرب العثماني، إنه سيبارك الجهاد من كل قلبه ويدعو الله من أجل نجاحه، إلا أنه لن يسانده علناً خوفاً من أن يقوم الأسطول البريطاني في البحر الأحمر بفرض حصار فوري. وكان أهالي الحجاز يعتمدون على الحبوب التي يستوردونها من الهند البريطانية، وفي هذه الحالة، كانوا سيواجهون مجاعة لدرجة أنهم قد يشورون على الحكم العثماني، وبينما ساند الشريف الباب العالي شفاهياً لدرجة أنه كون قوة من المجاهدين، إلا أنه في نفس الوقت اتصل بسرية تامة بالرناسات الكبيرة في الجزيرة العربية: ابن سعود في نجد، وابن رشيد في شمر، والإمام يحيى في اليمن، والإدريسي في عسير، مبيناً أسباب عدم دعمه للجهاد كي يستنبط موقفهم من الأتراك. ومن بين هؤلاء، قرر ابن سعود الذي كان يتلقى راتباً كبيراً أن يظل محايداً ويترقب النتيجة. أما منافسه ابن رشيد الذي كان يخشاه فقد قرر الإلقاء بحباله مع الأتراك، وكذلك فعل الإمام يحيى الذي كان يواجه البريطانيين في عدن، أما الإدريسي، الذي كان يتلقى حافزاً مالياً من بريطانيا فقد كان شديد العداء للأتراك. وفي هذه الأثناء، كان جمال باشا حاكم سوريا العسكري والقائد العام للقوات التركية هناك، يعد الجيش الرابع العثماني لاجتياح قناة السويس وحدد فبراير عام ١٩١٥ موعداً للاجتياح. وكانت جماعة الاتحاد والترقي تأمل أن يؤدي هذا إلى ثورة المصريين ضد مستعمرهم الكفار

البريطانيين. وقد أدى رفض حسين الاشتراك في تحريك المسلمين ضد البريطانيين إلى غضب العثمانيين، رغم أنهم كانوا لا يملكون سوى قبول الرفض رسمياً، إلا أنهم قرروا التخلص من حسين سرّياً بالاغتيال أو القبض عليه. ولسوء الحظ، فقد وهيب باشا، حاكم الحجاز، الضالع الأكبر في المؤامرة، وبشكل غامض، الحقيبة التي تحوى كل الوثائق المورّطة، وتم تسليمها إلى على، الابن الأكبر لحسين. ومن ثم، أصبح لدى الشريف الآن برهان مباشر على النفاق المكيف لللى الذى كان وراء تأكيدات الباب العالى. وكان خط السكك الحديدية العظيمة الوحيدة التى كانا يتنازعان عليها. وقرر حسين إرسال ابنه الثالث فيصل إلى إسطنبول لمواجهة جماعة الاتحاد والترقى بدليل جرمها. إلا أن علمه أن الهاشميين لم يكونوا بمفردهم فى هذا، كان عزاء له.

وفى يناير حمل ضابط عربى شاب يدعى فوزى البكرى، وكان ينتمى إلى قبيلة من التجار المرموقين فى دمشق تتمتع بعلاقات ودية مع الهاشميين، رسالة شفاهية إلى الشريف من «الفتاة» وهى جمعية عربية قومية سرية فى سوريا. وكانت الرسالة التى همس بها فوزى فى أذن الشريف وهو جالس يحدّق عبر نافذة مقره فى مكة، هى أن القادة القوميين فى سوريا والعراق، بمن فيهم الضباط العرب فى الجيش التركى، يساندون ثورة ضد الأتراك من أجل استقلال العرب، ودعا حسين لأن يكون قائد هذه الثورة. غير أن الشريف الحذر لم يجب، وأخفى امننانه، على الفور، إلا أنه طلب من ابنه فيصل أن يتوقف فى دمشق فى طريقه إلى إسطنبول، بهدف الاستماع إلى مقترحات «الفتاة». وصل فيصل إلى دمشق فى وقت متأخر من الشهر، واعتذر بلباقة عن دعوة جمال باشا له للإقامة معه، وبدلاً من هذا، أقام فى منزل عشيرة البكرى الريفى. وهناك، وتحت أعين نسيب البكرى، شقيق فوزى الأكبر، عرف فيصل أسرار الجماعات القومية السورية: «الفتاة» و«العهد». وكانت النتيجة التى حملها فيصل معه إلى الحجاز هى «بروتوكول» دمشق الشهير، وهى خريطة توضح الحدود الممكنة للدولة العربية المستقلة بعد الحرب، ونقترح إلغاء كل الامتيازات الأجنبية، إلا أنها تؤيد تحالفاً دفاعياً بين بريطانيا والدولة العربية المستقلة فى المستقبل. وفى منتصف يوليو، وبعد أن ناقش حسين البروتوكول مع أمنانه ومستشاريه، شعر أنه على درجة من القوة تمكنه من الفعل. وفى ١٨



أغسطس، وصلت شروطه لتدخل عربى ضد تركيا إلى المندوب السامى البريطانى فى مصر السير ماكماهون بواسطة مبعوث سرى.

كان عام ١٩١٥ سينا بالنسبة للإمبراطورية البريطانية عامة وللورانس بشكل شخصى. ففى يناير حاولت اثنتا عشرة سفينة بريطانية رئيسية وأربع سفن بريطانية بقيادة السفينة جلالة الملكة إليزابيث، أكبر السفن البحرية التى أبحرت فى مياه المتوسط على الإطلاق، اقتحام مضائق الدردنيل. وبعد يوم واحد من القتال تراجع الأسطول البريطانى على عقبه أمام ١٧٦ مدفعاً تركياً تم زرعها فى شبه الجزيرة وأصيب فقط أربعة من المدافع. وكانت هذه أغنية البجعة بالنسبة لأسطورة العظمة البحرية البريطانية: أى أن بريطانيا لم تعد تتحكم فى الأمواج. وفى نهاية أبريل شن البريطانيون هجوماً برياً/بحرياً عارماً على غاليبولى حيث مزقت المدفعية التركية ميدفوردس، أول الكتائب من بين عدد يقرب من ٢٠٠,٠٠٠ من الحلفاء كان مخططاً لهم أن يرسوا على الشاطئ. وكان من المتوقع أن تصل مدفوردس إلى أهدافها بحلول اليوم الثالث، إلا أنه وبعد ثلاثة أشهر كانت مازالت تقاتل يائسة لتبقى مكانها. وكان فشل الإنزالات غاليبولى إدانة بشعة للمخابرات البريطانية، إذ إن مدفوردس، وكما اعترف لورانس، «لم تكن مستعدة بدرجة رهيبة ولم تكن تدرى أين هى ذاهبة، أو ما ستقابلها، أو ماذا ستفعله» وكانت خرائطها عتيقة غير دقيقة وغير ذات قيمة. وقد سجل لورانس أن الحملة «كانت معها نسختان من خرائط (ربع بوصة)، لتركيا الأوروبية كمصدر وحيد لها» وكان عامل المباغطة مفقوداً تماماً إذ لم تكن هناك أية تأمينات. أما عن تقدير قوات العدو، فلم يكن أحد يعرف حتى عدد الكتائب التركية المعادية. ولم يعتقد أحد فى النهاية أن هذا بالأمر المهم. فقد عبر لورانس نفسه عن هذا الحس العام بالثقة بالنفس حيث كتب قبل الإنزال مباشرة «إن تركيا، تلك العجوز المسكينة، تتماسك بصعوبة.. فكل ما فيها فى غاية المرض». وهكذا تمت أكبر عملية برية/بحرية عسكرية فى تاريخ الحرب على غير أساس من حسابات المخابرات تقريباً، وباعتقاد مغرور فى «سيادة الرجل الأبيض». كما كتب أحد الأستراليين قبل الإنزال مباشرة «من سيوقفنا؟ ليس الأتراك الملاعين». إلا أن أولئك الأتراك الملاعين أوقفوهم فعلاً، ولم يفلح حتى صد الهجوم الذى قام به جمال باشا على قناة السويس فى التعويض عن

هذه الواقعة بسهولة .

وعلى الجبهة الغربية، كانت ثمة حالة من الركود . وتلقى لورانس فى مايو أنباء مقتل شقيقه فرانك بقذيفة حينما كان يقود فصيلته . فكتب خطاب تعزية وتهدئة إلى والديه، أما خطابه إلى شقيقه ويل فقد حافظ فيه على جموده المترفع الذى يناسبه : «إن وفاة فرانك، كانت كما تقول، صدمة، لأنها كانت غير متوقعة بالمرّة . إلا أننى لا أعتقد فى الأسف البالغ فيه على مثل هذه الوفاة، لأنها كانت أسلوبا جيدا لإنهاء الفرد حياته . لقد تسببت ضخامة هذه الحرب فى تغيير الإنسان لمنظوره لأننا عاجزون عن الإمام بجميع التفاصيل» . بيد أنه بينه وبين نفسه كان يعانى من وخزات الضمير . فرما كانت المرة الأولى التى سال فيها نفسه عما إذا كان من الصواب أن يتمتع بوظيفة مكتبية مريحة بعيدا عن القتال، فى الوقت الذى يخاطر فيه أقرانه بحياتهم فى الجبهة، فقد حارب سيوكومب وولى فى الجبهة الغربية، ولويد وهربرت فى غاليبولى . كان يعرف قيمة إسهامه فى الجهود الحربى، ويدرك أن معرفته المتخصصة ستضيع هباء إن هو أصبح مجرد شخص يطلق المدافع . وعلى مستوى أعمق، كان يعرف أن ما يبعده عن الجبهة هو رعبه من الألم . كان لورانس بطبيعته أبعد ما يكون عن البطولة، ورغم أن الحن النى أنزلها بنفسه قد أسهمت فى تعريفه عن بعد بالمعاناة الجسدية، فقد كان يخشى الألم أكثر من أى شىء آخر . إذ أمضى حياته يهرب من الامتثال للواقع أكثر من مواجهته، وكان يجد أن الخطر يكاد يشله جسدا وفى هذا قال . «إن أحد الأسباب التى أقنعتنى أننى لست رجل أفعال، هو الإسهال الروتينى الذى يصيبنى لدى الأزمات» . وبعد الحرب، كتب شقيقه آرنى قائلا إنه «ليس بطلا أو شجاعا بطبيعته . . وقد وضع نفسه فى اختبارات قاسية حال معرفته بهذا، واستطاع أن يتغلب على نقاط ضعفه» . ورأى جورج لويد أنه «ليس ضمن من لا يهابون شيئا كهؤلاء الذين يأتون بالأفعال الشجاعة» .

وفى سبتمبر ١٩١٥ بدا الأمر وكأن ليس ثمة ما يبرر وجوده . فقد فشلت خطته بشأن الإنزال فى الإسكندرونة وثورة الإدريسى وكتب «إن السنون العربية قد تدهورت جميعها . فلم أر أبدا مثل هذه الحالة من الربكة الحقيرة تال من أمر

ما . إن هذا يجعل المرء يزأر غضباً إذ إننا كان لدينا فرصة رائعة هناك . فقد اتجهت كل الجهود إلى النجاح في غاليبولى حيث لم يكن بإمكانه أن يكون له دور . إلا أنه استمر يكتب ملخصات جغرافية وتقارير إلى القيادة العامة، ويتابع تحركات القوات التركية، ويقوم بين الحين والآخر باستجواب الأسرى السوريين وعمل لقاءات معهم . ورغم زهوه بمقدرته على تحديد الأقاليم التي ينتمون إليها من لهجتهم، فقد ظلت المعلومات الدقيقة عن سوريا وفلسطين ضعيفة . وبين الحين والآخر كان يذهب على دراجة بخارية مستعارة من فندق سافوى إلى بولاق حيث كانت توجد مكاتب المساحة، ويتجول أيضاً بين البازارات وهو حزين، حيث كان يبتاع من حين لآخر سجادة لأسرته، أو خاتم حيثى لهو جارت الذى كان مازال يحاول الحصول على وظيفة فى السلك العسكرى . وتناول العشاء مع الليدى إيفيلين كوبولد التى كانت قد أقرضته نقوداً فى مدينة البتراء . وكان يكتب برقيات بالشفرة ويحل شفرة برقيات أخرى ويشرف على طباعة الخرائط وإرسالها . كما وضع خططا أخرى غير صالحة للهجوم على سوريا . وقرأ مجموعة من المقتطفات الإغريقية، وأعمال هريديا، وويليام موريس . وأرسل وولى إلى بورسعيد ليكون همزة اتصال بالأسطول الفرنسى، وزاد عدد العاملين فى القسم بإلحاق روبرت جريفز المراسل السابق للتايمز . فضلا عن آخرين كانوا يجيئون ويختفون كالأشباح . وذهب لورانس فى رحلة قصيرة كى يحسن الاتصالات مع مكتب أثينا، ولدى عودته أحس بشغل أكثر لما أسماه «الخمول الرسمى» . وبدأ يتلاعب بفكرة الذهاب إلى غاليبولى، وتساءل حتى عما إن كانت الحياة ستكون أفضل فى الخندق . وكانت القاهرة قائطة، ومتربة، وقذرة، ولخص لورانس أحاسيسه حينما أخبر هو جارت «أن كل شىء على وشك النعاس» .

وسط هذا الجو من السبات الذى كاد أن يكون حسياً، وقع خطاب الشريف حسين مثل القنبلة . وأدهش ستورز، الذى قرأ الخطاب سطرا سطرا، أن الشريف كان يطلب تقريبا كل الممالك العربية للإمبراطورية العثمانية نظير المساعدة العربية ووجد من الصعب تصديق وقاحة حسين وأخذ يتمتم أثناء القراءة «إن خطأ الهولنديين فى شنون التجارة.. هو أنهم يقدمون أقل القليل ويطلبون أكثر الكثير» . فقد كان البريطانيون، رغم كل عروض كيتشنر المزهوة بالخلافة،

ينظرون للشريف حسين على أنه مجرد شيخ قبيلة عربى، غير ذى أهمية، ولا يمثل سوى أسرته «الهاشميين»، وأن عليه، فى نظرهم، أن يرضى باستقلال الحجاز. أما ستورز، فقد وجد الرسالة مصدرا للدهشة والتسلية إذ شعر أن تطلعات حسين «تقترب من الكوميديا السوداء» وأعتقد أنها لا تتعدى كونها مناورة استهلاكية وقحة مجنونة لعملية مقايضة كالتى يسمعها المرء فى البازارات «... بالإمكان التأكيد أنه ليس لدى الشريف حسين تفويض من شيوخ آخرين، وأنه يعرف أنه يطلب أكثر بكثير من حقه، ومما يأمله، ومما له من قوة أن يتوقعه، ربما كأساس لبدء المفاوضات». وبالتالى، لم تعبر إجابة مكماهون، التى صاغها ستورز وأرسلها يوم ٣٠ أغسطس، لم تعبر عن أى التزام. فقد اكتفى بتكرار تأكيدات كتشنر السابقة، إلا أنه رفض الدخول فى قضايا الحدود قائلا إن مناقشة هذه المسائل تحت ضغط الحرب مضيعة للوقت. وأجاب حسين، بشكل فوري، معبرا عن دهشته لتردد بريطانيا، وقال إن المفاوضات تعتمد أساسا فقط على ما إذا كانوا يقبلون الحدود المقترحة.

وحيثما وصلت الرسالة الثانية إلى القاهرة، كان الموقف قد تغير. ففى هذا الشهر، عبر ضابط عربى شاب يدعى محمد شريف الفاروقى الحدود التركية فى غاليبولى متظاهرا بقيادة مسيرة جنائزية وهرب إلى البريطانيين. وحينما أرسل إلى القاهرة، استجوبه لورانس بين آخرين وأدهشتهم إجاباته. فقد كان عربيا من العراق وادعى أنه من نسل ثانى الخلفاء الراشدين، عمر الذى عرف بالفاروق. وطبقا لما قاله، كان عضوا فى «العهد» أو التنظيم العربى للضباط العرب فى الجيش التركى، والذى صاغ، مع التنظيم الشقيق الآخر، «الفتاة»، بروتوكول دمشق الذى أسس حسين مطالبه عليه.

غير أن مكماهون لم يكن ليستطيع أن يوافق على كل ما طلبه الشريف لأن فرنسا، التى كانت حكومتها على وشك توقيع اتفاقية معها حول مصر سوريا، كانت بالفعل تعتبر الجزء الغربى من البلاد حقا لها. وفى خطابه التالى لحسين، وافق على اقتراحاته مع بعض التحفظات التى شملت الأقاليم غرب حلب وحمص وحمص ودمشق، التى ادعى، تحت تأثير ما لقنه إياه لورانس بالناكيد، أنها ليست

عربية خالصة. وكانت فرنسا تطالب بهذه المناطق الساحلية السورية والمناطق النائية التي تكون جزءا من سنجق لبنان العثماني وولاية بيروت. وكانت فرنسا حليفة إنجلترا، وقد تم تحديد هذه المناطق كمناطق تهتم الفرنسيين في التقرير الذي كتبه لورانس نفسه في وقت مبكر من هذا العام وأجاب حسين أنه لا يقبل القول بأن هذه المناطق ليست عربية خالصة، ومرة أخرى تعثرت المفاوضات نظرا لمطالب فرنسا. وقد علق لورانس قائلاً إن الفرنسيين، وليس الأتراك، هم الأعداء الحقيقيون في سوريا.

وفي القاهرة بدأت حرارة الليالي تخف، إلا أن الصورة العامة للموقف كانت مازال قائمة. وفي نفس الوقت، فقد أصبح من الواضح والخيف أن عملية غاليبولي قد فشلت. وكتب لورانس: «لا تروقني الأمور هناك، وأسوأ ما في الموضوع أن الأمر كان في منتهى البساطة إلى أن تخبطنا». ولدى وصول هوجارث الذي كان مازال يبحث عن عمل، انقشعت عنه الغمامة لبعض الوقت. إلا أن بعد رحيل هوجارث لأثينا أصابت لورانس حمى الملاريا لأول مرة منذ عام. ومرة أخرى ساد «الركود الرسمي». واعترف لورانس أن الموقف «يصيبه بالغشيان» ورغم ازدحام أيامه بالمهام، فقد كانت متماثلة لدرجة الملل. وتم تعيين نيوكومب في غاليبولي وحل محله إن. سى. باركر أحد أبناء أخت كتشنر، الذي كان حاكماً لسيناء ذات يوم. وكان البدو يكتفون له احتراماً شديداً وينادونه باسمه دون لقب بك أو باشا كدليل على حبهم له. وكان معروفاً عنه أنه يركب الإبل دون كلل، ويسير المسافات دون تعب، فمثلاً، كان يقتفى أثر دجاجة صحراوية في مناطق وعرة بخفة الوعول. واعتقد لورانس، الذي أصابته الغيرة من مكانة باركر، أنه على دراية واسعة بأمور سيناء وفيما عدا ذلك كان غير ذى فائدة، وهدد أنه سيقطله يوماً ما. وازداد أساه حين تلقى أنباء في آخر شهر أكتوبر، أن طائرة شقيقه ويل، الذي كان مراقباً في سلاح الطيران الملكي، قد أصيبت بقذيفة وأصبح في عداد المفقودين على الجبهة الغربية. وهنا كتب إلى إدوارد ليدز «أشعر ببعض الكآبة، فقد قتل أحد إخوتي أولاً ثم قتل الآخر. كانا أصغر مني، ولا يبدو أنه من الصواب أن أعيش في القاهرة في سلام. بينما يحدث كل هذا... أود الوصول إلى النهاية يوماً». وطوال الشتاء، تعثرت المباحثات مع الشريف حسين بشكل لا نهاية له،

بينما أخذ الموقف في غالبيولى يزداد سوءا. وفي النهاية، وفي يناير ١٩١٦، تم إجلاء بقايا مدفوس من الدردنيل. وكانت هذه الخطة خطرا على الإمبراطورية البريطانية. فهي لم يتم فقط إذلالها على يد «الأتراك الملاعين» على مرأى من العالم، بل إن آلافاً من القوات العثمانية قد استعادت حيويتها واستعدت لشن هجمة على مصر. وكان العرب قد بدأوا يتأرجحون وأدى عدم الانتهاء من التفاوضات بين مكماهون والشريف حسين إلى تفاقم الموقف. وكانت الشكوك تملأ كلاً من الشريف والقوميين السوريين من انتهاك أوربا للشرق، وبدأت الأمور وكأن الحلفاء لم يكونوا عسكرياً أندادا للأتراك العثمانيين. أما في ليبيا، فقد كانت الجماعة الإسلامية الأصولية، الإخوان السنوسيون، قد بدأت تتجمع في صمت، انتظاراً للهجوم على مصر من جهة الغرب. وعلى الحدود السودانية، كانت هناك قلاقل من قبل السلطان على دينار المؤيد للأتراك. فلو حدث وانضم العرب في سوريا والحجاز إلى الأتراك بدلا من الثورة عليهم، كان هذا سيعنى نهاية طموحات بريطانيا في الشرق الأوسط.

وفي يوم رأس السنة لعام ١٩١٦، أتى الشريف حسين بإيماءة خطيرة توضح إيمانه بالأصالة البريطانية. فقد أبلغ مكماهون أنه سيؤجل النقاش الكامل حول الحدود إلى ما بعد انتهاء المعارك الحربية. ورغم أن هذا كان أمرا شجاعا فعلا، إلا أنه كان انتحارياً من الناحية السياسية، وأدى فيما بعد إلى اتهامه بأنه خان القضية مع الحلفاء. وقد أخبر حسين قرب نهاية حياته المؤرخ جورج انطونيوس، بأن خبرته أثناء شبابه في استقامة البريطانيين في الشؤون الدولية قد جعلتهم ينالون إعجابه العميق، وأنه «قد طور اعتقاداً راسخاً في معايير تعامل الإنجليز بشرف». وتلقى وعد مكماهون فيما يخص القضية الرئيسية، أي مدى استقلال العرب، وكان على استعداد أن يدع الاعتبارات الثانوية معلقة إلى أن تتضح الأمور، مع ثقة ضمنية أن كلمة الحكومة البريطانية كانت عقدا ملزماً. بيد أن ثقته كانت في غير موضعها بشكل مؤسف. فبعد أسابيع قليلة من استكمال مكماهون الاتفاقية مع الهاشميين، وقعت الحكومة البريطانية اتفاق سايكس بيكو مع فرنسا وروسيا، الذي قُسم الشرق الأوسط بمقتضاه فيما بينهم في حالة انتصار دول الحلف الثلاثي. إلا أنه في هذه الأثناء وقعت الإدارة العسكرية في القاهرة في حالة تشتت

عميق بسبب كارثة أخرى كانت تحدث. فقد قطع الطريق على الفرقة السادسة الهندية بقيادة الماجور السير تاونشند في منطقة ما بين النهرين، في حيز ضيق من نهر دجلة عند قرية كوت، دون إمدادات غذائية. وكانت الإمبراطورية البريطانية تواجه خطر أكبر استسلام ذليل في تاريخها العسكري برمته.

وكان المشهد يشبه أحد المداخل المجيدة في «السلام البريطاني» الذي يصور الجنود ذوى المعاطف الحمراء وبنادقهم معطلة وصفوفهم مبعثرة والدماء تسيل في الصحراء. وبالتأكيد كان تاونشند يتذكر أيامه المجيدة في الدفاع عن شيترال حينما أخبر جنوده «إن واجبنا نحو إمبراطوريتنا، ومليكننا المحبوب، ووطننا، أن نصمد هنا ونحول دون تقدم الأتراك.. سنجعل التاريخ يتذكر هذا الدفاع كدفاع مجيد». إلا أنه بمقدم الربيع قلت إمدادات المجد الإمبراطورى. وقد تسببت حماقة تاونشند نفسه واثنين من القادة في وصول الأمور إلى طريق مسدود. ففي الأصل، كانت الأوامر الصادرة إلى كتيبته هي حماية محطة تكرير البترول البريطانية في عبدان ومنع أية مخاطر قد تتعرض لها السفن في الخليج إلا أن ما حدث كان مختلفا. فقد وجد السير تشارلز نفسه، وقد حفزته إنجازات من هم أعلى منه رتبة مثل الجنرال بوشامب داف في الهند، والسير جون نيكسون في البصرة، وجعلته يطارد الفرق التركية أعلى دجلة وهو في حالة نشوة. واختفت الوحدات المعادية إلى أن واجه إلهة الانتقام عند قطسيفون في هيئة عشرين ألف محارب عثماني، من ذوى العزم مدربين تدريباً عالياً. وقبل أن تجبر الكتيبة على التراجع كانت قد فقدت أربعة آلاف محارباً، ولو أن تاونشند تراجع تكتيكياً حتى القيادة البريطانية العامة لأنقذ غالبية رجاله. وبدلاً من ذلك، قرر أن يقوم بعمل بطولى في الكوت حيث حاصر الأتراك على الفور.

واستمر صمودهم خمسة أشهر في مجابهة عشرين ألف جندي تركي كانوا بفصفون المدينة يومياً ويقتنصون أى جندي قد تدفعه حماقته إلى الظهور على الساحة. أو يقذفون القنابل من مدافع قديمة أسماها الجنود الإنجليز «فانى». وحاولت فرقة إنقاذ من البريطانيين المتمركزين في البصرة اختراق طريق لها وسط الحصار التركي إلا أن العثمانيين ردوهم بعد أن كبدهم خسائر بشعة. وكانت

طائرات السلاح الجوى البريطانى تحلق فوق شوارع المدينة يوميا فى محاولة يائسة لإلقاء الإمدادات من الدقيق والسكر التى كان معظمها يسقط فى مياه دجلة أو يقع فى يد الأتراك. وبحلول أبريل كان الجنود قد قضوا حتى على القطط والكلاب، وكانت تصرف لهم أقراص الأفيون حتى ينسوا جوعهم. وبدأ الجنود يفقدون الأمل وقد أنهكهم الخمول والإحباط والجوع.

وبوصول لورانس إلى ما بين النهرين كان أكثر من عشرين ألف جندى قد قتلوا أو أصيبوا فى المحاولات اليائسة لإنقاذ الحامية. ولم يكن البريطانيون على استعداد للإلقاء بجنودهم فى الأفران إلى أجل غير مسمى، فلم يكن، ببساطة، لديهم رجال وكانت المشكلة، هى إنقاذ الكوت دون أن يموت آلاف الرجال. وكانت أية استراتيجية سوى الهجوم الساحق على الجبهة غير متقبلة من رئاسة الحرب البريطانية. وكانوا قد فشلوا حتى فى حصار الوحدات التركية التى تطوق المدينة بحيث يتمكنون من فتح خطوط اتصال وإمدادات مع المحاصرين. كان حل مشكلة الكوت يتطلب تفكيراً غير الذى يعرفه الجنرالات.. كان يتطلب عقلاً حصيفاً عبقرى لا تعوقه تقاليد طبقة المخاربين البريطانيين المتوارثة.. أى عقل مثل الذى يتمتع به لورانس.

وكان لورانس رغم انعدام خبرته الحربية، واثقا من قدرته على حل المشكلة، ولا بد وأنه كان موضع ثقة رؤسائه أيضا. فقد كان قد تم إرساله إلى البصرة بخطاب من المندوب السامى كمهاون يقدمه فيه بقوله إنه كان يعمل وفقا لأوامر من المكتب العسكرى ليقدم خدماته فيما يخص الشئون العربية: «إنه أحد أفضل موظفى مخابراتنا هنا وأكثرهم قدرة ولديه معرفة كاملة ودقيقة بالمسألة العربية من جميع أوجهها». فإن أمكن تحريض قبائل حاي والفرات على الثورة، فطبعا لا اعتقاد لورانس، يصبح بالإمكان إنقاذ الحامية الموجودة فى الكوت دون مذبحه جماعية مثل ما شهدته القوات منذ البداية. وفى حالة الفشل، كان قد تم نفويض لورانس، وأوبرى هربرت الذى أحضر خصيصا لهذه المهمة، أن يقدم رشوة قدرها مليون إسترليني (تم رفع المبلغ فيما بعد إلى ٢ مليون)، لجنرال تركى بعينه تم اختياره ليتمكن حامية تاونشند من الذهاب.



ونزل لورانس البصرة حيث قابل عدة أصدقاء قدامى منذ أيام كركميش كان من ضمنهم جرترود بل وكامبل طومسون اللذان كانا يعملان في قسم مخابرات البصرة تحت إشراف السير بيرسى كوكس، وأيضاً هيوبرت يونج، الضابط الذى يتحدث العربية والذى ساعده فى عمل التمثالين لسطح منزل البعثة عام ١٩١٣. غير أن يونج، الذى كان قد أعجب بلورانس فى لقائهما الأول، شعر بالإحباط تجاهه وكتب يقول: «بدا مدللاً إلى أقصى درجة، وقد اتخذ مظهراً مخالفاً للذى أتذكره عنه.. وكان حينذاك أن لاحظت عقده المضادة للجندية.. واستأت منها إلى أبعد الحدود». وإن كان بالإمكان فهم استياء يونج، فأيضاً بإمكاننا تفهم استياء لورانس؛ فقد أهدر الجنود النظاميون آلاف الأرواح البريئة التى من بينها شقيقاه على الجبهة الغربية، وغاليبولى، والآن فيما بين النهرين. وكان يأمل فى لقاء السيد طالب من جماعة الرابطة العربية، إلا أنه كان خارج البلدة. وفى ٧ أبريل، التقى بسليمان فيظى أحد الشخصيات المرموقة بالبصرة وزميل سابق للسيد طالب وكان عضواً فى البرلمان العثماني. وتذكر فيظى أن لورانس بدأ بقوله إنه يحب العرب ويتمنى نجاحهم وأن بريطانيا تعتزم منحهم الاستقلال إلا أنها لا تستطيع فعل ذلك إلا إذا قاموا بثورة ضد الأتراك. ثم أردف «لقد فوضنى البريطانيون فى أن أبدأ هذه الثورة، وأن أقدم ما تحتاجه من أموال وأسلحة.. وقد اخترتك لتشعل شرارة هذه الثورة». وأجابه فيظى أنه لا يستطيع إشعال هذه الثورة لأنه ليس زعيماً قليلاً.. إلا أن لورانس قال له «تستطيع أن تفعل المعجزات بالمال. فبإمكانك إقامة خيام عديدة واستئجار حرس وتابعين، والقيام بواجبات الضيافة لكل من يزورك، ومنح هدايا قيمة للمؤيدين. وبكل هذا، ستصبح قائداً عظيماً وسرعان ما تجد نفسك على رأس جيش عظيم». وأجاب فيظى إنه سيستشير أصدقاءه، بقايا أعضاء لجنة جماعة الرابطة العربية، بيد أنه عاد وقال إنهم رفضوا العرض. وكان لورانس يأمل فى أن يصحب بعضهم إلى الجبهة قبل أن يكشف عن تفاصيل خطته، إلا أنه والأمر كذلك، اضطر للذهاب إلى هناك وحده.

وفى ٩ أبريل غادر البصرة على سفينة ذات بدالات ومعه فصيلة مشاة مبحراً فى أعالي دجلة حيث كانت هذه المنطقة قناة بنية اللون لزجة تدخلها تعريجات ذات أشكال باروكية فى الأطراف وترسبات رملية عبر قدر هائل من الصوان

الأسود والرمادى الراكد . ورسى السفينة فى الليلة الأولى عند القرنة ، ملتقى دجلة والفرات والموقع المزعوم لجنة عدن . وبينما كان يحملق فى المياه الطينية ، تذكر بشوق أصدقاءه فى كركميش وتساءل ما إن كان سىرى داهوم مرة أخرى . ورغم عدم علمه بذلك ، فقد كان من المؤكد أن داهوم قد توفى ، قتله المجاعة المروعة والأوبئة عام ١٩١٦ ، التى عملت الحرب على تفاقمها . كانت كركميش جنة عدن الخاصة به ، وكتب فيما بعد يقول «إلى أن ابتلعت الحرب كل شىء ، لم أتمنى شيئاً أفضل من كركميش ، كانت حياة مكتملة» . وتصلح هذه الكلمات أن تكون قداساً جنائزياً لجيل بأكمله ، للهولوكوست الذى وجد هو وأقرانه بأنفسهم أنه نقطة عقدة فى تاريخ العالم .. نقطة محيت بعدها كل الموروثات والافتراضات التى حكمت الحياة الأوربية لقرون .

وصل لورانس إلى «وادي» حيث يوجد مقر رئاسة قوة دجلة ، بعد ستة أيام كى يتلقى «اعترافاً» من الأعضاء كبار السن فى القيادة . فقد كانت حملة الإغاثة تواجه المصاعب إلا أن الجنرالات كانوا عازمين على إرسال موجات أخرى من القوات . وقد أحزن لورانس أن يُقدم مواطنوه أضحيات على مذبح طموح القادة ، نفس الحزن الذى أحسه أشهر شعراء الحرب ولفريد أوين :

- هل من أجراس (تقرع) لمن يموتون كالقطيع ؟

- فقط غضب البنادق الوحشى

- فقط شخصيات المدافع المتعثمة السريعة تستطيع أن تقيم علنا صلوات عليهم .

لم يرغب الجنرالات الإنجليز / الهنود أن يدرسوا أفكار لورانس . فقالوا إن الاستراتيجية غير التقليدية لا تتوافق مع مثال «الشرف العسكرى» - ذلك الشرف نفسه الذى تسبب فى ضياع آلاف الأرواح دون أن يكسب لهم بوصة واحدة من الأرض . وكان أى نشاط سرى أو تخريبى بالنسبة لهم يرقى إلى مستوى «الغش» . كانت تحديدًا نفس العاطفة التى تسببت فى الأيام الخوالى أن يأمر الضباط البريطانيون جنودهم أن يقاتلوا على مرأى من الناس وألا يختبئوا وراء الأشجار . بيد أن الأمر تجاوز مفهوم الشرف هذا الذى كان فى غير موضعه . فقد كانت فكرة

الثورة العربية تُرعب الضباط الكبار الإنجليز / الهنود إذ شعروا أن هذا قد يمد ملايين الرعايا المسلمين في الهند بمثال خطير، الأمر الذي كان يؤرقهم مجرد احتمال. وأراد الجنرالات تنفيذ الهجمات على الجبهة وفي اللحظة الحرجة، أصيب لورانس بالحمى، ولم يستطع فعل أى شىء سوى التقلب المحموم فى سريره.

وفى الضوء المبكر ليوم ٢٢ أبريل أيقظه انهيار صادم لأصوات مدافع البريطانيين. واستمر الدوى لمدة خمس وأربعين دقيقة بضربات مدروسة بطيئة، وفجأة تزايد الإيقاع ليصبح... مقدمة لهجوم.. وكان الأتراك يتحكمون فى خطوط خمسة خنادق فى مكان يسمى السنيات، وهو عنق زجاجة ضيق بين أحراش مالحة غادرة وشاطئ النهر. وكان موقعا يصعب اختراقه، لكن من أجل الوصول إلى الكوت لم يكن لدى قوات دجلة خيار سوى محاولتهم شق طريق لأنفسهم هناك. وكانت فقط رأس الحربة، هى الفرقة التاسعة عشرة وكانوا جنوداً من أعالي أسكتلندا، بقايا لفرق البلاك ووتش Black Watch الثانية والتي كانت مازالت ملوثة بالدماء، وقوة السيفورث الأولى، وكان قد تم تجميعهم فى كتيبة واحدة لهذه المعركة. وتحركت الكتيبة التاسعة عشرة فى الساعة السابعة صباحاً تماماً، واشتعلت نيران المدافع التركية فى مواجهتهم من مواقع أخفاها ضباب الحرارة المرقط؛ واندفع الاسكتلنديون مباشرة إلى فوهات المدافع المنطلقة. وكان التقدير أن الأمر سيستغرق منهم سبع دقائق لإحداث فجوة فى خط الأتراك إلا أنه استغرق أربعة دقائق فقط، وحينما وصل الرجال إلى مدى مدافع جيشوهم هم، أخذوا يلوحون بشاراتهم الحمراء ليتوقف القذف. وقادوا أنفسهم بجنون خلال الخنادق المملوءة بالمياه ليجدوا أن بنادقهم قد سدتها الأوحال وتوقفت عن الانطلاق. وبعد لحظات، اجتاح الجنود الأتراك الموقع من ناحية الأجنحة فى هجوم كاسح مضاد، وغمرت المياه الكتيبة التاسعة عشرة. وبدا الموقف ميئوساً منه. وأخذت الفرق التى فى المقدمة فى الانسحاب واحدة بعد الأخرى، تاركين الأسكتلنديين فقط الذين تجاهلوا أوامر الانسحاب. وكانت محاولتهم مواصلة التقدم وقيامهم بشن ثلاث هجمات متفرقة على خطوط الدفاع الثالثة أمراً يصعب تصديقه. ولم يعد رجل واحد من تلك الهجمات الثلاث.

وفى الثامنة والثلاث كان كل شىء قد انتهى . فقد استغرقت الهجمة ساعة وعشرين دقيقة فقدت الفرقة التاسعة عشرة فيها ما يربو على ألف رجل . وكان مدى تقدمهم وتقهرهم أكثر قليلا من نصف ميل . وفقدت كتيبة الأسكتلنديين أكثر من ستمائة . وعرف الجنرال يوج ، قائد الفرقة ، أن مهمة إغاثة الكوت قد فشلت . ولم يستطع أن يطلب منهم التقدم مرة أخرى .

ومرة أخرى أهدرت شجاعتهم . وبعد أسبوع رفررت الأعلام البيضاء على الكوت . وسبق ثلاثة عشر ألف جندي من الفرقة السادسة الهندية إلى الأسر حيث توفي أكثر من نصفهم . أما مهندس الكارثة الأول ، الجنرال تاونشند ، فقد هجر فرقته ، وأمضى حالة «أسر» كريمة فى فندق على مضيق البوسفور برفقة كلابه المحببة ( الحيوانات الوحيدة التى لم تأكلها الفرقة الجائعة ) . وكان سير تشارلز يكن لكلابه حبا عميقا ، إلا أنه لم يستعلم ، ولو مرة واحدة ، عن حال رجاله . ولم يسخر الأتراك فقط من خطة البريطانيين لرشوتهم ، بل إنهم أيضا استغلوها فى الدعاية السياسية . ويوم ٢٩ أبريل ، قابل لورانس وهربرت الجنرالات لإجراء حوار ، إلا أنه وجد أنه لن يُنفذ شىء من خططهما سوى مبادلة بعض الأسرى . وكلفت مأساة الكوت البريطانيين ثمانية وثلاثين ألف قتيل دون أن يجنوا منها مثقال ذرة من النفع السياسى . ولم يسبق للإمبراطورية البريطانية أن تصل إلى هذه الدرجة هبوطاً . فكان هناك مذابح على الجبهة الغربية ، وهزيمة فى غاليبولى ، وهجوم تركى على قناة السويس ، وانهيار فى الكوت . وعاد لورانس إلى البصرة وقد خاب أمله وتعاضم إحباطه من فشل الاستراتيجية التى تبناها ، وثار اشمئزازه من موقف الجنرالات الإنجليز الهنود ، وكان مازالت لديه القناعة أن الحركة العربية كان من المحتمل لها أن تنقذ الموقف . بيد أن آماله جميعها تحطمت ، وكتب «لم أفعل شيئا مما كان فى ذهنى وكان بمقدورى فعله» . وفى السفينة فى طريق عودته للقاهرة ، كتب تقريراً ينتقدهم بقسوة لدرجة استلزم معها تخفيف لهجته قبل تقديم التقرير إلى السير أرشيبالد مري الذى كان قد حل محل السير جون ماكسويل كقائد عام .

ولدى وصوله إلى القاهرة ، وجد لورانس أن مدفورد قد ضم إلى القوة البريطانية فى مصر ، وأن مري كان يخطط فعلاً لاستخدام قوات إضافية للمبادرة بتوجيه

ضربة فى سيناء . واعتقد أن هذا ، على الأقل ، كان تحركاً نحو الأفضل . إلا أن استحسانه لم يدم طويلاً ، فقد اتضح أن مرى كان ضابطاً تقليدياً آخر ينتمى إلى المدرسة القديمة التى لا تثق بأقسام المخابرات والمقاتلين الشرقيين من أمثال كليتون ومن ثم ، قسم شعبة المخابرات التى كانت قد كبرت ، ونقل ضباط كثيرين إلى قيادة العمليات العامة فى الإسمايلية . وترك سبعة فقط - من بينهم لورانس - ليكونوا مخابرات القاهرة فى فندق سافوى . وابتهج لورانس برؤية هوجارث الذى وصل إلى القاهرة فى مارس مرتدياً زى الرائد البحرى فى الأسطول البحرى الملكى . وكان قد عثر لنفسه أخيراً على وظيفة حربية فى القسم الجغرافى للمخابرات البحرية ، إلا أنه أرسل إلى القاهرة كى يساعد على إنشاء مكتب عربى جديد يمكن تجميعه من بقايا ضباط مخابرات كليتون فى فندق سافوى ، ويكون المسئول عنه السلطة المدنية متمثلة فى المندوب السامى مكماهون ، وكان للمكتب أن يدار تحت رعاية وزارة الخارجية ويكون مسئولاً عن التطورات السياسية فى الشرق الأوسط .

وفى واقع الأمر ، فقد أنشئ المكتب ، الذى حمل اسماً كودياً هو Intrusive أى «المقتحم» ، ليس فقط لنشر ودعم العصيان بين العرب ، بل أيضاً كأداة لنشر بشارة هذا العصيان فى أرجاء أرفع الدوائر فى السلطة البريطانية . وكتب لورانس «لقد كان هدفنا هو اختراق القاعات التقليدية فى السياسة البريطانية الخارجية ، وأن ننشئ شعباً جديداً فى الشرق» . إلا أن لورانس لم يكن أحد أعضاء «عصبة الرجال الجامحين» وفقاً لتعبيره ، بل احتفظ بوظيفته القديمة فى مخابرات القاهرة . وأوكلت إليه مهمة تحرير نشرة مكتب المخابرات المعروفة بالنشرة العربية . وجاء هذا العمل وفق هواه لأن مهمته فى الكوت أكدت له أنه ليس رجل أفعال . فقد قام بحجة إلى الخطوط الأمامية ، والآن ، تقبل أن يقضى بقية الحرب فى المكتب : «أكثر الأماكن المتاحة متعة إلى أن يستقر الشرق الأدنى» . ولم يكن هناك أمل فى الحجاز طبعاً ، ورغم المفاوضات المطولة ، فلم يكن هناك من يعتقد أن الشريف سيقاقل إن حان الوقت . وقبل صدور النشرة بيوم واحد ، حدث تطور مفاجئ . ففي ٥ يونيو عام ١٩١٦ ، اليوم الذى غرق فيه اللورد كتشنر فى بحر الشمال ، رفع الشريفان على وفيصل رايات الهاشميين القرمزية على أسوار المدينة ، وأعلننا باسم كل العرب ، انتهاء حكم الأتراك العثمانيين .



تى . إى لورانس ( نيد ) وهو فى الحادية عشرة .



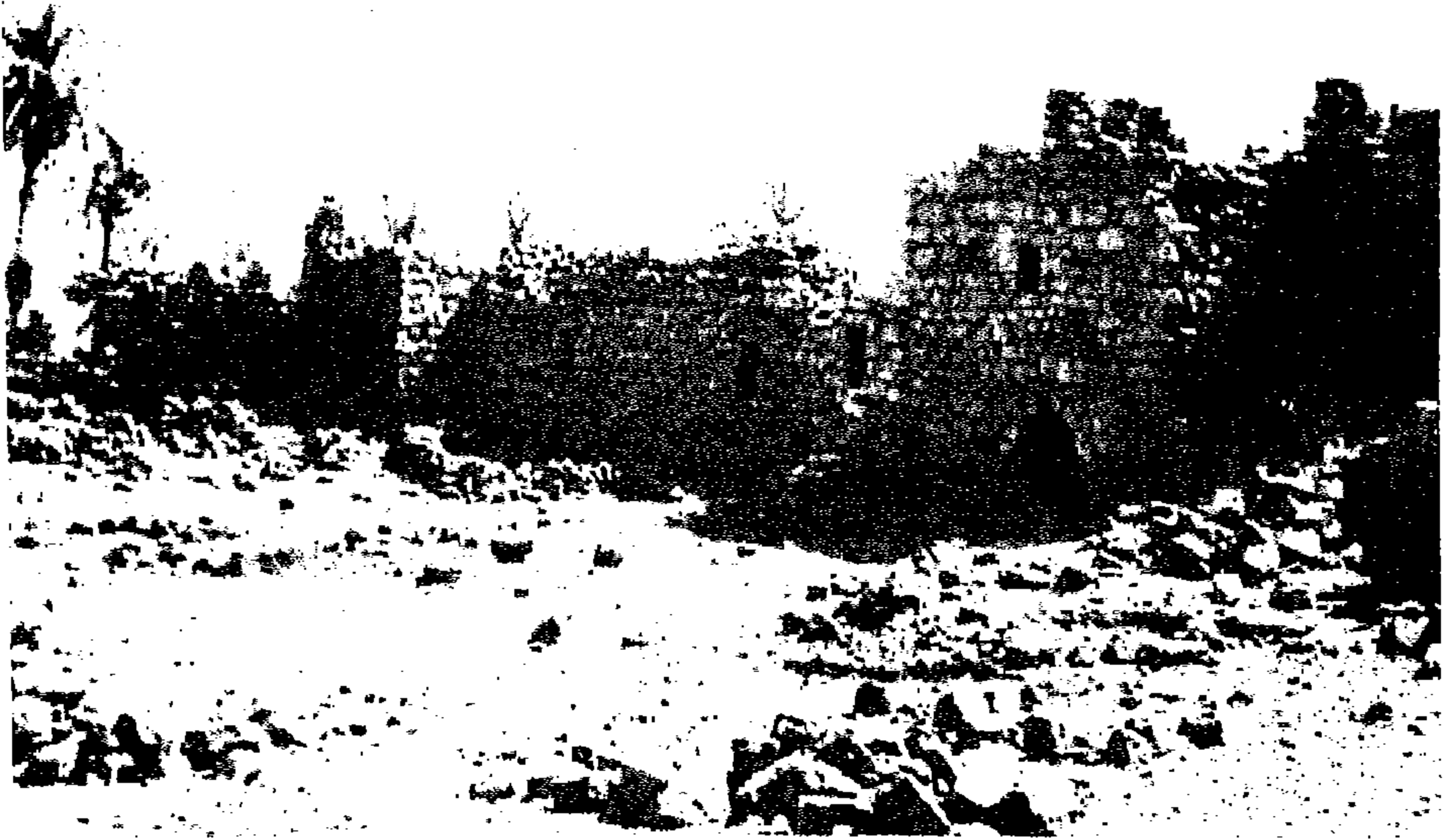
فيصل، التقطت الصورة في مؤتمر الصلح في  
باريس عام ١٩١٩



استكش للورانس أثناء مؤتمر الصلح بباريس عام  
١٩١٩ بريشة أوغسطس جون



جوتروود بل، والسير هربرت صامويل المندوب السامي في  
فلسطين ولورانس والشريف عبد الله في عمان - أبريل ١٩٢١



برج البوابة فى قلعة الأزرق من تصوير لورانس، وكان لورانس قد مكث بالقلعة فى نوفمبر ١٩١٧  
 لعدة أيام للراحة. وبعد عام قام بتجميع قوة فى الأزرق حاصرت الأتراك وعزلتهم فى درعا خلال  
 الأيام القلائل الأخيرة للحملة.



لورانس وهو يبتسم فى مقر قيادة الجيش

البريطانى بالقاهرة عام ١٩١٨



داهوم، أو سليم أحمد، العامل الصبى الذى عرفه  
 لورانس فى كركميش وأحبه، التقط لورانس  
 الصورة عام ١٩١١





بقايا منزل قديم فى ينبع بالمملكة العربية  
السعودية



امراة من الحويطات فى وادى رُم وهى تعرض  
بفخر الوشم الذى رسم على وجهها ليلة زفافها



بدوى من الحويطات يحمل جملة عند بئر المدورة وهى نفس النقطة التى انطلق  
منها لورانس وجماعته جنوباً للهجوم على خط حديدى قرب حلة عمار



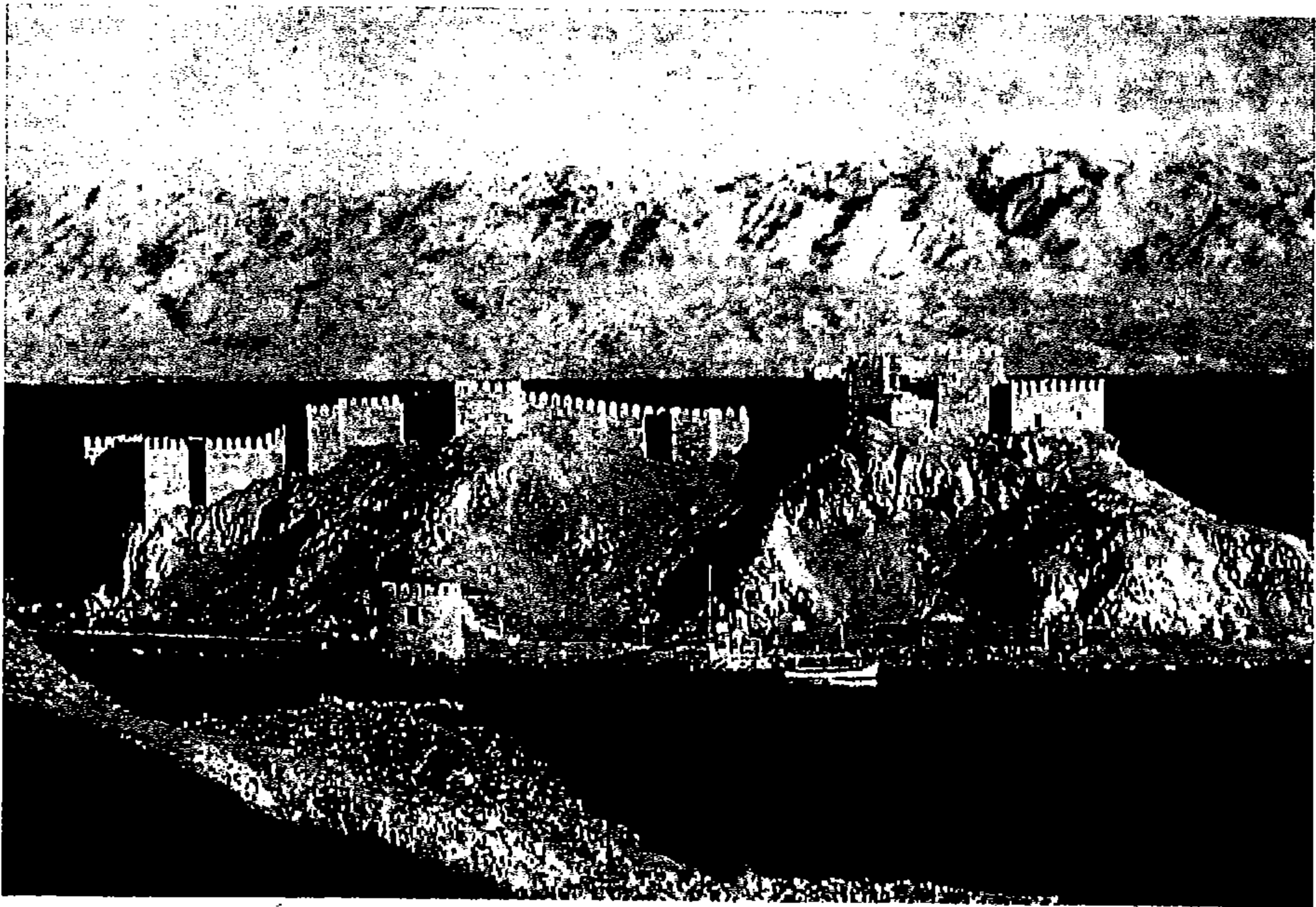
بدوى يملأ قربته وقد قال لورانس إن أساليب البدو صعبة حتى بالنسبة لمن  
نشأوا عليها ، أما بالنسبة للغريب فهى موت فى الحياة



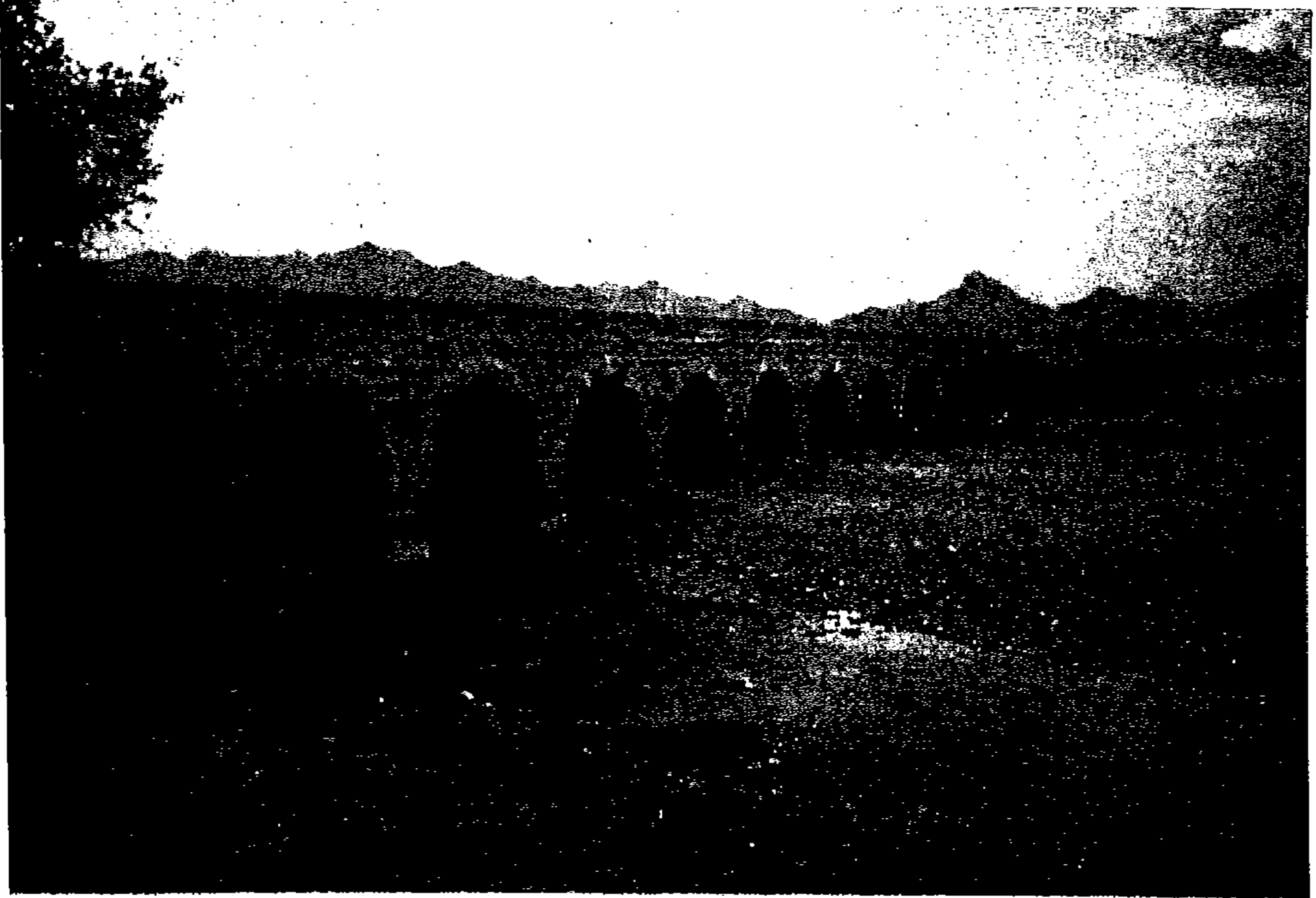
بدوى من حويطات الأردن التى تعاونت مع الهاشميين فى  
الهجوم الأخير للورانس على العقبة فى يوليو ١٩١٧



الكاتب وابنه عند نبع لورانس في الأردن حيث اعتاد لورانس الاستحمام فيه عند توقفه في وادي رم  
عام ١٩١٧



جزيرة فرعونه قرب سيناء، وقد قام لورانس كاركولوجي شاب بالعبور سابحاً إليها لفحص بقايا  
قلعة صليبية (تم الآن ترميمها)



جسر الحديد الصلب الذى شيده المهندسون الألمان والعمال الأتراك بين عامى ١٩٠٢ و ١٩٠٨



قاطرة منقلبة فى محطة حديّة بالمملكة العربية السعودية ومازال  
عدد من القاطرات الأصلية التى كانت تسير على خط سكك حديد  
الحجاز موجودة فى صحارى الحجاز



تمثال لورانس كمحارب صليبي في زي عربي نحتته صديقه إريك كينجرتون وهو موجود  
بكنيسة سانت مارتن الأنجلو ساكسونية القديمة بمقاطعة دورست في إنجلترا



## الباب الثانى

### المحارب

أكتوبر ١٩١٦ - أكتوبر ١٩١٨

## أكبر حدث في الشرق الأدنى

منذ عام ١٥٥٠ اندلاع

الثورة العربية ١٩١٦



---

# 11

---

كانت أرضاً قاسية،

---

أرضاً عطشى،

---

أرضاً تحترق تحت سماء من

---

الكوبالت المصقول الأزرق،

---

جحيم من الضوء الملتهب.

---

كان مكاناً للقمم العارية التي تغطيها الندبات ، وقد تشققت وتشكلت في أشكال خيالية وكأنما بفعل مطرقة ، مكاناً أطلقت فيه شياطين الغبار في وحشة موجعة ؛ مكاناً من الأودية العميقة الجافة ، والشجيرات الشائكة والنباتات البرية . لفافات من الرمال دون ماء ، وحصباء سوداء وصخور بركانية يسميها البدو حراء . والحجاز اسم مشتق من الحاجز ، إلا أنه ، ولأجيال لا تحصى ، كان الطريق للحج والتجارة . وكانت القوافل قبل الإسلام بزمن طويل تسير في مجاهله تحمل اللبان (البخور) من ممالك البهارات إلى موانئ الشام . وقد مرت بلقيس ، ملكة سبأ الأسطورية بهذا الطريق في رحلتها إلى بلاط الملك سليمان . ولم تزدهر مدنيات عظيمة هناك أبداً . بيد أن الواحات تتناثر في ثنايا تلك التلال والسهول الهيكلية اللامعة مثل جزر شاسعة خضراء في الأراضي الجذباء وبها ملايين من أشجار النخيل : المدينة ، وينبع ، والنخل ، وتيماء ، وخيبر ، وديدان ، والطائف . . وفي مكة ، التي أسست في واد قحل لدرجة استحالة زراعته ، ثمة موضع مقدس ، أى الحرم ،

حيث لا يجوز اصطياد حيوان أو قطع شجرة أو إهدار دم آدمى . ومنذ الجاهلية، كان الناس يؤمنونه للتعبد أمام الكعبة والحجر الأسود الذى يقال إنه قد سقط من النجوم.

وفيما بين هذه الواحات كانت البرية والصحراء وسكان التلال، أى البدو، وهم أقوام دائمو الحركة والتغيير والتكيف لنزوات الأرض؛ يستقرون فى مكان ما لمدة تسمح بزراعة الحبوب حيناً، وحيناً آخر يطوون خيامهم ويرحلون بإبلهم إلى أحد المراعى النائية. وكانت التغيرات بطيئة الحدوث من جيل لآخر، ومن ثم لم يعد البدو، الذين لم يكن لهم تاريخ يذكر، يتذكرون وقتاً كانت الأمور فيه مختلفة. واعتقدوا أن أساليبهم خالدة غير متغيرة اكتسبت قداستها من الزمن. أما الرعاء المقدس الذى حفظوا فيه سجلاتهم، فكان الشعر، حيث تناقلته الأفواه، وامتلاء بقصص لا تنتهى عن الحروب والصراعات بين القبائل والغزوات والمناوشات التى لا تحصى. وكانت الأسلحة البيضاء، أى السيوف والرماح، هى التى تستعمل فى هذه الحروب، الأمر الذى كان يعنى أن قاتل من يُقتل بهذه الأسلحة يصبح معروفاً

للجميع، والثأر منه يقيناً. كان القانون المطلق السائد هو القانون التوراتي: العين بالعين والسن بالسن، أما المقولة التي دائماً ما كانت تتكرر في رواياتهم وتؤكد حتمية الثأر البطيئة فهي «وبعد أربعين عاماً، أخذ البدوي بثأره». وطبقاً لموروث البدو، فالثأر يقع على أي من الأقرباء الذكور للقاتل في خمسة أجيال، لأنه لا يمكن لأي فرد تتبع نسبه الحقيقي لأكثر من هذا. ففيما بعد والد جد الجد، يصبح النسب في عداد الأسطورة. أما القبيلة نفسها، فكانت نوعاً من الكيان المجرد، تتكون من عدد من العائلات من خمسة أجيال، وكان أفرادها يشعرون ببساطة أن كلاً منهم ينتمي للآخر، حتى وإن لم تربطهم رابطة دم. وكانت القبيلة هي المأوى والملاذ لكل الأفراد. ورغم استقلال القبائل الصارخ، ورغم حالة الحرب التي كانت قائمة فيما بينها، إلا أن مشاعر الوحدة والتكافل كانت تربط بينها مما يعرف بالعصبية التي تكمن فيها القوة الحقيقية لبلاد العرب. فالولاء لا يكون بين فرد وآخر وإنما الولاء المطلق يكون للقبيلة.

وفي الحجاز، كان البدو يعيشون على حليب نوقهم، وعلى التمر والحبوب من بساتين واحاتهم فلم تكن ثمة نقلة من الصحراء إلى أماكن الزراعة، وكانت قبائل غرب الجزيرة الكبرى مثل عتيبة وحرب وجهينة وبيلي ومضر، وبنى عطية، تتكون من أسر تحيا وفقاً لتتابع أساليب الحياة: من الرحل إلى شبه الرحل، إلى القرويين الذين نادراً ما كانوا يغادرون أماكنهم. وبينما كان يميل الذين كانوا ينتقلون إلى السخيرية ممن هم أكثر استقراراً، إلا أنهم كانوا أقرباء، ويعتبرون جميعاً شرفاء، ويستمدون شرفهم من سمعة القبيلة.

فرغم أن الأفراد في كل قبيلة كانوا متساوين، وكان الشيوخ مجرد رؤساء داخليين، إلا أن القبائل نفسها لم تكن متساوية فيما بينها. فقد كانت أنبل القبائل في وقت ما هي أقواها، وكانت تغير أنسابها وفقاً لهذا. وكانت هناك بعض القبائل المنبوذة مثل شرارة والعواصم والخطيم الذين لم يقبلوا كمحاربين، ولا يقبل أحد الزواج منهم. كما كان هناك قوم آخرون غير منتمين يسمون بالصليب وكانوا صناعات غير مهرة وصيادين وعطارين. أما بنو عقيل فلم يكن ينتمون لأي من هذه المجموعات. فقد كانوا في غالبيتهم قرويين مستقرين من واحات القصيم ونجد، ولا يكونون قبيلة، بل جماعة من تجار الإبل ومرشدى القوافل عرفت في أنحاء الجزيرة

بصفتهم سماسرة أمناء، وخبراء إبل من أفضل مستوى، ومحاربين مرتزقة شجعان يحظون بالاحترام ويحافظون على الولاء لمن يتولون حمايتهم. وكانوا يحظون بالاحترام فى جميع أنحاء الجزيرة رغم عدم كونهم بدواً. ورغم أن حياة البدو كانت شاقة فإن ما ادعاه لورانس من أنها كانت «موتاً فى الحياة» توضح جوانب عن شخصيته هو أكثر ما تصدق على حياة البدو. فقد كانت ثقافتهم فى الواقع متكيفة تماماً مع الصحراء لدرجة شعورهم بالانتماء إليها. كانت آليات بقائهم هى إبلهم وقطعان ماعزهم وأغنامهم. وكانوا يأخذون منها معظم ما يستعملونه ويبتاعون باقى احتياجاتهم فى المدن. لم يكونوا يحيون بالثروة المادية - فهى أمر عابر فى مثل هذا الخواء - لكنهم اعتمدوا على قدسية السمعة. فكان الرجل يكتسب الشرف بإظهار الشجاعة وقوة التحمل وحسن الضيافة والولاء. وعلى حين لم تنج قافلة غريبة أو شخص مسافر أو خيمة منافسة من أعمال السلب. فإن الفرد بمجرد تقاسمه الخبز والملح مع المضيف كان يعامل بميثاق الشرف. كان الغزو من أجل الإبل هو «بهارات» حياة البدوى ووسيلته لاكتساب الشهرة، وكان يهاجم الجميع، إلا إذا رأى عكس ذلك. وكان يقدم خدماته نظير الذهب، بيد أنه لا يبيع روحه قط.

كانت الأوجه الروحانية، لا المادية، هى أكثر أوجه حياة البدوى صعوبة على فهم الغرباء. فقد كان البدو يحيون فى تتابعية زمانية / مكانية تختلف عن تلك التى يحياها الأوروبيون: عالم مسطح؛ أضواء فى السماء؛ عالم لا يقاس بالكيلومترات والأميال. كانوا يسكنون عالماً كل شىء فيه - شجرة أو صخرة أو عين ماء له روحه الخاصة. إلا أنه عالم ينسب كل ما فيه لله. فالبدوى لا يمتلك شهوة التوضيح، أو فكر يبحث من خلاله عن الحلول، أو مفهوم لتحسين حياته وبيئته. فالإجابة على كل سؤال مكانها الإيمان وليس العقل. كانوا يحيون فى عالم دون أمان جسدى حيث يمكن أن ينزل بهم الموت (من الغزاة أو العطش أو الجوع أو الكوارث أو المرض) فى أية لحظة. بيد أنه كان لديهم إيمان وجودى، مثل أى أوربى من العصور الوسطى، كان لديهم المعرفة المطلقة بمن يكونون وإحساس بالهدف، وحس بالمعنى، وشعور بأن الله يحرك الأمور لما هو خير؛ حس بأنهم ينتمون للأرض وللكون؛ ذلك الذى افتقده الأوروبيون المحدثون.

اخترق يوهان لدوفيج بيركهارت وريتشارد بيرتون مكة والمدينة متخفيين كمسلمين في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وأيضاً قام تشالز داوتى برحلاته في الجزيرة العربية في السبعينيات من القرن التاسع عشر. إلا أن الكثير من الأرض نفسها لم يكن معروفاً للعالم الخارجى. فقد أخبر دافيد هوجارث الجمعية الجغرافية الملكية أنه «حتى عام ١٩١٤، فإن أفضل معرفتنا بشبه الجزيرة العربية، بجميع أنحائها كانت جد ناقصة، ولم تكن معرفتنا بالنسبة لأكثر من نصف هذه المساحة الهائلة تساوى شيئاً يذكر.. وكانت المناطق شبه المجهولة هي التي تقع في المنتصف - خاصة منتصفها الغربى؛ وظل الجزء الأكبر من هذه المنطقة محظوراً. كأرض مقدسة - على الرحالة والمكتشفين الأوروبيين، سوى من كان يخاطر بنفسه منهم، ويتخفى بمهارة، الأمر الذى أعاق، إن لم يكن حال دونهم ودون ملاحظة الحقائق والمعالم ذات الأهمية الجغرافية وتسجيلها». ولم يكن قد تم مسح منطقة تهامة أو ساحل الجزيرة على البحر الأحمر، التي ظلت في هذا الصدد مثلها مثل منطقة القطب الجنوبى. كما لم يكن لدى البريطانيين خريطة للجزء الداخلى يعتد بها. ولم يكن باستطاعتهم معرفة المسافة بين خط سكك حديد الحجاز والساحل أو حتى عدد المحطات جنوب العلا. كما لم يكن بمقدورهم تحديد خط الطول عند أية نقطة لمسافة مائتى ميل من تلك البقعة وحتى مكة، أو أين، على وجه التحديد، تقع المدينة وكيف تبدو. وكان التخطيط الذى رسمه بيرتون للمدينة هو الخريطة الوحيدة المتاحة. وحينما خطا لورانس على شاطئ جدة في ١٩ أكتوبر عام ١٩١٦ كان يعرف أنه يدخل أرضاً مجهولة.

كان عمر الثورة حينذاك أربعة أشهر وكانت على شفا مأزق خطير. فقد استعاد الأتراك زمام المبادرة، ورغم أنه لم يكن لحسين خيار آخر، فقد بدا للبريطانيين أنه يتصرف باندفاع. فقد أرسل ابنه فيصل إلى دمشق في يناير عام ١٩١٦ في رفقة أربعين حارساً شخصياً من رجال القبائل، كى يثير عصياناً بين الفرق العربية في الجيش العثمانى في سوريا والعراق. واكتشف فيصل أنه لم تكن ثمة أية فرق عربية في سوريا، لأن جمال باشا الداهية (الحاكم العسكرى) قام بإرسالها جميعاً إلى جبهات أخرى وحلت محلها فرق عثمانلية، وقد سبب هذا استياء فيصل. كانت سياسة جمال باشا الجديدة قمعية. فقد حكم على واحد وعشرين قومياً

عربياً بالإعدام شنقاً فى الأماكن العامة فى دمشق وبيروت، وكان بينهم قضاة وكتّاب ومفكرون. وكان أيضاً على وشك إرسال ٣٥٠٠ جندي مدرب منتقن بقيادة خيرى بك إلى الحجاز، بزعم أنهم فى طريقهم إلى اليمن لمرافقة بعثة ميدانية ألمانية بقيادة البارون أوتهايمر فون ستوتزنجن؛ إلا أن الهدف كان إحكام قبضته على الحجاز. وأدرك حسين أن أحكام الإعدام كانت ترمز إلى ثقة الأتراك الجديدة التى ألهمهم إياها نجاحهم فى غاليبولى والكوت، وراوده الشك أن الهدف الحقيقى وراء بعثة خيرى بك كان خلعه هو، وعرف أن عليه أن يتصرف قبل وصول القوات الجديدة إلى المدينة. وكان قد أسر بالأمر إلى بنى حرب وعتيبة وجهينة وآخرين، وكان يعرف أن بإمكانه الاعتماد على قواته من البدو وأن لديه فرق الهجن الدموية المدربة من مرتزقة بنى عقيل ورجال حرس بيشة من القبائل. سكان مرتفعات عسير - إلا أنه لم يكن لديه قوات نظامية، وإمدادات حديثة خاصة من الرشاشات والمدافع. بيد أنه كان يثق فى قواته البدوية وكان يعوق حركته عامل واحد فقط؛ فقد كان فيصل ما يزال فى سوريا معرضاً لأن يقبض عليه جمال باشا بمجرد تسرب أى شىء عن أعمال قتالية. وبمهارة، حل فيصل المشكلة سريعاً بأن خدع جمال بإقناعه أنه سيعود للحجاز فقط لإحضار قوة متطوعين للجيش التركى. وغادر دمشق يوم ١٦ مايو وترك رجاله الأربعين تحت إمرة نسيب البكرى من «الفتاة» مع تعليمات لهم أن يهربوا بمجرد تلقيهم كلمة السر. ووصل إلى المدينة فى الأسبوع الثالث من مايو وبذلك صار الشريف حراً فى توجيه الضربة.

تعالى صوت المؤذن الوحيد من أعلى مئذنة المسجد الحرام فى مكة فجر ١٠ يونيو. كان الجو مازال لطيفاً فى هذه الساعة، والسماء صافية كالزجاج المشتعل، والهواء الساكن يحمل نذير حرارة ملتهبة. كانت هناك أشباح أشخاص معتمة فى الشوارع؛ بدو يلتحفون العباءات وقد غطوا وجوههم بأحكام بأغطية رؤوسهم، وكانوا يختلطون برجال المدينة المندفعين لتأدية الصلاة. وفى معسكرات جرول بطريق جدة حيث كان القائد التركى قد قضى ليلة، كان الأتراك ينامون وهم واثقون أن حرس وبنادق قلعة إحياد ستحميهم. كانت القلعة عبارة عن حصن ضخّم ذى أبراج عديدة مقام على بقايا صخرة أعلى مدينة مكة. كانت القوات قليلة العدد - أقل من ١٥٠٠ رجل - إذ إنه فى فصل الصيف، كان الحاكم معتاداً

على الانتقال، مع أغلب الحامية، إلى مقره في الطائف الأكثر برودة. وكان نائب الحاكم في مبنى الحميدية، حيث مكاتب الحكومة، قائماً يتوضأ. وتوقف برهة للاستمتاع بجمال الأذان. وغير بعيد عنه، في القصر الهاشمي، كان الشريف حسين يستمع باهتمام إلى نفس الأذان الواضح، وهو يحملق من النافذة، ويرقب الأشخاص الذين كانوا يتجمعون ببطء في الشوارع. وفجأة توقف الأذان، وساد الصمت لبرهة. والتقط الشريف مدفعه، وبتمهل مدروس، أطلق من النافذة الطلقة التي بدأت على أثرها الثورة العربية رسمياً.

كانت هذه هي الإشارة التي ينتظرها رجال القبائل. وسرعان ما خلعوا عباءاتهم وأطلقوا وابلاً من القذائف على القلاع التركية، وعلى المعسكرات ونقاط الحراسة والمكاتب. استيقظت القوات في جرول ليجدوا القذائف تندفع من خلال نوافذهم كالذباب. ونهض القائد من سريره لينظر حوله مرتبكاً. فقد كان يهاجم ولا يعرف ممن. واستمع بانتباه لدوى المدافع والرشاشات التي كانت سترافق الهجوم لو أنه كان هجوماً من الحلفاء؛ إلا أن ما سمعه كان فقط نيران الأسلحة الصغيرة. وحينما نظر خارج نافذته أبصر علماً قرمزيًا يرفرف على القصر الهاشمي، لكنه لم يتبينه كرمز هاشمي إذ كانت الراية العثمانية قرمزية أيضاً. وسرعان ما أدار قرص الهاتف وحادث قائد بطارية قلعة إجياد. وكان قد أعطى أوامره للجنود في نفس اللحظة تقريباً باحتلال مواقعهم. وظهرت زخات الدخان عند فتحات البنادق في القلعة وتبعها زئير الطلقات في الشوارع. وبدأت أصوات المدافع للمهاجمين تبدو كشياطين الرعود. فقد كانوا مسلحين فقط بالبنادق الخفيفة muskets، ولم يكونوا قد سمعوا من قبل صوت المدافع. وفي معسكرات جرول، كان الأتراك قد استعادوا جأشهم بعد المفاجأة الأولى، وأخذوا يردون على النيران بقوة وقد شجعتهم أصوات المدافع. وبعد ذلك هاتف القائد الشريف قائلاً إن البدو يهاجمونهم وسأله عما إذا كان باستطاعته فعل أي شيء إزاء هذا. وأجاب حسين «بكل تأكيد» وأعطى الإشارة بتجديد الهجوم.

وفي التاسعة، وحينما كان الناس يستشعرون حرارة النهار المشعة في الشوارع، طلب القائد التفاوض. وسار الموظف المدني المحلى إلى المعسكرات رافعاً راية بيضاء وأخبره «أن هذه البلدة قد أعلنت استقلالها عن الإمبراطورية العثمانية وأن



الأعمال القتالية ستتوقف فقط حينما تخرى قواتك المعسكر وتسلم أسلحتها كلها إلى القائد العربى». وأمر القائد. وقد أذهله اكتشاف الموقف بطارية إحياد أن تطلق النيران. فقد صمم على المقاومة. واستمر القصف متقطعاً طوال النهار والليل؛ وفى الصباح التالى هجمت جماعة من البدو على مقر الحراسة الرئيسى بجوار الحرم وكان أعضاؤها يطلقون صيحات الحرب ويلوحون بسيوفهم ورماحهم التى كانت تبرق بريقاً قاتلاً فى ضوء الشمس. واندفعوا من أبواب المقر وأسروا المدافعين عنه. وفى اليوم التالى هجموا على مبنى الحميدية حيث احتفى نائب الوالى مع مرافقيه. وكان هو ورجاله قد أخذوا فى إطلاق النيران على كل من كان فى مرمى الطلقات، وأصابوا بذلك عدداً ممن كانوا فى طريقهم للصلاة فى المسجد. وسار البدو خلسة من باب إلى باب إلى أن شنوا هجمة من مدى قريب وقفزوا من الظلال متصايحين. وألقى الأتراك بمدافعهم وقد أخافتهم ضراوة المهاجمين ورفعوا أيديهم مذعورين. ثم اقتيدوا إلى القصر الهاشمى حيث أرسل نائب الحاكم خطابات إلى القوات فى جرول وإحياد يأمرها بالاستسلام. بيد أن الوحدات التركىة أصرت على عدم الإذعان واستمر أفرادها يطلقون النيران فى المدينة عشوائياً لدرجة أنهم أشعلوا النيران فى كسوة الكعبة ودمروا مقام إبراهيم وأحدثوا شقوقاً فى نقوش كانت تخلد حياة الخليفة عثمان. وكان لكل تلك الأفعال تأثير دعائى مضاد لهم. كما كان آخر عمل فى تلك القائمة نذير شئوم لأن اسم عثمان كان مرتبطاً باسم سلف الأتراك العثمانيين. بيد أن الموقف أضحى راكداً. فلم يكن بمقدور العرب الهجوم على إحياد حيث البطاريات المميتة كما لم يكن الأتراك قادرين أو مستعدين لشن هجمة مفاجئة. وظل الموقف متجمداً حتى أول يوليو حينما وصلت بطاريتان من مدافع الجبل بقيادة سعيد باشا على. ورغم أن المدافع كانت عتيقة أرسلها على وجه السرعة السير ريجينالد وينجيت سردار الجيش المصرى من بورسودان، إلا أنها كانت مجدبة للقصف عن قرب. وفى الوقت نفسه تقريباً أوقعت بطاريات المدفعية بعض المدافع التركىة فى إحياد وأحدثت فتحات فى الجدران مكنت البدو، الذين كانوا قد تمكنوا من تسلق المرتفعات المحيطة، من الإلقاء بأنفسهم داخل القلعة، وأعملوا القتل فى رجال الحامية وأسروا من تبقى منهم، واستولوا على خمس قطع مدفعية، و ٨٠٠٠ بندقية،

ومئات الآلاف من صناديق الذخيرة. وحينذاك، وجهت مدافع الجبل إلى معسكرات جرول، وأشعلت الطلقات النيران في المبنى ناشرة دخاناً مسمماً داخله. واستسلم الأتراك، الذين لم تكن لديهم مياه لإطفاء النيران، يوم ٩ يوليو. وبعد قتال استمر شهراً، كان العرب قد قتلوا وأصابوا ما يقرب من ٣٠٠٠ تركي، وأسروا الباقين. ومن ثم، كانت المناورة الافتتاحية للثورة العربية نجاحاً مذهلاً.

وكان قد تم الاستيلاء على ميناء جدة منذ زمن طويل. وهنا، استعمل حسين الذهب لإثارة جزء من قبيلة حرب - وكانوا جماعات من قطاع الطرق المعروفين - بقيادة محسن بن منصور، وهو شريف شجاع كان يحظى بكثير من الاحترام. وكان بنو حرب متمردين جامحين غير أهل للثقة، إلا أنهم كانوا يقاتلون نظير الذهب. وتجمهروا حول جدة لعدة أيام، وفي صباح ١٠ يونيو امتطى ٣٠٠ رجل من القبيلة إبلهم وخيولهم وتدفعوا في اتجاه أبواب المدينة وقصفوا السهل بالمدافع، فانتشر الدخان بين الإبل المهرولة، ورشقوا الصفوف الأمامية بنيران الرشاشات. ثم استدار بنو حرب فجأة وانسحبوا خارج مدى النيران. وأرسل محسن فرقة من ركاب الإبل إلى الشمال الغربي لقطع إمداد المياه عن الحامية العثمانية التي كانت تتموضع خارج الجدران. وفي اليوم التالي دخلت سفينة البحرية الهندية هاردنج والزورق الحربي فوكس من أسطول الدوريات البريطانية في البحر الأحمر الميناء وأمطر الحامية بالنيران المركزة فقتل ثلاثة من رجال الدرك الأتراك. وتكرر القصف يومياً حتى رست حاملة الطائرات بن - ماي - شري قرب الصخور وانطلقت منها طائرات بحرية حلقت فوق أسوار المدينة وأسقطت فوقها القنابل. وفقدت الحامية التركية عزيمتها، وأصاب أفرادها العطش؛ ولدى علمها بعدم وجود تعزيزات في الطريق إليها استسلم قائدها للشريف محسن. كما تحققت نجاحات مماثلة في موانئ على شواطئ البحر الأحمر مثل ميناء المدينة وينبع، ورابغ التي تم الاستيلاء عليها بنهاية شهر يوليو. كما تم الاستيلاء على ليث والقنفذة في الجنوب في نفس الوقت تقريباً، وهربت القوات التركية عند أم اللج إلى الصحراء حينما أطلقت القذائف من الطراد فوكس على شارع رئيسي في المدينة واخترقت أسوار القلعة. إلا أن مدينة الطائف الواقعة على مرتفعات الحجاز على بعد حوالي خمسة وسبعين ميلاً شرقي مكة فقد برهنت على صلابتها.

كانت الطائف، التى تقع على سهل رملى وسط بساتين الفاكهة وحدائق الزيتون على ارتفاع ٥٠٠٠ قدم عن سطح البحر، مدينة مسورة. وكانت تخدم كسوق لبني عتيبة، وهم بدو من وسط الجزيرة، وأيضاً لعدد من القبائل شبه الرحل. وكان قد تم إرسال عبد الله إلى هناك، مع سبعين من جماعة العقيل الممتطين فى أول يونيه بمجرد سماع عبد الله أخبار تقدم خيرى بك. وعسكر بقواته غرب المدينة، وأخبر الحاكم المحلى أحمد بك، أنه فى غزوة ضد البقوم، وهى قبيلة رحل تعيش فى خمسمائة خيمة وتسكن وديان عسير. وكان أحمد بك يساوره الشك، إلا أنه حدس أنه مهما تكن نوايا الشريف فھر ورجاله السبعون من العقيليين سيئو التسليح لا يمثلون خطراً إزاء الأتراك البالغ عددهم ٣٠٠٠ رجل. وكان بحوزتهم عشرة من مدافع الجبل. وأخذ عبد الله يبعث رسله إلى معسكرات العتيبة والقبائل الأخرى يدعوهم للانضمام إليه ويعرض عليهم الأموال والأسلحة. وفى غضون أيام قليلة وصل البدو على إبلهم فى مجموعات صغيرة لا تلفت الانتباه وبسرعة فائقة ازدادت قوات عبد الله عدداً وبلغت ٥٠٠٠ فرد. وراقب أحمد بك، الذى كان يزور معسكر عبد الله كل مساء، جمع رجال القبائل والإبل بقلق. وفى خلال أسبوع كان الشريف قد أتم استعدادته لإعطاء الأوامر بالهجوم. إلا أن غالب باشا حاكم الحجاز استدعاه فجأة فى الليلة المحددة لبدء الهجوم. ونصحه مستشاروه الرئيسيون بتوخى الحذر. ورغم ذلك، ركب الشريف بشجاعة إلى قصر غالب باشا فى رفقة بدويين فقط تركهما فى الخارج بعد أن أمرهما بهدوء أنه فى حالة محاولة القبض عليه يكون عليهما منع الخطر من الخارج بينما يتولى هو معالجة الأمور مع الوالى. وسار عبد الله إلى الوالى ليجد أنه أراد أن ينصحه بعدم تنفيذ غزوته ضد البقوم وقال له «ثمة شائعات عن قيام ثورة فى أية لحظة الآن. هل ترى كيف يغادر سكان الطائف منازلهم مع عائلاتهم؟» فاحتج عبد الله قائلاً «دعنى أنفذ الغزوة كى يستعيد الناس ثقتهم». وفى تلك اللحظة دخل أحمد بك الغرفة وكان يبدو مهتماً واستعد عبد الله للتصرف. وهمس القائد بشكوكه فى أذن غالب مقترحاً القبض على عبد الله فى الحال. وترقب الشريف متحسناً مسدسه تحت عباءته. إلا أن الحاكم أشار للقائد بعد دقائق أن يتنحى جانباً وغادر عبد الله المكان طليقاً. وبمجرد وصوله إلى المعسكر بعث مجموعة من بنى عقيل ليقطعوا أسلاك البرق إلى مكة، وأمر كشفاته بمنع أى مراسلين من مغادرة الطائف أو الدخول إليها حتى لو

أدى هذا إلى إطلاق النيران . وفي ليلة ١٠ يونيه حاصرت قواته الجزء الشمالى من المدينة ، إلا أنه تم صدهم بسهولة حيث كان أحمد بك قد قوى أسوار المدينة بدعامات طينية وحصنها بخنادق . وكتب عبد الله يقول : «لقد نفذنا الهجوم بكثير من العنف . فقد قام رجالنا فى المركز بشن غزوة وعادوا ببعض الأسرى والغنائم . وفى الصباح الباكر بدأت المدفعية التركية تقصف مواقعنا قصفاً شديداً . ومن حسن الحظ أنه لم يحدث هجوم للمشاة» . وفى غضون الأيام التالية حاول العرب غزو مواقع متفرقة بانتظام ، ليجدوا أنفسهم وقد تفرقوا بسبب ضوضاء مدافع الأتراك . ومن ثم ، فقد بنو سعد ، وهم قبيلة من المزارعين ، أعصابهم لدرجة أنهم تخلوا عن الشريف واتجهوا إلى قراهم . وتحين عبد الله فرصته بتأن ، حتى وصلت مدافع الجبل المصرية فى منتصف يوليو ، ثم حملها قطعاً قطعاً إلى أعلى وادى فاطمة من مكة ومعها مدافع هاوتزر التى كان العرب قد استولوا عليها . إلا أن حالة الركود استمرت . وفى هذا الصدد ، قال عبد الله فيما بعد إنه لم يوظف المدفعية بالقدر الذى كان يتوجب عليه من أجل الاستفادة منها ، على حين قال رجال المدفعية المصريون لهيوبرت فيما بعد إن البدو أصابهم الخوف من الهجوم ، وأنهم لم يستغلوا قذائفهم أبداً . إلا أن صبر الشريف آتى أكله فى النهاية إذ استسلمت حامية الطائف فى ٢٢ سبتمبر وأسر الحاكم .

بقليل من المساعدة من البحرية الملكية البريطانية ، وعدد محدود من القوات المدربة والآليات الحديثة سيطر الهاشميون على أهم المدن فى الحجاز . واستولوا على كمية هائلة من المعدات الحربية . أما الأهم منهذا فهو أنهم حققوا نجاحاً دعائياً لامعاً ، وتوارت الأحلام التركية / الألمانية بشأن الجهاد المقدس . وقد اعترف جمال باشا بهذا فى خطبة عامة وصف فيها حسين بأنه شخص خائن وخسيس ، أما المشكلة بالنسبة للعرب فتمثلت فى كون المدينة ، لا مكة ، هى مفتاح الحجاز . ولم يكن قد تم الاستيلاء عليها . فلم تكن المدينة فقط واحة ذات اكتفاء ذاتى ، وأبعد ما تكون عن مدى مدافع البحرية البريطانية ، لكنها كانت متصلة بالعالم الخارجى مباشرة عن طريق خط السكك الحديدية . وبحلول شهر يونيه كانت حاميتها قد وصلت إلى ١٢٠٠٠ جندي بقيادة فخرى باشا «سفاح أورفه» الشهير ، وكان

جندياً موهوباً قوى العزيمة لا يرحم . وتدرجياً ، أدرك حسين وأبناءؤه أنهم لم يقدرُوا قوة السكك الحديدية حق قدرها . فطالبوا بقيت المدينة فى يد الأتراك استطاعوا نقل أى عدد من الرجال والمعدات إلى الحجاز ، وشن الهجوم المضاد .

بعد أن رفع على وفيصل العلم فى ٥ يونيه ، قاما بتقسيم قوة البدو إلى ثلاث فصائل قامت إحداها بنزع قضبان السكك الحديدية شمال المدينة بأيديهم المجردة ، ولم يحقق هذا شيئاً ، إذ إنه بدون متفجرات كان من غير الممكن إحداث تدمير دائم ، ولم يكن لدى الأتراك نقص فى القضبان الاحتياطية ، كما كانت محطاتهم القلاعية مزودة بفرق الإصلاح وكانت محيط أول محطة على خط السكة الحديدية ، وتبعد ثلاثة عشر ميلاً غرب المدينة ، وكانت مبنى صلباً من البازلت يحرسه حصن ضخيم قوى يقع أسفل غطاء من التلال المنخفضة . وفى صباح ٥ يونيه انهالت النيران داخل المبنى من القناصة فى أماكن مختفية فى التلال المحيطة ، بينما قامت فرقة أخرى بمناوشات عبر السهل المفتوح باتجاه الموقع . وكان الأتراك جيدي التحصين وردوا التقدم بنيران الرشاشات . ومما جعل الأمر أكثر سوءاً أن قوة كبيرة من المشاة بقيادة فخرى باشا شخصياً اندفعت من المدينة وهاجمتهم من الخلف . وتراجع العرب إلى التلال وأعادوا تجميع صفوفهم وشنوا هجوماً جماعياً على المدينة قوبل بنيران مكثفة من المدافع والرشاشات . وألقت أصوات المدافع الرعب فى قلوب البدو لدرجة أنهم استداروا معها ولاذوا بالفرار . واحتفى بنو عتيبة وعقيل بالصخور السوداء وركام الحمم ورفضوا أن يتزحزحوا . وأخذ فيصل يخطو بثبات ممتطياً جواده الأشهب ومرتدياً أبهى حلل الشرفاء ، وسط سيل قذائف الأتراك والمفرقات المتفجرة فى محاولة منه لحفزهم . لكن دون جدوى ، فلم يكن للبدو أية خبرة فى هذا النوع من المجازر ؛ وكان فيصل قد وضع ثقته فى بنى على ، وهى قبيلة مزارعين تسكن قرية العوالى خارج أسوار المدينة وتتحكم بهذا فى إمدادات المياه . إلا أن هدير المدافع وفرار قوات البدو غير النظامية كان فوق احتمالهم ، فطلبوا هدنة من الأتراك . وبينما كانت المفاوضات جارية ، أحاطت قوات فخرى بالقرية ، ودخلوها بعد إشارة متفق عليها ومعهم حراهم الموجهة وقتلوا كل الرجال والنساء والأطفال ، وأحرقوا المنازل ووجهوا الرشاشات إلى الأبواب كى يصيبوا من يحاولون الهرب . ولدى وصول فيصل ومعه حفنة من

البدو لإنقاذهم راعهم ما شاهدوه. فقد كان هذا الذبح العبثي للنساء والأطفال من البشاعات التي لا تنسى. وكانت تلك هي الضربة القاضية لروحهم المعنوية؛ وأجبر الهاشميون على التراجع، في البداية إلى بئر ماش جنوب المدينة، ثم إلى وادي عتيق. وطاردتهم الأتراك ككلاب صيد وهم يدفعون بهم من مكان إلى آخر حتى تشتتوا. وقاد فيصل قواته إلى ينبع النخل - واحة من النخيل في تلال المدينة - وذهب على إلى وادي إثم على بعد حوالي ثلاثين ميلاً جنوب غرب المدينة، حيث تمكنوا بصعوبة من الصمود. وقد أوشكت أطعمتهم على النفاد. وبدأ الأتراك في التقدم دون هوادة، وأخذوا يجمعون الإبل لركوبهم من القبائل المجاورة، ويستولون على الآبار والنقاط القوية ويحصنونها. وظلت القبائل العربية دون إمدادات أو ذخيرة سوى النزر القليل الذي كان يصلها من مكة بدلاً من رأس الجسر الساحلي عند راغب. وفي منتصف يونيو تم دعم قوات على بفصيلة من الجنود العرب النظاميين الذين كانوا أعضاء سابقين في الفرق العثمانية التي أسرها البريطانيون وأفرجوا عنهم كمتطوعين في سبيل القضية العربية. وكان هؤلاء تحت قيادة ضابط مدفعية عراقي ذي مقدرة عالية هو نوري السعيد، الذي رأى من فوره أن موقف على كان ميئوساً منه. فلم يكن بحوزته أية معلومات عن تحركات العدو؛ وكان على نوري السعيد أن يحدد مواقع ثلاث كتائب تركية، كانت تقتفى أثره بأن أرسل رجاله كخدعة لاجتذاب الطلقات. وكانت الذخيرة تقترب من النفاد وقد سيطر الأتراك على أقرب مصادر المياه. وشعر نوري السعيد أن قوات البدو غير مستطاعة وقف تقدم الأتراك، ونصحته بالانسحاب إلى الشاطئ في حماية مدافع البحرية البريطانية. ورأى أنه بالإمكان تكوين نواة للجيش العربي النظامي بقيادة عزيز المصري، وهو ضابط عربي متميز كان قد هرب من الأتراك، وقاتل مع السنوسي في صحراء ليبيا، ثم قام بعد ذلك بالتخطيط لاستراتيجية مفصلة للثورة العربية. واقترح المصري تكوين «طابور طائر» من العرب المتطوعين المتدربين وعددهم ٨٠٠٠ يمكنهم التحرك بمرافقة ثمانية من مدافع الجبل شمالاً من الحجاز إلى سوريا ويحطمون الخط الحديدي دون الالتحام مع الأتراك أبداً. إلا أن حسين منع هذه الخطة التي تبناها لورانس فيما بعد، وكان حسين يشك في ضباطه السوريين، وشعر أن مثل هذا الطابور الطائر سيكون خارج نطاق تحكمه. وفي الواقع، فقد قام

الشرىف فىما بعد بالاستغناء عن خدمات عزيز المصرى المخطط الاستراتيجى لحرب العصابات ، وكانت هذه خسارة للثورة لم تعوض . أما بالنسبة للموقف فى ذلك الآن ، فقد نصح نورى على بالانسحاب إلى رابغ . وحينما فعل ذلك ، تبين سبب عدم وصول آلاف الرشاشات وأطنان الإمدادات التى أرسلها البريطانىون إليهم .

وفى رابغ سرعان ما اكتشف على الإجابة على سؤاله الأخير . لقد سرق الشىخ حسين بن مبيرق الإمدادات : فقد كان الشىخ حسين بن مبيرق من زبايد حرب وكان مسئولاً عن الميناء . وكان لابن مبيرق ثأر مع الهاشميين ، وكان أيضاً من المتعاطفين مع الأتراك سرّاً . واستدعى على أخاه الأصغر زيدا الذى حضر مع أحمد ابن منصور وقوة من بنى سالم ، واستولوا على قرى ابن مبيرق بالقوة وعلى المخازن ، وتبعوا الخائن ورجاله حتى فروا إلى الجبال حيث ظلوا هناك كالأرواح الشريرة . وبدلاً من العودة إلى الميدان ، ظل على وزيد هناك فى انتظار انتهاء عزيز المصرى ونورى السعيد من بناء قواتهما ، وتركاً فيصل يواجه الأتراك بمفرده . وأخذ الموقف يتدهور سريعاً . فقد كان لدى فيصل - الذى اتخذ له موقعاً فى درب سلطانى وهو الطريق الرئيسى إلى الساحل - ٤٠٠٠ من القوات النظامية تحت إمرته ، وأيضاً كان بحوزته رشاشات ومدافع مصرية عتيقة بينما كانت مدافع الجبل التركية من ماركة كروب متفوقة عليها بقدر كبير . وكانت قوات فخري فى المدينة قد بلغ مقدارها ثمانى كتائب كان لديها ستة عشر من مدافع الجبل واثنين من معدات الميدان الثقيلة . وكان الفضل يرجع إلى السكك الحديدية التى مكنت الأتراك من نقل قوات جديدة طوال الوقت . ولم يكن باستطاعة قوات فيصل مواجهة قوات الأتراك ومن ثم أرسل الشرىف جماعات من الغزاة يمتطون الإبل بقيادة الشرىف على بن حسين من قبيلة الحارث ، وكان شاباً معروفاً بضراوته ، من أجل إقلاق راحتهم ليلاً بضربه مواقع الحرس والقوافل والاختفاء فى التلال . وعلى حين خسر العرب الكثير من القتلى ، فلم يكذ الأتراك يشعرون «بوخزات الدبابيس» هذه . وبدأ بدو فيصل فى الذوبان آفلين إلى خيامهم وقراهم . ولم يكن بوسع فيصل أن يمنعهم إذ إنه كان قد استأجرهم على أساس يومى ولم يكن لديه من النقود ما يدفع به أجورهم . وعند نقطة معينة ، أجبر على إحضار صندوق ملاءة بالحجارة الثقيلة وعين عليه حارساً طوال الليل لإيهاهم بقدرته على الإيفاء بالتزاماته . وشعر فيصل أن

غاية ما في استطاعته هو الصمود لأسابيع ثلاثة أخرى، أما إجباره الأتراك على الانسحاب للمدينة فكان من ضروب المحال. وفي نهاية أغسطس ركب إلى الساحل حيث التقى بالليفتاننت كولونيل سيريل ويلسون الذي كان قد تم تعيينه كممثل بريطاني في جدة. وكان أصلاً حاكم إقليم البحر الأحمر في السودان، وأُرسل إلى جدة متحدثاً باسم السير ريجينالد وينجيت، الضابط المسئول عن إمدادات الهاشميين في ميناء بورسودان المجاور، وكان هذا أول لقاء فيصل بالضابط البريطاني حيث شكاه له باستفاضة عن حاجته إلى الذخيرة والإمدادات التي كانت من المفترض أن تصله من رأس الجسر الساحلي في رابغ. وكان بحاجة إلى رشاشات ومدفعية حديثة وطائرات، بالإضافة إلى وجود قوات بريطانية في رابغ. فقد كان من الواضح أن الأتراك يستعدون للتقدم باتجاه مكة، حيث ستكون رابغ، وهي مصدر المياه الأساسية على درب سلطاني، حجر العبور. وكان الجند النظاميون العرب غير مستطيعين إحكام قبضتهم عليها بعد، ولم يكن ذلك بمقدرة البدو. ورأى فيصل أن إنزال فرق بريطانية مدربة هو الحل الوحيد. ووافق حسين على ضرورة مثل هذا الإنزال لكنه اعتقد بوجوب أن يقتصر عدد القوات على ثلاثمائة رجل فقط. فقد كان يخشى من السماح لجند مسيحيين، أو مسلمين يعملون تحت إمرة المسيحيين، أن يهبطوا في مجموعات كبيرة على الأرض المقدسة لأن الأتراك الذين كانوا قد عينوا الشريف المنافس لحسين، على حيدر، أميراً لمكة، كانوا قد أعلنوا أن حسين قد خان القضية بتحالفه من البريطانيين الكفرة. وكانوا ينوون فور استيلائهم على مكة شنق حسين علناً بصفته خائناً، وتدشين على حدير أميراً. وفي سبتمبر، التقى فيصل بويلسون للمرة الثانية وكان برفقته إيه. سي. باركر الذي كان قد نقل إلى الحجاز كضابط مخبرات. وكرر فيصل الإلحاح في طلب إنزال قوات بريطانية في رابغ. ونظراً لأن ويلسون وباركر اقتنعا بقرب انهيار الثورة العربية فقد أسرعوا إلى القاهرة لحث مري Murray على إرسال قوة بريطانية. ولم تكن القوة قد وصلت حتى نهاية سبتمبر، وبدا تقدم الأتراك نحو مكة وشيكاً مع اعتدال الجو. فقد كان كل ما في طريق تلك القوة الساحقة هم جماعة بدو فيصل الهزيلة الممزقة المختبئة في التلال.





---

« انقضت في وسطهم كالحسام »

---

المهمة الأولى في الحجاز أكتوبر ١٩١٦

# 12

في عام ١٩١٦ ، كانت

جدة ميناء ضئيلاً مسوراً تبلغ

مساحتها نصف ميل مربع فقط. أما

الآن ، فهي مدينة مزدهرة تبلغ

مساحتها عدة مئات أضعاف ما كانت

عليه ويخدمها مطاران دوليان ، وتكاد

تغرق تحت سيل مزعج من السيارات .

وطرت إلى هناك وقيظ الصيف

في أوجه .

ولدى وصولي التصقت الرطوبة بجسدى مثل السترة. إلا أنه كان من دواعي سرورى أن أجد أنه قد تم الإبقاء على بعض الأجزاء المتفرقة من الميناء القديم. وكان قد بطل استعمال البحيرة الضحلة المتصلة بالبحر، والتي كانت رائحة الكبريت العفنة مازالت تتصاعد منها، كمرفأ للسفن. إلا أن ثمة بعض هياكل سفن متشابهة كانت مازال هناك على طول أرصفة الميناء. أما بوابة البحر القديمة، والتي كان لورانس قد دخل منها إلى المدينة قد تم ترميمها وبقيت أثراً. وشاهدت، بين المراكز التجارية مكيفة الهواء، والممرات الرخامية، نماذج من بنايات المساكن العالية الباروكية الطراز التى بنيت من الحجارة المرجانية والجيرية، والتي وصفها لورانس فى «أعمدة الحكمة». وكان بعضها ذا مساحات متواضعة ينتظم وسط مبانى حارات السوق الضيقة ويبدو مهدداً لأنه متهالك، بينما كانت البنايات الأخرى واسعة، لها سمات القصور، ذات واجهات ممتدة، وأبواب ثقيلة من خشب الساج المنحوت، ونوافذ خشبية مقوسة، ومشربيات مثل فلاتر الضوء الضخمة، وأشكال

تحاكى الشرفات و«الدرابزين»، وأشكال أخرى خشبية كبيرة لنوافذ وبوابات تحيط بواجهات المباني بأكملها. وتجولت فى مناطق المشاة فى حرارة الصيف القائظة الرطبة وأنا أشعر بالسعادة لابتعادى عن ضوضاء السيارات، وحاولت أن أتخيل أننى رجعت إلى الزمن الماضى. ففى عام ١٩١٦ كانت هذه الحوارى، بالطبع، مظلمة، أو ممرات غير ممهدة تظللها أقمشة الأجولة التى يتسلل منها الضوء على شكل أشعة ذهبية، وتسدها الحمير والإبل المحملة؛ وتزدحم أثناء موسم الحج برجال حلقى الرءوس من كل الأجناس: أتراك، وبلوخستانيين وهنود وفارسيين، وآخرين من الملايو وجاوة، وأفارقة من زنجبار والسودان. إلا أن لورانس وجد جدة مدينة مهجورة فى أكتوبر عام ١٩١٦ وكتب قائلاً: «كانت خامدة، متوترة، مترقبة... مدينة شبحية حيث كانت الأبواب تغلق دون صوت لدى اقترابه. وتتبع طريق مسيرته وأنا أتحاشى السيارات وعشرت على المنزل الذى كان مقراً للبعثة البريطانية، وكان مبنى شبه مربع ذا نوافذ شبكية محفورة جيداً، وكان مطلياً باللون زاعقة، إلا أنه لم يكن مثل منازل السوق التى لا تخضع لنسق، الأمر

الذى كان مصدر جاذبيتها. كان قد تم ترميم المبنى بقدر كبير من الحماس وأصبح متحفاً للبلدية، وكان يقع على جزيرة مثلثة في طريق الميناء الدائرى فى مواجهة السوق التجارى الكبير ذى الواجهة الزجاجية، وبدا قزماً بجوار جانب من برج البنك الأهلى التجارى المصنوع من الأسمنت والزجاج.

وكان لورانس وستورز قد وصلا إلى مبنى البعثة البريطانية فى الساعة التاسعة والنصف من صباح يوم ١٦ أكتوبر عام ١٩١٦ ليجدا سيريل ويلسون جالساً فى غرفة مظلمة خلف نافذة شبكية مفتوحة. وكان ويلسون، فى جوهره، رجلاً صادقاً شريفاً مستقيماً، اعتقد أن ستورز كان عاجزاً ومراوفاً، وأن لورانس، الذى كان قد التقى به مرة فى القاهرة، شخص يتظاهر بمعرفة كل شىء و«جحش صغير شديد الغرور». وكان يعلم أنهما لا يشاركانه رأيه بضرورة إنزال قوة بريطانية فى رابغ. وكان يشعر بالخرج من عدم إيفائه بوعدده لفیصل. كما أنه رتب لقاء مع عبد الله الذى كان قد عاد منتصراً من الطائف ونصب خيامه عند مقبرة حواء على بعد أربعة أميال من المدينة. وركب ويلسون وستورز إلى خارج المدينة فى ذلك الصباح لمقابلة الشريف الذى جاءهم فمتطياً جواداً أشهب ودخل من بوابة جدة فى رفقة عدد من العبيد. وكان يرتدى ثياباً أنيقة مكونة من غطاء رأس من الحرير الأصفر وعباءة من وبر الجمل وثوب من الحرير الأبيض وحذاء من الجلد اللامع ذى رقبة تصل إلى الركبتين. وترجل عند مبنى البعثة البريطانية، وحضر اجتماع مع ستورز ولورانس وويلسون وعزيز المصرى رئيس الأركان الهاشمية الذى كان قد سافر إلى هناك مع ستورز، والسيد على باشا، الجنرال المصرى الذى قاد المدفعية فى التلال مع فیصل. وبعد أن وصف الأحوال فى الحجاز، كشف عبد الله عن قلقه بشأن الخطر الذى يتهدد رابغ. فلو حدث تقدم تركى لضاعت كل الانتصارات التى اجتهد العرب فى تحقيقها؛ فلم يكن سكان المدن جميعهم من مناصرى الهاشميين. كما كانت هناك مجموعات من البدو أنفسهم من جماعات حرب والبلى وبعض الجهينيين الذين لم يكونوا موضع ثقة وقد يلحقون بصفوف الأعداء بسهولة. واستعلم بقلق عن إمكانية إنزال قوة بريطانية كان قد وعد بها مراراً فى رابغ. وكانت تلك هى اللحظة التى كان ستورز يخشاها سراً. فقد كان السير آرشيپولد مرى، القائد العام البريطانى فى مصر، هو من استنكر بعنف فكرة إرسال جنود بريطانيين فى اجتماع

له مع ويسلون في الإسماعيلية يوم ١٢ سبتمبر، بحجة أنه كان بحاجة إلى قواته من أجل مهمة خطيرة هي حماية قناة السويس، وكان يخشى تصاعد عمليات جانبية لا يمكنه السيطرة عليها، كما حدث في غاليبولي، تبتلع الأسلحة التي قد يحتاجونها في أماكن أخرى. وكان مري يرى أن الهاشميين قد أفسدوا «الثورة» وأرسل برقية إلى الجنرال روبرتسون رئيس الأركان الإمبراطوري في لندن يقول فيها: «لقد أفسد الشريف الأمور، كما هو متوقع. ومن المحتمل أن يتمكن الأتراك من قمع الانتفاضة رغم الأعداد الكبيرة التي حشدت لمجابهتهم. ولا أعتقد أنه يجوز لنا إرسال قوات إليهم.. فلن نتوقف الطلبات إن بدأنا نحن إرسال قوة مشاة، فستليها المدفعية، ثم المهندسون، ثم جميع مؤن الحملات». وكان ويلسون وباركر يضغطان لإنزال قوة بريطانية، وكان مري يبغض مثل هؤلاء الخبراء بغضاً تلقائياً تقليدياً، فكتب يقول «لا أثق في أحكام أى مسئول عن الأمور العسكرية قضى الجزء الأول من حياته العملية في هذه البلدة (مصر)، رجال مثل ويلسون وباركر اللذين يعملان الآن مع الشريف. فمثل هؤلاء مستعربون جيدون يعلمون عادات وتقالييد البلد، إلا أن توصياتهم العسكرية عديمة الجدوى ولا يمكن تنفيذها». وكان مري قد رفض توصياتهما رفضاً قاطعاً، ودعم روبرتسون قراره في لندن. وكانت مهمة ستورز المخرجة هي أن يبين لعبد الله أن الأمر لن يقتصر فقط على عدم إرسال القوات، بل إنه قد تم تعليق إرسال مبلغ العشرة آلاف جنيه استرليني التي كان قد صدر قرار منحها له، كما تم سحب سرب الطائرات الذي كان قد أرسل إلى رابغ. وكان ستورز يعلم أن عبد الله سيعتبر هذا مرادفاً للخيانة. إلا أن ستورز سجل في مذكراته أن عبد الله تقبل هذا «كجنتلمان من الطراز الأول. فلم تكن اللحظة التي أبلغناه فيها بالنكوص عن وعدنا بإمداده بالقوات، بل وسحب الطائرات أيضاً، لحظة محببة، ولا أود أن أظهر حكومة جلالة الملكة لعربي في هذا الضوء مرة أخرى». أما الواقع، فقد كان عبد الله مندهشاً وغاضباً، وذهب من فوره، بعد اللقاء، إلى الكولونيل برموند، الذي كان قد وصل لتوه ليكون مسئولاً عن البعثة العسكرية الفرنسية. وألمح عبد الله له أن الهاشميين قد يضطرون إلى السعي للصلح مع الأتراك نظراً لرفض البريطانيين مساعدتهم. وشعر برموند أنه إذا انسحب العرب من الصراع، فقد يطالب البريطانيون بأراضي الشرق الأدنى لهم

وحدهم في حالة تحقيق النصر . فلم يكن باستطاعة الفرنسيين سحب أعداد كبيرة من الجنود من الجبهة الغربية للقتال ، أما الفرقة الفرنسية الصغيرة في جدة ، فقد انحصرت أهميتها في أنها هي التي ستضمن لهم مكاناً في مؤتمر الصلح فيما بعد . فإن تحتم انسحاب تلك البعثة العسكرية فستتحطم آمال الفرنسيين حول سوريا . وأسرع برموند فيما بعد ، وهو يحمل الأخبار ، إلى ويلسون . وبعد تبادل محموم للبرقيات ، وافق البريطانيون على إعادة النظر في المشكلة .

إلا أن هذا كله حدث فيما بعد . فقد جلس عبد الله خلال الاجتماع إلى النهاية صابراً . أما لورانس ، والذي لم يتكلم سوى قليل ، فقد بدأ بغضه له على الفور . وكما اعترف فيما بعد فقد كان الشريف «على قدر فائق من المهارة . كما كان يعلم أن عبد الله هو ساعد والده الأيمن ، وأن له شعبية كبيرة بين العرب . وكان مُحركاً أولياً للثورة منذ البداية وفي الواقع ، فإن بالإمكان القول إن الثورة العربية كانت من خلق عبد الله . وكان ، وهو المرح المتفتح ، والمثقف المتحضر ، لا يتوافق مع مفهوم لورانس عن «المتوحش النبيل» . ولم يكن ثمة تشابه بينه وبين داهوم «البريء» . فقد كان قوى الشخصية ، شديد الذكاء ، متمرساً في شئون الدنيا ، مجرباً ، خاض المعارك الدموية ، كما كان لاعب شطرنج من الطراز الأول . أى أن لورانس لم يكن يستطيع منابله والتلاعب به . وأدرك لورانس أنه إن أراد البريطانيون التأثير في الموقف لصالحهم ، فعليهم أن يجدوا رئيساً سورياً ، ويرسخوا أقدامه أو أن يجدوا قائداً يمكنهم تشكيله وفقاً لخططهم . فقد كان يرقب الأمور في الحجاز عن كذب من شهر يونيو ، ويعلم أن الموقف حرج . وقال إن «الثورة كانت متوقفة ، الأمر الذي كان ينذر بكارثة في حالة الحرب اللانظامية» . وكان ، بينه وبين نفسه ، ضد فكرة إرسال قوات بريطانية ، إلا أن أسبابه كانت تختلف عن أسباب مري . فأولاً ، وكدعائي كبير ، فقد كان يعلم أن حرب العصابات تجري على أساس أيديولوجي ، وأن وجود قوات من «الكفرة» على أرض الحجاز سيتسبب في أن يبدو حسين كمرتد ، على استعداد لتسليم المدن المقدسة إلى الكفرة . وثانياً ، وكان هذا أكثر أهمية بالنسبة له ، فلو حارب البريطانيون معركة العرب نيابة عنهم ، فلن يستطيع العرب المطالبة بدولة مستقلة بعد انتهاء الحرب . فلا بد أن يُشاهدوا وهم يقومون بشورتهم . فقد كان لورانس يؤمن إيماناً شديداً بقضية العرب ، إلا أنه رغم رغبته في أن يراهم متحررين



من الأتراك العثمانيين، فمن غير المحتمل أنه قد اعتقد أبداً أنه يجب أن يكونوا مستقلين تماماً. ولم يكن، منذ البداية، يتصور دولة عربية واحدة، بل تكتلات صغيرة تمثل دولا ضئيلة الشأن ذات استقلال صوري، تملأ بشكل طبيعي الفراغ الذي سيتسبب فيه سقوط الإمبراطورية العثمانية في الشرق الأدنى. فلا بد أولاً أن يتحقق النصر في الحرب ثم تلتقي مصالح البريطانيين والعرب عند هذه النقطة وتتفرع من هناك، حيث إن الاثنين يريدان الانتصار على الأتراك. وبذلك، يتمكن لورانس من خدمة أهداف البريطانيين، وأيضاً من تحقيق استقلال العرب وهو يشعر أنه ليس ثمة تعارض بين هذه المصالح لبعض الوقت. وإن نشأ مثل هذا التعارض، فهو، دون شك، يعرف أولويات ولأته. فقد قال لكليتون فيما بعد «أنا مع بريطانيا، وأيضاً مع العرب. وتحتل فرنسا المركز الثالث لدى. إلا أنني أعلم أنه قد يكون علينا أن نبيع أصدقاءنا الصغار كي نخدم أصدقاءنا الكبار، أو أن نبيع أمننا المستقبلي في الشرق الأدنى، كي ندفع ثمن انتصارنا الحالي في الفلاندرز». ورغم أنه قد يكون قد أدرك بينه وبين نفسه أن مشكلة الهاشميين كانت مشكلة سوء قيادة، إلا أنه قرر سراً أنه سيمدهم بالإرشاد الذي يحتاجونه، فقد كان ضابط مخبرات ملتزماً. ولم ير نفسه أبداً وهو «يقود في المقدمة» وكان يؤمن بقوة أن مكانه خلف المكتب. وكان قد أنجز تصميمات ممتازة خلال الأشهر الماضية وقام بطبع عدد من طوابع بريد الحجاز كان هدفها أن تُرسى، في أعين العالم، حقيقة أن الحجاز كانت مستقلة بالفعل.

وكانت مهمة لورانس في الحجاز قد أتمته بشكل غير مباشر. فقد كان الجنرال مري قد أدخل تغييرات في نظامه المخبراتي، حُرم بمقتضاه كليتون من سلطته المطلقة وأوكل إليه شئون المكتب العربي فقط الذي كان يرأسه حينذاك الماجور كينهان كورنواليس. وتضمن هذا التغيير إعادة توحيد قسم المخبرات في القاهرة، الذي كان لورانس أحد أعضائه، ومثيله في الإسماعيلية الذي كان يرأسه الماجور جي. في. دبليو. هولديتش. وكان على المكتب العربي وقسم الاستخبارات أن يظلا هيئتين متميزتين عن بعضهما تماماً. ولم يرغب لورانس في الانفصال عن كليتون، ومن ثم حاول «جس نبض» إمكانية نقله إلى المكتب. وحينما حال

هولديتش دون إتمام النقل ، التجأ لورانس إلى تكتيكات حرب العصابات . فكان يتسبب في إزعاج كبار المسؤولين بأن يصحح أخطاءهم اللغوية الواردة في التقارير ، ويسخر من ضالة معلوماتهم عن جغرافية وعادات الشرق الأدنى . وحدث أن هاتفه أحد المسؤولين في الإدارة ذات صباح وسأله عن موقع إحدى فرق الجيش التركي آنذاك ، أمدّه لورانس بوصف دقيق وكفء عن مكونات الفرق ومواقعها لدرجة أنه حدد أسماء القرى التي كانت تتمركز فيها . وسأله الضابط المسئول « هل ذكرت هذه المعلومات في الملفات الخاصة » فأجابه لورانس « لا ، من الأفضل أن أحتفظ بها في رأسي حتى أستوثق منها » فرد الضابط « لكنك لا تستطيع إرسال رأسك إلى الإسماعيلية في كل مرة » فقال لورانس « أود لو أمكنني هذا » وأنهى المكالمة .

وكانت مثل هذه الحيل نوعاً من العصيان ، ولم تكن تحبب فيه رؤساءه . وأخيراً ذهب بشكواه إلى كليتون الذي وعده أن يطلب من المسؤولين في لندن نقله كي يتخطى هولديتش . وفي تلك الأثناء ، تمكن كليتون من إزاحة لورانس من طريقهم بأن طلب أن « يستعيره » من القيادة العليا . وكانت مشكلة كليتون الكبرى في الحجاز هي أنه ، مع عدم وجود ضباط مخابرات في الخطوط الأمامية ، لم تكن لديه سوى فكرة ضئيلة عما كان يحدث بالفعل أو عن عدد الفرق الحربية المتورطة . وكان ضابط مخابرات الحجاز ، باركر ، محدداً بمدينة رابغ . وأثناء لقائه هو وويلسون مع فيصل ، شعر أن الشريف كان يميل إلى المبالغة ، بأن يدعى ، مثلاً ، بأن الأتراك قد حشدوا قوات تقدر بخمسة وعشرين ألف جندي لجابهته . ومن الواضح أن هذا كان هراء . وفكر كليتون في أمر المبالغات الأخرى التي قد يكون قد تم تمريرها على أنها حقائق . وبالإضافة إلى هذا فلم يكن يثق في أحكام وويلسون أيضاً ، وكان يشك في أنه يقوم بالتلاعب في التقارير الخببرائية لتتفق مع تقديراته هو ، وكان يشك أيضاً في أن وويلسون كان أحياناً يؤلف التقارير بشكل كلي . فلم يكن يعلم مدى التهديدات الواقعية من المدينة المنورة . وكان باركر يضغط على كليتون منذ فترة ليرسل ضابطاً إلى داخل الأراضي كي يحصل على معلومات كان هو في أشد الحاجة إليها ، وكان من الواضح أنه كان يأمل أن يذهب بنفسه . إلا أن كليتون كتب إلى وينجت في ٩ أكتوبر أنه سيتم إرسال ستورز مرة أخرى لمقابلة عبد الله ، وحسين إن أمكن . وأضاف « وأقترح إرسال لورانس معه إن سمحت له

القيادة العامة بالذهاب . فلا شك أنهما سيفيداننا ، وسيحضران ، فيما بينهما ،  
تقديراً جيداً للموقف . وكانا قد غادرا السويس على السفينة «لمعة» يوم ١٤  
أكتوبر . وفيما بعد ، سيزعم لورانس أنه قد ذهب إلى الحجاز بدافع من نفسه كي  
يعثر «على الروح المحركة» للثورة . وكتب أنه قد طلب إجازة مدتها أسبوعان . ومن  
ناحية أخرى ، ادعى ستورز أنه هو الذي طلب لورانس للمهمة ، لأنه ببساطة كان  
يستمتع بصحبته ، ومن ثم ، فإنه هو الذي خلق «لورانس العرب» بالإضافة إلى  
الثورة العربية . وكانت الإجازة حقيقية ، أى أنها كانت تقنية قصد بها الالتفاف  
حول أية معارضة قد يبديها هولديتش إلا أن ادعاء ستورز أنه هو الذي تقدم  
بالطلب نيابة عنه ، وأيضاً ادعاء لورانس أنه قد ذهب بدافع من نفسه ، فزائفان .  
فقد كان المكتب العربى هو الذى أرسله إلى الحجاز فى مهمة حيوية ومحددة .

وكان لورانس يعلم أنه لكى يأتى بتقرير صحيح ، فقد كان عليه زيارة فيصل  
فى درب سلطانى ، ولم ترق له الفكرة إذ كان يعلم أن الحجاز تعج بالخبرين الأتراك  
والمتعاطفين معهم ، وإنه إن قبض عليه ، فستطلق عليه النيران كجاسوس . وإضافة  
إلى هذا ، فلم يكن قد سُمح أبداً لأى ضابط مسيحي ، بمن فيهم ويلسون وباركر ،  
بزيارة الخطوط الأمامية . إلا أنه استعمل كل قوة تأثيره مع عبد الله ، وتظاهر  
بمساندته لوجهة نظر الشريف بضرورة إنزال قوات بريطانية ، وأوحى بشكل غير  
مباشر أن القرار بعدم إرسالها لم يكن نهائياً . وتجادل قائلاً إنه إذا سمح له  
بالحديث مع فيصل ورؤية الموقف بنفسه فقد يتمكن من مساندة قضية عبد الله  
بشكل أكثر إقناعاً . وكان عبد الله يشك فى أمره . ومن ثم ، هاتف حسين فى مكة  
ليسأله رأيه ، وتلقى الشريف الاقتراح بعدم ثقة . وكانت هذه هى أكثر اللحظات  
حسماً فى حياة لورانس كلها : ولو أن عبد الله أنهى المكالمة فوراً لانتهدت القصة  
عند هذا الحد . ولعاد لورانس إلى مكتبه بالقاهرة غير آسف ، ولم يكن للكولونيل  
لورانس أو «لورانس العرب» أن يولد أبداً ، إلا أن عبد الله ، لسبب ما ، لم ينه  
المكالمة . وجادل والده فى هذا الأمر ، ثم أعطى السماع لستورز الذى دعم الفكرة  
بكل ما يملكه من وسائل إقناع . ووافق الشريف بتراخ ، وضد جميع مبادئه ، أن  
يذهب لورانس إلى وادى صفراء ليزور فيصل . ولم يكن ثمة مجال للتراجع : فقد  
حُسم الأمر ، ووجدت الأسطورة التى كانت فى سبيلها إلى التكوين ، طريقها .

فى عام ٦٢٤م اشتبك جيش محمد (ﷺ) مع قوة للأعداء فى بدر حيث يلتقى وادى صفراء مع السهل الساحلى . وكان عدد المسلمين حينذاك قليلاً، ولو أنهم خسروا المعركة فى بدر لكان ذلك أمراً جليلاً فى تاريخ مسيرة الإسلام . وبعد ألف عام من الواقعة، وجد أحفاد الرسول أنفسهم فى موقف مماثل . وفى عام ١٩١٦ كان الشريف فيصل وقواته من البدو ينسحبون ببطء فى وادى صفراء تطاردهم قوة تركية . ولو أن الأتراك قاموا بهجوم شامل مضاد فى تلك اللحظة، لكان من المحتمل أن يخرقوا السهل الساحلى ويستولوا على رابغ ثم مكة، ولانتهت بذلك الثورة العربية .

وكانت بدر فى زمن الرسول محطة هامة للتزود بالمياه فى الطريق إلى مكة . إلا أنها قد تحولت اليوم إلى مجرد موقف للشاحنات فى طريق السيارات ليس به مكان للإقامة . وصلتُ إلى هناك قادماً من جدة فى حافلة فى وقت متأخر من ليلة قائظة رطبة، ووقفت إلى جانب الطريق لمدة ساعة وأنا أحاول يائساً أن أشير إلى أى سيارة عابرة لتتوقف . وفى النهاية، ابتعت زجاجتى مياه، وسرت على الأسفلت لمسافة ميل حتى عثرت على بقعة رملية جافة حيث قمت بافتراش كيس النوم بعد أن تجنبت حية وعقرباً . إلا أن القىظ لم يمكننى من النوم، فرقدت أرقب النجوم حتى الصباح . ولدى انبلاج الضوء، وجدت أننى فى واد به رقع من أشجار الشوك والطرفاء، وكانت ترتفع فيه قواعد تلال جرانيتية شديدة الانحدار تلمع واجهاتها المنحوتة بزوايا حادة متوهجة فى ضوء الشمس المبكر وكأنها جواهر مقطوعة . وكانت المنحدرات المنخفضة مغطاة بأعشاب رعى الماعز ذات اللون الأصفر الخردلى، والذى بدا عن بعد وكأنه بقع من آثار مرض جلدى تشوه الصخور . وأوضحت لى هذه الأعشاب المائلة للصفرة لغز اسم وادى الصفراء . ثم سرت عائداً إلى موقف الشاحنات . وبعد نصف ساعة من الانتظار وافق بدوى شاب من بنى حرب على أن يوصلنى إلى حمراء والمدينة بعربته نصف النقل نظير مائة ريال . وانفتح درب سلطانى، وهو الطريق الذى يزحف بامتداد وادى صفراء، أمامى كممر متعرج يتجه بثبات إلى أعلى إلى أن يصل «بانوراما» متسعة شاهداها أمامنا، مشهد فضى ورمادى، كأواج متعاقبة من السحب تمتد فى المدى البعيد حتى بدت وكأنها تندمج مع السماء نفسها . ومررنا بقرية تلو الأخرى

منازلها من الطين المعالج بالحرارة، وهي الآن تقف دون أسقف على جانبي الوادي الصخري وسط غابات من أشجار نخيل البلح: قرية الجديدة والحسينية والواسطة والخرمة. وكانت هذه القرى في أيام لورانس في قلب منطقة بني سالم، وكانت تنتج تقريباً كل ما تحتاجه القبيلة من غلال وتمر. وكان البدو يقيمون في القرى لمدة خمسة أشهر في العام ويقضون بقية الأيام متجولين مع قطعان ماشيتهم ويتركون القرى في رعاية عبيدهم الذين كانوا في غالبيتهم من أصل إفريقي ولم تكن لهم مكانة قانونية وكان عددهم، وقت زيارة لورانس، ما يقرب من العشرة آلاف فرد.

وسألني السائق البدوي عن مهمتي، وحينما ذكرت «لورانس العرب» تساءل «من؟» وأجبت «رجل إنجليزي ساعد في قيادة الجيوش العربية أثناء الثورة العربية العظمى». فتساءل ثانية «ماذا؟» وأجبت «لدى وجود الهاشميين هنا» فرد قائلاً «آه، الهاشميون. لقد كان هذا منذ زمن طويل، إن هذا البلد الآن هو بلد السعوديين».

وتساءلت بيني وبين نفسي عما إذا كان هذا الرجل يتظاهر بالبلاهة أم أن الذاكرة القبلية قد أصبحت بالفعل قصيرة المدى. فقد كان بنو سالم، الذين كان ينتمى إليهم، إحدى العشائر الرئيسية في قبيلة بني حرب وهي قبيلة لها مكانتها في الحجاز. وقد حارب أجداد هذا الشاب، وإخوان أجداده بالفعل مع فيصل، على حين ساندت جماعة أخرى من بني حرب الأتراك. وكانت هذه الجماعة منافسة لعشيرته بقيادة «الخائن» الشيخ ابن مبيرق. وتذكرت فيما بعد أن بني سالم كانوا هم من هربوا من خدمة الأتراك في اللحظة المناسبة. وربما رأت القبيلة أنه من الأفضل تناسي هذه الذكريات.

وأدهشتني حمراء. فلقد كنت قد تخيلتها قرية ضئيلة تقع في شق على جانب الوادي. إلا أن مساحة المكان كانت هائلة، حيث كانت هناك آلاف من أشجار النخيل التي كانت رءوسها تتحرك مع اتجاه الرياح مثل أعشاب البحر. وكان اتساع الوادي حوالى نصف ميل ويقع بين جدارين صخريين شديدي الانحدار. وكانت المنازل المهدامة تقع على حافة صخرية أسفل الرعن (أنف الجبل) الشمالي

وعلى تلال ترابية ترتفع من بطن الوادى بانحدار شديد . وكان لورانس قد ذكر أن عدد تلك المنازل هو مائة وخمسون ، إلا أنه من الواضح أنه يوجد منها مئات كثيرة ، كما كان هناك بقايا حصن تركى ، جدعة طينية لا شكل لها تقع على جزيرة فى بحر النخيل . ولأجيال عديدة ، كانت هذه القرية محطة على طريق الحجاج من ينبع البحر إلى المدينة . وحينما توقف ريتشارد بيرتون هناك وهو مُتخف كطبيب فارسى عام ١٨٥٢ ، كان يحرس الحصن فرقة من الجنود الألمان . وتسقلت الصخرة ، وسرت متعشراً فى منطقة مكتظة بالحوائط الطينية المتكسرة المائلة والتي تآكلت بفعل الأمطار واتخذت أشكالاً سورالية . وحاولت تصور ما كانت عليه هذه القرية فى أكتوبر عام ١٩١٦ حينما كان الوادى يعج بقوات فيصل المهزومة ، وثلاثة من راكبي الإبل ، أحدهم شخص إنجليزى كان قد ظهر فجأة على أطراف القرية .

فقد غادر لورانس ورفيقاه رابغ فى ٢١ أكتوبر تحت ستار الظلام . وكان الناظر عن بعد قد يظنهم بدواً حيث كان لورانس يرتدى غطاء رأس عربى ويخفى زيه العسكرى بعباءة . . إلا أنه كان من الممكن التعرف عليه عن قرب كشخص إنجليزى . فلم يكن فقط حليقاً ذا وجه تشوبه الحمرة ، لكنه كان أيضاً لا يعلم شيئاً عن ركوب الإبل . وكان قد فضل السير على قدميه حينما وجد أن عليه أن يسافر ممتطياً جملاً فى النقب قبل ذلك بعامين . وكان الشريف على قد أمدته على مضض بأفضل نوقه ومرافقين من بنى سالم وهما الشيخ عبيد وابنه عبد الله لاصطحباه إلى معسكر فيصل . ورغم أنه كان من المفترض أن يتخفى لورانس كشخص سورى إلا أن عبيد أمره ألا يتحدث إلى أحد . فقد كانت الصحراء والتلال مليئة بالجواسيس الأتراك ، وكان ابن مبيرق « الخائن » ، الذى كانوا قد مروا من منطقة عشيرته ، سيسعده قتل لورانس أو بيعه للأتراك . وعبر المسافرون مناطق نخيل رابغ ، ثم ساروا فى سهل تهامة الساحلى الممتد بلا نهاية . ولم يكن ثمة قمر ، وكان الليل يتشاءب لا متناهيأ أمامهم ولا يقطع صمته سوى إيقاع أظلاف الإبل على سطح الرمال . وحينما احتوتهم الظلمة ، شعر لورانس فجأة بالترقب . فقد ولج بعداً معادياً مجهولاً لم يلجه سوى أوربيين قلائل ولم يغادره أحياء سوى عدد أقل . ولم يكن متأكداً أنه يثق فى رفيقيه . وكان ، بالطبع ، يعلم أن دور الرفيق كان

دوراً وقوراً بالنسبة للبدو . فقد كان على كل مسافر يريد عبور تخوم قبيلة ما أن يكون معه رفيق من القبيلة المحلية أو القبائل المتحالفة معها كي يسهل له المرور . لو هجم الرفيق على من قبل تولى مسئوليته لاعتبر هذا إهانة شائنة لميثاق الشرف البدوي . وكان إذا ثبت أن بدوياً قد ارتكب جريمة «البوق» تم نبذه مدى الحياة ولا يقبل للزواج من نساء جماعته . وفي مجتمع قبلي ، كان وجود الفرد دون قبيلة يعني حكماً بالموت ، لأن أي قاطع طريق يمكنه أن يقتله دون خشية بدء نزاع ثأري . وقد كان هذا هو العرف الاجتماعي الوحيد في الجزيرة العربية الذي حال دون سفك الدماء على نطاق واسع ، إلا أن لورانس ذكر نفسه أن القواعد التي اتبعها البدو ، مثلها مثل ميثاق شرف «الجنّلمان» في إنجلترا ، كانت مثلاً فقط . فمثلاً ، كان قد تم اغتيال الرحالة الألماني تشارلز هوبر الذي سلك نفس الطريق على يد رفاق من جماعة حرب حينما اكتشفوا أنه لم يكن مسلماً .

وناموا لساعات طويلة هذه الليلة وهم يلتحفون عباءاتهم . واستيقظوا في برودة الفجر ووصلوا إلى بئر مستورة مع إشراق ضوء الصباح الباكر . وكان بعض من أفراد جماعة حرب المعادية يربضون تحت ظلاله من سعف النخيل . وتبعث أنظارهم جماعة لورانس بريبة وهم يمرون . ثم نزل لورانس ورفيقاه عن مطياتهم وجلس هو في الظل . واصطحب عبید وولده النوق لسقيها من بئر حجرية عمقها عشرون قدماً كانت قد أقيمت مواطئ للأقدام على جانبيها في عمقها . وجمع عبد الله أطراف دشداشته في حزام الطلقات ، ثم علق قربة الماء المصنوعة من جلد الماعز على كتفيه ونزل البئر وهو يستشعر مواطئ الأقدام على جانبي البئر بمهارة . ثم ملأ القربة وتسلق صاعداً بثقة السحالي وصب المياه في حوض صخري . وحينما ارتوت الحيوانات ، حمل عبید طاسة مليئة بالماء إلى لورانس . وبعد ذلك شرب الرفيقان وجلسا مع لورانس في الظل يراقبون رجال القبيلة المنافسة وهم يروون قافلة من النوق الهزيلة ثم لف عبد الله سيجارة لنفسه .

وفي تلك اللحظة دهمت لورانس رؤية معينة . فبينما كانوا يراقبون ما يحدث ، كما كتب لاحقاً ، أتى شابان على جملين أصيلين عليهما أسراج فاخرة ، وأناخاهما بجوار البئر . وألقى أحدهما ، الذي كان يرتدى عباءة من الكشمير الفاخر ، بالمقود

إلى الآخر وأمره أن يسقيهما. وسار النبيل الشاب بكبرياء إلى حيث كان يجلس لورانس ورفيقاه وارتقى على عَجْزِه بجانبهم. كان الرجل نحيلًا، أقرب إلى أن يكون صبيًا، يظهر عليه ميل للمشاكسة وله ملامح المحب للاستطلاع، وشعر طويل مجدول بالأسلوب البدوي. وكان يبدو قويا وعلى قدر هائل من الثقة بالنفس. ثم قدم للورانس سيجارة كان قد لفها ولصقها لتوه، واستعلم عما إن كان سورياً. وترك لورانس السؤال معلقاً في الهواء وسأل الشاب إن كان من مكة. وفي تلك الأثناء، كان رفيقه يجد صعوبة في سقيا الإبل. وكانت قطعان جماعة حرب المعادية تندفع بشراسة حول الحوض الحجري، ولم يعط رعاة إبلهم الفرصة للشباب ليسقى جمليه كما كان يقتضى ميثاق شرف المسافرين. وهنا صاح السيد متسائلاً «ما الخطب يا مصطفى؟ اروهما فوراً». فاقترب مصطفى منه وهو محرج وأخذ يشرح له كيف أن الرعاة الآخرين لم يسمحوا له بالسقيا. وعندئذ قفز الآخر واقفا وتلفظ بقسم وقام بضربه ثلاث أو أربع ضربات بعصا على كتفيه. وبدا مصطفى متأسياً. إلا أنه ظل صامتا. ورأى رجال جماعة حرب المعادية حول البئر أن عدم لياقتهم قد تسببت في إذلال الصبي، لذا أسرعوا بإفساح مكان له عند البئر وأطعموا جمليه بعض العشب. وبعد أن أكل الجمالان وارتويا، تسلق «السيد» الصغير على جملة من غير أن ينخيه، بل إنه جذب رأسه إلى أسفل بلطف ثم صعد على رقبته وقال لرجال حرب «جزاكم الله خيراً» وسار هو ورفيقه باتجاه الجنوب.

وبمجرد أن ذهبوا بدا عبيد يضحك ضحكاً خافتاً. وبعد أن امتطى لورانس ورفيقاه جمالهم وساروا باتجاه الشمال بين له عبيد أن «السيد» هو الشريف على ابن حسين الحارثي، وأن مصطفى هو ابن عمه الشريف محسن. وكان الشريف على نائب فيصل الموثوق به، ورغم حداثة سنه، فقد اكتسب صيتاً غير عادي لشجاعته. وكان أحد حراس فيصل الشخصيين المختارين في رحلته إلى دمشق، وحارب إلى جانبه، أوائل شهر يونيو في السهول الدموية خارج المدينة. ثم قام فيما بعد، بشن الغزوات ضد التقدم التركي عند بير درويش. وكان بين أفراد جماعة الحارث وجماعة حرب المنافسة عداوات ثأرية. ولو أن الرعاة قد شكوا في أمر هويتهما الحقيقيتين عند البئر لقاموا بطردهما. وقال عبيد إنهما اخترعا



تمثيلية السيد والتابع لخداع الآخرين . وأثر الشريف على فى لورانس تأثير السحر . واستمرت صورة المحارب الصبى «النبيل» التى لحها عند مستورة فى رحلته الأولى فى الصحراء تأسره طوال الوقت الذى قضاه فى بلاد العرب .

ومثل الأحداث الأخرى المشكوك فى أمرها فى رواية لورانس ، لا تظهر قصة اللقاء مع الشريف على فى التقارير الرسمية رغم أن لورانس كان يقوم بتسجيل تفاصيل أقل أهمية بكثير . وتأتى هذه الرؤية فى «أعمدة الحكمة» لتعد المشهد لعالم من الخداع والصراع والقسوة وجد لورانس نفسه فيه آنذاك : عالم شباب حسنى المظهر يلتجئون باستمرار إلى استعمال العصا ؛ عالم قبائل ، بينها عداوات ثارية ودموية ، قبائل لا يمكن توحيدها إلا بتأثير هائل . إلا أنه من غير المحتمل أن يكون عبيد قد تعرف على هوية الشريفين من بنى حارث ولم يعرفهما أعداؤهما حول البئر . فقد كان البدو على قدر كبير من قوة الملاحظة ، لا تفوتهم أية تفاصيل ، رجال باستطاعتهم تذكر أثر كل جمل رأوه ، والتعرف على العائلات والعشائر من مجرد الفروق فى الطرق التى يشبتون بها غطاءات رءوسهم . فلا يحتمل إذا أن يكون قد خدعهم عرض هاويين . وكان لابد أن يتبينوا أنهما ليسا مجرد سيد وخادم من مظهر مصطفى ومشيته وثيابه وسرج ناقلته وعديد من التفاصيل الصغيرة الأخرى . ثانياً ، فإن للقصة هذه صدى شائعاً معتاداً فى عديد من قصص «أعمدة الحكمة» الأخرى . فالألاعيب الصبائية للشريفين الشابين هى مقدمة «لشقاوة» خادمى لورانس «فرج وداعود» كما أنه يمكننا تبين العنصر المازوكى - «الخنوع» و«الإذلال» وضرب أحد الصبيين - بوضوح . ويلعب الجلد والإذلال العلنيين دوراً كبيراً فى قصة «فرج وداعود» . ونخرج من قصة على الحارثى فى «أعمدة الحكمة» بصورة للشريف كعربى الصحراء الأنيق الجذاب ؛ أى البدوى الأرستقراطى المقابل لداهوم الذى عشقه لورانس قبل الحرب . إلا أنه يبدو من المحتمل على الأقل ، أن هذه الرؤية للجمال الذكورى التى ادعى لورانس أنه خبرها عند مستورة ، لم تكن أكثر من رؤية داخلية ؛ إذ إن الظهور الأول للشريف على فى مفكرة لورانس الميدانية كان يوم ٨ مارس عام ١٩١٧ ، أى بعد تلك الواقعة بخمسة أشهر . ويصف لورانس الشريف فى هذا المدخل من المفكرة الذى كتبه بخط يده ، كما لو أنه قد رآه للمرة الأولى .

وبمغادرتهم مستورة، خرجت المجموعة من نطاق فرع قبيلة حرب الأعداء إلى تخوم بنى سالم حيث كان رفيقا لورانس ينتميان. وأشار عبيد إلى الصخرة التي كانت تمثل الحدود، مبينا للورانس بداية تخوم قبيلته. أما ما سبب دهشة لورانس، فهو أنه رغم أن الأوربيين كانوا ينظرون إلى الصحراء على أنها برية قاحلة، إلا أنها كانت موطناً للبدو حيث كان لكل شجرة أو صخرة، أو تل، أو عين ماء مالك. ورغم أن عادات البدو كانت تسمح للمسافرين أن يقطعوا الحطب أو يسحبوا مياهها للارتواء، فقد كان الويل كل الويل من نصيب أى فرد غريب يحاول استغلال ذلك. وبدأ لورانس يشعر بإجهاد الرحلة عند الظهيرة. فآلمه ظهره وسيقانه من نخعات الجمل. وتقرح جلده من حرارة الشمس. وآلمته عيناه من التحديق فى حجارة الصوان المتأججة طوال الصباح. فقد كان قد قضى عامين فى مدينة القاهرة متنقلاً بين الفندق والمكتب. وتحقق أنه قد ألقى به فى الصحراء فجأة دون أدنى إعداد. وعند مغيب الشمس، وصلوا إلى قرية مكونة من منازل مقامة من الأعشاب تدعى بير الشيخ، وتنتمى لقبيلة بنى سالم. وأناخ البدو الإبل إلى جانب أحد الأكواخ واستقبلتهم امرأة قادتهم إلى مكان يجلسون فيه وأوقدت نارا خارج المكان. ثم ذهب عبيد واستعار بعض الدقيق وخلطه بالماء فى وعاء ثم عجنه فى شكل بيضاوى مسطح وقام بدفنه بحذر فى الرمال أسفل جذوات النار. وبعد عشرين دقيقة أزاح الرمال، وأخرج الرغيف الساخن المخبوز ومسحه بيده ليزيل آثار الرمال وقسمه بين ثلاثتهم. ولم يكن صحيحاً ما ادعاه لورانس فيما بعد أن البدو يعتقدون أنه من غير الرجولة أن يأخذ المرء إمدادات لرحلة قدرها أقل من مائة ميل. فالحقيقة أن البدوى لا يهتم بأن يأخذ معه طعاماً وهو مسافر فى تخوم قبيلته لأنه يثق تماماً أنه سيحصل على إمدادات من أفراد القبيلة أثناء رحلته. وكانت «اللبة»، أو الخبز غير المختمر، هو طعام البدو المعتاد وسيصبح فيما بعد مألوفاً للورانس. أما حينذاك، فقد أكل قليلاً وحافظ قدر إمكانه على حسن اللياقة فى تصرفه. وفيما بعد، دعاه عبيد لينظر إلى بعض الآبار القريبة، إلا أنه اعتذر نظراً لأن عضلاته كانت متعبة من ركوب الجمل.

وكان مازال عليهم أن يقطعوا مسافة أخرى تلك الليلة. وفى الفجر، وصلوا إلى بير ابن حسانى، وهى قرية أحمد المنصور من كبار شيوخ بنى حرب. وبينما

كانوا في طريقهم أتى إليهم راكب جمل كان خارجاً من القرية وسار بمحاذاتهم، وأخذ يوجه إليهم سلسلة من الأسئلة أجابه عليها عبيد وابنه باقتضاب وعلى غير رغبة منهم. وأصر الإعرابي، وكان يدعى خلف، على تناولهم الطعام معه، وأجبرهم على إناخة إبلهم. وأتى بوعاء حديدي من خرجه ملئاً بالخبز المغطى بالزبد والسكر، وقدمه لهم. وبعد أن انتهوا من طعامهم أخبر الإعرابي لورانس أن فيصل قد أجبر على التراجع، في اليوم السابق، من بير عباس إلى حمراء على مسافة غير بعيدة منهم، وأخذ يذكر أسماء المصابين من القبائل. وحاول أن يجذب لورانس للتحديث معه بأن سأله عما إن كان يعرف أيّاً من الأشخاص الإنجليز في مصر. وأجابه لورانس بلهجة حلبية، وأخذ خلف يسأله عن سورين كان يعرفهم. ثم تحول إلى الحديث في السياسة وسأله عن رأيه في خطط فيصل. وهنا، تدخل عبيد بشكل فجائي وغير الموضوع. وسرعان ما تركهم الرجل. واكتشفوا فيما بعد أنه كان جاسوساً يعمل لحساب الأتراك.

ووصلوا عند الظهيرة إلى الواسطة، وهي قرية ضخمة من قرى بنى سالم تتكون من ألف بيت طيني قائمة على أكوام ترابية وحواف صخرية طويلة عبر بطن الوادي وفوق أيكات النخيل السميكة. وعلم لورانس أن كثيراً من هذه البيوت كانت خاوية إذ كان فيضان ذلك العام يشبه موجة من مد البحر حيث تخللت المياه السدود ودمرت كثيراً من أشجار النخيل وجرفت طبقات التربة العليا التي كانت يُحتفظ بها بكثير من الحرص. ولإكمال المأساة، هاجمت الجماعة أسراب الجراد التي قلصت المحصول، مما دفع كثيراً من السكان إلى مغادرة المكان. واستراح لورانس ورفاقه في الواسطة حتى وقت مبكر من عصر ذلك اليوم ثم أكملوا مسيرتهم عبر الوادي. إلا أنهم سرعان ما مروا بجمهرة من قوات البدو كانوا يجلسون حول نيران الطهو، أو تحت الأشجار يدخنون السجائر. وكانت ثمة قوافل محملة بالإمدادات تتحرك. وكان هؤلاء رجال فيصل وكان الكثير منهم من بنى سالم الذين أخذوا يتبادلون التحية مع مجموعة عبيد ولورانس. وبعد فترة وجيزة شاهدوا قرية «حمراء» أمامهم. ثم عبروا مجرى مائياً واقتيدوا إلى ممر مسور وأناخوا جمالهم أمام أحد المنازل. وقاد عبدٌ يحمل سيفاً معقوفاً لورانس إلى داخل غرفة مليئة بالدخان حيث كان فيصل في اجتماع مع مساعديه

العسكريين وهم ضابط عراقي من سلاح الفرسان يدعى مولود الخلص، وشيوخ قبائل بدو عديدون بمن فيهم بنو فقير والبيلى والروالة التى كانت قبيلة مركزها سوريا. وطبقاً لما رواه لورانس فإن فيصل كان يقف بالباب بالفعل لدى اقترابه وهو «ينتظره متوتراً». بيد أن هذا مخالف للأسلوب العربى. والأمر الأكثر احتمالاً هو أنه حينما دخل لورانس وقف الشريف وصحبه طبقاً للأسلوب المعتاد حيث صافحهم لورانس كل فى دوره. فقد كان هذا هو أسلوب تحية الرجال من الملوك أو من الأفراد من رجال القبائل العاديين دون تمييز بينهم. ونال مظهر الشريف «النبيل» إعجاب لورانس وذكره بتمثال ريتشارد قلب الأسد، بطل صباه، الذى كان قد رآه فى أحد المتاحف الفرنسية. ووجد فيصل ذا مظهر ملكى وأقوى تأثيراً من أشقائه. وكان هذا أمراً مهماً بالنسبة له: فقد كان رد فعل لورانس الأول بالنسبة للعرب ينطلق من حسه الجمالى، كما أن الدعائى داخله أدرك أنه يتحتم على الثورة العربية، كى تجتذب البريطانيين، أن يكون لها قائد يماثل مظهره فكرة الأوربيين عن «العربى النبيل». فعلى حين كان عبد الله «مستديراً ومرحاً»، كان على يبدو واهناً ومريضاً. إلا أن مظهر فيصل كان متوافقاً مع «الوصفة» تماماً وبدا للورانس أن الشريف رغم مظهره النبيل، كان يبدو شديد الإعياء وأكبر كثيراً من أعوامه الواحد والثلاثين. وكانت عيناه حمراوين ووجنتاه غائرتين وبشرته وقد تجعدت بخطوط من الألم. وكان يدخل دون توقف. وادعى لورانس فى «أعمدة الحكمة» أنه عرف فى التو أن «هذا هو الرجل الذى سيأتى بالجد الكامل للثورة العربية»، إلا أنه أخبر ليدل هارت أنه، فى واقع الأمر، قد اعتقد ببساطة أنه من الممكن «صنع بطل للثورة من فيصل بسهولة، أكثر من إخوانه الأكبر سناً». وطبقاً لما رواه لورانس، فقد جلسا معا وسط البدو، ثم سأله فيصل «ما رأيك فى مكاننا هذا فى وادى صفراء؟» فأجابه لورانس «حسناً! إنه بعيد جداً عن دمشق».

وكتب لورانس أن «هذه الكلمة انقضت كالحسام فى وسطهم. كانت ثمة ارتعاده خفيفة. ثم تيبس كل الموجودين حيث جلسوا، وحبسوا أنفاسهم لمدة دقيقة من الصمت». وكان فيصل هو من أزال التوتر. فقد رفع الشريف عينيه وابتسم باتجاه لورانس وقال: الحمد لله.. فهناك أترارك أشد قرباً منا بكثير من هذا».

وجلس لورانس وفيصل فى الليلة الأولى فى الغرفة التى كان يملؤها الدخان، وتجادلا لساعات وسط طقطقة النيران التى كادت تخبو، وصوت رنين مدقات السبق؛ وكانت القهوة والشاي يمرران عليهما المرة تلو الأخرى، وفيصل يقوم بإطفاء السيجارة تلو الأخرى. ووجد لورانس كلام الشريف على قدر كبير من عدم المنطق، فقد كان شديد الغضب لأنه لم يصله سوى القليل فقط من الأسلحة التى طلبها من ويلسون، خاصة من المدفعية، وأصبح لورانس هدفاً لغضبه. وزعم فيصل أن مشكلة العرب الرئيسية هى عدم وجود مدفعية إذ إنه كان يمكن الاستيلاء على المدينة بمدفعين من مدافع الميدان. وكان البدو يرتعدون من صوت القذائف، وكان أى تلميح عن وابل من القصف يدفع بهم للتفافز بحثاً عن الحماية مثل الفئران. ولم يكن هذا يرجع لجنبهم كما أوضح الشريف، إذ إنه بإمكان البدو مجابهة الطلقات وضربات السيوف بشجاعة. إلا أنهم لا يتحملون فكرة تفجيرهم أشلاء. وتحدث فيصل عن المدفعية باستفاضة. وأدرك لورانس أن قوة البنادق فى معركة المدينة والمذابح التى حدثت قد تركت عليه أثراً يصعب تصديقه وأن صلابته قد تحطمت نتيجة لما شاهده فى ذلك اليوم. وأخبر ليدل هارت قائلاً «لقد استجمع (فيصل) شجاعته لدى الهجوم الأسمى على المدينة كى يبدو مقداما. وقد هزه هذا الجهد لدرجة أنه لم يندفع وراء المخاطر فى المعركة مرة أخرى أبداً. ورغم أنه استعاد ثقته بعد وصول البطارية المصرية، إلا أنه انكسر مرة أخرى حينما رأى أن مدافع الجبل كانت غير ذات جدوى فى مجابهة مدفعية الميدان الثقيلة التركية التى أصابت إحدى قذائفها خيمته الخاصة. وقد رأى لورانس بينه وبين نفسه أن تقدير فيصل للموقف ساذج، وأنه لم يكن باستطاعته أبداً، بمدفعية أو بدون مدفعية، أن يقترب من الاستيلاء على المدينة. وشعر أيضاً أن الشريف لم يكن يتقن استعمال مدافع الجبل المصرية التى كانت ميزتها الأولى هى سهولة نقلها وتحريكها. وحاول إقناع فيصل أنه لا يجوز للجنود غير النظاميين أن يخوضوا معارك نظامية يلتحم فيها الجيشان، بل إن عليهم الهجوم بمجموعات صغيرة متحركة ومكتفية ذاتياً. فقد كان الأتراك محاربين دفاعيين مدربين كما أوضحت هزيمة البريطانيين فى غاليبولى التى كلفتهم خسائر مريعة. وكان لورانس يعتقد أن مجموعة واحدة من الجنود الأتراك المحصنين جيداً يمكنها هزيمة

الجيش الهاشمي بأكمله . إلا أن قوة الأتراك كانت تقوم على تركيزهم على أعداد كبيرة من الجنود ؛ في حين أن قوة العرب كانت تعتمد على القدرة على الانتشار ؛ فقد كان البدو دائماً يتبعون هذا الأسلوب في حروبهم القبلية وغزواتهم . إلا أن فيصل لم يوافق . فقد ظل البدو يقومون لمدة أسابيع بهجمات برقية على المواقع التركية في محاولة لإبطاء تقدمهم ولم تفلح «لدغات البراغيث» هذه في وقف تقدم الأتراك . فما كان يحتاجه العرب هو المدفعية . وكان الشريف قد خطط لهجوم موسع ضد محطتين من محطات سكك حديد الحجاز هي البواط والحفيرة شمال المدينة ، بقوة قوامها ثلاث آلاف رجل من جهينة كانوا يتمركزون عند خايف حسين . وكان الأتراك قد تمركزوا عند بير درويش بقوة لا تقل عن خمس فصائل من المشاة ، وبمجموعتين من راكبي البغال ، وبطارية مدفعية محملة على الإبل ، وبطاريات مدافع ميدان وثلاث طائرات ، وفرقة هجانة من العقيليين ، واعتقد فيصل أنه لو حدث تحويل لاهتمامهم نحو الشمال فقد يتسبب هذا في انسحابهم . إلا أن لورانس لم ترقه الخطة . فقد اعتقد أنه حتى في حالة دعم من عبد الله في الشرق حيث تحل قوة زيد محل قواته في الوادي ، فإن القوة التركية ستسحب فقط بمقدار الثلث ، وقد تستغل القوات الباقية الفرصة للتقدم عبر وادي صفراء إلى رابغ .

وتم إسكان لورانس مع رجال المدفعية المصرية حيث أمر قائدهم زكي بك ، بنصب خيمة له . وعند انبلاج الفجر ، حضر فيصل ومولود مخلص للقاءه ثانية ، وأخذوا يتجادلون جداً متواصلين ، لمدة خمس ساعات ونصف . وكان لورانس قد نام جيداً واستراح عقب رحلته ، وكان متمكناً من كامل قوته على الإقناع . وشعر في هذا اليوم أن حواراته كانت مؤثرة . واعتقد ، بينه وبين نفسه ، أنه رغم ذكاء فيصل الكبير ، إلا أنه كان حذراً بطبعه ، وكان ذا شخصية أضعف من شخصية شقيقه عبد الله الذي عرف عنه أنه كان يغار منه . وأخبر هو لورانس فيما بعد أنه حينما أشار على والده بتأجيل إعلان الثورة دعاه عبد الله جباناً . وكان يشير إلى أخيه الأكبر بلفظ «المفسد» كما أن فيصل كان عرضة للتأثر بالمشورة على عكس عبد الله . وقد أخبر لورانس ليدل هارت أن ضعف عبد الله كان ينحصر في أنه ينصت إلى أي نصيحة وقتية رغم عدم اقتناعه . وكانت هذه الصورة جد مختلفة

بالطبع عن الصورة التي رسمها له في رسائله الرسمية، حيث أكد على أن رجال فيصل كانوا يعتبرونه بطلاً، وأنه خاطر بحياته في المدينة لرفع معنويات قواته. وذكر أيضاً أنه عجول ومتسرع، سهل الاستثارة ومتكبر «ملئ بالأحلام وبالمقدرة على تحقيقها». وقال أيضاً إن حقيقة الأمر لا تقتصر على أن فيصل فقد شجاعته نتيجة لاختراق إحدى القذائف خيمته مما دفعه إلى أن يأمر قواته بالانسحاب من بير عباس، لكن السبب يرجع إلى أنه «قد سئم عجزه الواضح». وكان هذا تعليقاً له نكهة قاعات أكسفورد العامة أكثر من كونه نتاج حرارة المعركة. وكان لورانس في الحقيقة يعتقد أن فيصل تعوزه الشجاعة ويهرب الأخطار، وقد ردد هذه الرؤية الخاصة آخرون ممن عرفوا فيصل من أمثال بيرس جويس الذي كتب قائلاً إن فيصل «لم يكن ذا شخصية قوية وكان يتغير طبقاً للظروف المحيطة به». واعتقد لورانس أن ولع فيصل بحرية العرب أجبره على مجابهة مخاطر يكرهها، ونظراً لأن طبيعة لورانس المازوكية قد دفعته هو لأن يفعل نفس الشيء، فقد تمكن من التوحد العاطفي مع الشريف. إلا أنه كان يتحتم أن يبدو قائد الثورة العربية. ذا شخصية بطولية في أعين المؤسسة البريطانية، ومن ثم قرر لورانس أن «يصنع منه ما يظهره في صورة متقبلة حتى ولو كان هذا يعني تصوير شخصية مزيفة له في رسائله». ولم يكن التلاعب بالحقائق أمراً جديداً بالنسبة له من أجل تحقيق هدفه. وكان يكن للثورة العربية ما يكنه فيصل لها من العواطف. وكتب قائلاً: «لقد كنت محركاً لها منذ البداية، وكل آمالي معقودة عليها». ولم يكن هذا محض عاطفة إثارية. فمنذ كركميش، كان لورانس قد ارتبط بالعرب بشكل رومانسي. وكان يرى فيصل والثورة العربية تعبيراً عن قمره هو، فقد كانت عواطفه هي نفس العواطف التي دفعته أن يصطحب داهوم وحمودي إلى أكسفورد، أي الروح التنافسية، أو «الوحش داخله» الذي كان يتطلب اهتمام الآخرين ويتوق أن يتعرف عليه الآخرون كشخص متميز ومختلف. فقد كان موقفه من الهاشميين امتداداً لموقفه من داهوم. وكان قد كتب قائلاً: إنه يود أن «يساعد الصبي على أن يساعد نفسه» فقد أخبر جريفز فيما بعد أن هدفه مع العرب هو أن «يساعدهم على الوقوف على أقدامهم». فقد شعر لورانس أنه يعرف ما هو الأفضل بالنسبة لداهوم، وشعر الآن أنه يعرف ما هو الأفضل للهاشميين. وكان قد انتهى إلى أن

مشكلة الثورة العربية هي عدم وجود قيادة لها؛ لذا فقد قرر أن يمدّها بهذه القيادة عن طريق شخص يعمل بديلاً عنه، أى فيصل ذى الشخصية المطوعة. أما فيصل، فقد أثرت فيه بلاغة لورانس، وشجعه اعتقاده أن المسئولين فى القيادة العامة كانوا مهتمين بشئونه إلى درجة كبيرة. واعتقد أن لورانس كان مفوضاً بأن يمنحه وعوداً محددة. وفوق كل شىء، فقد بدأ غموض لورانس وغرابة أطواره تجتذب الشريف. وبنهاية جلسة نقاشهما الثانية افترقا، متحابين، لتناول الطعام.

وفى عصر ذلك اليوم، عمد لورانس إلى التجول فى أنحاء الوادى ليتبادل الأحاديث مع جنود فيصل. وشعر أن روحهم المعنوية كانت مرتفعة بالنسبة لقوات مهزومة. وكان البدو، الذين عسكروا بين أيكات النخيل، ينتمون فى غالبيتهم إلى قبيلة جهينة الكبيرة التى كان مقرها وادى ينبع فى الشمال، وكان بين القوات أيضاً عدد كبير من جماعة حرب، أعداء جهينة الألداء. ووجد لورانس أن فيصل قد أنجز مهمة جيدة للتوفيق بين الأعداء التقليديين وجعلهم يحاربون فى نفس الصفوف بمهارة فائقة. إلا أنه كان واهماً: فقد كانت أموال الهاشميين، التى كانت تأتيتهم من خزائن البريطانيين هى التى ابتاعت ولاء البدو الذين كانوا على استعداد للحاق بصفوف الأعداء إن ساءت الأمور. فقد كان إدراك البريطانيين للجيش القبلى وفهمهم لها على أنها جيش إقطاعى بقيادة شريف من النبلاء خاطئاً. فقد كان عبيد الأرض Serfs فى أوربا الإقطاعية ملكية منقولة لأسيادهم الإقطاعيين، وكان عليهم أن يؤدوا الخدمة العسكرية حينما يطلب منهم ذلك. ولم يكن البدو مثل هؤلاء. فلم يدينوا لأى أحد أو لأى شىء سوى قبائلهم؛ ولهذا السبب، لم يكن ينظر لتغيير ولائهم على أنه «بوقة» أو خيانة طالما وافقت القبيلة على هذا التغيير. فقد كان الهاشميون والأتراك الذين يعملون معهم أجانِب بالنسبة لهم. وكان لدى الأتراك بالفعل بدو غير نظاميين يعملون فى صفوفهم. وأما جماعة البيلى، وهى قبيلة قوية من الشمال تخشى الأجانب وتكرههم، فكانت مازالت مترددة. وأعلن أحد شيوخها، وهو سليمان رفادة، تحالفه مع الأتراك. وفكر لورانس أنه إن انضمت قبيلة البيلى بكاملها إلى الأتراك، فقد تتلوها جهينة. إلا أن الأتراك كانوا ينفقون سبعين ألف جنيه استرلينى شهرياً لشراء القبائل وكانوا يتلقون وعوداً خاوية فى غالبيتها. واعتقد لورانس أن



للهاشميين، في النهاية، تأثيراً عاطفياً على البدو لا يمكن للأتراك إحداث ما يماثله.

وكانت هذه هي المرة الأولى التي يقترب فيها لورانس من البدو. واستشاره مظهرهم، كما كان لخشونتهم وقع الرهبة عليه. ولم يكونوا كلهم رجالاً؛ فقد كانت غالبيتهم مزارعين وأشباه رحل. وكان الكثيرون منهم عبيداً مسلحين وتابعين يقومون على خدمة أهل الصحراء. وتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والستين. وكان البدو رجالاً صغيري الحجم ذوى بشرة سمراء، يشبهون الطيور، وكانوا ذوى أناقة خاصة بهم. فكانوا يرتدون فقط الدشدشات والسرراويل المتسعة وأغطية الرأس ويتمنطقون بأحزمة الطلقات، ويحملون البنادق التي يطلقونها لأوهى الأسباب. وكانوا ذوى لياقة عالية، بإمكانهم السير والجري في حرارة الشمس لساعات عديدة، وهم حفاة الأقدام، على الصخور والرمال الملتهبة. وكانوا يتحركون بتوتر سريع مما كان يعطى الانطباع أنهم يودون أن يحرقوا طاقات لا محدودة. واعتقد لورانس أنهم سيكونون رجال حرب عصابات ممتازين إذا تم تدريبهم تدريباً سليماً، وقناصين مهرة أيضاً. فقد كانوا على مقدرة على الجري والتسلق لمسافات طويلة كي يعثروا لأنفسهم على ركن مناسب يصوبون منه طلقاتهم، رغم أنهم كانوا حينذاك معتادين على بنادقهم القديمة البطيئة لا على البنادق الحديثة، ومن ثم، على الاشتباك مع الأعداء من مسافة قصيرة. وكانوا على دراية حميمة بالصحراء؛ كما أن مهاراتهم في اقتفاء الأثر بدت خارقة للطبيعة. إلا أن لورانس شعر أنهم عديمو الجدوى كقوات تقليدية. فمن ناحية، كانت القوات الفعلية دائمة التغير لأن الرجال كانوا يعودون لزيارة زوجاتهم ويوكلون أسلحتهم إلى أشقاء أو أبناء عمومة لهم ليحلوا محلهم. وفي بعض الأحيان، كان السأم يصيب عشيرة ما بكاملها، فترحل. ولم يكونوا يتلقون الأوامر من أحد باستثناء شيخ القبيلة، ولا يعملون مع قبيلة معادية سوى تحت قيادة شخص من الأشراف الذين كانوا يعتقدون أن منزلتهم أعلى من السياسات القبلية. وكانوا أفراد شجعان لا يبالون بالأخطار، إلا أن عقيدة «السمعة» التي كانوا يحيون بها جعلتهم لا يحسنون العمل كفريق، فقد كان كل فرد سيد نفسه، ولم يكن يطيع الأوامر بسهولة أو يحارب في الصفوف أو يساعد غرباء

تصادف وجودهم فى نفس الجيش . فقد كانت العشائرية هاجس البدو المسيطر وكان شعارهم الذى يحيون به «أنا وأخى على ابن عمى ، وأنا وابن عمى على الغريب» . وكانت الغزوة تقليدية تتم وفقاً لقواعد محددة . وكانت النساء والأطفال والرعاة العزل محرمين . كما أنهم بعد غزواتهم كانوا يتركون ناقة واحدة على الأقل وراءهم حتى يتمكن ضحايا الغزوة من البقاء . وكان القتال أيضاً من أجل الممتلكات ، خاصة الإبل ، لا من أجل الحياة . ولم يكن أسلوب قتالهم يسمح بضحايا كثيرين ، وقد حدد هذا الأسلوب منذ أجيال العداوات الثأرية . وكان قتالهم يعتمد على المحارب الفرد ، فلم يكونوا يعرفون أسلوب الحروب الجديدة حيث تتقاتل الجيوش التى لا ملامح لها والأسلحة عن بعد ودون تفرقة . فقد كان لكل قبلى ، بالنسبة للبدو ، قدره كفرد وليس كمجرد جندى ، وكان هذا هو سبب هروبهم حينما يواجهون بمعارضة راسخة أو بأعداد كبيرة . وقد وصف بيركهارت ، عام ١٨٣٠ ، الحروب العربية بأنها تعتمد على مفاجأة العدو بهجمة غير متوقعة ثم نهب معسكره ، وكتب يقول : «بإمكانى أن أورد أمثلة عديدة لقوافل من المسافرين أو فلاحين أجبروا مهاجميهم من الذين البدو الذين يزدون على ضعفى أو ثلاثة أضعاف عددهم على الهرب» . ومن ثم ... يعد هؤلاء جناءاً بؤساء ويستشهد على جبنهم بمعاركهم مع هؤلاء الفلاحين» . وأسمى س . إس . جارفيز البدو «محاربين جيدين لمدة عشر دقائق فقط» وأضاف أنه «لا يوجد أشد ضراوة وإثارة للرعب من فارس عربى يتعامل مع عدو محبط ، ولا يوجد أمر أكثر سهولة من نفس الأعراب حينما تواجههم قوة حقيقية» . وكتب بيرس جويس فيما بعد أن البدو كانوا «خدعة أكثر من كونهم خطراً حقيقياً» . وشعر أنه من الخيال ، بالنسبة لهم ، الالتزام ببرنامج محدد . وأيضاً قال أليك كيركبرايد لاحقاً «بالإمكان قيامهم بهجمة رائعة . فإن نجحت ، كان هذا رائعاً . وإن فشلت لاذوا بالفرار . وكان هذا الشيء الوحيد المعقول الذى يمكن عمله» . واعتقد لورانس أنهم يصلحون لتدمير خط السكة الحديدية بالديناميت ، ونهب قوافل الأتراك أو سرقة إبلهم . كما أنه ذكر فى تقريره ، «أنه بالرغم من أن المرء قد يسخر من طبيعتهم الارتزاقية ، إلا أنهم لا يساعدون الأتراك رغم الرشاوى العديدة التى يتلقونها منهم ؛ كما أن قوافل الإمدادات الهاشمية مازالت تجوب التلال دون أن يتعرض

أحد لها».

وفي وقت متأخر من عصر ذلك اليوم التقى لورانس بفيصل مرة أخرى، وسارت محادثتهما هذه المرة بشكل أفضل كثيراً. فقد اعتقد لورانس أنه لو فشلت خطة فيصل لتشتيت الأتراك، فقد يكون تحركهم التالي باتجاه مكة عن طريق رابغ. وفي هذه الحالة، سيكون أفضل توظيف لقوات البدو هو احتلال تلال صبح حول وادي صفراء التي تكون خطأ دفاعياً طبيعياً. ولن يكون لدى الجيش التركي خيار سوى التقدم عبر الوديان التي ستكون انحناءاتها وتعرجاتها هدية السماء لقوات حرب العصابات. ولن ينفع الأتراك حتى مدفعيتهم المنصوبة على التلال. واعتقد أنه يجب تزويد العرب ببنادق لويس الآلية وبعض مدفعية الميدان الحديثة من أجل رفع معنوياتهم، كما رأى أنهم في حاجة إلى مستشارين فنيين ونظام اتصالات أفضل مع مسئولى القيادة العامة البريطانية، وحتى إلى أجهزة لاسلكي. واعتقد أنه رغم أن قوات البدو لن يكون بإمكانها أبداً شن هجوم، فإنها ستوفر حاجزاً دفاعياً قوياً. كما أنهم يمكنهم تكوين قوة نظامية من عبيد مجندين ورجال من المدن، ومن المزارعين. وشعر لورانس أنه لو استطاع فيصل الصمود على هذه التلال لمدة شهرين، فسيستطيع عزيز المصري في هذه الآونة أن يدرب طابوره من النظاميين العرب في رابغ. كما اعتقد لورانس أن إنزال قوات بريطانية في رابغ لن يعادله شيء لتدمير قضية الهاشميين. وذكر أيضاً في تقريره أن فيصل ومساعديه غير متعاطفين مع القوميين العرب الذين شنقوا في دمشق وببيروت لأنهم كانوا قد تحالفوا مع الفرنسيين، ملمحاً بهذا إلى رؤسائه أنه ليس في نية العرب تسليم بلادهم إلى سيد أجنبي آخر، وأنهم سيتشككون بقوة في أي إنزال مكثف للقوات البريطانية. وكان حدسه صحيحاً، إلا أن ما ذكره من وقائع كان مزيفاً بالتأكيد؛ إذ إنه، في حالة فيصل على الأقل، ثمة تقارير بشهود عيان تشير إلى أنه قابل شنق القوميين باستياء شديد عند سماعه الأنباء في دمشق. كما أن لورانس قدم تصويراً مغلوطاً للبدو في تقاريره على أنهم شديداً الإيمان بالقومية العربية. وكان البدو في الواقع على درجة كبيرة من الشوفينية، يكرهون الأجانب ويعادون المسيحية. وكان من شأن إنزال قوات بريطانية تحطيم مكانة الهاشميين والإلقاء بالبدو في أحضان الأتراك. وغادر لورانس المكان في عصر يوم ٢٤ أكتوبر

برفقة أربعة عشر من رجال قبيلة جهينة متجهاً إلى ينبع دون أن يتوقع أن يلتقى بالشريف مرة أخرى. وكان مبعث رضاه أنه وجد في فيصل بطلاً يمكن للبريطانيين التأثير عليه والتلاعب به، أو كما عبر هو بغموضه المعتاد، قائلاً «له من الأسباب ما يجعله ينفذ خططنا». كما أنه أيضاً كان واثقاً أنه قد أوجد حلاً لمشكلة رابغ، فكتب يقول «لقد أخبرت رؤسائي أن الدفاع عن مكة لا يتم عن طريق عقبة رابغ، لكن بتهديد فيصل للجناح العثماني في تلال صبح».



ليس جيشاً.. بل هو العالم يتحرك

للا نقضاض على الوجه

ينبع والوجه

ديسمبر ١٩١٦ - يناير ١٩١٧

---

# 13

---

كان تفكيراً يُعبر

---

عن رغبة. فالبدو لم يكونوا أبداً

---

مقاتلين دفاعيين. فحينما خرج فخرى

---

باشا من المدينة فى شهر ديسمبر على

---

رأس ثلاثة ألوية كاملة، حاصر بنى

---

سالم وسيطر

---

على وادى الصفراء.

---

ورجع البدو مششتين إلى قراهم دون اشتباك . وخلافاً لتأكيدات لورانس ، فلم يتلق بنو سالم أبداً أية بنادق آلية أو مدافع . وتمكن الأتراك خلال أربع وعشرين ساعة من اختراق السهل الساحلى . وقد أتى لورانس فيما بعد بتسمية «رفيعة المستوى» لما حدث ، إذ أطلق عليه «النظرية الثانية للحرب غير النظامية - The Second Theorem» التى ذهب فيها إلى أن القول بأن «القوات غير النظامية غير قادرة على الدفاع عن خط أو نقطة ما كعدم قدرتها على شن هجوم عليها» .

وقد ظل الجنود المحترفون ومنذ البداية يرددون هذا دون أن يلجأوا إلى أية نظريات معقدة كنظرية لورانس . وقد دعا هذا إلى الاعتقاد بأن على القوات البريطانية الدفاع عن رابغ . إلا أن الوقت كان قد فات . وكان لورانس قد عاد من الجبل ، مثل عودة موسى ، وهو يحمل معه حل مشكلة رابغ منقوشاً على حجر . ثم قال بعد ذلك ، إن رسو قوة بريطانية فى الحجاز ، كان سيتسبب فى امتناع أى عربى



عن مساندة الشريف . وكما كان لورانس يعلم جيداً ، فقد كان هذا ما أراد الجنرال مري سماعه تحديداً . ومن ثم بدا للقيادة أن ما طلبه لورانس من إمدادات البنادق الآلية والمدافع والمستشارين العسكريين ثمناً بسيطاً يدفع لقاء الحفاظ على لواء أو اثنين . ومن ثم ، أخذ نجم لورانس في الصعود في القيادة العامة ، وعرف أنه في مركز قوى متفرد . فلم يحدث من قبل أن ذهب أحد إلى الجبهة ، ولم يحدث أن تبعه أحد ؛ فقد كان الضابط البريطاني الوحيد الذي شهد الأحوال هناك بنفسه . ثم أصبح اللاعب الرئيسي في الثورة العربية بعد أن تقدم بالشواهد التي شذبتها بعناية كي تتفق مع أهدافه . وهيات له معلوماته أيضاً قنوات اتصال مع لاعبين آخرين . ففي طريق عودته للقاهرة ، لم يلتق فقط بالأدميرال وميس قائد الأسطول البحري والذي كان معارضا للتدخل مثل مري ، بل إنه توقف أيضاً في الخرطوم ليحجب على أسئلة وينجت الذي كان يؤيد التدخل بشدة . وكان تمكنه من إقناع الطرفين أن كليهما مصيب تأكيداً لمقدرته على التلؤن . وبعد الاستجواب ، كتب وينجت - الذي نقل إلى القاهرة بعد ذلك بفترة وجيزة ليحل محل مكماهون كمندوب

سامى - «لقد فهمت منه أنه يوافق على أن العرب سيرحبون - فى حالة الطوارئ - [بلواء بريطانى] . . وأنه يتمسك بأمله فى النجاح، ويفضل هذا على التورط فى هزيمة محققة نتيجة للفشل فى الاحتفاظ برباع». ولم يكن لورانس قد وافق على كل شيء من هذا. وفيما بعد ثار وينجت ثورة عارمة لدى قراءته مذكرته عن الموضوع. إلا أن الأمر كان قد نفذ حينذاك، وتمكن كليتون من إقناع السردار أن يرى هو الذى أجبر لورانس على كتابة تلك المذكرة.

واستمر لورانس يعمل من مكتب القاهرة ويساعد فى توجيه الثورة من مسافة آمنة. فلم تساعد رحلته إلى وادى الصفراء على إقناعه بصلاحيته كضابط ميدان. وكان قد تم نقله إلى «المكتب العربى» تحت رئاسة كليتون الذى أوكل إليه منصب مسئول الدعاية الذى كان مهيناً له جيداً. بيد أنه كان لوينجت أفكار أخرى. فقد شعر السردار أن إلمام لورانس غير العادى بالعرب سيهدر فى القاهرة ومن ثم طلب من كليتون أن يرسله مرة أخرى إلى الحجاز ليعمل ضابطاً للاتصال مع فيصل. إلا أن كليتون كان كارهاً لإرساله. وعارض لورانس بشدة حينما علم بأمر نقله يوم ١٩ نوفمبر قائلاً إنه ليس مؤهلاً كرجل أفعال وإنه لا خبرة له فى القيادة. إلا أن هذا الجدل لم يكن حقيقياً كلية لأن السنوات الأربع فى كركميش كانت قد أكسبته مهارات هائلة فى الإدارة. وادعى أيضاً أن فيصل رجل عنيد ولا ينتصح وهو ادعاء قد كشف لورانس بنفسه زيفه فيما بعد. واستمات لورانس كى يظل بعيداً عن القتال، واستعمل كل مهاراته البلاغية فى سبيل هذا. إلا أن هذا لم يجد نفعاً. فقد أصدر السردار أمره ولم يكن هناك مفر من أن يكون له ما أراد. ووافق وينجت بشرط أن يحل ستيوارت نيوكومب - الذى كان قد رقى إلى رتبة الليفاننت كولونيل - محله فى ينبع - قاعدة فيصل الحالية - بمجرد عودته على أن يتفرغ لورانس «للمكتب العربى» مرة أخرى. وأدرك لورانس أن وقت العمل قد حان. فقد كُتب عليه الذهاب إلى الميدان ولا سبيل لتحاشي هذا. وبمجرد تقبله الأمر، استدعى قوة إرادته التى كان قد نماها فى شبابه وأعد نفسه للعمل. وفى مواجهة خوفه من عدم تحمل أعصابه مجابهة الخطر، استعان بسنوات عقاب ذاته الطويلة، ومعرفته الحميمة بالألم والحرمان اللذين فرضهما على نفسه، وودّ لو يكون هذا كافياً. وفى يوم ٢٥ نوفمبر، أبحر إلى الحجاز مرة أخرى.

وصل لورانس إلى الحجاز في خضم أخطر الأزمات التي كانت الثورة قد مرت بها حتى ذلك الحين. ففي أول ديسمبر عثرت قوات فخرى باشا الاستطلاعية على طريق بدون حراسة يؤدي إلى وادي الصفراء، واندفعت القوات مسرعة في أعقاب وحدات بنى سالم التي كانت تتولى حراسة الوادي. وعمد رجال القبائل إلى الفرار من الأتراك رغم قلقهم على قراهم. أما زيد، شقيق فيصل الأصغر، وكان على رأس قوة من الجنود المصريين النظاميين أعاره إياها وينجت، فقد سلك طريقه إلى الحمراء، إلا أن وابل نيران البنادق الآلية الذي قوبل به أعاقه. وكان زيد نفسه قد تمكن من الفرار من الأسر بصعوبة، وأخذ يتراجع باتجاه ينبع على الشاطئ. أما الأتراك الذين احتلوا وادي الصفراء، فقد أصبحوا في موقع يمكنهم من تهديد كل من ينبع ورابغ. وكان فيصل، حينما حدث الاختراق التركي، يجند قوة من جهينة للسير شمالاً بحذاء الشاطئ ومهاجمة ميناء الوجه الذي ظل في أيدي الأتراك. ولم يؤد سقوط الصفراء إلى عزله فقط عن مكة ورابغ، بل منع عنه أيضاً دعم بنى سالم. ولم يتبق له سوى بنى جهينة وكان يشك في استمرار ولائهم إذا سقطت ينبع ورابغ. وانفرط أيضاً عقد نظام جواسيسه وأخذت تصله تقارير شديدة التناقض. وفي ٢ ديسمبر، سارع ومعه ٤٠٠٠ مقاتل من رجال القبائل إلى «نخل مبارك» وهي واحة نخيل شاسعة، استعداداً لصد أي تهديد تركي لميناء ينبع الذي أصبح ملاذه الأخير.

وقبيل منتصف الليل، وصل لورانس إلى نخل مبارك مع عبد الكريم البيضاوي شريف جهينة ليجد مشهداً غاية في التشوش. كان الوادي ممتلئاً بدخان الحطب تتردد فيه أصدااء ثغاء وهدير آلاف النوق، وكان رجال القبائل شبه العراة يهرولون في المكان وهم حفاة يثرثرون ويتبادلون الشتائم ويطلقون أعيرتهم النارية. ومن قبيل الحذر، أخفت جماعة لورانس جمالها في فناء مهجور، وذهب عبد الكريم لاستطلاع الأمور. ثم رجع بأنباء تقول إن الشريف قد عاد لتوه؛ وسرعان ما وجدوا الشريف يجلس على سجادة، هادئاً وسط الصخب، يُملى الخطابات على ضوء مصباح. كان برفقته معاونه مولود الخلص، ونائبه الشريف شريف حاكم الطائف الهاشمي. واستراح فيصل لرؤيته لورانس. فقد كان المعسكر بأكمله على وشك أن تنتابه حالة من الذعر، وكان المراسلون آتين، غادين، يُربضون نوقهم

وينهضونها حول جزيرة الشريف المتمثلة في سجادته. وكانت دوريات الحراسة من البدو تقفز داخل المعسكر، أو تنتشر خارجة منه في الظلمة محدثة ضوضاء. كان الرجال أيضاً ينزلون المتاع من على ظهور الدواب، وكانت الخيول والبغال تقاوم وتحفل. وبينما كانوا يتحدثون اندفعت إحدى النوق الحرونة هاربة، وألقت بحملها، وأمطرتهم بوابل من التبن، وكان فيصل ينصت بصبر إلى كل مراسل، وذى حاجة، وصاحب شكوى، ويتحدث إلى رجاله بثبات وكبرياء. وتحقق لورانس أن فيصل كان يحارب معركة داخلية يائسة. فقد صدمه تراجع شقيقه المفاجئ، وكان يعاني داخلياً من جراء ذلك. إلا أنه احتفظ بجلال مظهره أمام الناس. وراقبه لورانس أثناء حديثه إلى شيوخ كتيبة من البدو كان على وشك إرسالها لتطويق الأتراك وكتب انطباعه قائلاً: «كان قليل الكلمات، ولم تكن ثمة ضوضاء لا معنى لها، بل معاني صحيحة محددة. ثم اندفع الناس لتقبيل غطاء رأسه عندما انتهى». ومرة أخرى ألقى فيصل بمسئولية نجاح الأتراك على عدم وجود مدافع، وأبدى خشيته من أن ارتداد بني سالم سيكون له أثر تتخفى وراءه أعذار بقية القبائل. وكتب لورانس إلى كليتون يقول «سيتم، من الآن فصاعداً، الاستغناء عن بني حرب. وقد أخطأ الرجال الذين هربوا من الأتراك؛ وسيحاول بقية بني سعد أن يقبضوا أنفسهم بتجنب المعارك، ويسعون إلى الصلح مع من يحتلون بساتين نخيلهم». وغفا فيصل ولورانس قليلاً، واستيقظا بعد ساعة في برودة الفجر على رنين مدق القهوة. ثم تعرف لورانس على المعسكر وتحدث إلى البدو، خاصة من بني جهينة، الذين اعتقد أنهم قد تملكهم القلق. وفي وقت متأخر من النهار غادرت قوة فيصل الوادي خشية الأمطار وعسكروا شمالاً. وركب الجنود كلهم معاً، وكونوا صفّاً واحداً بحيث يركب فيصل بينهم على جواده، ويتبعه مساعدوه والأشراف، وحامل لوائه، وحراسه الذين بلغ عددهم ثمانمائة، ورجال بني عقيل وبيشه المسلحين، ممتطين إبلهم. ورغم قتامة الموقف انتابت لورانس النشوة لمشهد الجيش العربي القبلي وهو يتحرك.

وكما يدعى لورانس، فقد كان حينذاك أن دعا فيصل لورانس لارتداء الزي العربي، وأهداه دشداشة مطرزة كانت عمته قد أرسلتها له من مكة. وفسر لورانس دافع فيصل لفعل هذا بشعور البدو بعدم الارتياح للزي العسكري الكاكي الذي لم

يكونوا قد رأوا من يرتديه سوى الأتراك. إلا أن ما نقله لورانس عن فيصل أمر مشكوك في صحته لأن رجال المدفعية المصرية والضباط العرب النظاميين من أمثال مولود الخلص ونورى السعيد وعزيز المصرى كانوا يرتدون الزى الكاكي. والأمر الأكثر احتمالاً هو أن لورانس كان من فكر في هذا. فقد كان قد اعتاد ارتداء الزى المحلى في سوريا. والآن، نشط حسه التقمصى ووجهه نحو فيصل خاصة، وطلب أن يرتدى نفس ملابسه. ولم يكن هذا إرضاء للعرب فقط، بل ميزة لنفسه أيضاً، إذ إن ارتدائه ملابس شريف مكة الفخمة منحه مكانة مرموقة بين الجنود. وكان ارتداؤه الزى المحلى في سوريا من قبل قد مكنه من تحاشي لفت النظر إليه وسط الأجناس العديدة هناك. إلا أن أحداً، بمن في ذلك لورانس نفسه، لم يعتقد إمكانية إخفاء وجهه الإنجليزى المتورد الحليق على أنه وجه عربى. وكان لهذا شقه العملى. فقد كانت الملابس العربية مريحة لدى امتطاء الإبل في الصحراء أكثر من أى شيء صممه الأوربيون. فكان الثوب الواسع يسمح بتسرب الهواء البارد لأنحاء الجسد. أما غطاء الرأس السميكة فكان يثبت حول الرأس، أو على الوجه في العواصف الرملية، ويستخدم كمنشفة، وغطاء عند النوم، وحبل، ومصفاه للمياه، وضماد للجروح. كما كان الثوب الطويل أيضاً يستخدم كحجاب لدى قضاء الحاجة. وباختصار، كان ارتداؤه للملابس العربية فكرة ممتازة من الناحية العملية والأيدىولوجية.

قضى لورانس مع فيصل وقتاً كافياً لتخطيط مدرج طائرات بدائى قرب معسكره تستعمله القوات الجوية الملكية التى كانت ستعمل قريباً فى ينبع؛ فقد كان الأتراك فى الطريق؛ وكان لورانس مقتنعاً أن جيش فيصل غير المتناسك لن يقوى على القتال. ولم يكن ثم بديل سوى الالتجاء إلى ميناء ينبع حيث كان الماجور هربرت جارلاند، من المهندسين الملكيين، مشغولاً بتدريب البدو على الهجوم على السكك الحديدية. كان الميناء ضعيف التحصين، وأدرك لورانس أن التحكم فيه لن يكون ممكناً سوى بمساعدة البحرية الملكية. ومن ثم امتطى ناقته عائداً إلى ينبع حيث وصلها مرهقاً فى الثالثة والنصف صباحاً بعد أن ظل ما يقرب من ثلاث ليالٍ دون نوم. وأبرق فى الحال إلى الكابتن بويل فى سرية خفر البحر الأحمر، وإلى كليتون فى القاهرة. وقد عزا لهجته المتشائمة إلى إرهاقه؛ إلا أنه

أضاف «ورغم كل شيء، فالأمور سيئة».

وكان جارلاند، الذى أمل لورانس أن يجده فى ينبع، نائماً على سطح سفينته فى الميناء. إلا أن لورانس عثر على منزله، وألقى بنفسه على مقعد خشبى حيث استغرق فى النوم. واستيقظ فى وقت أتاح له رؤية جنود زيد المهزومين فى وادى الصفراء وهم يدخلون المدينة. وتملكته الدهشة حين لم يظهر عليهم أى خجل لتعريضهم مستقبل الثورة للخطر. كما لاحظ أن زيد نفسه كان «غير مبال وفى حالة مزاجية حسنة». وخلال أربع وعشرين ساعة دخلت خمس سفن من مجموعة دوريات حراسة البحر الأحمر إلى الميناء وكان من بينها السفينة الحربية دافرين وإم ٣١، وهو قارب هجوم برمائي مصمم خصيصاً للقصف من الشاطئ. ولدى الوصول فى موعده فى يوم ٩، اندفعت قوات فيصل من قبائل عقيل وبيشه وهضيل داخل المدينة بعد انسحابهم من نخل مبارك. وذهب لورانس لالتقاط صور للشريف وهو يدخل المدينة مهزوماً. ولاحظ عدم وجود جنود جهينة غير النظاميين معه. وأسرع ليقابل فيصل لظنه أنهم قد لحقوا بالأتراك، إلا أن فيصل أخبره أن العدو وصل فجأة فى اليوم السابق مع ثلاثة ألوية من المشاة وفرق تغطى البغال، وجموع من البدو على ظهور الإبل ومرشد يدعى دخيل الله بن بديوى من أشراف جهينة. ثم تولوا قصف نخل مبارك بسبعة من مدافع الميدان، عجزت أمامها بطارية فيصل الضئيلة المكونة من مدفعين ألمانيين عتيقين بدون معينات مدى والتى لا تتعدى طلقاتها خمسة عشر رطلاً. إلا أنها عملت على تشجيع رجال القبائل بضوضائها. وكان رئيس مدفعيته السورى، راسم ساردست، قد انغمس فى قصف مسرف متكرر بالمدفعية، وعملت الضوضاء وحدها على تقدم البدو. وادعى فيصل أن الأمور كانت تبدو حسنة إلى أن استدار الجهنيون على حين غفلة من موقعه على جناحه الأيسر وانسحبوا إلى ما وراء قواته الخاصة لسبب غير معروف. وحين اشتتم الخيانة، أمر فيصل راسم أن يوفر طلقاته وانسحب مع قواته - من بنى عقيل، وبيشة وآخرين - حتى شاطئ البحر. وكتب لورانس عن وصول شيخ إلى منزل فيصل بينبع فى اليوم التالى ليبلغه أن الجهنيين كانوا قد انسحبوا فقط «ليعدوا القهوة لأنفسهم» ثم واصلوا القتال لمدة أربع وعشرين ساعة بعد مغادرة فيصل. وأضاف لورانس أنه وفيصل انفجرا ضاحكين لدى سماعهما تلك

القصة، رغم أنه لا يقرر ما إن كان مبعث الضحك هو مفارقة الهزيمة أم العذر الواهي.. وبالتأكيد، فهذه قصة من النوع الأرستقراطي الذي يروق له، لقد هرب البدو من الميدان، لا لأنهم جفلوا من مواجهة الأتراك، لكن فقط لأنهم سمحوا لأنفسهم بفسحة لشرب القهوة. لقد كانت قصة إنجليزية حقاً. لكن هل كانت هذه هي الحقيقة؟

روى الضباط المصريون الذين شهدوا معركة نخل مبارك قصة مختلفة. فقالوا إن القوات التركية لم تشتبك في المعركة، وأن الأتراك قاموا بالقصف مستعملين ثلاثة مدافع جبلية وبطارية من البنادق الآلية. ولم يحارب البدو أبداً، وفر كثير من الجهنين إلى قراهم في وادي ينبع دون إطلاق قذيفة واحدة. فبعد أن دفع فيصل لكل منهم شلناً، تبخروا لدى أول إشارة عن المعركة كما فعل بنو سالم من قبل في وادي صفراء. ولا بد أن هذه القصة شاعت في ذلك الوقت لأنه حين التقى رونالد ستورز بفيصل بعد أيام، رد على شكواه عن عدم وجود مدفعية قائلاً: «إن رجال القبائل بحاجة إلى إثبات شجاعتهم في أعين العالم؛ فحتى لو أنهم كانوا غير مستعدين وقتذاك للقاء أعدائهم في ميدان قتال مفتوح، فقد كانت معرفتهم الوثيقة بطبيعة بلادهم الجبلية كفيلة بأن تجعل منهم أعداء يُهابون في حرب العصابات». إلا أن ستورز كان ينظر للموقف كما لو كانت جهينة وحرب فرقاً بريطانية تتبع سلسلة من القيادات صعبة المراس. فقد كانوا في الواقع يقاتلون بشجاعة بطولية ضارية إن هم شعروا بخطر يهدد شرف القبيلة. أما في الثورة العربية، فكانوا يقاتلون كمأجورين، وكان هدفهم أن يكونوا في الجانب الرابع. ولم يبد هذا، في نظر رجل إنجليزي مثل ستورز، موقفاً شريفاً تماماً. أما بالنسبة للبدوي، الذي كانت قبيلته هي كل عالمه، فقد كان هذا جد شريف. فما كان يهم الجهنى هو بقاء جهينة لا الهاشميين الذين كانوا مجرد قبيلة أخرى. وكان فيصل يظن أن ستورز يعتقد أن الهاشميين يتحكمون في القبائل الأخرى، ولم يكن هذا واقع الأمر، إذ إن البدو كانوا دائماً يفعلون ما يحلو لهم. وأصبح فيصل حينذاك دون دعم قبلي تقريباً وفقد الأمل في مستقبل الثورة الذي اعتقد أنها ستتلاشى نهائياً خلال أسابيع ثلاثة. ومن ثم، كتب مذكرة مريرة إلى الجنرال مري قائلاً إن كثيراً من القوات البريطانية التي حاربت معه كانت قد سُحبت من جبهة منطقة

العمليات البريطانية في سيناء، وقال: «إن هذا لابد وأن يكون مصدر راحة كبيرة لك، إلا أن الضغط علينا أعظم مما نحتمله. آمل أن يسمح الموقف لك أن تتقدم فجأة نحو بئر سبع، أو أن تتظاهر بإنزال قوات في سوريا، أيهما أفضل، إذ إنني أعتقد أن الأتراك يأملون أن يسحقونا سريعاً ثم يعودون للقتال ضدكم». ولدى إرسال لورانس للرسالة، ألحقها بالجملة التالية «أعتقد أن الشريف قد أوديت مشاعره».

إلا أنه لم يكن ثمة وقت لتبادل الاتهامات. فقد كان الموقف في ينبع خطيراً، وكان وصول الأتراك متوقعاً في أية لحظة. ولم يكن العدد الكلى للقوات العربية في المدينة يزيد على ألف وخمسمائة محارب. وأرسل فيصل ما تبقى من قبيلة جهينة مرة أخرى إلى الجبال لمشاكسة الأتراك. وحينما عاد جارانلاند تولى مهمة الدفاع الطبيعي عن المدينة، فأصلح الخنادق القديمة وقوى أسوار المدينة المرجانية التي كانت ترجع إلى ثلاثمائة عام، وكرّ الأسلاك الشائكة، وموضع فرق بنادق آلية. وأرسل بويل إشارة إلى حاملة الطائرات ريفين التي كانت ترسو في شرم ينبع إن تطلق حمولتها من طائرات البحر لمهاجمة المواقع التركية، ثم توجه إلى الشاطئ لعمل مسح للأرض. وكانت ينبع تقوم على شبه جزيرة يحوطها البحر من جهات ثلاث، وكان الجانب الرابع عبارة عن سهل مسطح ترابي دون غطاء. وكان على الأتراك كي يشنوا هجوماً أن يفعلوا هذا في ظلمة الليل؛ وحينذاك سيكون الأسطول في انتظارهم. وفي مغرب يوم ١١ ديسمبر ساد السكون الميناء. ولم ينم أحد. وفي حوالي الساعة العاشرة اشتبكت القوات الطلائعية للأتراك التي تسلمت بإرشاد أحد الجهنبيين مع الحراس العرب على مسافة ستة أميال من أسوار المدينة. وأندر منادو المدينة الحامية. وأرسل رجال استطلاع البحرية البريطانية إشارة من أعلى مئذنة المسجد إلى السفن المرابطة في الميناء، حيث بدأ طاقمها فوراً في عبور السهل وهم يحملون مشاعل إضاءة قوية لترشد بنادقهم. ووقفت القوات في سكون تام في وضع استعداد، وانتظروا، متوترين، هجوم الأتراك. إلا أن هذا لم يحدث أبداً، إذ إن الأتراك فقدوا جأشهم لدى رؤية الأضواء الكاشفة الخفية تتلاعب عبر السهل مثل أعين غيلان نارية مختبئة في الظلام. واستداروا جنوباً باتجاه رابع تاركين ينبع دون أن يمسوها. وكان هذا قراراً كلفهم خسارة الحرب، كما



كتب لورانس .

واتجهت الأنظار جميعها نحو رابغ التي كانت قطعة الشطرنج الأساسية في اللعبة . وسرعان ما كانت قوات فخرى باشا الاستطلاعية على بعد ثلاثين ميلاً من الميناء الذي كانت تحميه قوات البدو الهزيلة من النظاميين نصف المدربين بقيادة عزيز المصرى مع طلعة من الطائرات بقيادة الماجور روس . وقرر الشريف على ، الذى كان يقود حامية رابغ السير بشجاعة للاشتباك مع الأتراك كي يخف الضغط على فيصل فى ينبع ، وأيضاً لكي يتخذ موضعاً نهائياً . وحينما أخلى الأتراك نخل مبارك عاد إليها فيصل بجهد جهيد من البلاغة لإقناع الجهنيين بالقتال معه مرة أخرى . وفى اليوم التالى تعقبت قوته بكاملها الأتراك على أمل الإيقاع بهم فى شرك التلال بين جيشه وجيش على . إلا أن هذا لم يحدث . فقد هربت من على بشجاعته حينما غابت عن عينيه مدافع البحرية البريطانية ، وتراجع لدى سماعه شائعة زائفة تقول إن جماعة حرب المحلية قد لحقت بالأتراك ، الأمر الذى سبب استياء وزير حربه عزيز المصرى . وتراجع فيصل مع رجال جهينة إلى نخل مبارك وهم يشعرون بنفس الاستياء ومكث كل من زيد وعلى فى رابغ على حين واجه هو الأتراك بمفرده فى درب سلطاني وفى نفس الوقت تملك الخوف من حسين فى مكة . وبالرغم من كل هواجسه السابقة ، طلب من البريطانيين أن تدافع إحدى حامياتهم عن رابغ . وكان حسين قد كسب هدفاً محلياً فى نوفمبر بإعلان نفسه ملكاً على الحجاز . وكان هذا اللقب غريباً على الموروث العربى ، لأنه على حين أن لمتراذفات الألقاب العربية ، مثل سلطان وأمير ، دلالات على السلطة ، فدلالات لفظ ملك هي « التملك » . وقد أعلن حسين تغيير مكانته دون إنذار سابق ودون استشارة حلفائه . ولم يكن لهذه الخطوة ميزة سياسية حقيقية بل أدت إلى إثارة غضب الحكام العرب الآخرين مثل ابن سعود فى نجد . وفى لقاء له مع ويلسون فى جدة فى ١٢ ديسمبر ، اتهم حسين البريطانيين بنقض وعدهم بأن يقطعوا خط سكك حديد الحجاز ، وهو وعد لم يتم فى الواقع . وكان هذا تهديداً قصده به إيجاد العذر لأخطاء الهاشميين . فلو أن رابغ قد سقطت ، لسقطت مكة ، ولحكم على حسين وأولاده بالموت . وبدا أن الوسيلة الوحيدة لإنقاذ مكة هى إنزال قوات بريطانية فى رابغ ، لكن كان هناك خطر فقدان حسين دعم المسلمين جميعاً فى حالة حدوث ذلك .

وبعد تفكير متأن أخبر وينجت الشريف أنه سيتم إرسال لوائين فقط موجودين على قائمة الانتظار في السويس إلى رابغ شريطة تلقى طلب مكتوب منه وراوغ حسين. ولم يصل اللواءان البريطانيان أبداً. فقد فقد زيد وادى صفراء وظل عبد الله في الحناكية قرب المدينة دون أن يفعل شيئاً. وكانت تنقصه المؤن من الطعام والماء والذخيرة. أما على، فكان قد سار خارجاً من رابغ إلا أنه عاد إليها على الفور. وبدأت القضية خاسرة.

وأصبح من الواضح للهاشميين والمستشاريهم البريطانيين أنه من الضروري اتخاذ خطوة حاسمة. ودفع ويلسون علماً إلى إعادة تنشيط خطته للسير إلى مدينة الوجه على بعد مائتي ميل شمال الساحل، وكانت هي الميناء الأخير الذي ظل في أيدي الأتراك في الحجاز. وبسقوط الوجه، يصبح فيصل في موقع يسمح له بتهديد خط السكك الحديدية شمال المدينة وصرف انتباه فخرى باشا عن رابغ. وبرهن فيصل حينذاك على صحة ثقة لورانس في مقدراته الدبلوماسية، إذ إنه تمكن من استعادة جميع الجهنين عن طريق خليط من الخطابة البليغة والذهب البريطاني، وجمع قوة من راكبي الهجن من رجال عتيبة وحرب وبيلي في وادي ينبع. ورغم أن عدم فاعلية غير النظاميين في الميدان كانت قد ثبتت، إلا أن لورانس استمر يؤمن بأهميتهم. فقد كان يعرف أن تردد فخرى باشا كل هذه المدة كان سببه التهديد المحتمل لخط السكك الحديدية. فإذا هدد العرب خط السكك الحديدية فسينتشر الجناح التركي حتى دمشق على بعد ثمانمائة ميل، وسيجبر الأتراك على تفريق قواتهم بطول المسافة كلها. وأتى فيصل ولورانس فيما بينهما بخطة مزدوجة طويلة المدى. وهي، أولاً أن يتحرك الشريف عبد الله وقواته البدوية المكونة من خمسة آلاف رجل من الحناكية إلى وادي عيس حيث يمكنهم الهجوم على السكة الحديدية بسهولة، بينما يظلون في نفس الوقت قرب ينبع. وثانياً، السير إلى الوجه مع كامل قوة فيصل من رجال قبائل وترك قوة هيكلية فقط للدفاع عن الميناء.

واعتقد لورانس أن هذين التحركين سيضعان الأتراك في موضع دفاعي. إلا أن فيصل لم يتحرك خوفاً من سقوط رابغ. فقد كان مستعداً للموت دفاعاً عن أسرته،

وغير مستعد للانفصال عنهم حين يحين القضاء . ووصل ويلسون إلى ينبع في ٢٧ ديسمبر . وأعطى فيصل ضماناته الشخصية بأن البحرية البريطانية تستطيع الاحتفاظ برابع لحين عودة قواته من الوجه . وبعد أسبوع سارت قوافل فيصل من البدو من نخل مبارك رافعين ألويتهم . وكان مشهداً بربرياً رائعاً لم تشهد الحجاز مثيلاً له في ذاكرة الأحياء . فلم تكن هذه غزوة قبلية ، بل مسيرة جمهرة من القبائل . كان الجيش مقسماً إلى تسعة أقسام ؛ وركب الشريف فيصل في مقدمة حرسه الخاص من جماعة عقيل ، بينما ركب لورانس خلفه على بعد قليل منه ، وتبعه ثلاثة من رافعي الرايات يحملون الألوية من الحرير القرمزي ، وثلاثة من قارعي الطبول وهم يدقون على طبولهم الضخمة على إيقاع خطوات الإبل . وانتشر رجال العقيل المائتان وألف بشكل مروحي يميناً ويساراً ، وأخذوا يرددون أهزوجة من أهازيج الإبل ارتجلوها ومعهم مغني القبيلة . وكانت ضفائرهم التي طاولت أكتفاهم ودهنت بالزيوت وبول النياق تتأرجح أسفل أغطية رؤوسهم ، على حين انتفخت أثوابهم ذات الألوان الفاقعة بالهواء ، وأخذت شرابات أخراج الدواب تتراقص بجلال ، بينما انطلق الرجال يرددون أهازيج القبائل بأصوات عميقة ، فانتصبت آذان النياق ، وخفضت رؤوسها ومدت رقابها وأوسعت خطاها . ومع مرور أيام أخذت أعدادهم في التزايد حيث تدفق البدو من المناطق المجاورة ومن كل القبائل تقريباً لينضموا تحت لواء الهاشميين إلى أن وصل عدد القوة ثمانية ألف رجل . وفجأة أخذت صورة الهزيمة القائمة تتراجع حتى أن سقوط دمشق بدا ممكناً . وأدرك لورانس وفيصل أن تلك كانت البداية الصحيحة للثورة ، إذ إنه بعد هذا التجمع لن تعود الحجاز أبداً إلى ما كانت عليه . وقد أسمى لورانس ما حدث «أكبر إنجاز معنوي لحكومة الحجاز الجديدة» ، وقال إنها المرة الأولى في الذاكرة التي تجتاز قبيلة كاملة تخوم قبيلة أخرى دون أن تفكر في النهب أو الشار . كانت القبيلة كاملة بوسائل النقل والإمدادات ، متحدة على هدف عسكري واحد ضد عدو مشترك . وكان عوده بن حمد ، شيخ رفاعه ، هو من قال لفيصل «ليس جيشاً.. بل هو العالم يتحرك للانقضاض على الوجه» .

وفي فجر ٢٣ يناير تقدم أسطول صغير من السفن البريطانية يتضمن فوكس وهاردينج خلصة وسط غطاء ضباب بحري إلى شاطئ البحر الأحمر مقترباً من

الوجه . وحينما تفحص الأدميرال وميس الشاطئ بمنظاره المعظم ، تبين شكل برج دائري يقع على صخرة إلا أنه لم يجد أثراً لفیصل أو لورانس أو صفوف البدو . واستنتج وميس أن فیصل لم يستطع الوفاء بالموعد وانتابته الحيرة . كان ثمة ستمائة متطوع عربي على سطح السفينة هاردنج وكان معظمهم من عبيد جهينة السابقين وحرس فیصل القبلى من بيشة وقد تم إركابهم السفينة من أم اللج . وكان من المفترض أنهم سيحاربون تحت قيادة شيوخهم عمرو وصالح مع إرشاد اسمى من الماجور تشارلز فيكرى والكابتن إن . إن . إى . براى ، وكانا ضابطین متمرسین يتحدثان العربية ألحقهما وينجت بفريق مهمته العسكرية . وواجه وميس أحد خيارين : إما أن ينتظر ظهور فیصل أو أن يبدأ هجمته بدونه . فلم يكن بإمكانه الاحتفاظ بالعرب على ظهر هاردنج لمدة أطول كثيراً حيث كان يعوزهم الطعام والترتيبات الصحية . لكن ، هل كان باستطاعتهم الاستيلاء على المدينة ؟ فقد كان يسكن الوجه غالبية من المهاجرين المصريين من واحة القصير التى تقع مباشرة فى مواجهة المدينة عبر البحر الأحمر ، وكانوا معارضين للهاشميين ، وكان عدد الحامية التركية فيها ٨٠٠ رجل بالإضافة إلى ما يقرب من ٥٠٠ جندي غير نظامي من فرق الجمال من عقيل . وقرر وميس أن باستطاعة العرب الاستيلاء على الوجه بواسطة ٥٠ بندقية بحرية وفريق إنزال مكون من مائتين من الأفراد من جنود الأسطول لدعمهم ، دون دعم قوات فیصل المتفوقة عددياً . وانسابت هاردنج وسط الضباب ورسى على بعد ميلين من المدينة . وتسلىق العرب إلى الصنادل البحرية التى كانت راسية فى خليج تحميه صخرة مرجانية . وكانوا حفاة يرتدون عباءات شعر الإبل لتحميهم من البرد وتنبعث منهم رائحة الأغنام . وأخذ الضباب فى الانقشاع وبدأت البنادق البحرية ترعد ضوضاء عميقة عالية حتى بدا الأمر للعرب وكأن الأرض نفسها تهتز . وتشبث نصف رجال القبائل بأماكنهم ورفضوا أن يتحركوا ، أما الباقون ، الذين كانوا قد استعدوا لأعمال النهب فقد قسموا أنفسهم إلى ثلاثة أقسام ذهبت مباشرة إلى شن هجوم ، وهم يصيحون بضراوة ، فى اتجاه المدينة . وتوقع الأتراك هجوماً شاملاً من الجنوب وكانت تنظيماتهم ضعيفة . ونظر الحراس المتمركزون فى المنازل الواقعة على الحدود الشمالية من النوافذ ليروا حشود رجال القبائل وهم يتصايحون ويندفعون تجاههم مباشرة . وسمعت بعض الطلقات التى

أصابت أعرابيين أو ثلاثة سقطوا مثل «الصرر» القائمة وسط الصخور. وكان هذا هو الدفاع الوحيد الذى استطاعه الأتراك إذ وصل العرب إلى أول المنازل واقتحموا الأبواب وأطلقوا الرصاص على ثلاثة مصريين مدنيين وأخذوا فى تمزيق الحواشى وتحطيم الأثاث فى بحث مجنون عن الغنائم. وبعد ذلك، أخذوا ينتقلون من منزل إلى آخر ويدخلون فى اشتباكات ويقتلون وينهبون. وفى هذه الأثناء، كانت المجموعتان الثانية والثالثة قد اشتبكت مع الجنود الأتراك فى الخنادق، حيث أمطرهم فريق منهم بنيران البنادق بينما تقدم الفريق الآخر، بقيادة الشيخ صالح، ببطء تجاههم. وسار رجال القبائل على الحجارة الباردة غير مسرعين يتحسسون طريقهم بمهارة وقد زموا دسداشاتهم فى أحزمة ذخائرهم وحملوا بنادقهم على أكتافهم وفوهاتها مسددة للأمام بالأسلوب البدوى. كانوا على بعد ألف ياردة من الموقع التركى حينما فتح العدو عليهم النيران، وفجأة، انتقلوا إلى الخطة البطيئة وتوجهوا إلى قمة تلة احتما خلفها وأخذوا يطلقون النيران فأصابوا عشرة أو أحد عشر تركيا.

وأرسل فيكرى، الذى كان قد تقدم معهم، إشارة إلى السفينة مستعملاً مرآة، وأخذت السفينة الحربية فوراً فى قصف تحصينات الأتراك إلى أن هرب الأتراك وتوقف القصف مدة تسمح للعرب بالتقدم. وتقدموا بشبات، وكادوا يصطدمون بمجموعة من مائتين من رجال الأسطول البريطانى كان قد تم إنزالها. وفى هذه الليلة، ناموا فى مواقعهم، وانتقلوا فى الصباح إلى أحياء من المدينة لم يكن قد تم الاستيلاء عليها ليكتشفوا أن معظم الحامية التركية بمن فيهم قائدهم، قد هربوا أثناء الليل واختبأت القوات القليلة التى تبقت فى المسجد. وبمجرد أن أحدث الطراد فوكس فتحة كبيرة فى حائطه، ترنح أفرادها خارجه عزلاً من السلاح وسقطت مدينة الوجه.

وصل جنود فيصل وبرفقتهم لورانس، وستيوارت نيوكومب الذى لحق بهم فى أم اللج، فى اليوم التالى ليجدوا المدينة فى أيد عربية. وفى هذا الصدد، كتب كابتن براى قائلاً: «كانت رؤية جنوده فى أنحاء متفرقة من السهل المتموج باتجاه الجنوب الشرقى مشهداً مبهجاً.. وقاد فيصل نفسه طليعة الجيش، وكانت علامة حضوره

بينهم الراية الحمراء العملاقة التي رفعها حامل لوائه، وكانت بقعة اللون الوحيدة في جيشه». وهرول البدو إلى المدينة ممتطين خيولهم ونوقهم وهم يغنون ويمزحون وينفذون هجمات صورية. ولفت نظر براى أن مرحهم كان شديداً: «الأمر الذى يشير الدهشة، فقد خذلونا دون عذر، ولم تكن هناك أية محاولة لكسب الثقة رغم تفسيرات لورانس وفيصل اللاحقة. وينعكس هذا على قيادة فيصل، وبدرجة أكبر على مستشاريه البريطانيين». وكانت هذه بالفعل نهاية حزينة لمسيرة لورانس المذهلة لمسافة مائتى ميل. ورغم أنه شعر بالحزى لهذا الفشل بينه وبين نفسه، إلا أنه فى العلن، ألقى مسؤولية التأخر على نقص المياه وضعف إبل فيصل التى نفق منها الكثير، وعدم كفاءة مرشديه الجهنيين. وفى سبيل الدفاع عن نفسه، هاجم تهور فيكرى، ملمحاً أن الهجمة حدثت قبل أوانها، وأن عدد الإصابات كان غير مقبول بالنسبة لجيش غير نظامى. وأوضح، عن حق، أن إصابات العرب ليست إحصائية بل مآسى شخصية وأسمى الهجمة حماقة عسكرية، واستنكر النهب وتخطيط المدينة التى كانوا يحتاجون إليها كقاعدة عربية. وكان فيكرى يعتقد أن زهو لورانس بإمكان دخول العرب إلى دمشق قرب نهاية العام ما هو إلا تبجح. وكان لورانس، من جانبه، ينتقد باستمرار الجنود المخترفين. ومن ثم، فقد أدان هذا المدفعى الذى مارس عمله فى السودان لمدة عشر سنوات، ووصفه بأنه شخص عديم الإحساس لأنه يشرب الويسكى فى حضرة فيصل الذى كان مسلماً ورعاً. وكان ينظر إلى فيكرى على أنه ضابط كلونيالى، وأنه رغم إتقانه العربية، يتعامل مع العرب من منطلق التنازل ولا يفرق بين العرب العاديين والعرب النبلاء من أمثال الهاشميين. أما أسلوب لورانس فكان جده مختلف. فقد حاول أن «يدخل تحت جلد العرب» ويحاكى أساليبهم ويرى أفضل خصالهم، وإن بدا سلوكهم غير مقبول للثقافة الأوروبية. بيد أن السبب الحقيقى لسخطه على فيكرى كان مصدره لا شعوره وأحاسيسه المكبوتة رغم القناع الذى كان يتخفى وراءه. فقد كان هو وفيكرى متشابهين فى الجوهر ويختلفان فى الأسلوب فقط. ورغم أن شرب فيكرى الويسكى فى حضور فيصل قد يكون دليلاً على عدم الحساسية، إلا أن فيكرى كان صريحاً (كان فيصل، الذى امتاز بسعة الأفق، قد تقبل فعله هذا ضاحكاً)، على حين كان تلبس لورانس للشخصية العربية عملاً تنكرياً، وانتقاده

لثيكرى غير منصف في غالبيته. فأولاً، كان وميس لا فيكرى هو من قرر عدم انتظار قوة فيصل. ثانياً: لم يكن بمقدرة فيكرى التحكم في العرب. ثالثاً: فقد روع نهب المدينة وتحطيمها فيكرى وبرأى بنفس القدر. أما لورانس، فلم يلق على نفسه أية تبعة لتأخر فيصل عن الموعد، وكانت الأعذار التي قدمها واهية. فكان قد تفاخر في أماكن أخرى بمقدرة البدو على السير مسافات طويلة بأقل كمية من الطعام والماء؛ بالإضافة إلى أنه كان بمقدرته أن يرسل بسهولة فرقة متقدمة من رجاله الشمانية آلاف ليشاركوا في الهجوم على الوجه. إلا أنه على الجانب الآخر، فقد قدر حس لورانس الدعائي أن المسيرة قد لجحت لجرد تحققها. فكما أدرك كان من شأن قدرة فيصل على تجميع مثل هذه القوة الهائلة من رجال القبائل وتحريكهم لمسافة ٢٠٠ ميل عبر الصحراء، وتهديدهم الآن لخط السكك الحديدية، أن يكون له أثره الساحق على معنويات الأتراك.

وكان الشريف عبد الله، أيضاً، قد وجه ضربة شديدة لمعنويات الأتراك حينما كان يسير إلى وادي عيس في ١٣ يناير ومعه خمسة آلاف من البدو، والتقوا بقوة تركية بقيادة أشرف بك، السفاح السابق، قرب واحة خيبر. وكان عبد الله، طبقاً لما قاله فيصل، على مقدرة أن يتخذ قرارات وينفذها في سرعة البرق عند الضرورة. ومن ثم، فقد دفع بفرسانه سريعاً، لدرجة أن رجال المدفعية التركية لم يستطيعوا تصويب سوى ستين طلقة قبل أن يتم الإيقاع بهم. وتم أسر جميع صفوفهم بمن فيهم أشرف، كما أستولى عبد الله على ٢٠,٠٠٠ جنيه استرليني ذهبي، وعدد من السجاجيد والملابس والبنادق الآلية والمدافع وصناديق مليئة بالمسدسات. وبعد ذلك، عبر عبد الله البحر إلى وادي حمض وترك لفخري باشا رسالة بين قضبان السكك الحديدية يخبره فيها أن أشرف بك في أيدي العرب ويوجه فيها إليه تهديدات كارثية. ثم أرسل عبد الله رسولاً إلى فيصل ومعه خنجر أشرف بك المرصع كهدية بينما ظل هو يعسكر مع لورانس في حارات غالب على الشاطئ. وأقيمت ولاءم واحتفالات ضخمة. وكتب لورانس قائلاً «إن مغنى القبيلة نظم أهزوجة تمجد الانتصار في ست عشرة دقيقة». ومكث العرب يوماً إضافياً في أبو زرايبات في وادي حمض للاحتفال؛ وكان هذا هو سبب التأخير وليس نقص المياه.

وقد أنهى أسر أشرف في ١٣ يناير، وأنباء خطط مسيرة الوجه، خطط فخري

باشا بالنسبة لرابغ . واستمر رجال جماعة حرب يناوشون جنوده فى وادى صفراء لحسابهم لا لحساب الهاشميين . فقد كانت خطوط إمداداته تمتد بشكل خطير فى مناطق معادية . وكان للبريطانيين تفوق جوى فى رابغ ؛ وكانت طائرات روس قد حلقت فوق المدينة نفسها مرات عدة ، أما الأتراك ، فقد أضعفهم عدو أشد فتكا وهو ميكروب الكوليرا الذى كان يقضى على ٢٥ جنديا يوميا . وفى ١٨ يناير ، أى بعد أسر أشرف بخمسة أيام ، أمر فخرى باشا جنوده بالانسحاب إلى المدينة وإلى السكك الحديدية . وتبخر التهديد لرابغ ؛ ولم يتحرك الأتراك مرة أخرى خارج المدينة طوال الحرب .





لا أعتقد أن رجلاً إنجليزياً قد

احتل هذه المكانة من قبل

وادي عيس ووادي حمض

مارس وأبريل ١٩١٧

# 14

قبيل غروب الشمس

بساعة أبصرنا محطة أبي

النعام. كانت الأكمات وشجيرات

النخيل تلقى بظلالها، كعلامات

تعجب، عبر الألواح الخشبية الصلبة

على أرض الوادي. ومن بُعد، إذا لحها

الإنسان من بين صفوف الأشجار

الشائكة، كانت أبنية المخططة تبدو

كمجموعة هندسية متناسقة داكنة،

وسط أشكال

طبيعية متجزئة

كانت ضئيلة في مواجهة جوانب الجبل الجرانيتية الوامضة التي كانت تشمخ خلفها. كان هذا هو وادي حمض، حدود بلدة جهينة وبيلي. وكان سائقي مفلح ينظر إليها كأرض غريبة. حاولت أن أجد جملأً أحج به إلى الأماكن التي بدأ منها لورانس هجومه على خط سكك حديد الحجاز بأسلوبه البطيء المتروى الذي ناسبها. إلا أنه لا يوجد إبل تمتطى في المملكة العربية السعودية اليوم واضطرت آسفاً أن أستأجر سيارة من نوع Land Cruiser في المدينة المنورة. وقضينا طوال فترة ما بعد الظهر نقف أثر خط السكة الحديدية. فقد تم إزالة القضبان والعوارض منذ زمن بعيد، وكان بالإمكان التعرف عليها بمشقة في بعض الأماكن عن طريق الجسور، التي هي عبارة عن أرفف منخفضة تمر خلالها الرمال والصخور الصلصالية. وقد أقيمت المحطات على مسافة ثلاثة عشر ميلاً بين كل منها. وفي عام ١٩١٧، كان من عادة الأتراك أن تمر دورياتهم يومياً، بشكل آلي لا يتغير مما مكن مجموعات لورانس الاستطلاعية من التنبؤ بتحركاتها. فقد كانت الدورية

تقطع نصف المسافة تحديداً من إحدى المحطات إلى المحطة التالية . وهناك يلتقى أفرادها بجيرانهم ويتحدثون ويتبادلون السجائر ثم تعود كل دورية متبعة الخط الحديدى . كان هناك ست محطات بين المدينة المنورة و«أبو النعام» ، استدعت كلها صوراً من قصة «المحيط» حيث أجبر على وفيصل على التراجع ، وهاجمهما فخرى باشا من الخلف فى يونيو عام ١٩١٦ ، فى حفيرة وبواط اللتين خطط فيصل للهجوم عليهما بقوة من رجاله ؛ البوير حيث مازالت ترقد فى فناء المحطة نصف قاطرة كاملة وقد علاها الصداً وغطيت بالكتابة المحفورة ؛ واسطبل عنتر حيث عبر عبد الله الخط وهو فى طريقه إلى وادى عيس .

وكانت اسطبل عنتر تقع تحت جبل ذى قمم مزدوجة ، اعتقد العرب فى موروثاتهم أن البطل شبه الأسطورى عنتر بن شداد قد ربط حصانه الضخم بها . بيد أن «أبو النعام» كانت أكثر المناطق التى استحوذت على اهتمامى لأنها كانت المكان الذى اشتبك فيه لورانس لأول مرة مع الأتراك ، وتلمس بأصابعه قضبان السكك الحديدية المثيرة . وكان مدخل وادى عيس ظاهراً للعيان من جهة الغرب ،

وكذلك أول قمتين لجبل الظلة حيث ثبت الشريف شاكر مدفعيته لقصف المخططة من على بعد ألفى ياردة. وتوحي حمض وسور وادي بحس كغابات إفريقية. كان هناك، في زمن لورانس الفهود والضباع والوعول، ويدل اسم النعام على وجود تلك الطيور هناك في الماضي. أما مفلح، فكان يعتقد بأنه مازالت هناك ضباع ووعول، وربما فهود أيضاً، رغم أنه لا يعرف أن أحداً شاهدها في السنوات الأخيرة. وحتى كبار السن الذين تحدثت معهم لم يشهد أى منهم نعاماً. وسرنا ببقة نمت فيها ثمار الخنظل الصغيرة المستديرة ذات اللون الأخضر المائل للصفرة. وتوقف مفلح ليجمع بعضها قائلاً إنهم يستخلصون منها ترياق لمرض السكر. وهذه الثمار سامة لمن يأكلها من البشر، إلا أن الحمير تطعم بها بعد سلقها. وكان البدو يستخرجون القطران من بذورها ليطلوا به قرب الماء. وهذه الثمار، مثلها مثل بدو الصحراء، متكيفة تماماً مع البيئة القاحلة. فحينما تجففها الشمس إلى أن تصبح مجرد قشور تذروها الرياح في الصحراء نائرة حبوبها في كافة الأنحاء.

كانت «أبر النعام» منشأة على نموذج المخططات الأخرى التي شاهدها. فكانت تتكون من مباني ثلاثة رئيسية: حصن صلد؛ والمخططة نفسها، وبرج مياه بيضاوي الشكل، وليس دائرياً كما وصفه لورانس. وإلى الناحية الغربية كان هناك مسجد صغير ومبنى للبريد. كانت المباني مشيدة من قوالب البازلت الأسود، وكان من الواضح أن الدور العلوى للحصن وجزء من برج المياه قد أعيد بناؤه بعد القصف العربى. وتفحصت أنا ومفلح الحصن الذى كان صلب التشييد، وكانت غرفه تفتح عن حوش مركزى مدفون تحت طبقات من فضلات الطيور. وكان ثمة سلم من الصلب يؤدي إلى خزان مياه تحت الأرض، ودرجات سلم تقود إلى الأدوار العليا التي كان بها ممرات وجدران ذات فتحات لإطلاق النيران. ونظرت بالمنظار المعظم على امتداد الوادى باتجاه بروزات الصخور المتكسرة التي كانت تحرس مدخل وادى عيس. كان الوادى مليئاً بالسعدى (rimth) التي تنمو في مجموعات ذهبية كالجزر، وكانت هناك مجموعة من الإبل ترعى على أوراق الشجيرات في سلام. وتعجبت: ماذا رأى قائد الحصن، وكيف كان شعوره لدى سماعه أصوات بنادق الشريف شاكر المرعبة صباح يوم ٣٠ مارس عام ١٩١٧ قبل أن يدرك المبنى عليه؟ كان هناك وقتذاك مالا يقل عن ٤٠٠٠ رجل يدافعون عن المخططة، وكانوا يبيتون في

خيام نصبت حولها. وكان المكان محاطاً بالأسلاك الشائكة. كان الأتراك يعلمون بوجود دوريات عربية في المنطقة ويتوقعون هجوماً وذلك لأن رجال لورانس كانوا قد أطلقوا القذائف على الحصن ليتأكدوا أن القوات ستبقى بالداخل. وأراني مفلح، فيما بعد، الهيكل الحديدي الملتوى لأحد عربات القطار في مواجهة الباب، مع عربات النقل ذات الارتفاع المنخفض التي كانت نصف مدفونة في الرمال. كان المعدن ساخناً لدرجة لا يمكن معها لمسه. ومن المحتمل أن كان هذا من بقايا هجمة لورانس لأن إحدى قذائف شاكرك كانت قد أصابت العربة الأولى من ست عربات ملحقة بالقاطرة التي كانت متوقفة على ألواح الجدران الخارجية وفجرت حمولتها الشديدة الاشتعال محدثة توهجات نارية. أما القاطرة، فقد سارت مباشرة جنوباً إلى المكان الذي زرع فيه لورانس لغمه الأول.

وكانت الوجه قد اتخذت قاعدة يمكن للعرب منها قطع خط سكك حديد الحجاز، إذ إن هدف فيصل النهائي كان الخنق البطيء للمدينة المنورة ثم الاستيلاء عليها. وبمعنى ما، فقد كانت مسيرته للانقضاض على الوجه نجاحاً ساحقاً. فقد جُندت قبائل البدو في مناطق شمال الحجاز وما بعدها وأتى بهم مسرعين تحت ألوية الهاشميين. واستقبل فيصل، في شهر فبراير فقط وفوداً من آل شرارة والحويطات وبنو عطية وقبائل رواله من سوريا وأحراشها، ومن قبائل أولاد علي وبيلي من الحجاز. كان هدف فيصل هو صهر القبائل وتشكيلها في أمة عربية، وكانت مهمته الأولى هي إنهاء النزاعات الشأرية التي مزقتهم لأجيال. وكان ينصت بصبر وروية إلى كل ذي مطلب ويفحص تاريخ ادعاء كل مظلمة، ويوازن المطالب المتنافسة للدية حينما تكون موضع قبول، وحين لا يتم قبولها، كان يستدعي مبدأ التضامن العربي باسم والده حسين ملك الحجاز. كان يؤيد الوحدة يقسمون على القرآن الكريم في حضور فيصل شخصياً أن ينتظروا طالما انتظر، ويسيروا حين يسير، وألا يطيعوا تركياً، وأن يعاملوا من تحدث بالعربية برفق وأن يضعوا الاستقلال فوق الحياة والأسرة والمتاع. وكان البدو يقسمون، إلا أن اعتقادهم أنهم أمة واحدة يظل موضع شك. فقد كانوا يكرهون الأتراك ويودون لو غادروا تخومهم، وكانوا على استعداد لاتباع الهاشميين من أجل تحقيق هذا الهدف. بيد أنهم كانوا يعتبرون استقلالهم أكثر قيمة من الذهب، وحين كانت

أفكارهم تشرد خارج مناطقهم، فإنهم كانوا يفعلون هذا من أجل الكسب أو الغزو؛ فقد ظلت أمتهم دوماً هي القبيلة والقبيلة والقبيلة.

ولاحظ لورانس أن الجهنين كانوا قد بدأوا في العودة إلى منازلهم في وادي ينبع بعد أن شعروا بأنهم أغراب في منطقة البيلي. ومن المفارقات أن رجال العقيل، الذين لم يكونوا قبليين أو بدوا رحلاً، هم فقط من كانوا على استعداد للسفر لمسافات أبعد كثيراً من تخومهم. وكان للعقيلين مشاكلهم الخاصة. فقد قاموا بأعمال عصيان ضد قائدهم عبد الله بن دخيل يوم ١٢ فبراير، ونهبوا خيمته وقاموا بجلد حراسه، ثم اندفعوا إلى معسكر العتيبيين الذين كان لهم معهم ثأر. إلا أن فيصل نفسه أثناهم عما اعتزموه، وفي هذه الأثناء، كان يخطو بينهم وهو حافى القدمين ويضرب بسطح سيفه. إلا أن السلام لم يعد إلا بعد أن قتل رجلان وجرح ثلاثون. وكانت مهمة لورانس مع فيصل قد انتهت بعد وصول نيو كومب إلى الميدان ليحل محله. إلا أن فيصل ولورانس كانا قد تعلق أحدهما بالآخر ولم يكن أحدهما يود أن يفارقه الآخر في خضم المعركة. ورأى فيصل أن مكانه هو المستشار الرسمي والمحرك غير الرسمي للثورة العربية. وفي اليوم الذي رحل فيه إلى الوجه كانت قد وصلت كليتون برقية من جدة تحوى طلب فيصل الشخصي بأن يستمر لورانس معه لأنه «ذو نفع كبير». ولم يكن أمام كليتون سوى القبول. وفي أول مارس، كتب إلى هيو بيرسون - الذي كان قد حل محل ويلسون بشكل مؤقت في جدة - «إن وجود لورانس مع فيصل له قيمة لا تقدر، ولو وجد شخص مماثل ليحتل مكاناً إلى جانب على، فإن هذا سيزيد بشكل عظيم احتمال التعاون بين الجنسين». وكان من الحتمي، ولدى لورانس ما لديه من مقدرة على التماهي مع الآخرين، أن يتوحد مع العرب في الثورة العربية. فقد شعر أن لجام القوة كان بين يديه. ونسى تحفظاته المبكرة على مكانه في الميدان. وانهماك في عمله لدرجة أنه استبعد كل ما عداه. والآن، وهو يرتدى الزي العربي ويتحدث العربية باستمرار، فقد تلبس الشخصية العربية ونسى كونه كابتن في الجيش البريطاني واعتبر نفسه فرداً في عائلة فيصل. فقد انتقى فيصل كزعيم رمزي للثورة، وكان هو وحده من سيقوده. كان يعلم أن فيصل شخص يسهل التأثير عليه، ومن ثم، اعتزم أن يكون مستشاره طالما استطاع ذلك. وكتب إلى عائلته يقول «إن موقعي شاذ. ولا أعتقد



أنه قد كان لأي رجل إنجليزي قبلي مثل هذا المكان». وكان فيصل يعتمد على لورانس لعلمه أن لهذا الرجل الإنجليزي خاصية لا غنى عنها للقائد الحق إنه كان يوحى بالثقة. ولم يكن باستطاعة لورانس أن يحدث أثراً عظيماً بسحر شخصيته فقط، بل كان أيضاً بوسعه بعث الطمأنينة في الآخرين بأن كل شيء سيسير نحو الأفضل. وكما قال السير هربرت بيكر فيما بعد «كان يبدو وكأنه يشع أثراً مغناطيسياً». هذا، رغم أن سلوكه الواثق كان في حقيقة الأمر ستاراً لعدم ثقته الداخلي، وشكوكه التي تسببت له في اضطراب عظيم. فقد كان مثل والدته سارا، يبدى للعالم وجهاً مختلف. إلا أنه كان يمارس تأثيره بحصافة. فلم يحاول إملاء أية استراتيجيات على فيصل، ولم يكشف في المجالس العربية عن آرائه. ولم يكن يأمر باتخاذ طريق ما، بل كان يوحى به. وعلق لينارد وولي على هذا قائلاً: «... كان يأتي باقتراحات ذكية، إلا أنه كان نادراً ما يجادل لدعمها. فقد كان يقيمها على أسس سليمة بدرجة كافية وكان يتوقع أن يدرك المرء هذا بنفسه. فإذا لم تحظ بالموافقة يركن إلى الصمت وهو يبتسم». وكشف لورانس عن أسلوبه مع فيصل في المواد السبع والعشرين التي كتبها للضباط كي يتبعوها مع الهاشميين: فقد كان يحاول أن يتأكد أن الشريف قد وضع خططه السرية أمامه؛ وكان دائماً يقبلها ويمتدحها ثم يقوم بعد ذلك بتعديلها بأن يستخلص المقترحات من فيصل نفسه بحيث تتوافق مع آرائه. وبعد أن يتفقا، كان يلتزم بها بحزم، ويدفعه إلى أن يلتزم هو بها بلباقة بحيث لا يشعر الشريف بهذا. وكان يظهر احترامه للشريف أمام الآخرين ويقوى من مكانة فيصل على حساب مكانته هو. وحينما يكون في معسكر الشريف، كان لا يقوم بزيارته بصفته الرسمية، بل يظل في معيته باستمرار، يأكل معه، ويحضر جميع المقابلات، ويقترح الأفكار في الحديث العابر بشكل يبدو عشوائياً. إلا أنه كان يختفي حينما يحضر مشايخ القبائل لمبايعة الهاشميين لعلمه أن الأثر المبدئي لوجود أجناب ثقة مطلعين على أسرار فيصل سيكون ضاراً بالقضية. استحضر لورانس قدراته الهائلة على التركيز ليؤثر بها على شئون الشريف؛ وغمر نفسه كلية في الثقافة العربية: فكان يراقب وينصت ويقلب الأمور ويفكر ملياً في التفاصيل وينقب عن الدوافع والمكائد المتخفية تحت السطح ويحلل الشخصيات التي عليه التعامل معها. كان دائماً يتوخى الحذر ولا

يقول ما لا يلزم قوله أبداً، ويراقب نفسه وأفعاله باستمرار. وقد تذكر بيرس جويس، الذى كثيراً ما شاهده فى اجتماعات مع العرب، أنه نادراً ما كان يتحدث: «فقد اقتصر على دراسة الرجال من حوله، وكان يعرف مسبقاً أنه سيتم قبول خطته، وكان يرى أنه من الأفضل أن تترك مهمة إشعال حماس رجال القبائل للقادة العرب... ولا يعود نجاحه دائماً لقيادته الفردية لجموع البدو... لكن إلى الاختيار الحكيم للقادة... وإلى إمداد الطاحونة بمواد الطحين الأساسية على هيئة جوائز ذهبية للإنجازات الحسنة».

وكان لورانس يدرك أن المسيرة إلى الوجه كانت نصراً معنوياً عظيماً لقضية الهاشميين؛ أما بالنسبة للضباط البريطانيين المحترفين الذين لم يعرفوا القدر الكافى عن الحرب الدعائية، فاعتقدوا أن المسيرة دليلاً على عدم كفاءة العرب، وأن البحرية الملكية هى التى ألحزت النجاحات الكبيرة. وأدرك لورانس حاجته إلى تحقيق نصر مستقل كى يثبت جدارة الحركة فى أعين القادة البريطانيين، وجدارته شخصياً أيضاً، إذ كان يعلم رأى الضباط من أمثال براى وفيكري فى فشل فيصل فى الوفاء باللقاء فى مدينة الوجه، وفى دوره هو فى هذا الفشل.

وكان العرب بحاجة إلى الإتيان بشيء مذهل لكسب احترام البريطانيين. وبدا الأمر وكأن الفرصة تقدم نفسها. ففي ١٠ مارس رست السفينة «نور البحر» فى الوجه ومعها الأنباء التى هزتهم هزاً بصدور الأوامر لفخرى بك بالجلء بقواته عن المدينة المنورة. وكان الانسحاب من هناك فى هذا الوقت نصراً كبيراً للعرب وكارثة للبريطانيين. فقد كانت قوات مري قد عبرت سيناء، وكان حينذاك يعد لهجمة ضخمة ضد الدفاعات التركية فى فلسطين، تبدأ من غزة على الشاطئ وحتى بئر سبع فى الداخل. ومن ثم، كان الوصول المفاجئ لحامية المدينة التركية المنسحبة المؤلفة من ١٢٠٠٠ جندي ومعهم مدفعيتهم الكاملة إلى جناحه الأيمن أمراً غير مرغوب فيه على الإطلاق. وفى خطاب منه إلى لورانس أكد كليتون على وجوب الهجوم على قوات فخرى باشا وتدميرها قبل أن تصل إلى فلسطين، وأنه لا يجوز، تحت أية ظروف، أن يُسمح لها بالوصول إلى هناك. وكان نيوكومب وجارلاند مازالا يشنان غاراتهما التدميرية فى شمال البلاد. ولم يجد لورانس من خيار له،

بصفته الضباط الأعلى رتبة في الوجه، سوى تحمل مسئولية الموقف. وكانت مهمته الأولى تتطلب كل ديبلوماسيته وتستدعي كل صلات الثقة التي أسسها مع فيصل. فبين ليفيصل وجوب التضحية بالأولويات العربية من أجل الأولويات البريطانية. وكان فيصل، وقد كشف لورانس له مؤخراً شروط اتفاقية سايكس/بيكو، يتطلع للتقدم نحو سوريا كي يقوى من مركز العرب هناك قبل أن يطالب بها الفرنسيون. وكان إقناعه فيصل بالقبول بالمتطلبات البريطانية في مدة لا تربو على ساعات قليلة شاهداً عظيماً على قوة الإقناع التي كان لورانس يتمتع بها. وبمجرد أن انتهى من هذا، جلس الاثنان يحددان كيفية توزيع قواتهما. ثم بعث، على وجه السرعة، بمراسلين إلى أخويه عليّ وعبد الله ليخبرهما بالموقف الجديد. فكان عليّ أخيه على التحرك إلى الشمال الشرقي مع الجهنيين وبنى سالم، وأيضاً كان يجب إرسال الديناميت إلى عبد الله مع تعليمات بتفجير خط السكك الحديدية في كل النقاط مهما كانت الظروف. وكان عليّ مولود الخلد ورأس ساردست التوجه إلى فقير مع فرقة المشاة على بغالهم، وبرفقتهم مدفع جبلي. ويتوجه الشريف علي بن حسين من قبيلة بني حارث، أو «اللورد الصغير» الذي كان لورانس قد التقى به في الحمراء في أكتوبر السابق، إلى جباله لمشاكسة القوات التركية هناك. وأيضاً، كان عليّ فرق من آل بيلي وأولاد محمد أن يصطحبوا البنادق الآلية ويهددوا محطة العلا. وكان هدف هذه الخطة التي ارتجلت عفو اللحظة هو احتواء الأتراك جنوب هذا الخط لأنهم تمكنوا من تخطي خط العلا وأصبحوا في حماية الحامية العثمانية في تبوك. وكانت محطة الحديد هي إحدى المحطات الهامة في طريق انسحابهم، إذ إنها المصدر المائي الوحيد لمسافة مائتي ميل. ومن ثم، عيّنها لورانس هدفاً شخصياً له. وكان قد تحدث عن إمكانية زيارته لعبد الله في وادي عيس حتى قبل أن يصل إلى الوجه. والآن، اتخذ قراره بالسفر إلى معسكر عبد الله ليشرح له الاستراتيجية الجديدة، ويلقي نظرة على الخط الحديد، ويزرع الديناميت في أحد القطارات، وإن أمكن، يستولي على إحدى المحطات. وفي نفس الليلة، رحل إلى الوادي في معية مرافق.

كانت هذه أولى عمليات لورانس الكبيرة في الميدان. وكما كان يصبر، فلم يكن ضابط ميدان مدرباً بل مسئولاً سياسياً مكانه المناسب إلى جانب فيصل.

وكان كل من جارلاند ونيوكومب، زارعا الألغام المدريان، قد سبقاه إلى شن هجمات على الطريق الحديدى. إلا أن هذه كانت حالة طارئة وشعر لورانس أن قوة عبد الله الجالسة فى وادى عيس لم تفعل سوى القليل طوال الأشهر الماضية لتبرر وجودها هناك. فكان عليه أن يدفع عبد الله إلى فعل شيء كما نجح مع فيصل، وسيتولى هو تخطيط النقطة الرئيسية على خط السكة الحديد بنفسه. ولا بد أنه بدا للورانس، وهو فى طريقه مع مرافقيه، أن عبء حملة الشرق الأوسط برمته كان ملقى على كتفيه. إلا أن ذعره القديم من الإصابة الجسدية انتابه بمجرد أن سار فى طريقه. فقد ترك المرض علامته مع كل لحظات الضغوط العميقة فى حياته: فرحلاته فى سوريا انتهت بالمalaria والدوسنتاريا، وفى اللحظة الحاسمة أثناء مهمته فى الكوت عام ١٩١٦، أرقدته الحمى. وكانت malaria حقيقية، إلا أنها كانت تعاوده على فترات لدى انهيار دفاعاته النفسية. فقد كان خروجه إلى وادى عيس مسئولية رهيبة. وظهرت عليه الأعراض الجسمانية لمسئوليته عن ضرورة الأداء الصحيح تجاه العرب وتجاه رؤسائه البريطانيين، وللاحتمالات التى قد ترافق وجوده على أرض يربض عليها الذئب التركى. وفى الليلة الثانية من رحلته، عندما عسكر وفريقه عند عين «أبو الزريبات»، حيث كان فيصل قد تباطأ أثناء مسيرته إلى الوجه، أصيب لورانس بالحمى والدوسنتاريا والطفح الجلدى. وفى اليوم التالى الموافق ١٢ مارس رحل الفريق مبكراً. وقضى رفاق لورانس، وهم مراكشى يدعى حامد، وطاه سورى، وبعض العقيليين والرفاعيين، ومراوى وعتيبى، وهم يقضون يومهم فى جدال مستمر. وكانت الرحلة صعبة ولورانس يتألم. وبعد استراحة قصيرة فى منتصف الصباح، تسلقوا مجرى مياه ضيق باتجاه الصخور، وكانت كتلاً شاسعة محززة من الصخور البركانية المتشققة، حيث أجبروا على التراجع وسحب جمالهم على درجات صخرية وحواف جبلية حادة كأصبال السكاكين. ثم هبطوا إلى واد مفتوح ومنه إلى آخر وآخر حتى ضلوا طريقهم فى منطقة جلاميد البازلت الأسود التى تعرف بالحراء، حيث تعثرت الجمال وزلقت أرجلها. ثم سطعت الشمس حارقة وأصيب لورانس بالإغماء مرتين أثناء النهار، ولم يكن أمامه سوى أن يظل على سرج الجمل. وفى وقت العصر، كان عليهم الهبوط مرتين على منحدرات حادة مما زاد من إعيائه. وأخيراً، توقفوا فى الساعة الرابعة وخمس

وأربعين دقيقة لقضاء ليلتهم في مجرى مائى يدعى وادى خيطان حيث قام لورانس بفك حزام خرجه وألقى بنفسه في ظل بعض الصخور وكان منهكاً ومصاباً بصدايح وحمى. أما ما حدث بعد هذا فيمثل إحدى الفجوات الغامضة التى هى من ملامح حياة لورانس حيث يبدو الأمر وكأننا ننتقل من عالم الرقائق الصلدة أى الأزمنة والمسافات والأرقام والتواريخ التى تملأ مفكرته، إلى عالم تحت أرضى من الكوابيس والأشباح.

فطبقاً لما رواه لورانس فى «أعمدة الحكمة السبعة»، فقد قطع عليه أحلامه صوت إطلاق الرصاص عن قرب، إلا أن هذا لم يقلقه لأنه تخيل أن أحد البدو كان يصطاد أرنباً برياً للعشاء. إلا أن الأمر لم يكن هكذا. فسرعان ما أيقظه سليمان العتيبي وقاده إلى أخدود آخر ليريه جثة عقيلى يدعى «سالم» قتل بغير أحد حدث جرحاً مفتوحاً فى جبهته. ورأى لورانس بوضوح أن الجلد كان محترقاً فى الأطراف مما يوحى بإطلاق النار عن قرب. وعلى الفور، شك فى سليمان متذكراً الثأرين آل عتيبة وآل عقيل، إلا أن على، وهو عقيلى كبير السن، أكد له أن القاتل هو خادم لورانس نفسه، أى حامد المراكشى. وأرسل لورانس رجاله ليبحشوا عن حامد ثم زحف تحت أغطيته حيث سرعان ما سمع حفيفاً. وفتح عينيه ليرى المراكشى يرفع أحزمة خرج جمل قريب، وكان من الواضح أنه ينوى تحميل ناقته ليزحل. إلا أن لورانس سحب مسدسه وأوقفه وتدافع العرب الباكون وعقدوا مجلس قضاء على الفور، واعترف حامد أنه وسالم تجادلا وأنه فقد أعصابه فقتله من مدى قريب. وطلب على والعقيليون تطبيق مبدأ العين بالعين، وكان لورانس يعرف أن هذا هو قانون الصحراء القديم، كما أنه كان على أية حال مضطرباً لدرجة أنه لم يستطع التدخل طلباً للرفقة. فوافق على أن اغتيال سالم كان جريمة لا تغتفر. وكان من الواضح أن حامد لابد وأن يقتل. ولكن من سينفذ حكم الإعدام؟ فإن قتله على يد أحد من العقيليين سيبدأ دورة ثأر بينهم وبين المغاربة، وكان يوجد الكثيرون منهم فى جيش فيصل. وكان لورانس فقط هو من فى موقع قاضى العدل الذى كان بإمكانه تنفيذ الحكم فى الشخص المدان دون إحداث ضرر. ومن ثم، أمر المحكوم عليه بالدخول فى أخدود كان قد ضاق حتى أصبح شقاً عرضه بضع بوصات. وترك له مهلة قصيرة لمراجعة نفسه. وتكور حامد باكياً على الأرض فأمره لورانس

بالوقوف وأطلق عليه الرصاص بيد مرتعشة. وارتمى المغربى أرضاً وهو يسعل دماً فأطلق عليه لورانس الرصاص مرة أخرى إلا أنه أصابه فى رصغه فقط وأحدث به جرحاً بسيطاً. ورقد حامد على الرمال وهو يصرخ، فاقترب منه لورانس ووضع فوهة مسدسه عند فكه وأطلق عليه الرصاص مرة أخرى فارتعش جسده ارتعاشة خفيفة. ونادى لورانس على العقيلي ليتولى دفنه وترنح هو إلى حيث كان متاعه وتهاوى على مرقده. أما ما سجله فى مذكراته يوم ١٢ مارس فيتكون من خريطة تخطيطية لوادى خيطان وعليها سهم يشير إلى موضع أطلق عليه «شق الموت» وكتب بخط عنكبوتى «نمت هنا؛ ليلة رهيبة، أطلقت النار».

والآن، لأن يقتل الفرد فى خضم المعركة، فهذا أمر، أما أن يطلق الإنسان النار من مسافة قريبة إرادياً على رجل ميت عاجز، فلا بد وأن يكون هذا محنة لا يحتملها سوى القلائل، خاصة إن كان من أطلق الرصاص فرداً يرتعد من الحمى. ولم يكن لورانس جندياً خشناً؛ بل لم يكن فى الواقع قد قاتل فى أية معركة. وبعد ذلك بعامين وفى نهاية الحرب، كتب إليك كيركبرايد بعد أن شاهد ما شاهده لورانس من أعمال القتل أنه «بدا مصدوماً بحق لما رآه من استعمالى غير المحدود لمسدسى. فقد كنت أحياناً، حينما يصبح الشخص كريهاً، أصوب إليه المسدس وأقتله فيصيح لورانس قائلاً «أوقف هذا المزاج الدموى بحق السماء». ولا يبدو أن مثل هذا الشخص يشبه من وجد أنه من السهل عليه وضع فوهة المسدس تحت ذقن الرجل وأن يطلق الرصاص عليه متعمداً.

والمدخل الذى تحتويه مذكراته عن هذه الفترة يوحى أنه قد تم إطلاق الرصاص على شخص ما فى تلك الليلة. إلا أن المدخل شبه مشفر بطريقة لافتة. كما أنه لا توجد أيضاً أية إشارة عن الحادث فى تقارير لورانس. وأيضاً فهو لا يشير إليها لاحقاً أبداً. رغم أن الإنسان يتصور أن حادثاً كهذا كان لابد وأن يترك أثره الذى لا يمحو. ويدعى لورانس فى رسالة كتبها فيما بعد أنه غادر الوجه ومعه «أربعة من آل عقيل وأربعة من رفاعة»: وإذا افترضنا أنه قد أهمل ذكر خادمه السورى، والمراكشى، يظل سليمان العتيبي غامضاً لا يأتى ذكره فى أية مذكرات أو رسائل، ولا يظهر إلا فى «أعمدة الحكمة السبعة». ونقرأ أيضاً فى مدخل مذكراته الميدانية عن يوم ١٣ مارس الآتى: «معنا ١٢ رجلاً، سورى، وزلفى، ورمى،

وعنيزى، ومراوى، ورفاعى». وكان هناك اسم آخر تم تسويده بشدة. ورغم أن مجموع هؤلاء ليس اثني عشر، فإن لورانس يكتب بتحديد أكثر في رسالته اللاحقة المطبوعة على الآلة. فلا يوجد ذكر للرجال الإثني عشر. وفي مدخل يوم ١٣ مارس، أى اليوم التالى لما ادعاه من إطلاق النار، كتب «معى سورى، ومغربى، ومراوى، ورفاعى وثلاثة رجال من عنيزة والرص والزلفى (عقيل) بالترتيب».

والتناقض الوحيد هنا إذن أن المراكشى - أو حامد كما يفترض - والذى تطلب شطب اسمه من القائمة، ومن اليوميات المكتوبة بخط اليد من قبل، يظهر لاحقاً في الوثيقة الرسمية المطبوعة على الآلة. فهل من المحتمل أن يشطب الفرد بشدة على الاسم في مذكراته الخاصة - نتيجة للندم كما يفترض - ثم يضمنه التقرير الرسمى؟ والتفسير الواضح أن الاسم قد تم شطبه بعد نشر الرسالة الرسمية - مما يوحي أن حامد كان حياً يرزق فى ١٣ مارس، أى بعد يوم من إطلاق لورانس الرصاص عليه، كما أننا إذا قرأنا الوصف الذى جاء فى «أعمدة الحكمة السبعة» قراءة متأنية نكتشف أن الأمر لا يبدو حقيقياً. فإن لورانس يصف العقيلى لدى وصوله ليرى الجثة بأنه كان «يجرى على غير هدى كالجنون»، ثم يضيف أنه أرسل الرجال فيما بعد للبحث عن حامد. وكان العقيلى والرفاعى قد قضيا حياتهما فى الصحراء، يقتفیان أثر الغزاة الأعداء والجمال الضالة. ورد فعلهما الطبيعى فى هذه الأحوال هو اقتفاء أثر القاتل بطريقة منهجية وفى رواية «أعمدة الحكمة السبعة» يقرر لورانس أنهم توقفوا فى وادى خيطان بعد غروب الشمس، الأمر الذى يشير إلى أن المغامرة كلها حدثت فى الظلام. ولا يبين، والأمر كذلك، كيف تأتى له أن يتبين بوضوح كاف الجلد المحترق من أثر الطلقات. إلا أنه يذكر فى التقرير تحديداً أن مجموعته قد توقفت فى الساعة الرابعة والنصف، أى قبل غروب الشمس بساعتين، مما يوضح حدوث القتل أثناء النهار الأمر الذى تكون معه آثار القاتل واضحة. وقد يقال إن طبيعة وادى خيطان الصخرية هى من أسباب عدم وضوح الأثر. إلا أن المعسكر لا بد وأنه أقيم حيث توجد رقع رملية، إذ كيف يتأتى لبدوى يحترم نفسه أن يربط إبله على الصخور حيث تكون عرضة لجرح أركابها؟ هذا بالإضافة إلى أن لورانس يذكر الأخدود الرملى الذى أطلق فيه الرصاص على الرجل. وأخيراً، فثمة نموذج مألوف لهذه القصة، فهى تتشابه بشكل يشير حب

الاستطلاع مع رواية محاولة قتله في تل بشار بسوريا عام ١٩٠٩ . ففي كلتا الحالتين . تفشل أحلام لورانس الهرقلية بسبب مرضه وضعفه الجسدي ؛ وهو يقدم في كلتا الحالتين حالة حرجة (الإصابة) لتبرير فشله . فهل لرد فعل لورانس المبدئي لحادثة القتل ، أى قوله « شعورى بأن هذا ما كان له أن يحدث اليوم من دون الأيام جميعها وأنا أعانى الألم » أهمية خاصة ؟ وهل أطلق لورانس الرصاص فعلا على حامد المراكشى ؟ هل قام أحد غيره بإطلاق الرصاص ؟ أم هل كان حامد مازال حيا يوم ١٣ مارس ؟ ربما كان حامد قد قتل ليلة ١٢ مارس . بيد أننا إذا أخذنا فى الاعتبار شخصية لورانس ، وأيضاً حقيقة أنه لم يشر إلى الحادث المزعوم بعد ذلك أبداً ، فإنه من غير المحتمل أن يكون هو شخصياً قد أطلق الرصاص على الرجل بنفسه .

وفى الثالثة صباحاً انطلق الجميع . وكان لورانس مريضاً لدرجة حتمت على الرجال رفعه إلى ظهر ناقته . وبعد يومين أو أكثر من الخوض فى متاهات الحثالة والحرث التى كانت تحيط بوادى عيس ، أناخ لورانس ورجاله إبلهم عند عين ماء أبو مرخاء ، حيث كان عبد الله على وشك إقامة معسكره وسط تشوش زعيق رجال القبائل وصهيل دواب النقل . ووجد لورانس فى نفسه القوة الكافية لأن يحيى عبد الله ويسلمه تعليمات فيصل . ثم أفل راجعاً وانتظر أن تنصب خيمته وألقى بنفسه على الفراش . ولم يبرح الخيمة لمدة ثمانية أيام .

نحن الآن فى الخامس عشر من شهر مارس . وكان فيصل ولورانس قد خططوا لوجود القوات العربية فى مواقعها خلال عشرة أيام انقضت منها خمسة . وكانت الملايا قد شلت حركة لورانس ، بالإضافة إلى إصابته بالدوسنتاريا . وسواء كان هذا يرجع إلى الطبيعة ، أو إلى الخوف ، أو إلى عبء ألم الضمير الناجم عن قتله رجلاً ، فقد وجد نفسه عاجزاً عن مواصلة القتال وشعر أنه لو نجح فخرى باشا فى الوصول إلى تبوك ومنها إلى فلسطين لانقلب ميزان الحرب كله ، ولعاد عليه جزء رئيسى من أسباب الفشل . وبينما كان يرقد ساعة بعد ساعة يحملق فى سقف خيمته ، بدأت كتلة رؤى مشوشة تدور فى مخيلته كالدوامة . فكر فى طفولته وهو يتوق إلى الشرق ، والشعور الذى تملكه وهو فى المدرسة أن يحرر العرب ، وسلسلة الأحداث المتزامنة التى أتت به إلى سوريا ، والنقب ، وأخيراً إلى بلاد العرب . فقد كانت كل



أحداث حياته تقوده إلى هذه النقطة. فلم يكن أبداً رجل أفعال. إلا أن فكرة واحدة ترسبت في عقله بوضوح بارد مثل قطرة الماء وهي تسقط على سطح عين من الماء؛ إن هو، لورانس، قد أصبح يتحكم في الحملة بالقدر الذي أراد. فقد كان البريطانيون ينظرون إلى الثورة من خلال عينيه، كما تعنى علاقته الوثيقة بفيصل أن العرب أيضاً يرون البريطانيين، إلى درجة كبيرة، من منظوره هو. فقد كان هو المحور: إنه هو، لورانس ملك العرب غير المتوج. فإنه يتحكم في سريان المعلومات بين العرب والبريطانيين، وباستطاعته تطويع الأحداث بالطريقة التي يريد. وتسارعت هذياناته مخترقة حواجز وعيه بأسلوب لم يخبره من قبل؛ فتهاوت التحصينات، وتدافعت قبائله الداخلية مقتحمة. وخبر إحساساً عميقاً بالصلة؛ حساً عميقاً بالمعنى؛ تحرير الأمة العربية وكسب الحرب للبريطانيين. لقد أوكل إليه تحقيق هذين الهدفين. إن الحاجة اللحظية تسببت في رد فعله الأول تجاه الثورة العربية. بيد أنه قد تم إغفال أشياء كثيرة. فحتى الآن، كان الجميع، بمن فيهم هو، أسرى هاجس الاستيلاء على المدينة. ولكن ما قيمة هذا؟ وتحركت منظومة من الأفكار تركزت كل منها في موقعها مثل السقاطات، وجعلته يبتسم وقد شعر بنفاذ بصيرة مثير فجائي. لقد تم كسب الحجاز فعلاً. تم كسبه في يوم مسيرة جيش فيصل إلى الوجه. فمنذ اللحظة التي هدد فيها العرب خط السكك الحديدية لم يكن لدى الأتراك من خيار سوى تبديد قوتهم دفاعاً عنها. فالحامية التركية الآن منغرزة في المدينة تاكل لحوم دواب النقل الخاصة بها وقد شلت مقدرتها على الحركة. فلم يكن العرب بحاجة للاستيلاء على المدينة. كما أن قطع السكك الحديدية كلية سيمنح العدو العذر للمسير خارج المدينة. وطالما بقوا في المدينة فهم لا يمثلون تهديداً للعرب أو للجناح البريطاني. وسرعان ما بدأ تفكيره يجرى الحسابات تلقائياً. ما مساحة الجزيرة العربية؟ ربما ١٤٠,٠٠٠ ميل مربع. كيف يتأتى للأتراك الدفاع عن هذه المساحة الشاسعة ضد سكانها؟ وطبقاً لحساباته، كان يلزمهم موقعاً محصناً كل أربعة أميال مربعة تحرسه قوة من ٢٠ رجلاً على الأقل. أي أنه يلزمهم ٦٠٠,٠٠٠ رجل لكل مساحة الجزيرة. واتضح له أن الدفاع عن جزيرة العرب يفوق مقدرة الأتراك. نعم، بإمكانهم الدفاع عنها بواسطة خط محصن ومخندق كما هو الحال في دفاعاتهم ضد البريطانيين في فلسطين. إلا أن

هذا يتم فقط لو سار عدوهم في تشكيلات ترفرف الرايات فوق قواته . أما إذا افترضنا أن العرب اقتصروا على كونهم مجرد تأثير ؛ فكرة ، شيء ما غير ملموس لا يمكن المساس به ؛ ليس له واجهة أو ظهر ؛ يتدفق مثل الغاز من مكان إلى آخر . فإنه ليس عليهم الاشتباك المباشر مع الأتراك . فلا يجوز تطبيق فلسفة كلوزفيتز العسكرية القائلة بأن هدف الحرب هو تركيز أكبر قوة عند أقوى نقطة للعدو وتحطيمه بضربات ساحقة . فإن قتل الأتراك رفاهية . إن العرب يستطيعون بواسطة تكوينات صغيرة متحركة ضرب العدو في أضعف نقاطه ، ثم يعتمدون إلى الاختفاء في ملاذهم ، أي البرية ، حيث لا يمكن للأتراك اقتفاء أثرهم . وكانت الميزات التي يتمتع بها العرب هي السرعة والمدى والزمن ، لا الأسلحة النارية . فلم يكونوا بحاجة للدخول في معركة ثابتة ، أو أن يكونوا هدفاً للعدو . فهم ، بعكس الجيوش النظامية ، لا يتحملون إصابات كثيرة إلا أن شن حرب بواسطة أشباح خابية ضد المعدات والتجهيزات التقنية والقضبان والمحطات والكمباري كفيلة بتحقيق أهدافهم دون أن يتعرضوا لخاطر جسيمة . فقد كانت الصحراء محيطاً يتحرك فيه العرب غير مرئيين ، وأيضاً حاضرين في كل مكان ، لا يعتمدون فيه على قواعد أو اتصالات أو نقاط ثابتة . فهم ، باستغلالهم الصحراء ، قادرين على إنهاء العدو وتحاشي المعارك الحاسمة وقطع خطوط الاتصالات ، وتوجيه الضربات القوية ثم الانسحاب السريع . وتبين لورانس برؤية واضحة أن الصحراء هي حليفه الأعظم ؛ لقد اكتشف قوة الصحراء .

وبعد ثمانية أيام من الحمى ، بدأ الضباب ينقشع ، وتذكر أنه تم إرساله للحيلولة دون تسيير حامية المدينة المنورة إلى سوريا . وكان قد مر ما يقرب من الأسبوعين على مغادرته الوجه ، إلا أنه لم يكن ثمة تحرك من قبل فخري باشا . وكان فخري باشا قد رفض بشدة ، رغم عدم علم لورانس بذلك ، مغادرة المدينة المنورة التي لم يتم الجلاء عنها إلا بعد انتهاء الحرب . وأراد لورانس أن يستعيد خطته للهجوم على خط السكك الحديدية ، وليس لقطعه كلية ، للحيلولة فقط دون مغادرة الأتراك المدينة . وفي يوم ٢٠ مارس سحب نفسه من فراشه لفترة كافية للحديث مع عبد الله الذي وجدته متراخياً وفي حالة رضاء عن نفسه . وقفزت الكراهية التلقائية للشريف إلى المقدمة . فكتب لورانس إلى ويلسون فيما بعد قائلاً إن الأحوال في

المعسكر غير مرضية، إذ كانت قوة عبد الله البالغ عددها ٣٠٠٠ رجل من قبيلة عتيبة أقل مستوى، كمقاتلين، من الجهننيين وآل حرب. ووجد أن شيوخهم جهلاء ويفتقدون الحماس للحرب. كما استعمل بلاغته ليعلى من شأن «فيصله». ولم يترك وسيلة لم يستعملها لتشويه سمعة عبد الله. فرسم له صورة رجل بدين منغمس في الملذات، يأكل جيداً، ويقرأ الصحف، ويتحدث عن الأسر الملكية الأوربية، ويدبر «المقالب» القاسية لمضحك بلاطه، ويعتكف معظم وقته داخل خيمته. كما قال إنه لم يكن يمارس أية رقابة على رجاله، فنادرًا ما كان يزور مشايخ القبائل، ولم يكن يسمح، سوى للمقربين، بدخول خيمته. ولم يكن لعبد الله اهتمام بسوريا - التي كانت هاجس لورانس - إلا أنه كان يخطط لضم عسير وإخضاع اليمن. وكان لورانس يقدر حصافته السياسية لدرجة جعلته يعتقد في جدية هذا الاحتمال. بيد أن ملاحظاته عنه، بشكل عام، كانت مريرة وقاسية لدرجة الإيحاء باحتمال شعوره بمنافسة له من عبد الله، الذي كان لا ينحني لإرادته. وفي الواقع، فإن حاجة لورانس لأن يوضح لويلسون أنه «ليس ثمة شيء بينهما» كانت عذراً غير متطلب، أى نفى، غير مطلوب، يبرهن على حقيقة ما. أما عبد الله نفسه، فلم يسعده وصول لورانس. فلم يكن يرغب في وجود أى ضباط أجانب في وادي عيس وذلك لما قد يحدثه حضور مسيحي من أثر سلبي على قبائله. وقد كتب في مذكراته أن أحد مشايخ القبائل قد سأله قائلاً «من هذا القادم الأحمر؟ وماذا يريد؟». على حين أن متعصباً من الوهابيين كان أيضاً قد هاجمه لصدافته مع المسيحيين. وكتب قائلاً إن لورانس كان له «تأثير سلبي على القبائل المتعصبة». وكان الشعور العام ببغض حضوره واضحاً بين القبائل. كما أن الشريف كان يولي الاستيلاء على المدينة اهتماماً خاصاً، واعتقد أن قيام الجيوش العربية الثلاثة: قوات على في رابغ، وفيصل في الوجه، وقواته هو في وادي عيس، بحركة «كماشة» كانت كفيلة بإسقاط المدينة. ولم يوافق على تشتيت القوة العربية بمهاجمة نقاط عديدة على خط القتال. وكان لوجهة نظره هذه بعض الصواب؛ فلو أسقط العرب المدينة لكان هذا انتصاراً معنوياً ضخماً، يترك الحرية للجيوش العربية الثلاثة للتحرك داخل سوريا. إلا أن لورانس قد بات مقتنعاً أن العرب لن يستطيعوا إسقاط المدينة، وأن هزيمتهم هناك، من شأنها تدمير القضية العربية إضافة لما سيتكبده من

إصابات وضحايا كثيرين . وقد تعامل عبد الله مع لورانس برفق ، إلا أن موقفه النهائي كان أن الاستراتيجية الهاشمية ليست شأننا من شئون رجل إنجليزى ، وأنه لا يجوز له التدخل .

بيد أن لورانس كان أكثر توفيقاً مع نائب عبد الله ، الشريف شاكر ، وكان شخصاً نحيل الجسد ذا ملامح صبيانية يبلغ من العمر السابعة والعشرين . وكان فى طفولته رفيقاً للأمراء الهاشميين ونشطت حساسة لورانس الجمالية فى رفقة شاكر ، إذ إنه على حين كان يرى أن عبد الله تعوزه الهيبة ، بدا له شاكر «أرستوقراطياً بالمولد» . ومع ذلك ، كان شاكر متوحداً مع البدو ، يدعو نفسه عتيبياً ، ويجمع شعره فى ضفائر ، ويزرع القمل فى رأسه إرادياً ، لدرجة أنه كان يتمنطق بإزار من الشوك كان يفترض أنه يحد من نمو المعدة . وكان فى نظر لورانس «عربياً ، نبيلاً» آخر فى قائمته التى تضمنت فيصل وعلى بن حسين الحارثى ، التى استبعد منها عبد الله لجلالته . رغم أنه كان موهوباً عقلياً ويتمتع باستقلال لدرجة العنف . وقال لورانس إن العتيبيين كانوا يقدسون شاكراً وكانوا يفضلون تلقى الأوامر منه على تلقيها من رئيسه . إلا أنه كان يقدر فيصل بشكل خاص لمجرد أنه كان قابلاً «للإرشاد الملائم» الذى كان باستطاعة لورانس إمداده به ، أما عبد الله العنيد فكان محصناً ضده . وكان لورانس دائماً يتخذ موقفاً أبوياً إزاء العرب كباراً وصغاراً . فقد كان يعلم ما هو الأفضل بالنسبة لهم . وأحب لورانس شاكراً ، على وجه التحديد ، لأنه وافقه على خطة للهجوم على السكك الحديدية فوراً . كما قدر أيضاً معونة القاضى دخيل الله ، قاضى جهينة . والذى كان قصير القامة قوى البنية فى الخامسة والأربعين من العمر سفعته أجواء الصحراء . وكان له مظهر وسلوك «الضفدع الطينى» . وكان دخيل الله قد خدم مع الأتراك فى وادى ينبع ، وفى الواقع فقد كان هو من أرشدهم فى ليلة ١١ من ديسمبر عام ١٩١٦ حينما أخافتهم التشكيلات غير الأرضية التى صنعتها أضواء البحرية الكاشفة . وكان هو ، وكتعويض عن فعلته هذه ، الذى فجر الكوبرى القريب من محطة أبو النعام قبل ثلاثة أسابيع وكان الفعل الوحيد ، كما ذكر لورانس لرؤسائه ، الذى قامت به قوات عبد الله منذ أن تحركت إلى وادى عيس . وكان لدخيل الله أسبابه الخاصة للحديث مع لورانس : فقد أراد الصلح مع فيصل بعد أن ساعد الأتراك . وقد أفاد لورانس من

هذا الموقف إلا أنه بدون دخيل الله ما كان له أن ينظم أى شىء.

ورغم رغبته فى البدء فوراً، فقد أحس أن بدنه مازال واهناً. فقد عاودته الحمى والطفح الجلدى والأورام وألزمته الفراش لليومين التاليين. وفى يوم ٢٢ تمكن من بعث رسالة إلى بيرس جويس، الذى تولى القيادة فى الوجه، يقول فيها إنه يأمل فى أن يتمكن من تشكيل قوته الخاصة سريعاً، وإنه يعتزم الذهاب إلى خط السكك الحديدية اليوم التالى للاستطلاع. وقال إنه سيمكث فى وادى عيس لبعض الوقت كى يتأكد من أن شيئاً ما قد أنجز. وطلب من جويس أن يرجو فيصل ألا يظل فى الوجه، لأن مجرد العلم بأنه يتحرك لمهاجمة خط السكك الحديدية كفيل بإشعال حماس العرب وذعر الأتراك. وكانت لهجة الإصرار فى خطاب لورانس تدل على قدر السطوة التى حققها على حساب القائد العربى: فقد أخبر جويس عن أمله الكبير أن يرى فيصل فى جيادة أو عين الشفاء سريعاً. ورغم أنه قرر أن يرحل يوم الأحد ٢٥ مارس، إلا أنه كتب فى مفكرته فى اليوم التالى «مازلت مريضاً جداً». وأخيراً، فقد رحل بعد هذا بيومين عازماً على مهاجمة محطة أبو نعام، التى كانت تقع فى مكان مناسب فى مواجهة وادى عيس وتحجبها عن الأنظار مجموعة من القمم - أى الظلة. وجمع لورانس ما يقرب من ثلاثين من عتيبة وحفنة من الأشراف، وكانت المجموعة ستعمل فرقة كشافة لمجموعة أكبر كثيراً يقودها الشريف شاكر ومزودة بالمدافع والبنادق الآلية. وغادروا المعسكر مع ضوء النهار، وكانت أظلاف جمالهم تحدث صوتاً كالطحين على أحجار الصوان الصلبة فى أرض الوادى، وألقى لورانس بمخاوفه خلفه بجهد جهيد من إرادته. وبعد أن ركبوا لمدة يومين، وصلت المجموعة إلى الظلة حيث عسكروا فى ملاذ من البروزات الصخرية بين أشجار الطرفاء الضخمة. وترك لورانس المعسكر وتسلق قمة ارتفاعها ٦٠٠ قدم ليتجسس على المحطة، ووجد نفسه مرهقاً إثر الحمى التى يعانى منها، وكان يلهث ويتوقف باستمرار لالتقاط أنفاسه. ومن أعلى القمة، فاز بجائزته، إذ إنه أطل على مشهد واضح للمحطة التى كانت تقع على بعد ٦٠٠٠ ياردة: وكانت عبارة عن أبنية ثلاثة ضخمة وكوبرى على عشرين قوساً، وكان دخيل الله قد فجره من قبل ثم جرى إصلاحه. وكانت الخطة الأصلية هى إرسال قوة من القبائل لاحتلال التل الواقع خلف المحطة، أى جبل أنسيل Unsayl وشن الهجوم

من الخلف. إلا أنه حينما وصل الشريف شاكر عصر اليوم التالي ومعه القوة الرئيسية اكتشف لورانس أنه قد أحضر معه ٣٠٠ رجلاً فقط - أى ثلث العدد الذى كان قد وعد به. وقدر أن هذه القوة لا تكفى لهجوم مشاة. وقرر الشريف قصف المحطة بدلاً من ذلك، وزرع الألغام على جانبي الخطوط الحديدية. وأرسلت مجموعة فى الفجر شمالاً لزرع الألغام ولقطع خط البرق، بينما قاد لورانس مجموعة أخرى من عتيبة لزرع الألغام على طول الخط الممتد من أبو نعام إلى اسطبل عنتر أى المحطة التالية جنوباً. ولم يتبادلوا أى حديث، وتبخترت الإبل فى سكون حتى وصلوا فى الساعة الحادية عشرة والربع إلى امتداد مهجور للخط.

وكانت هذه هى المرة الأولى التى رأى فيها لورانس قضبان السكك الحديدية ووجد ملمسها مثيراً. وزرع عشرين رطلاً من ألغام جارلاند - مارتينى - Garland Martin (كان هربرت جارلاند قد صممها بنفسه) تحت القضبان، وضبط مفتاح الضغط الذى سيعطى إشارة وقت ضغط ثقل القطار على المعدن. وبعد ذلك، وضع مدفع آلى وطاقمه فى مجرى مائى على بعد ٥٠٠ ياردة خلف بعض الشجيرات السميكة. ثم ركب رجاله من العتيبيين مطاياهم واتجهوا جنوباً ليقطعوا خطوط البرق. ونظراً لأن العرب كانوا غير قادرين على تسلق عمود البرق، كان على لورانس أن يفعل هذا بنفسه. وبعد أن قام بقطع الأسلاك تراخت قبضته وسقط من ارتفاع ١٦ قدماً لينقذه مرشده القاضى محمد. وفى النهاية، أصبح كل شيء معداً؛ وكانت الخطة أن تنطلق القذائف من مدفع شاكر على المحطة مع أول ضوء للنهار التالي. ومن ثم، سيكون على الأتراك أن يبرقوا فوراً لإرسال دعم لهم؛ إلا أنهم حينما وجدوا خطوط البرق وقد قطعت، يصبحوا مجبرين على إرسال قطار فى اتجاه المدينة يسير من فوره فوق ألغام لورانس فيعطل أو يدمر. وحينما يهبط الطاقم لإنقاذه، تتصيدهم قذائف البنادق الآلية.

ووصلت مجموعة لورانس إلى معسكرها قبيل الفجر ليجدوا «شاكر» فى موقعه مع بنادقه. وفى السادسة والنصف تماماً انطلقت النيران والأدخنة من البطارية عبر الوادى وارتدت ضوضاء الانفجارات وأصوات انطلاق القذائف على جدران الصخور. وانهارت الأدوار العليا لأبنية المحطة والقلعة من جراء الانفجارات الثلاثة الأولى للقذائف، واخترقت ثلاث أو أربع قذائف خزان المياه محدثة ثقباً به

ومحطمة هيكله فاندفعت المياه منهمرة على جدران البرج. أما القذائف الأخرى التالية، فقد أشعلت النيران في معسكر الأتراك، ودمرت أكوام الحطب المشتعلة وقوداً للمحركات، وأصابت عربات القطار. وانفصلت القاطرة، وقعقت باتجاه المدينة، وراقبها لورانس حابساً أنفاسه وهي تقترب من الألغام التي زرعها. وفجأة سمع انفجاراً مدوياً، وظهرت سحابة من الغبار، وتوقفت القاطرة. إلا أن المؤشر كان قد تحرك متأخراً، كما علم لورانس، فتعطلت العجلات الأمامية فقط. وقفز طاقم من سبعة رجال وبدءوا في إعادة تثبيت العجلات فوراً. وانتظر لورانس صوت انطلاق البنادق الآلية، إلا أنه لم يأت أبداً. فقد كان الرجال قد تعبوا من الانتظار وحملوا أمتعتهم وانتقلوا عائدين إلى المعسكر. وجن جنون لورانس إذ إنه أجبر، عاجزاً، على أن يرقب الفريق التركي وهو يعيد القاطرة إلى الخط مرة أخرى حيث بدأت تتحرك ببطء باتجاه الجنوب. إلا أن المعركة من أجل المحطة قد حمى وطيسها. فقد كان العتبييون يناوشون الأتراك قرب المباني تحت غطاء كتل الدخان المتماوجة، ويتقافزون وهم حفاة من شجيرة إلى أخرى وهم يطلقون النيران. وهاجموا موقعين للأتراك، وكانوا يقومون بقتل رجل من بين كل اثنين ويأسرون الآخر، ثم قاموا بالهجوم على الجزء الشمالي للمحطة وأسروا واحداً وعشرين رجلاً، كلهم من السوريين الذين قام لورانس باستجوابهم فيما بعد. كما أتيحت للورانس أيضاً فرصة لأن يتفحص عربة القطار الموجودة بها الفرامل، والتي كان الأتراك قد خلفوها وراءهم، واكتشف أنها كانت مبطنة بالأسمنت، إلا أن الأتراك الذين كانوا في القلعة كانوا قرييين بدرجة لا تسمح لهم بالتلكؤ، كما أن كثافة الدخان حالت دون إطلاق النيران. وتوقف العرب عن الهجمات، وانسحبوا بعد أن قتلوا وأصابوا سبعة وعشرين تركياً. وخلال يومين، كانوا قد عادوا إلى معسكر عبد الله.

واعتبر لورانس نجاح أول محاولة لزرع الألغام في الخطوط الحديدية محدوداً. فقد نجحت القاطرة بعد كل شيء. وفي تقريره، انتقد العتبيين الذين لم يكن قد طلب منهم فعل الكثير، ولم يكن متوقعاً منهم أداء ما قد يطلب منهم. إلا أنه كان مصمماً على أن يجرب مفتاح ضغط الديناميت، وقرر أن يحاول إصابة القطار بين محطتي حدية ومدحرج التاليتين لأبرو نعام. وفي ٢ أبريل انطلق مع مجموعة

تتضمن قاضى جهينة وعشرين من قبيلتهم واثنين من الأشراف وفريق بنادق آلية وقسماً من رجال المشاة السوريين. ومرة أخرى، ساروا من وادى عيس إلى وادى حمض، حيث ناموا على منبطح رملي وأقلقهم فى الليل هطول الأمطار الغزيرة. وارتفعت درجة الحرارة فى اليوم التالى وانعكست أشعة الشمس على التربة حتى بلغت حرارتها درجة لم يستطع معها لورانس السير حافى القدمين كما يفعل البدو، وكان عليه ارتداء صندله. ورعدت الدنيا فوق التلال طوال الصباح، وتلفحت الدنيا حولهم بسحابات متقطعة لونها أصفر فسفوري وأزرق. وفجأة أدرك لورانس أن السحابات كانت أعمدة من الغبار بلغ ارتفاعها أكثر من ١٠٠ قدم تدور فى دوامة مزدوجة متجهة بشبات نحوهم. وبعد ثلاث دقائق فقط اصطدمت بهم الرياح كالصفعات وفتحت عباءاتهم، وملأت أعينهم بحبات الرمال اللاذعة، وأخذت تدور حول الإبل مما جعلها تصطدم ببعضها البعض. واستمرت الدوامة الهوائية ثمانى عشرة دقيقة فقط أعقبها هطول الأمطار المتجمدة، فالتصقت عباءات الأعراب بظهورهم وأخذوا يرتعدون على السروج. وبعد الظهيرة، تسلقوا جرفاً شديداً الانحدار ليلقوا النظر على الخط الحديدي إلا أن دوامات الضباب حجبت الرؤية؛ وفى طريقهم إلى أسفل، انزلقت قدم شخص عتيبي على الصخر المبتل وسقط من ارتفاع أربعين قدماً فتحطمت جمجمته على الأحجار. وكان هذا هو الشخص الوحيد الذى قتل أثناء تأدية المهمة.

وبعد الظلام، عبر لورانس، والقاضيان، وشيخ من عتيبة يدعى سلطان السهلى إلى خط السكة الحديدية. وكانت مدحرج، وهى محطة صغيرة بها برج ماء، تقع على جرف شديد الانحدار، حيث ينحرف الخط انحرافاً حاداً باتجاه الشرق. وسرعان بعد أن غادروا، ما سمعوا نداء البوق من المحطة معلناً عن العشاء. واستاءوا لهذا، إذ إنه كان عليهم قضاء الليل على مسافة قريبة من الأتراك بحيث لا يستطيعون إيقاد النار. ثم عثروا على خط السكة الحديدية حوالى الساعة العاشرة وركبوا بمحاذاته وهم يبحثون عن موضع مناسب للبنادق الآلية. وكانت الرؤية من السوء بدرجة لم يستطيعوا معها تمييز المواقع، لذا اختار لورانس موضعاً لزراعة الألغام بطريقة عشوائية عند الكيلو ١١٢١، ثم أناخت المجموعة إبلها فى سكون. وكان زرع الألغام هذه المرة معقداً نسبياً، ووضع لورانس الزناد الشعري



بحيث كان متقلقاً، كما اعترف هو بذلك. وتم له زرع شحنتين لتدمير الخطوط على بعد ثلاثين ياردة من إحداها الأخرى، ثم أوصلها بمفتاح الضغط الذى ثبته فى منتصف المسافة بينهما، وكان هذا يعنى أن أياً كان اتجاه القطار فستنفجر شحنة على الأقل تحت جسده. واستغرق شحن الألغام ساعتين. وبينما كان يعمل تساقط مطر خفيف أدى إلى أن تتخذ الرمال شكل كتلة طبعت عليها آثار أقدامهم. وكان لورانس يعلم أنه حين يحين موعد القطار، فستفحص دورية تركية الخط بوصة بوصة بحثاً عن علامات مريبة، وأن آثار الأقدام التى خلفوها ستكشف أمرهم. فقد كانت عميقة بدرجة لا يمكن معها إخفاؤها. ومن ثم، أحضر لورانس ومجموعته جمالاً لتخطو على الرمال لمسافة مائة ياردة على جانبى الخط، ثم أخذت طريقها إلى الصحراء الممتدة، بحيث بدا الأمر وكأن قوة كبيرة قد عبرت خط السكة الحديد ليلاً. ثم امتطوا إبلهم لمسافة مأمونة، وأخفوا أنفسهم خلف قمة صخرية انتظاراً لشروق الشمس. وفى هذه الأثناء كانت تتابعهم الرعشة، ويلهشون من خلال أسنانهم التى أخذت تصطك من البرد القارس. ثم نشر الفجر خيوطاً حمراء عبر التلال ذات النتوءات. كما لو أنه يباركها، وصهرت الحرارة السحب، ونشرت النيران فى جسد لورانس. وتمنى لو لم تبدأ أى أعمال قتالية حتى يدفأ جسده تماماً. ومع ضوء النهار، وصلت فرق البنادق الآلية. وزحف القاضى دخیل الله لينظر ما كان يحدث. وفى الساعة السابعة والنصف سلكت دورية مسلحة من الأتراك طريقها على طول خط السكة الحديد وتوقفت عند الكيلو ١١٢١. ورغم أن الألغام كان مخبأة بعناية. إلا أن لورانس راقب الموقف وقلبه فى حلقه من الخوف. بيد أن الدورية واصلت سيرها جنوباً والتقت بدورية من الحدية، أى المحطة التالية مما جعل لورانس يتنفس الصعداء. وبعد ساعة، سمع لورانس صوت عجلات القطار، ورأى القاطرة وتسع عربات أخرى تقترب من الجنوب ولدهشته، فقد مرت القاطرة على الألغام، دون أن يحدث شئ، وكانت العربات مليئة بالنساء والأطفال، لذا شعر لورانس بالارتياح لعدم انفجارها. إلا أنه كفنان متفجرات، شعر بالإحباط لأنه رغم ضبطه لمفتاح الضغط بعناية فإنه لم يعمل. وقرر أنه يحتاج إلى تعبير. إلا أنه فى هذه اللحظة رأى أن الحرس التركى المتمركز أعلى المرتفعات المحيطة بالمدحرج قد اكتشف تجمعات العدو فى منطقته وفتح نيرانه عليهم من

مسافة ٥٠٠٠ ياردة، ورغم أن هذه المسافة كان يستبعد معها حدوث أضرار، إلا أن لورانس كان يعلم أن عدد الأتراك في المدحرج والحديّة يربو على الألف، وأن دورياتهم ستبدأ فوراً في البحث عنهم. لذا قرر أن يحفظوا كرامتهم ويتراجعوا، فقادوا إبلهم ببطء، كي لا يرهقوا البغال التي كانت تحمل المدافع الثقيلة والتي كانوا يسحبونها خلفهم. وفي وقت متأخر من بعد الظهر، قادوا إبلهم مرة أخرى برباطة جأش وعادوا إلى الموقع تحت طلقات نارية متفرقة كي يغيروا المقدح المعطل. وكان الأتراك قد اعتادوا إطلاق النيران على أية جماعة من البدو تقترب من خط السكك الحديدية، ولم يكن لهم أن يعرفوا عن بعد أن جماعة لورانس كانت وحدة حرب عصابات. واقترح دخیل الله خطة ألمعية لإبعاد شكوكهم، فاقترح أن ينيخ الجميع إبلهم بحذاء الخط الحديدي ثم يؤدون صلاة المغرب ويؤمنهم هو. ولم يكن الجهينيون يراعون الشعائر الدينية، وكان لورانس يعتقد أنهم ربما لم يؤدوا أية صلوات منذ عام مضى؛ أما هو فلم يكن يعلم كيف يؤدي الشعائر؛ إلا أنه تتبع حركات المصلين وهم يركعون ويسجدون، ولاحظ أن الحيلة قد انطلت على المراقبين الأتراك. وكتب فيما بعد «كانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي صليت فيها كمسلم في جزيرة العرب».

وحل الغروب، وكان على لورانس أن يؤدي مهمة البحث عن آية القدح المدفونة في الظلام الدامس. ولم يكن هذا أمراً محبباً إلى نفسه. فلو حدث وانطلقت فجأة، فستدمر العبوتان الخط لمسافة ٧٠ ياردة، وسيُنفى أي شخص في هذا المدى ويُقطع جسده إرباً. ومما زاد الأمر سوءاً إصرار كل مجموعة الجهينيين على مرافقته كي يؤازروه. وبينما كان يتحسس الطريق إلى آلة الإشعال بأصابع مرتعشة، دهمته رؤى رهيبية عن انفجار العبوتين فيه وفي مرافقيه. واستغرق العثور عليها ساعة، وهنا أدرك فوراً سبب عدم اشتعالها إذ إنها غارت في التربة بمقدار جزء من البوصة بسبب ليونة الأرض فضلاً عن طريقة تشبيتها. ومن ثم، أعاد ضبطها سريعاً، ثم هرول ومجموعته إلى إبلهم وامتطوها متجهين شمالاً نحو الأجراف التي تختبئ خلفها مدحرج وهم يزرعون الألغام في طريقهم. وكان جارلاندا قد درب كل الجهينيين من فريق لورانس. وكانوا ينطلقون في الظلام كالنمل يشبتون العبوات في الفتحات الأرضية ذات الأقواس وعلى القضبان. أما

لورانس، فقد تسلق عمود البرق وقطع الأسلاك. وبعد لحظات، تمزقت أوصال الظلام بعنف حينما انفجرت كل العبوات في نفس الوقت تقريباً، فحطمت عشرات القنضبان واجتزت رأس الكوبرى. وحالما انتهت المهمة أسرع العرب إلى إبلهم وامتطوها عائدين سريعاً إلى المعسكر. وكانوا في حالة جموح شديد لدرجة أن قاذفى المدافع من مجموعتهم أخطأوهم وظنوهم الأعداء، ومن ثم أطلقوا بعض النيران في الظلام. ولم يصب أحد لحسن الحظ. وقام لورانس وهو في حالة رضى ليستيقظ في الساعة والنصف على صوت ألغامه وهى تنفجر على بعد. ثم أخبره اثنان من كشافته الذين كان قد تركهم للمراقبة، أن قطاراً يحمل ٣٠٠ شخصاً من قوات الإصلاح مع أكوام من القنضبان البديلة فجر الألغام مدمراً معه عجلاته. ورغم أن حجم التدمير لم يكن بالقدر الذى تمناه فقد سره انفجار الألغام، كما أن مجموعته قد أحدثت من الدمار ما يكفى لوقف الخط. وكان يعرف صعوبة اكتشاف ألغام جارلاند مما أدى إلى توتر الحاميات التركية على الخطوط الحديدية. وأثناء التجربة وصل إلى استنتاجاته الشخصية عن البدو. فاستخلص أنهم قوم غريبو الأطوار، وكتب قائلاً: «إن السفر معهم غير مرض للشخص الإنجليزى إلا إذا كان يتمتع بصبر فى عمق وعرض البحر». ودعاهم عبيداً لشهواتهم مجردين من الصلابة العقلية، مدمنين للقهوة والحليب والماء ومستهلكين جشعين للحم الضأن. وقال إنهم كانوا يحلمون دوماً بالجنس. ويدغدغون أحاسيس بعضهم البعض بالحكايات الداعرة. وأضاف إلى أن عفتهم ترجع فقط إلى طبيعة حياتهم الشاقة، فلو أتاحت لهم ظروف أكثر ازدهاراً لأصبحوا شهوانيين داعرين خالصين. وكانوا أيضاً يقاومون من يشكون فى أنه يحاول قيادتهم ويهربون منه. إلا أنه إذا تملك المرء صبراً ليبين لهم الأمور من وجهة نظرهم، فإنهم يأسرونه بفعل ما يسر خاطره. وكتب قائلاً: «إن الطريقة التى يعملون بها واضحة، فعقولهم تعمل كعقولنا، ولا يوجد فيهم ما هو غير مفهوم أو مختلف جذرياً عنا، وسيصبحون تابعين إن تحملناهم ولعبنا لعبتهم». وبعد عملياته الكبرى الأولى تحت نيران العدو، كتب له ولمن معه البقاء. فقد خاطر بحياته متحسباً مكان المقداح الشعري، ووجده غير صالح للاستعمال. والآن، منحته إثارة المعركة وزخم مهمة حفظ التوازن على حافة الهاوية فى كل لحظة تقريباً، إحساساً بالاتصال والهدف لم

يخبره من قبل . وفجأة، أدرك لورانس أن هذا هو ما خلق له : فقد كانت كل سنوات التجوال تعدّه لهذا .

وسارت القافلة عائدة إلى وادى حمض والرجال يغنون . ووصلوا إلى معسكر عبد الله في «أبو مرخاء» بعد يومين حيث وجد لورانس خطاباً من فيصل كان برهاناً على التقدير الذى يتمتع به فى معسكر الشريف : «صديقى العزيز المحب . . أود كثيراً أن أراك ، فلدى الكثير مما أرغب إخبارك به . إن تدمير خط السكة الحديدية أمر يسير . فقد وصل الماجور جارلاند وباستطاعتنا إرساله لهذا الهدف . بيد أن هناك حاجة شديدة إليك هنا . فأنا أواجه تعقيدات شديدة لم أتوقعها أبدا . . .» . وكما قال لورانس فيما بعد ، فواقع الأمر هو أن الشريف كان قد تملكه الضيق بسبب مكوثه بعيداً عنه لوقت طويل ، وكان يعاني حالة من التوتر والإرهاق . وبعد أن تلقى تأكيدات عبد الله بشن جماعته هجمات على خط السكك الحديدية كل ليلة ، رحل مع القاضى محمد ، وثلاثة من العقيليين ، ووصل إلى الوجه يوم ١٤ أبريل ليلتقى برجل سيرتبط به مصيره ارتباطاً وثيقاً : كان هذا المحارب شبه الأسطوري ، رئيس قبيلة الحويطات ، عودة أبو طيى .



لا أحد يعرف حاليا

مكان الكابتن نورانس

---

# 15

---

كان عودة أبو طيى

---

أكثر من يهابه الناس من محاربى

---

الجزيرة العربية. كان طويلاً، نحيلًا، ذا

---

أنف معقوف كمنقار نسر، تبدو عيناه

---

كشقين من طول تحديقته فى الشمس.

---

كان حضوره يرافقه هالة من الخطر،

---

وكان يبدو وكأن شيطاناً يملكه، وهو

---

ما نصفه الآن بالسيكوباتية

---

أو الاضطراب العصابى.

---

فقد كان كثيراً ما يمتلكه الغضب الأعمى الذى لا يهدأ إلا بممارسة العنف . ولم يكن يستطيع التحكم فى قوله ، فكان يكيل الإهانات علناً للأفراد بأن يروى أكاذيب فاضحة عنهم ويتحداهم أن يعارضوه . وادعى أنه قد قتل خمسة وسبعين شخصاً فى المعارك ، وكثيرون منهم من مدى قريب . وعرف عنه أيضاً أنه كان ينزع قلوب أعدائه ويأكلها . وحدث فى عام ١٩٠٩ أن فتح النيران على مجموعة من شرطة الدرك الأتراك الذين هبطوا إلى خيامه طلباً للضرائب وقتل اثنين منهم بينما فر الآخرون . وظل هارباً من الأتراك الذين أعلنوه خارجاً على القانون وأصدروا حكماً بالقبض عليه .

ولم يكن عودة مؤهلاً بحكم المولد لتولى مشيخة قبيلته التى كانت تنحصر تقليدياً فى فرع جازى من قبيلة الحويطات . وطبقاً لعادات البدو ، فحينما لا تعترف القبيلة بالسلطة الوراثية لشيخها ترفعها عنه تلقائياً ، ومن ثم تخلى قوم الشيخ عرعر بن جازى عنه لمصلحة حرب أبو طيبى أولاً ، ثم لعودة ، الذى أبقى على



السلطة ارتكاناً على صيت شجاعته ونشاطه وقسوته وكرمه . لم يكن عودة ثريا ، إذ إنه لم يكن لبدوى محترم أن يصبح ثرياً إذ كان البدو يقدرّون الجود لا الثروة ويرهبون الرجل الذي يحصد الكثير وينفق معظم ما يحصل عليه . وكان جود عودة ، حتى في هذه الأرض التي كان أهلها يزهون بالكرم ، أسطورياً . ففي غضون جيل واحد ، تحول فرع الطويحة من الحويطات ، تحت قيادة عودة وإرشاده لابن عمه محمد الضحيلان ، من عشيرة مزارعين رحل ، إلى أكثر قوات الغزاة كفاءة في كل شبه الجزيرة ؛ وعرف عنهم أن هجماتهم وصلت شمالاً حتى حلب وجنوباً إلى وادي الدواسر على حدود الربع الخالي . وألهمتهم ضراوة عودة حماساً وحيوية وقسوة ومثابرة مما أدى إلى خوضهم مواجهات عديدة حتى تقلص عددهم خلال عقود قليلة من ألف محارب إلى خمسمائة . كان يميزهم الجموح والفوضى ، وكان لهم من غرابة الأطوار ما يفسر قصر تاريخهم كغزاة ورحل يقومون بتربية الإبل . فقد كان يعوزهم النظام في مسيراتهم ، ويتجادلون دون توقف حول أماكن معسكراتهم . كانوا يمتلكون الأراضي ، ويحملون معهم في غزواتهم مظلات

الوقاية من الشمس وزجاجات المياه المعدنية. وعرف عنهم الخيانة وتجاهلهم لصلة الرحم والاستهزاء بأعراف البدو. وقد وصف لورانس فيما بعد الحويطات بأنهم البدو الحقيقيون. أما في الواقع، فقد كانوا موضع احتقار كمحدثي نعمة من قبل قبائل الصحراء الكبيرة مثل الروالة وشمير، إلا أنه لم يكن بإمكان أحد أن يتجاهل ضراوتهم بما في ذلك المشايخ الأقوياء من أمثال نوري الشعلان أمير رواله الذي تظاهر ب صداقته لعودة بن طيي.

أما أعدى أعداء عودة فكان حميد بن جازي سليل عرعر إذ كان قد نشب بينهما نزاع حول مسألة تتعلق بالشرف. فقد كان سليل ابن جازي قد استحوذ على ناقه من رجل من شرارة والذي كان في حماية عائلة عودة؛ ووصل عودة وبعض أقربائه إلى خيمة ابن جازي لطلب التعويض فتعرضوا لإطلاق النيران؛ ومن ثم أطلق عودة النار على ابن لهم واستولى على الناقة. واستمر العداء بين ابن جازي وابن طيي منذ تلك اللحظة، ونتج عن النزاع مقتل عناد بن عودة الذي هجم عليه خمسة يمتطون إبلاً من أتباع ملتقى بن جازي عند بعير في أرض الصوان. وكان الابن الذي تبقى لعودة، والذي لم يكن يفارقه أبداً، صبيّاً في الحادية عشرة. وفي عام ١٩١٤ عقدت أفرع قبائل الحويطات هدنة متقلقلة ورحلوا إلى شرق السكك الحديدية في سهل جفر في وادي سرحان، حيث دأبوا على نهب القوافل التركية والإغارة على بني صخر؛ إحدى القبائل البدوية القوية في الشمال، وكانوا أيضاً في حالة حرب مع آل شرارة - وهي عشيرة محتقرة كانت تقوم بتربية الإبل - في الجنوب. ثم ظهر عودة فجأة في أوائل شهر أبريل من عام ١٩١٧ في معسكر فيصل بالوجه ومعه ولده حامياً وحيداً له، وأعلن مبايعته للهاشميين. وكان هذا نصراً عظيماً لفیصل إذ إن وجود شخص مثل عودة معه، يضيف إلى هيئته، ويمنحه أيضاً مفتاح منطقة معن، وهي المنطقة الخلفية للعقبة، الميناء الكبير على البحر الأحمر المتبقى في قبضة الأتراك. وبالإضافة إلى هذا، فقد اعتاد الحويطيون مهاجمة خط السكك الحديدية، وفي عام ١٩٠٩ هددوا بهدم كل الجسور في إقليم معن إن لم يدفع الحاكم نقود حماية. ورغم أنه تم دفع المبلغ المبتز، إلا أن الحويطيين استمروا في الهجوم من آن لآخر على المخطات ونهبها. وفي منتصف أبريل من عام ١٩١٧، حينما عاد لورانس إلى الوجه يملؤه الاقتناع بمبدئه الجديد عن حرب

العصابات ، وبوجوب تجاهل المدينة المنورة ، وجد في عودة الحليف الذي كان يبحث عنه .

لم يكن لورانس من اقترح فكرة الاستيلاء على العقبة : فقد كانت قد نوقشت منذ اندلاع الحرب . وفي أغسطس عام ١٩١٦ ، أى قبل وصول لورانس إلى بلاد العرب ، فاتح الجنرال مري الجنرال روبرتسون رئيس القسم الإمبريالى العام فى لندن بشأن الفكرة ، وأبرق روبرتسون إليه قائلاً «أما عن العقبة ، فما يجب فعله هو أن ترسم خطتك ، وتخبرنا بما تعنى ، ونقرر بعد ذلك ما إن كان سيتم تنفيذها أم لا» . إلا أن كل الخطط التى بحثت احتلال الميناء كانت تتصور هجوماً من البحر . وكان لورانس قد رأى أن هذا التوجه غير عملى ، ربما منذ عام ١٩١٤ . ومن المؤكد أنه عارضه فى التقرير الذى كتبته عام ١٩١٥ . وفى أول مارس من عام ١٩١٧ أرسل تشارلز فيكرى برقية إلى كليتون ليتحسس موقفه بالنسبة للاستيلاء على العقبة بقوات من جيش فيصل ؛ فكتب فيكرى : «يتشوق الشريف فيصل إلى احتلال المدينة ، ويعتقد ... أنه سيكون لاحتلالها أثر سياسى ممتاز على السوريين» . إلا أن فيصل كان يفكر فى إنزال بحرى بمساعدة القوات البريطانية والمدفعية البحرية . أما رد كليتون ، الذى وصل بعد أسبوع ، فقد أكد التحفظات السياسية لا العسكرية «إنه من المشكوك فيه أن وجود قوات عربية فى العقبة أمر مرغوب فيه ، حيث ستعمل على إقلاق قبائل من الأفضل أن تظل هادئة إلى أن يحين الوقت» . بيد أنه أفصح عن الطبيعة الحقيقية لتحفظاته فى تقريره إلى مكماهون فى شهر مايو : «إن احتلال العقبة بواسطة قوات عربية قد يؤدى إلى مطالبة العرب بالمدينة ، وهو أمر غير وارد إطلاقاً بعد الحرب ، إذ إنه قد تكون للعقبة أهمية فى خطة الدفاع المستقبلية عن مصر . ومن ثم ، فإنه لأمر جوهري أن تظل العقبة فى أيد بريطانيا بعد الحرب» . ووجد لورانس ، لدى عودته إلى الوجه ، فيصل مكتئباً ومحبطاً . فعلى حين أن الشريف ، فى البداية ، كان مصمماً على الاستيلاء على المدينة المنورة ، إلا أنه نوى إليه فى آخر شهر مارس أن ستين ألفاً من القوات الفرنسية قد تم إنزالهم فعلاً فى سوريا ، أو أنهم على وشك ذلك ، وقد سبب له هذا القلق وحفزه على التخطيط للتقدم نحو سوريا على وجه السرعة . وكان يرى أن سقوط سوريا فى أيدي الفرنسيين سيكون كارثة ، إذ إنه لا يمكن أن يكون ثمة وجود للحجاز القاحلة

بدون سوريا الحصبة . ووافق لورانس على هذا ، وذهب للقاء قائد الوجه البريطاني ، بيرس جويس على الشاطئ لإقناعه بالعدول عن الهجمة على العلا بهدف عزل حامية المدينة التركية ، وكانت هذه فى الأصل هى الخطة التى رسمها نيو كومب واعتقد لورانس أنها حمقاء ؛ إذ إن الاستيلاء على نقطة وسط على خط السكك الحديدية يعنى تعريضها لهجمة كماشة من قوة المدينة والحامية القوية بتبوك . وشرح لورانس لجويس الرؤيا التى دهمته بشكل فجائى فى وادى عيس وتبين إزاءها أن من مصلحة العرب أن يظل الأتراك فى المدينة . وعبر مرة أخرى عن مخاوفه أن يفقد البدو عزمهم لو حدثت بينهم إصابات كبيرة . وعبر عن اعتقاده أن الاستراتيجية الأفضل هى الإبقاء على خط السكك الحديدية مشلولاً جزئياً وإجبار الأتراك على المقاومة السلبية . وكانت خطط الهجوم على العلا فى سبيلها إلى التنفيذ : كان جارلاند ونيو كومب قد اتخذوا وضع الهجوم ؛ ولو تم الاستيلاء على المدينة سيتمكن فيصل من التحرك شمالاً بسرعة كبيرة ( ولم يكن هذا أمراً مطلوباً ) .

وعندما رأى أنه من الصعب إقناع جويس ، تحول لورانس إلى عودة . وكان الإنزال البحرى فى العقبة أمراً ميسراً منه ، ومن ثم شرع ، منذ وقت طويل يفكر فى أسلوب بديل . فقد كانت دفاعات العقبة عند فوهة وادى إثم تواجه البحر وكان هذا هو الاتجاه الذى يُتوقع هجوم العدو منه . وبالتأكيد ، فإن التسلسل العميق ، بواسطة قوة صغيرة منتقاه يظهر أفرادها فجأة فى المواقع التركية الخلفية من الصحراء ، سيفاجئ الأتراك . وكانت هذه خطة جريئة مبتكرة ، أصبحت فيما بعد نموذجاً لكل غزوات الاختراق العميق عن طريق قوات خاصة التى نفذت طوال القرن . وكانت الخطة تحمل من المخاطر الكثير . فكان الوصول إلى العقبة عن طريق وادى إثم يتطلب قطع طريق دائرى قوامه ٦٠٠ ميل عبر أسوأ المناطق الصحراوية فى الجزيرة ، بما فى ذلك امتداد يسمى الهول لا تتمكن فيه بعوضة أو ذبابة من الحياة . كما أنه لن تكون هناك إمدادات حربية متقدمة ؛ مدفعية أو بنادق آلية ، أو قوافل إمدادات أو نظاميين مدربين . وكانت الغارة هذه تحتاج إلى رجال صحراء أشداء يستطيعون العيش على ما يستخلصونه من أرض الصحراء . ومن المفارقات أنه كان عليه استبعاد البدو لأنهم لا يقاتلون خارج نطاق تخومهم القبلية . ومن ثم ، لم

يتبقى أمامه سوى العقيلين من أتباع فيصل بصفته مرتزقة أشداء تم تجنيدهم من واحات نجد. ولن يقوى على البقاء حياً في تلك المجاهل التي تنعدم فيها المياه سوى فئة صغيرة لا يزيد عددها عن قدر سرب من الجند؛ هذا إن تم حل مشكلة الإمدادات. إلا أنه، ونظراً لقدر الأسلحة النارية المحدود، سيكون على دوريات قصف المدى الطويل تحاشي الاصطدام مع العدو، لأن مجرد وجودهم خلف خطوط الأعداء سيضعهم تحت رحمة أية قوة أكبر مع عدم وجود خط واضح للهروب. وسيكون عليهم، وهم على مسافة تمكنهم من الهجوم على هدفهم، أن يجندوا متطوعين محليين، إذ إن قوة صغيرة مثلهم لن يمكنها الاستيلاء على العقبة بمفردها. لذا، ستتطلب المهمة مقدرة على الإقناع والتبشير إضافة إلى تحمل الصعوبات الهائلة والمخاطر. وقرروا أن يقوموا بتحريك غير مباشر كثير الانعطافات عبر وادي سرحان، وهو طريق هام للاتصال بين جزيرة العرب وسوريا كانت الحويطات ترعى فيه إبلها. وفي حالة لو تمكن جواسيس الأتراك من اكتشاف الحملة، فلن يحدسوا هدفها بدقة، حيث سيوحى اتجاهها باحتمال هجمة على معان ودرعا، أو حتى على دمشق وليس على العقبة. أما لورانس، فكان عليه أن يشن هجمات برقية على السكك الحديدية تصل شمالاً حتى وادي اليرموك كي يؤكد هذه الشكوك. ثم تنعطف هذه القوة في اللحظة الأخيرة انعطافاً حاداً نحو الجنوب الغربي وتندفع عبر الصحراء الغربية إلى مدخل وادي إثم. وحدث لورانس أن المعركة الرئيسية ستندلع هناك.

وبدون عودة الطي كان سيحكم على الخطة بالفشل. فقد كانت حويطات عودة تتحكم في منطقة العقبة، وكان الأمر سيحتاج ليس فقط للنوايا الحسنة بل أيضاً لمتطوعين من القبيلة إذا حدثت الهجمة. ووجد لورانس، لحسن الحظ، قبولاً من عودة الذي قام معه بصياغة تفاصيل الغارة. أما مع زملائه البريطانيين، فقد ظل لورانس غير واضح بشأن طبيعة العملية الحقيقية، إذ إنه كان قد قرأ رد كليتون على فيكرى، وكان على دراية تامة بعزم البريطانيين الاحتفاظ بالعقبة في مجال نفوذهم. إلا أنه فكر في أن استيلاء العرب على العقبة سيرضى جميع الأطراف حينما يصبح واقعاً. فسيضع البريطانيون آخر موانئ البحر الأحمر العثمانية في أيدي الحلفاء ويؤمنون بهذا جناح مري الأيمن أثناء تحركه إلى داخل فلسطين، كما

ستوفر للعرب قاعدة إمدادات لعملياتهم في سوريا . أما بالنسبة للورانس فستكون هذه ضربة «معلم» تثبت للعرب جدارته ، وتثبت لرؤسائه قيمة عمله بين العرب . ولم يكن على استعداد أن ينتظر أوامر مباشرة يطلب إليه فيها الامتناع ، ومن ثم لم يحدد خطته في أى تقرير له إلى القيادة العامة . ومن الواضح أن ويلسون اعتقد أن معان كانت الهدف فقد أرسل إلى القاهرة البرقية التالية في أول مايو «في غضون عشرة أيام سيتوجه الشيخ عودة أبو طيى من الحويطات الشرقية إلى بلدته شرق معان ، وسيرافقه الكابتن لورانس الذى سيبدأ فوراً أعمال تدمير للخطوط الحديدية . وسيكون هدفه الأول الاستيلاء على معان وبالتالي إخلاء الموقع من هناك حتى العقبة» .

وأضحى لورانس الآن وحده . فلم تتم الموافقة الرسمية على خطته ولم يُعرف حتى هدفها الحقيقى . وكانت المخاطرة هائلة إلا أن لورانس أَرْضَى ضميره بأن عملية العلاء لن ينقص منها سواه هو ومجموعة قليلة من رجاله . وقضى أيامه القلائل الأخيرة فى الوجه يتنقل بالطائرة والسيارات المصفحة بحثاً عن طائرة كانت قد تحطمت فى الصحراء . وفى ٨ مايو ، تولى هو والشريف ناصر مسئولية توفير ٢٥,٠٠٠ جنيه استرليني ذهبى كانوا يحتاجون توفيرها لتجنيد عناصر من البدو فى الناحية الأخرى . وكان على ناصر ، الذى اعتقد لورانس أنه أكفأ جنود العصابات من بين كل الهاشميين ، يتولى قيادة المهمة برفقة سوريين هما نسيب البكرى وزكى الدوربى الذى كان عليهما المساعدة على تجنيد الفلاحين السوريين فى صفوف الهاشميين . أما رجال الحويطات فكان بينهم عودة ، وابن عمه محمد الضحيلان المخطط الاستراتيجى الكفاء ، وابن أخيه الذى عرف عنه مقدرته على الغزو ، ويدعى زعل أبو طيى إلى جانب سبعة عشر من المقاتلين العقيليين بقيادة رئيسهم ابن الدغيشر . وفى اليوم الأول سلم لورانس ناصر وعودة ومحمد الضحيلان بعض المسدسات ، وأحضر كل منهم فى اليوم التالى نصف جوال دقيق وملئوا قربهم بالماء ، وخنشوا أحزماتهم بالذخيرة ، وأيقظوا إبلهم التى كانت تن وتترسل رذاذها كى يبدءوا إحدى أكثر الغارات جرأة فى تاريخ الحروب .

كان الصيف فى عنفوانه ، وحرارة النهار خانقة . وفى الصباح الثانى أعمى

أبصارهم توهج انعكاس الشمس على الصخور، ثم توقفوا في الساعة الحادية عشرة، رغم رغبة عودة في مواصلة السير، وحطوا رحالهم أسفل بعض شجيرات السنط، وعلقوا أغطيتهم على الأشواك التماساً لمساحة أقدام قليلة من الظل. وكان لورانس في مفترق حاسم في حياته، وكان ضعفه الجسماني يفسد خطته دوماً. وأصبح التقدم مروعاً، وأجبر لورانس ورجاله على التراجع في الأودية الضيقة وعلى سحب إبلهم من حبال الرءوس، ثم على السير ترادفياً حيث يسحب شخص الناقة من الأمام ويحفزها الآخر من الخلف. وكانت الشمس تمطرهم بضربات كالصلب القاسي. وترنح لورانس وهو يكاد يفقد وعيه نتيجة الحرارة والجهد والحمى. وبعد هذا الطريق كان عليهم السير وسط سلسلة من الصخور المعلقة وكانت من الخطورة بدرجة انزلقت معها ناقتان وتحطمت سيقانهما في الشعب. وكانت الناقتان قد أضعفهما الجرب. وسرعان ما نزل إليهما الحويطيون وذبحوهما بخناجرهم الحادة، وقطعوا لحومهما بمهارة وقسموها بين الرجال. ثم أجبروا على إنزال حمولات الإبل وتحميلها بطريقة أفضل كي يتحاشوا مزيداً من الإصابات. ثم واصلوا، بعد أيام قليلة من السير إلى عين أبو راغة، وبدأت مخاوف لورانس الرهيبة من احتمال المخاطر، والتي كانت كامنة طالماً ظل في الوجه، تطارده فكتب في مفكرته في ١٣ مايو: «اليوم، ألم وكرب». كما أن بطء المسيرة أحبطه بعد أن تعود على الهرولة في الصحراء على إبل خفيفة الحمولة، ومن ثم ضايقته هذه الرحلة الصحراوية البطيئة الشاقة. وكانت الإبل قد أضعفها الجرب، وكان عودة يعلم أن عليهم الاستغناء عنها كي يصلوا إلى نهاية رحلتهم. وكانت الأولوية بالنسبة للبدو هي الإبل، إذ كان فقدانها يعني موتاً أكيداً. وأجبر لورانس لدى مواجهته أكثر الخبرات الخفيفة التي تعرض لها في حياته على الهرب قدماً إلى الخوف. وكان التأخر المستمر قد أعياه فكتب في ١٤ مايو قائلاً: «لو أننا نستطيع فقط التقدم».

إلا أن مزاجه اعتدل مؤقتاً لدى توقفهم عند نبع ماء. وهناك، التقى بصبيين من العقيليين يدعيان علي وعثمان كانا معرضين للعقاب لإشعالهما النار في المعسكر. ورغم أن لورانس ذكر في «أعمدة الحكمة السبعة» أن الصبيين قد ترجياه أن يأخذهما معه، وأنه أجابهما قائلاً إنه رجل بسيط لا يصطحب خدماً، فإنه كتب في







مثل حشد من الذباب . ثم سمع قعقعة البنادق وصوت الطلقات الخفيفة تنز في الهواء وتقذف بالأحجار المتناثرة حولهم ، وانطبح بعض العقيليين أيضاً من فورهم وأخذوا في إطلاق النيران بينما اندفع آخرون مخاطرين بحياتهم ، نحو العدو وهم يطلقون صيحات التحدى . ولم يتوقع المغيرون هذا الحشد الكبير أو هذا الدفاع العدواني ، ومن ثم ، أجموا إبلهم سريعاً وقفلوا عائدين . وتعرف عليهم عودة من قطع ملابسهم وقال إنهم من الشمرين الذين كان أميرهم ابن رشيد يساند الأتراك .

وفي يوم ١٩ مايو ، أى بعد رحيلهم من الوجه بعشرة أيام ، ملئوا قربهم من أعين المياه في درعا ، ثم عبروا الخطوط الحديدية في المساء إلى الديزاد ، وكان هناك حصن تركى بدا مهجوراً ، وشرع اللغامون المدربون من العقيليين في زرع الألغام على القضبان ، وأعدوا طبقات من القطن المتفجر وعبوات الجلاتين التى فجروها تتابعياً ، الأمر الذى أرسل فى الوادى أصوات الانفجارات تصم الآذان ، وسحابات من الدخان . وانفجر عودة ، الذى لم يكن قد رأى المتفجرات من قبل ، فى ضحك بهيج وارتجل أبياتاً من الشعر بهذه المناسبة . واندفع العقيليون نحو إبلهم ، وأثناء امتطائهم لها ، قام لورانس بقطع ثلاثة من أسلاك البرق وسحب أعمدتها أرضاً بواسطة ست من الدواب . ثم هرولوا فى الظلام إلى أن أصبح السير فائق الصعوبة ، فأقاموا معسكرهم على إحدى القمم . وفى الظلام ، رقد لورانس ينصت إلى صيحات الجنود فى المحطات والمواقع الأمامية على الخط ، وإلى بعض الطلقات النارية التى كانوا يواجهونها وسط الظلام إلى من يتخيلون أنهم مغيرون . ولم يجرءوا على إشعال نار أو إرسال إشارات نارية للاتصال بحاملى الأمتعة الذين كانوا قد انفصلوا عن الباقين فى الظلمة . وفيما بعد عاد كشافان وقادا لورانس ورجاله إلى المجموعة الرئيسية التى كانت تعسكر آمنة خلف كثيب رملى ، وتمكنوا من اختطاف سويقات قليلة من النوم وحينما امشطوا إبلهم كان الظلام مازال دامساً ، وتولى عودة قيادتهم عبر التلال والكثبان ، وعند الفجر ، وجدوا أنفسهم على حافة سهل شاسع وامض يمتد بلا نهاية باتجاه الشرق ، ويهبط بشبات حتى يندمج مع سديم السماء الشرقية . كان هذا هو الهول ، سندان الرمال والأحجار الشاسع الخالى حتى من شجرة أو شجيرة أو نصل عشب .

وساروا عبر البرية لخمسة أيام فى برائن عاصفة رملية ملتهبة امتصت الرطوبة من أجسادهم. إلا أنه لم يكن باستطاعتهم سوى شرب بضع رشقات فى اليوم لأن مياههم كانت محدودة ولم تكن ثمة مصادر مائية سوى فى وادى السرحان. ومع مرور النهار، كان لورانس يبصر توهجات تندلع فجأة من الفراغ، وأعمدة من البخار تتصاعد كالدخان النارى. فلم تكن الحياة فقط معدومة هناك، بل لم تكن هناك ثمة علامة على وجود حياة. وبينما كانت جماعته تسير بتراخ إلى الأمام فى الفراغ، محملة باتساع السماء الرهيب، حاول لورانس، دون جدوى، البحث عن آثار للسحالى أو الفئران أو الحشرات أو الطيور. وحولتهم ضخامة هذا السهل الساكن الصامت إلى مجرد نقط سوداء على حمرة. وبدأ للورانس أنهم لا يحرزون أى تقدم، لأن الأفق ظل على نفس البعد أمامهم وخلفهم وعن هذا كتب: «لقد شعرنا بالضالة فيه. كنا نتقدم عبر سكونه وثباته بجهد غير ذى جدوى» كان الصوت الوحيد هو رجرجة المياه فى القرب المصنوعة من جلد الماعز، وصليل الأخرج المسمى ووقع أظلاف الإبل على الحجارة الجافة. وبحلول ظهر اليوم الأول اندفعت من الأفق رياح تغلى محملة بمذاق توابل صحراء النفود التى تقع فيما وراء الرياح. وأحكم العقيليون أغطية رءوسهم حول أفواههم. أما لورانس فقد قرر مواجهة العاصفة حتى النهاية من منطلق العناد المازوكى، وكنتيجة لهذا، تشققت شفتاه بشدة وانبح حلقه من الغبار لدرجة أنه وجد صعوبة فى الأكل لمدة الأيام الثلاثة التالية. وواصلوا المسيرة من الفجر حتى الغروب، وشعر عودة بنفسه بأنه غير مستريح فى هذا الخواء وقرر عدم مقدرته على السفر أثناء الليل لمخاطر احتمال أن يضلوا الطريق ويظلوا يتقلبون فى صحراء مجهولة إلى أن يموتوا من العطش. وسرعان ما اندمجت أرض أحجار الصوان مع منبطحات الملح (القيعان) التى كانت ترسل وميضاً أبيض يغشى البصر فى أشعة الشمس، ويتولد عنه إحساس بالألم لدرجة أن لورانس كاد يفقد الوعى عدة مرات. وأخيراً، وفى ٢٤ مايو، أبصر أول حياة حيوانية ذات أهمية منذ أن ولج السهول نعامتان تتبختران مسرعتان عبر الأفق. ولدى إحضار أحد العقيليين بيض النعام، توقف هو وعودة وناصر ونسيب البكرى ليفطروا به. ثم لحق لورانس بالمجموعة الرئيسية بعد ساعات ليجد خادمه جاسم مفقوداً. كانت ناقته هناك، كاملة، عليها عدل الخرج





المفترضة به من الصحراء. إلا أنه بعد ثلاثة أسابيع من الحادث، يأتى اسم رجل آخر يدعى «جاسم الشامت» فى قصة يرويها عن محاولة لحاكة ساخرة لأسلوب عودة البلاغى الملحمى. وأحداث هذه القصة فى الواقع تتخذ من الوجه مسرحاً لها قبل رحلة العقبة. غير أن السؤال الهام هو عما إذا كان «جاسم الشامت» وجاسم الذى يرد فى قصة الإنقاذ هما رجل واحد. وأولاً، فإن «الشامت» ليس اسماً لعائلة، بل كنية، والكنية هنا تنطبق على جاسم كما قدمه لورانس. كما يتصادف وجود إشارتين فى «أعمدة الحكمة» إلى عربى يدعوه لورانس «الشامت» وذلك فقط، بعد حادثة الهول - الإشارة الأولى ترد بعد معسكر أبو لسان بحوالى شهر حين يسأل لورانس الشامت وهو يبحث عن عودة فى ميدان المعركة «أين ذهب الفرسان؟». أما الإشارة الثانية فغير مباشرة، فيذكر لورانس فى وصفه لغارة المدورة التى حدثت فى سبتمبر التالى أن «الصبى الشامت - شديد الاندفاع» قد قتل فى الهجوم. فإن كان الشامت وصبى لورانس جاسم هما نفس الشخص فإنه يبدو محتملاً أن لورانس أعاد جاسم فعلاً من الصحراء وأنقذ حياته. وفضلاً عن هذا، لا يعنى تعبير «أهدرت ساعتين ونصف فى البحث عن جاسم» لا يعنى فى الاصطلاحات اللغوية الإنجليزية بالضرورة أن المحاولة قد أجهضت، فهو يدل فقط على ضيق لورانس لأن جاسم قد أهدر وقتاً وطاقة نتيجة عدم كفاءته. وكثيراً ما تعبر مذكراته طوال المسيرة إلى العقبة عن تلهفه على مواصلة السير. وأخيراً، فإن لورانس كتب أيضاً فى مذكراته تعبير «لا يساوى ثمن ناقة» الذى ذكر لاحقاً أنه أتى على لسان عودة والذى كان رده عليه «لا يساوى نصف كراون». وتحمل معها هذه التعليقات الإيحاء بتوجيه اللوم المتعمد لشخص ارتكب عملاً أحمق - كأن يذهب للنوم فى الصحراء بينما كانت القافلة تتحرك؛ ومن غير المحتمل أن توجه هذه التعليقات إلى نداء، مهما كانت درجة سوء طبعه، كان قد فقد لتوه. ويبدو لى أن توازنات الشواهد توحى بأن لورانس قد رجع فعلاً إلى الهول وحده وأنقذ حياة جاسم. وهذا فعل مرموق شجاع من رجل كان يرتعد خوفاً من الألم.

كانت الليلة رهيبة. فلم يكن لدى الجماعة ماء، ولم يكن باستطاعتهم النوم أو صنع الخبز. وبدلاً من ذلك، رقدوا على أرض الصحراء يتقلبون ويتضورون جوعاً وعطشاً. وكتب لورانس فى مذكراته «الليلة أسوأ ما خبرت». وحينما شقشق

الفجر التالي وجدوا أنفسهم في وادي السرحان العظيم وعلموا أنهم قد عبروا الهول: أي أنهم خلفوا وراءهم رعب العطش. وأن الخنة انتهت. وأقاموا المعسكر مع انبلاج الضوء الأول للشمس، وبحلول الساعات الثانية كانوا قد وصلوا إلى بئر أرفاجة، وهو مجرى ضيق عمقه ١٨ قدماً يحوى مياه طينية لونها مثل القشدة الصفراء، عفنة الرائحة، كريهة المذاق. ثم ألقوا بمشايخهم، ورووا إبلهم وقادوها إلى المراعى، وجلسوا ليستمتعوا بفترة راحة كانوا جديرين بها بعد جهد عبورهم «سندان الشيطان». ولم تمض ساعات قليلة على الراحة حتى روعتهم صيحة «غزاة.. غزاة». ورأى لورانس طابوراً من البدو يخب باتجاه الآبار على إبل سريعة، والبنادق في أيديهم. وفي الحال، قام هو وناصر بحشد أفراد القبيلتين الذين كانوا قد انبطحوا على بطونهم وبنادقهم مصوبة خلف أمتعتهم استعداداً للدفاع عن المعسكر. واندفع زعل أبوطي نحو ناقته وامتطأها بشجاعة باتجاه الدخلاء الذين استداروا وتراجعوا في الصحراء لدى مواجهتهم بالمقاومة المنظمة. إلا أنهم لم يذهبوا بعيداً، فبينما كان لورانس ورجاله يجلسون في المساء حول النار حيث كان عقيلي يدعى عساف يقوم بتقديم القهوة لهم بالدور، انطلق وابل من الرصاص في الظلام أصاب عساف الذي كان واقفاً بجرح قاتل توفى بعده بدقائق. وأحمد رجال لورانس النيران على الفور، وتدحرجوا إلى الكثبان حيث عينوا موقع العدو من ومضات طلقات بنادقهم، وصوبوا نيرانهم المركزة، فأقلع الغزاة، واختفوا في الظلام. وكتب لورانس في مذكراته «أطلقت النيران علينا الليلة، وقتل عقيلي بعد تقديمه القهوة إلى الرجال مباشرة».

ولم تفسد أية حادثة أخرى دخولهم المحبب إلى وادي السرحان. وفي غضون يومين، كانوا قد عثروا على معسكر على أبو فتنة، وهو أحد مشايخ الحويطات، حيث مكثوا أياماً عدة يستمتعون بتناول لحم ضأن الحويطات بأسلوب ملكي. وتركهم عودة هناك ورحل شمالاً ليقابل نوري الشعلان الشيخ الأكبر لقبيلة رواله القوية، والذي كانوا بحاجة إلى معونته الخفية أو العلنية لو أريد للعملية أن تنجح. وتقدم لورانس وناصر وجماعتهم ببطء في الوادي الذي بدا مقبضاً للورانس، فقد استشعر فيه بشر نشط، بثعابينه ومياه آباره المالحة الكريهة ومستنقعاته الملحية ونخيله المتقزم وشجيراته التي لا تثمر. وكان هذا مشهداً انعكاسياً لحالته







حديث لورانس الازدواجى . فقد كان نسيب تحديداً من نوع العرب الذين يفترض أنهم «متقلبين قصيرى النظر» وكانوا محل كراهية لورانس والبريطانيين؛ فقد كان لورانس والبريطانيون يتماهون مع أكثر العناصر المحافظة فى المجتمع العربى، وقد تطرق لورانس فى «أعمدة الحكمة» إلى هذا الرأى الاستشراقى التقليدى عن التوافق الجوهرى بين «الجنّلمان» الإنجليزى «الشريف» والبدوى وهذا مصنف حُشد فيه أعضاء العائلة الهاشمية الذين نالوا رضاه رغم أنهم نشأوا فى إسطنبول . ومن ثم ، أشار إلى عدم إبداء نسيب رضاه عن إنقاذه البطولى لجاسم ، على حين تفهم عوده والشريف ناصر - اثنان من جنّلمانا الطبيعة - الموقف تماماً . وحينما زادت الولائم فى وادى سرحان على قدرة الأفراد على التحمل ، انسحب نسيب ومساعدته زكى الدروبي ، على حين كان لورانس وناصر من اللباقة والرقى لدرجة إبدائهما الإجلال لمضيفيهما بأن تحملوا الوليمة حتى النهاية . ويُعرف نبل المرء فى كتابات لورانس بسلوكه على المائدة وعاداته فى المأكّل . وقد حاول بمثل هذه الأساليب البلاغية البرهان على وجود صفات مشتركة بين الإنجليز والعرب الأقحاح - أى البدو - أكثر من عرب المدينة «المنحطين» و«الحقراء» و«الخونة» الذين لا يوثق بهم ، رغم أن هؤلاء المدينيين كانوا الغالبية العظمى فى العالم العربى ، ومن ثم ، وطبقاً لتعريف آخر ، يمكن اعتبار هذه الشريحة العرب «الأقحاح» . وبالطبع ، فلم يكن العرب «الأقحاح» موجودين ، فإن الفكرة كانت ببساطة مفهوماً أيديولوجياً كان ذا نفع عظيم للكلونىاليين ، إلا أن المفهوم كان ضبابياً ؛ فالإشارة للبدو على أنهم العرب «الأقحاح» هو فى الواقع أمر ليس أكثر قبولاً من القول إن العائلة الملكية البريطانية هم «البريطانيون الحق» ، ومع إغفال ملايين السكان الآخرين الباقين . وعلى أية حال ، فلم يحسم لورانس الموقف مع بكرى بأسلوب شريف . فذهب أولاً للقاء عوده ، وبيّن له أنهم إذا هجموا شمالاً عن طريق تخوم رواله ، فستلقى رواله ، لا الحويطات ، معظم ثقة البريطانيين ومديحهم وذهبهم . ثم تحدث سراً مع ناصر ، وأشعل الغيرة التلقائية بين الهاشميين - الأحفاد المباشرين للرسول - وبين عائلة البكرى الذى يدعون النسب المباشر (الزائف كما الملح لورانس ) لخليفة الرسول أبى بكر الصديق . وانتهى بأن كسب الاثنان معاً ، واتفق على أنه بعد أن يتم التجنيد ، يركب نسيب إلى جبل الدروز ليمهد الطريق

للمسيرة القادمة إلى دمشق . وحاول لورانس أن يتأكد أن نسيب لا يملك المال الذي يكفي لإشعال ثورة مناسبة بأن أقنع عودة وناصر أن يطالبا بالسبعة آلاف جنيه استرليني التي أعطاهما إياه فيصل لينفقها في سوريا . وأصبح الآن التوتر الناشئ عن هذا الرياء، ومثابرتة على الإبقاء على الخط الذي رسمه لنفسه، والكذب على المتطوعين الجدد يوماً بعد يوم، وتثيله دور البدوى، يفوق قوة احتماله . وكان رعب لورانس الساحق منذ خروجهم من الوجه قد أزعجه دافعاً إياه إلى التحرك باتجاه الأمور الأكثر إثارة لمخاوفة . وكان بطء الحركة في وادي سرحان مصدر عذاب لشخص في مثل طبيعته المازوكية . وأخيراً تحرك شيء داخله فجأة فكتب في مذكراته في ٥ يونيه «لا أستطيع تحمل هذا يوماً آخر... سأجبه شمالاً وأتخلص من الأمر» .

ويوحى لفظ «أتخلص» أنه كان يفكر في مهمة انتحارية . ويتوافق رد الفعل هذا مع توجهه إلى «الهروب للأمام» الذي أظهره في شبابه، فقد كان السير وحده، أو في معية آخرين قليلين متوغلاً داخل أراضى تحت السلطة التركية هو المعادل النفسي لغوص لورانس في الجليد في نهر «تشيرويل» المتجمد . وكتب «إن جرحاً جسدياً سيكون بمثابة منقذ محبب لتعقيداتي الداخلية» . إلا أنه كتب قبل أن يرحل مذكرة مثيرة (ميلودرامية) إلى كيتون ضمن مذكرات كان سيخلفها وراءه، موحياً أن دافعه كان ببساطة هو إحباطه إزاء ما كان يتوقع منه من تجنيد البدو على أساس من الخديعة . وكتب «كليتون.. لقد قررت أن أنطلق وحدى إلى دمشق آملاً أن أقتل وأنا في طريقى؛ فبحق كل الآلهة، حاول أن تنهى هذا العرض قبل أن يتطور . إننا نناديهم أن يحاربوا من أجلنا على أساس من الكذب، ولا أستطيع أنا تحمل هذا» . لا بد وأن لورانس اعتقد أن هذه المذكرة قد تكون مقولة نبيلة مناسبة لتكريمه في حالة وفاته . إلا أن ما هو أكثر احتمالاً هو أن المصدر الحقيقي لهذا الدافع «للهرب للأمام» كان تكوينه النفسي . فلم تكن «تعقيداته الداخلية» هي الاستشهاد الناجم عن «الكذب من أجل القضية» بقدر كونها ضغط الخوف الساحق المستمر الذي أفسد أيامه .

وبالتأكيد، فقد كان ثمة نهج في تهور لورانس أيضاً . فقد حدس أن نسيب





كان عليه أن يكون في الجانب المنتصر. إلا أن دعمه سيكون غير معلن مؤقتاً؛ وكتب لورانس في مذكراته «إنه مستعد لأن يورط نفسه الآن لأية درجة عدا العداء السافر انتظاراً لحصوله على امداداته من الطعام لهذا العام».

وصل لورانس إلى النبك في ١٧ يونيو بعد أن قطع ٥٦٠ ميلاً في مناطق يحتلها الأعداء. كان قد قام بتفجير جسر ودفع الأتراك إلى تحريك ست كتائب من الجبهة والتقى بكثير من القادة الرئيسيين في المنطقة وعين ميادين القتال المحتملة. وكان هذا إنجازاً هائلاً، بل أحد أعظم مهام جمع المعلومات خلال الحرب. واستحق عليه أرقى الأوسمة. إلا أن هذه الرحلة إلى الشمال مازال يغلفها عدم اليقين، ويتحمل لورانس كثيراً من اللوم على هذا وذلك لعاداته الراسخة في إحاطة نفسه بالغموض. فقد أشار إلى المهمة في «أعمدة الحكمة» بشكل عارض إذ قال: «كانت النتائج غير مناسبة مع المخاطر، وكان الفعل غير مبرر فنياً، مثله مثل الدافع إليه». واقترح فيثيان ريتشاردز هدفاً أدبياً خالصاً لعفوية الإشارة إلى رحلته هذه؛ فلو أنه فصل وصفها لقلل من شأن حبكة مهمة العقبة ولأوجد هبوطاً مفاجئاً في السرد. وقد انتهى عديد من كُتاب سيرته إلى أن القصة كانت ملفقة؛ كما أخبر نسيب البكري، الذي تحدث بعد ذلك بأربعين عاماً، سليمان موسى أنه متأكد أن لورانس لم يغادر وادي السرحان أبداً ولا لمدة يوم واتهمه «بالنفاق وتشويه السمعة ونشر الفرقة وعدم الوفاق». إلا أن لهجة نفي البكري توحى بشدة أن ذاكرته كان يشوبها الغضب لما ذكره لورانس عنه في «أعمدة الحكمة»؛ وأضاف نسيب أنه على حين طالبه عودة وناصر بالسبعة آلاف جنيه التي كان فيصل قد أعطاها إياه بدعوى نفاذ نقودهما، إلا أنه رفض إعادتها. وقال إن ناصر قد ألح إلى أن لورانس كان وراء طلب النقود، وأنه وعودة تظاهراً أن نسيب قد أعادها، على حين أنه لم يرجع جنيهها واحداً. وفي مواجهة إصرار نسيب على أن لورانس لم يغادر المعسكر، فإن أمامنا مذكراته حيث تبدو الكتابة فيها أحياناً كثيرة غير مقروءة والمداخل غير مفهومة، الأمر الذي لا يدع مجالاً للشك المعقول في أنه قام فعلاً بزيارة رأس بعلبك والأماكن الأخرى المذكورة في التقرير. غير أنه يبقى التساؤل عن سبب قول لورانس لروبرت جريفز فيما بعد «لقد أعطيت وصفاً مختصراً عن رحلاتي في نبك في تقريرى إلى كليتون». وكان هذا جزءاً من الحقيقة. فقد حدثت أشياء أثناء

ذلك . ولا أريد أن يتمكن أحد من تتبع أثر القصة كلها . . . » فإذا كانت القصة حقيقية فلماذا لم يرغب لورانس أن يتتبعها أحد ؟ وماذا كان يعنى بمقولته التي وردت في وقت سابق أن «الدافع كان غير مبرر» . ثمة إجابتان محتملتان ، أو على الأحرى إجاباتان تكمل إحداهما الأخرى وتمثلان مستويين من نفس لورانس . والإجابة الأولى على مستوى الوعي تتعلق بهدف إشعال فتيلة ثورة عامة بين القبائل تتزامن مع أى غزو بريطاني لفلسطين . وقد أمدت المعلومات التي جمعها لورانس ، وخاطر من أجلها بحياته ، القيادة العامة بتقرير مفصل بين المجموعات المختلفة من القوميين السوريين العرب المستعدين لتوجيه الضربة . وإلى حد ما ، خصصت فيما بعد أموال وثروات طائلة للعرب على أساس هذا التقرير . إلا أن الثورة السورية لم تتبلور كلياً أو حتى جزئياً حتى الأيام الأخيرة من الحملة . فقد انحرفت الخطة الرئيسية التي فكر فيها لورانس أثناء مسيرته شمالاً ، إذ إنه فقد أعصابه حينما حان الوقت ، وفشل في دعوته إلى ثورة عامة في سوريا . وقد يكون ما دفعه إلى حذف تفاصيل رحلته شمالاً هو شعوره بالذنب لهذا الفشل والذي عبر عنه في طبعة أكسفورد من «أعمدة الحكمة» . أما السبب الآخر فقد يكون قد ظل كامناً في الجزء المعتم من عقله . فلابد وأن الرحلة قد ألهمتها بالفعل مازوكيته ، وحاجته إلى تسكين قلقه بالهروب إلى الأمام وهذا واضح من الملاحظة التي أوردها في مذكراته والتي تقول إنه سيذهب شمالاً ليلقى بها جانباً ، ولم يستطع فيما بعد أن ينسى أن الخوف كان دافعه أكثر من الشجاعة الشوفينية التي توقعها الآخرون . وقد تمت مكافأته فيما بعد بوسام الفارس Companionship of the Bath على أساس تقريره ، وكاد أيضاً أن يحصل على وسام فيكتوريا Victoria Cross (V.E) لولا وجود ضابط آخر . وكانت فكرة مكافأته على ما اعتقد هو أنه جبن مصدر تسلية مريرة له ، فكتب «قليل من التعويض ما هو إلا جبن بالنسبة لهؤلاء الذين يستحقون وسام فيكتوريا ، والذي يضعني صيتي بينهم . وبالطبع ، فأنا أعرف في نفسي أنني لست شخصاً شجاعاً ، وأنا غير آسف . فمعظم الشجعان أشخاص تعوزهم الجاذبية» . وخطرت له ، فيما بعد ، فكرة أن الجبن والشجاعة وجهان لنفس العملة ، حين أعلن أن الرجل الذي باستطاعته الهرب هو الحاصل على وسام فيكتوريا . ويدلخص خطاب له إلى تشارلوت شو موقفه من الشجاعة : «حينما يمر أحد







جاثمين في ظل الشجيرات المتناثرة، بينما كانت إبلهم وخيولهم مسرجة في حالة تأهب. وفي المساء دخل المعسكر ببطء راكب منهك: لقد استولوا على فويلة وقتلوا الحامية التركية إلى آخر رجل. فقد فتح الحويطيون النيران، بقيادة شيخهم جاسم أبو دميل بمجرد تلقيهم الإشارة هذا الصباح. إلا أن الأتراك تمكنوا من صدهم في البداية. ولأنهم اعتقدوا أن هذه هي مجرد هجمة قبلية، أرسلت الحامية التركية مجموعة لتتبع المهاجمين، ووجدوا في طريقهم معسكراً أعزل للحويطات فقاموا بذبح ست نساء وسبعة أطفال وطعن شيخ كبير فقتلوه. وثار غضب الحويطات فاندفعوا من مواقعهم على قمم التلال، وحالوا دون انسحاب الأتراك وقاموا بذبحهم جميعاً. وبعد ذلك اتجهوا، وقد تملكهم غضب مجنون، إلى الحصن، واستولوا عليه إثر هجمة شرسة، وأطلقوا الرصاص على كل تركي وجدوه رغم أن قليلاً منهم تمكنوا من الفرار والانسحاب إلى معان. وكانت هذه هي الأخبار التي انتظرها لورانس ورجاله. وفي غضون عشر دقائق كانوا قد امتطوا دوابهم وساروا عبر سهل جفر باتجاه محطة غدير الحج على خط حديد الحجاز في الطريق إلى رأس الممر عند أبو اللسان.

وسار طابور رجال حرب العصابات في وسط الغبار إلى أن ظهر أمامهم خط السكة الحديدية وأعمدة البرق التي بدت كأنها طواطم غريبة وسط الخواء. وحينما رأت القوات التركية جماعة من الغزاة قادمين فجأة في سكون من وسط السراب، تجمدوا من الهلع وانسحبوا إلى المعقل. وهرول عقيليو لورانس من جسر إلى جسر يزرعون المتفجرات وهم يعلمون أن أصواتها ستصل معان وترسل قوة إغاثة تركية إليهم. لكنهم سيكونون، قد اختفوا في هذه الأثناء، في الصحراء كالسحابة. وفجر العقيليون عشرة جسور ودمروا عشرات القضبان، وتوغلوا وقت الغسق لمسافة خمسة أميال داخل هضبة شيرة وهم يعتزمون قضاء الليلة هناك. إلا أنهم بمجرد أن أوقدوا نيران الطهو وصل ثلاثة فرسان إلى المعسكر بأنباء مؤداها أن فرقة تركية من القوة المائة وثمانية وسبعين قد سارت من معان وأعادت الاستيلاء على فويلة من الحويطات. وكانت هذه أنباء سيئة، لأنه إن لم يتمكن العرب من شق طريق يصلون منه إلى وادي إثم فلن يتمكنوا من الوصول إلى العقبة.

وأعطى ناصر الأوامر بالسير فوراً؛ وألقى الأعراب بالأخرج فوق ظهور نياقهم وأخذوا في السير وخبزهم الطازج مازال في أيديهم. وسارت نياقهم على البازلت، وعلى هضبة شيرة المكسوة بنبات الأفسنتين. ولدى انبلاج الفجر، ترجل لورانس ليتمتع بمشهد سهل جويرة الذي يقع آلاف الأقدام أسفل موقعهم وقد اكتسب لوناً أحمر ذهبياً مع بزوغ الشمس، وكانت تتخلله تشعبات قنوات جرف ويحده الجزء الرئيسي من مرتفعات وادي إثم ووادي روم، تلك المرتفعات التي أعادت تشكيلها عوامل التعرية. وكان جاسم أبو دميك ورجاله من الحويطات مازلوا ملوثين بالدم. من أثر معركتهم مع الفصيلة التركية، وكانوا بانتظارهم قرب أبو لسان بأنباء مؤداها أن الحامية التركية العسكرية في المنخفض الطبيعي حول العين مازالت نائمة. وبحذر، وباستعمالهم المنحنيات وكفاف الأرض، قام القناصون العرب بمحاصرتهم. وبمجرد توقعهم فتحوا نيرانهم فجأة، مما جعل الحراس الأتراك يتخذون وضع الاستنفار الكامل. وهروا زعل أبو طيبي وفرقة من فرسانه لقطع خطوط البرق إلى معان. وهرع الأتراك وهم يحسون أثر النوم من أعينهم وصوبوا وابلاً من طلقات الأسلحة الصغيرة في التلال. وسرعان ما انطلقت الأدخنة من مدفعهم الجبلي، وانطلقت القذائف من التجويف، وانفجرت على مدى أبعد كثيراً من صفوف العرب. وهروا القناصون العرب، وقد جرحوا، وأطلقوا النيران وهم يتحركون بسرعة أكبر من مقدرة الأتراك، الذي أغشى ضوء الشمس أبصارهم، وشوشت الأشباح تفكيرهم، على اللحاق بهم، وأصبحوا عاجزين عن تقدير المدى. ولم يكن بجعبة رجال المدفعية التركية سوى عشرين طلقة سرعان ما نفدت. وكان لهيب الشمس شيطانياً في هذا اليوم. وشعر العرب أعلى الهضبة وكأن جلودهم تُشوى ببطء بين الصخور التي نزعَت أسطحها شرائط من هذه الجلود. ولم تكن ثمة مياه ليرووا ظمأهم المتأجج وبلغت الحرارة بعد الظهر مبلغاً زحف لورانس على إثره إلى شق عثر فيه على قطرات من المياه القذرة امتص بعضها من كم قميصه بعد أن بلله. وسرعان ما لحق به ناصر وهو يلهث من بشفتين متشققتين، وسخر منهما عودة، الذي دخل عليهما وهما راقدان وقال «حسناً كيف الحال مع الحويطات؟ لغو فقط دون فعل». وأمن لورانس على قوله وقال إن الحويطات يكثرون من الطلقات لكنهم لا يصيبون. وشحب وجهه عودة من





لحق المئات من قبائل الحويطات والحويوات بقوة الهاشميين الذين ارتفع بذلك عددهم إلى ما يربو على الألف. واستسلمت خضراء في الصباح دون قتال. وكان قارب مدفعية بريطاني، عرف فيما بعد أنه «سليقوى»، قد رابط في الخليج في الفجر وأرسل بعض الطلقات في التلال. وركب ناصر ولورانس مسرعين خارج إثم عبر وادي عربة العظيم حيث لمحوا البحر من خلال ضباب كثيف، إلا أن «سليقوى» كان قد رحل. وكان عليهم أن يحملوا أخبار الانتصار بنفسهم إلى القاهرة على الإبل. ووجدوا مدينة العقبة مدمرة مهجورة وقد حطمها منذ أسبوع قصف قوارب المدفعية البريطانية إلى قطع صغيرة. واستولت الفرقة الهاشمية التي كانت قد سارت ستمائة ميل في الصحراء الملتهبة لتصل إلى هناك، على غنيمتها دون طلقة واحدة.









وقد أصر أفراد الحويطات الذين قابلتهم فى وادى رُم على استحالة هذا الإنجاز، لذا اصطحبت واحداً منهم، صباح بن عيبد إلى سيناء لإنجاز هذا العبور معى كى أبرهن لهم أنه لم يكن محالاً. وكان جد صباح قد خرج مع لورانس فى عديد من غاراته، لكنى اعتقدت أن بدو الأردن قد اعتادوا على السفر فى العربات ٤ × ٤، لذا فهم لا يعرفون ما يتأتى للرجال والإبل إنجازه. وخلافاً لهم، كان بدو سيناء مازالوا يركبون إبلهم، وابتعت منهم أربعاً من أفضل المطايا التى استطعت الحصول عليها من طرابين بنوبيع. ورغم أن خريطة لورانس الخاصة كانت بحوذتى بعد أن قمت بتصويرها من سجلات الجمعية الجغرافية الملكية إلا أن تكرار السفر على نفس خط الرحلة قد برهن على أنه أكثر صعوبة بكثير مما توقعت. فأولاً، كان يفصل العقبة عن سيناء قطاع ضيق من إسرائيل وكانت الحدود بين مصر وإسرائيل عند رأس النقب (أو نقب العقبة فى أيام لورانس) مغلقة آنذاك. وكان على أن أجد طريقاً بديلاً أعلى الجرف يقارب الطريق الذى سار فيه لورانس ويؤدى بنا إلى رأس

النقب. وأراني أحد سائقي الإبل، وهو شيخ يدعى فريج، من طرابين، وادي تويبة - وهو طريق كثير الالتواءات يمر بين كتلتين مربعتين هائلتين من الحجر الجيري محاذٍ للطريق الذي سار فيه لورانس إلا أنه كان يبدو في طابا على الجانب المصري من الحدود. وكان فريج سيرافقنا كمرشد في الجزء الأول من الرحلة حيث سينتظرنا رفيق آخر من الحويات عند ثمد وكانت زوجتي ماريا أنطوانيتا رابعتنا، وهي راكبة إبل متمرسة وتحدث العربية بطلاقة.

وحيثما اقترب اليوم المعهود، بدأت أدرك أن المهمة التي ألقيناها على كاهلنا مهمة رهيبة. وكنظرة أولية، بدت رحلة في الصحراء على ظهور الإبل تستغرق تسعاً وأربعين ساعة مجرد لدغة بعوضة مقارنة بالرحلة التي استغرقت ٢٧١ يوماً عبرت فيها وزوجتي ٤٥٠٠ ميل من الصحراء على ظهور الإبل. إلا أن المكوث على السرج أعلى الناقة ليلتين كاملتين دون راحة بدا فجأة جهداً يتطلب الكثير رغم قصر زمن الرحلة. وكان دافع لورانس عظيماً بالطبع، فلم يكن فقط قد حقق نصراً مذهلاً، لكنه أيضاً كان قد ترك القوات الهاشمية ولديهم نقص في المؤن أدى





التفسير الوحيد الذى توصلت إليه هو أن جماعته كانت تدفع الإبل للهرولة إذ إنه بالهرولة السريعة يمكن قطع هذه المسافة فى هذا الوقت بالضبط . إلا أن لورانس قال تحديداً إنهم ساروا بالنياق ولم يهرولوا إذ كتب : « لو أننا دفعناها للسير بسرعة لانهارت من الإنهاك .. لذا اتفقنا على أن ندعها تسير مهما بلغت درجة إغراء الأرض ».

وبدا الليل بغير نهاية . وهبت الرياح بقوة أشد برودة ، وكاد فريج ، الذى كان فى السبعين ، أن يتجمد على ظهر الناقة . ولم يكن يملك ، خلافاً لنا نحن الأصغر سناً ، رفاهية فرصة النزول إلى رمل الصحراء ليترد البرد بالسير . وكاد يدهمنا ، ونحن ركوب على السرج ، شعور داخلي مرعب بفقدان الصلة بالواقع والانجراف فى بُعد كابوسى ، أو كابوس النوم العميق والسقوط من أعلى ظهور الإبل على الصخور الحادة . أما حينما كنت أسير ، فكان يطاردنى خوف آخر كنت أتجاهله أثناء النهار : الخوف من السير خطأ فوق لغم . فقد كان فى سيناء ألغام حية ، بقايا حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ ، ورغم أن البدو أعلنوا أنهم يعلمون أماكن الألغام ، فلم يكن أحد متأكداً بصفة كلية . وكنت أيضاً أشعر بالثقة وأنا على السرج ، أى فى مكان يعلو على سطح الصحراء ؛ إلا أننى حينما كنت أخطو على قدمى ، كانت تتابنى رؤية مخيفة عن انفجارات غير متوقعة وزخات دخان ، وأحدنا راقد فى برودة الصحراء وساقه أو ساقها قد دمرت . ومرت الساعات ببطء مؤلم ونحن فى طريقنا . وكانت ثمند ، التى ادعى لورانس أنه وصلها فى منتصف الليل ، مازالت نائية : وفى مخيلتى كانت نائية كالقطب الشمالى ثم انبعثت ، فى مكان ما من رأسى المنهكة ، وفى ساعات الصباح الأولى ، احتمالات غير مؤكدة بأن لورانس لم يخبرنا بالحقيقة .

وقبل الفجر بساعة توقفنا وأشعلنا النار لندفئ فريج الذى بدا فى ضوء مشعلى شاحباً كالموت ، وأخذ الآن يرتعد من البرد بشكل واضح لدرجة خشيت معها أن يموت . وبشهامة عظيمة ، ألقى صباح عباءته المبطنة بجلد الغنم حول كتفى الشيخ النائتين . إلا أنه استمر يرتعد ، وكان علينا أن نرفعه فوق ناقتة . ولم تنقذه سوى الشمس التى انبلجت وهى ترسل موجات نابضة من الضوء الذهبى . تكشففت

ضخامة هذه البرية المقفرة . وكنا قد وصلنا لنهاية النفق ، إذ إن الليل كان قد حبسنا في حيز قدرته ياردات قليلة مربعة : والآن ، أصبحنا فجأة أشبه بالنمل في لا متناهية من الصخر في حمرة الخوخ ، تعترض امتدادها نقط قمم حادة كأنياب ناتئة منعزلة ، وتنحدر مخفية في منخفض في وادي ثم . وأدخلت علينا أشعة الشمس الدفء بلطف ، ونحن نتبع مجارى المياه التي جفت ، حيث كان ثمة أعشاب لترعاها إبلنا . واختفى شحوب فريج وبدأ تنفسه ينتظم مرة أخرى . وسرعان ما وصلنا إلى الطريق الذى كان يلتف هابطاً في منطقة جافة تهب عليها العواصف الترابية ثم يختفى .

وكانت بئر ثمند حيث ارتوت إبل لورانس ، مازالت هناك تقع إلى جوار بناء وحيد في ظل شجرة شوكية . وعلى كتف الوادي ، رأيت معسكرات شرطة سيناء التي كانت قد هجرت يوم وصول لورانس عام ١٩١٧ . وأنخنا إبلنا وانزلقنا من فوقها . والتف الشيخ فريج في بطانيته ونام في ظل شجيرة . ثم جلسنا في الظل لنعد الشاي . وكانت ساق صباح قد أصيبت بكدمة شديدة من السرج ، كما ثقب كعبي حذاء ماريانا أنطوانيتا . كانت الساعة العاشرة صباحاً ، وكان هذا يعنى أن لورانس قد وصل قبل ذلك بعشر ساعات . وأضاف هذا ساعات عشر ، على الأقل ، لرحلتنا : فبدلاً من أن نظل متيقظين مدة ٤٩ ساعة - وهي مهمة شاقة في حد ذاتها - واجهنا احتمال أن نظل مستيقظين تسعاً وخمسين ساعة ، وربما أكثر من هذا كثيراً ، حيث سيتباطأ خطونا حين يملكنا التعب . ورأيت استحالة هذا ، ومن ثم ، قررت وأنا محبط إحباطاً مريعاً ، أن علينا التوقف عن الاستمرار في الرحلة عند هذه النقطة .

وطرت عائداً إلى لندن ؛ وشعرت أن هذه كانت هزيمة خطيرة . فلمدة عشرين عاماً كنت قد اعتدت الرحيل في الصحراء ، وقطعت ١٦,٠٠٠ ميل بالناقة . وفي الواقع ، فقد كنت أكثر خبرة عما كانه لورانس حينما عبر الصحراء عام ١٩١٧ . وكان حينذاك في التاسعة والعشرين من عمره ، ولم يكن قد قام برحلة على ظهر ناقة إلا قبل ذلك بتسعة أشهر . فقد كنت على استعداد تقبل أن يكون لورانس قد أسرع عنا بدقائق ، غير أنى ، وبعد عقدين من ركوب النياق ، رفضت تقبل احتمال

أن يصل الفرق إلى عشر ساعات . فحتى لو كان لورانس ورجاله أشداء عنا ، وهذه نقطة كنت على استعداد تام للتسليم بها ، فكيف تأتي لإبل منهكة السفر بسرعة تفوق سرعة إبلنا إلى هذه الدرجة ، وتظل باستطاعتها مواصلة السير ؟ فما أثر في كان هو عظم الفرق . فقد كنت أعلم أننا بذلنا وسعنا ، ولم نتباطأ ، بل تقدمنا بصلاية طوال ما بعد الظهر ، ثم لليلة كاملة ومعظم الصباح التالي ، وقطعنا ستين ميلاً ، أى بمعدل ثلاثة إلى أربعة أميال في الساعة وهو معدل جيد بجميع المقاييس . وقد جعلنى الفشل فى تحقيق المعدل الذى حققه لورانس ، أشك فى خبرة حياتى برمتها .

وبعد أيام ، وبينما كنت أعمل فى قاعة المخطوطات بالمتحف البريطانى ، قام أحد المساعدين فى المكتبة بوضع صندوق أزرق على مكتبى . وكدت أن أقف لأعترض على الفعل باعتباره خطأ . فقد اعتقدت أننى قد طلبت مذكرات لورانس وقت الحرب وكانت مكتوبة فى «نوتة» إشارات عسكرية ، ومن الواضح أن هذا الصندوق الذى لا يزيد عرضه على عرض الكف كان لا يحويها . وفحصت المحتويات ووجدت مذكرتى جيب من ماركة «ليتس» حجمهما صغير جدا لم أكن قد رأيتهما من قبل . وفى الواقع كانت هذه «المخطوط العريضة» المذكرات لورانس والتي كان يحملها معه ويسجل فيها المكان الذى قضى فيه كل ليلة أثناء الحملة . وأدركت أنها كانت ، عن حق ، أكثر المصادر معاصرة بين جميع المصادر الأخرى . وأخذت أقلب الصفحات بتراخ حتى وصلت إلى صفحة ٦ يوليو وهو اليوم الذى دخل فيه لورانس العقبة . وأدهشنى ما قرأت :

الجمعة ٦ يوليو :

دخلت العقبة العاشرة صباحاً . قرأت خطاباً من نيوكومب . غادرت بعد الظهر . نمت عند رأس نقب العقبة .

السبت ٧ يوليو :

ارتوينا عند ثمد . الغروب (بئر) محمد

الأحد ٨ يوليو :



مررت بنخل ( كلمة مطموسة ) مديفة ( صدر حيتان )

الاثنين:

نمت جيداً بالسويس .

إذا فلم يقطع لورانس المسافة في تسع وأربعين ساعة . وقد نام في الواقع ، عند رأس ممر «نقب العقبة» ، لكنه ، وكأبعد عن أن يكون قد وصل ثمم في منتصف الليل ، كما ادعى ، فقد وصل البئر قبيل غروب اليوم التالي ، لأن بشر محمد ، الذي يظهر على الخريطة ، يبعد أميالاً قليلة فقط عن ثمم . ويعنى أننا قد وصلنا ثمم أسرع منه ؛ وأنه قضى هذه الساعات نائماً على قمة الممر . وقضيناها نحن ، بحماقة ، في السير الحثيث أثناء الليل في محاولة للحاق بسرعته . فقد أوضح مدخل المذكرات أنه وصل السويس في اليوم الثاني ، لا الثالث ، بعد خروجه من العقبة . وكانت الساعات التسع وأربعين في «أعمدة الحكمة» مجرد «كذبة» . ولم أستطع أن أثبت سبب كذب لورانس في «أعمدة الحكمة» ، لأنه لم يكذب على رؤسائه . وحينما أعدت قراءة التقرير الذي كتبه لكليتون في ١٠ يوليو ، أى يوم رجوعه إلى القاهرة لاحظت أنه قال «وصلنا العقبة يوم ٦ يوليو . . وركبت في نفس اليوم متوجهاً إلى السويس مع ٨ رجال ، ووصلت «الشط» في التاسع من يوليو» . وكان هذا التقرير الذي نشر عام ١٩٣٨ في خطابات جارنيت يحملق في وجهي وفي وجه كل كاتب آخر لسيرة لورانس طوال الوقت . وتطلب ظهور الحقيقة رحلة أليمة على الإبل عبر جزء من سيناء مع شيخ طاعن في السن على وشك الموت . ولا بد أن لورانس قد أدرك أن شخصاً ما سيلاحظ هذا التناقض يوماً ما . وقادني هذا الشك في أن يكون هذا التناقض إرادياً ؛ جزءاً من لعبة «غرابة الأطوار» العظيمة التي ظل يلعبها منذ أن كان طفلاً ، فيحير الآخرين بغلالة من الغموض ، «آملاً أن يتوق الأفراد لمعرفة من يكون هذا الشخص غريب الأطوار» . وفكرت : كم كانت حيلته ناجحة ؛ فهذا نحن الآن ، وبعد ثمانين عاماً ، مازلنا نحاول يائسين أن نستدل عليه .

ولا تقلل مشاكسات لورانس من قدر إنجازاته العظيم باستيلائه على العقبة التي كانت الضربة الوحيدة المتفردة العظيمة في حياته رغم أنه لم يكتب له أن يتمتع

بمثل هذا النجاح المذهل مرة أخرى. لقد أسست عملية العقبة وحدها وضعه، فكان عليه أن ينقل الأخبار بنفسه إذ كان من المحتمل عدم تصديقها لو حملها رسول آخر. والأكثر من هذا، أنه أصبح قادراً على إقناع رؤسائه أنه هو وحده القناة التي لا يمكن الاستغناء عنها لمرور الأسلحة والأموال عبرها إلى العرب. بل لقد أدرك الهاشميون أيضاً أنه لا يمكن الاستغناء عنه. ومن خلال العقبة، أصبح هو «الشخص الرئيسي في الثورة العربية» على حد قوله. وفي القاهرة، أولم رؤسائه الولايات احتفاءً به، وأرسل كليتون رسالة خاصة إلى مدير المخابرات العامة يقول فيها «لقد وصل الكابتن لورانس من رحلة شبه أسطورية عبر بلد للأعداء.. فقد أقلع من الوجه يوم ٩ مايو ومعه ٣٦ عربياً، وسار عن طريق الجرف ونبق وهو يعبر الخطوط الحديدية ويفجرها في طريقه». وبعث روبرتسون بشنائه الخاص. وسرعان ما وجد لورانس، الملازم ثان احتياطي لأعمال الترجمة نفسه ضابطاً دائماً برتبة ميجور. ومن حسن الحظ أن تلازم وصوله إلى القاهرة مع تعيين الجنرال السير إدموند أللنبي قائداً عاماً. ففي أوائل عام ١٩١٧ كانت قوات مري قد هجمت مرتين على غزة، وتم صد الهجوم الذي راح ضحيته نحو ستة آلاف نسمة. وكان يؤمل أن يكون أللنبي أشد بأساً. ودخل لورانس، الذي سمح له بلقاء هذا الضابط العظيم إلى مكتبه، حافى القدمين يرتدى زياً عربياً متسخاً. ولعب لعبته التمويهية المعتادة. ثم قام بتسليمه تقريراً مفصلاً بشأن رحلته السرية إلى الشمال. وأدعى أن بإمكانه نشر ما لا يقل عن سبع فرق من المجندين العرب من مواقع رئيسية متنوعة، يمكنها، بحلول آخر أغسطس، تهديد خطوط اتصالات الجيش التركي في القدس. وكان هذا يعني ثورة عربية عامة في سوريا، بما في هذا الاستيلاء على دمشق، رغم أن لورانس أكد إمكانية حدوث هذا فقط، إذ استطاعت قوة أللنبي في الحملة المصرية منع القوة التركية من التمرکز على خط غزة-بئر سبع، وبذلك تحول بينها، وبين إرسال فرق جديدة إلى حوران. وكان هذا اقتراحاً طموحاً أقرب إلى الخيال. على أن أللنبي أخذ يرقب لورانس وهو يتعجب وغير واثق من «القدر الحقيقي، والقدر المدعى في شخصيته». أما لورانس، فقد وجد الجنرال شخصاً أبوياً بشكل لافت، يمكن إضافته إلى قائمة الآباء الآخرين الذين قضى حياته يعددهم؛ تلك القائمة التي ضمت هوجارث، وشملت فيما بعد توماس هاردي

واللورد ترنشارد. ورغم أنه قد شكاً فيما بعد أن أعمق رغباته كانت هي الرغبة في الخدمة «العبودية الطوعية»، إلا أنه لم يجد أبداً سيداً يمكنه استخدامه كما يجب». لكن النبي كان هو الأقرب إلى مفهوم «السيد الذي يتوق إليه». وفي هذا كتب يقول «كم كان الرجل معبوداً لنا. كان ألعياً ذا خاصية داخلية عظيمة، لا يشوبها شيء، غريزية وعضوية». ولم يكن من السهل تقدير رد فعل النبي على شخصية لورانس. فقد كتب فيما بعد أن النبي اعتقد أن لورانس كان قائداً حربياً ألعياً. ونسب إلى النبي قوله إن العرب كانوا في الواقع مجرد عامل إلهاء للأتراك، وأنه ثمة ضباط آخرون كان باستطاعتهم إنجاز المهمة بأسلوب أفضل من أسلوب لورانس. وكان هذا بالطبع افتراضاً لاحقاً على وقوع الحدث. إذ إن لورانس آنذاك كان قد استولى لتوه على العقبة، ولو افترضنا أن العرب الذين عملوا معه كانوا مجرد إلهاء للأتراك، فقد كان هذا أفضل مليون مرة من تركهم ينضمون للأعداء. كان النبي واقعياً، وكان يعلم أن أي شيء قد يفعله لورانس في سوريا كان من شأنه تقييد الأتراك، حتى لو فشل. غير أن غموض الجنرال المصمت كان سبباً في عدم استطاعة لورانس الحكم على قدر «فهمه» إياه. إلا أن العرض نجح كالعادة، ووعد النبي أن يفعل ما باستطاعته من أجل حلفائه العرب.

وفي غضون أيام من النصر، كانت سارية العلم في أسطول البحر الأحمر، بوريالوس، قد رست في العقبة في إشارة على الدعم البريطاني. وبحلول يوم ١٣ كانت السفينة دفرين تفرغ السلاح والمؤن. وكان على قوات فيصل أن تنتقل من الحجاز إلى العقبة، بحيث تنتقل قوات الهجانة عن طريق البر، وتنتقل القوات النظامية، بقيادة جعفر باشا، بحراً من الوجه. وكان على فيصل أن يعمل تحت قيادة النبي، وأن تعمل قواته جناحاً أيمن للجيش البريطاني. وسافر لورانس إلى الحجاز حيث قابل فيصل، والتقى بحسين لأول مرة. وفي جدة، تلقى من القاهرة رسالة اعترضت المسار، مفادها أن عودة أبو طيبي كان على وشك الهروب إلى الأتراك. ويسترسل كاتب الرسالة بقوله: «أبلغنا العميل ٧ أن عودة، الذي كان ذراع لورانس في العمليات الأخيرة في منطقة (معان - العقبة) اتصل بالأتراك وقال إن من أسباب عصيانه منح نوري الشعلان زعيم رواله الجوائز، وحرمانه هو منها. وأنه على استعداد للرجوع عن تفكيره بشروطه الخاصة. وأن عودة كتب رسالتين

إلى القائد العام للجيش الثامن يطلب منه هدية. وشعر لورانس بالخطر، ومن ثم عاد إلى العقبة في اليوم الرابع، وهناك ابتاع ناقه شهيرة تدعى غزالة ركبها مسرعاً عبر وادي إثم إلى معسكر عودة في قويرة. فقد كان ولاء الحويطات مازال ذا أهمية حاسمة في الدفاع عن العقبة لأن الأتراك كانوا قد استعادوا أبو لسان وأخذوا يقصفون وادي إثم. وكان من المتوقع أن يقوموا بهجمة مضادة على العقبة في غضون شهرين، وكان الشريف ناصر قد أقام أربع نقاط دفاع أمامية لحماية ممر شطار الهام. وكان وادي موسى عند مدخل بترا أحد هذه المواقع، والثاني عند دلغة في جبال البلقاء، والثالث عند بترا، أو النقطة الأكثر ارتفاعاً على هضبة شيره، والرابع في قويرة بالسهل المنخفض حيث يقع خزان مياه قديم في ظل جرف صخري منحدر عميق، وكانت هذه المواقع الأمامية حيوية إلى أن يصل الجيش النظامي العربي إلى العقبة، وكان استمرار تلك المواقع يعتمد على الحويطات وعلى عودة بن طيى، واستقبل لورانس كصديق في مخيم عودة، وحين تناقشا حول حقيقة اتصال عودة بالأتراك أخبره عودة بأنه تظاهر بذلك كي يحصل على الأموال وهي قصة يصعب تصديقها. وحدث لورانس أن عودة كان غاضباً من البريطانيين حيث إنه لم يتلق أية جائزة نظير استيلائه على العقبة، كما أنهم لم يرسلوا له بأية بنادق أو قوات. وخمن لورانس أن اتصال عودة بالأتراك كان أكثر جدية مما ادعى. ورغم قوله الرومانسي الغنائي في «أعمدة الحكمة» أن قلب عودة كان «يتوق للعدو المهزوم»، فالحقيقة هي أن الحويطات، شأنها شأن سائر قبائل الحجاز، كانت تعمل من أجل المال، لا الاستقلال، ولم تكن نظرهم تتعدى حدود التكافل القبلي. وحل لورانس المشكلة بأن وصف لعودة كميات السلاح الهائلة التي كانت ستصل في وقت قريب إلى العقبة، وبين له أن فيصل، الذي كان على وشك الوصول هناك، سيكون «عميق الامتنان» لخدماته. ثم أعطى عودة مقدّم مبلغ كبير كان واثقاً من وصوله إليه لدى قدوم فيصل. وقفل لورانس راجعاً إلى العقبة في نفس الليلة آملاً أن تكون محاولته قد ضمنت ولاء الحويطات، على الأقل، لحين وصول الفرق النظامية واحتلالهم الميناء. وصمم أن يحتفظ بسر خيانة عودة لنفسه: لأن البريطانيين ذوى القيم الإقطاعية في رأيه لن يفهموا طبيعة الولاء عند البدو. واعتقد أنهم يريدون أبطالاً مثل أبطال الروايات، ولذا، عمد إلى تقديم

عودة لهم كبدوى غاز شجاع، مثلما قدم فيصل كقائد عربى نبيل، بحيث يتلاعب بصورة العرب لدى البريطانيين لصالح العرب. وقد اعترف أن خدمته لسيدى كانت من عوامل ضيقه فكيف يقول إنه واحد من ضباط أللبنى، وكان أللبنى يتوقع منه أن يبذل جهده من أجل البريطانيين. لكنه كان أيضاً مستشار فيصل، وكان فيصل يتوقع منه الصدق والأمانة والكفاءة. ولدى مقارنته الدورين أحدهما بالآخر كتب قائلاً «لا أستطيع توضيح كل الموقف العربى لأللبنى، كما أننى لا يمكننى أن أكشف كل الخطة البريطانية لفيصل».

وكان لورانس قد أخبر كليتون بصراحة أنه تم الاستيلاء على العقبة بمبادرته هو، وطلب منه قيادة «عملية القنفذة» أى حملة العرب البريطانية. إلا أن كليتون لم يستطع تلبية طلبه، لأنه رغم أن لورانس كان قد ترقى إلى رتبة ميجور فقد كان أقل منزلة من الضباط الكبار، ولا يمكن وضعه فى موضع أعلى من أشخاص مثل نيو كومب وجويس. وكان جويس سيقود الحملة رسمياً، لكن، بما أن لورانس كان سيظل ضابط اتصال لفيصل، فكان بإمكانه الاستحواذ على كل السلطة التى يرغب فيها.

وفى ١٨ أغسطس وصل جعفر باشا إلى العقبة مع فرقتين من النظاميين العرب تتكونان بشكل أساسى من مدنيين من مكة وضباط سوريين سابقين فى الجيش التركى. وبعد ستة أيام، أنزلت السفينة هاردنج فيصل مع إمدادات وقوات أخرى. وكان النظاميون، الذين وصل عددهم ألفين، مدعومين بالبعثة الفرنسية من الوجهة تحت قيادة الكابتن بيسانى مع بطارية من مدافع الجبل يعمل عليها مدفعيون جزائريون. وكان ناصر قد شغل وقته بتجنيد المحليين الذين اتجهوا بأعداد كبيرة إلى العقبة لمبايعة الهاشميين. وفى نهاية أغسطس، تم إرسال طائرات إلى مطار كونيلا المؤقت فى سيناء، أخذت تقوم بسلسلة من الغارات على معان. ومن أجل بدء الحملة فى سوريا منح الهاشميون مبلغ ٢٠٠,٠٠٠ جنيه استرلىنى ذهبى و ٢٠,٠٠٠ مدفع وعشرين بندقية آلية طراز لويس، وثمانية مدافع من طراز ستوكس وخمسين طنناً من قطن البنادق للتفجيرات وسرباً من السيارات المصفحة.

وكان وصول جعفر باشا مع قواته إلى العقبة ومعه شحنة البنادق من طراز

هامبر التي ولدت شعوراً بالاطمئنان يعنى أن المدينة أصبحت محصنة ومهيئة لشن غارات الحويطات على خط السكك الحديدية. ولم يتوقع أحد أن تستطيع قوات جعفر صد هجمات الأتراك، إلا أنه كان غير معروف للأعداء، ومن ثم مثلت عاملاً معوقاً. وبنهاية شهر أغسطس، بدا الهجوم التركي على العقبة أمراً غير محتمل إذ إن الأتراك كانوا يواجهون مشكلة وسائل الانتقال؛ فقد كانت إبلهم قليلة وهزيلة، والمراعى فقيرة. وكشفت أوامر من القيادة العثمانية في دمشق، وقعت في أيديهم، أنه قد صدرت الأوامر لحامية معان وعددها ٦٠٠٠ جندي بقطع الطريق فقط على وحدات فيصل للحيلولة دون وصولها إلى مرتفعات البلقاء الخصيبة التي كانت قمت الجيش التركي في فلسطين بالحسوب وبالأخشاب لاستعمالها وقوداً للقطارات. وأشار كليتون على جويس، الذي أصبح قائداً للعقبة، أن الفعل الهجومي الوحيد، الذي كان بمقدرة الأتراك، هو احتلال وادي موسى قرب بترا بواسطة فرقتي مشاة ووحدة فرسان وبعض المدفعيين الذين يمتطون البغال. واقترح كليتون أن تقوم قوات فيصل غير النظامية بالإغارة على السكك الحديدية جنوب معان وتدميرها قدر استطاعتها كي تبقى القوات التركية في تبوك والمدينة منعزلة عن قاعدتها. كما أن تدمير الخط كان من شأنه إعاقة الأتراك عن القيام بهجمة رئيسية وذلك بإذابة قواتهم. وتم التخطيط لعدة عمليات لقطع خط السكك الحديدية في سبتمبر، واختار لورانس «مدورة» هدفاً له، وهي محطة جنوب معان كانت الوحيدة التي بها مياه على امتداد طويل. وكتب رسالة سريعة إلى كليتون قائلاً: «ثمة سبع محطات هنا دون مياه، وإنني آمل أن نتمكن من فعل شيء بالمدافع الستوكس والبنادق اللويس يعوق الخط إعاقة خطيرة. فإن نحن أحدثنا قطعاً كبيراً سأبذل جهدي للإبقاء عليه، إذ إن الحاجة إلى إغلاق الوجه كلبية أصبحت ملحة». وفي ٧ سبتمبر خرج من العقبة مع اثنين من مدربي البنادق وهما السرجنت يلز والعريف بروكس وشيخين من بني عطية، وهي قبيلة بدوية تسكن منطقة المدورة. وكانت خطته تجنيد ٣٠٠ من بدو الحويطات في قويرة، ثم التوجه إلى المدورة والاستيلاء على المحطة. وكان للحويطات أجور شهرين متأخرين، وكانوا في شجار دائم ولم يقيم عودة، الذي كان يحاول فرض سلطته على القبيلة كلها، بفعل شيء يذكر لتهدئة الموقف. وبدلاً من هذا، سار لورانس خمسة أميال

باتجاه الجنوب الشرقى عبر سهل القويرة إلى وادى رُم حيث كتب أن هناك ثمة ينابيع جيدة، وبعض المراعى، وبعض مناظر الصخور الرملية الجميلة.

كان وادى رُم فى الواقع من أجمل المشاهد البديعة فى كل الجزيرة العربية. فقد كان متاهة من الأحجار الرملية التى بدت سيرورة تطورها كلها واضحة للعيان. كانت ثمة طرق عريضة تكتنفها الأشجار ونبوءات من الصخر الأحمر بدت وكأنها جزء من كيان حى. ولم يتوقف أبداً شعور لورانس فى كل مرة زار فيها ذلك الوادى بالنشوة إزاء تلك الحصون الصخرية وقد أخذت شكل الأسياخ واللفافات وتشققت وتجمعت بفعل الأملاح والرياح والرمال فأصبحت تكوينات لا يقوى أى عقل يهذى بالانفعال على إبداعها هذيان مروع مجسد فى الصخر والحجارة. إنه المشهد الطبيعى للعقل اللاواعى. وأصبح وادى رُم، بالنسبة للورانس، ممراً إلى الكون - قد يسبح فيه يوماً إلى فضاء النوم الأبدى المغرى الذى تضيئه الشمس إذ كتب يقول: «كان عقلى دوماً ينحرف عن الطريق المباشر كى أتحرر وأجلو حواسى ليلاً فى رُم وأتجول على مطيتى فى واديه الذى يضيئه الفجر قاصداً السهول الرضاء، أو أسير فى جنوبه عند غروب الشمس إلى هذا المربع المتألق الذى تحول توقعاتى بينى وبين الوصول إليه. كنت أتساءل هل أواصل السير ممتطياً هذه المرة إلى ما وراء خزيل، وأعرف كل شىء؟»

بيد أنه كانت فى الوقت الراهن ثمة حرب تم الانتصار فيها، وكان هناك خط حديدى يجب تدميره، وامتطى لورانس دابة من أسوار الوادى المهيبة حتى المدرج الطبيعى العظيم فى الصخور أسفل جبل رُم. كان هذا مخبأ مثالياً وقاعدة لعمليات العصابات فقد كانت تحميه صخور ناصعة من جهات ثلاث، ولم يكن بإمكان من يصعد الوادى رؤيته إلى أن يصل إليه فعلاً. كان هناك نبع طبيعى يدعى شلالة على جانب التل على ارتفاع يتطلب خمس عشرة دقيقة من التسلق، وهو يعرف اليوم باسم «نبع لورانس». وكانت الحويطات تنصب خيامها فى مأوى من الجدران الصخرية غرب بقايا معبد نبطى. وعسكرت جماعة لورانس هناك بعد هبوط الظلام، واستقبلوا زواراً من مختلف عشائر الحويطات، وكانوا جميعاً مستاءين لما رأوا من محاولة إعلاء الهاشميين من شأن أبى طيبى. ولم يكن بين البدو من يغار

على سلامة صيته مثل بدو الحويطات . وقد ذكر لورانس أن من بين كل أربعة أو خمسة كان هناك واحد يعتبر نفسه شيخاً . وأظهرت عشيرة الدمانية، بقيادة الشيخ «جاسم أبو دميك» (المحارب الهمام الذي قاد معركة فويلة) تمردها العلني وعرف لورانس أنه ليس بمستطيع استمالة جاسم، ومن ثم، أعلن غاضباً أنه سيجند أفراداً من أية عشيرة أخرى باستثناء الدمانية لشن غارة مدوية . واندفع جاسم إلى الخارج هادراً وأعلن أنه سيلحق بصفوف الأتراك .

وحينما شعر لورانس أنه يفتقد سلطة التعامل مع هذا العصيان بنفسه، عاد إلى العقبة واستشار فيصل، وركب عائداً إلى رُم ومعه الشريف عبد الله بن حمزة كي يهدئ المشاكل . وتمكن عبد الله من كسب بعض الدمنيين، إلا أن جاسم نفسه ظل متحدياً لأسباب ليس أقلها أن «زعل أبو طيى»، الذي كان لورانس يعتبره «أفضل المغيرين على الإطلاق» كان من المقرر أن يرافق جماعة الإغارة مع خمسة وعشرين من طويحة . ولم تكن أية عشيرة من عشائر الحويطات لتقبل بسلطة زعل، كما أن كل قبيلة على حدة رفضت الحديث إلى الأخرى . وبما أن عبد الله كان قد رجع إلى العقبة، وكان الشريف الآخر مع المجموعة، وناصر الحارثي الذي فقد بصره في اليوم الأول لخروجهم، فكان لورانس هو الشخص الوحيد الذي يملك الحياد الكافي ليتولى قيادة الغارة، وكان عليه، أن يتخلى لأول مرة عن عاداته في العمل من خلال شريف، وأن يتولى القيادة بنفسه .

وعلى هذا غادر لورانس رُم فجر ١٦ سبتمبر ومعه مائة وستة عشر بدوياً، واثنان من العسكريين البريطانيين يحمي كلاً منهما اثنان من العبيد من حراس فيصل الشخصيين الذين كانوا على استعداد للموت دفاعاً عنهما . وقد قام برعاية هذين الجنديين البريطانيين بعناية بالغة، أولاً للحاجة الماسة إلى مهارتيهما، وثانياً، للأثر السلبي لفقدانهما على العرب، وثالثاً، لأنه كان من طبيعة لورانس رعاية الآخرين . وقد قال بروكس عنه «كان دائماً شديد الاهتمام بنا ويحرص على التأكد من قدرتنا على تحمل الحرارة الفائقة» . وسافرت المجموعة بطول «القاعة» وهي رقعة شاسعة من السبخة تفصل بين رُم وهضبة شيرة، وقد جعل منها قاعها الطيني المسطح طريقاً طبيعياً . كانت كتل الحجر الرملي كثيرة العقد وبلغت أقصى ارتفاع



لها فى جبل رُم ثم تهبط تدريجياً حتى يقل ارتفاع الكتل الخارجية ليصل إلى ما يقارب طول الرجل العادى . وتراجع الحجر الرملى ليفسح الطريق لمنحدرات صخور جيرية بللورية . وسارت القافلة باتجاه هضبة مدببة القمة منحدره الجنبات حيث كانت الحافة تتدلى على شكل خرج بين مسندى كُتب وتشير إلى مدخل سبخة طينية أخرى أمضوا فيها ليلتهم . وفى اليوم التالى عبروا منطقة أكثر وحشة : مرتفعات صخور جيرية تُلطف من حدتها عُقد من الطرفاء ( أشجار نحيلة الأعضاء ) . . وفى المساء وصلوا إلى بئر مدورة التى تقع فى وادى بين كتلتين مربعتين هائلتين من الحجر الجيرى يقع على مسافة أكثر من ثلاثة أميال عن المحطة حيث يوجد اليوم قليل من أشجار النخيل التى توقف نموها مشيرة إلى وجود مياه ، إلا أن البئر نفسها تحولت إلى حفرة رمال جافة تماماً ، وفى عام ١٩١٧ كانت هناك مياه وفيرة إلا أن الأتراك لوثوها عن قصد بإلقاء جثث إبل ميتة فيها . وكان لحمها المنتفخ واضحاً ومقززاً للورانس وجماعته ، إلا أنهم رغم ذلك قاموا بملء قربهم لأنها كانت المياه الوحيدة المتاحة وأصيب يلز وبروكس عقب هذا بنوبة إسهال حادة .

وعند مغيب الشمس ، تسلل لورانس وزعل والعسكريان البريطانىان على الأقدام إلى حافة الصخرة الأخيرة التى تطل على المحطة حيث كان الأتراك قد أقاموا متاريس حراسة حجرية من الصخر الرمادى الرقيق . ولا تزال تلك المتاريس قائمة . ولدى وصولى فى أحد الليالى زحفت صاعداً إلى القمة ذاتها لأطل على نفس أبنية المحطة التى تقع على الخط الحديدى الشبحتى التى نزعنا منها القضبان وعربات النوم وجمعت فى أكوام . إلا أن الخط كان قد ظل مثبتاً فى ١٧ سبتمبر عام ١٩١٧ ، ونظر لورانس من أعلى القمة على سلسلة من المعازل على طول رصيف المحطة ورأى نوافذها مضاءة بنيران الطهو ، وعلى مجموعة من الخيام يسكنها حوالى مائتين من الأتراك . وكتب لورانس لاحقاً أن المحطة كانت تبعد عن القمة بحوالى ٣٠٠ ياردة ، أى أنها أبعد من مدى مدافع من طراز ستوكس . وقرر أن يزحفوا إلى مسافة أقرب كى يجدوا موقعا أفضل ، حتى وصلوا إلى مكان قريب من العدو لدرجة أنه كان باستطاعتهم سماعهم يتحدثون ورأوا بوضوح وجه أحد الضباط الأصغر سناً الذى ترك المعسكر ليقضى حاجته ثم أشعل سيجارة يعود من

الثقاب . ثم انسحبوا إلى معقلهم في الجبل ، وبحثوا هامسين أمر الهجوم : فقد كان عدد أفراد الحامية مائتين مقارنة برجالهم المائة وستة عشر ، وشعر لورانس أن أبنية المحطة كانت أقوى من طلقات مدافع المورتار . وقرر ألا يجازف بقصف المحطة بل يعتمد إلى تلغيم الخط بدلاً من هذا .

إذاً نظرنا إلى القرار بعد ثمانين عاماً ، لوجدنا أن دوافع لورانس لإفشال الهجوم غير مبررة . ففي صباح اليوم التالي لوصولي ، قمت بقياس المسافة بين قمة التل وأبنية المحطة ووجدتها أقل من الياردات الثلاثمائة التي ادعاها ، وعلى أية حال فقد كان من المحتمل أن تكون مدافع ستوكس فاعلة من هذا البعد . أما كون أبنية المحطة شديدة الصلابة ، فقد فحصتها عن قرب ووجدت أنها كانت قد شيدت من نفس كتل البازلت التي بنيت بها كل المحطات الأخرى ، ولا بد وأن لورانس كان على علم بهذه الحقيقة . بيد أن العقبة الرئيسية كانت فرقة العرب وانقسامهم . ورغم أن لورانس ألح فقط إلى هذا في طبعة ١٩٣٥ من «أعمدة الحكمة» حيث قال «لم نكن أسرة سعيدة» فقد كان أكثر تحديداً في نص طبعة أكسفورد حيث بين أن فكرة النار والحق كانت قد تملك من الحويطات لدرجة أن كل بدوى كان يخشى أن يشي به الآخر أو أن يطلق عليه الرصاص من الخلف . وقد كانت عدم ثقته بالحويطات هي التي جعلته يعدل عن الهجوم . فلم يكن تلغيم القطار أكثر سهولة فقط من ناحية التحكم فيه ، لكنه أيضاً كان عملاً محبباً إلى العرب حيث كانت أعمال النهب ميسرة . وقد سجل لورانس فيما بعد أن العرب كانوا يتحمسون لنسف القاطرات أكثر من حماسهم لأي شيء آخر .

وقرب المدورة ناموا جيداً ، وفي الصباح ، تحركوا عبر سهل كان قاحلاً حينذاك ، أما الآن فقد اخضوضر بمشروعات زراعية . ووصلوا إلى حزام من التلال المنخفضة حيث كان خط السكة الحديد ينحني شرقاً كي يتخطى مشطاً مدرجاً لصخرة منحدرية . واعتقد لورانس أن هذا موقع مثالي للتلغيم . فقد كان على القطار أن يبطيء كي يدور حول المنحني . كما أن التدريجات توفر مواقع رائعة لمدافع ستوكس إلا أنها كانت أكثر ارتفاعاً من أن تصيبها البنادق الآلية من طراز لويس ، لكن بما أنها كانت تواجه الشمال تحديداً ، فقد كانت تطل مباشرة على القضبان

وكان يمكن لها أن تكون قاعدة رائعة لقصف صف الجنود. ثم قاموا بإخفاء بنادقهم بين الصخور في أعلى الوادي، وحملوا أسلحتهم ومعداتهم إلى القمة الصخرية. وعلى بعد ثلاثمائة ياردة كانت المعادن (القضبان) تعبر أسلاك أرضية ذات قوسين، واختارها لورانس موقعا لفرقعاته. وكان في المرات السابقة قد استعمل مفاتيح ضغط للإشعال، أما هذه المرة فقد جرب استعمال شحنة كهربائية تلحق بكابل وكابس ويتم إطلاقها باليد. وبدلاً من دفنها تحت الأقواس (القناطر) وضع أרטاله الخمسين من الجيلاتين المتفجر في الرمل على السطح حتى يحطم الانفجار باتجاه أسفل الجسر وبعض العربات أياً كان ما سيحدث للقطار. أما الكابل، فقد برهن على كونه مشكلة: فقد كان بمجرد دفن جزء منه يقفز جزء آخر من تحت الرمل. وأخيراً كان على لورانس أن يجذبه إلى أسفل بجلاميد صخر ثقيلة، ثم قام بتسوية الرمال بعناية لإخفاء الآثار. لكن لسوء الحظ لم يكن بالإمكان رؤية الحفرة السفلية (القناة) من موقع إطلاق النيران، لذا قرر لورانس أن عليه الوقوف في منتصف المسافة بين مسار السكك الحديدية والمفجر (مفتاح التفجير) كي يعطى الإشارات لسالم - أحد عبيد فيصل - الذي تطوع بالقيام بمهمة ضغط الكابس. وكان هذا يعني أن لورانس سيكون على مرأى من الجنود في القطار.

وبمجرد أن تمت التجهيزات للكمين بدأت الأمور فجأة تسير سيراً خاطئاً. فقد تسلق البدو المكلفون بحراسة الإبل أعلى التل «ليستنشقوا النسيم» وكان بالإمكان رؤيتهم بوضوح من كل من محطة المدورة على بعد تسعة أميال إلى الشمال، ومحطة حلة عمرو على بعد أربعة أميال إلى الجنوب. وصاح فيهم لورانس ليهبطوا، إلا أن الأتراك كانوا قد شاهدوهم وفتح موقع أمامي النيران عليهم من مسافة ميلين ونصف. غير أن مغيب الشمس أنقذ العرب ونامت جماعة لورانس وهم واثقون أن الأتراك لن يحضروا للبحث عنهم في الظلام. إلا أنه بعد فجر اليوم التالي بقليل شوهدت فرقة من أربعين تركياً تتقدم على الخط من حلة عمار. وأرسل لورانس ثلاثين من الخويطات للاشتباك معهم وإبعادهم، إلا أنه مع حلول الظهيرة، غادرت محطة مدورة قوة أكبر كثيراً قوامها حوالي مائة جندي تقدمت نحو الجنوب على خط السكك الحديدية. وقرر لورانس أن ينسحب ويترك الألغام إلى أن تحين فرصة أخرى. وفي هذه اللحظة صاح حارس من أعلى التل أن

هناك قطاراً يقف في محطة حلة عمار. واندفع لورانس إلى أعلى للمشاهدة،  
 وحينما وصل هناك بدأت القاطرة في التحرك ببطء باتجاههم. وصاح هو وزعل في  
 البدو أن يحتلوا مواقعهم، وهروا القليلون والبريطانيون من مكان معسكرهم إلى  
 «المصطبة» التالية. واتخذ يلز وبروكس موقعيهما على «الرف» بينما تفرق البدو  
 من حاملي البنادق بأسلوب مروحى في التصدعات والكوات على طول مسار  
 القطار وأثناء تقدم القطار رأى لورانس أنه يتألف من قاطرتين، لا قاطرة واحدة،  
 وحوالى اثنتى عشرة عربة مغلقة مكدسة بالقوات التركية، التى كانت تتوقع  
 هجوماً، لذا أخذ رجالها فى إطلاق النيران عشوائياً فى الصحراء من فتحات ضيقة  
 و«صناجر» على ظهر القطار. ودهش لورانس لرؤيته قاطرتين، وقرر بشكل فجائى  
 أن يفجر اللغم تحت القاطرة الثانية كى لا تقوى على جر العربات إن تعطلت  
 القاطرة الأولى. وفى اللحظة التى عبرت فيها القاطرة الأولى القناة السفلية رفع  
 لورانس يده، وأعمل الكابس. فصدر صوت رعدى واندفع دخان أرجوانى داكن  
 وأبخرة لمسافة مائة قدم إلى أعلى من خلال كتل من الحديد المحطمة التى كانت تتجه  
 نحوهم، بما فى ذلك عجلة قطار كاملة مرت من جانب رأس لورانس محدثة أزيزا  
 واندفعت فى الصحراء يصاحبها رنين. وفجرت القناة الأرضية، وتعطلت القاطرة  
 الأولى وتحطمت الثانية إلى أشلاء صغيرة. وعلى الفور فتح السرجنت يلز وطاقمه  
 العربى نيران بنادقهم فى قصف مميت توغل إلى أسطح العربات فأصاب الأتراك  
 وصرعتهم مثل القناني الخشبية وحطمت الألواح الخشبية وحولتها إلى وابل من  
 القطع الصغيرة. وطبقاً للعرىف بروكس فقد تمشى لورانس بهدوء عائداً إلى موقع  
 البنادق على التل «متجاهلاً القصف النارى تجاهلاً تاماً بحيث جعلنا نشعر أن الأمر  
 كله لا يعدو أن يكون نزهة». ومن على «المصطبة» رأى لورانس والبريطانيون البدو  
 وقد تجردوا من كل ملابسهم عدا سراويلهم الواسعة وهم يقفزون من حفرهم  
 ويندفعون نحو القطار. وكانت هذه حركة غير مخطط لها، إلا أن أوان إيقافها كان  
 قد فات. وكان الأتراك يتدافعون خارج الأبواب من الجانب الشرقى ليحتموا  
 بالجسور ويسددوا النيران إلى البدو. ولما كانوا محتشدين جنباً إلى جنب أصبحوا  
 هدفاً سهلاً لمدافع المورتار وقذفهم العرىف بروكس بقنبلتين قتلت الثانية حوالى  
 عشرة. وتملك الرعب الأحياء منهم فأخذوا فى الهرب عبر الصحراء معرضين

أنفسهم مرة أخرى لرصاص بنادق اللويس التي أطلقت على جموع المنسحبين حتى سالت دماؤهم على الرمال وتناثرت أشلاؤهم على الأرض، وانقشع الدخان والغبار وسكنت المدافع التركية معلنة انتهاء المعركة. وحينما نظر لورانس إلى ساعته ذهل لأن هذا الاشتباك استغرق عشر دقائق فقط.

وهرول إلى الخط الحديدي ليفحص حجم الدمار ووجد البدو وقد تملكهم جنون الاستحواذ، فاندفعوا يشقون أبواب العربات ويحطمون البضائع ويتصايحون ويطلقون النار بدون تعقل ويندفعون داخل القطار ثم يخرجون محملين بالبالات والسجاجيد. وكانوا في حالة فقدوا فيها التحكم لدرجة أنهم تظاهروا بأنهم لا يعرفون لورانس وحاولوا ثلاث مرات انتزاع غطاء رأسه وخنجره إلا أنهم أجبروا على الابتعاد بالقوة. وجد لورانس القاطرة الأولى وقد مالت على جانبها ففجر أسطوانتها بشحنة من المتفجرات كي لا تستعمل بعد ذلك أبداً ومع هذا كتب إلى القيادة يقول: «إنني مازلت أخشى أنها قد تكون قابلة للإصلاح. فلم تكن الظروف تساعد على الأداء الجيد نظراً لمسئوليتي عن عديد من الأسرى والنساء» ولحق لورانس بالنهابين واختار لنفسه سجادة صلاة جميلة من بلو خستان. وكان البدو، الذين أصبح من الخيال السيطرة عليهم، يمسون بأية ناقة متجاهلين مالكتها، ويحملونها بالغنائم ويرحلون. ولما اقتربت الحاميات التركية من المخطتين فر البدو إلى الصحراء. وفجأة وجد لورانس ويلز وبروكس، اللذين كانا قد عادا إلى التل لاسترجاع البنادق والكابل، أنفسهم بمفردهم. ومن ثم، كانوا على وشك أن يتركوا البنادق، حينما اندفع زعل بن طيبي وابن عمه حويل عائدين على نياقهما وساعدهم في تحميلها. وأشعل يلز وزعل ناراً مستخدمين طواحين الأسلحة الآلية والذخيرة الزائدة، ووضعوا عليها عشرين قذيفة مورتار مفكوكة وهربوا. وبينما كان الأتراك يتقدمون نحو القطار قابلهم وابل من النيران من القنابل المتفجرة والخراطيش.

وتجمع البدو في منطقة أكثر أمناً. وكما جاء في كتابات لورانس، فقد كانوا على وشك الانسحاب حينما اكتشف أن عبداً يدعى سالم، الذي قام بتفجير العبوة، كان مفقوداً. وطلب متطوعين ليعودوا للبحث عنه وعن باقي الأدوات

المفقودة. ووافق زعل وعشرة من رجال الطويحة على القيام بالمهمة. وعادوا على إبلهم إلى الخط الحديدي ليجدوا أتراكاً كثيرين وسط الدمار. وحين تحققوا أن سالم لا بد وأن يكون قد مات حيث إن الأتراك لم يأخذوا أى أسرى من العرب، توجهوا إلى موقع معسكرهم وأجبروا، تحت وابل من النار، أن يتركوا الأدوات. ورجعوا فوق القمم تحت غطاء من طلقات بندقية لويس الذى كان السيرجنت يلز يتولاها. ثم انسحبوا إلى بئر المدورة حيث ارتووا وركبوا إبلهم واتجهوا مباشرة إلى وادى رُم ووصلوا هناك مساء اليوم التالى. وكانت خسائرهم قتيلاً واحداً، وجريحين، وخسائر الأتراك سبعين قتيلاً وستين جريحاً وتسعين أسيراً.

وكانت غارة المدورة أحد أنجح هجمات لورانس على الخطوط الحديدية وأكثرها إثارة. وكتب كليتون رسالة إلى أَلنسى يقول فيها «أرجو لفت انتباهكم إلى ما أظهره الميجور لورانس من بسالة، وإلى الأسلوب الناجح الذى تحكم به فى قوته الصغيرة. وأود أيضاً أن ألفت انتباهكم إلى الأداء الجيد والمثابرة التى أبداهما السيرجنت يلز من القوات الجوية الملكية والعريف بروكس من قوات العمل الملكية اللذان كانا حديثى العهد نسبياً بالعمل... إن نجاح هذه العملية لا بد وأن يكون له آثار... خارج نطاق أهمية العملية ذاتها، إذ إنها سترفع من معنويات العرب وسيتم تناقلها بالطبع، الأمر الذى سيزيد من قدرتها». ويقع اليوم التل الذى ثبت لورانس عليه مدافعه وبنادقه من طرازى الستوكس واللويس على الحدود بين الأردن والسعودية، وباستطاعة الفرد تسلقه مع مخاطرة استشارة عداء حرس الحدود، ويمكن أن يرقد على الرف الحجرى فى «صنجر» حجرى، والذى قد يكون من بقايا المعركة، ويطل على نفس مشهد مسار القطارات الذى شاهده السيرجنت يلز من منظاره يوم ١٩ سبتمبر ١٩١٧. وسيرى أيضاً على بعد ٥٠٠ ياردة، حطام عربة قطار ملقاة على جانبها، تلك التى فجرها لورانس، وسيتحقق أنها عربة مفتوحة، رغم أن لورانس حدد فى جميع تقاريره أن القاطرة كانت تجر عشرين عربات مغلقة، وسيبحث الفرد، دون جدوى، عن الجسر الذى وضع عليه لورانس عبوته. إذ لم يعد موجوداً، ولكن إذا كان يتمتع بالصبر لقطع المسافة من التل حتى السد، فسيجده مدفوناً فى الرمال، وسيجد كسارات قناة ذات قوسين، قد تكون القناة التى فجرها لورانس فى هذا اليوم من شهر سبتمبر منذ ثمانين عاماً فى

غضون عشر دقائق حيث قتل هو ورجاله سبعين من الأتراك. ومن الصعوبة تقدير رد فعل لورانس على هذا القتل. فقد كتب خطاباً في ٢٥ سبتمبر إلى الميجور فرانك ستيرلنج، وكان زميلاً في القاهرة على وشك أن يعين في الجبهة العربية، يصف فيه البهجة بلغة صبي مغامر من الكشافة، تلك اللغة التي لا بد أنه رآها مناسبة لضابط محترف: «آمل أن تجد هذا مسلياً، كما هو بالفعل. إنه عرض هواة لاه من الطراز الأول. إنك ستجد التجربة فردوساً، حيث لا يوجد أى عائد، أو أوامر، أو رؤساء، أو أطباء، أو وجبات، أو شراب». فقد كان لورانس دائماً خبيراً في الصخب المتبحر والاستعراض، لكن كانت ثمة روح حساسة تحت السطح. فإن صورة مختلفة تماماً تظهر في خطاب كتبه قبل هذا بيوم واحد إلى إدوارد ليدز: آمل حينما ينتهي هذا الكابوس أن أستيقظ وأحيا مرة أخرى.. فلن أتحمل العيش حتى نهاية هذه اللعبة. فإنني (أشعر) أني في سبيل إلى فقد أعصابي، كما أن مزاجي يتهلهل. إن هذا قتل... وقتل الأتراك هذا مرعب. فحينما تشن الهجمة، لتجدهم في النهاية أشلاء متناثرة، والبعض منهم أحياء.. وتعلم أنك قد فعلت الشيء نفسه بمئات آخرين، وعليك أن تفعله بمئات أخرى إن استطعت». ولا يمكن الإجابة على السؤال الذي يطرح نفسه، عما إذا كان اعتبار أحد هذين الخطابين، أو كليهما موضعاً لشخصية لورانس «الحقيقي»، أو أن الاثنين ببساطة انعكاس لشخصيتي متلقيها المتناقضتين.

أحمد بن باقر: شركسي من القنيطرة

عملية اليرموك وحادث درعا

أكتوبر ١٩١٧ إلى يناير ١٩١٨



# 17

امتطيت جملاً يدعى

شايلان صباح أول أبريل - وكان

جمل سباق شهيراً من الحويطات -

أسفل سلسلة باغودات [ هيكل متعدد

الأدوار ] أم صلاب راعية رُم، وعبر

السبخة التي تسمى بالقاعة باتجاه

صدع وادى حفيرة. كنت أحمل

«أعمدة الحكمة» فى الخرج، ولو صدق

لورانس، فلا بد وأن أجد فى نهاية

الوادى طريقاً شديداً الانحدار يصل بى

على ارتفاع ألفى قدم إلى قمة هضبة

شيراها.

وشعرت بحرارة الجو قبل بزوغ الشمس بوقت طويل، وقبيل الفجر كانت السنة من الظلال الليمونية والبرتقالية تلحق عبر اللون البنّي للتلال، وتخيرها مثل تخير المرء كعكاً محلى بالسكر، وتلمع أشعتها على مرآة ملاحات القاعة. وكان الضباب الذى تبخر من مراعى نباتات الرمث والرطام السميكة يغلف وادى حفيرة نفسه. وصلت أسفل الممر عند الظهيرة، وتسلفت بطن واد كان ينحني بلطف باتجاه قمة صغيرة فى بياض الثلج على ارتفاع آلاف الأقدام. وأخذ الوادى يضيق وتنحني جوانبه أكثر حتى أنى كنت أسحب الجمل من لجام رأسه فى صدع من الصخور يتسع فقط لمرورنا. وترنحت محاولاً شق طريقي، وفجأة ضاقت الجدران لدرجة أن احتك أحد «جراكن المياه» على ظهر «شايلان» وثقب وبدأت المياه تقطر منه مما أثار غضبى المجنون. وكانت الشكوك قد ساورتني منذ ولجت الوادى. فلا يمكن، بالتأكيد، أن يكون هذا هو الطريق الذى نسلكه لورانس فى صحبة جيش كامل من العرب، وكتيبة مدافع آلية هندية ومئات من الإبل لأنهم

كانوا، ببساطة، لن يتمكنوا من المرور. خشيت أن يضيق الصدع بحيث لا أستطيع أن أدير الجمل لنعود أدراجنا. إلا أنني، ولسبب ما، تابرت ببطء في القيط الشديد الذى كان يتردد بين جنبات الصدع الذى وجدته ينتهى فجأة أسفل صخرة شديدة الارتفاع. فلم يكن هذا بالتأكيد، الطريق الذى سلكه لورانس. ولعنت نفسى وأنا أدير الجمل وأفلت راجعاً. بيد أن قصفاً رعدياً وحشياً فاجأنى، وللحظة تجمدت فى مكانى، فقد كان ثمة هواء بارد يتدفق، ثم هطلت أمطار أخذت تشقب رمال الوادى. وتملكنى الرعب. فلو أن الأمطار كانت غزيرة على الهضبة فستنهمر مياهها فى الوادى وتحبسنى هنا بين الجدران.. ونظرت حولى. وفكرت فى ترك الجمل والتسلق إلى أقصى ارتفاع ممكن. ثم توقفت الأمطار بعد ثوان، فحمدت الله، واندفعت مهرولاً إلى أسفل الطريق على قدمى، وأنا أسحب شايلان الحرون خلفى.

وأدركت أن لورانس لا بد وأن اتبع كتف الوادى. إلا أن المسير هناك لم يكن أكثر يسراً. فلم يكن ثمة ممر واضح. وكنت كثيراً ما أتعث فى الكتل الصخرية، ثم

سقطت وجرحت قدمي. كنت أسير متذبذباً، نصف منزلق على حصي مفكك، وأحفظ توازني على نتوءات لا يتعدى عرض كل منها اثنتى عشرة بوصة، ووجدت طريقاً إلى ممر مائي غريب مهديم من الحجارة الأرجوانية والفلسبار (سليكات الألومنيوم) البيضاء. وحدث أن اقتربت من حافة هاوية لدرجة أن شايلان، الذي كان يشب ويجفل، كاد يدفعني إلى أعماقها. وشككت مرة أخرى في أن يكون جيش لورانس قد سلك هذا الطريق. ورغم أنه قد كتب في تقريره أنه فقد جملين سقطا على جانب التل، ذات مرة أثناء تسلقه فقد ذكر أيضاً أنه سار، في مناسبة أخرى، في الممر دون أن ينزل عن ناقته إلا في موقع أو موقعين عسيرين. وارتعدت من مجرد فكرة امتطاء الناقة على هذه الكتل الصخرية الحادة والممرات شديدة الانحدار. إلا أنه كان من الواضح لي أن هذا الطريق هو نفس الطريق المهديم المتعرج لأنني، حينما حملت خلفي، أسفل مئات الأقدام، استطعت رؤية شارع حفيرة الذي تغطيه الأعشاب، والذي ينتهي بتل مخروطي، وبدا وأنه يقع في مركز الوادي وتظله كلة «رم» الشفافة كما وصفها لورانس تحديداً. وكان تسلق التل صعوداً وأنا أسحب الجمل خلفي أحد أكثر التجارب التي خبرتها إرهاقاً. وحينما وصلت إلى القمة، كانت الشمس على وشك الغروب. واستغرق مني الصعود ست ساعات. ولم يكن بمقدوري أن أصدق أن لورانس قد تمكن أبداً من امتطاء ناقته صعوداً وهبوطاً على جانب هذا التل شديد الانحدار دون أن ينزل عن السرج، إلا أنني فكرت أنه، رغم سنوات خبرتي، فقد كان لورانس يفضلني في السفر بالإبل.

وقد رأى لورانس في حفيرة معبراً من بلاد العرب إلى سوريا، بين الحرارة والبرودة، بين أشجار الطرفاء والأسفنتين. وفي الواقع، كانت الهضبة عالماً مختلفاً تماماً عن رقع «رم» الرملية، كانت منطقة مستنقعات صفراء متموجة دون شكل مميز تصل إلى المدى البعيد. وفي صدع، يقع بعد الموجة الأولى، التقيت بمجموعة من خيام البدو، وبينما كنت أسير إلى جانبها، عوت الكلاب في وجهي، وخرج إلى بدوي في دشدشة سوداء، ودعاني إلى قضاء الليلة هناك. ثم أراني كيف أنيخ جملي، بينما ساعدني خمسة أو ستة من البدو، يرتدون الشياب المهلهلة، على إنزال حمولة الجمل. ثم رحبوا بي داخل الخيمة حيث كانوا قد أشعلوا نارا من

أخشاب الرمث فى مربع فى الوسط . وأفسحوا لى مكاناً بينهم . ثم قاموا بذبح شاة بعد الظلام، وجلسنا إلى جوار النار لساعات نحتسى الشاي والقهوة، ونتحدث حتى جاءوا باللحوم على صينية قطرها ياردة، وكان عليها عُجز الشاه وضلوعها، ووضع الرأس فى وسط الصينية وقد بدا فكاه وكأنما تجمدت عليهما ابتسامة شيطانية . وذكرتنى هذه بصينية الأكل الكبيرة التى وصفها لورانس وكأنها حوض استحمام غير عميق، وقال إن عرضها كان خمسة أقدام وتستند إلى رجل واحدة . وكانت تلك هى صينية عودة بن طيى . وكان مضيفى من الحويطات، وسألته عن صينية عودة العملاقة . فأخبرونى أنه لدى احتلال الجيش الأردنى جفر فى الثلاثينيات من القرن العشرين، تم نهب كثير من ممتلكات عودة وربما يكونون استولوا على الصينية من بين أشياء أخرى . وأخبرنى مضيفى محمد بن سالم، الذى كان قد عمل فى شرطة الهجانة فى الصحراء، أنه قد رأى وهو صبي، صينية محفورة، فى جفر، إلا «أن عرضها لم يكن خمسة أقدام، بل كانت فى الحجم المعتاد» . وشككت فى أن تكون القصة هى إحدى «مبالغات» لورانس . فقد كتب فى مدخل مذكراته الأصلية «كان عرض الآنية ثلاثة أقدام»، ثم شطبها وكتب «خمسة أقدام» . وبعد ذلك قرأت فى تقرير ألوا موسىل الذى كان قد تناول الطعام مع عودة عام ١٩١٠ ووصف الآنية، وأعتقد أنها كانت هى ذاتها، بأنها كانت من الحجم المعتاد، أى حوالى ثلاثة أقدام عرضاً . فلو أن لورانس قد بالغ فى شأن تافه كهذا، فهل بالغ فى وصفه لمر الحفيرة؟ سألت الحويطات عن رأيهم، فضحك الرجل الأكبر سناً، وأخبرنى محمد قائلاً، كانت حفيرة مختلفة فى زمن لورانس . لم تكن ثمة طرق أو سيارات، وكان الممر يقع على الطريق الرئيسى من الحجاز إلى معان، وكانت تمر فيه مئات الإبل كل يوم . واعتاد الحويطيون المحليون الحفاظ عليه وتنظيفه وإزالة الأحجار التى تسقطها الأمطار على التلال . أما الآن، فكل فرد يملك سيارة . وهناك طرق تؤدى إلى نقب الشطار . ولا يستعمل الممر الآن سوى الرعاة، ولا أحد يهتم بنظافته . لهذا وجدت صعوبة فى السير فيه . أما فى الماضى، فقد كان مثل طرق السيارات، وكان بإمكانك ركوب ناقتك ذهاباً وإياباً .

وفى هذه الليلة، خلدت إلى النوم فى الخيمة وأنا أشعر بالرضا إذ إن الحويطات

قد قاموا بتبرير تجربة لورانس وتجربتى .

وكان مضيفي من عشيرة الدمانية من الحويطات - وهم قوم الشيخ جاسم أبو دميك ، الذي هدد قبل «المدورة» بأنه سيلحق بالأتراك ، لكنه لم ينفذ وعيده ؛ ولدى عودة لورانس إلى رُم عمل على إرضاء جاسم واقتصر على استئجار رجال من الدمنين فقط للغارة التالية على الخط الحديدي عند الكيلو ٥٨٩ جنوب معان . وكان قد سلك ممر الحفيرة لأول مرة أول أكتوبر عام ١٩١٧ أثناء مسيرته للقيام بهذه الهجمة . واستغرقت العملية ستة أيام . وأخيراً ، وبعد انتظار عدة أيام ، كان لورانس قد لغم قطاراً وحطمه عند إمشاش الحسمة ، وادعى أنه أصيب في فخذه برصاص ضابط تركي . وفي الأشهر التالية ، حطم لغاموه المدربون سبع عشرة قاطرة ، وأعاقوا الخط إعاقة خطيرة ، بالضبط كما كان قد حدد . إلا أنه طار في منتصف أكتوبر إلى الإسماعيلية لمقابلة ألنبي مرة ثانية .

وكان ألنبي يخطط لهجوم كبير على خط غزة - بئر سبع في نوفمبر . وكان لورانس قد وعده في شهر يوليو بإشعال ثورة عارمة في سوريا كي يؤمن الجناح البريطاني ، إلا أنه ، وبعد ثلاثة أشهر ، كان يبغض القيام بمثل هذه الخطوة التي لا رجعة فيها ؛ فقد أصبح التقرير المفصل الذي كان قد قدم إلى كليتون بعد الاستيلاء على العقبة مجرد «تاريخ قديم» حيث إنه رغم إنجاز هده المباشر ، أي الدعم البريطاني الكبير للثورة العربية ، إلا أنه سرعان ما أدرك عدم استطاعته التنفيذ ، حيث إنه في حالة فشل هجوم ألنبي ، أو الفشل في الوصول إلى يافا والقدس ، سيصبح المتمردون العرب معزولين وسيقتلهم الأتراك . فلم يكن عرب سوريا بدوا رحلاً ، بل فلاحين مزارعين ، يحيون في قرى مأهولة ، وليس باستطاعتهم الاختفاء في الصحراء مثل رعاية الإبل ، أي أنهم كانوا سلاحاً يستعمل مرة واحدة ، ويهدر تماماً إن انطلق قبل الوقت المناسب . وقد رأى ألنبي أنه بالإمكان التضحية بالعرب ، إلا أن هذا لم يكن رأى لورانس الذي رغب بشدة أن تنجح الثورة العربية . ومن ثم ، قرر أن يكرس جهده لتنفيذ اقتراح كان في الأصل جزءاً صغيراً من خطته الرئيسية - أي الهجوم على الجسر الواقع في أقصى الغرب في وادي اليرموك ، عند جسر الحمى ، وكان عبارة عن بنية معقدة من الصلب تمتد أعلى وهد مطمور يحرسه حوالي ستة رجال . وقد رأى أن تدمير هذا الجسر سيعطل الخط الحديدي لمدة أسبوعين . فإن تمكن العرب من تفجير الجسر في تزامن تام لخطة مطاردة ألنبي

للأتراك، فسيقطع بذلك كلية الخط الرئيسى الذى سيستخدمونه فى تراجعهم إلى دمشق، ويجبرون على الانسحاب سيراً على الأقدام، وقد تكون تلك هى اللحظة المناسبة كى يشور الفلاحون على الأتراك ويعوقون تراجعهم. ووافق أَللنبى على الخطة، وطلب من لورانس قطع الخط يوم ٥ نوفمبر، أو فى أى يوم من الأيام الثلاثة التالية.

كانت خطة لورانس هى أن يتبع فى عملية اليرموك الحركة التدريجية المُلفتة التى اتبعتها فى العقبة بنجاح عظيم. فقرر أن يسير مع خمسين رجلاً يُفضل أن يكونوا من حويطات عودة، أى البدو الوحيديين الذين كان يعتقد أنهم يملكون الشراسة الكافية للاستيلاء على الكوبرى بهجمة أمامية. كما اعتزم السير فى طريق مواز للصحراء من الرُم إلى الأزرق، أو الواحة التى تقع فى الصحراء السورية والتى كان قد التقى فيها بنورى الشعلان؛ وبعد أن يستأجر مجموعة بدو من قبائل بنى صخر وبنى حسن وبدو ورجال السرحان، يندفع مسرعاً فى الأراضى السورية المزروعة ويهاجم الكوبرى. أى أنه خطط للعملية لتكون صورة من عملية العقبة بالقدر الذى تتيح الظروف، كما أن هناك دعماً للبدو هذه المرة من فرقة من المدفعيين الهنود بقيادة حسن شاه، مدربين على ركوب الإبل بعد أن قضوا شهوراً عدة يلغمون سكك حديد الحجاز، كان سيرافق لورانس فى هذه المهمة الملازم وود من سلاح المهندسين الملكى، الذى أوكل إليه زرع اللغم فى حالة إصابة لورانس؛ كما كان مقرراً أن يرافقه فى جزء من الرحلة رجل البنوك الويلزى السابق لويد جورج الذى أدمن لورانس حديثه. ويقود الفريق الشريف على بن حسين الحارثى أو «اللورد الشاب» ذو الشجاعة وحسن المظهر، بدلاً من ناصر ذى الشخصية الكاريزمية الذى كان ينفذ مهمة أخرى.

ولا يكاد يوجد ثمة شك فى أن الشريف كان موضع جاذبية للورانس الذى كتب عنه «لا أحد يستطيع أن يراه دون أن يرغب فى رؤيته مرة أخرى، خاصة حينما يبتسم بشفتيه وعينييه معاً، وهو أمر كان نادراً. لقد كان جماله سلاحاً أدرك هو أهميته». ويعتقد البعض أن S.A الذى أهدي إليه لورانس الكتاب كان الشريف على وليس سالم أحمد. وكان مثل داهوم «ذا جمال جسد رائع»،

وعلى حين كان الصبي السوري «مصارعاً رائعاً» كان على، على حد قول لورانس، قوياً كالثور، باستطاعته أن يجثو على ركبتيه ثم يقف على قدميه وهو يحمل رجلاً في كل من يديه. وقد ادعى لورانس أن علياً لم يكن «بإمكانه فقط اللحاق بناقة تجرى على بعد نصف ميل منه، بل والقفز أيضاً على سرجها»، ولم يكن يصطحب أحداً في عملياته لا يستطيع حمل بندقيته بيد واحدة. كما كتب أيضاً عنه «ليس بالإمكان سبر أغوار الشريف، وهو أيضاً شخص عنيد مغرور، لا يبالي بالقول أو الفعل؛ ويحوز الإعجاب (إن هو أراد) في المناسبات العامة؛ كما أنه على قدر جيد من التعليم. أما طموحه المحلي، فكان التفوق على بدو الصحراء في الحرب والرياضة». وباختصار، فإن الشريف نسخة من عودة أبو طيبي، لكن أكثر إثارة للغيرة، وأصغر سناً. وكان لورانس يدعو الشريف بمودة «علياً الصغير». وقال عنه إنه كان لديه على الأقل، عشيق واحد من الصبية؛ من بنى صخر في السابعة عشرة من عمره يدعى تركي «.. كان الحيوان في داخل كل منهما ينادى الآخر وهما يتجولان معاً متمتعين بالتلامس والصمت».

غادر لورانس العقبة يوم ٢٤ أكتوبر مع لويد، ووود، وجندي من الفرسان يدعى ثورن، وفرقة من جنود البنادق الآلية من الهنود؛ وقضوا ليلتهم في رُم حيث لحق بهم الشريف على، وأمير جزائري يدعى عبد القادر، كان فيصل يعرفه، وكان يمتلك عدة قرى للمنفيين الجزائريين على شاطئ اليرموك. واعتقد لورانس أن فلاحى عبد القادر قد يكونون عظيمى النفع كما أنهم قد يستطيعون شن الهجوم على الأتراك دون أن يتسببوا في ثورة عامة، الأمر الذى كان يحرص على تحاشيه، نظراً لكونهم أجناب ومحل بغض من العرب. وكان لورانس قد تلقى برقية من الكولونيل برموند، من البعثة الفرنسية، يحذره فيها من عبد القادر كجاسوس للأتراك. ولم ير لورانس داعياً للشك فيه، وعزا الأمر إلى عدم ثقة متبادلة حيث كان جد عبد القادر قد قاد المقاومة الجزائرية ضد الفرنسيين - وكان هذا لا يقلل من قدره إطلاقاً في نظر لورانس. وفي صباح ٢٦ أكتوبر تسلفت قوة الإغارة ممر حفيرة وعبر الرجال الخط الحديدي يوم ٢٧ دون حادث يذكر، ووصلوا جفر في اليوم التالي.



ومن هذه النقطة أصبح حسن الحظ الذى رافق لورانس فى العقبة أشد وضوحاً لغيابه هنا . فأولاً ، لم يستطع إقناع حويطات طويحة الذين التقى بهم فى جفر بالاشتراك فى عملية الإغارة ؛ فحتى رجل الغزوات الشهير على أبو طيبى عاش مستسلماً بعد هجمة المدورة . فاضطر لورانس لاستئجار خمسة عشر من بنى صخر ، وثلاثين من السرحيين فى الأزرق ، ولم يكن أحد منهم يبدى حماساً حقيقياً للهجمة . بل أجبره السرحيون على الاعتقاد بأن هدفه ، أى مهاجمة الكوبرى الواقع فى الحمى ، لا يمكن تحقيقه نظراً لازدحام جبال إبرد القريبة بالخطابين الذين كانوا يعملون مع الأتراك . ومن ثم ، اضطر إلى تغيير خطته ، ووافق بغير حماس ، على مهاجمة تل الشهاب ، أى أقرب كوبرى جغرافياً ، من الأزرق . وكان هذا هدفاً محفوفاً بالمخاطر إذ إنه كان عليه المرور فى أرض مزروعة أهلة بالسكان يصعب على الإبل السير فيها لأنها أرض رطبة ، قد تحول أيضاً دون التراجع السريع . وفى يوم ٤ نوفمبر ، اختفى عبد القادر ورجاله من الأزرق . ودهش لورانس لهذا وساوره القلق ، ورغم أنه كتب فيما بعد أنه شك فى أن يكون الجزائرى قد ذهب إلى درعا ليحذر الأتراك من الهجمة المرتقبة ، إلا أنه أرجع انسحابه فى حينه إلى مجرد الجبن حيث كتب لجويس فيما بعد « قول دون فعل . . فلم أفعل أنا أو على ما يسيئه » .

كانت نقطة بداية الهجمة نبعاً عند أبو صوانة ، حيث وصل الفريق فور رحيل مجموعة من الفرسان الشراكسة كان الأتراك قد أرسلوهم لاستطلاع المنطقة . ثم رحلوا يوم ٧ وانتظروا فى السهل شرق السكك الحديدية ساعتين ؛ وبعد الظلام ، عبروا الخط وساروا بإبلهم غرباً ونزلوا منخفضاً ضحلاً فى غدير الأبياد حيث اختطفوا سويعات من النوم بين إبلهم المحملة ، قبل شروق الشمس . ولم يكونوا ليستطيعوا التحرك قبل الغسق حتى لا يكتشفهم أحد . وكان عليهم بعد ذلك التسلل لمسافة أربعين ميلاً إلى الكوبرى ويفجرونه ، ثم العودة متسللين عبر الخط الحديدى مع فجر اليوم التالى . وكان الليل يستمر ١٣ ساعة ، أى أنهم كان لديهم ثلاث عشرة ساعة من الظلام يكملون فيها العملية . وشعر لورانس أن فرقة البنادق الآلية الهندية لن تتمكن من قطع الأميال الثمانية فى غضون هذه المدة . لذا ، انتقى من بينهم ستة من أفضل ممتطى الإبل بقيادة حسن شاه لمرافقته ومعهم بندقية آلية واحدة من طراز فيكرز . فقد اعتقد أن بإمكان عشرين رجلاً فقط

السيطرة على الكوبرى، وكان من الممكن أن يفعل الهنود هذا لولا قلة عددهم. ورغم شكوكه فى السرحيين، كان بنو صخر موضع ثقته تحت قيادة شيخهم فهد، ومن ثم عينهم كفرقة العاصفة فى العملية. ومن أجل تيسير عملية التدمير، أعاد وود تعبئة الجيلاتين المتفجر فى حمولات زنة كل منها ثلاثون رطلاً ليسهل التعامل معها فى الظلمة على سفح التل شديد الانحدار.

وامتطى الجميع إبلهم عند الغروب وساروا يلفهم الصمت من المنطقة التى رقدوا بها إلى تل الأشهب متبعين طريق الحج القديم. ولم يكونوا فى حالة مزاجية حسنة بل إن لورانس نفسه تملكه إحساس سيئ إزاء الغارة، وكان قد أتعسه فرار عبد القادر، وكان يائساً من نجاح الثورة العربية، أما طريق الذهاب فكان زلقاً بالنسبة للإبل؛ وتطلب الأمر صعوداً وهبوطاً على مرتفعات صخرية مليئة بالكسارات، والسير فى حقول زراعية محروثة، أو مروج مليئة بمصائد الأرانب. وساد التوتر بين الرجال. ثم التقوا بأحد التجار وأسرته ومعهم حميرهم، الذين أجبروا على احتجازهم تحت حراسة حتى الفجر. وبعد ذلك، أطلق عليهم أحد المزارعين بندقيته مرة تلو الأخرى لاعتقاده أنهم مغيرون يقصدون مزرعته وظل يصرخ فى الظلام. وبمجرد تمكنهم من الفرار فاجأهم جمل ضال وكلب ينبح. وفجأة بدأ الرذاذ يسقط وأصبحت الأرض زلقة من الخطر السير عليها لدرجة أن الإبل أخذت فى الانزلاق وسقط منها اثنان أو ثلاثة على الأرض. ثم توقفت الأمطار ومروا أسفل خط للبرق حيث سمعوا صوت المياه المتساقطة على تل الشهاب. ثم أناخوا إبلهم فى صمت، وساعد وود فى تجميع البندقية الآلية، على حين نقل لورانس ومجموعته الجيلاتين أسفل منحدر موحل باتجاه الكوبرى. ثم سمعت فجأة قرعة قطار يمر، ورقد لورانس منبطحاً على بطنه، ولمح، لبرهة، جنوداً فى أزيائهم الرسمية قبل أن يعاود زحفه مع فريقه نحو الكوبرى. وزحفوا كالأفاعى فى الوحل حتى قاربوا الأجزاء المعدنية وأبصروا حارساً واحداً بدا واضحاً فى ضوء نار مشتعلة فى الناحية المقابلة على بعد ستين ياردة. وزحف لورانس وفهد آفلين كى يقودا الرجال من حملة المفرقات، إلا أنه وقبل وصولهم إليهم أسقط واحد من السرحيين بندقيته فأحدثت دويماً ورنيناً اخترق الظلام تماماً كأنه طلقة نارية. وتجمد لورانس. وصاح الحارس التركى متحدياً وسار مع دورية باتجاه الضوضاء وهو يصيح على باقى

الحراس الذين اندفعوا خارج خيمتهم وأخذوا فى إطلاق النار فى الظلام. ورد بنو صخر الطلقات إلا أن رجال البنادق الآلية كانوا مازالو مشغولين بتجميع البندقية ولم يلحقوا بالآخرين، أثناء إطلاق النيران. وخشى السرحيون الذين كانوا يحملون الجيلاطين من انفجاره إذا أصابته طلقة فألقوا به فى الوهد. وتملك المجموعة الخوف، فاندفع السرحيون باتجاه إبلهم، وتبعهم لورانس والهنود وبنو صخر مسرعين. وكان إطلاق النيران قد نبه القرية، وبدأت الأنوار تشتعل لتضىء الريف المظلم. وحينما قابل السرحيون مجموعة من الفلاحين سرقوهم مما زاد الشعور بالخطر. ولمسافة أميال عديدة، صعد القرويون إلى أسطح منازلهم وأخذوا فى إطلاق الرصاص على مجموعة لورانس، بينما هاجمتهم مجموعة من راكبي الخيول من الجانب. وكانت الأرض زلقة تتأرجح عليها الإبل وهى تحاول تخليص أظلافها، ومن ثم، احتل لورانس وعلى مكانيهما خلفها وهما يحاولان دفعها إلى الأمام. ثم تحرك أعضاء المجموعة مسرعين وقد تملكهم شيطان الخوف. وسرعان ما أصبحت الطلقات خلفهم. ومع انبلاج الضوء، كانوا قد وصلوا إلى الخط الحديدى جوعى ومنهكين. وسمع لورانس أصوات مدافع أللبنى الثقيلة تتراعى فى الفضاء من ناحية فلسطين واعتبر الصوت بمثابة لوم على فشله. فلو نجحت هجمة أللبنى سيكون لدى الأتراك خطأ خالصاً للانحساب بطول الخط الحديدى. ولو أنه نجح فى قطع الخط الحديدى ما وجد سبيل لهروب رجل أو بندقية أو عربة، ولفتح السبيل لثورة عربية عامة فى سوريا. ورغم أنه نجح فى تلغيم قطار جمال باشا قرب منيفر. وفى اليوم التالى، عرف أنه قد فقد كل الفرص العظيمة التى كان يأمل فيها. فقفل عائداً إلى قلعة الأزرق يائساً، ووصلها يوم ١٢ نوفمبر.

أما قلعة الأزرق فقد كانت قائمة منذ أيام الرومان على شاطئ بحيرة متسعة ضحلة تتجمع فيها مياه وادى سرحان العظيم بعد سقوط المطر. وحتى ستينيات القرن العشرين على الأقل، كانت القلعة تقع فى واحة فريدة فى الصحراء السورية. وكانت منطقة غابات ومستنقعات تسكنها جميع أنواع الطيور المائية والفهود والضباع والخنازير البرية وحتى الجاموس. وكانت ذات يوم تجتذب الصيادين من جميع أنحاء البلاد العربية. ولا بد أن القلعة البازلتية السوداء، فى زمن لورانس،

كانت تبعد أميالاً عبر الرمال والحقول البركانية المترامية. أما اليوم، فقد تبددت تقريباً في شوارع فقيرة بها مباني سكنية من الطوب الأسمنتى الخفيف، ومحطات وقود، وأسلاك شائكة. واختفى منها السحر الذي يصفه لورانس ومعه مياه البحيرة التي سحبت إلى عمان. وصلت الأزرق في سيارة أجرة صفراء مع صديق لي من القوات الأردنية الخاصة سابقاً، ويدعى محمد الحبابة ثم سرنا معا إلى القلعة ووجدناها في حالة جيدة من الداخل بشكل أدهشنا. وكان راعيها، شيخ درزي بدا لنا معتوهاً، وكان مولعاً بإقحام كلمات إنجليزية بذيئة في حديثه. ثم أرانا صورة لوالده الذي كان ضابطاً درزياً ادعى أنه عمل مع لورانس، رغم أن الدروز عامة لم يلتحقوا بصفوف الثورة إلا بعد سقوط دمشق. وتجول معنا ونحن نسير من جدار إلى جدار متتبعين وصف لورانس في نسخته من «أعمدة الحكمة» التي كانت قد سقط عنها غلافها، وكانت أكثر الخصائص تمييزاً للقلعة هي أبوابها الحجرية. وهي ألواح عملاقة من البازلت سمك كل منها قدم وتزن أطنانا وقد ثبتت بمهارة على مفصلات «مشحمة» بحيث يمكن لرجل واحد فتحها وإغلاقها بسهولة. وكتب لورانس أن الباب الرئيسي كان مسدوداً أثناء إقامته، وكان هناك حارس متمركز عند البوابة الخلفية مهمته إغلاقها بعد غروب الشمس وكان صوت الإغلاق يتردد في أنحاء القلعة. وشاهدنا المسجد الذي كان يستعمل حظيرة للأغنام حتى قام حسن شاه، قائد فرقة المدفعية الهندية، بتنظيفه وتطهيره. وفحصنا البرج الجانبي الذي اختاره الشريف علي جناحاً له لدرجة أننا تعرفنا على الشق الجداري (الذي تم إصلاحه، وكان لورانس قد أحدثه لإدخال الإبل في الليل). وأعلى غرفة الحراسة، كانت الغرفة التي احتلها لورانس وهي علية متسعة ذات نوافذ منخفضة تنفذ منها أشعة الضوء تتخللها ذرات الغبار. ووجدت الجزء الذي يصف فيه لورانس تجمع رجاله في الليالي الباردة حيث كانوا يوقدون النار ويجتمعون متشجين بعباءاتهم يتلون الشعر والقصص، بينما تدور عليهم أقذار القهوة. وفي تلك الليالي، وبينما كانت الرياح تصطدم بجدران القلعة، كانت تُسمع أصوات نحيب وتنهدات شبيهة من الشرفات المرفجة، وكان البدو يعزونها إلى كلاب بني هلال (الأشخاص الأسطوريين الذين شيدوا القلعة) - التي كانت تجوب الأبراج الستة سعياً وراء أثر لأسيادهم الذين فقدوهم.

وإدعى لورانس، لدى وصوله عائداً إلى قلعة الأزرق يوم ١٢ نوفمبر، أنه أصيب بما لا يقل عن خمسة جروح من طلقات في هجمته على منيفر، كما كسرت أصبع قدمه وتم تجبيرها بشريحة سقطت من غلاية القطار المتفجر. وكانت هذه هي الحركة الأولى من كونشرتو عقابه لذاته علنياً لفشله في اليرموك. ومثلت الفترة ما بين ١٤ نوفمبر وبين عودته العلنية إلى الأزرق يوم ٢٢ نوفمبر إحدى هبوطاته السرية إلى العالم السفلي حيث لا يوجد شيء يقيني بشأنها. وطبقاً للورانس نفسه، فقد عانى أثناء هذا الأسبوع أكثر خبراته مهانة وانسحاقاً أي: القبض عليه وتعذيبه واغتصاب الجنود الأتراك له في درعا. وفي نص عام ١٩٣٥ من «أعمدة الحكمة» تتميز تلك النقلة الفجائية من الشعور إلى اللاشعور، ومن المحدد إلى العام، بانقطاع التتابعية الزمنية. فيحدد لورانس حتى يوم ١٤ نوفمبر تاريخ الأحداث على كل صفحة، أما في الصفحات الأربع التالية، فنجد أنه يخبر القارئ أن الشهر هو نوفمبر عام ١٩١٧. وتستمر الفجوة حتى عشرين نوفمبر حين يظهر ثانية في درعا بعد أن أسقط ستة أيام في هذه الأثناء. فأين كان لورانس خلال هذه الأيام الستة؟ تقول قصته إنه ظل في الأزرق لبعض الوقت وكان وقتاً كافياً ليشرف على إصلاح القلعة ويستقبل وفود الزوار والمؤيدين. كان أحد هؤلاء الزوار هو طلال الحرايضي من طفس، وكان قوياً بين الفلاحين، وخارجاً على القانون رُصد مبلغ من المال لمن يأتي برأسه. وأبلغ لورانس طلال برغبته في رؤية حوران لاستكشاف إمكانية ثورة في المستقبل. وركبا معاً مع حرس تم تعيينهم خصيصاً لهم مكون من شيخ كبير يدعى فارس وصبي يدعى حليم. وسافرت المجموعة بالخيول وزاروا أم الجمال، وأم طيبى، وغزالة، والشيخ مسكين والشيخ سعد، وطفس، وتل أراز، ومزرب، وعثمان ودرعا، ولسبب ما عادوا إلى الأزرق وهي مسافة تقدر بـ ١٧٠ ميلاً.

وكانت درعا، عاصمة حوران، نقطة مركزية على الخط الحديدي، لأن الخطوط من الحجاز إلى دمشق ومن حيفا في فلسطين إلى دمشق تتقاطع هناك. وكان على من يريد إنجاز أى تقدم إلى دمشق أن يأخذ درعا في حسبانها. وقرر لورانس التسلل إلى المدينة متخفياً كي يقدر نقاط قوتها وضعفها من أجل هجوم مستقبلي. ولم يستطع طلال مرافقته لأن وجهه كان معروفاً للأتراك، لذا ترك لورانس الخيل مع

حليم وارتدى زى الصبى الريفى وسار مع فارس وهو «فلاح غير ذى أهمية». وقرب المطار، نادى عليهما رقيب تركى وأمسك بذراع لورانس بقسوة وأخبره قائلاً: «البك يريدك» بينما تجاهل فارس. ثم سار بلورانس إلى ضابط وقدم له «تقريراً طويلاً». وحينما سأله الضابط عن اسمه أخبره لورانس «أحمد بن باقر»: شركسى من القنيطرة. واتهم الضابط لورانس بأنه هارب من الخدمة العسكرية، فأجابه بأن الشركسيين لا يخضعون لقوانين التجنيد. وكان هذا غير صحيح، فرد عليه الضابط بأنه كاذب وأصدر تعليماته إلى الرقيب بتسجيله فى القسم الذى ينتمى إليه «حتى يستدعيه البك». وتم إرسال لورانس إلى الشكنات، وبعد حلول الظلام سار به ثلاثة حراس عبر الخط الحديدى إلى منزل الحاكم المؤلف من طابقين. وكان ناهى بك، وهو شخص ضخم الجسم، أجعد الشعر، يجلس على سريره حينما أدخل عليه لورانس، فتفحص جسده وأحاطه بذراعيه وحاول سحبه إلى سريره. وحينما قاومه لورانس استدعى حرسه الذين قيدوه وجردوه من ملابسه. ثم حملق مشدوهاً فى الجراح التى كانت قد أصبته مؤخراً من جراء الطلقات. وعندها حاول التركى لمس أعضائه قام لورانس برفسه فى حنية فخذه مما جعله يترنح إلى الخلف وهو يئن من الألم. ومن ثم، أمر الحراس بتقييده وأخذ يصفعه على وجهه «بالششب». بعد ذلك عض رقبتة حتى سالت الدماء، ثم قبله، وسحب حربة من أحد حراسه حيث قام بنزع شريحة من لحم ضلعه، وعمد إلى غرس الحربة فى لحمه بأن أخذ يلويها ثم بلل أصابعه بالدم الذى سال على بطن لورانس. ثم نطق لورانس يائساً بشيء ما فأجابه «ناهى» إجابة غامضة: «عليك أن تعرف أننى أعلم، ومن الأيسر لك أن تفعل ما أريده». ورفع لورانس ذقنه فى إشارة على الرفض، فأمر البك الرقيب أن يسحبه إلى الخارج و«يعلمه كل شيء».

وأرقده الحراس على مقعد خشبى، ثم أحضر أحدهم «كرباجاً شركسياً». وهو «سوط من الجلد الأسود اللون، مستدير ودقيق الطرف بحيث يصل إلى سمك الإصبع عند القبض (المغلفة بالفضة)، أما نهايته الصلبة فهى فى سمك القلم الرصاص». وقام العريف بجلده بوحشية. وكان للألم وقع الصدمة على لورانس الذى قرر أن يعد الضربات إلى أن فقد القدرة على العد بعد الضربة العشرين وأخذ يتلوى، بيد أن قبضة الأتراك عليه كانت قوية، وكان راكعاً على الأرض وقد

أمسكوا برسغيه. وحينما أصاب الرقيب التعب، توالى الآخرون على جلده، وكانوا يقومون باغتصابه فيما بين نوبات الجلد، وكثيراً ما كانوا يديرون رأسه كي ينظر إلى جروحه وفي هذا قال: «ومع كل جلدة كانت تقفز إلى سطح جلدي حافة بيضاء مثل خط السكك الحديدية، ثم يقتم لونها ببطء إلى أن تصبح قرمزية». وأخيراً أخذ لورانس يزعق بالعربية. وحينما أنهك تماماً توقفوا. ووجد نفسه يرقد على ظهره على الأرض. ثم لكزه الرقيب بحذائه العسكري ذى النعل المزود بالمسامير فتهشمت أضلعه، وأمره بالوقوف، بيد أن لورانس تبسم بخمول «فقد تخللت كياني حرارة شهية، ربما كانت جنسية». وجلده الرقيب جلدتين بالكرباج على خصيتيه، فأغمى عليه، وحينما استرد وعيه وجد أحد الحراس يغتصبه، بينما كان الآخرون يباعدون ما بين ساقيه. ثم نادى عليهم البك فحملوا لورانس إليه. إلا أنه حينما رآه يبكي ويطلب الرأفة عافه لما رأى من دمائه السائلة وجراحه الكثيرة. ثم حملة الحراس إلى كوخ ذى سطح منحدر خلف مبنى الحكومة حيث غسلوا جراحه وضمدوها. وهمس إليه أحد الحراس بلهجة درزية أن باب الغرفة التالية ليس موصداً. وفي الصباح، اكتشف لورانس أن الغرفة كانت مستوصفاً. ووجد طاقماً من الملابس الرديئة معلقاً على الباب، فارتداها وتسلق من النافذة وترنح إلى الشارع، وتمكن من الوصول إلى نزيب في الموعد الذى حدده لخليم حيث امتطيا الخيل وقفلا عائدين إلى الأزرق. ولم يتعرضا في طريق عودتهما إلى ما هو غير متوقع سوى هجوم من قبيلة أولاد على الذين لم يكونوا قد انضموا بعد إلى صفوف الهاشميين، إلا أنهم سمحوا لهما بمواصلة الرحلة دون أذى. وكتب لورانس أن التقدير الذى لقيه من هؤلاء المهاجمين الذين عاملوه كشخص يستحق التكريم أتاح له الفرصة، مؤقتاً، أن يتحمل العبء الذى أكده مرور الأيام، أى «كيف أننى فقدت فى تلك الليلة فى درعا حصن سلامة شخصيتى إلى الأبد». ووصل لورانس إلى الأزرق يوم ٢٢ نوفمبر، أى عقب يومين من محنته، وفى اليوم التالى، ودع الشريف على وداعاً حاراً، وقبل أحدهما الآخر، وتبادلا الملابس، تماماً مثلما فعل مع داهوم، ثم ركب متجهاً إلى العقبة ووصلها يوم ٢٥ نوفمبر بعد أن قطع ٣٠٠ ميل على ظهر الناقة فى ثلاثة أيام فقط.

وقد سجل لورانس الأحداث هذه فى النص الأخير من «أعمدة الحكمة». وما لا

شك فيه ، أنه لو كان قد تم القبض عليه ، وتعذيبه ، ثم السماح له بالهرب ، فلا بد وأنه كان سيبحث تقريراً بهذا إلى الاستخبارات العسكرية ، خاصة إذا كان الأتراك قد تعرفوا عليه ، كما ادعى لاحقاً . إلا أن هذا الحدث ، مثله مثل الأحداث الغامضة الأخرى في حياته كإطلاقه النار على حامد المراكشى مثلاً ، ليس له ذكر في التقارير الرسمية . كما أنه ليس ثمة شهود ، أو مداخل لها علاقة بالحدث في مذكراته ، أو أى تقارير توثقه من أى نوع . كما أن الجنود الذين كانوا متموقعين فى درعا ، وكان معظمهم عرباً فى خدمة العثمانيين ، لم يسمعوأ أية إشاعة عن الحادث . أى أنه لو أن لورانس لم يذكرها بنفسه لظلت غير معروفة كلية . ولم تظهر مسرحية درعا حتى عام ١٩١٩ أثناء كتابته «أعمدة الحكمة» . واستعمل لورانس القصة فى خطاب له إلى فرانك ستيرلنج ، وهو زميل سابق له فى عملية «القنفذة» وكان يعمل حينذاك كبير المسئولين السياسيين فى القاهرة ، للإساءة إلى محمد سعيد الأمير الجزائرى ، وذلك بإلقائه الشبهات على شقيقه عبد القادر الذى ادعى أنه لحق بصفوف الأتراك ، وأحبط عملية كوبرى اليرموك ، وتسبب فى القبض على لورانس فى درعا بأن أعطى أوصافه للبك الذى كان اسمه الحقيقى «حاجم» وليس «ناهى» كما هو مذكور فى «أعمدة الحكمة» . وأخبر لورانس ستيرلنج فى خطابه ، أن حاجم ، الذى كان لوطياً ، اشتهاه وأنه حينما صد محاولاته ، وضعه حرس البك فى «المستشفى» . وقال إنه هرب قبل الفجر حيث لم تكن إصاباته بالقدر الذى تخيله . وادعى لورانس أيضاً أن البك منع تسرب أنباء القبض عليه لأنه «وَحَلَّهَا» . وأنه قد عاد إلى الأزرق وهو «شديد الغضب من عبد القادر الذى علم خيانتته من البك وحراسه» . وقد أضيف هذا السطر فى الخطاب الأصلى كلاحقة فى منتصف الجملة ؛ كما لو أن لورانس قد تذكر فجأة أن ستيرلنج قد يتساءل عن كيفية معرفته على وجه اليقين أن الوصف الذى أعطاه عبد القادر هو ما أدى إلى اكتشافه . إلا أنه لا يشير إلى كيفية معرفته أن حاجم قد «منع تسرب أنباء» الحادث . علاوة على هذا ، فإن هذه القصة تختلف عن روايته لها فى «أعمدة الحكمة» حيث لم يذكر أنه قد تم التعرف بوضوح على لورانس ؛ رغم غموض ما يوحى به قول البك «يجب أن تفهم أننى أعلم» . وينتهى لورانس إلى أنه كان «من الواضح أنها رمية دون قصد» . وهكذا يفصل أى رابطة بهذا القول مع أى وصف قد يكون عبد القادر



قد أمده به أو لا يكون . ويتأكد هذا من قول لورانس إن رفيقه حليم الذي دخل درعا تلك الليلة بحشاً عنه عرف أن شخصية لورانس لم تكتشف نتيجة لغياب الشائعات . وليس لدينا سوى ما قاله لورانس إن عبد القادر هو من «وشى به» للأتراك . كما أن قصة الخيانة ظهرت متأخرة جداً عن وقوع الحادث . فقد كتب لورانس إلى جويس في ١٣ نوفمبر أن الجزائري قد هرب «بدافع من الخوف» ، ولم يذهب إلى الأتراك ، بل إنه مازال يقيم في صلخد بين الدروز وهم مجموعة صديقة . فإن كان الأمر كذلك ، فمن غير المحتمل أن يكون عبد القادر هو من أفسد غارة اليرموك التي كانت قد حدثت بالفعل ، كما لا يوجد أى دليل قائم بذاته على أنه حدث وأن انضم عبد القادر لصفوف الأتراك أبداً . فقد كان بالتأكيد ضد الفرنسيين والمسيحيين (الغربيين) ، إلا أنه كان قومياً عربياً متعصباً ؛ وقد يكون الأتراك قد حاولوا اجتذابه إلى صفوفهم ، إلا أن تأكيد لورانس بشأن انضمامه إليهم فعلاً أمر غير يقيني . وقد أعلن عبد القادر وشقيقه محمد سعيد ، في نهاية العمليات ، قيام حكومة باسم الهاشميين وحينما اعترض لورانس حاولاً قتله في مبنى بلدية دمشق . وأمر لورانس بالقبض عليهما وكان يعتزم إعدامهما رمياً بالرصاص ، إلا أن فيصل أصدر عفواً عنهما عقب وصوله . أما عبد القادر ، فقد قتله حراس فيصل في نوفمبر عام ١٩١٧ ، واستمر شقيقه محمد سعيد ، الذي كان يدعو لوحدة العالم الإسلامي ، يسبب المشاكل للهاشميين . وكان الخطاب الذي أرسله لورانس إلى ستيرلنج قد أرسل في محاولة لتقديم دليل يبرر إلقاء القبض على سعيد . وكتب لورانس «إننى شديد الندم على منح محمد سعيد كل هذا القدر من حرية التصرف . فقد طلب فيصل اعتقاله مراراً . إنه هو الداعى الحق الوحيد إلى الوحدة الإسلامية في دمشق . ونظراً لجنونه ، فإن باستطاعته ارتكاب أية جريمة ضدنا» . ومن ثم ، يمكن القول إن كشف لورانس الأول لقصة تعذيبه في درعا كان ذا هدف سياسى واضح .

على كل حال سافرت إلى درعا من عمان في سيارة عادية مع اثنين من السوريين وصديقى ستيفن هوايت . واكتشفنا أن محطة درعا مازالت قائمة ، وهى مبنى كبير ناتئ من الصوان مثل جبل الثلج من طابقين وسط سوق يعج بالجماهير المتزاحمة . وكان كل فناء السكة الحديدية فى الواقع من بقايا الحرب العالمية الأولى . كانت

ثمة قاطرة يعلوها الصداً واقفة، وهي تتحلل بشكل كاد أن يُرى، على قضيب إلى جانب سقيفة المعدات. وتسقلت داخل القاطرة لأجد لوحة محفوراً عليها: A. Bor- sig. Berlin - Tegel 1914. ومن الواضح أنها كانت إحدى القاطرات التي تم شحنها بحراً من أوروبا عند بداية الحرب. كانت هناك قاطرات أخرى من نماذج مختلفة على نفس درجة التردى، وجدران أقيمت وملئت ببقايا مماثلة؛ عربات مقفولة، وخزانات مياه، وعربات حراسة، حتى عربات مسافرين جميلة التأسيس أصبحت تستعمل كمراحيض. وقد منّا أنفسنا لمدير المحطة الذي كان منهمكاً في لعب الورق مع مجموعة من العاملين. قال إنه يعلم عن «لورانس العرب» إلا أنه ليست لديه أية فكرة عن المكان الذي تم تعذيبه فيه أو حتى عما إذا كانت القصة حقيقية. وقال إن الخط الحديدي مازال يعمل فقد كان هناك قطاران يعملان أسبوعياً ما بين عمان ودمشق.

كان بحوزتنا «أعمدة الحكمة»، وحاولنا أن نعيد تشكيل تحركات لورانس في درعا يوم ٢٠ نوفمبر عام ١٩١٧ أى قبل ثمانين عاماً. كان مبنى الحكومة عام ١٩١٧ مقاماً جنوب خط السكك الحديدية في مدينة درعا حيث ألقى القبض على لورانس. وللوهلة الأولى يبدو منطقياً أن محنته حدثت هنا. فرغم أنه لا يقول هذا تحديداً، فقد نقل لورانس بعد ضربه إلى كوخ منحدر السطح خلف مبنى الحكم كي تغسل جراحه وتضمده. كما يذكر أنه اصطحب عبر شريط السكة الحديدية كي يصل إلى منزل البك الذي لا بد وأن يعنى أنه يقع على الجانب الشمالى من خط السكك الحديدية ومن ثم لا يمكن أن يكون مبنى الحكم الرسمى. وعبرنا الخط بجوار سقيفة القاطرات التي كان من الواضح نقطة عبور للمحليين. وقمنا بإحصاء ستة قضبان كما وصفها لورانس تحديداً. ثم استدرنا شمالاً من فتحة مريحة في الجدار إلى شارع به نخيل بدا منهكاً، ثم يميناً إلى ميدان حيث كان ثمة مبنى مكون من طابقين، وبدا أن المبنى، الذي كان كبيراً ومنعزلاً، ينتمى إلى تلك الفترة. ولاحظت أن بعضاً من مساحة الدور السفلى تحتلها منازل ومحلات لها أبوابها الخاصة. ويتسق هذا مع وصف لورانس في طبعة أكسفورد حيث يذكر أن منزل البك كان يتكون من طابقين مع وجود محل أسفله. فهل اكتشفنا المكان الذي مر

به لورانس بأكثر خبرات حياته أثراً ساحقاً؟ وحتى مع مرور ثمانين عاماً، فقد بدت التفاصيل دقيقة بشكل ملفت. إلا أنه من الممكن أن يكون لورانس قد ألم بشكل المدينة الجغرافى فى سبتمبر عام ١٩١٨، لا فى نوفمبر ١٩١٧، إذ إنه مكث هناك بعد سقوطها فى أيدي القوات البريطانية والعربية. بيد أن فحص الوصف الذى أعطانا إياه للمكان يشير بعض التساؤلات المخرجة.

أولاً: يكتب لورانس فى رواية عام ١٩٣٥ أنه دخل المدينة مع رجل يدعى فارس كان قد تم اختياره تحديداً للتعرف على منطقة حوران. بيد أنه يذكر فى طبعة أكسفورد أن اسم رفيقه كان مجبل - وهو من بياشر Biashr كان قد استأجره منذ أشهر سابقة. فلماذا إذن وجد من الضروري تغيير اسم الرجل وإخفاء هذه الحقيقة؟ ولماذا غير اسم البك من حاجم إلى ناهى؟ ويذكر لنا لورانس أسباباً متنوعة لتغييره الأسماء فى «أعمدة الحكمة»، إلا أن أكثرها إقناعاً هو السبب الذى ذكره لهيوبرت يونج لتغييره اسمه عند نقطة معينة فى النص إلى «سابين». وحينما أبدى يونج معارضته قائلاً: «قد يقال إنك وضعتى تحت اسم مستعار لعلمك أنك تكذب بشأنى» أجابه لورانس «لكن هذا بالضبط هو ما جعلنى أستخدم اسماً مزيفاً». وثانياً: إن كثيراً من تفاصيل الجدل لا يمكن تصديقها. فلا يمكن أن نصدق أن يكون للكرباج طرفاً أشد دقة من القلم الرصاص. وإن كان لم يتم التعرف على لورانس فكيف تأتى للجندى أن يعرف أن البك يريد به؟ وماذا كانت فحوى «التقرير الطويل» الذى أبلغه الجندى لرئيسه باللغة التركية عن رجل التقطه من الشارع ولم يكن يعرف اسمه أو شيئاً عنه؟ وقد يكون أيضاً من المحتمل أن يُظن أن لورانس وهو يرتدى الزى الخلى كان يبدو شركسياً خاصة إذا شوهده عن بعد؟ لكن ما احتمال الاعتقاد بأنه شركسى بعد تجريده من ملابسه؟

قد تكون اعتراضاتى اعتراضات متحذقة لا تقدم البرهان على أن لورانس قد اخترع حادث درعا، مع أنها توحى فى مجموعها بوجود تيار معين من عدم الصدق على الأقل، فى قصته.

وفى قسم المخطوطات فى المتحف البريطانى أوليت اهتمامى لمذكرات الجيب التى ألفت بعض الضوء على رحلة سيناء آملاً أن تحل هذه جزءاً من لغز درعا. وأثناء

بحثى عن مدخل يوم ٢٠ نوفمبر أدهشنى أن اكتشفت أن الصفحة قد نزلت . وكان هذا لافتاً للنظر لأنها كانت الصفحة الوحيدة غير الموجودة فى كل من مجموعتى مذكرات عام ١٩١٧ و ١٩١٨ . وفى أسفل الصفحة السابقة ليوم ١٤ نوفمبر كان مدخل لورانس كالاتى : « قصر الأزرق » ، ثم أضاف بقلم رصاص مختلف « إلى حوران » . ويوحى هذا أنه كان فى الأزرق ليلة الرابع عشر ثم رحل إلى حوران - ومن المستحيل معرفة متى حدث هذا بسبب الصفحة المفقودة - ثم لاحظت أن الصفحات قد رقت بخط لورانس ، إلا أن هذا قد تم بعد نزاع الصفحة لأن الأرقام كانت متتابعة . ويوحى هذا بشدة ، إضافة إلى « حوران » التى كتبت فى آخر الصفحة السابقة ، أن لورانس نفسه هو الذى انتزع الصفحة . فما دافعه الممكن لنزع هذه الصفحة من المذكرات بهذا الأسلوب ؟ وخطرت لى فورا إجابتان :

الأولى أن لورانس شعر بالاشمئزاز والخزى مما حدث فى درعا لدرجة لم يحتمل معها قراءة افتتاحيات مذكراته . والثانية ، هى أنه قد تعمد مداراة شىء ما . وفى الحالة الأولى - هكذا فكرت - إذا كان لورانس قد شعر بالاشمئزاز والخزى من المعاملة التى لقيها على أيدي الأتراك ، فلم يكن بحاجة لأن يذكرها فى مداخل مذكراته على الإطلاق . وبما أنه كان معتاداً على أن يدخل اسم المكان الذى قضى فيه ليلته ، فمن المنطقى إذاً أن الصفحة المفقودة كانت تحوى أسماء الأماكن التى زارها مع طلال ، والأمر هكذا ، فكان من المتوقع أن يكتب ببساطة « درعا » : ليلة ٢٠ نوفمبر ، ولم يكن يوجد فى هذه الحالة ما يثير اشمئزازه فيما بعد . وساءلت نفسى أيضاً ، لماذا ألقى لورانس الضوء على ما حدث إن كان قد رغب حتماً فى نسيان الحادث ؟ فلو أنه صمت بشأنه لم يكن لأحد أن يعرف أبداً . والنهاية الأكثر منطقية هى أنه لم يكن فى الأماكن التى ادعى وجوده فيها فيما بين ١٤ و ٢٢ نوفمبر ، وأنه قد نزع الصفحة ليخفى الحقيقة . وكان من المفترض أن بالصفحة المفقودة مداخل لستة أيام ، إذ إن اليوم التالى هو ٢٢ نوفمبر حين عاد لورانس إلى الأزرق مرة أخرى . والسؤال الآن : هل غادر الأزرق أصلاً ؟

وكانت الرحلة إلى درعا ذهاباً وإياباً ستستغرق خمسة أيام على الأقل ، أو خمسة أيام ونصف ، مع الأخذ فى الاعتبار وقتاً للضيافة لدى عائلة طلال ، ويوماً

كاملاً فى درعا . وكان هذا يعنى أن لورانس لابد وأنه غادر الأزرق يوم ١٧ نوفمبر على أقل تقدير . وبما أنه عاد فعلاً إلى الأزرق من مهمة اليرموك / منيفر يوم ١٢ نوفمبر ، فإن هذا يعنى أن إقامته استمرت خمس ليال . إلا أنه بالرجوع إلى وصفه لوقته فى الأزرق فى «أعمدة الحكمة» وجدت إشارات قوية إلى وجوده هناك مدة أطول . فقد «رتب إقامته» فى برج البوابة الجنوبى ، كما كتب ، ومكث كى يستريح «لأيام قلائل» حين يبدأ الزوار فى التوافد . وحينما مرت هذه «الأيام القلائل» بدأ الزوار يتوافدون «طوال اليوم وكل يوم» : «جلسنا نستمتع ببقايا الخريف .. فى أيامه المشمسة والممطرة التى يستدير العالم فيها كلية للأمطار» . وكان الزوار يتحولون «ببطء شديد» لتأييد قضية الهاشميين . «وكنّا فى هذه الليالى البطيئة فى مأمن من العالم» . وتوضح هذه الإشارات ، إذ تأملناها معاً ، أن لورانس أمضى فى الأزرق أسبوعاً على الأقل . وقد يكون قد أمضى وقتاً أطول . كما أنه جاء فى خطاب له أرسله إلى والديه يوم ١٤ ديسمبر مايلى : «كتبت إليكما آخر مرة من [الأزرق] فى حوالى الوقت الذى قمنا فيه بتفجير قطار جمال باشا (أى فى الرابع عشر من نوفمبر) ، وتركناه يتسلل هرباً منا . ثم مكثت بعد هذا حوالى عشرة أيام ، بعدها ذهبت إلى العقبة فى ثلاثة أيام ؛ سرعة جيدة . أخبرا آرنى أنه لا يوجد بين خيوله العجوزة حصان يمكنه السير بسرعة جملى العجوز» . فإذا كان بالفعل قد ظل فى العقبة من الثانى عشر حتى الثانى والعشرين من نوفمبر ، فإن مجموع الأيام تصبح أحد عشر يوماً بالتمام والكمال . واعتقدت أن استطلاع لورانس لحوران لابد وأنه كان ذا أهمية كبرى إذ إن حوران كانت ستكون مسرح المعركة الأخيرة . فمن المستغرب إذاً ألا يعرف أحد من رؤسائه شيئاً عن هذا . وعلاوة على هذا ، يورد تقريراً جغرافياً كتبه لورانس نفسه فى ١٥ ديسمبر ليخدم عمليات السيارات المصفحة فى المستقبل ، جميع المواقع التى شاهدها أثناء عملية اليرموك / منيفر ، لكنه لا يورد أيّاً من تلك الأماكن التى يفترض أنه زارها مع طلال باستثناء إشارة مقتضبة إلى وادى ميدان والتى قد يكون حصل عليها عن طريق أى شخص . بيد أن الفصل الأخير من الدراما ، أى مسيرته على الناقة لمسافة ٣٠٠ متراً إلى العقبة ، هو الذى يلقي بأعتم ظلال الشك على حادثة درعا . فطبقاً لشهادته ، يكون لورانس قد وصل إلى الأزرق يوم ١٢ نوفمبر مصاباً بجروح من أثر خمس طلقات وإصبع قدم

مكسورة، وجلد بقسوة فى درعا بعد هذا بأسبوع واحد. وتحوى سجلات المنشآت العقابية تقارير عديدة عن رجال تهاووا بسكتات قلبية بعد الجلدة الثلاثين أو الأربعين. ولا بد وأن لورانس، الذى فقد القدرة على العد بعد الجلدة العشرين، قد تلقى مثل هذا العدد من الجلدات. كما أنه قد ضرب على وجهه «بالشيشب»، وقام البك بعضه، ونخس جسده بحربة، ورُفِس رفسة أصابت ضلعه، واغتصب مراراً، وتلقى جلدات شريرة على حنية فخذة الأعلى مما كان كفيلاً، بلا شك، أن يتسبب فى تضخم خصيته بدرجة لا تمكنه من امتطاء الناقة. فكيف يتأتى لرجل ضرب بهذه القسوة أن ينجز خلال ثلاثة أيام أبرز رحلات حياته على ظهر الجمل ليقطع ستة وثمانين ميلاً فى اليوم؟ من الواضح أن هذا ليس ممكناً. فإما أن لورانس قد بالغ بشأن رحلته على الجمل، أو أنه بالغ بخصوص المعاملة التى لقيها على أيدي الأتراك، أو أن حادثة درعا لم تحدث على الإطلاق.

وقد أخبر الكابتن ل. هـ. جيلمان، الذى اشترك فى مهمة «القنفذة» جون ماك، مؤرخ لورانس، أن لورانس لم يذكر له أو لأى ضابط آخر عمل فى بلاد العرب كلمة واحدة عن الحادث؛ إلا أنه لا يساوره الشك حول وقوع الحادث وفى هذا قال: «لقد كان لورانس على قدر من الشهامة والشرف يمنعه من اختراع مثل هذه التجربة، فلا يوجد ما يبررها سوى أنها حدثت بالفعل». وردد جيرمى ويلسون، مؤرخ لورانس الرسمى كلمات جيلمان وذكر «إن من يشككون فى وقوع الحادث فى هذا الوقت يتهمون لورانس بكذبة مبالغ فيها وغير ذات جدوى» بيد أنه من سوء الحظ، فإن الواقع الموثق يؤكد أن لورانس كان يبالغ، وأحياناً يروى أكاذيب لا جدوى منها. فقد ذكر قبل الحرب «أجراس الجمال» بدلاً من «أجراس البغال» دون أن يكون لهذا جدوى (ولا يعقل احتمال نسيان الأمر أو اختلاطه عند شخص له ذاكرة لورانس الفوتوغرافية). كما كان ادعاؤه عبور سيناء فى تسع وأربعين ساعة كذباً بالتأكيد. أما جدوى هذا من عدمه فأمر خاضع لنقاش. وتوضح قصة سيرويهما فيما بعد لجون بروس يبين فيها حاجته لأن يجلد، (وهى قصة ظل يرددها ثلاثة عشر عاماً) قدرته على اختراع بنية معقدة والإبقاء عليها. ولم يفكر كل من ويلسون وماك فى مناقشة كذب لورانس على بروس، إلا أنه من المفارقات أن يقرر كلاهما أنهما لم يجدا شاهداً على كذب لورانس؛ وكأن الكذب على شخص من

الطبقة العاملة على قدر قليل من التعليم لا يحتسب كذباً. وبالتأكيد، فإنه كثيراً ما كان شهماً وشريفاً، فقد حاول طوال حياته أن يحيا وفقاً للصورة التي كونتها والدته سارا عنه كفارس «أبيض نقي» إلا أن بعض الأحاسيس أقوى من الرغبات الصادقة. وقد رأى برنارد شوفيه «مثلاً» وذكر أنه «لا يحرص على الحقيقة بدرجة رهيبة». على حين قال رونالد ستورز الذى عرفه معرفة حميمة إن نقائصه كانت معروفة لزملائه (ولنا أن نفترض أنها لم تكن معروفة لجيلمان!!) إلا أنه كان يتغاضى عنها لأن ألمعته كانت توازنها. ويبدو لى هذا أمراً عادياً جداً. ففي نهاية الأمر، لا يوجد منا من هو «فارس أبيض نقي»، ولا من هو شريف وصادق كلية. فلأن نتوقع هذا من لورانس فإننا نصنع منه «الرجل الخارق»، وهى فكرة كان هو سيسخر منها. فحتى أخيل كان معرضاً للإصابة من كعبه: فلماذا نتوقع أن يكون لورانس أفضل من أخيل؟ وقد يكون دافعه القسرى للمبالغة هو الجانب الظلى للرجل «الشريف» فى نواحي أخرى. فقد اعترف ليدل هارت، الذى اعتبره عبقرية عسكرية، أنه كان ساذجاً حينما بالغ فى تصديقه شهادات لورانس. وقد انتقد لورانس هارت بالفعل لأنه كان يتقبل كل ما كان يقوله دون مساءلة، مثلما سخر من الآخرين الذين امتدحوا صفاته الحسنة دون أن «يضيفوا إلى مديحهم قليلاً من الملح». وإضافة إلى هذا، يؤكد اعترافه نزوعه إلى المبالغة. فقد اعترف فى مقدمة «أعمدة الحكمة» أنه كثيراً ما أخفى الحقائق فى تقاريره الرسمية، كما أنه اعترف فى مناسبات أخرى أنه ذو موهبة فى الخداع. فالذين ينكرون أنه قد كذب يناقضون كلماته هو نفسه ويدعون له شخصية قد دحضها هو؛ فقد كان ضابط مخبرات موهوباً، أى عضواً فى مهنة تتعامل بطبيعتها فى الكذب والدعاية وأنصاف الحقائق. وقد عبر الكثيرون عن عدم تصديقهم أن تكون «مبالغات» لورانس قد خدعت زملاءه وكان من بينهم أناس على أعلى مستوى عقلى؛ رغم أن لورانس نفسه، وهو موظف مستحدث فى قسم الخرائط، قد تفاخر بغبطة أن مثل هؤلاء الرجال تخدعهم بسهولة المعرفة النخبوية القصرية التى كان يستعرضها بثقة. والعظماء والأقوياء، مثلهم مثل الآخرين، يصدقون ما يريدون تصديقه، ولم يحدث أيضاً أن كانوا أنفسهم نماذج للصدق دائماً؛ فمثلاً، اكتشف أن ريتشارد ماينرتزهاجن قد زور عمداً مداخل مذكراته الشخصية. وكان ريتشارد ضابطاً

كبيراً محترماً في الإدارة المركزية للمخابرات ، ونسب إليه أنه اخترع الحيلة التي أدت إلى أن يعتقد الأتراك أن اللنبي كان متجهاً إلى غزة بدلا من بسر سبع ، فكذبه الذكي على الأتراك أمر مقبول ، أما أن يكذب على قومه فأمر غير مسموح به . ومن الواضح أن لورانس كان على ثقة تامة من أنه سيصدق لدرجة أنه كان مستعدا «للمبالغة» حتى في حالة وجود شهود على العكس . وحينما طلب منه هيوبرت يوج تغيير ما كتبه عنه على أساس أن القصة الحقيقية قد تُعرف يوما ما ، أجابه لورانس ببساطة «لا ، لن تظهر» .

فإذا كان حادث درعا قد اخترع ، على ذلك النحو فإن «الهدف» من اختراعه لا يعزى إلى العقل الواعي بل إلى اللاوعي . فقد كان لورانس مازوكيا ذا طبيعة مثلية ، وكان قد حلم منذ طفولته أن يسيطر عليه رجال آخرون ، خاصة من بين العسكريين . وكما كتب مرارا ، فقد كان انحطاط تلك الحياة يلقي منه قبولا . وأنه كان يصبح «حيوانا» في صفوف الجيش ؛ يطعم ويسقى ويكون تحت الطلب دائما ليستعمله الآخرون . وقد يكون من الأهمية بمكان ، أن كانت عناوين صفحات لورانس لحادث درعا في طبعة ١٩٣٥ من «أعمدة الحكمة» محاكاة ساخرة لتدريبات المجند في الجيش . فعنوان الصفحة التي يصف فيها إلقاء الأتراك القبض عليه مثلاً هو «مجنند تركي» . كما أن للصفحات التالية التي تصف محنته عناوين مثل «تدريبات مجند» و«دروس أخرى» وأخيرا «الإغماء» . وحاول لورانس وهو في سن السابعة عشرة تحقيق هذه الفانتازيا بأن التحق بحامية المدفعية الملكية ، وفي عام ١٩١٢ اتسعت الفانتازيا في قصة إلقاء القبض عليه في خلفاتي على أنه هارب من الخدمة واحتمال ضربه من قبل الأتراك . ومن الأهمية أيضا أن لورانس يذكر حادث خلفاتي ويربطه بتعذيبه واغتصابه المزعوم في درعا ، لأن مفتاح درعا قد يكون هناك وقد تكون درعا تضخيما لما حدث في خلفاتي حيث عاشه لورانس وضخمه في خياله على مر السنين . كما أن لموضعة حادث درعا بعد فشله في اليرموك مباشرة أهمية أيضا . فقد كان لورانس يرتعد من الفشل طوال حياته ، وكان يشعر بالخزي من خذلانه اللنبي الذي كان ينظر إليه كأب . ومن اللافت للاهتمام أيضا أنه حين يصف لقاءه مع اللنبي بعد هذا بأسابيع قليلة يستدعي فانتازيا وقوفه أمام «البك» فيكتب قائلا : «لقد كان من المستغرب أن أقف أمام



البرج مع (ألنبي) أستمع إلى إعلانه وأنا أفكر كيف وقفت قبل هذا بأيام قليلة أمام البك أستمع إلى كلماته . من النادر أن ندفع ثمن مخاوفنا بهذه الحدة وهذه السرعة . فلو أننى لم أنكمش ذعراً فى أكتوبر ، من الثورة العامة ، لكنا قد وصلنا الآن ، ليس فقط إلى القدس ، بل إلى حيفا وحلب .. إلا أننى بفشلى قد قيدت الإنجليز الذين لا يعلمون ، وسببت الخزي للعرب دون أن يعلموا . إن الخزي الذى ألحقه بنفسه باختراعه المأزق المأساوى فى درعا ، قد يكون تكفيراً عن الفشل الذى جره على نفسه . ليس فقط فى تفجير الكوبرى بل أيضاً فشله فى إشعال ثورة فى سوريا كما وعد ألنبي فى البداية . ويمكننا تتبع نفس النموذج فى حادثين ، على الأقل ، من أحداث حياته ؛ هجمة البدوى عليه خلال سيره فى سوريا عام ١٩٠٩ ، وإطلاقه النار على حامد المراكشى . وقد سارت الحادثتان وفق تنابعية فى الفشل الخاص ثم التكفير العام بواسطة عنف ظاهر . ولهذا النموذج أصله فى طفولة لورانس المبكرة ، حين كان يعتقد أن الضرب الذى يتلقاه من والدته تكفيراً عن أفكاره «غير اللائقة» . وقد لا تكون مصادفة أن يستعمل نفس التعبيرات بالتحديد لدى إعلانه عن حادث درعا مثل «دائرة اتساقى مع نفسى» . . . هذه الكلمات استعملها أثناء حديثه عن تهديد والدته النفسى .

لم يقصد لورانس أبداً أن يكون كتابه «أعمدة الحكمة» وثيقة تاريخية خالصة ؛ فقد أبلغ ، فيما بعد ، تشارلوت شو أنه كان «استعراضاً عن نفسى حتى فبراير عام ١٩٢٥ .. فسيعرفنى من يقرؤه أكثر مما أعرف نفسى» . ووصف نفسه الحقيقية بأنها «حيوان» وأن الكتاب ما هو إلا نفسه (مغلقة) فى جلد أجرب مجفف تم حشوه وأصبح واضحاً أمام الناس كى يحملقوا فيه ، أى أن الكتاب ، بمعنى آخر ، هو اعتراف علنى بكل ما كبته ، وبهواجسه المسيطرة ، ورغباته التى لم يتمكن من التعبير عنها لأى أحد من قبل . ويوضح وصف واقعة ضربه فى درعا انبهار غير طبيعى بالمعاناة الجسدية ؟ : فسرد ه الفصل للون جروحه وقوامها ووصفه الدقيق المحدد لآلة تعذيبه «الكرباج الشركسى» هو أحلام يقظة نمطية مازوكية كما كتب عنها لين كوان «تصبح الآلة ، فى الفانتازيا المازوكية ، محملة بتفاصيل مميزة تحمل معها مشاعر الانجذاب التى تتصف (بالروحانية ، والرغبة المقدسة ، والجمال والقبح والخوف) التى تخلق وتحتفظ بالإحساس المناسب فقط . . .» «فحتى فى فانتازيا

الضرب الأكثر شيوعاً فإننا نستمع إلى ترنيمة «الشمراخ المقدس» وهو يهوى ويمزق ظهر المتوسل... فمما لا شك فيه أن لورانس كان يسعى للإذلال العلني إذ إنه كتب فيما بعد «... أريد أن ألوث نفسي من الخارج حتى يعكس مظهرى القذارة التى يخفيها». وفى مقاطع أخرى من الكتاب، تظهر حاجته لعرض معاناته، خاصة حينما يبالغ فى عدد الإصابات والجروح نتيجة الطلقات. فقد ادعى أن بجسده أكثر من ستين ندبة من إصابات لحقت به وهو يعمل. إلا أن جيه. ت. لوكمان قد برهن نهائياً على عدم وجود سوى ندبات قليلة على بدنه بعد الحرب؛ وكما يبين لوكمان، فالإصابة بستين جرحاً فى عالم ليس به مضادات حيوية يتطلب أن يكون الفرد ذا قوى خارقة وعلى قدر من الحظ لا يصدق. كما أوضح لوكمان أن شهادة ريتشارد ماينرتزهاجن، الذى ادعى أنه رأى الندبات على ظهر لورانس أثناء استحمامه عام ١٩١٩، كانت ملفقة. ولم يقل لورانس، على أية حال إنه ضرب على ظهره. وفى حالة تصديقنا لوصفه للجروح التى أصابته نتبين أنه جلد فقط على الردفين، ومن المحال أن يرى إنسان ظهره سوى بمساعدة مرآة. وقد أوضح لوكمان أنه رغم إصابة لورانس بندبات فى مقدمة ومؤخرة جسده، فيحتمل أن تلك لندبات حدثت فى فترة ما بعد الحرب وأنها كانت من فعله هو. ولن نعرف أبداً إن كان الأتراك قد ألقوا القبض على لورانس وعذبوه، إلا أن وزن الشواهد - الصفحة المنزوعة، قطع تنابعة التاريخ، الفترة الطويلة التى يبدو أنه قضاها فى الأزرق، غياب الندوب المتعلقة بالحادث - توحى لى، على الأقل، أن حادث درعا كان حقيقياً فقط بمعنى أنه كشف طواعية عن لورانس غير المرئى الذى يتخفى فى الظلال. وكان الحادث، كذروة عاطفية «لأعمدة الحكمة» التعبير النهائى لاستعراضيته المقلوبة - فقد أخبر تشارلوت شو وهو يشعر بالخجل «لا يجوز أن أخبرك؛ فإن الرجال المهذبين لا يتحدثون عن مثل هذه المواضيع. وقد أردت أن أتحدث عنها فى كتابى. وقضيت أياماً فى صراع مع احترامى لذاتى». ربما كان ما كتبه هو إعلان نهائى للعالم عن قناعته - التى لازمتها منذ الطفولة - أنه كان «لجساً ومنبوذاً» وأخيراً، وبعد سنوات من العزلة والتعالى، وجد تى. إى. لورانس فرصة ليقول للأجيال التالية «هذا هو توماس لورانس... هذا هو أنا».

وكتب لورانس أنه شغل نفسه، لدى عودته إلى العقبة، باستئجار حراس

شخصيين، موحياً أن هذا كان النتيجة المباشرة لتعذيبه في درعا. فقد كان هناك ثمن لرأسه وكان يحتاج «أفراد أشداء لامتناء الدواب، وتحمل العيش» ليقسموا على الولاء له شخصياً. وكتب قائلاً: إنه كَوْن جيشاً خاصاً كبيراً من تسعين من المرتزقة والقتلة والخارجين على القانون وأفراد العصابات من ثلاثين عشيرة مختلفة في سوريا وشمال الجزيرة، وكان لكثير منهم عداوات ثأرية مع بعضهم البعض، وأنه لولا قبضة لورانس القوية لوقعت حوادث قتل بينهم كل يوم. ولأن خروجاته على الإبل كانت ضارية وأليمة، فقد انتقى كل رجاله من راكبي الإبل، وكان كل منهم يمتطي ناقته الخاصة المنتقا. وكانوا يركبون طوال النهار والليل طبقاً لنزوات لورانس، ويقاتلون كالشياطين، وكان يدفع لكل منهم ستة جنيهاً في الشهر، أى الأجر المتعارف عليه للرجل والناقة. إلا أنهم كانوا يكسبون أكثر من الجمالين الآخرين لأنهم لم يحضروا نياقهم التي لم تكن لتحتمل رحلات لورانس الشاقة. وكان لورانس يمدحهم بالإبل من مجموعته الخاصة المنتقا؛ وكانت فرقة حراسته تتكلف ثلاثة أضعاف أية فرقة أخرى في الجيش، إلا أنها كانت تؤدي ثلاثة أضعاف مهام الوحدات الأخرى. وكان هؤلاء الصبية يرتدون الملابس ذات الألوان الفاقعة عن قصد كي تناقض اللون الأبيض الصافي الذي كان يرتديه لورانس، وكانت تربطهم، كمجموعة، رابطة شرف، كونتها المتاعب والمعاناة المشتركة التي تحملوها نتيجة ولائهم له. وقال إنهم كانوا يجدون متعة في الخضوع، ويستمتعون بإذلال أجسادهم ليؤكدوا على حرية أرواحهم - وهذه عاطفة تستدعى معها، بشكل يثير الشكوك، رغبة لورانس المازوكية في إهانة نفسه. وقد لقي ثلثي هذا العدد حتفهم في خدمته بشهامة. وكان من رجاله خمسون من العقيليين.

ولا توجد صورة أكثر جاذبية في «أعمدة الحكمة» من صورة لورانس وهو في ثيابه الشريفة البيضاء على رأس أتباعه التسعين من القتلة، والذين أقسموا جميعاً أن يخدموه حتى الموت، وقد فعل الكثير منهم هذا. وقد استشهد مؤرخ لورانس الرسمي باستئجاره لحرسه على أنه الدعم المتفرد الأعظم الذي يؤيد حادثة درعا فقال: «أما فيما يتعلق بتوقيت الحادث، فمن الجدير بالذكر، أنه بمجرد عودته إلى العقبة قام باستئجار حرس شخصي». ومرة أخرى، يبرز الشاهد، الذي هو من سجلات لورانس، هذه. فإنه في الواقع قد استأجر حرساً شخصياً في وقت مبكر

يعود إلى مايو عام ١٩١٧، إذ إنه كان قد أخبر «فرج وداعود» أنه لا يحتاج إلى خدم، بل إلى محاربين. وفي أكتوبر، قبل هجمة اليرموك، قال إنه قد قرر أن يمنح بعضاً من «حرسه القديم» راحة، وقام باستئجار ستة أشخاص جدد. وكتب في طبعة أكسفورد «كان الاختيار الحذر لحرسى الخاص من بين استعداداتى». أما حراسه الجدد فكانوا؛ محمود ومصطفى وعزيز وشواق، وسالم وعبد الرحمن. وقام بفصل اثنين من الحرس القديم هما محمد وعلى، اللذان كانا بصحبته منذ الوجه، إلا أنه أبقى على الآخرين بمن فيهم فرج وداعود (أى على وعثمان) وأحمد وكريم ورحيل ومطر خضر ومجبل، وعددهم جميعاً أربعة عشر. ثم انتقى عواد وضاهر ليصبح المجموع ستة عشر. والآن، فقد حدث أن عدد لورانس أسماء حرسه فى مفكرته كى يتابع أجورهم ابتداء من مارس عام ١٩١٨. ورغم أن الأسماء والأرقام تختلف اختلافاً طفيفاً من مارس إلى سبتمبر، فلا يوجد أبداً أكثر من سبعة عشر اسماً على القائمة دفعة واحدة، ويصل المتوسط طوال المدة إلى أربعة عشر - تماماً نفس العدد الذى سجله على أنه يشكل حرسه فى أكتوبر عام ١٩١٧ قبل حادث درعا المزعوم. ويحتمل أنه قام بتغيير العاملين، لا العدد، إلا أن كثيراً من الأسماء تتكرر مرة بعد مرة، ويمكن تتبع عدد منهم إلى حرسه الممكن مثل أحمد، ورحيل، ومصطفى، ومحمود، وعبد الرحمن، وخضر، ومجبل، وسالم، وعواد، وضاهر، ومطر. وتظهر جميع هذه الأسماء فى قوائم مارس وسبتمبر. واختفى على وعثمان من القوائم، وهما النموذجان المفترضان لفرج وداعود واللذان لم يكونا فى خدمة لورانس عام ١٩١٨ على الإطلاق. ومن الصحيح أيضاً أن بعض هذه الأسماء شائعة بين العرب، لكن حتى إن اختلف الأشخاص، فهذا لا يغير حقيقة أن قوة حرس لورانس الشخصى ظلت دون تغيير جوهرى فيما بين أكتوبر ١٩١٧ وسبتمبر ١٩١٨، أى قبل وبعد تعذيبه المفترض فى درعا. ويبين هذا، بما لا يدع مجالاً للشك، أنهم لم يؤجروا كنتيجة مباشرة لأى حادث فى نوفمبر ١٩١٧. وبالتأكيد، فإنهم لم يؤجروا لأول مرة فى يناير عام ١٩١٧. ولم يضم الحرس أبداً تسعين رجلاً، حتى فى حالة احتساب كل الأسماء، لكن كان متوسط العدد حوالى ١٤ شخصاً بشكل ثابت. وعلى سبيل المصادفة، تبين صورة فوتوغرافية، التقطت للورانس وحرسه فى صيف عام ١٩١٨. خمسة عشر رجلاً فقط. وقد ذكر

هيوبرت يونج، الضابط الذى كان يتحدث العربية والذى عمل مع لورانس عام ١٩١٨، أن حرسه كان يتكون من حوالى ٢٠ شخصاً. على أن أصل هؤلاء الأفراد، لا يدل على أنهم كانوا حشداً من قطاع الطرق من جميع قبائل سوريا وبلاد العرب. فقد كان محمود «صبياً فظاً من فلاحى اليرموك»، وكان مطر «صبياً طفيلياً» من بنى حسن، وكان مجبل «فلاحاً لا أهمية له، شيخاً فى مثل عمر والد لورانس، وسالم راعى إبل من قبيلة الشرارات المحتقرة، وكان عبد الرحمن عبداً تم إعتاقه، وعزير «فلاحاً له فم مثل الأرنب» من طفس، ومصطفى صبياً أصم، وزيد، شخصاً غير كفء وفصله لورانس لأنه عجز عن تسريح الجمل بطريقة صحيحة، وكان رحيل فلاحاً من حوران انفجر باكياً حينما اشتدت وطأة الأمور. ويمكن أن تنطبق تلك الأوصاف التى وصف بها رجاله على قائد حرسه فقط عبد الله النهابى أو (عبد الله الحرامى) الذى كان خارجاً على القانون. ولم يكن منهم من ينتمى إلى قبائل العرب الرئيسية (وقد أخبر لورانس الشعلانين أنه كان من التواضع بحيث لا يمكن أن يقتنى حرساً من الروالة)، كما كان معه قليل من العقيلين. أما معظمهم فكانوا فلاحين سوريين لم يكن بوسعهم الحصول على عمل آخر نظراً لكبر سنهم أو ضعفهم أو عدم كفاءتهم. وليس من بينهم اسم يظهر فى مارس ١٩١٨ ولا يظهر فى قائمة سبتمبر. ويحتمل أن يكون واحداً أو اثنين منهم قد قتلوا بيد أن عدد من قتل لا يمكن أن يصل إلى ستين، حيث لم يتعد المجموع الكلى للحرس السبعة عشر، وقد عاش معظمهم إن لم يكن جميعهم بعد ذلك.

وقد ظهرت بعض الادعاءات العنيدة التى تؤيد ما قيل عن آثار المعاملة التى لقيها لورانس فى درعا. فقد كتب جيرمى ويلسون يقول إنه «بعد الاغتصاب الشاذ له، أصبح إتمام أى زواج بغيضاً كلية على نفسه. فقد ترك الحادث فى نفسه بغضاً شديداً للاتصال الجسدى، الأمر الذى لاحظته كثير من أصدقائه». كما قيل أيضاً إن التجربة البشعة أدت إلى انحراف شخصيته، فسيطر عليه هاجس النظافة والاستحمام، وربما تكون قد حولته إلى المازوكى الكامل الذى أصبحه فيما بعد. بيد أن هذه الخصائص جميعها كانت واضحة لديه منذ طفولته. وقد ذكر هو نفسه فى كتاباته أن نفوره من التلامس الجسدى كان نتيجة الصراع الذى عاناه فى صباه المبكر ومع أمه غالباً. وقد أظهر فى سن مبكرة سلوكاً مازوكياً فى الحرمان الذى

كان يفرضه على نفسه، فكثيراً ما كان يبدى فى خطاباته إلى أهله اهتماماً مبالغاً فيه بالنظافة والاستحمام. ودائماً ما كان يفضل الرجال على النساء. وتبين القراءة العابرة «لأعمدة الحكمة» قبولاً لا يمكن إخطاؤه لفكرة الجنس المثلى، ورفضاً ونفوراً من الجنس الغيرى. فحتى فى الصفحة الثانية من النص، امتدح لورانس الشباب الذين يرفضون «لحم النساء اللزج الأحمر» ليطفئوا احتياجات بعضهم بعضاً عن طريق أجسادهم النظيفة، وهذه وسيلة باردة ميسرة تبدو بالمقارنة وسيلة لا جنسية، بل حتى نقية» والأيدىولوجية هنا واضحة. ومن الصعب جداً أن نفهم كيف، وبأى منطق أعوج، تؤدى خبرة الاغتصاب الشاذ إلى عزوف عن الجنسية الغيرية وتقبل واضح «لنقاء» الجنسية المثلية، إلا إذا كان لدى لورانس استعداد مسبق لها. أما عن كون أن التجربة قد «أدت إلى انحراف شخصيته إلى الأبد»، فإن آرنى، شقيق لورانس الأصغر كتب عنه «إنه كان دائماً شخصاً ذا قدرة غير عادية على التحكم وتقمص الأوضاع المختلفة.. وقد استمر كل هذا بعد الحرب، هذا بالإضافة أنه نما لديه حماس هائل لأى شىء فكاهى. ومن الواضح أنه قد مر بصعوبات هائلة وتحكم فيها بأن رأى الجانب الفكاهى منها». فإن كان هذا لا ينطبق على رجل قد حطمت روحه خبرات الحرب البشعة، فإن لورانس حينما لحق بالنبى فى ديسمبر عام ١٩١٧ عند بوابة يافا فى القدس لدى دخوله المنتصر إلى المدينة، أى بعد شهر من التعذيب المفترض فى درعا، لم يبد كرجل تحطمت روحه من جراء التجارب. إذ إن إيه. ب. وافل، الذى سار إلى جواره فى الموكب كتب يقول: «كان مرحاً فى هذا اليوم، وكان يسخر من زيه المستعار، وأيضاً من المنصب المستعار الذى أوكل إليه بمناسبة الاحتفال وكان هذا ضابط أركان بيرتى كليتون. وكالعادة، لم يقل الكثير عن نفسه، وكاد لا يشير حتى إلى هذه الرحلة العظيمة إلى جسر وادى اليرموك وفشله المؤسف، وكان قد عاد منها لتوه».



أسوأ مادة تصلح للتشكيل

طفيلة وتل الشهم

يناير- أبريل ١٩١٨



وصل لورانس إلى

القيادة العامة وهو يتوقع لوماً على

فشله في عملية جسر اليرموك ليجد

أن النبي قد تحرك قدماً. فقد كان قد تم

قطع خط غزة-بئر سبع وسقطت

القدس، وكانت أفكار السير إدموند

تدور حول البحر الميت بالفعل وحينما

استجمعت الجيوش المصرية الإنجليزية

قوتها ووسائل تنقلاتها وإمداداتها في

مطلع فبراير عام ١٩١٨ كان قد خطط

لإطلاق القوات على أريحا.

لقد كانت قاعدة الهاشميين في العقبة، آنذاك، خلف صفوفه. ففي حالة تمكن العرب من الاستيلاء على طفيلة في مرتفعات البلقاء حيث يزرع القمح على الشاطئ الشرقي للبحر الميت، يصبح بإمكانهم اللحاق ثانية بالجناح البريطاني الأيمن. واعتقد لورانس أنه سيكون بإمكانهم التحرك حتى أبعد من هذا، أى إلى أقصى شمال البحر الميت، طالما كان بوسع ألنبي دفع الإمدادات إليهم عن طريق أريحا بعد سقوطها. وعندئذ، تتحرك القاعدة العربية من العقبة إلى أريحا التي يدافع عنها الجيش العربي في الشمال بقيادة جعفر باشا وكان قد أصبح قوامه ٣٠٠٠ جندي. وقد أدهشت فرق جعفر باشا، وكان ينظر إليهم على أنهم يعوزهم التنظيم والكفاءة، الجميع بمثابرتهم حينما قام الأتراك بشن هجومهم القوي على الموقع الأمامي للهاشميين في أكتوبر عام ١٩١٧ بوادي موسى بالقرب من البتراء بقوة قوامها لواء كامل. وكان عدد الفرق النظامية حينذاك ٣٥٠ فرداً؛ فرقتان من الهجانة، وفرقتان من المشاة من راكبي البغال بقيادة مولود المخلص ذي الكفاءة

الوحشية . بيد أنهم برهنوا بما لا يدع مجالاً للشك على إمكان القوات العربية الاحتفاظ بالموقع فى مواجهة أعداد أكبر . فقد دحروا العدو بحسم لدرجة أن الأتراك لم يهاجموا قوة محصنة من النظاميين العرب مرة أخرى .

ولم يكن الاستيلاء على طفيلة بالأمر الصعب . فقد تم الاستيلاء عليها بعد أن ظهر الشريف ناصر وعودة أبو طيى على أعقابها فى فجر ١٦ يناير عام ١٩١٨ بعد رحلة دامت طوال الليل مع بعض الفرسان من الطويحيين وبنى صخر ، وأخذوها دون أية مقاومة . ولم تكن المقاومة الوحيدة التى واجهوها من الحامية الترككية بل من الفلاحين المحاسيين المحليين الذين كان شيخهم من معارضى الهاشميين . إلا أنه حينما سار أبو طيى وصاح «أيها الكلاب ، ألا تعرفون عودة أبو طيى» ، استسلم الفلاحون على الفور . وفى المساء ازداد عدد العرب بانضمام عدد من منافسى عودة . وهم عشيرة ابن جازى من الحويطات الذين كانوا قد نبذوا الأتراك من أجل الهاشميين . ثم وصل لورانس بعد أربعة أيام مع الشريف زيد وجعفر باشا وعائلة زيد والعقيليين ، وبيشة وعتيبة ، وقوة صغيرة من النظاميين

ومعهم مدفعا جبل . وكانوا قد تركوا قوتهم الرئيسية فى الشوبك لأن مئونتها كانت قد نفذت . ثم بعث عودة وعشيرته إلى جفر كى يمنعوا المنازعات بين القوة وجماعة ابن جازى الذين كانوا قد ظلوا هناك تحت قيادة رئيسيهما الشابين متعب وعناد . وكتب لورانس فى تقرير له بتاريخ ٢٢ يناير أنه كان لدى الهاشميين حوالى ٥٠٠ رجل فى المدينة إلا أن الفلاحين المحليين كانوا منقسمين بشدة وكانوا يخشون بعضهم بعضاً ويخشون الهاشميين . ويستدل على أن الاستيلاء على طفيلة كان يعتبر خطوة فى الطريق إلى مؤاب مما كتبه بأن « الأمور لن تستقيم فى الطفيلة إلا بعد الاستيلاء على الكرك ، ولن تستقيم فى الكرك إلا بعد الاستيلاء على مادبا » . ثم سار زيد إلى شرطة المدينة وقام بتعيين حاكم لها وبعد ذلك أرسل فرقة فرسان استطلاعية إلى الشمال فى طريق الكرك لاستطلاع مدى قوة الأتراك . إذ إنه كان يفكر فى هجمة سريعة على مؤاب . ثم حدث فى ٢٣ يناير أن وقعت مجموعة طوارئ من جنوده فى قبضة مجموعة استطلاع تركية فى صدع سيل الحايصة - ذلك الوادى العظيم الذى يفصل بين إيدوم ومؤاب - وكانت المجموعة التركية تسبق ثلاثة فرق من الفرسان ، ومعها مدفعان هوتزر . واعتقد لورانس ، ضد كل تفكير منطقى ، أن الأتراك كانوا فى طريقهم إلى العودة .

وقال لورانس إنه شعر بالإحباط لعودة الأتراك المفاجئة ، مما جعله يقرر كسر قاعدته ويحارب معركة ضارية يلتحم فيها مع الأتراك لأول مرة . وطبقا لوضعه ، كان سير الاشتباك محاكاة ساخرة للمعارك النظامية الكلاسيكية فى كتب كلوزفيتز وفوش . فبدأت المعركة بوحدة خيالة صغيرة من الفلاحين والبدو ومعهم بندقيتان آليتان ، وقاموا بمطاردة وحدة الاستطلاع التركية إلى الهضبة الواقعة شمال طفيلة ، ومن ثم إلى سيل الحايصة حيث التقوا مباشرة بالقطاع الرئيسى من أفراد القوات التركية الذين كانوا قد أقاموا لتوهم معسكراتهم ، ففتحوا عليهم النيران من الهوتزر والبنادق الآلية . وفقد العرب بنادقهم ، وتراجعوا إلى الهضبة واحتموا بصخرة ارتفاعها أربعة أقدام لكى يتفادوا سيل الطلقات الموجهة من خمس عشرة بندقية على الأقل صوبت إليهم من الخطوط التركية . وعند هذه النقطة ظهر لورانس الذى كان يسير حافياً وبدون سلاح عبر الهضبة وسط رصاص الأتراك الذى لم يكن المدفعيون الأتراك قد تمكنوا من تصويبه بدقة بعد . وكان قد

فحص فى طريقه بهدوء السطح الخارجى لطلقات لم تنفجر ليعرف نوع المدافع التى يستخدمونها . ولما وجد الموقع ميعوساً منه ، أمر المدفعيين العرب بالانسحاب إلى صخرة على بعد ثلاثة كيلو مترات إلى الخلف ، وكان قد زودها بعشرين رجلاً من حرس الشريف زيد . ثم استعار بعض خيالة ابن جازى ليقفوا فى وضع انتظار لمدة عشر أو خمس عشرة دقيقة كي يغطوا عملية الانسحاب . ثم هرول عائداً بخطى حثيثة حيث لحق به الفرسان المنسحبون والتقطه قائدهم متعب . وكانت قوة زيد قد عبرت الوهدة ؛ أما القوات العربية المساعدة بأكملها فتركزت على « تل الاحتياطى » التابع له حيث سيطرت على المنطقة ، وكان بحوزتهم مدافع الجبل والبنادق الآلية ، لدرجة أنه أجبر الأتراك على وقف تقدمهم . وفى هذا كتب لورانس يقول إن ميدان المعركة كان إسفينى الشكل بحيث شكل « تل الاحتياطى » جانبه المفلطح ، وكانت التلال الشرقية والغربية تتجمع عند حافة جرف حايصة على بعد ثلاثة أميال إلى الأمام . أما القيادة العامة التركية والاحتياطى فكانت تقع فيما وراء رأس الإسفين حيث نشرت قوات المشاة والبنادق والمدافع الآلية بطول القوائم المركزية للتلال يميناً ويساراً . ورأى العرب أن الحل الوحيد هو الانزلاق على الجنبات تحت غطاء التلال والإمساك بالأتراك عن طريق حركة كماشة . وبناء على هذا ، تم إرسال راسم ساردست ، ضابط المدفعية ، حول ظهر التل الشرقى ومعه ثمانون من الخيالة ، بينما أرسل لورانس دعماً من المستأجرين الجدد ( فلاحون من قرية مجاورة تدعى عيمة ) كي يزحفوا غرباً حول التل . وقبل الساعة الرابعة عصراً فاجأ رجال عيمة القوات على التل من الخلف وأجبروا الجنود على الاندفاع من ارتفاع ٢٠٠ قدم والهرب واستولوا على البنادق الآلية . وفى نفس الوقت تقريباً هجم راسم وفرسانه على الجناح الأيسر للعدو بينما اندفع جميع العرب الذين كانوا على « تل الاحتياطى » أماماً . وهرع الأتراك مغادرين ميدان القتال وتركوا وراءهم بنادقهم الآلية ومدافع الهوتزر . واعتلى القائد العثمانى حامد فخرى جواده كي يعيد تنظيم قواته إلا أن العرب أصابوه بطلقة مميتة . كان أحدهم قد سمعه يقول إنه لم يشاهد طوال الأربعين عاماً التى قضاها فى الجندية قوات غير نظامية تقاتل بهذا الشكل . وكانت تلك آخر قشة بالنسبة للأتراك الذين فقدوا معنوياتهم ، إذ انسحبوا مذعورين إلى سيل الحايصة والعرب يطاردونهم . وطبقاً

لتقرير لاحق تمكن خمسون منهم فقط من الوصول إلى الكرك، وكان هذا نصراً ساحقاً؛ فمن بين الجنود الأتراك الستمائة الذين خرجوا من الكرك قبل يومين من المعركة، قتل مائتان بمن فيهم القائد، وأسر مائتان وخمسون. واستولى العرب على مدفعي جبل قذافين من نوع سكودا، وعشرين بندقية آلية ومائتي حصان وبغل وقد سمى هذا «نصراً حروبياً رائعاً» في التقرير الرسمي عن الحرب الذي اعتمد على قصة لورانس نفسه للسجلات الحربية، مثله مثل كل تقرير أوربي آخر. بيد أن لورانس كتب فيما بعد أن تقريره كان محاكاة ساخرة إرادية قصد بها السخرية من اعتقاد رؤسائه في المبادئ الجامدة للمفكرين العسكريين من أمثال كلوزفيتز وفوش. وكتب أيضاً أن «النكتة» الكبرى هي أنهم بدلاً من التعرف على السخرية في تقريره، ابتلعوها بوقار ومنحوه وساماً. وسخر قائلاً: «لو أتيح لكل رجل كتابة تقريره دون وجود شاهد على ما يحدث، فلابد وأن يكون لدينا في (سجلات) الجيش اعترافات كلها بهجة». وفي «أعمدة الحكمة»، قال إنه هو، وهو وحده، من كان قد قرر خوض معركة المواجهة في طفيلة. إلا أنه سخر أيضاً من تقريره عن الاشتباك. ووجدت نفسي أتعجب بشأن دوره الحقيقي في هذا النجاح الأسطوري.

سافرت إلى طفيلة مع صديقي محمد الحبابة الذي كان يعمل سابقاً في القوات الخاصة، لأشاهد بنفسى ميدان المعركة. ووجدت المدينة أجمل كثيراً مما تخيلت. كان الجزء القديم منها هو حي الخايسين، وهو حي سكنى شديد الازدحام تتجمع منازل الحجرية حول قلعة صغيرة مربعة تقع على نتوء على شكل يد مقلاة يطل على سيل أزارقة العميق. وعبر الصدع إلى الجنوب كانت قرية بصيرة، وإلى الشمال كانت الهضبة العظيمة أو موقع المعركة نفسها. وكان بالإمكان رؤية وادي البحر الميت المتألق إلى الغرب مباشرة بالنظر بطول شق سيل.

ذهبنا أولاً إلى مكتب السياحة، وكان الموظف لطيفاً وطلب لنا الشاي. إلا أنه لم يتمكن من إخبارنا عن مكان وقوع معركة طفيلة. ثم قال: «وعلى أية حال، فلم يكن للورانس علاقة بالمعركة، لأنه كان مجرد جاسوس إنجليزي». وشكرناه وذهبنا بالسيارة إلى أقدم مبنى في المدينة، وهو الحصن العثماني، وقررنا أن هذا هو المكان الذي علينا أن نبدأ منه لأنه كان موضعاً بخريطة المعركة التي صورتها من سجل

الحرب الرسمي . ومن هناك ، تعرفت بسهولة على موقع «تل الاحتياطي» الخاص بلورانس . وقاد محمد السيارة حول الممر الضيق إلى سفح الجرف الجيري المنحدر حيث تركنا سيارتنا وتسلقنا أعلى المرتفعات . كانت ثمة أشجار صنوبر حلبى وأشجار أرز قد زرعت حديثاً على السطح . وقرب القمة شاهدت قوالب بناء بين الأحجار التي وصفها لورانس بأنها بيزنطية . وكان الاسم المحلي «تل الاحتياطي» هو «خربة نوخة» . وعلى طول محور التل كانت ثمة حفر ، ربما كانت مواضع بنادق المعركة نفسها . كان المشهد أيضاً عبارة عن أرض بور متموجة مغطاة بعشب ماعز أصفر وتجمعات حجارة سوداء وكتل صخرية ، ولم تكن هناك شجرة واحدة . وكان بإمكانى رؤية التل الغربى بوضوح أسفل موقعى إلى اليسار ، حيث كان موضع البنادق الآلية التركية ، والذي استولى عليه رجال العائمة من الخلف . إلا أن بقية ميدان المعركة لم يكن كما توقعت . فقد كنت قد تخيلت ، من الخريطة ، ومن وصف لورانس ، سهلاً مثلثاً تحده الجبال من الجانبين . وبدلاً من ذلك شاهدت منحدرًا تلياً متموجاً عليه حقول وجذامة تميل يميناً نحو قاعدة كتف جبل كبير على شكل هضبة حادة القمة منحدره الجنبات يوجد عند قاعدتها طريق الكرك - طفيلة . وكانت الحافة القصية للهضبة ، موقع القيادة العامة التركية ، تظهر على الخريطة كما لو كانت فى مجال الرؤية . إلا أنها كانت تحجبها فى الواقع أرض مرتفعة تقع أمامى مباشرة . إذاً ، فقد تمت الهجمة الأخيرة من «تل الاحتياط» بالهبوط على منحدر إلى أرض لا تصلها الطلقات ثم الصعود أعلى تل آخر قبل الهجوم على الأتراك . وهذا يختلف عن قول لورانس بأن الهجوم تم بالاندفاع أسفل التل . وفحص محمد الخريطة بعناية ثم دقق النظر إلى الأرض ، ولفت نظرى إلى ملحوظة تقول إن الخريطة صممت على أساس «صورة جوية من زاوية مائلة» . ومن المحتمل أن تكون هذه هى نفس الصورة التى وردت فى التقرير والتى التقطت عام ١٩٢٩ والتى تم فيها رؤية ميدان المعركة من منظور المدينة . وفى الواقع ، فقد كُتب التقرير الرسمي فى نفس العام ، إذ إننى رجعت فيما بعد إلى خطابين من لورانس إلى كاتب التقرير الميجور آرشيبولد بيك مؤرخين عام ١٩٢٩ جاء فيهما «تريدنى أن أراجع هذا الأمر الآن على أساس صورة هوائية للمكان ومن خلال ذكريات عمرها الآن اثنا عشر عاماً ألا يعتبر هذا مبالغة لأمر كان فى مقصده ... نكتة؟» .

إن الأمر برمته عبثي». ورغم أن لورانس كتب فيما بعد أن «خريطة بيك تتطابق مع ذكرياته» إلا أنه كان من الواضح ثمة فروق جوهرية بين الخريطة والأرض. وبدأنا السير أسفل سفح التل ونحن نخطو باتجاه الجزء الغربي حيث قابل لورانس المحايسين وابن جازي وأمرهم بالانسحاب. وبينما كنت أسير، كنت أكاد أسمع أزيز الطلقات. إلى جانبي وكذا رعد وجلبة القذائف المتساقطة ورنين متفجرات الكورديت وقعقة البنادق الآلية. وبينما كنت مستغرقاً في حلمي سمعت من يقول «السلام عليكم». ورأيت راعياً شيخاً، رجلاً أسمر البشرة، له وجه كجلد «الرقعة» المعالج، يرتدى عباءة متسخة من جلد الغنم، وغطاء رأس مهلهلاً، ويجرجر قدميه فوق مرعى حجري وأمامه قطيع من حوالى تسعين من الأغنام البنية والبيضاء. وسأله محمد إن كان يعرف أى شىء عن معركة لورانس فى طفيلة فرد الرجل «لا. بيد أنه كانت ثمة حرب هنا لأننا نجحد قذائف ورصاصات أحياناً». واستغرق وصولنا إلى الطرف الغربى لسلسلة التلال، حيث تموضعت البنادق التركية، ساعتين وكان هذا يتوافق مع قول لورانس إن المسافة كانت حوالى ميلين تقريباً. وتسلقنا إلى القمة على التربة المحروثة اللينة، ورأينا من هناك صدعاً عميقاً فى الأرض حفرته المياه فى الزمن القديم كان يتغلغل داخل الوهد. وفكرت أن هذا لابد وأن يكون الممر السرى الذى تسلل منه رجال العايمة من خلف الأتراك وحسموا بهذا مصير المعركة بالكامل. وكان لورانس قد كتب إلى الميجور بيك «إن الجهود التركى الرئيسى كان بطول سلسلة التلال، وقد أزاله فيما بعد، رجال العايمة».

فمن الواضح إذاً أن هجمة رجال العايمة كانت هى التى حسمت المعركة. أما إن كان لورانس هو من دفع بهم للهجوم أم لا، فأمر ما زال محل نقاش. وقد قال صبحى العمارى، وهو ضابط عربى نظامى اشترك فى المعركة وكان قائداً لفرقة البنادق الآلية، فيما تذكره عن المعركة أن فلاحى العايمة تجمعوا على تل يدعى خربة السباعة على بعد كيلو متر يمين الجناح التركى. وطبقاً لصبحى، كان الموقع التركى خارج مدى قذائف «تل الاحتياطى». وهذا صحيح فيما يبدو. لأنه رغم أن لورانس أخبر بيك أنه قد ضبط مهداف مدافع الفيكروز ليصل مدى الطلقات إلى ٣٠٠٠ ياردة كى تحصد المنسحبين، إلى أن مدى الفيكروز هو ٢٩٠٠ ياردة فقط



وهو الحد الأقصى لهذا السلاح . وكما أوضح ريتشارد ألدنجنجتون ، فلم يكن أحد في ذلك الزمن يفكر في التبارز بالبنادق الآلية من مسافة قدرها ٣٠٠٠ ياردة . وخطرت لصبحى فجأة فكرة تحريك بندقيتين آليتين إلى التل الغربى كى تصبحا فى المدى المطلوب . فهورول هو ورجاله عبر الأرض التى لا تصلها رصاصات بنادق الحصن وزحفوا إلى قاع السلسلة التلية حيث لحق بهم تلقائياً فلاحو العايمة . وتسلق رجال المدفعية الآلية المنحدر وفتحوا النيران على الأتراك من مدى قريب جداً ، وسرعان ما لحقت بهم مجموعة مندفعة من رجال العايمة . وأصيبت الوحدة التركية الأكثر قرباً من العرب بإصابات بالغة ، وأمر القائد التركى رجاله أن يستديروا ويواجهوا الفلاحين . وهنا حدث أمر غير متوقع . فلدى وقوف الأتراك للاستدراة اعتقد رجال العايمة أنهم على وشك التقهقهر وقاموا بهجمة عفوية وهم يصيحون ويتضاحكون . وترك الأتراك ، الذين أصابهم الذهول ، بنادقهم ، ولاذوا بالفرار ، وانتشر هلعهم إلى باقى الوحدات التى تبعت الآخرين . وعرف صبحى ، فيما بعد ، من أحد الأسرى ، أن معظم الضباط الأتراك ، فى تلك اللحظة تحديداً ، كانوا قد انسحبوا من الصفوف لحضور مجموعة الأوامر مع القائد ، وهكذا لم يكن ثمة أحد ليجمع شمل الجنود وهم يتقهقرون . ولهذا ، فحينما عمت الفوضى أمر حامد فخري ضباطه أن يلتقط كل منهم بندقية ويعود إلى الصف ، كما سجل ذلك لورانس ، إلا أن الوقت كان قد فات .

وأخبرنى المؤرخ العربى سليمان موسى أنه كان قد تحدث مع عدد ممن اشتركوا فى المعركة وتذكر معظمهم أنهم شاهدوا لورانس فى ميدان القتال . . . إلا أنهم أجمعوا أن الاشتباك كان مصادفة عفوية ، كما يوحى تقرير صبحى . وقد ألح لورانس نفسه إلى هذا حينما أخبر ليدل هارت أن «رجال العايمة أتوا من الغرب» (تقع قريتهم على بعد بعض أميال من ميدان المعركة) «وقد تكون للجغرافيا دور هام فى تقرير شكل المعركة لا يقل عن دور الاستراتيجية» . وماذا عن ادعاءات لورانس الأخرى؟ فقد قال إنه قرر أن يحارب معركة يلتحم فيها الجيشان لغضبه من غياب الأتراك الذين عادوا مرة أخرى ، ومن ثم ، أرسل البنادق الآلية إلى الأمام لمساعدة الفلاحين وتخير «تل الاحتياطى» كخط دفاع أخير ، وأمر القوة الأمامية بالعودة إلى التل ، وحث زيد على أن يحرك مجموعته الرئيسية إلى هناك . إلا أن

الشواهد تدل على أنه من قرر مواجهة الأتراك على الهضبة لم يكن لورانس أو زيد، بل فلاحى المحايسين من طفيلة الذين كرهوا أن يعود الأتراك إلى قرينتهم. وقد اضطر لورانس أمام فعل عشرات قليلة من الرجال أن يتخذ موقفاً، ولا يوجد من الأسباب ما يدل على أنه لم يكن هو من أرسل البنادق الآلية لدعمهم بمبادرة شخصية منه، أو على أنه لم يختار «تل الاحتياطي». بيد أنه لم يكن هو من نصح زيد بالتحرك أو من أمر القوة الأمامية بالانسحاب. ولكن الواضح أنه لعب دوراً هاماً فى المعركة. فلماذا إذاً السخرية من الذات واستعماله «بهارات» الأمثال والأقوال المأثورة من كتب السجلات العسكرية فى تقريره؟ فما هى «النكته»؟ والإجابة هى أن لورانس تحقق من استحالة إضفاء شكل منطقي على سلسلة من الأحداث اعتمدت على الصدفة، التى تحسم معظم الاشتباكات الحربية، والتعبير عنها فى شكل تقرير قصير. فكتب إلى الميجور بيك عام ١٩٢٩ قائلاً: استشهدت فى التقرير بتعبيرات معادة سخيفة من فوش وغيره من المحاربين الدمويين. وكنت أعمد فى وصف كل حركة إلى محاكاة ساخرة لما كانوا يوصون به، إلا أننى بالغت لدرجة تجعل التقرير عبثياً. وقد كتبت التقرير عن المعركة بنفس اللهجة، أى أنه كان محاكاة ساخرة لرسالة عسكرية حقة. إلا أن هيئة الأركان فى فلسطين أخذته مأخذ الجدل. آمل ألا تقع فى خطئهم.»!

وعقب المعركة بأيام قليلة ذهب لورانس إلى البحر الميت عن طريق الجرف كى يحث قوة من البدو بقيادة الشريف عبد الله الفاعر على تدمير المراكب التركية الراسية فى الميناء عند المزرعة، والتى كانت تنقل الإمدادات إلى الأتراك فى أريحا. وتم الهجوم يوم ٢٨ يناير، وأحرقت سقائف المؤن، وأغرقت سبعة قوارب بعد أن خربت، وبذلك تعطل الإبحار فى البحر الميت. وأثار احتمال توالد قصص عن هذا الحادث لورانس، فأعلن لروبرت جريفز بزهو «أنها كانت واحدة من مناسبتين فى التاريخ الحربى الذى هاجم فيها رجال على مطاياهم أسطولاً فى البحر وأغرقوه. وقد زكيت نفسى بعدها بزهو باعتبارى ضابطاً بحرياً». وفى هذه الأثناء، كانت الخطة الهاشمية مازالت هى التقدم شمالاً إلى الكرك ومأدبا. وفى أوائل شهر فبراير ذهب لورانس إلى قويره ليحصل على ٣٠,٠٠٠ جنيه استرليني ذهبى كانوا سيحتاجونها لاستئجار جنود غير نظاميين لعملية التقدم. ولدى عودته منهكاً إلى

طفيلة فى ١١ فبراير، بعد أن تسلق مسرعاً التلال الثلجية، ساءه أن يجد زيد لم يفعل أى شىء للإعداد للسير إلى مؤاب، وأن الفرصة التى أتاحتها لهم معركة طفيلة قد أهدرت. وفى رسالة إلى كليتون فى اليوم التالى كتب لورانس «همهم زيد وتلعثم وألقى بفرصته جانباً دون أن ينتفع منها. فقد كانت البلاد بدءاً من مأدبا تحت أقدامه. إن العرب أسوأ مادة تصلح للتشكيل.» وفى الواقع، فرغم أن لورانس كان قد حاول دوماً أن يظل فى الخلفية، فقد وجد، بشكل متزايد، أن عليه إملاء الاستراتيجية وكتب إلى كليتون «سيتحدون جميعاً يوماً ما للحط من قدرى. فمن المحال أن يتحكم أجنبى فى إدارة شعب آخر وفقاً لإرادتهم الحرة إلى مالا نهاية. وقد كان دورى طويلاً بما فيه الكفاية». وتحقق أن الشريف قد فقد تصميمه على التقدم وحده، ومن ثم، قرر الذهاب شمالاً لحث مجموعات متنوعة غير نظامية على العمل. فقد كان مقرراً أن يصل الذهب إلى طفيلة فى غضون أيام، وشعر لورانس أن المبلغ سيكون كافياً للإنفاق على حاجته وحاجة الشريف الملحة وعلى دعم الهجوم. وانطلق للقيام باستطلاع فى سيل الحايصة مع الملازم كير كبرايد الذى كان يتحدث العربية بطلاقة وكان قد أرسل من بشر سبع من قبل القيادة العامة كى يكتب تقريراً عن إمكانيات الاستخبارات. وبعد عودة كير كبرايد إلى فلسطين واصل طريقه مع شيخ من السكان المحليين حتى الكرك ومأدبا. وكان الاستطلاع مرضياً جداً، وعاد لورانس إلى طفيلة كى يخبر الشريف زيد أن الطريق أصبح مفتوحاً أمامه. وتجادل زيد قائلاً إن هذه العملية ستحتاج إلى قدر كبير من المال، وحينما ذكر مبلغ الـ ٣٠,٠٠٠ جنيه التى كان قد تلقاها لتوه دهش لورانس أن قال له إنه أنفقها جميعاً فى دفع أجور رجال المحايسين ورجال العايمة وابن جازى وبنى صخر ومجموعات أخرى. وأسقط فى يد لورانس؛ فقد كان معظم هؤلاء فلاحين متمركزين فى طفيلة ولا يصلحون للتقدم. وكان على النظام الهاشمى استئجار رجال أثناء تحرك القوات قدماً. بيد أن كشف الأجور كان وهمياً، إذ إنه لم يكن بوسعهم سوى دفع أجور عدد قليل من الرجال الموجودة أسماؤهم فى دفاترهم، وهم لا يفعلون هذا سوى فى وجود حالات طوارئ فى أماكن ما. وعرف لورانس أن زيد يعلم هذا، وتحقق فجأة من أن الشريف كان يكذب عليه؛ فقد كانت دفعة الذهب قد وصلت فى اليوم السابق، ولم يكن ثمة موظفون يكفى عددهم

إحصاءها وتوزيعها في غضون أربع وعشرين ساعة. وتحقق حدسه من أن الأشراف سينقلبون عليه ذات يوم. إلا أنه لم يتخيل حدوث هذا بهذه السرعة. وأصر زيد على كذبه وفقد لورانس هدوءه المعتاد وقال «أنا لست تابعاً لك، أو مسئولاً أمامك، بل العكس هو الصحيح. وإنني أتوقع أن تحترم رغباتي وتكون محلاً للاعتبار في الأمور كلها، لا أن تناقض هذه الرغبات دون تفسير مسبق. فحينما يقوم البريطانيون من خلالى بتحويل جميع نفقات العملية، فلا بد أن تتبع تعليماتي بكل دقة ممكنة». بيد أن زيد لم يتزحزح، وتيقن لورانس أن حملة البحر الميت قد انتهت. وفشل في أن يفى بوعده لألنبي مرة أخرى. وفي الصباح، أرسل إلى زيد بذاكرة يطالبه فيها بإرجاع النقود. وحينما أرسل إليه الشريف تقريراً منمقاً خادعاً بأوجه إنفاقها، قرر لورانس الذهاب إلى بشر سبع ليبين لألنبي أنه خذله للمرة الثانية نتيجة خطأ في التقدير، ويتخلى نهائياً عن الثورة العربية.

غير أنه في نفس يوم وصوله إلى القيادة العامة للقاء ألنبي، كان الأتراك قد أخلوا أريحا، ودخلت الحملة إلى فلسطين مرحلة جديدة. وكان مكتب الحرب في لندن يمارس ضغوطاً من أجل توجيه ضربة قاضية للأتراك. وكان ألنبي يعد العدة للهجوم على دمشق وحلب. ووسط تلك السعادة الغامرة، نسيت مشكلة لورانس التافهة مع زيد بشأن الثلاثين ألف جنيه. وكان ألنبي يريد تأمين جناحه الأيمن وقطع خط السكك الحديدية لأن الأمر لم يكن يحتمل أن تتدخل حامية المدينة المنورة في هذه المرحلة الحاسمة. وكان مستعداً لإرسال هجائته من المصريين والخيالة الأسترالية عبر نهر الأردن للاستيلاء على السلط غرب عمان ويضمن بهذا سلامة هجوم عربي على عمان التي برهنت حاميتها على كونها الشوكة المستديمة في جسد الهاشميين. واعتقد لورانس أنه في حالة وجود وسائل نقل مناسبة سيكون بإمكان نظامي جعفر باشا البالغ عددهم أربعة آلاف عربي أن يدفعوا للتقدم بوثبات متجاوزة (وثبة الضفدع) إلى نقطة ما عند خط السكك الحديدية شمال معان والجلوس على الخط إلى أن يخرج الأتراك إليهم كي يزيحهم. وكان قد وصل إلى القناعة بأن النظاميين العرب كانوا أكثر من صنو للأتراك في المعارك المفتوحة، إلا أنه شك في قدرتهم على الاستيلاء على معان عن طريق هجمة أمامية. وأخبر ألنبي بحاجته إلى إبل ونقود وبنادق. ومنحه الجنرال في التو ٧٠٠ من إبل

الحمل ومعهم جماليهم المصريين، و ٣٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني ذهبي ووعدته بمدفعية وبنادق آلية. وانتقل لورانس إلى القاهرة حيث خطط مع بيرس جويس والمقدم آلن داوونى، وكان تكتيكياً موهوباً أوكلت إليه رئاسة «القنفذة»، التقدم إلى معان. وخططوا لأن تكون آخر العمليات فى هذه الدراما هى الهجوم على امتداد السكك الحديدية فى المدورة وعزل حامية المدينة نهائياً.

إلا أن الخطط اتخذت مساراً خاطئاً. فقد استولى البريطانيون على السلط إلا أنهم لم ينجحوا فى الاستيلاء على عمان وتم صدهم بواسطة هجمة كبيرة مضادة من الأتراك، فتركوا المدينة يوم ٢ أبريل أى فى نفس اليوم الذى كان لورانس والذى لم يكن يعلم شيئاً عن الهزيمة، يركب عائداً إلى أبر لسان مع حرسه. وفى هذه الأثناء، حثه رجاله على الهجوم على دورية تركية قوامها ثمانية رجال عند جسر السكة الحديدية قرب فريفرة. وكانت الهجمة غير منظمة. فقد سار خادم لورانس عثمان (فرج) متهوراً فى مقدمة الآخرين وأصيب بطلقة فور توقف ناقته عند الجسر. وبدأ للورانس وكأنه توقف إرادياً أمام العدو ليطلقوا عليه النيران. ولدى وصوله، كان فرج قد أصيب بجرح قاتل فى عموده الفقرى، إلا أنه كان سعيداً لأنه «سيموت» حيث إن زميله علياً «داعود» كان قد هلك من البرد منذ أسابيع فى الأزرق: «ولم يبتسم أبداً مرة أخرى، وفقد إرادته على الاستمرار دون صديقه». وأجبر لورانس، للمرة الثانية فى حياته، على إطلاق الرصاص إرادياً على رجل: «لم يكن لدى فرج سوى ساعات قليلة وبعدها يموت، بيد أنه لم يكن بوسعنا تركه للأتراك الذين كانوا فى طريقهم مسرعين على ترولى سكك حديدية، فأمسكت بمسدسى وخففت يدي كى لا يراه الصبى، إلا أن فرج فهم مقصدي وقال: «سيغضب داعود منك» فرد لورانس «احمل إليه سلامى». فرد عليه العقيلى «سيمنحك الله السلام». وأطلق لورانس النار على رأسه.

شعر لورانس بمسئوليته عن موت فرج. وإن كان وصفه للهجمة دقيقاً، وهذا صحيح، إذ تبين تقاريره أن حرسه الخاص كان يتكون فى أبريل عام ١٩١٨ من خمسة عشر رجلاً فقط، إذاً، فقد كان هجومهم على موقع تركى بهذا العدد القليل عملاً تعوزه الحكمة. إلا أنه لا يوجد أى ذكر لهذا الاشتباك فى التقارير الرسمية، ولا يذكر لورانس أى شئ عن موت «داعود» و«فرج» أى على وعثمان

فى مذكراته ، هذا بالإضافة إلى أنه ، وكما رأينا ، لا يأتى ذكر على وعثمان ضمن حرسه الخاص فى أبريل ١٩١٨ . ومن اللافت للنظر ، أن لورانس يستخدم موت داعود كفاتحة لمقال له عن طبيعة المرأة فى « البحر المتوسط ، ويبين أنه على حين أن النساء مجرد «آلات للممارسات العضلية ، لا يتوحد الرجال إلا مع أحدهم الآخر» . كما أنه لابد أن شعور لورانس أن عليه تغيير اسميهما حينما بدأ فى كتابة «أعمدة الحكمة» على أساس أنهما قد توفيا كان ذا أهمية . وبما أنه قد تكلف المشاق لتوضيح أنهما كانا يرتبطان بعلاقة حب مثلى علنية ، وأنهما لم يشعرا بالخزى من هذه العلاقة ، فلا يوجد أى سبب منطقى لتغيير اسميهما ، إلا إذا كان لورانس ، كما فى حالة هيوبرت يوج ، يؤلف الأكاذيب عنهما . ويتضح قلق لورانس من أن يستعمل روبرت جريفز القصة فى مذكرته إليه فيقول له : « يبدو أن نشرك قصة موت فرج أمر لا يحتمل . . وأقترح أن تحذفها كلية . إن السرد منظم ولا يعتمد السياق عليها . . وبإمكانك القول إن فرج قد توفى بعد زيارته عمان بأسبوع حيث أصابه جرح مميت فى غارة على دورية خط السكك الحديدية التركى . . وتركها عند ذلك . فهذه أمور خاصة » . ويوضح جريفز بغضب ودهشة أن لورانس كان قد نشر القصة بالفعل فى طبعة أكسفورد من «أعمدة الحكمة» التى كان يتداولها الآلاف فى هذا الوقت . فلماذا كشف للعالم «هذه الأمور الخاصة» إن كان قد شعر بالفعل أن موت فرج أمر غير محتمل ؟ كما أنه لم يجد موانع لمناقشة القيمة الأدبية «لمشهد الموت» مع تشارلوت شو فى عام ١٩٢٤ إذ إنه كتب «أجد نفسى متحاملاً على الكاتب الذى يترك القارئ يبنى أهم مشهد نيابة عنه كما يحدث فى مشهد حريق القرية فى «كلاب بانبا» ، وهى رواية لدانييل كوركى . لقد تحاشيت هذا فى وصفى لمشهد موت رجلى فرج» . ومن المثير للاهتمام أيضاً أن يقارن لورانس مشهداً حدث بالفعل بحادث من رواية يفترض أن أحداثها كلها مختلقة . . كما لو كان قد نسى أن هناك ما يميز الاثنين .

لقد فشل تقدم البريطانيين عبر الأردن ، كما فشلت الهجمة العربية على معان ، وكان السبب ، إلى حد كبير ، أن الضباط العرب قرروا عدم الأخذ بنصيحة لورانس والقيام بهجمة أمامية بدلاً من حركة يحاصرون بها الأتراك . ورغم هذه النتيجة شعر لورانس الذى كان قد راقب الهجمة ، بالإعجاب بشجاعة النظاميين العرب ،

ثم سار إلى قويرة في ١٨ أبريل . وفي نفس اليوم ، قام بسرقة عربية فورد وقادها إلى تل الشهم على الخط الحديدي حيث كان داوونى وقوة بمصادرة عربية فورد وقادها إلى تل الشهم على الخط الحديدي حيث كان داوونى وقوة من البريطانيين والمصريين والبدو قد اختبأوا في فجوة استعداداً للهجوم وكان داوونى قد خطط لعملية تل الشهم بالدقة التي تتبع في صياغة كتاب دارسى . إلا أن لورانس اعتقد أنه ، رغم كون داوونى الضابط البريطاني الكبير الوحيد الذي كان باستطاعته التعامل مع تكتيكات الحرب التقليدية وحرب العصابات معاً ، أنه مع وجود هذا التجمع غير المتجانس للقوات تحت قيادته ، فقد لا تنجز الأمور بالشكل المخطط له . ومن ثم تطوع للقيام بهذه المهمة بنفسه ، بصفته الرسمية كمترجم ، لكنه أراد عملياً مراقبة العلاقات بين المجموعات الثلاث .

وكان لهذه العملية أن تكون جد مختلفة عن العملية التي قادها لورانس في المدورة في العام السابق . فإلى جانب أسطول من العربات المدرعة ، كانت هناك عربات حربية من نوع الرولنزرويس ، وبطارية بنادق تالبوت من مدفعية الميدان الملكية محملة على عربية فورد بقيادة الملازم صامويل برودى ، وسرب من الطائرات يعمل من قاعة رم وفرقة من الهجانة المصريين بقيادة فريد بك وأيضاً بدو غير نظاميين بقيادة الشريف هزاع . ومع انبلاج نهار ١٩ أبريل ، زحفت العربات المصفحة من فجواتها وسط صحب موتوراتها ، وجلبة سيرها على أحجار الصوان ، وكانت تخلف وراءها أذياًلاً من الغبار . وجلس لورانس في الرولنزرويس على قمة التل إلى جانب داوونى الذي كان يراجع كل حركة على خريطة فرداها على ركبتيه طبقاً لجدول دقيق الإعداد . وفي الوقت المحدد بالضبط ، سارت العربات المدرعة على التل واقتربت من التحصينات التركبية المحيطة بمحطة تل الأشهم . واستسلم الأتراك الذين فوجئوا بظهور العربات المدرعة في الحال . وفي ذات الوقت ، كانت اثنتان من الرولنزرويس بقيادة الملازم هورنبى من سلاح المهندسين الملكيين تتحركان باتجاه إحدى القنوات السفلية وقامتا بتفجيرها بشكل درامى مثير بواسطة مائة رطل من قطن المفتجرات . وكاد التفجير يرفع لورانس وداوونى عن مقعديهما . وفتح الأتراك النيران من خلف « سنقر » حجرى سميك أعلى هضبة صغيرة مستديرة منحدره ، وعلى الفور سمعت طقطقات طلقات من أربع بنادق آلية في أبراج الهجوم على السيارات المدرعة ، وكان صدى أزيز الطلقات يتردد بين

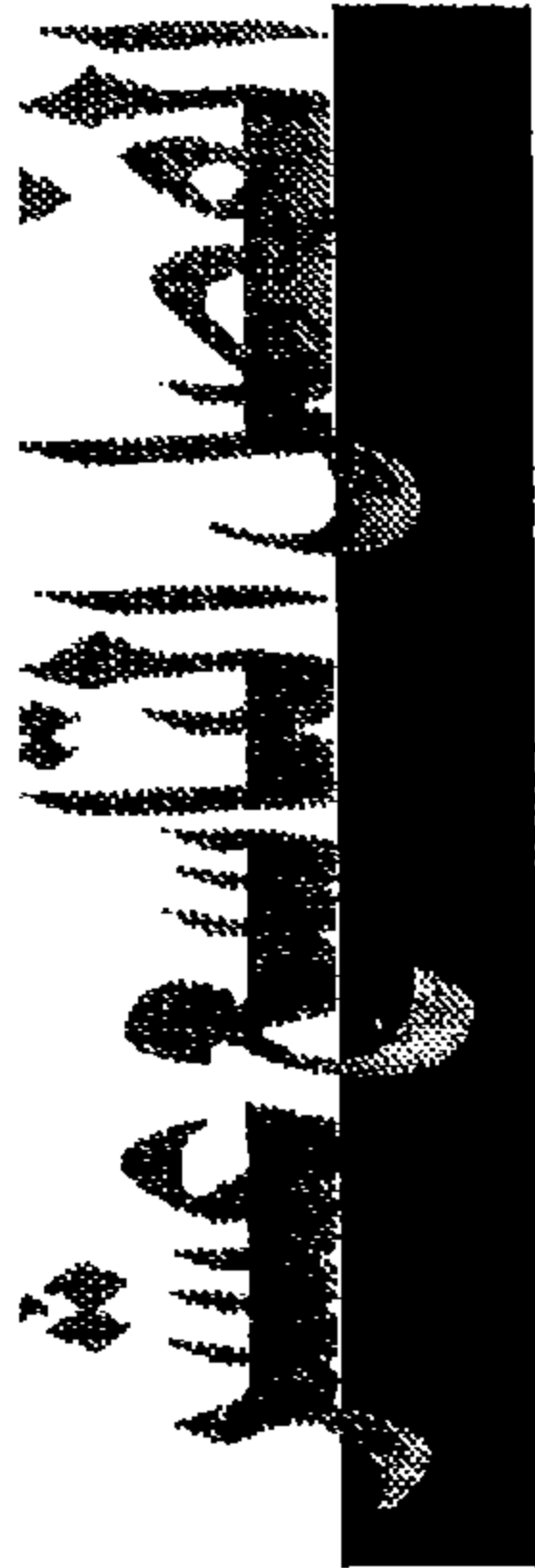
الحجارة، وفي هذه اللحظة أتى غير النظاميين البدو من خلف تل بقيادة هزاع وهم يطلقون النار عشوائياً ويصوبونها على هضبة الأتراك التي سرعان ما استولوا عليها دون جهد. وسار لورانس بالروزلزرويس باتجاه خط القتال وهو يقذف شحنات القطن المتفجر على القضبان والجسور تحت غطاء بنادق العربات المدرعة الآلية. وهزت الجو سلسلة من الانفجارات ثم ظهرت فجأة سحابات الكسارات على طول الخط مثل شياطين الغبار. واصطدمت كسارات القذائف بالحجارة ودمدمت على أبراج العربات القديمة المصنوعة من الصلب. ودفع البدو برجال الموقع الأمامي للأتراك نحو جنوب المحطة بالإبل المهتاجة التي تتابعت أعلى الهضبة والتحصينات العالية. واقتربت في هذه الأثناء فرقة الهجانة بقيادة فريد بك شمالاً من المحطة وهي تشق طريقها أمامها بحذر من تل إلى تل. وفتحت بطاريات التالوت النيران حيث اصطدمت المتفجرات بمباني المحطة اصطداماً عنيفاً كاد أثره يصم الآذان. ثم هبطت طائرتان فجأة من السماء الصافية غرباً كخطافين، وقذفت التحصينات بعشرات القنابل. وعلى الفور، ظهرت أذبال طويلة من الدخان على شكل حرف V حول المحطة، وتوجهت العربات المصفحة من خلال الغبار والضباب إلى الأمام وهي تطلق وابل نيران بنادقها الآلية. وهنا ألقى رجال هجانة بيك بحذرهم جانباً واندفعوا يعدون بخشونة عبر السهل. وسمع رعيد البدو، الذين كرهوا أن يسبقهم أحد، وهم يندفعون من الشرق، وأحاطوا بالمحطة فرفع الأتراك أذرعهم واستسلموا وهم يلوحون بقوة وأسى بالأعلام البيضاء. وسبقهم لورانس إلى المحطة بالروزلزرويس، واستولى على الجرس النحاسي كتذكاري، بينما استبقى داوونى «خرامة» التذاكر، وأخذ رولز، سائقه، الخاتم المطاطى. وخرجوا من المحطة ليجدوا العرب والمصريين وقد تملكهم جنون النهب وأخذوا يحطمون المباني وينقبون عن الغنائم، ويندفعون بشهوة عمياء للاستيلاء عليها. وكان مخزن المحطة يحوى مئات البنادق وآلاف من الذخائر وطعام وملابس، وفي جشعهم، بدأت الجماعات المختلفة تطلق النيران على إحداها الأخرى. وحدث أن خطا جمل على لغم كان قد زرعه الأتراك فانفجر فيه مما أحدث هياجاً وقتياً. وتمكن لورانس، الذى قال فيما بعد، إن الضباط البريطانيين كانوا على وشك أن يخنقوا، من فض الاشتباك بين الأطراف، ثم سمح للهجانة المصريين أن ينتقوا ما يريدونه أولاً،



ولدى صياحه على البدو «تقدموا» ذكر رولز أنهم «اندفعوا مثل كتلة صلبة من نزلاء مستشفى الأمراض العقلية» إلى المخازن وضغطوا على الباب حتى فتح وغنموا ما أرضاهم ثم حملوا إبلهم واندفع ثلاثة أرباعهم إلى الصحراء. وكان نجاح الهجوم لا يشوبه شائبة، وقال عنه لورانس إنه كان حرباً من الطراز الأول De Luxe. أما تحفظ داوونى الوحيد فهو أنه كان مخططاً أن يتم الاستيلاء على المحطة فى الساعة الحادية عشرة والنصف تحديداً، لكن الأتراك استسلموا، من منطلق الجهل والعجلة، قبل الميعاد المحدد بعشر دقائق. وكتب لورانس بسخرية غير معلنة «كانت هذه هى الوصمة الوحيدة فى يوم لم تسل فيه الدماء».

غير أن تخطيط السكك الحديدية لم يكن قد انتهى تماماً. فأرسلت عربية مصفحة إلى الرملة، أى المحطة التالية جنوباً، بينما قام لورانس وفرق تفجير أخرى بتدمير جسور وأميال من القضبان بين المحطتين. وفجرت الحفر السفلية بشحنات حشيت فى ثقب البالوعات، على حين قام لورانس، الذى كان قد طور أسلوباً أكثر فاعلية لتخريب المعادن بزرع شحن «زنبقية» أسفل عربات النوم بحيث تلوى أطوال كاملة من القضبان وتتركها معوجة.

وبعد أن اقتنع أن الخط الحديدى بين الشهم والرملة قد أصبح عديم الجدوى، قضى لورانس ليلة قرب الشهم يعد للهجمة على المدورة التى كان من المخطط حدوثها فى اليوم التالى. إلا أن الأتراك كانوا يتوقعون الهجمة، ومن ثم، أجبروا القوة المختلطة على التقهقر بنيران مدفعية مميتة مداها ٧٠٠٠ ياردة. وأرسل لورانس العربات المدرعة فى تشكيل قوسى إلى المكان الذى كان قد لغم فيه قطاره الأول ودمر الحفرة السفلية لمسافة تقرب من ٥٠٠ ياردة ابتداء من التل الذى كان قد موضع عليه مدافع وبنادق الستوكس واللويس عام ١٩١٧. وفيما بعد، أرسل محمد الضحيلان ورجاله الحويطيون لشل الخط الحديدى شمال الشهم. وبحلول ٢٠ أبريل كان العرب والبريطانيون معاً قد نجحوا فى تخريب ثمانين ميلاً من الخطوط الحديدية وعزلوا سبع محطات. وبهذا، تم أخيراً تحييد قوة فخرى باشا فى المدينة والتخلص من تهديدها المحتمل.



أطفئت أحلامى كشموع فى مهب

رياح النجاح القوية

درعا، طفس وسقوط دمشق

شتاء ١٩١٨

# 19

دخلت سيارتنا العتيقة إلى طفس

عقب الظهر مباشرة. بدت طفس

مدينة حورانية نمطية - مكاناً بلا مركز

رئيسي ومجموعات منتشرة من المنازل

بنيت عشوائياً على طول شبكة طرق

أفقية ورأسية، وسط فدادين من أراضي

القمح، ومروج موحشة حمراء لا تنمو

بها سوى بعض أشجار تفاح سدوم

السامة وبعض نباتات البلوط، وأشجار

الأرز والصنوبر الحلبي.

وبإمكان المرء أن يلمح آثار القرية كما كانت عام ١٩١٨ إذ كان ثمة أكواخ قديمة بين البازلت الأسود متناثرة بين المساكن رخيصة التشييد من القوالب الأسمنتية الخفيفة. وسرنا ذهاباً وإياباً في الطريق الرئيسي لبعض الوقت، ثم أوقفنا رجلاً ذاكن البشرة يرتدى غطاء رأس من اللونين الأبيض والأسود وسألناه إن كان يعلم أين وقعت معركة عام ١٩١٨. فأجاب: «لا أدري، إلا أن هناك شيخاً بالقرية كان هناك، بإمكانى اصطحابكما إليه». ودهشت، وخامرني قليل من الشك فقد أمضيت عدة أشهر وأنا أتبع شبحاً لا يعرفه أحد سوى بالقييل والقال. فهل سأقابل أخيراً رجلاً رأى لورانس رأى العين؟ واصطحبنا الرجل معنا في السيارة وأوقفنا عند منزل حديث مقام على ناصية أرض حمراء بين أشجار تفاح سدوم. وفي الداخل، كان ثمة رجل عنكبى يرتدى كوفية حمراء وعباءة سوداء ويجلس على سجادة إلى جوار مدفأة تعمل بالبنزين ويحيطه نصف «دسته» من الأبناء والأحفاد. وكان الرجل يرتدى نظارة سميكة الحواف وله لحية خفيفة بيضاء.

وأخبرنى أحد أحفاده، وكان طالب طب فى حلب، أن جده قد تجاوز التسعين وجلسنا على الأرض متربعين، وبعد أن أجبنا على أسئلتهم، وارتشفنا الشاي المقرر، سألته، وأنا أكبت انفعالى إن كان قد التقى بلورانس العرب. وأجابنى الشيخ بصوت متهدج: «لقد رأيته؛ كنت حينذاك مجرد صبي بالطبع. وأتذكر أننى شاهدت الجيش العربى وهو يسير فى القرية. كان يوماً رهيباً، كنت برفقة والدى فى قرية أخرى فى الليلة السابقة، ولدى وصولنا فى الصباح، وجدنا أن الأتراك قد قتلوا الجميع تقريباً. وكانت جثثهم ملقاة فى الطريق. رحمة الله عليهم جميعاً».

«وكيف بدا لورانس؟»

«كان رجلاً طويلاً قوياً ذا لحية طويلة».

واصطحبنا حفيده فيما بعد لنشاهد ميدان المعركة، وكان عبارة عن أحد المروج الحمراء مليئاً بالكتل الصخرية. وكان على مسافة قريبة من القرية. وبدالى،

وبشكل غير متوقع ، صغيراً على مثل هذا الحدث الدرامى . ولقد ظل ذبح طابور كامل من الجنود الأتراك على أرض طفس يوم ٢٧ سبتمبر عام ١٩١٨ ، وما تلاه من ذبح الأسرى الأتراك والألمان ، من أكثر الأفعال الخلافية فى تاريخ لورانس . وقد أقنع هذا ناقديه أنه كان سادياً متعطشاً للدماء . أو أنه قيل ، كبديل لهذا ، إن تعذيبه واغتصابه فى درعا شوه عواطفه بشكل دائم . وقد أذكى لورانس هذا النوع من الخلاف بتعليقاته الساخرة المعتادة . فقد ادعى أنه أخبر حراسه فى هذا اليوم «إن أفضلكم هو من يحضر لى أكبر عدد من الموتى الأتراك» . وعقب أيضاً على هذا قائلاً : «لم نأسر أحداً ، لأول مرة فى تاريخ الحرب ، طبقاً للأوامر» . وكان ذبح الأتراك المنسحبين للفلاحين ، من غير المقاتلين فى طفس ، قد ولد هذه القسوة . وقد كان هذا المشهد من أكثر مشاهد الحرب بشاعة بالنسبة للورانس . فلم يقم الأتراك فقط بذبح الأطفال ، بل أيضاً بذبح النساء وتشويه جثثهن وترك أجسادهن فى أوضاع شائنة . فقد رأى لورانس جثة امرأة حبلى غرست الحربة بين ساقىها . وكتب لورانس قائلاً إن طلال ، وهو شيخ من طفس ادعى أنه رافقه فى رحلته الاستكشافية المشئومة فى حوران فى نوفمبر السابق ، قد تملكه الغضب من المشهد لدرجة أنه مات ميتة انتحارية بهجمة واحدة على صفوف الأتراك المتجمهرة .

وكانت مذبحة طفس جزءاً من المرحلة النهائية لحلمه التى بدأت فى مايو ١٩١٨ ، حينما طلب لورانس من أَللنبى ٢٠٠٠ ناقة ، ذلك الطلب الذى بدا شديد المبالغة نظراً لتسريح فرقة الهجانة الإمبريالية بسيناء . وسأله القائد العام «لماذا تريدها؟» ، فأجابه لورانس : «كى أدخل ألف رجل فى درعا فى اليوم الذى تريده» . وكانت خطته هى السير بقوة من الجنود النظاميين العرب على الإبل شمالاً من وهيد ، المقر العربى الجديد المتقدم بالقرب من معان ، إلى الأزرق ثم إلى درعا ومعها طابور إمداد ومدفعية وبنادق آلية وعربات مدرعة . وكان من المقرر أن يحملوا مؤنهم ويصلوا درعا خلال أسبوعين فقط ، ويقوموا بقطع الخط الحديدى بمساعدة بدو رواله ، ويكون هذا فى نفس الموعد الذى سيقوم القائد العام فيه بهجومه على سوريا . وتأمل أَللنبى الطلب . وكانت الجمال نادرة فى الشرق الأوسط ، كما كان أمين التموين فى الجيش بحاجة حثيثة إليها لفصيلة أخرى من الجيش . وأخيراً ، أقنعه حماس لورانس . فقام بتسليم الإبل إلى الثورة العربية ، وأسرع للقاء فيصل

عند أبو لسان فى اليوم التالى وهو واثق أنهم قد حصلوا لتوهم على وسائل النصر الأخير: وتخلص فى الحال من فرقة النقل المصرية التى كانت مشغولة تماماً بنقل المؤن بين العقبة وأبو لسان بأسلوب غير كفء. وأحل محلهم جمالين من مكة كانوا يعرفون كيف يسوسون الحيوانات بشكل أفضل. وأوكل إلى الكابتن هوبرت يونج، الضابط الذى كان لورانس قد التقى به فى كركميش قبل الحرب، أمر تنظيم نقل الجنود وإيوائهم وتموينهم. وكان لورانس قد تخير يونج ليكون وكيلاً له إن هو قتل أثناء المعركة. إذ إنه كان يتحدث العربية بطلاقة كما كان على مقدرة تنظيمية من الطراز الأول. بيد أنه كان يعيبه سرعة الغضب التى جعلت من الصعب عليه التعايش فى سلام مع أى شخص. وقد ذكر نورى السعيد أن مزاج يونج كان عدوه الأسوأ، واستدعى هذا منه أن يقول لبعض الضباط العرب الذين كان يونج قد أغضبهم «لا عليكم، فهو يصيح فى الضباط البريطانيين بنفس الأسلوب» كى يهدئهم. ولولا كعب أخيل هذا لأصبح يونج لورانس آخر للعرب. إذ إنه بالإمكان القول إنه كان أكثر الضباط البريطانيين الذين عملوا مع العرب مقدرة، وكان تصوره لمتطلبات عملية ما، حتى ما سيحمله آخر جمل فى القافلة، تفوق بكثير مقدرة لورانس الزئبقى الذى كان يميل إلى السير بالإبل أولاً ثم دراسة الاحتياجات من المؤن فيما بعد. إلا أنه على حين أنه كانت للورانس مقدرة سحر أبواب الآخرين، كان ليونج مظهر وسلوك الطالب ذى النوايا الحسنة والذكاء المتقد والمزاج العكر. وفى فبراير من عام ١٩١٨ تلقى أمراً مبهماً فى مقر وظيفته بالهند ليسلم نفسه فى القاهرة، وقد كتب عن هذا قائلاً: «لم أكن على علم بشيء حتى دخلت إلى القيادة العامة فى فندق السافوى لأتسلم عملى وفتح الباب ودخل شخص صغير الحجم... فعرفت». وفى هذا الصدد، قال له لورانس: «طلبوا منى أن أقترح شخصاً يأخذ مكانى فى حالة حدوث شيء لى، وأجبتهم أن لا أحد يستطيع هذا. وحينما ضغطوا على قلتي إنه ليس هناك من اقترحه باستثناء جيرترود بل وأنت، ويبدو أنهم اعتقدوا أنك أنت الأفضل للقيام بهذه المهمة». وسرعان ما تحقق آلان داونى، قائد «القنفذة»، أن خطة «البديل الجاهز» لن تكون مجدية أبداً بسبب مزاج يونج الانفعالى، ورغم هذا، فقد عينه مسئولاً عن الإمدادات والتموين.

جويس، قائد الأركان البريطاني في قوات فيصل، وفيصل نفسه. وفي هذه الأثناء، كان لورانس في القاهرة يضع خططه للمهمة مع داوودى الذى اقترح الاستعانة بآخر مجموعتين من فرق الهجاء الإمبريالية لإكمال المهمتين اللتين لم يستطع البدو حتى ذلك الحين إنجازهما. أى: تدمير المدورة، وتدمير الجسر الموجود فى القصير شمال معان. وعلى غير المتوقع، وافق لورانس على هذا. وتم بعث برقية إلى جويس بالعقبة بها تعليمات بإقامة مستودعات مئونة وذخيرة للقوات غير النظامية فى رم وجفر وبير. إلا أن هذه التعليمات قبلت بالاستياء فى العقبة: فلم يتم استشارة جويس فى الأمر، ورأى هو ويونج أن كل حمولة تنقل إلى عملية فرق الإبل، ستعنى حمولة أقل لطابور الطيران فى الأزرق ودرعا. وفى هذا الصدد كتب يونج: «ناقشت وجويس هذه البرقية ونحن نجز على أسناننا، وقررنا أنه ليس أمامنا سوى استخدام بعض الإبل التى لا تقدر بمال لمستودعات عملية المدورة». وفى ٢٨ يوليو، وصل لورانس إلى العقبة، وقرأ خطة يونج، وأدانها فوراً على أساس أنها غير قابلة للتنفيذ. وكان اللبى يعتزم تنفيذ التقدم الأخير إلى دمشق يوم ١٩ سبتمبر، وكان على العرب أن يستهلوا هذا التقدم ويسبقوا القوات بمدة لا تتجاوز أربعة أيام. وكانت مراعاة دقة التوقيت أمراً حاسماً. وكتب لورانس: إن كلمات اللبى كانت «أن ثلاثة رجال وصبى بمسدسات أمام درعا فى ١٦ سبتمبر... أفضل من آلاف قبل هذا الموعد أو بعده بأسبوع». وكانت خطة يونج ستنتهى بأن يصل العرب إلى درعا بعد الموعد المحدد بأسابيع ثلاث. وكشف لورانس عن خطته التى وضعها مع داوودى لتنفيذ عملية أكثر تحديداً وتحركاً ضد درعا. وفقد يونج تحكمه فى نفسه، فرد لورانس بسخرية إنه قد نفذ عمليات كثيرة مماثلة قائمة على التحرك السريع بنجاح دون مساعدة جندى نظامى من خريجي إيتون المتعجرفين الذين ظهروا على المسرح. وأجابه يونج إجابة طاعنة بأن قال له (أى لورانس) إنه يقترح أن يقوم هذه المرة بتحريك جنود نظاميين بدلاً من البدو لأن النظاميين جد مختلفين. وسأله إن كان يتوقع أن يركب كل اثنين منهم ناقه وأن يعيشوا على لفائف قمر الدين والمياه لمدة أسبوعين؟ وسأله عن تصوره لمصادر الإمدادات. وعن إمداداتهم إن انسحبوا حيث إن خطة لورانس لم تأخذ فى الاعتبار الانسحاب إن فشلت العملية. وكتب يونج «لم يعرف لورانس أبداً الكثير عن الجيوش النظامية... ولم يكن لديه أى



تعاطف مع مشكلاتنا الخاصة بالنقل، إذ إنه كان ينظر إلى جميع التنظيمات العسكرية باحتقار شديد، ولم يكن لحرف Q (مصلحة أو قسم) الذى يحترمه النظاميون ويوقرونه عن حق مكان فى أبجدية لورانس. وكان الصراع فى جوهره بين محترف ألمعى وهاو ألمعى: وكان جويس قد اشتكى بالفعل لداونى (وكان له مبرره فى هذا) من أن لورانس كان يميل إلى إِمطار القيادة العامة بوابل من الخطط الطموحة الجريئة المندفعة؛ إلا أنه حينما كان يحين موعد تنفيذ تلك الخطط المتهورة، كان يختفى. وانتهت المقابلة دون التوصل إلى اتفاق ولم يتحدث مرة أخرى لمدة ثلاثة أيام. واستاء يوج من اعتداد لورانس الزائد بنفسه حيث كتب يقول: «... إن منظر هذا الرجل الصغير وهو يقرأ «موت الملك آرثر» فى ركن من خيمة الطعام وعلى شفثيه تلك الابتسامة الشيطانية، لم يكن مطمئناً». وأخيراً، أذعن جويس وقبل خطة لورانس وأيضاً عملية فرق الإبل. وأجبر يوج على الامتثال، واستعمل عبقريته لإيصال الإمدادات إلى نظامى جعفر باشا فى وهيدة وأبو لسان، وقد نجح فى هذا ضد كل التوقعات. واعترف لورانس بهذا بالرغم منه فكتب «إن تسيير قافلة تموين منتظمة ومتناسقة كان محالاً. إلا أن يوج حقق هذا تقريباً، بأسلوبه الغريب الجاحد... ويعزى إليه الفضل فى حل مشكلة إمدادات النظاميين على الهضبة».

وفى ٤ أغسطس، أرشد لورانس فرق الهجانة بقيادة بكستون إلى وادى رُم. وتركهم ليقوموا بالهجوم على المدورة بدونهم، ثم طار إلى جفر ليقابل نورى الشعلان من رواله. وكان من الواضح أنه يخشى هذا اللقاء إذ إنه كان قد أكد للأمير أثناء رحلته إلى نبق عام ١٩١٧ أن باستطاعته الوثوق فى أحدث وعود البريطانيين. أما الآن، فكان نورى على علم بنصوص اتفاقية سايكس-بيكو، وخشى لورانس من مطالبته «بنصف الصفقة غير الشريفة» التى اتفقا عليها فى ذلك اليوم البعيد فى الأزرق. ولم يفصح لورانس أبداً عن فحوى «نصف الصفقة» المبهمة؛ فقد قال إنه أثناء لقائهما فى جفر لم يطالبه الأمير بها، وأن اللقاء انتهى بتأييد الأمير الكلى لقضية الهاشميين. وعاد لورانس إلى جفر بالسيارة ليلتقى بفرقة الهجانة التى كانت قد نجحت فى الاستيلاء على محطة المدورة وتدمير برج المياه. ثم أكمل مهمة استطلاعية فى الأزرق على حين ذهبت الهجانة إلى جسر

القصير . وتم نبذ المهمة حينما اكتشفت الطائرات الألمانية صفوفهم ، وأيضاً ، فقد علم باكستون أن قبيلة بدوية معادية كانت قد عسكرت بينهم وبين هدفهم تحسباً لهم .

وفى هذه الأثناء ، كانت ثمة أزمة بين النظاميين العرب في أبو لسان . فقد كانوا قد قرأوا تقريراً صحفياً أنكر فيه الملك حسين تعيينه جعفر باشا قائداً للجيش الشمالي . وكانت هذه آخر محاولات حسين لإخضاع ابنه فيصل لتحكمه ، إذ كان فيصل قد رقى « جعفر » قائداً عاماً دون الرجوع إليه . وكانت الشكوك تملأ حسين من الضباط العرب النظاميين لخشيته أن « يستولوا » على الثورة . ولهذا السبب كان قد فصل عزيز المصري ، سلف جعفر ، الذي كان قد طور استراتيجية للحملة العربية قبل لورانس بوقت طويل . وكان حسين يعلم أن فيصل ضعيف الشخصية ، سهل الخضوع لتحكم مستشاريه فيه ، وكان خوفه الأعظم هو اختطاف أطماع الحلفاء الإقليمية للقضية العربية . ورغم أن لورانس أرجع رد فعل حسين إلى « الغيرة » و « شهوة القوة » ، فقد كانت الحقيقة هي أن الفرقة بين الهاشميين كانت في صالح البريطانيين والفرنسيين مثلهم مثل الأتراك . وكان حسين يعتقد أن فيصل يقوم بفتح أبواب سوريا لأطماع الفرنسيين ، ورغم ادعاء لورانس ، فيما بعد ، أن الرجل المسن كان مجنوناً ، إلا أن النهاية برهنت على أنه كان محقاً .

وحينما قرأ جعفر باشا إعلان حسين أنه ليس ثمة « ضابط عربي تعلو رتبته على كابتن » استقال وتبعه في الحال كل أركانه . كما استقال فيصل تضامناً معهم ، ومن ثم ، أصبح إيمان البدو بالولاء للهاشميين غير ذي معنى . وباستقالة فيصل تلاشت فرص تجميع قوة كبيرة من رواله ، الأمر الذي كان لورانس يرتكن إليه للهجوم على درعا . وبدأت الثورة العربية على وشك الانهيار بانقضاضة واحدة ضارية ، وأسرع لورانس في ٢٦ أغسطس إلى أبو لسان ليجد علاجاً لهذا الطريق المسدود . فقد كانت هذه لحظة حاسمة في عملية درعا . وفي اليوم نفسه ، وبينما كانت أولى قوافل إمدادات يونج على وشك مغادرة العقبة تعالت صيحات « طيارة ، طيارة » إذ سُمع أزيز طيارتين ألمانيتين وظهرتا من بين ضباب الحرارة الذي كان يغلف وادي عربة وألقت بحمولتي قنابل على القوافل . وجن جنون الدواب التي قطعت

مقوداتها ونخعت حمولاتها ونشرتها على السهل . وأعاد يونج ، وسط لعناته الصامتة واهتمامه التام بالتفاصيل ، تنظيم وتجميع سيّاس الإبل ، والتقط الأمتعة وأعاد تحميل الإبل وربط القوافل وأرسلها فى سبيلها مرة أخرى . إلا أن الضباط العرب فى أبو لسان رفضوا الذهاب إلى مواقع جديدة دون إشارة استرضاء من حسين . وأبرق لورانس إلى كليتون يوم ٣٠ أغسطس بأن هيئة أركان القنفذة ستتولى قيادة العملية التى ستسير كما كان مخططاً لها . وكان لورانس على علم بأنه رغم مقدرتهم على الاستيلاء على درعا بدون فيصل ، إلا أن الدخول إلى دمشق بدونهم كان يعنى القضاء على كل ما عملوا على تحقيقه طوال عامين . فحينذاك ، سيصبح العرب دون قوة على التفاوض وسيقيم الحلفاء حكومة فى سوريا . ومن ثم ، أخبر كليتون أن بإمكانه إبقاء الأمور تحت السيطرة لمدة أربعة أيام فقط ، فإذا لم يتم التوصل إلى حل حتى هذا الوقت ، سيصبح عليه أن يخلّى المواقع الأمامية وأن تفشل عملية درعا التى يتوقف عليها مصير العرب كلية . ومرت الأيام متثاقلة ولم تصل كلمة من حسين . وأخيراً وفى يوم ٤ سبتمبر وصلت رسالة طويلة من الملك تتضمن اعتذاراً أعرج ، وترديداً لنفس الاتهامات بشكل مختلف . وبكل تبجح ، قطع لورانس جزء الرسالة غير المرغوب فيه ، وكتب عليها «عاجل جداً» وأرسلها إلى خيمة فيصل .

وفى ٣ سبتمبر توجهت ، عكس كل التوقعات ، قافلة من النظاميين العرب ومعها خمس بطاريات مدفعية فرنسية / جزائرية بقيادة الكابتن بيسانى ، على بغالها ، إلى الأزرق وبرفقتها طابور مؤن . وقاد فيصل سيارته الفوكسسهول لاستعراضهم ، على حين كانت الإبل تخب على أراضى سهل شيراه المنخفض . وكتب يونج عن هذا : «... بينما كانت كل مجموعة تحيى فيصل ، وصل بى الانفعال إلى أن شعرت بكتلة غريبة فى حلقى الملتحى من عظمة الشهيد» . وفى يوم السادس من سبتمبر ، توجه لورانس إلى الأزرق فى عربة رولزرويس حربية مع الشريف ناصر الذى كان مقرراً أن يقود البدو أثناء الهجمة الأخيرة ، واللورد وينترتون الذى كان قد نقل لتوه من فرقة الهجانة ، التى تم تسريحها ، إلى القنفذة . وبدأت قوة الهجوم فى التجمع طوال الأسبوع الذى تلاه . وفى ١٠ سبتمبر ، هبطت طائرتان من السلاح الجوى الملكى ، وحضر جويس وستيرلنج ، اللذان كانا

قد عينا مؤخراً في المهمة العربية، في عربات مدرعة يوم ١١ سبتمبر. ثم وصل فيصل يوم ١٢ ومعه المسئول الطبي، وأتى خلفه نوري السعيد و ٤٥٠ من النظاميين العرب، وبيسانى مع فرقة البنادق الجزائرية، وقافلة إبل الأمتعة المكونة من ١٥٠٠ ناقة ومعها يونج وفرقة من رجال التفجيرات المدربين من فرقة الهجانة المصرية بقيادة بيك، وفريق من جمالى قرخة بقيادة سكوت هيجنز، وبدو رواله غير النظاميين بقيادة نوري الشعلان، والحويطات بقيادة عودة ومحمد الضحيلان، وبنو صخر بقيادة فهد، وعشائر السريدية والسرحيين والقرويين السوريين بقيادة طلال الحريفين. وبلغ المجموع حوالى ألف رجل. وكان لديهم من المعدات الحربية طائرتان بريستول، وأربعة مدافع جبلية سريعة الطلقات من نوع نابليون، وأربع وعشرون بندقية آلية، وثلاث عربات مدرعة بمقطوراتها. وكان هذا هو النصل الذى سينحت النصر الذى عمل لورانس من أجله طوال هذه المدة؛ فقد تحققت ذروة تبشيره بالثورة العربية. إلا أنه حينما اكتملت القوة الضاربة، انتاب لورانس الجزع، إذ تحقق أن وقت الحساب قد قرب مع اكتشاف خداع البريطانيين للهاشميين ودوره الرئيسى فى هذه اللعبة بكل ما يحمله من ظلم وإثم. وشعر أنه قد جمع كل هذا «الطوفان من الرجال على وعد زائف، وجعلهم يقدسون مثلاً للوحدة لم يكن هو شخصياً يعتقد فيه». وكان الصراع بين المثال والواقع يعكس الصراع الداخلى الذى كان جزءاً من لورانس منذ الطفولة. أما العرب، فكانوا أكثر واقعية؛ فقد اتصل عودة أبو طيى بالأتراك حينما بدا هذا موافقاً، وتراجع بدو الحجاز عن القتال حينما ناسبهم ذلك، وحتى فيصل، فقد حاول إيجاد خط للتفاوض مع الأتراك. وظل نوري الشعلان محايداً حتى اتضح أن الهاشميين كانوا الجانب الرابع؛ بينما لم تلحق كثير من القبائل، وتقسيمات القبائل فى الحجاز، وحتى فى سوريا، بمسعى الهاشميين أبداً. وكان القوميون السوريون من أمثال نسيب البكرى - الذى صب عليه لورانس هجومه القاسى - يقاتلون بالتأكيد من أجل الحرية. إلا أن قتال الهاشميين كان، أساساً، من أجل إرث الأسرة. وقد برهن كل من هؤلاء على حدة، على كونه متفجرات مبللة؛ فقد أضاع زيد وادى الصفراء، وكاد على يفقد رابع. وفصل حسين أفضل رجاله عزيز المصرى، وأوشك على إحباط العملية الأخيرة بإنكاره أن جعفر باشا كان قائداً عاماً للقوات المسلحة. أما زيد، فقد كذب عليه؛

ورفض عبد الله مشورته . وشعر وهو فى الأزرق بموجه بغض «لهؤلاء الساميين الحقراء المتجسدين أمامه» ، وكره أيضاً نفسه لتظاهره لمدة عامين أنه صديقهم ، على حين أنه لم يصبح أبداً واحداً منهم . وبدأ الرعب الرهيب من أن يقتل أو يصاب يؤكد نفسه بعنف . وكان قد نجح فى درء هذا الرعب لشهور عدة بإجباره نفسه على التظاهر بأعلى درجات الشجاعة الهرقلية والتضحية بالنفس . وكان يعرف أنه على وشك أن يفقد أعصابه وأن عليه ، فى خلال أسابيع ، إما أن يستقيل من منصبه أو أن ينهار . ودهمه شعوره القديم بغرابة الأطوار وعدم الكفاءة حينما وجد نفسه وسط الحشود الكبيرة . وكان هذا الشعور قد اختفى أثناء رحلاته مع حرسه أو وجوده مع فيصل . وزاد الأمر سوءاً أنه قد سمع ، ربما بين الجندين السوريين ، أن داهوم ، صديقه فى فترة ما قبل الحرب ، قد توفى . وكان الصبى قد ألحق كحارس فى موقع كركميش حتى عام ١٩١٦ ، ثم لقيت نصف قوة العمل تقريباً حتفها فى موجة رهيبة من المرض والمجاعة . ورغم أن لورانس لم يذكر داهوم بالاسم ، فقد كتب أن أحد دوافعه الأساسية لقيادة العرب هى إهداء الحرية إلى عربى كان قد أحبه . وكتب أيضاً أن هذا الدافع اختفى قبل «بضعة أسابيع من نهاية الحملة» فى إشارة منه ، لا إلى احتمال موت داهوم عام ١٩١٦ ، بل إلى اللحظة التى سمع فيها عن وفاة صديقه . وكتب فيما بعد ، وهو يؤلف قصيدته الإهدائية إلى «س . أ» (S.A) ، أثناء طيرانه بين باريس وليون ، «صنعت له الحرية كى أضىء عينيه الحزينتين : إلا أنه توفى وهو ينتظرنى .. ألقىت بهديتى بعيداً ؛ والآن لن أجد الراحة والسلام فى أى مكان» . وتحاشى لورانس وهو فى الأزرق الصحبة ، وسار وحده بحسرة وغضب وتخوف إلى عين الأسد فى نوفمبر عام ١٩١٧ حيث يحتمل أن يكون قد قضى بعض لحظات الاستجمام مع على حسين الحارثى ، وهو صديق آخر ، ربما شعر أنه قد لا يراه ثانية .

وكان وينتربون قلقاً بخصوص الأمن ؛ ففى نفس لحظة وصولهم إلى الأزرق تقريباً . لاحت طائرة تركية ، رغم استبعادهم احتمال مشاهدتهم أثناء الرحلة . وكان لورانس يعلم أن تجمع قوات الغزو فى الأزرق لابد وأن يبلغ الأتراك ، إلا أنه كان واثقاً أن العدو لن يغامر عبر الصحراء ليهاجمهم هناك . كما لم يكن بمقدرة الأتراك التنبؤ بموعد ومكان الهجمة . وكان لورانس من المهارة بحيث إنه أرسل

نقوداً إلى مثقال من بنى صخر مع تعليمات بالسرية التامة كي يبتاع شعيراً لزوم هجمة على السلط وعمان في سبتمبر . وكان يعلم أن الخبر سيتسرب من عمان حتى درعا . وكان قد تم التخلي عن فكرة الهجوم المباشر على درعا لندرة المجندين من الروالة وحلت محلها استراتيجية التطويق بحيث تتمكن القوة الضاربة من قطع الخط الحديدي المتجه شمالاً وجنوباً وغرباً . وبذا، تختنق حامية درعا وعددها ٥٠٠ جندي في غياب خطها الحديدي . . وفي فجر ١٣ سبتمبر، امتطى بيك وسكوت - هينجز ناقتيهما وقادا قواتهما المختلطة من اللغاميين المصريين، والقرخة، في سكون، وسط كتل البازلت، وعبروا أراضي قيان الخونة الزلقة . وكانت مهمتهما تدمير الخطوط والجسور جنوب المفرق، مما قد يؤوله الأتراك على أنه مقدمة للهجوم على عمان . أما القرخاوييون، فكانوا مكلفين بالهجوم على المحطة، بينما يقوم لغامو بيك بقطع الخطوط، ثم تنسحب القوة بكاملها مع انبلاج الضوء وتغطي العربات المدرعة انسحابها .

وفي اليوم التالي سارت القوة الرئيسية، وتعدادها حوالي ألف شخص، وسط ركاب البراكين وكانت الإبل تزمجر وهي تتعثر في الحجارة . وامتطى نوري السعيد حصاناً في مقدمة النظاميين العرب، بينما تولى جويس أمر باقى العربات المدرعة ومقطوراتها التي كانت تسير في الخلف على الحراء بجلبة . وسار يونج ممتطياً بغلا في صف فرقة بنادق بيسانى الذين كانوا يمتطون البغال وكانت بنادقهم من نوع نابليون ترقد غير مغطاة ومثبتة على ظهور مطاياهم العريضة . وكتب يونج « حاولت أن أنسى أننا كنا في الهواء دون وسائل اتصال أو سبل ممكنة للعودة » . أما نوري، فكان أكثر استرخاء وتذكر أن خطة لورانس (B) كانت هي الاختباء وسط غابات الركامات البركانية في جبل الدروز طوال الشتاء في حالة فشل المهمة، والعيش على ما تنتجه الأرض . وعلى الجانبين، كان هناك غطاء من فرسان نوري الشعلان المختارين، بالإضافة إلى وجود طائرة حربية من طراز بريستول كانت تحلق في سماء الصحراء الزرقاء الصافية متجهة إلى أم الجمل حيث لحقت فيما بعد بطائرة ألمانية وأسقطتها مشتعلة في الصحراء . ثم عسكروا في المساء بين الأوتاد، على القيان، والتقوا في الصباح بفريق بيك المهاجم وهم عائدون مشبطين من المفرق . فقد فشل الهجوم على المفرق إذ إنه لم ينقذ أبداً لأن بيك التقى بجماعة

من البدو كان الأتراك قد استأجروهم للدفاع عن الخط الحديدى . وعلى حين كان بمقدرة مسئول سياسى جذب أولئك البدو إلى صفوفهم ، ، فقد أهمل لورانس إلحاق مثل هذا الضابط بالمجموعة . ولما كان بيك وسكوت - هيجنز يخشون قتال العرب ، لذا فقد عادوا على أعقابهم . ولدى وصول لورانس فى الصباح من الأزرق فى عربته الرولنزرويس «بلوميست» التى كان يقودها إس . سى ، رولز ، ثار غضبه لعدم إنجاز المهمة وقرر أن يأخذ إحدى العربات المدرعة وينجزها بنفسه بدلاً من إرسال بيك ليعيد الكرة .

ترك لورانس القوة الرئيسية عند أم تايه يوم ١٥ سبتمبر ، وكانت قرية رومانية مهجورة بها خزان مياه كبير وأصبحت فيما بعد نقطة للانطلاق إلى العملية ، وانطلق مع جويس وونترتون باتجاه السكك الحديدية عند مفرق مع مقطورتين وعربتين مدرعتين . وسارعوا عبر سهل حورانى ، وبعد الظهيرة ، أبصروا هدفهم ، وكان جسراً له أربعة أقواس قرب حصن عند الكيلو ١٤٩ . وترك المقطورتين مع جويس وراء تل صخرى ، وسارت عربة وينترتون بجسارة إلى الحصن وأطلقت سيلاً من رصاصات مدافع فيكرز الثقيلة . وكان ثمة عدد قليل من الرجال يحرسون المكان فى خندق . ولدهشة الطاقم البريطانى ، قفز هؤلاء من خنادقهم وتقدموا على مرأى من الجميع نحو العربة . وعلق رولز على هذا قائلاً : « ... ونظراً لعدم معرفتهم إن كان يُتوقع منهم الهروب أم الاستسلام ، فقد خرجوا من خنادقهم للاستعلام عما عليهم أن يفعلوه » . واستنتج لورانس فيما بعد أن « ظهور العربة بتلك السرعة جعل الأتراك يعتقدون أنها لقوات صديقة » . وقامت مدافع وينترتون بحصدهم دون هوادة بسيل من القذائف ، على حين اقترب لورانس من الجسر فى العربة الأخرى التى قصفت مدفعيتها حراسه الأربعة بالمتفجرات فقتل اثنان واستسلم الآخرون . واستولى لورانس على بنادقهم وأرسلها إلى جويس على التل . وفى نفس اللحظة تقريباً استسلم الحصن لوينترتون ؛ واستغرقت العملية خمس دقائق .

بيد أن السلام لم يدم . فقد شاهد جويس ورولز من على التل دورية تركية من راكبي الإبل تسرع نحوهم . فقاما بقيادة سيارتهما إلى موقع لورانس ومعهم قطن

المفرقعات وساعده في إشعال المتفجرات وهم يهرولون غادين رائحين بين السيارات والجسر. وقاموا بزرع ست شحنات في ثقب البالوعات بين أقواس الجسر وأشعلوها، ثم انسحبوا مسرعين قبل وصول دورية العدو. وفي ثوان حدث انفجار مهول حطم الأقواس الأربعة تحطيماً تاماً. واتجهت العربات إلى قاعدتها وأسرعت ومعها الأسرى على ظهورها. إلا أن سيارة لورانس «البلومبيست» تعطلت وكسر أحد أجزائها. وكان العدو على وشك الوصول إليهم خلال عشر دقائق. وقفز رولز وهو يتحسر على الرولزرويس وحاول تسييرها. وبدأ إطلاق النار وكان رولز يعمل بهمة وقد أغرقه العرق. وتم تسييرها بشبه معجزة بينما كانت الرصاصات تتساقط على الحجارة من حولهم. وأسرع لورانس وجويس بتنظيف المسار وقفزا في العربة وقادها بأقصى سرعة لها باتجاه أم التايه. وهناك وجدوا أن نوري السعيد قد توجه مع القوة الرئيسية إلى تل عرار. ومكثوا تلك الليلة في أم التايه لإكمال إصلاح العربة قدر استطاعتهم. وفي يوم ١٧ خرجوا للحاق ببقية قوة الهجوم وهم واثقون أن الخط الحديدي سيتعطل لمدة أسبوع على الأقل.

وفي الساعة الثامنة صباحاً لحقوا بالطابور الرئيسي في الوقت الذي كان فيه نوري السعيد قد بدأ في نشر النظاميين للهجوم على الحاجز الدفاعي في تل عرار على بعد خمسة أميال شمال درعا، وكان يتولى حراسته عشرون من الأتراك. واندفع فريق من خيالة رواله اندفاعاً رائعة أسفل الخط، ثم ترددوا هناك ظناً منهم أنهم استولوا عليه بسهولة. وسار نوري السعيد ويونج في مقطورة فورده، وكانوا على وشك التمتع بجرعة من الويسكي احتفالاً بالمناسبة، حينما قرقت بندقية آلية تركية من الحصن، واندفع نحوهم ضابط في لباس نومه وهو يزعم ويلوح بسيف أعقف مثل الشبح. ونظر إليه الضابطان مشدوهين، ثم تحققا أن الحامية في القلعة كانت نائمة، فأخرج نوري مسدسه وأطلقه على المهاجم، بينما اندفع يونج، الذي كان أعزل، ليأتي بالمدفعية الفرنسية. وسرعان ما أطلق جنود بيسانى من حملة مدافع نابليون نيرانهم وأسكتوا المدافعين عن الحصن بسيل من المتفجرات. ثم تقدمت خيالة رواله، مع دعم من النظاميين إلى الداخل واستولوا على الحصن. وتسلق نوري ولورانس وجويس قمة التل لإلقاء نظرة على مدينة درعا ومحطة مزريب وغزالة إلى الشمال والغرب منها. وكانت الخطوة التالية هي زرع ٦٠٠



شحنة متفجرات على الخط الحديدى والتي قدر لها لورانس أنها ستدمر ٤ أميال من الخطوط تماماً وتعطل المرور خارج المدينة لمدة أسبوع. وبعد الإفطار بدأ اللغامون المصريون ورجال البنادق الجزائريون فى تثبيت الألغام على المسارات. وأثناء انتشارهم، تفحص لورانس مطار درعا بمنظاره المعظم وأقلقه أن رأى تسع طائرات على الأقل تخرجها فرقة ألمانية من حظائرها. ولم يكن لدى رجال لورانس غطاء جوى. وكانت طائرة ميرفى من طراز بريستول قد ثقت أثناء اصطدامها مع الطائرة الألمانية فى أم الجمل وعادت إلى الأزرق لإصلاحها. وراقب لورانس رجال بيك وهم يعملون على الخط وتعجب ما إن كان بإمكانهم زرع عبواتهم الستمائة قبل وصول الطائرات. وفجأة انفجرت أول زنبقة محدثة ضوضاء كالرعد، وذيلاً كثاً من الدخان الأسود. وفى نفس الوقت تقريباً حلقت طائرة استكشاف من طراز فالز فوق التل، فاندفع لورانس ونورى يبحثان عن غطاء ما. وبعد لحظات، خرجت طائرتان قاذفتان من طراز الألباتروس وأربع طائرات استكشافية هابershات من درعا، ثم حامتا وانقضتا وهما تقصفانهم بنيران المدفعية الآلية، وتسقطان حمولات من المتفجرات الأمر الذى أدى إلى تصاعد أعمدة من كسارات الحجارة على شكل حرف V عبر السهل. وحدثت جلبة بين صفوف العرب، وكتب رولز عن هذا «تناثرنا فى كل الأنحاء، وزحفت سريعاً تحت مقطورتى... وتساقطت القنابل مرسلة أعمدة من الدخان والأثرية». وبسرعة يائسة، مَوَّض نورى رجال مدفعيته من طراز الهوتشكيس فى فتحات على سفح الجبل، وسرعان ما ارتسمت أشكال من الذخائر الخطاطة عبر السماء، وأجبرت الطائرات على الارتفاع خارج مدى القصف. ووجه بيسانى بنادقه إلى أعلى وأرسل قذائفه، دون جدوى، باتجاه الطائرات التى والت ارتفاعها. وعلى الخط الحديدى، استمر اللغامون المصريون يزرعون شحناتهم بمنهجية النمل. وفى هذه اللحظة، حلقت المقاتلة بريستول الثانية بقيادة الملازم جونور بتحد وسط الطائرات الألمانية وتركت طائرات الألباتروس والهابرشات قصفها وهجومها وتعقبت البريستول. ومنح هذا العرب مهلة مؤقتة. وفى الحال، نظم لورانس فرقة لتخرج وتقطع فرع فلسطين من الخط الحديدى عند مزريب لإكمال عزل درعا. وبعد نصف ساعة فقط، وبينما كان هو وحرسه يتأرجحون على الأسرج، عادت طائرة البريستول التى يقودها جونور

متعشرة بينما كانت الطائرات الألمانية تنز حولها مثل سرب النحل . وعرف لورانس ويونج أن وقودها كاد ينفد . وصرخ يونج في الرجال آمراً إياهم بتمهيد شريط من الأرض لهبوطها . وبينما وقف الآخرون يرقبونها عاجزين ، فقدت ارتفاعها سريعاً وارتدت إلى المدرجة المؤقتة واصطدمت بكتلة صخرية واستقرت بعنف على ظهرها . وقفز جونور من كابينة القيادة المخطمة ، واختطف معه بندقيته اللويس ، والفيكرز وبعض الأسلحة الأتوماتيكية ذات الذخيرة الخطاطة ثم هرع إلى العربة التي كان يونج قد أتى بها لالتقاطه . وبعد ثانية حلقت إحدى طائرات الهابرشات على ارتفاع منخفض وأصابته البريستول المخطمة مباشرة بقذيفة فانفجرت مشتعلة .

وعلى الفور ، امتطى لورانس ناقته باتجاه مزريب ومعه نوري السعيد ورجاله ، وخلف وراءه مائة نظامي فقط من القرخة وروالة ، والعربات المدرعة في تل عرار . وكان يأمل أن تبدو قافلته كقوة من البدو ، إلا أن الطائرات الألمانية ظهرت مرة أخرى ، وحلقت ببطء رائع ، وأسقطت أربع قنابل باتجاه الإبل المهرولة . ولم تصب الثلاث الأولى أى هدف ، إلا أن الرابعة انفجرت وسط الإبل تماماً محدثة قرقرة تصم الآذن ، وأسقطت اثنين من حرس لورانس وضربت مطياتهما بعنف . ونهض الاثنان واندفعا إلى أسرج رفاقهما ، وسرعان ما ظهرت طائرة أخرى وأسقطت شحنة من القنابل تسبب انفجارها في أن تدور ناقة لورانس حول نفسها وكادت تقذف به من على السرج . ثم شعر بإحساس حارق في مرفقيه لدرجة أنه بكى من الألم . وللحظة رهيبة ساوره الاعتقاد أنه فقد إحدى ذراعيه ، إلا أنه حينما أزاح ثنية عباءته وجد أن قطعة من شظية قد أصابته ولم تتسبب في ضرر حقيقي نظراً لصغر حجمها .

وفي غضون نصف ساعة كان نظاميو نوري وفرقة أسلحتهم الآلية قد استولوا على المحطة الأولى من محطتي مزريب . وتسلق لورانس ونوري إلى السطح ليقطعا خطوط البرق وكانا يفعلان هذا « ببطء واحتفاء لتتخلص من غضبنا » ، كما كتب لورانس ، ثم ركزا اهتمامهما على الخط الحديدي على حين كان رجال نوري يتولون أمر المحطة الثانية . وبدأ يونج في زرع الزنابق على طول المسارات في اتجاه الشرق ،

على حين فجر لورانس نقاط المحطة نفسها . وكتب يونج « كنت قد زرعت اثنتى عشرة زنبقة حينما دفعنى شىء ما إلى النظر بطول الخط إلى درعا . وتوقف قلبى إذ رأيت قطاراً يزحف ببطء خارج المدينة باتجاه مزريب » وكانت أول فكرة خطرت ليونج هى تحذير لورانس ومن ثم هرول إلى المحطة وهو يصيح « قطار قادم » فسأله لورانس « طائرة ؟ » . فصاح يونج « ليست طائرة أيها الغبى ، بل قطار » .

وبهدوء ، أجابه لورانس أن الوقت قد حان لإشعال المتفجرات ، وقفز يونج راجعاً باتجاه القطار القادم ، وبحث عن فتيل دون جدوى . فأشعل سيجارة وألهب بها الصمام الكهربائى ( الفيوز ) وقفز على ناقته ليهرب وقد نسى أنها مصابة فى أرجلها ، وتعثرت الناقة فى مشيتها ، وكاد يونج يسقط ، ثم قفز من سرجه وهرول بسرعة محمومة . وأرسلت الزنابق دخاناً ، وقرقعت الواحدة بعد الأخرى . وفى الحال ، غير القطار اتجاهه ، وسار فى الطريق العكسى راجعاً إلى درعا . وعند غروب الشمس ، وبعد أن نهب العرب المحطة بالكامل ، أشعل لورانس ويونج النيران فى قاطرات السكك الحديدية وعرباتها .

ثم استراحوا قليلاً فى مزريب حيث لحق بهم آلاف من فلاحى حوران . وأثناء الليل ، سار لورانس ويونج بضع مئات من الياردات من جسر تل الأشهب ، الذى كان قد فشل فى الاستيلاء عليه مع الشريف على فى وقت مبكر من العام . وبدا وكأن ثمة تعويذة تحمى الجسر ، حيث إنهم وجدوا أن هناك بطارية مدفعية ألمانية تدافع عنه . ومرة أخرى ، أجبر لورانس على الانسحاب . وكان قد تم تدمير السكك الحديدية جنوب وشرق وشمال درعا ، وعزل الحاميات التركية . ونجحت المهمة ، ولم يتبق سوى اللحاق بالآخرين .

ولحقوا بمجموعة نورى ، عند رمثة فى الصباح . وبدأوا ينسحبون إلى أم مطية كى يلحقوا بجويس والعربات المدرعة . واتضح أن مسيرة العودة كانت مرهقة للأعصاب ، فقد كان الألمان خلفهم ، وكان ثمة احتمال أن يجدوا دعماً من عمان على الخطوط الحديدية أمامهم . كما أن فلاحى الرمثة أظهروا عداً لهم . هذا ، إلى جانب توقع هجوم جوى فى أية لحظة . وسار لورانس مع حرسه قدماً ليلغم الخط الحديدى على مقربة من نزيب ، والذى كان يقع فى طريق انسحابهم . ووضع نورى

شحنة كاملة من المتفجرات فى المخطط بهدف إشغال الأتراك عن العرب أثناء عبورهم القضبان، وأيضاً من أجل إبعاد الحراس عن الجسر كى تتاح الفرصة للورانس لزرع شحنة مقدارها ٨٠٠ رطل من المتفجرات. وبعد الظلام، زحفت الفرقة بأكملها عبر الخط دون أن يراها أحد. وأشعل لورانس الشحنة تحت غطاء من صخب مدافع بيسانى بعد أن تم نقل المدفعية بأمان. وكتب يوج يصف المشهد «حدث هدير هائل وتوهج أضواء المكان لأميال. وشاهدت على هذا الضوء قوس كتف الجسر يقتلع تماماً ومعه كتلة البناء بأكملها التى انزلت ببطء أسفل الوادى». ثم عسكروا على بعد ميل من مسار القطارات واستيقظوا مع انبلاج الضوء وقد صدمهم صوت قنبلة انفجرت عن قرب. وكان الأتراك قد أحضروا مدفع ميدان محمل على عربة سكك حديدية وضبطوا مداه بواسطة طائراتهم الاستكشافية. ومن ثم، امتطى العرب إبلهم وهروا مسرعين خارج مدى القصف. ثم التقوا فى وقت متأخر من اليوم مع جويس عند أم تايه، وعاد لورانس بالسيارة يوم ١٩ سبتمبر. ثم طار فى اليوم التالى إلى فلسطين ليتلقى التعليمات ويتابع تقدم ألنبي.

وفى صباح ٢٢ سبتمبر، وبينما كان يوج وكير كبرايد يقلون المقائق للإفطار فى أم شراب إلى الجنوب من أم تايه، ظهر لورانس ومعه ثلاث طائرات. ثم تبعته فى عصر هذا اليوم قاذفة قنابل من طراز هاندلى بيج التى أنزلت ذخيرة للقوات، ورفعت معنويات العرب عندما شاهدوا ضخامتها. وكانت الأخبار التى وصلت من فلسطين مشيرة؛ فقد سقطت نابلس وحيفا وأفولة وبيسان وشمخ. وتم أسر ٢٢٠٠٠ من القوات التركية، وصدرت الأوامر إلى الجيش التركى الرابع فى عمان بأن يرتد إلى درعا ودمشق. وكان الأتراك يتراجعون هاربين، وكان على قوات لورانس الإغارة لإعاقتهم وقطع خط التراجع عليهم. وكان الأتراك يعدون بعشرات الألوف ومزودين بالمدفعية والبنادق الآلية، وفى حالة يأس. وبالمقارنة، كانت القوة العربية مجرد برغوث. وعن هذه المناسبة كتب وينترتون قائلاً: «لاحظت بفخر، وبدون أى خوف.. أن لورانس كان قد عقد العزم على إقلاق الأتراك المنسحبين مثلما اعتادت كلاب الحراسة من نوع الدرواس إقلاق الدب داخل الحلقة، دون اهتمام بالنتائج المحتملة». وكان الأتراك قد تمكنوا من إصلاح الخط

الحديدى بسرعة مذهلة ، وكان لورانس يتوقع أن يتعطل لمدة أسبوع . وكان على لورانس أن يواصل الضغط على الخط ، وأن يعمل على إثارة فلاحى شمال حوران أخيراً . وكان من المخطط له أن تلحق بقوته ثلاثة آلاف من قوة إبل نورى الشعلان والرواليين الذين كانوا ينتظرون فى أجراف الأزرق . وفى اليوم التالى توجه نورى السعيد ونظاميوه ومعهم يونج وستيرلنج ووينترتون فى العربات المدرعة ، وقافلة نورى الشعلان على رأس الرواليين . وضربوا الخط الحديدى عند الكيلو ١٤٩ حيث كان لورانس وجويس قد حطموا الجسر من قبل . فقاموا بتدمير ثلثى ميل من القضبان وأحرقوا السقالات التى كانت قد استعملت فى إصلاح الجسر . وكانت هذه هى الضربة الأخيرة لمجهودات الأتراك فى السكك الحديدية ، فكفروا بعدها عن المحاولة . وبدأت حامية عمان فى الانسحاب إلى درعا سيراً على الأقدام ومعها كل مدفعيتها ووسائل النقل . إلا أن لورانس لم يكن على علم بهذا التطور . وفى يوم ٢٤ سبتمبر ، توجه هو ووينترتون وضابط عربى يدعى جميل فى عربة مدرعة لتدمير جسر آخر جنوب مرفق . وكان وينترتون قد تردد فى اللحاق بالمهمة إذ اعتقد أنها غير ضرورية ، وأن لورانس قد أصبح يحارب من أجل الحرب . وأتوا جسراً وحصناً صغيراً ، وتقدم لورانس فى سيارة لفحص الهدف حينما بدأت بندقية آلية ومدفع ميدان من زنة ٧ أرطال فى إطلاق النيران عليهم من الحصن . وكان قائد العربة الحربية حريصاً على عدم تحدى المدفعية . وبثقة ، اقترح لورانس على وينترتون أن يحمل كل منهما بندقية لويس ويزحفوا إلى الحصن ويمطراه بسيل من القذائف على حين تقوم العربات المدرعة بقصفه من الأمام . واعتقد وينترتون أن لورانس قد جن جنونه وسأله « كيف لنا أن ندخل مدى القصف دون أن نقتل ؟ .. » إنهم سيبصروننا ويحولوننا إلى لهيب مشتعل .. هل هناك من سمع أبداً عن الاستيلاء على حصن ببندقية لويس ؟ » وسأله لورانس إن كان سيادته قد أصبح جباناً ؟ فأجابه وينترتون « بالتأكيد لا ، لكن كل ما أستطيع قوله هو أنه إذا نجح هذا الاقتراح وقدر لنا أن نعيش فسنكون جديرين أن نمنح وسام V.C ( صليب فيكتوريا ) . » وأتاح هذا للورانس برهة للتفكير ، ورأى أن يعود إلى الخطة الأصلية التى تقضى بأن يتم قصف الحصن من العربات المدرعة بهدف إتاحة وصول عربة إلى أسفل الكوبرى وزرع المتفجرات فى حمايتها . وتدحرجوا إلى الأمام تحت وابل

من النيران الثقيلة، وكانت الطلقات تقع على دروعهم والقنابل تنفجر من حولهم حينما ظهر جندي تركي خلف سيارة لورانس وقذفها بقنبلة يدوية. وكان لورانس يعلم أن العربة غير محصنة ضد القذائف اليدوية وأن اشتعال قطن القنابل الموجود في مؤخرتها سيؤدي إلى تقطيعهم إرباً. وفجأة أخبر سائق وينترتون سيده أن عربة لورانس كانت تسير في الاتجاه المعاكس خارج نطاق العمليات. وسأله «ما أوامرك أيها السيد؟» وأجابه وينترتون «ابتعد إلى خارج نطاق القصف بأكثر سرعة ممكنة».

وفيما بعد قال وينترتون إنه بينما كانوا في طريق عودتهم إلى المعسكر المؤقت حاول مطاردة بعض الغزلان، إلا أن لورانس توقف ليوبخه غاضباً. واستطرد قائلاً «لقد كان انفعاله لدرجة انفجار غضبه، النادر الحدوث، لاصطياد غزالة، أحد تصرفاته النمطية».

ولدى عودته إلى أم شراب وجدوا الشريف ناصر على وشك التحرك إلى أم طبي، وسمعوا للمرة الأولى أن الجيش الرابع التركي كان يتدفق خارجاً من عمان. واقترح لورانس ترك الأتراك الهاربين للبدو المحليين ليقتضوا عليهم، وأن يتحركوا هم إلى الشيخ سعد شمال درعا ويحاولوا فرض جلاء فوري عن درعا إلى هناك. وتمت الموافقة على الفكرة، ومن ثم تقرر إرسال الطائرة والعربات المدرعة مرة أخرى إلى الأزرق لتنتظر التحرك الأخير للهجوم على دمشق. وتحرك طابور القوات عصر يوم ٢٥ سبتمبر، إلا أنهم ماكادوا يقطعون حوالى أربعة أميال أبصروا سحباً غباراً في الأفق. فقد كان ثمة عشرة آلاف جندي ينسحبون باتجاه درعا في حماية مفرزة طوارئ من الفرسان تحيط بهم من الجانبين. وقامت إحدى الطائرات بإسقاط رسالة على القافلة مؤداها أن الخيالة الأتراك كانوا يقتربون منهم. ولم تكن هذه هي اللحظة المناسبة. فقد كانت بنادق بيسانى مفككة على البغال. وقرر لورانس وناصر ونورى أن يجنبوا النظاميين وأن تتقدم خيالة رواله بقيادة نورى الشعلان ليواجهوا نيران الأتراك. وفجأة ظهرت قافلة العربات المدرعة التي كانت قد شاهدت العدو وقطعت السهل عائدة تتبعها ستائر الغبار واستعدت للأشتباك مع الأتراك. إلا أنه اتضح أن هؤلاء الأتراك كانوا مجموعة من الشاردين وكانوا

يبحثون عن أحد أقصر الطرق . وهكذا ساروا مباشرة وسط صفوف غير النظاميين من العرب الذين أسروا منهم ما يربو على المائة .

وعسكرت القوات هذا المساء فى نويمة ، وذهب يونج ، الذى كان منصبه الرسمى هو «المستشار العسكرى» للحملة ، إلى خيمة لورانس فى منتصف الليل وقال إن العرب قد أدوا دورهم وأن عليهم الرجوع الآن إلى بصرة فى جبال الدروز حيث كان الدروز مجتمعين تحت قيادة نسيب البكرى . وأن بإمكانهم الانتظار هناك حتى يستولى البريطانيون على دمشق . ورفض لورانس الإنصات إلى هذا إذ اعتقد أنه من الضرورى أن يرى الناس أن العرب هم من استولوا على دمشق . ومع انبلاج ضوء اليوم التالى عبروا الخط الحديدى قرب غزالة وقام لورانس بزرع لغم فى أقرب جسر ، بينما أسرع عودة ورجاله من الحويطات للاستيلاء على المحطة عند خربة الغزالة ، وهناك قام بأسر مائتى تركى واستولى على بندقيتى جبل . وهجم طلال مع رجاله الحورانيين الضواري على عزرا - التى ادعى لورانس أن الخائن عبد القادر كان يدافع عنها - وطردها حاميتها الصغيرة واستولوا على مستودع حبوبها . وأسرع الروالة على إبلهم فى الطريق الرئيسى باتجاه درعا وهم يبحثون عن الأتراك الشاردين وعادوا بأربعمائة أسير وعدد من البنادق الآلية . وفى فجر ٢٧ سبتمبر كان طابور القوات قد استقر لتوه بين بساتين الزيتون فى منطقة الشيخ سعد حينما أسقطت عليهم طائرة من السلاح الملكى الجوى رسالة تقول إن رأس حربة أللبنى - أى فرقة الفرسان العاشرة التى تسبق كتيبة الجنرال بارو الهندية - كانت بالفعل فى رمثة بعد أربعة عشر ميلاً من مؤخرة الأتراك الهاربين . وكان طابوران كبيران من الأتراك المتراجعين ؛ ٦٠٠٠ من درعا وألفان من مزريب - يقربان المنطقة .

وكانت هذه هى الفرصة المرتقبة . وقرر لورانس وناصر ونورى أن يتركوا الطابور الأكثر عدداً يمر ليتولى أمره رجال خيالة الروالة ورجال حوران ، على حين يهجم النظاميون على مجموعة مزريب الأقل عدداً ويقضون عليها . وكانت المجموعة التركية فى طريقها إلى طفس . وكان طلال ، وهو شيخ من القرية ، يحاول يائساً أن يستبق العدو إلى هناك ليمنعهم من دخولها . وطبقاً لتقرير عربى ، سارع طلال مع رجاله من الحورانيين وهاجم الأعداء بعنف ، إلا أنه قتل بقنبلة تركية

يدوية . وإذا كان هذا التقرير صحيحاً يكون طلال قد مات قبل وصول الشريف ناصر وعودة اللذين تبعهما سريعاً نوري السعيد والنظاميون ، مع بيسانى وفريق مدفعيته . وكتب قائلاً : إنه لدى وصولهم طفس ، كان العدو هناك بالفعل ، وكانت ثمة طلقات متفرقة من الداخل تنذر بالشؤم ، وحجب من الدخان الأزرق تتصاعد من المنازل . وسرعان ما بدأ الأتراك يسيرون بانتظام ، يتقدمهم ويتبعهم حملة الرماح ، ثم طوابير المشاة وعلى جناحيها فرق البنادق الآلية ، وفي الوسط ، المركبات ، بما فيها سيارة جمال باشا . ولدى ظهور الطابور بين المنازل ، زمجرت بنادق بيسانى ، واندفعت منها الذخائر وفوجئ العدو بهذا . وطبقاً لرواية لورانس ، فقد تسلل هو وطلال مع فرقة البدو ، وقابلهم منظر يبعث على الغثيان ، إذ كان قائد الحرس الخلفى التركى قد أمر بذبح أهل القرية ، فقام رجاله بطعن وإطلاق الرصاص على عشرين طفلاً صغيراً وأربعين امرأة . وأثناء سير لورانس وجماعته رأوا طفلة ضئيلة الحجم ( فى حوالى الرابعة ) تحاول الهرب . فقفز عبد العزيز ، أحد أفراد حرس لورانس ، عن ناقته واحتضنها . وكانت قد أصيبت فى رقبتها ولوث ثوبها الدماء . فحاولت الفكاك منه وهى تصيح « لا تضربنى يابابا » ، ثم سقطت ولفظت أنفاسها . وسار موكبهم فى أنحاء المكان الذى شوه فيه الأتراك جثث نساء القرية ، ولحقوا بالأتراك الجرحى الذين طلبوا الرحمة . إلا أنهم أطلقوا عليهم النيران من مسافات قريبة . ووقف لورانس ينظر صامتاً بينما كان أحمد الزاعاقى ، أحد حراسه يطلق ثلاث رصاصات فى صدر رجل عاجز . وكتب لورانس أنهم حينما اقتربوا من طابور الأتراك ، صاح طلال صيحة رهيبة ولكز جواده ومضى بأقصى سرعة وهو يتأرجح على السرج وسط طابور الأتراك المنسحبين . وتحرك لورانس ليلحق به ، إلا أن عودة منعه ، فقد كان هذا موعد طلال الخاص مع الموت . وطبقاً للورانس ، هجم الرجل مباشرة على فوهة بندقية آلية وهوى صيحة صيحة الحرب « طلال ، طلال » إلى أن احترقت الرصاصات جسده وسقط عن سرجه بين رماح الأتراك . وكان لورانس وعودة يرقبان الحادث المروع عن بعد ، وفى النهاية علق عودة قائلاً « سوف يدفعون الثمن » .

وكان وجود حاجز من المدفعيين قد تسبب فى إحداث صدمة للأتراك جعلهم يتفرقون مذعورين . وتجمع جزء منهم مكون فى غالبية من رجال المدفعية الآلية



الألمان والنمساويين والتصفقوا حول ثلاث سيارات وقاتلوا كالشياطين مبرهنيين بذلك على أنهم أقوى من أن يتعامل معهم العرب الذين تركوهم ليذهبوا لحال سبيلهم. إلا أنهم احتجزوا المجموعتين الأخيرتين وقطعوهم إرباً حيث إن لورانس قد أصدر أمره قائلاً «لا أسرى». وأخذ العرب يهاجمونهم المرة تلو الأخرى كشياطين الانتقام وقطعوهم إرباً رجلاً رجلاً. وعن هذا كتب لورانس «وتحت ضغط جنوننا الذى ولده رعب طفس أخذنا نقتل ونقتل، حتى إننا كنا نطلق النار على رءوس من قُتلوا، وحتى على رءوس الحيوانات، كما لو أن موتهم ودمهم السائل كان سيطفىء لوعتنا». وتجمع آلاف من قرويين حوران على جوانب الطابور التركى مثل حيوانات القمامة والتقطوا بنادق العدو أثناء تساقط أفرادهم صرعى ولحقوا بالعرب الآخرين فى عملية القتل. وبحلول المغرب كانت مئات من الجثث المغطاة بالدماء قد تناثرت فى أنحاء طفس. وطبقاً للورانس، كانت ثمة مجموعة من العرب لم تسمع بالأمر الذى أصدره عن عدم أخذ أسرى، فقبضوا على مائتين وخمسين رجلاً بينهم عدد من الألمان والنمساويين. وبينما كان لورانس يركب فى المدينة أراه الآخرون أعرابياً يدعى حسن كان الأتراك قد ثبتوه فى الأرض بحراب ألمانية وهو جريح إلى أن مات. وبما أن لورانس لم يكن يريد أحياء من الأعداء، كان هذا هو العذر الذى يتلمسه. وكما أخبر أخاه آرنى، فقد أمر فريقاً عربياً بإطلاق المدافع على الأسرى وقتلهم جميعاً، وأنه قد شعر أنه بفعله هذا أنه لا ينتقم فقط لأجيال طفس، بل لأجيال لا تحصى من العرب سحقهم طغيان الأتراك البغيض.

وقد روج فيلم دافيد لين «لورانس العرب» لصورة لورانس السادى المتعطش للدماء الذى أطلق التعذيب الذى تعرض له فى درعا قسوته الكامنة، ويصور الفيلم لورانس وهو تتساقط منه الدماء بعد معركة طفس. فما حقيقة هذه الصورة؟ فالقراءة المتأنية «لأعمدة الحكمة» تبين تسلط هاجس القسوة عليه. وقد أخذ البعض هذا على أنه يبين طبيعة لورانس السادية. فقد وصف كيف أسر رجاله صبياً من الرعاة، فى هجومه الأول على السكك الحديدية قرب أبو النعام، وتركوه موثقاً وهددوه بالقتل وأخذوا يذبحون عنزاته. هناك أيضاً وصف لمشاهد جلد كان «فرج وداعود» يعانى منها باستمرار عقاباً على ألعيبهما وهذرهما، هذا بالإضافة إلى أنهما كانا يجبران على الجلوس على الصخور الملتهبة ويسلسلون بالحديد

لأسابيع . كما ذكر أيضاً في «أعمدة الحكمة» أنه قد تم التهجيم على شاب شركسي أعزل وربطه إلى ناقة وسحله عارياً وشق قدميه بعرض الكعبين بالمشروط ، وكان هذا تهجماً مقززاً لا جدوى منه . كما سجل لورانس حادثاً شاذاً آخر حينما انتزع أشواكاً من شجرة سقط وغرسها في جسد رجل عقاباً على جريمة غير مفهومة . أما العقوبات الأكثر سادية فلم يسجلها الرحالة العرب العظام كما هو معتاد بينهم ، وتبدو غريبة على الثقافة العربية . وكتب ويلفرد تسايجر أن البدو كانوا يحرصون على كرامة الإنسان لدرجة جعلتهم يفضلون قتله على إهانته . وقد تكون بعض هذه التقارير تخيلية ، أى أنها كانت تعبيراً عن المازوكية لا عنت فتازيا سادية . لقد كان اهتمام لورانس الدائم بآلامه الشخصية ومعاناته يوضح أنه لم يكن يتوحد مع مرتكبي هذه العقوبات المتخيلة ، بل مع الضحايا . وعلى حين أنه يمكن ملاحظة ميله إلى المازوكية بوضوح طوال حياته فليس ثمة أطوار سادية يمكن ملاحظتها . فقد كان لورانس بطبيعته لطيفاً رقيق الأحاسيس ومتعاطفاً مع الآخرين . وإثباتاً لهذا ، كتب صديقه فيثيان ريتشاردز «يقولون إن شكل فمه يوحى بالقسوة... فهل ثمة أثر لهذا في طبيعته؟ إننى لم أجد أى أثر للقسوة إبان السنوات الثلاثين التى عرفتة خلالها... إن الحرب التى خاضها توضح فقط حساً شديداً بالعدالة ، على حين كان الصبر والرحمة سيؤديان إلى شر أعظم» . كما كتب إليك كيركبرايد الذى كان مع لورانس فى نهاية الحرب السورية «من الهراء التام أن نصفه بأنه كان سادياً أو مغرمًا بالقتل . . لقد أخبرنى مرة أن مثاله لشن الحرب كان مستمبداً من جماعات المرتزقة فى إيطاليا فى العصور الوسطى ، أى الوصول إلى الهدف بأقل الخسائر من الجانبين» .

وفيما يخص ما حدث فى طفس ، يأتى لورانس بادعائين فى «أعمدة الحكمة» لكل منهما علاقة بالآخر : أولاً أنه أصدر للعرب أمراً بأنه لا يريد أسرى ، والثانى هو أن النظاميين العرب قتلوا أعداداً كبيرة بموافقتة ، إلا أنه لم يذكر تحديداً أنه أصدر الأمر بقتل الأسرى . فقد ظهر هذا الادعاء فقط بعد الحرب فى حديث مع شقيقه آرنى . وخلافاً لغالبية الأحداث فى حياة لورانس ، فقد كان هناك شهود على معركة طفس . فقد كتب فريد بيك إلى آرنى لورانس أن أخاه قد حاول بالفعل وقف قتل الأتراك . وكان فريد قد وصل إلى طفس عقب وصول لورانس بوقت قصير

ورأى البشاعات بنفسه . وأضاف بيك أن العرب حينذاك كانوا قد فقدوا المقدرة على التحكم بأنفسهم ، لذا طلب منه لورانس لدى وصوله مع فرقة هيجانة إعادة النظام . وأنزل بيك مائة من المقاتلين من على نوقهم وسيّره فى طفس وحرابهم مسددة . حينذاك ، استسلم العرب وأوقفوا أعمال قتل الجرحى ، وتبعوا الطابور المنسحب على إبلهم وقتلوا من كانوا قد ضلوا الطريق ، إلا أنهم انسحبوا سريعاً حينما رأوا الأتراك عازمين على القتال . ومن المحتمل أن لورانس لا يورد ذكراً لهذا إذ إن أفراداً من حرسه الخاص كانوا ضمن هؤلاء العرب الضواري ، وكان قد ادعى أنه كان يتحكم فى حرسه كما لو كانوا تحت تأثير تنويم مغناطيسى . أما بخصوص تعليماته بعدم أخذ أسرى ، فقد تذكر بيك أن لورانس قد أمره شخصياً أن يضمن سلامة الأسرى الأتراك وفى هذا دليل على عدم صدور مثل هذا الأمر . بالإضافة إلى هذا فهناك اختلاف فى روايتى لورانس عن المذبحة . فنجد أنه ذكر فى رسالته الرسمية ما يلى «لقد أمرنا ألا يكون هناك أسرى» . وفى «أعمدة الحكمة» يصبح ضمير المتكلم الجمع ضميراً مفرداً . فلدى وصول لورانس إلى طفس كان هناك ضباط عديدون أعلى رتبة منه . فكان هناك الشريف ناصر على رأس النظاميين ، ونورى السعيد ، وكان مسئولاً عن القوات المدربة بالإضافة إلى عودة أبوطيى . وطبقاً لقول لورانس نفسه ، فقد تولى هو المرحلة الأخيرة فقط من الهجوم . فهل من المعقول ، مع أخذ هذا فى الاعتبار ، أن يأمر لورانس ، القوة العربية بأكملها ألا تأخذ أسرى ، الذى عرف عنه ادعاؤه أنه كان يعمل من خلال القيادات العربية ولا يظهر فى المقدمة ، وقد اتفق كل من بيك ، وجون ماك ، مؤرخ لورانس ، أن كلمة «نحن» القيادية ، لاتعبر عن أمر شخصى ، بل عن تولٍ للمسئولية . كما سمع يونج ، الذى لم يكن حاضراً فى طفس ، من ضابط عربى يدعى على جودت ، أن لورانس كان يحاول باستماتة منع قتل الأسرى بعد المعركة لكن دون جدوى . وكتب بيك «إننى على ثقة من أن لورانس قد فعل ما باستطاعته لوقف المذبحة . لكنه لم يكن باستطاعته فعل أى شئ لأن أية مجموعة غوغائية تفقد السيطرة العاقلة على نفسها ، يصبح التحكم فيها غير ممكن» . إلا أنه طبقاً لنورى السعيد ، فقد ظل كثيراً من الأتراك الذين وقعوا فى أيدي عربية على قيد الحياة . لماذا إذاً يدعى لورانس أنه ارتكب عملاً يعرف أنه ضد التقاليد العسكرية ، إضافة إلى كونه مداناً أخلاقياً ؟

خاصة وقد عرف عنه شدة تعاطفه مع الآخرين . وكان قد أبقى ، قبل أسابيع فقط ، على حياة جندي تركي أعزل وجده على الخط الحديدي . كما أنه كتب إلى إدوارد ليدز يقول إن « قتل وقتل » الأتراك يجعله يشعر بالغشيان . ويستدعي هذا الحادث أصداء قصة قتله المزعوم لحامد المراكشي الذي استهل به وصوله إلى منطقة الحرب في الصحراء . فمن ناحية تصور هذه الأفعال المعلنة لورانس كرجل قوى لا يرحم ، يغضب للحق . ومن الناحية الأخرى يوضح سرد هذه القصص عبئاً من الشعور بالذنب يجد في عرضه على الملأ مصدراً للذة . وقد أوحى آرنى لورانس إلى جون ماك أنه يشك شخصياً في مصداقية ادعاء لورانس ، كما اعتقد أن لورانس كان يمتلكه الرعب من إسالة الدماء . وفسر ذكره لهذه الأحداث بقوله : « ... ولهذا السبب يميل لورانس للإفازة عن مشاعر المعاناة في أجزاء من « أعمدة الحكمة » ويصف مشاهد الموت والجراح . . وإننى أتصور أنه كان شخصياً يهوى العذاب . وفي الواقع ، ثمة نوع من المنطق في القول إن لورانس المازوكى كان يحب أن يستغرق في خطايا الشخصية وأيضاً في معاناة العالم ، مثلاً ؛ نفاق البريطانيين الذى حمل عبئه على كتفيه ؛ بالإضافة إلى قلب وقسوة وبربرية العرب . فكما رأينا ، تهيم موتيفة مثل المسيح على قصة لورانس ، خاصة فيما وقع له فى درعا من خيانة وتعذيب وإذلال ، وما تلى هذا من « بعث » له . وكان لورانس على وعى تام بهذا الخط المسيانى « الخلص » : فكما مات المسيح من أجل خطايا العالم ، فقد يكون ولع لورانس بالتضحية قد فرض عليه أن يتحمل مسئولية أفعال وحشية لم يكن له يد فيها .

وعند الغروب ، وصل جنود خيالة طراد الشعلان إلى درعا وقاموا بأسر جنود الصفوف الخلفية للأتراك . ووصل لورانس مع انبلاج ضوء النهار . ولم يكن ثمة وقت للتوانى ، إذ إن مفرزة الطوارئ من الفرسان البريطانيين كانوا على مرأى من العين ، ونظراً لأنهم لم يكونوا على علم بسقوط المدينة ، فقد بدأوا بإشراك قوات عربية للاستيلاء عليها . فقد كان ألبنى قد أمر الجنرال بارو قائد « رأس الحربة » من الجنود البريطانيين ، بالاستيلاء على درعا . ومن ثم كان بارو يعتزم شن هجوم شامل . ولم يكن ليحول دون وقوع كارثة سوى الفعل السريع . وهكذا ، توجه لورانس وحرسه على مطاياهم ، مسرعين ليلتقوا ببارو فى الصفوف الأمامية .

وكانت المهمة تحفها المخاطر نظراً لارتدائه زياً عربياً. ولم يكن باستطاعة جنود فريق الفرسان البريطانى التمييز بين البدو الهاشميين، وبين غير النظاميين من العرب الذين يعملون فى صفوف الأتراك. وفى حديث له إلى صحيفة تصدر فى تورنتو، ادعى جورج ستيلس، الذى كان يقود فرقة من حرس ميدل سكس، أنه كان على وشك إصدار الأوامر بإطلاق الرصاص على لورانس؛ وقال: «... كان يوماً قاتلاً، وكان الانفعال يملكنا جميعاً، حينما وصل عشرة أعراب على نوقهم من خلف الكشبان الرملية.. وساروا باتجاهنا مباشرة. ولاعتقادنا أنهم أعداء، صوبنا الأسلحة على قائدهم. وحينما كنا على وشك إطلاق النيران، توقف الأعراب، وخرج من بين الثياب العربية صوت ذو لكنة أكسفوردية وقال «أنا لورانس، أين بارو؟» وكان يتصرف وكأنما على العالم أجمع أن يعرف من هو. لقد كان شديد الغرور، وعنيداً بشكل رهيب... ولا أخفى عليكم أننى صدمت حينما علمت أننى كنت على وشك الأمر بإطلاق الرصاص عليه... لقد كان شخصاً نحيلاً صغير الحجم، فى مثل حجمى، يبلغ طوله ٥,٥ قدماً... إلا أن لورانس لم يذكر سوى أن موقعاً لجنود الأسلحة الآلية البريطانيين ألقى القبض عليه، وأنه بينما كان محتجزاً، كان يراقب الطائرات البريطانية وهى تقصف نظامى نورى على طريق درعا، بعد أن ظنوا أنهم أترك. ومن ثم، صارت مهمته حثيثة. وفى النهاية، تمكن من الحديث مع ضابط بريطانى أرشده إلى الجنرال بارو. ثم وجد أن الجنرال كان على غير استعداد للتفاوض؛ فلم يعطه ألبى أية تعليمات بشأن وضع العرب. ولم يتدخل كليتون لاعتقاده أن ليس للهاشميين حق باستثناء ما يستطيعون الإبقاء عليه. ولبرهة تعلقت كل جهود العرب - ومعاناة لورانس - بخيط رفيع. وعن هذا كتب لورانس: «... وأعملت فكرى بأقصى سرعة.. كى أوقف الخطوات الأولى القاضية.. التى قد يخلق بها بريطانى يعوزه الخيال.. موقفاً يستدعى معه سنوات من الاضطراب... (قبل أن يتمكن أحد من) إصلاحه». وأعلن بارو عن عزمه لوضع حرس من أجل التحكم فى المدينة. فرد عليه لورانس بأن المدينة كانت بالفعل تحت سيطرة العرب. وقال الجنرال إنه سيكلف لغامين بفحص الآبار. فأجابه لورانس أن من حقهم أن يفعلوا هذا، إلا أن العرب كانوا بالفعل قد أعملوا آلات ضخ المياه. وكان أن أجاب بارو بأن العرب يتصرفون

وكأنهم يملكون المكان وأضاف أنه سيتولى أمر محطة السكك الحديدية. إلا أن لورانس أخبره أن العرب قد قاموا بتسييرها وطلب منه، بتهذيب، ألا يتدخل الجنود البريطانيون ومرة أخرى أتت بلاغة لورانس لإنقاذ الهاشميين. فقد كان ما قاله مقنعاً لدرجة أن بارو تقبل سيطرة العرب على المدينة لدى دخوله إليها، بل إنه أيضاً وجه إليهم مجاملة سارة بأن قام بتحية العلم الهاشمي وهو يرفرف على مقر الحكم الذي كان قد دُمر.

ومكث البريطانيون بدرعا ليلة واحدة، ثم ساروا في التاسع والعشرين إلى دمشق، وفي معيتهم العرب بقيادة ناصر على جناحهم الأيمن وانتظر لورانس فيصل الذي وصل في سيارته الفوكس هول من الأزرق وكان يتبعه عن قرب فرانك ستيرلنج والعربات المدرعة. إلا أنه لم يتمكن تلك الليلة من النوم. وعند الفجر، تسلق إلى عربته «البلوميست» مع فرانك ستيرلنج وتوجهها إلى دمشق وهم يقودانها على مسار الخط الحديدي الفرنسي الذي لم يكن صالحاً للاستعمال. ولحقا ببارو وهو يتولى سقيا خيله من مجرى مائي، واستعار لورانس ناقه وذهب إليه، ولم يكن الجنرال يعلم أن لورانس قد قطع معظم المسافة بالسيارة، لذا أصابته الدهشة حينما أخبره أنه قد غادر درعا في الصباح وسأل لورانس «وأين قضيت ليلتك» فأجابه «في دمشق» ومضى.

وسرعان ما لحق هو وستيرلنج وهما يركبان «البلوميست» بفرسان الهاشميين بقيادة ناصر، وبالرواليين بقيادة نوري الشعلان. ولم يكن الرواليون قد أوقفوا غاراتهم المتكررة عن الطابور التركي الأكثر عدداً، وأدى استنزافهم له إلى تقليصه إلى نصف قوته الأصلية. أما عودة فكان على مسافة بعيدة في الريف يجمع بدواً محليين لعمل كمائن. وطلب منهم لورانس تعطيل الأتراك لمدة ساعة. وتخبر ناصر مزرعة على تل بعيد موضع عليه الرواليين بقيادة نوري لإبطاء حركة العدو، على حين عاد لورانس وستيرلنج بالسيارة إلى الصفوف البريطانية لدفع فرق حرس ميدل سكس ومدفعية الخيالة للهجوم على صفوف الأتراك الخلفية. ولما وجد الأتراك العرب أمامهم والبريطانيين خلفهم، تفرقت صفوفهم، وخلفوا وراءهم بنادقهم ومركباتهم، وهربوا في مجموعات مشتتة إلى التلال حيث كانت «ضباع»

عودة فى انتظارهم. وكتب لورانس عن اشتباك عودة ورجاله مع فلول الأتراك «وفى ليلة معركة الشيخ المسن الأخيرة، قتل وقتل، ونهب وأسر، إلى أن أنهى العملية انبلاج ضوء النهار. وهكذا انتهى الجيش الرابع الذى ظل حجر عثرة فى طريقنا لمدة عامين».

ونام لورانس وستيرلنج فى الرولنزرويس على تل يطل على دمشق. كانت الليلة باردة بدون رياح. وعن تلك الليلة قال ستيرلنج إنه رأى توهجات باتجاه التلال حيث كان رجال عودة يقومون بتقطيع أشلاء الأتراك. وكانت دمشق هدفهم الأخير، يلفها الظلام أسفل التل. وأيقظهم صوت سلسلة من الانفجارات من داخل المدينة فى ساعات الصباح المبكرة. وصاح لورانس «يا إلهى، إنهم يحرقون المدينة». وفيما بعد اكتشفوا أن القوات الألمانية قد دمرت مخازن الأسلحة قبل انسحابها. وأبلغ ستيرلنج أنه كان قد أرسل بالفعل آلافاً من الخيالة الرواليين لتسبق القوات البريطانية فى الدخول إلى المدينة وتبحث عن على رضا الركابى حاكم المدينة الذى كان لورانس قد قابله فى رحلته الخطرة إلى دمشق قبل أكثر من عام. وحمل الرواليون معهم تعليمات من الشريف ناصر أن يقوم على رضا أو مساعدته شكرى الأيوبى فوراً بتشكيل حكومة باسم الهاشميين. إلا أن العمل كان قد تم؛ فرغم أن على رضا كان قد غادر دمشق، فقد ساند الأخوان عبد القادر ومحمد السعيد، أعداء لورانس القدامى، شكرى الأيوبى، ورفع حرسهما من الجزائريين علم الهاشميين على سراى الحكم قبل مغادرة آخر جندى تركى المدينة.

وفى صباح ٣٠ أكتوبر نجح لورانس وستيرلنج فى الهرب من بعض المتطرفين من الرماحين البنغال الذين كانوا قد أمسكوا بهما، ودخلا دمشق فى البلوميسست فور شروق الشمس، ليرحب بهما رجل كان يسرع على جواده وقال «أخبار سارة، دمشق تحييكم». وطبقاً لما قاله لورانس، كانت الشوارع على طول نهر بردى مزدحمة برجال ينشدون الأناشيد، وعلى حين كانت النساء يقذفن بالأزهار ويرششن العطور، كان الرجال يقذفون بأغطية رؤوسهم فى الهواء وهم يصيحون «فيصل، ناصر، شكرى، أرنس» وجاء فى وصف ستيرلنج للمشهد «كان الدراويش يرقصون أمام العرب، وتملك جنون الإثارة التى تسببت فيه ضوضاء وصياح أهل المدينة من البدو الضواري فأخذوا يعبرون عن فرحهم الهستيرى».

وبينما كنا نقود سيارتنا فى شوارع المدينة ذات المساكن الناتئة، كانت النساء يطلن من النوافذ وهن يصحن ويضحكن ويبكين من الفرحة والانفعال». بيد أن لورانس تذكر مشهداً جـد مختلف فى خطاب لاحق أرسله إلى ستيرلنج «إن ذكرياتى عن دخول دمشق هى هدوء الشوارع وفراغها. كنت أبكى مثل الرضيع مع شعورى بالامتنان وأنا إلى جانبك فى العربة. ويبدو لى أن جنون الترحيب قد حدث فيما بعد». وتذكر ستيرلنج أيضاً أن لورانس لم يكن سعيداً: «كان تفكيره معقداً جداً، لدرجة أنه لم يسمح لنفسه بالرضا عن إنجاز تم بنجاح.. كانت تشوب لحظة انتصاره مرارة معرفته أن الحكومة لن تفى بوعودها للعرب». ووصلوا إلى مجلس المدينة الذى كان مزدحماً بالجماهير. وشق لورانس طريقه بينهم بصعوبة ليجد عودة أبو طيى يتصارع بشراسة مع سلطان الأطرش قائد الدروز. وتكاتف لورانس وزعل ومحمد الضحيلان على جذبه جانباً ومنعه من قتل الرجل أمام أعينهم. ولم يكن ناصر، الأعلى مرتبة بين الهاشميين، موجوداً، وعلم لورانس بوجوده مع عبد القادر وشقيقه. ومن ثم، استقل سيارته للبحث عنهم، إلا أنه رأى الجنرال شوفيل يدخل المدينة على رأس القوات العربية. وأفهمه لورانس أن العرب قد أمسكوا بزمام المدينة، وحشه، دون جدوى، أن يحذو حذو بارو فى درعا ويحيى العلم الهاشمى كدليل على حسن النية. ثم عاد لورانس إلى مجلس المدينة واستدعى عبد القادر وأخاه اللذين دخلا عليه مع حرسهما. وكان لورانس قد جمع رجال نوري الشعلان حوله، أما نظاميو نوري السعيد فكانوا قد تجمعوا فى الميدان بالخارج. وأخبر الجزائريين أن ممثل فيصل سيلغى الحكومة التى شكلانها فى اليوم السابق، وأنه قد عين شكرى الأيوبى حاكماً عسكرياً بالنيابة، ونوري السعيد قائداً للقوات. وقفز عبد القادر من مكانه، وسحب رمحه معتزماً قتل لورانس، ولعن إياه كرجل إنجليزى مسيحي. إلا أن عودة ألقى بثقله عليه فى لمح البصر واستخلص الرمح من قبضته. وأعلن نوري الشعلان بهدوء مساندة الرواليين للورانس. وأثناء مغادرة الجزائريين المكان وهما فى قمة الغضب، اقترح أحدهم أن يصحبا إلى الخارج وتطلق النيران عليهما، وكان لورانس يميل إلى الموافقة على هذا رأى، إلا أنه امتنع. وفى اليوم التالى بدأ الاثنان يدبران المكائد ويشيران القلاقل مرة أخرى، واكتسبا بعضاً من الدعم من الدروز الذين لم يحاربوا فى صفوف الثورة



ومن ثم، رفض لورانس مكافأتهما. وتملكت لورانس الرغبة في قتلتهما رمياً بالرصاص، فأرسل فريقاً من النظاميين للقبض عليهما، حيث أمسكوا بسعيد، وتم قتله وهرب عبد القادر. وقام لورانس بطرد الدروز، ونصب نفسه حاكماً فعلياً لحين وصول حاكم المدينة.

وكان هناك الكثير مما يتحتم عمله؛ فكان عليه تعيين الشرطة، والاهتمام بإمدادات المياه وإعادة الطاقة الكهربائية وتقرير ما يتخذ من إجراءات صحية عامة وإطعام الجائعين. وفي الواقع، فقد أرسى لورانس، خلال أيام قليلة، نظاماً فاعلاً ظل سارياً مدة العامين التاليين. وطلب منه طبيب استرالى العناية بأمر المعسكرات التركية التي كانت قد تحولت إلى مستشفى مؤقت ليس فيه ممرض واحد. وكانت مكدسة بالموتى ومن هم على وشك الموت. وتحقق لورانس أنه قد نسى أمره وذهب ليتفقد وراعه ما شاهده. فقد كانت الأرض مغطاة بعشرات الجثث المنتفخة التي كانت تترقد في برك من الدماء النتنة والغائط. وكان الكثير منها لأفراد قد ماتوا حديثاً والغالبية قد قرضتها الفئران. ولدى سماعه أنيناً، رفع لورانس رداءه وسار وسط الجثث ليجد جناحاً مليئاً برجال على شفا الموت طلبوا منه الرحمة. وفي الليل، استيقظ فجأة من نومه وهو يرتعد ويعرق من مشهد الجثث. وعاد في اليوم التالي ليجد أن الأمور قد تحسنت قليلاً. فقد تم تنظيف وتطهير غرفة لإيواء الحالات الخطيرة، كما كان هناك بعض المرضى. وفجأة، واجهه ميجور بريطاني من الفريق الطبي وسأله عما إن كان مسئولاً عن المستشفى فأجابه لورانس «نعم، أعتقد أنني مسئول بشكل ما» فرد عليه الميجور «إن ما تقوله فاضح ومخزي ومثير للغضب، ومن الواجب إطلاق النار عليك».

وضحك لورانس وسأل الضابط عما كان من الممكن أن يعتقد إن هو كان حاضراً في مشهد اليوم السابق. وتمتم الميجور «أيها الوغد الدموي»، وصفع لورانس على وجهه وسار بعيداً. وبدأ للورانس أن هذه الكلمات: «الوغد الدموي» ما هي إلا تعبير عن كل مشاعر الخوف والبغض والنفاق التي تحملها لمدة عامين. وكتب: «شعرت في قرارة نفسي أنه كان على حق. وأن كل من يعمل على إلحاق تمرد للضعفاء ضد أسيادهم لابد وأن يلوث في تقدير الآخرين، بدرجة لا يستطيع شيء فيما بعد أن يعيده نقياً أو نظيفاً».

وعاد لورانس إلى فندق فيكتوريا ليجد أن اللبى قد وصل . وتبعه فيصل الذى كان قد دخل المدينة وهو يعدو بفروسه وسط ترحيب عاصف . وكان لقاء الشريف والجنرال فى الفندق هو أول لقاء لهما . ووقف لورانس مترجماً لهما ، أى أنه كان يقوم بنفس الدور الذى خلقه لنفسه وتخيله طوال الأشهر الثمانية عشر الماضية . وأوضح اللبى لفيصل أنه سيكون له حكم سوريا فيما عدا فلسطين ولبنان ، لكنه فقط سيعمل تحت إرشاد الفرنسيين . وأخبره أن لورانس سيستمر فى عمله كضابط اتصال ، وأنه سيعين له ضابط اتصال فرنسياً عن قرب . واعترض فيصل بأسلوب غير مؤكد ؛ أنه لن يقبل ضابط اتصال فرنسياً ولن يقبل إرشاداً فرنسياً وأنه لا يعترف بسلطة فرنسية على لبنان . وأخبره أيضاً أن ضابط اتصاله ، أى لورانس ، كان قد أبلغه أن العرب سيحصلون على سوريا كاملة باستثناء فلسطين ، واستعلم اللبى من لورانس ، وقد أصابته الدهشة ، إن لم يكن قد ذكر للشريف مطالب الفرنسيين فى لبنان . وأبلغه لورانس ، كذباً ، أنه لم يفعل هذا . واختتم اللبى قوله بأن فيصل قائد عسكري يعمل تحت إمرته وأن عليه إطاعة أوامره ، على الأقل فى الوقت الحاضر .

ورحل فيصل فجأة كما ظهر ، إلا أنه لم يكن فى حالة مزاجية احتفالية . وحالما ذهب ، أخبر لورانس رئيسه أنه لا يستطيع العمل مع ضابط اتصال فرنسى وطلب إذناً بالعودة إلى إنجلترا . فقد كانت الحرب قد انتهت وكان باستطاعته العمل لصالح العرب خلف الكواليس فى بلده . وكان شديد الإنهاك ، وكرجال عديدين ، حاربوا وتمنوا نهاية الحرب ، وجد فى هذه النهاية هبوطاً فجائياً anti climax . فقد نسيت المعاناة التى تحملها لأكثر من عامين ، وأنها كانت قد حفظت كأسطورة مقدسة . وأصبح عقله خاوياً . لقد دخل جيش عربى إلى دمشق وتم الانتقام ، بعد خمسة قرون ، لغزو سليم الرهيب لها (السلطان سليم الأول) . واعتقد لورانس أنه لولا الطموحات الأوربية لتمكن العرب من الاستمرار حتى يستولوا على الأناضول وبغداد واليمن ، ولأنشأوا إمبراطورية عربية جديدة فى الشرق . بيد أن الطمع الأوربى قد أوقف الحركة فى أجمل ساعاتها . وتحطم وهم لورانس ، وكتب «لقد أطفئت أحلامى كشموع فى مهب رياح النجاح القوية» .

## الباب الثالث

الساحر

١٩١٨-١٩٣٥

ما زال «الكولونيل لورانس» مستمراً

رغم أنى قد تنجيت جانباً

مؤتمر الصلح ومكتب المستعمرات

١٩٢٢-١٩١٨

وصل لورانس إلى إنجلترا ضابطاً

برتبة كولونيل، وقد منح وسامى

D.S.O (ضابط خدم بامتياز) و (C.B) أى

Companion of the Bath كانت معه أيضاً

توصية شخصية من أَلنبي بمنحه مرتبة

الفروسية. وبعد وصوله بأيام قلائل

فقط دعى إلى قصر باكنجهام

لتقليده الرتبة بشكل شخصى من قبل

الملك جورج الخامس.

إلا أن لورانس أربك كل الحاضرين بأن رفض، بأسلوب مهذب، الرتبة والأوسمة، وأخبر جلالته بأن الحكومة البريطانية توشك أن تثبط همة العرب باتفاق سايكس-بيكو. وأنه قد وعد فيصل أنه سيدعمه مهما حدث، وأنه قد يضطر إلى محاربة الفرنسيين، حلفاء بريطانيا، في سوريا في سبيل دعم قضية الهاشميين، ومن الغريب، أن الرجل الذي رفض أن يصبح فارساً بريطانياً أبلغ الملك أنه أمير عربي، رغم أنه لم يسجل في أى مكان أنه قد منح هذا اللقب. وعلى حين أن لورانس رفض الأوسمة البريطانية فقد قبل وسام (Croix de Guerr) أو «صليب الحرب» من الفرنسيين الذين كان قد أبلغ جورج الخامس أنه يعتبرهم أعداءه. وتوحي تلك التناقضات بوجود مستوى أكثر قتامة لأفعال لورانس. فبعد كل شيء، لم تكن الفروسية أو الأوسمة الإنجليزية لتساوى شيئاً بين من حاربوا في الحملة العربية (إلا أن الوسام الفرنسي كان أكثر جاذبية وغرابة). كما أخبر لورانس يوجن (الذي منح الفروسية فيما بعد) في عام ١٩١٨ إن «بإمكان الفرد الحصول على

كثير من المجد والتكريم دون أية صعوبة». ومثله مثل السيدة التى ترتدى ثياباً عادية فى الأوبرا على حين ترتدى الأخريات ثياب السهرة، غدا لورانس متميزاً تلقائياً، ليس لأنه قد تم تكريمه، بل برفضه ذلك التكريم علناً،. ويلاحظ ليدل هارت، الذى كان معجباً بلورانس «أن انتقاص لورانس من قدر نفسه برفضه تمييزه مثلاً، كان نوعاً من الغرور فقد كان فطناً لدرجة أنه رأى سخف التهليل لشخص ما، ثم وجد نفسه يهوى هذا التهليل، واحتقر نفسه فيما بعد لأنه أحبه» ذلك أن رفض بطل الحرب الأكثر شهرة للأوسمة والتكريم، الذى كانت الصحافة تدعوه عام ١٩١٩ «أكثر بريطاني على قيد الحياة إثارة للاهتمام، قد قلل بالطبع من قيمة تلك الأوسمة وذلك التكريم. فما لا يدعو للدهشة إذا أن تغضب تلك السخرية العلنية كثيراً من الرجال، الذين حاربوا أربع سنوات شاقة، وخبر معظمهم ظروفًا أبشع من تلك التى خبرها لورانس، ونجوا من مخاطر مروعة، وقد يكون بعضهم قد أتى بانتصارات شخصية شجاعة، وشعروا، عن حق، أنهم جديرون بالاعتراف بهم. إلا

أن التزام لورانس تجاه الهاشميين كان أيضا حقيقيا جدا . فقد صمم على الدفاع عن الوعود التي قطعها على نفسه لفیصل أثناء الحرب ، وعلى أن ينقذ حسه الشخصی بالشرف ، وفي غضون أيام من عودته أخذ یطر مكتب الحرب وموظفی الخارجية بآرائه . وفي يوم ٢٩ أكتوبر - اليوم الذي قابل فيه الملك - ذهب لمقابلة اللجنة الشرقية بمجلس وزراء الحرب . وبدأ اللورد كيرزون ، وزیر الخارجية بالنيابة ، هذا الاجتماع بكلمة ثناء على إنجازات لورانس ، إلا أن لورانس رد على الكلمة بفظاظة فقال : «دعونا نتناول القضية مباشرة . إنكم أيها القوم لا تفهمون أى مأزق وضعتمونا جميعاً فيه» . فانفجر كيرزون ، الذي كان سهل الاستثارة ، فى البكاء . ولم یقبل لورانس مساومة على آرائه التى لم یكن ضمنها إنشاء دولة عربية موحدة . ففي عام ١٩١٦ طلب حسين من مكماهون العراق . ومن ثم ، كان یتحتم تقسيم هذه المنطقة قسمین بحيث یحكم الشریف زید بغداد ، ویحكم عبد الله البصرة . وكان یتعين أن یحكم فیصل سوريا بأكملها باستثناء لبنان التى یحكمها الحلفاء . وقال إن العرب سیتقبلون الهجرة اليهودية إلى فلسطين التى نص عليها وعد بلفور عام ١٩١٧ إلا أنهم سیقاومون إنشاء دولة يهودية هناك . كما یتحتم على سلطة بريطانية واحدة مقرها مصر الإشراف على الدول العربية الوليدة ، الأمر الذى سیتسبب معه تدخل حكومة الهند البريطانية . وكان لورانس یعلم أن اتفاقية سايكس - بيكو تغل أیدی بريطانيا . فطبقاً لهذه الاتفاقية خصصت الموصل للفرنسیین بینما أوكل حكم فلسطين إلى سلطة دولية . فإن عارضت بريطانيا تطلعات فرنسا فى كل من فلسطين والعراق التى كانت تشتتها مجالاً لنفوذها ، فستجد أنه من الصعوبة بمكان أن تعارض مطالب الفرنسيین فى سوريا أيضاً .

وفى ١١ نوفمبر عام ١٩١٨ تم توقيع الهدنة ، وعقد مؤتمر الصلح فى وزارة الخارجية الفرنسية فى باريس فى يناير من العام التالى . وهناك ، جذب لورانس الانتباه إليه بارتدائه غطاء الرأس العربى اللافت للأنظار ، وبطلاقة حديثه بالعربية ، وبإخلاصه الواضح لفیصل . وقام ، بصفته مترجماً لفیصل ، بعرض مقترحات فیصل على المؤتمر فى ٦ فبراير . وكان الفرنسيون ، منذ البداية ، مصممین على عدم تقديم تنازلات بشأن سوريا ، وطالبوا أن تحكم مناطق سوريا الساحلية والداخلية سلطة واحدة . وساندت الصحافة الفرنسية هذه المقترحات . بحملة قوية . وكان



لدى لورانس وفيصل ورقتان قويتان : أولاً ، مساندة الرئيس الأمريكى وودرو ويلسون الذى اقترح إجراءات تقرير المصير فى سوريا ، وثانياً ، اتخاذ المؤتمر قراراً بشأن جيش الجنرال ألبنى الذى كان مايزال منتشراً فى البلاد بالفعل بعد رفض رئيس الوزراء البريطانى سحبه . إلا أنه لم يتم التوصل إلى مثل هذا القرار أبداً . وتمسك الرئيس ويلسون باعتقاده فى إجراء استقصاء عن إرادة الشعب . وفى شهر يونيو ، وصلت لجنة كينج - كرين إلى فلسطين ، وسبر أعضاء اللجنة أغوار الموقف وأجروا استطلاعات واسعة . وفى أغسطس وضعوا تقريرهم أمام ويلسون فى واشنطن مساندين نظاماً مؤقتاً للانتداب ، واقترحوا الولايات المتحدة سلطة للانتداب فى سوريا ، وبريطانيا فى العراق ، واستبعدوا الفرنسيين كلية على أساس أن الانتداب الفرنسى فى سوريا سيؤدى إلى حرب مع العرب . واقترح أعضاء اللجنة أيضاً نبذ فكرة إنشاء كومونولث يهودى فى فلسطين الذى اعتقدوا أنه لن يقوم دون الالتجاء إلى القوة . وكان تقرير كينج - كرين وثيقة « تنبئية بشكل ملفت ، لكن ، وكما كان متوقفاً تجاهلها البريطانيون والفرنسيون » . وحينما تم الإعلان عنها ، كان ويلسون مريضاً ، وقرر الحلفاء ، بعد غياب أى ضغط من ويلسون ، أن يصلوا ببساطة إلى تسوية بأنفسهم . وفى سبتمبر أخبر لويد جورج ، كليمنصو رئيس الوزراء الفرنسى ، أنه سيسحب القوات البريطانية من سوريا ومن جزيرة صقلية فى أول نوفمبر ، وسيتم إحلال قوات فرنسية محل الحاميات البريطانية فى صقلية - غرب الخط الذى حددته سايكس - بيكو . أما القوات داخل سوريا فستحل محلها قوات عربية . إلا أن تقرير الإبقاء على القوات البريطانية فى فلسطين والعراق . وفى البداية ، اعتبر لورانس هذا نصراً وكتب رسالة شخصية إلى لويد جورج يشكر إياه على القرار « ... لقد أبقيت على وعودنا .. وأنى لا أشعر براحة كبيرة إذ أنهى ارتباطى بالمسألة بأيد نظيفة » . وعاد إلى إنجلترا يوم أول سبتمبر ، وترك الخدمة العسكرية دون إجراءات رسمية مثلما حدث لدى التحاقه بها .

بيد أن شعور لورانس بالامتنان كان سابقاً لأوانه . فحتى إن كان لم يدرك هو أن انسحاب بريطانيا من سوريا كان سيتركها مفتوحة أمام العدوان الفرنسى ، فإن فيصل أدرك هذا . ومن ثم ، وصل الشريف إلى لندن واشتكى بمرارة أن العرب كانوا

حينذاك تحت رحمة الفرنسيين الموجودين في لبنان. إلا أن مجلس الوزراء البريطاني أخبره أنه عليه التفاوض مع الفرنسيين بمفرده، مما كان يعنى التخلص من العرب. وكان لورانس، الذى جعلته محاولاته فى مؤتمر الصلح شخصاً غير متقبل من الفرنسيين، أصبح فى وضع لا يمكنه معه مساعدة صديقه، لذا فقد شعر باكتئاب شديد. وكان على فيصل أن يواجه العواقب البائسة، وأن يحاول أن يصل إلى تفاهم مشروط مع كليمنصو. إلا أن القوميين اتهموه بالخيانة لدى عودته إلى سوريا فى يناير عام ١٩٢٠؛ واضطر إلى التخلي عن الاتفاق. وفى مارس عام ١٩٢٠ نادى به الكونجرس ملكاً على سوريا المستقلة، والتى كانت تشمل نظرياً لبنان وشمال العراق وفلسطين. وأغضب هذا الفرنسيين الذين كانوا بالفعل يسيطرون على لبنان، والبريطانيين الذين كانوا يسعون إلى السيطرة على العراق وفلسطين، وبعد شهر واحد، قرر مؤتمر الحلفاء فى سان ريمو أن يكون لبريطانيا حق الانتداب على العراق وفلسطين، بينما تكون فرنسا هى سلطة الانتداب على سوريا الكبرى. ورأى العرب أخيراً أنهم كانوا ضحية الأذى والغش من بريطانيا وفرنسا، ومن تلك اللحظة، فقدوا ثقتهم فى القوى الأوروبية. وكانت النتيجة الحتمية أن استخدم الفرنسيون ذريعة الهجوم على شخصيات وأملاك فرنسية، ودخلت قواتهم سوريا فى يوليو عام ١٩٢٠، وضربوا قوة عربية قوامها ألفان من النظاميين وغير النظاميين كانوا على استعداد للدفاع عن دمشق، وأرسلوا فيصل إلى المنفى. وأيضاً، تم قمع القوميين بنفس العنف الذى اتبعه الأتراك معهم، وكُتِّمت الصحافة. وفرضت اللغة الفرنسية فى المحاكم والمدارس بدلاً من اللغة العربية وفى النهاية، تحقق ما كان لورانس وفيصل يخشيانه بشدة أثناء القتال.

ولم يف لورانس أبداً بتهديده لمحاربة الفرنسيين. فبحلول عام ١٩١٩ كانت قد حدثت تطورات فى حياته. فأولاً: فقد رغب أن ينشر تجربته فى كتاب، وكان قد بدأ فى كتابة مسودة «أعمدة الحكمة» أثناء مؤتمر الصلح. وكتب الفصول الأولى معتمداً كلياً على الذاكرة؛ إلا أنه فى مايو، طار إلى القاهرة فى إحدى قاذفات القنابل من طراز هاندلى بيج كانت متوجهة إلى هناك لقمع حركات العصيان ضد البريطانيين. وكان هدفه من الزيارة إحضار ملفات المكتب العربى. وحدث أن هبطت الطائرة فى طريقها هبوطاً سيئاً فى كونشيللو بإيطاليا، وقتل الطيار،

وأصيب مساعده إصابات خطيرة؛ أما لورانس، فقد كسرت عظمة ترقوته، إلا أنه أتم رحلته بعد أيام قلائل، وواصل العمل في الكتاب وهو على متن الطائرة. وفي سبتمبر، عاد إلى بريطانيا حيث أدت شهرته المتزايدة كشخصية إعلامية إلى فوزه بزمالة بحثية في كلية أول سولز بأكسفورد، وهي نفس المؤسسة التي لم تقبل ترشيحه للمنحة ذاتها عام ١٩١٠ كطالب دراسات عليا غير معروف. وكانت المنحة قدرها مائتا جنيه استرليني في العام مما ساعد على إتمام الكتاب. إلا أن مسودة الكتاب سُرقَت منه في محطة ريديج أثناء تغييره القطار واضطر للبدء من جديد. ثم انتقل إلى لندن عام ١٩٢٠ وبدأ العمل في النص في شقة في شارع بارتون استعارها من صديقه السير هنري بيكر حيث أنهى كتابه فيما يقرب من ٤٠٠,٠٠٠ كلمة في ثلاثة أشهر خلال جلسات ماراثونية. ولم يكن هذا جهداً فوق بشري كما يبدو، لأن النص الجديد كان منقولاً حرفياً من رسائله أثناء الحرب، ومن تقاريره في «النشرة العربية» التي كانت بحوزته في لندن، وكان يقوم بمراجعتها وفقاً لتواريخ مذكراته. لذا، فلا يمكن إرجاع الاختلافات بين التقارير الرسمية وما جاء في «أعمدة الحكمة» إلى أخطاء الذاكرة. ولأن لورانس، على أية حال، كان يتمتع بذاكرة حادة؛ فقد أخبر كلير سيدني سميث ذات مرة أن بمقدوره أن يتذكر كل ما قرأه في أي كتاب، كما أنه لم يحدث أن نسي أي تاريخ. وكانت وثائق لورانس مكتوبة كتابة جيدة بشكل غير عادي، إلا أنه أدرك أن مجرد سردها كسلسلة يقوم بربط إحداها بالأخرى لم يكن ليصنع منها كتاباً. على الأقل، فلن ينتج هذا العمل الفني الذي كان يشق إلى إبداعه. إذ إنه في هذه الحالة لن يكون للكتاب شخصية، أو بنية درامية مستقلة، أو ذروة عاطفية ذات طبيعة شخصية. إذ يتحتم أن يكون للقصة بطل مميز يرى وهو يتخطى العوائق الهائلة ويتطور روحانياً نتيجة لتفاعله مع تجاربه. كان لورانس يعتزم أن تكون هذه رائعته: كلمته التي يعرف بها نفسه للعالم. فمن المؤكد أنه قام بأعمال بطولية؛ أنقذ حياة جاسم. واقتحم أراضي يحتلها العدو اقتحاماً متهوراً وهو يمتطي دابته لمسافة ٥٦٠ ميل بمفرده. كما أنه ابتدع استراتيجيات المعية لحرب العصابات، وخاض عشرات المعارك ضد الأتراك. ورغم أن هذه كانت أحداثاً بطولية مشيرة للإعجاب، فلم تكن كافية لتضفي على الكتاب البعد الدرامي الذي يطلبه

لورانس. وحلاً لهذه المشكلة قام باختراع سلسلة من الأحداث الشخصية التي تُحمى وطيس القصة. ولم يكن لأى منها علاقة بالرسائل والمذكرات التي لم تذكرها أصلاً. فمثلاً، كتب أن المكتب العربى لم يرسله إلى بلاد العرب فى مهمة مخبرانية، بل إنه ذهب إلى هناك بدافع ذاتى لأنه حدس أن الثورة العربية تعوزها القيادة التى لن يستطيع أحد القيام بها سواه. وأنه تبنى أساليب الحياة العربية كما لو أنه قد ولد عربياً وكأنه كان يحقق نبوءة مسيانية Messianic. (أى أنه يقوم بدور المخلص وفقاً للرؤية التوراتية). وذكر أنه قد شاهد فى رحلته الأولى لبلاد العرب لعبة تمثيلية أداها شريفان عربيان كانت تجسد القسوة والكراهية المتأصلة بين القبائل: الضغائن التافهة التى يمكن تجاوزها فقط بتبنى الشخص لفكرة رومانسية مجردة. كما قال إنه اضطر أثناء عملياته الرئيسية الأولى أن يقتل رجلاً عن عمد، وأنه قام برحلات على الإبل يستحيل على الأفراد العاديين القيام بها. وأنه، كالمسيح عيسى، قد خانته أصدقاؤه، وتم تعذيبه وإذلاله بشكل بشع، ثم بعث ثانية ليكمل نضاله إلى أن أثمر. ثم فقد آدميته لدرجة أنه أمر بمذبحة لأسرى لا حول لهم ولا قوة. إلى جانب هذه الفروق الدقيقة وغيرها، فقد دفع تضخيم تفاصيل أحداث واقعية بشكل معتنى به، بسرد مادة كانت قد تتبلور وتصبح مجرد مذكرات مكتوبة جيداً، إلى مستوى عوالم مالورى وهوميروس، عوالم مليئة بأحداث أكبر من أحداث العالم البشرى، وشخصيات تفوق شخصيات الواقع الإنسانى فنجد مثلاً: الأمير فيصل النبيل، وعودة المحارب المقدام، وعبد القادر الخائن الحقيقى، والفرسان الأبطال من أمثال الشريف على والشريف شاكرو وزعل أبوطيى وطلال الحرايضى، وهناك أيضاً الشريف عبد الله الحامل، ونسيب البكرى الحقيقى، والمهرجان فرج وداعود، وأيضاً يقدم لنا ألبنى رمز الأبوة، والعسكريين البريطانيين البواسل، رغم ما بهم من ضيق أفق وجمود من أمثال يونج وجويس وداونى ونيوكومب وجارلاند (وجه إليهم لورانس الهمز واللمز المستتر تحت غطاء صخب المديح). فضلاً عن «المخلوقات» البدوية المؤذية فى مقابل الغيلان من الأتراك. أما لورانس، فتجمعت فى شخصيته، شخصيات أمير مكة، والساحر مرلين والملك آرثر وتوحدوا جميعاً فى شخص واحد مع «فرسان مائدته المستديرة»، أو التسعين محارباً من البدو العتاة القساة الذين أقسموا أن يحموه حتى الموت.

وحول قلم لورانس الطلق الساحر «أعمدة الحكمة» من مجرد سلسلة من الرسائل إلى ملحمة من طراز ملحمة «لورد الخواتم»؛ فكتب إلى جيم إد عام ١٩٢٨ قائلاً: «حاولت جهدى فى كتابى أن أفعل ما لست مؤهلاً له بطبيعتى على الإطلاق؛ أن أنتج عملاً خيالياً إبداعياً».

غير أن النص كان له أيضاً هدف أيديولوجى. فقد كان وقت عمله فى الكتاب، يقوم بحملة صحفية لتأييد الهاشميين. وكان الهدف الثانوى «لأعمدة الحكمة» هو تقديم المديح المتوهج لفيصل وأعرايه بأن يستخدم ألوان بيرن-جونس من المدرسة الماقبل رافيلية لتصوير صراعاتهم البطولية. وقد استاء عرب كثيرون من هذه النظرة. كما كتب المؤرخ العربى جورج أنطونيوس أن المشكلة ليست أن لورانس كان يعوزه الحس أو الذكاء، لكن فكره ببساطة، مثل أى إنسان آخر، كان يخضع لمجموعة من الأسس حددتها ثقافته. فلم يكن بوسعه رؤية العرب سوى من خلال منظور الصور الرومانسية التى تعلمها فى صباه؛ فالعرب النبلاء هم البدو الأشراف، وفلاحو الفرات ذوو الاكتفاء الذاتى أما المدنيون والقرويون الجبناء فكان يعوزهم النبل. ومن المفارقات، من وجهة نظر العديدين، أن كان حاصل مواقف لورانس المؤازرة للبدو والأشراف وبدون قصد منه، هو انتهاج سياسة مضادة للعرب. وأيضاً، فما لم يدركه لورانس، هو أن روح القومية العربية كانت متأججة فى صدور هؤلاء المدينين والقرويين (الجبناء كما دعاهم). فكتب مؤرخ لورانس الرسمى قائلاً إن «أعمدة الحكمة» كثيراً ما يورد ما هو أقل من الحقيقة كاملة، ويخفى الأمور المدمرة سياسياً؛ كما يقلل لورانس من شأن الإسهام الهائل للشخصيات غير العربية فى الثورة العربية... ولا يبرر هذا ادعاؤه أنه كان يكتب فقط عن تجربته فى الحرب».

كان لورانس يعلم أن كتابه فريد، فلم يخبر أحد آخر الثورة العربية كما خبرها هو، كما لم يكن ثمة مشاهد أوربى آخر حتى المرحلة «البطولية» الأولى ليناقض ما يقوله. كان لورانس طوال حياته يمارس الحيل والتمويه، وكان يعلم جيداً أن أفضل طريقة لإثارة الاهتمام بعمله هو إخفاء ما وراء أحداثه لأطول فترة ممكنة عن أكبر عدد من الناس. ورغم أنه كان، فى البداية، قد فكر فى الكسب المالى من وراء

الكتاب إذ إنه كان قد أحيا فكرة القصر العصر أوسطى مع فيثيان ريتشاردز، وأيضاً بدء مشروع المطبعة فى بول هيل بالقرب من تشينجفورد؛ إلا أن النسخة الكاملة من الكتاب لم تنشر حتى بعد وفاته فى عام ١٩٣٥. وكان قد أكمل طبعة محدودة للمشاركين (طبعة أكسفورد) عام ١٩٢٢. إلا أنها لم تنشر حتى عام ١٩٢٦ وكان سعر النسخة منها ٣٠ جنيهًا إسترلينيًا. وكما هو محتمل، فقد يكون لورانس قد أخفى عدد النسخ التى تم طبعتها من الكتاب. وفى نفس العام، ظهرت طبعة مختصرة من الكتاب تحت عنوان «ثورة فى الصحراء» حذف منها معظم المادة الشخصية والخلافية ولقيت نجاحاً جماهيرياً هائلاً، بيد أنه سحبها بسرعة لأنه اعتقد أنه قد كسب مالاً كافياً من ورائها، وجعل من نفسه، طبقاً لما قاله جورج برنارد شو فيما بعد، «حديث المدينة» وأضاف زخماً جديداً للإثارة الجماهيرية.

وكما كتب ونستون تشرشل أن منزلة «أعمدة الحكمة» تعادل منزلة أعظم الكتب الإنجليزية، وسماء ملحمة، وأعجوبة، وحكاية معاناة. وقد لقي الكتاب أيضاً الشناء من شخصيات مرموقة مثل جورج برنارد شو وسيجفرد ساسون وتوماس هاردى وه.ج. ويلز وغيرهم كثيرين. وكتب لورانس إلى فيثيان ريتشاردز فى عام ١٩٢٣ قائلاً إنه يدرك أن «الكتاب جيد» وأضاف أنه «ليس بدرجة الجودة التى يجب أن يكون عليها». فهو ليس بجودة «موبى ديك» أو «الحرب والسلام». وكانت طبعة لورانس التنافسية تدفعه إلى أن يطمح فى أن يتساوى عمله مع أعمال تولستوى ومليفيل وآخرين، وكان نمطياً منه أيضاً أن يشعر أنه لم يرق إلى المستوى الذى يريده. وفى الواقع، فمع مرور الزمن أصبح غير راض عن «أعمدة الحكمة» وكان يدعو «برازى». واقتنع أنه عمل فاشل، وكان يرفض تقبل الشناء عليه، ويتغاضى عن أية استحسانات، على أنها «تلق»، ويفسرها على أنها ثناء على «الأسطورة» التى كان هو قد أصبح إياها. ومن ناحية المقدرة الفنية يعتبر «أعمدة الحكمة» عملاً رائعاً. فهو يمتاز بالبديهة والتحكم غير المألوف فى اللغة إلى حد بعيد. إلا أنه يعانى من العيوب؛ فقد قال لورانس نفسه إن الكتاب تعوزه الوحدة الموضوعية وأنه استطردى أكثر مما يجب، ومشئت وغير متناسق: «فقد أقمحت فيه، مثل بناء فى فنائه، كل نشرات الأفكار التى اعترتنى خلال تلك السنين». وكان لورانس كاتباً وصفيّاً رائعاً، إلا أن طغيان التفاصيل السردية جعل القصة

مبهمة. وقد علق سانت جون فيلبي بقوله «إن الألوان، على لوحة الرسم، لشديدة الكثافة». ومن ثم يصبح ولع لورانس بالتمويه وغبابة الأطوار مضاداً لهدف الكتابة. فالكتابة تهدف إلى إعلام واضح بالأفكار، على حين نجد أن بعض أفكاره معتمة. بيد أن العيب الأكبر في كتابه هو غياب التلقائية إذ إن عواطفه تبدو مصطنعة حيث تغيب النشوة والانفعال الحقيقي. فما نجده مجسداً هو ميل ونفور، أما عواطف الحب والكراهة الحقيقية فلا وجود لها. وكثيراً ما سمي لورانس شاعراً، بيد أنه لم ينظم أية قصائد تذكر. ثم أصبح «أديباً» بعد الحرب، إلا أنه لم يكن أبداً كاتباً بالمعنى الذى كانه أصدقائه فورستر وهاردي وساسون وجريفز وشو وآخرون. فلو لم يكن ثمة «لورانس العرب» لظل «أعمدة الحكمة» كتاباً عظيماً، إلا أنه لم يكن أن يصبح له نفس الأثر على العالم. أما كتابه الثانى «دار الصك The Mini» فكان من الأفضل ألا ينشر. وقد راودته هو الشكوك بهذا الشأن؛ فحينما حاول التقدم بمقالات لصحف ومجالات مختلفة تحت اسم مستعار، كان يقابل بالرفض. فقد كان لورانس رجلاً شهيراً يملك قصة واحدة يرويها، وقد رواها بمهارة وروعة. وأوجد لنفسه ركناً بين عظماء الفنانين وكتاب العصر، إلا أنه لم يكن أبداً على يقين أنه ينتمى إليهم.

وفى الواقع، فإنه يمكن النظر إلى حياة لورانس الوظيفية بعد الحرب العالمية الأولى، وبأكثر من معنى، على أنها مثال عن مقتضيات الشهرة، أى أنها ظاهرة لم تكن معروفة حينذاك بقدر ما هى معروفة اليوم فى عصر التليفزيون. فقد أصبحنا فى نهاية الألفية نعرف شخصيات «شهيرة لأنها شهيرة» كما يذهب المثل، كما أننا ندرك أن الشهرة تطمس الحقيقة، وأنها تسير فى مركبة ذات أبعاد أثيرية من الفانتازيا التى تعمل على تخليد الذات. وندرك أيضاً الآن أن علاقة الشهرة بالموهبة أو الإنجاز علاقة ضئيلة، وتكون فى معظم الأحيان نتيجة «لعرض» الشخص. وربما كان لورانس، باستثناء نجوم الشاشة، أول نجم أعظم فى القرن العشرين. وتم خلق «لورانس العرب» بواسطة أول حملة دعاية كبيرة له. فقد بدأت شهرته بمجرد عودته إلى لندن بعد الحرب لدى محاوره مراسلى الصحف له، الذين وجدوه شخصاً متواضعاً غير مدع، وهو البطل الهمام، بدرجة تثير الدهشة. ولم يعرفوا

بالطبع أنه كان قد أتقن بعناية «زراعة» هذا المظهر شديد البراءة منذ الطفولة، وأنه قد ضمن إثارة اهتمامهم بالإيحاء بأن هناك ما يخفيه لأن تواضعه يمنعه الإعلان عنه. واعترف لورانس أن هذا كان هو المقصود بالضبط. وكان مدرسه في المدرسة قد لاحظوا عليه هذه الخاصية، وكان لهذا التوجه أثر في صالحه مع هوجارث وفيصل والنبى، وهاهو ينجح أخيراً مع الصحافة. وكما كان متوقفاً، أصبح الناس متعطشين لاستقاء معلومات أكثر وأكثر عن «الكولونيل لورانس» الغريب، ثم رسخت أسطورة لورانس عام ١٩١٩ عندما افتتح الصحفي الأمريكي لويل توماس دار الأوبرا الملكية بكوفنت جاردن بمحاضرة مصورة عنوانها «مع النبى في فلسطين ولورانس في بلاد العرب».

ففى عام ١٩١٨ كلفت الحكومة الأمريكية توماس بإنتاج مادة تولد الحماس للحرب بين أفراد الشعب الأمريكى. ولما وجد أن جبهة القتال الغربية لا تصلح لتقديم الصورة المطلوبة إعلامياً نظراً «لقذارتها» و«أمراضها» و«ورطتها وجمود الحركة عليها»، وجه بتشان، رئيس الدعاية البريطانية، توماس إلى الجبهة الشرقية. وهكذا التقى توماس بلورانس فى مارس عام ١٩١٨ فى القدس، وتعرفت حاسة الدعائى الكبير داخل لورانس فوراً على فاعلية الإعلام، ومن ثم، رتب لتوماس زيارة للعقبة، حيث لم يستعد للتصوير فقط بارتدائه زيه العربى، بل إنه نجح أيضاً فى الحصول لتوماس على ترخيص لتصوير فيلم عن البدو. وقال توماس فيما بعد: إن لورانس لم يرهب آلة التصوير لكن زملاءه من الضباط البريطانيين كانوا يرهبونها. ورغم أن عودة توماس إلى الولايات المتحدة كانت متأخرة عن أن تحقق مآلاته هدفها الأسمى، فإن عرضه لهذه المادة بعد الحرب حقق ظاهرة نجاح غير مسبوق وارتقى بلورانس سريعاً إلى مرتبة النجم الأعظم. فقد شاهدها فى بريطانيا وحدها أكثر من مليون شخص بمن فيهم الملك الذى طلب منه عرضاً خاصاً. كما نجح العرض أيضاً بأن ربط بالمادة المعروضة سلسلة من النماذج الأصلية للبطولة والتى وجدت قبولاً عميقاً فى الوعى الجمعى لشعب كان بلده قد خرج لتوه من حرب ساحقة. ونجح «الكولونيل لورانس» فى «خلاص» أرواح آلاف الشباب البريطانيين الذين بدا موتهم لا هدف له. وزعم توماس أن العرب كانوا يعتبرون لورانس كائناً خارقاً للطبيعة أرسلته إليهم السماء ليخلصهم من ظالمهم. وأعلن أن



لورانس قد عمل على توحيد العرب أكثر من أى شخص منذ «الخلفاء العظام»، وقال إنه قد حقق هذا بأن «حول نفسه إلى عربى» وتجول فى أنحاء الصحراء هناك يرافقه اثنان فقط، وعمل ببلاغته الخالصة، على إقناع أفراد القبائل أن يلحقوا بالثورة العربية. وأكد أن «الشاب» قد أصبح فعلياً حاكم أرض العرب المقدسة والقائد العام لآلاف البدو. وكانت الصورة شديدة الإقناع، كما أن الطبيعة المسيحية للقصة كانت ما أراد المشاهدون سماعه. وبالإضافة فقد كانت تلك القصة تعبر عن الصور الأسطورية للنموذج الأصلي الذى كان لورانس يهوى ترويجه. ففي أوائل عام ١٩٢٠، كتب إلى السير آرشيبالد مري، رئيسه السابق فى القاهرة، والذى كان قد اعترض على بعض تعليقات توماس عليه فى المحاضرة، «إنه كان يجلس «دون حراك» بينما كان توماس يدعوه «أمير مكة» وأشياء أخرى لا أخلاقية. بيد أن لورانس كان قد أعلن للملك قبل ذلك بعام أنه «أمير بين العرب». كما أنه قد استعمل لقب «أمير مكة» إرادياً فى طبعة عام ١٩٢٢ من موسوعة "Who's Who". والحقيقة هى أن لورانس قد ولع بمحاضرة توماس، وذهب لحضورها مرات ومرات، وكره نفسه لأنه أحبها. ووصف لورانس هذا النوع من الدعاية بأنه «فاسد»، إلا أنه حينما سأله توماس عما سيكون عليه موقفه من الأجزاء غير الصحيحة التى جاءت بالمحاضرة، أجابه بأنه لن يؤكدها أو ينفيها. وقد كتب توماس، الذى كان خلافاً لمؤرخى لورانس الآخرين، قد التقى به فعلاً أثناء الحرب، «إنه كان يجد متعة بالغة فى قيادة الجيوش، وفى أن يكون استراتيجياً وصانعاً للتاريخ»، وكتب يقول «لقد وجد لذة فعلية فى المجد الذى صنعه بنجاحه».

وكانت محاضرة توماس والعرض الذى قدمه ممارسة فى التلاعب بالجماهير ذات أثر مذهل. ففي غضون أسابيع كان هؤلاء الذين عارضوا لورانس أو وجهوا إليه النقد يمتدحونه دون تحفظ، بعد أن أدركوا أنهم كانوا أيضاً عوامل مساعدة فى «قصته البطولية». وبلغت سطوة هذه الصورة الأسطورية درجة أصبح من المحال معها فى السنوات التالية أن يأتى أحد بمقولة متوازنة عن لورانس: فباستثناء محطى الأيقونات، شعر الجميع أن عليهم امتداح الرواية الرسمية، وأضحت معارضتها تعادل الخيانة تقريباً. وفتحت شهرة لورانس له جميع أبواب الكتاب

المرموقين والفنانين والشعراء. ومن الطبيعي أن يعتقد المرء أن الكثير من هؤلاء لهم المقدرة على تكوين الرؤى الخاصة المستقلة، إلا أنهم ببساطة تقبلوا حكم الغوغاء. (كانت هناك بعض الاستثناءات فلم يلحق كيبلنج أو داوتى بهذا السيرك الشعبى). كان هذا ما حدث نتيجة للسطوة الساحقة للشهرة. وأصبحت الشهرة نفسها كينونة فانتازية لا علاقة لها بالحقيقة، وأخذت تُغرق كل ما يفعله لورانس أو يلمسه فى وهج مبهر رخيص. فصيرت لورانس «بطلاً»، ليس مخلوقاً من لحم ودم يعيش فى عالم واقعى، بل شخصية مركبة تقطن ما يمكن أن ندعوه اليوم الفضاء السيبرنطيقى - أو الوعى الجماعى، أى بؤرة تخيلية للطموحات والرغبات البشرية. وأصبح يرتبط لدى الكثير من الناس بمفهوم ما يعنيه أن يكون المرء بريطانياً، لدرجة أن أى نقد كان يوجه إلى لورانس كان يُعتبر، فى بعض الجهات، هجوماً على البريطانيين أنفسهم. واستمر الأمر هكذا حتى ستينيات القرن العشرين، أى بعد وفاة لورانس بمدة طويلة، إلى أن وجد الكاتب ريتشارد آلدينجتون الشجاعة لأن يبين عبث عبادة لورانس كقديس دنيوى، وإن كان كشف آلدينجتون للزيف قد شابهته سخرية النقد اللاذع غير المحسوب مما أدى إلى تقويض قضيته.

ما دور لورانس فى خلق أسطوره؟ مما لا شك فيه أن حساسيته وميله إلى تقديم ما هو واقعى بشكل أسطورى كان له دور رئيسى. فخلق الأسطورة عملية ذات مسارين. فلا بد للبطل الذى يُصنع أن يملك إحساساً بالأسطورة التى يظهر فيها: أى مقدرة على أن يعكس ما يتم إسقاطه عليه بواسطة الآخرين. فهو يمدهم بالمادة الخام التى تُبنى بها الأسطورة. وقد كشف توماس أن لورانس كان يزوره بانتظام فى ريتشموند، وأنهما كانا يتبادلان المشورة. كما كتب توماس أنه كثيراً ما كان يسأل لورانس عن مدى واقعية حكايات بعينها فكان لورانس يقهقه ويقول: «إن التاريخ لا يتكون على أية حال من الحقائق. فلماذا القلق؟». إلا أن طبيعة لورانس المازوكية منعتة من أن يتقبل مDAHنة الآخرين ببساطة. فلم يكن مغروراً، كما لم تكن ميوله الاستعراضية التى كانت واضحة خلال حياته من النوع النرجسى. فكان يشعر بنفسه أنه «نرجس» فى أساسه، وشعر بالحاجة إلى أن يرى العالم هذا. لذا أصبحت حياته جدلاً لا ينتهى بين نشوته بنجاحه وحاجته الغريزية للحط من قدر نفسه.

وأدرك توماس ولع لورانس بالشهرة، وأيضاً حاجته لأن يهرب منها فى ذات الوقت. فكتب عنه «كان يحتج قائلاً إنه يود لو تركه العالم وحده... إلا أنه فى قرارة نفسه كان يحب كل هذا». وكان توماس نفسه هو من كتب السطر الشهير عن موهبة لورانس «للانسحاب إلى بريق الضوء» (باعتبار أن الانسحاب يضيف عليه بريقاً أكثر). ودعاه برنارد شو، وكان من أقوى الناس ملاحظة فى عصره «مثلاً بالسليقة» وكتب عنه «حينما كان يقف فى وسط خشبة المسرح، وعشرات الأضواء مسلطة عليه، كان الجميع يشيرون إليه ويقولون «انظروا إنه يختبئ... إنه يبغض الدعاية!». إلا أن لورانس جلب هذه التعليقات لنفسه. حينما اعترف أن لديه «ولعاً بالشهرة، ورعباً من أن يعرف الناس أنه يود أن يصبح معروفاً». وكان مأزقه شديد الشبه بمأزق «كابتن هوك»، وهو من شخصيات الكاتب جيه. إم. بارى، وكان وغداً عجوزاً من خريجي إيتون، يعذب كيانه إدانته لتفكير المرء بأنه يجب أن يبدو طيباً وأن المرء يمكن فقط أن يكون طيباً بشكل حقيقى دون علم منه بذلك. وهذه الخاصية، طبقاً لتعليق لين كوان، تتوافق تماماً مع الطبيعة المازوكية فكتب «إن المازوكى يكشف عن كونه مثلاً مقنعاً، فإنه يتحتم عليه أن يمثل ويعيش ليمثل، ويكره أن يمثل. وتكون عذاباته الداخلية شديدة لدرجة يجد معها أن من الواجب أن يخفيها خلف الستائر. إلا أنها تتفجر وتندفع إلى وسط خشبة المسرح». فقد ساعد لورانس على خلق الأسطورة، ثم حاول إنكارها. فأخبر جوزيف كونراد أن أسطورة «لورانس العرب» غير صحيحة برمتها. وكتب إليه قائلاً: «إننى أعرف درجة زيف الشئ، وقدر ضالة الحقيقة مقارنة بالأسطورة، وما تحويه من قدر كبير يعود إلى الحظ، ودور ضئيل للجدارة». إلا أنه اعترف رغم ذلك أن للأسطورة كيانه مستقلاً حينما أعلن «أن الكولونيل لورانس مازال مستمراً، رغم أننى تنحيت جانبا».

بيد أن لورانس اكتشف، فى نفس اللحظة التى كان «الكولونيل لورانس» يولد فيها أنه لم يكن أبداً تى. إيه. لورانس، ففى أبريل عام ١٩١٩ توفى والده بالأنفلونزا. وعاد إلى أكسفورد من مؤتمر الصلح ليكتشف هويته الحقيقية. فقد ورث توماس عن عمه لقب «البارون» تشابمان عام ١٩١٤، وبالطبع لم يستعمل الأب هذا اللقب أبداً. ولدى عودته اكتشف أيضاً أنه لنجل السير توماس تشابمان

الذى كان وارثاً لضياع شاسعة فى أيرلندا. ومن الصعب معرفة رد فعله على هذا الاكتشاف. فقد كان يشعر منذ طفولته أن شيئاً غريباً يشوب علاقة والديه. فمثلاً، لابد وأنه قد لاحظ أنه كان بغير أقرباء على حين كان للأطفال الآخرين أولاد أعمام وعمات، وأجداد، وعمات، وخالات، وأعمام وأخوال. ورغم أنه كان يعرف أنه طفل غير شرعى منذ أن كان فى العاشرة. إلا أنه، طبقاً لمذكرات سجلها تشارلز بل، من المتحف الأشمولى، عن دافيد هوجارث، أن لورانس كان يعتقد أن توماس ليس أباه الحقيقى، إلا أنه تزوج أمه - وكانت خادمة فى منزل رجل آخر - بعد أن ولدت بعض أبنائها أو كلهم. وقد ادعى لورانس أنه لم يبال أبداً بعدم شرعية مولده: فلم يؤثر هذا فى طفولته، ولم يؤثر بالتأكيد فى نجاحه. وقال آرنى لورانس، الذى انفجر فى ضحك أجش، حينما أخبره لورانس بالحقيقة، أن أخاه لم يشعر بمرارة تجاه إرثه «فلم يكن بالإمكان أن يشعر بأى حزن.. لأن المال كان قد انتقل بالفعل إلى والده، ولماذا كان سيحزنه استبعاد بوب من ملكية الأرض (إلا أنه علق ذات مرة أنه لو أصبح بوب السير مونتاجيو لكان هذا أمراً مضحكاً)». وبالإضافة، فيما أن لورانس كثيراً ما كتب إلى معارفه يخبرهم أن اسمه الحقيقى ليس «لورانس»، فمن غير المحتمل أن يكون قد شعر بالخزي الكبير من هذا. وكثيراً ما حاول مؤرخو لورانس تحويل قصته إلى حكاية شعور وجودى بالذنب بسبب ملابس عائلته، إلا أنه، باستثناء بعض التلاعبات باسمه، والتأكيد على كونه أيرلندياً، (وكان هذا أمراً جديداً) فقد أتى الكشف متأخراً بدرجة لم يسهم معها فى تشكيل شخصيته أو التأثير فى عمله؛ فحينما علم بالحقيقة عام ١٩١٩، كان بالفعل على وشك أن يصبح بطلاً قومياً.

لم يقتنع لورانس أن الهاشميين قد لقوا معاملة عادلة من الحلفاء. وكان انتصار الحلفاء على تركيا، الذى كانت احتمالاته المستقبلية قد بدت وردية فى أكتوبر عام ١٩١٨، قد تحول سريعاً إلى حالة من الفوضى. فقد تم قمع انتفاضة سعد زغلول باشا وحزب الوفد ضد البريطانيين فى مصر باستعمال قدر كبير من العنف عام ١٩١٩ حيث فتحت القوات البريطانية النيران على جماهير المتظاهرين وقصفتهم طائرات السلاح الملكى البريطانى وهاجمت المدنيين وتم القبض على قادة المتظاهرين وتعذيبهم. كما تم القضاء المبكر على حركة قومية فى كردستان

بواسطة فرقة بريطانية. وحدثت في العراق ثورة عارمة ضد الانتداب البريطاني واقتضى الأمر استعمال قوات قوامها ٤٠,٠٠٠ جندي لقمعها بتكلفة قدرها ٤٠ مليون جنيه استرليني، أى ما يعادل ثلاثة أمثال ما أنفق على الثورة العربية. وبلغ عدد الضحايا ١٠,٠٠٠ بينهم ٤٠٠ جندي بريطاني. أما في فلسطين فكان التوتر يتنامى بين العرب واليهود. وفي سوريا فيصل، كان رجال القبائل من أتباع فيصل الذين انتزعوا من مواطنهم، يرقبون الفرنسيين من الأطراف بغل شديد. وباختصار، وطبقاً لتعبير ونستون تشرشل «فإن الشرق الأوسط برمته يبدى صورة شديدة الكآبة والخطورة».

وفي فبراير عام ١٩٢١ تولى تشرشل منصب وزير المستعمرات وقرر إصلاح الموقف. وجمع حوله فريقاً من المختصين بمن فيهم لورانس الذى وافق على هذا دون تردد خلافاً لتوقعات الكثيرين. ورغم أن خلفية تشرشل كانت أكثر تميزاً بكثير من خلفية لورانس، إلا أن الاثنين كانا لهما نفس الطبيعة، فقد تميز كلاهما بصدق الحدس، وكان كل منهما رومانسياً، كما أن كليهما قد عانى أزمات فى طفولتهما (فقد عانى تشرشل من إهمال والدته التى كانت ذات علاقات جنسية متعددة مشوشة) ولم يكن أى منهما جذاباً جسمانياً، إلا أن كلاهما تغلب على قصوره الجسدى بشجاعة وقوة إرادة هائلتين. وكان الاثنان متحدثين بليغين، ودعائيين من الدرجة الأولى، وصانعى ألفاظ من طراز فريد. وكان الإعجاب بينهما متبادلاً. واعتزم تشرشل عقد مؤتمر فى القاهرة يدعو إليه كل الأطراف المعنية بالسياسة فى الشرق الأدنى ليتوصلوا إلى تسوية شاملة. وعقد المؤتمر فى مينا هاوس بالقاهرة فى ظل الأهرامات فى مارس عام ١٩٢١، وشمل تقريباً كل عسكري وإدارى له علاقة بقضية الشرق الأوسط. وكانت التوصية التى تم الاتفاق عليها مسبقاً مع فيصل فى لندن هى إلغاء الانتداب البريطانى فى العراق وتسليم الإدارة إلى حكومة عربية مع التوصية بأن يصبح فيصل ملكاً بعد استفتاء عام. ثم تدخل بريطانيا فى تحالف مع فيصل وتسحب القوات البريطانية وتستبدلها بقاذفات قنابل اللورد ترنشارد من السلاح الجوى البريطانى. وفى أبريل، سافر لورانس وتشرشل إلى القدس لمخادثات مع الشريف عبد الله الذى كان قد وصل إلى معان فى اليوم السابق مع قوة مع البدو استعداداً للهجوم على الفرنسيين فى سوريا. واقترح عبد الله أن

يحكم دولة موحدة تتكون من شرق الأردن وفلسطين. لكن هذه المقترحات رفضت بسبب وعد البريطانيين لليهود. وبدلاً من هذا تم تعميم عبد الله حاكماً إقليمياً لشرق الأردن. وظل لورانس في البلاد كممثل لبريطانيا حتى ديسمبر، ثم عاد أدراجه إلى إنجلترا مقتنعاً أنه قد بذل ما في وسعه ليفي بما تعهد به للهاشميين أثناء الحرب. وفي هذا الصدد كتب «لقد حل تشرشل كل العقد، وأوجد حلولاً تفي بكل وعودنا - على ما أعتقد - نصاً وروحاً (بقدر ما هو ممكن للبشر) دون التضحية بأي من مصالحنا أو مصالح الشعوب المعنية. وهكذا انتهينا من مغامرة زمن الحرب الشرقية - بأيد نظيفة. إلا أن هذا جاء متأخراً ثلاث سنوات بحيث لم نكسب الامتنان المتوقع من هذه الشعوب أو حتى هذه الدول».

وعن هذا قال المؤرخ العربي جورج أنطونيوس إن «هذه مقولة لا تستقيم، بشكل ملموس، مع الواقع الذي حدث، بدرجة تلقى شكوكاً جادة حول فهم لورانس للقضايا المتعلقة». وفي الواقع فقد كان مؤتمر القاهرة نذير زمن قلائل في الشرق الأوسط، لا يفوقه زمن آخر بما في ذلك زمن الحكم العثماني. فلم يتح للعراق التمتع بسنة سلام واحدة حتى نهاية الحرب العالمية الثانية وما زالت حتى اليوم تعاني من الأزمات الرهيبة. ومن الواضح أن هذا ينطبق أيضاً على فلسطين. أما الفرنسيون فقد جوبهوا في سوريا بمعارضة شديدة حتى قبلوا بإدارة عربية عام ١٩٣٦. وفقط في شرق الأردن، وهو بلد فقير نسبياً، أمكن المحافظة على شبه توازن بواسطة الفيلق العربي تحت قيادة الإداري الموهوب جون باجوت جلوب. أما الملك حسين، ذلك الثعلب الذي تأمر منذ شبابه على خلق حجاز مستقل، فقد قام الملك عبد العزيز آل سعود، المنتصر الحقيقي في الثورة العربية، بطرده. وما زالت «مغامرة زمن الحرب الشرقية» تحيا معنا، فلم نخرج منها بعد بأيد نظيفة.

على أن لورانس لم يعد إلى بلاد العرب مرة ثانية أبداً. فقد فعل ما بوسعه للعرب، وخرج (من المغامرة) عن حق، أو عن باطل، كأعظم بطل لأكثر حرب ساحقة في التاريخ، وأجبر على أن يحمل معه «لورانس العرب» الخيالي طوال ما تبقى له من حياة. كان بإمكانه أن يختار أي منصب له. فقد أشاع هو نفسه أن تشرشل عرض عليه منصب المندوب السامي البريطاني في مصر بعد كيتشنر ومكماهون وألنبي. إلا أنه لم يكن يميل للمناصب العليا. واختار لنفسه، كجائزة

لخدماته أثناء الحرب، أغرب جائزة يتخيلها إنسان؛ فقد اختار أن يلتحق بالقوات المسلحة كجندى (نفر). وهكذا أكمل دائرة الطموح الذى احتضنه منذ أن هرب من منزله وهو فى السابعة عشرة من عمره.

---

نسرع.. لنُدفع بأنفسنا خارج أجسادنا

---

القوات الجوية الملكية

---

وسلاح الدبابات الملكي والوفاء

---

١٩٢٢-١٩٣٥



# 21

في ٣٠ أغسطس عام ١٩٢٢ ، كان

ثمة رجل مهلهل المظهر

يدعى جون هيوم روس يحوم وهو

يترنح خارج مكتب تجنيد أفراد القوات

الملكية الجوية في شارع هنريتا بوسط

لندن . تردد في الدخول لبعض الوقت ،

وأخيراً ، وبعد أن اندفع إلى مرحاض

عام ليريح أمعاءه التي كادت تتحلل

خوفاً ، قرر الدخول .

وواجهه صف ضابط متجههم وهو الرقيب أول ماكجى الذى وجد مظهره مشيراً للشكوك، واستدعى الضابط و. إيه. جونز، الذى كان كاتباً متطلعاً، منح فيما بعد صبية العالم التسلية بسلسلة كتبه المسماة Briggles. وأشار ماكجى إلى جونز ملمحاً أن روس قد يكون مشبوهاً إذ إنه لم يكن يحمل أى إثبات هوية أو خطابات توصية. وأرسل جونز روس لإحضار توصية وشهادة ميلاده، وحينما خرج، اتصل بمكتب قيد المواليد فى سومرست هاوس وتأكد من عدم مولد شخص يدعى جون هيوم روس فى التاريخ الذى ذكره الرجل. وعندما عاد روس بخطابات توصية، التى كان فى الغالب قد زورها، قام ضابط الصف بطرده.

إلا أن جونز أصابته الدهشة لدى عودة الرجل فى غضون ساعة برفقة مراسل رسمى من وزارة الطيران يحمل رسالة وقعها القائد العام للقوات الجوية اللورد ترنشارد ومفادها أن يتم تقييد روس كمجنون من الدرجة الثانية فى القوات الجوية. بيد أنه كان عليه اجتياز الكشف الطبى. ووجد طبيباً القوات الجوية اللذان قاما

بفحصه أن به آثار ضرب متعمد بالإضافة إلى أنه كان يعاني من سوء التغذية بشدة. ورفضه الطبيبان على أساس أنه لا يصلح. وأرسل جونز الحالة إلى الضابط المسئول الذى هاتف وزارة الطيران. وحالما وضع السماعه قال «احترسوا... إن هذا الرجل هو «لورانس العرب»، أدخلوه وإلا عليكم ترك الخدمة» وعاد جونز إلى الطبيبين، إلا أنهما أصرا على رفض التوقيع. ومن ثم، اضطر جونز إلى استدعاء طبيب مدنى يسمح للورانس بالالتحاق كمجنند فى سلاح الطيران الملكى.

لا تتاح الفرص لجميع الأفراد كى يحققوا أحلامهم، بيد أن أحلام الكثير من الناس تدور حول الرفعة والثروة والنجاح. أما تكوين لورانس النفسى، الغريب، وميوله الاستعراضية العكسية كانت هى التعبير الاجتماعى عن المازوكية، باتجاه الانحطاط والفقر وإنكار الذات والعبودية. الحالة التى كانت تتيح للورانس أن يخبر مثل هذا الانحطاط على أفضل وجه، باستثناء أن يكون عبداً بالفعل، أو سجيناً، كانت هى التحاقه بصفوف المجندين فى القوات المسلحة. وكان مما كتبه «إن ما أقنعنى أن أفضل مستقبل لى، إن ظلمت على قيد الحياة بعد الحرب، هو أن

أجند في الجيش، كان خروجي في السيارات المدرعة واختلاطي الودي بأفراد القوات الجوية». ومن ثم، كتب إلى ترنشارد رئيس أركان القوات الجوية في يناير عام ١٩٢٢، وبينما كان مازال يعمل في وزارة المستعمرة، أنه يود الالتحاق كمجند بالقوات الجوية. وكان قد التقى بترنشارد في مؤتمر القاهرة عام ١٩٢١. وأخبر ترنشارد أن سبب طلبه التجنيد هو تجميع مادة لكتاب له عن القوات الجوية من مستوى القاعدة. وعندما أصدر ترنشارد أخيراً الأمر بإلحاق «جون هيوم روس» بالقوات الجوية برتبة جندي فني من الدرجة الثانية رقم ٣٥٢٠٨٧، في ١٦ أغسطس كتب «إنه يتخذ هذه الخطوة ليعرف حقيقة حياة رجال القوات الجوية». وكتب لورانس فيما بعد لأحد معارفه، إنه التحق بالخدمة لأنه وجد نفسه دون عمل حقيقي، وأن الالتحاق بصفوف المجندين هو طريق سريع وسهل للبقاء على قيد الحياة.

غير أن هذه التوضيحات جميعها لم تكن الحقيقة كاملة كما اعترف هو حينما كتب لروبرت جريفز «لا أستطيع بأمانة إخبارك عن سبب التحاقى. فقد كانت خطوة ضرورية دفعنى إليها ميلى إلى المستويات الدنيا، على أمل يائس أن أجد نفسى على أرض مشتركة مع الناس، تحقيقاً لرغبة صغيرة فى أن أصبح أكثر إنسانية...» فإن كان تطوعه مجنداً يبدو أمراً شاذاً، فعلى أن نتذكر أنه هرب من منزله وهو فى السابعة عشرة ليفعل نفس الشيء. وكان طوال حياته يجنح إلى تخيل نفسه وهو يلتحق بصفوف المجندين، أو أنه هارب من الجندية. فقد كان يتواجد فى عالم مازوكى معكوس القيم يجد لذة فى الألم، وتحرراً فى العبودية، ويجد إنكار الذات بانغماسه فى طقوس اللذات والعردة الذاتية. وقد أخبر تشارلوت شو فيما بعد أنه «يجب على الإنسان أن يعانى كى يرضى». فلم يكن التحاقه بصفوف المجندين فى القوات الجوية أولاً، ثم فى الجيش مرة أخرى فى وحدة الدبابات، ثم بالقوات الجوية مرة ثانية حيث قضى بها معظم سنوات حياته الباقية، تجربة تكفيرية، بل المكافأة النهائية لنضالاته وإنجازاته. وكان التوضيح «الرسمى» القائل بأن لورانس قد التحق بالقوات الجوية سعياً وراء الأمان غير مقنع. إذ إنه كان بإمكانه الحصول على أمان أكبر كثيراً إن هو التحق كضابط أو كمسئول فى مكتب المستعمرات دون التعرض للمصاعب المستمرة والتهديد

بالعنف الذى خبره فى سنواته الأولى من صفوف المجندين . وبمعنى آخر، فقد مكنه تجنيده من تحاشى المسؤولية التى ألقته على كاهله شهرته الدولية وحملته عبء تمثيل دور البطل . إلا أن هذا أيضاً، فى حد ذاته، جعله أكثر تميزاً من الأبطال «العاديين» الذين أتوا بما هو فج ومتوقع كقبولهم رتب الفروسية والجوائز والمناصب الكبرى . وكان لانخراطه فى صفوف المجندين جانبه الإيجابى أيضاً؛ فقد كان لورانس قد عرف فى نفسه منذ زمن طويل قوة تنافسية هائلة، ورأى بوضوح، أثناء احتلال دمشق، وبينما كان هو الحاكم الفعلى للمدينة، أن الفرصة لو أتت له فسيتحول التين داخله إلى طاغية كامل . وقد كان من شأن أى منصب كبير أن يتيح له هذه الفرصة . وشعر لورانس بالحاجة إلى تقييد نفسه وتصغيرها جسدياً من أجل منع الوحش من الخروج . وكانت الخدمة العسكرية تتيح له ممارسة السلطة المعنوية من خلال أصدقائه ذوى السطوة دون الإفساد الحتمى لروحه الذى كان من شأن الثراء المادى والقوة الفزيائية إحداثه . ومن ناحية أخرى، فلو كان هناك ثمة خطر من نسيان «لورانس العرب» فقد كفل التحاقه بصفوف المجندين عدم حدوث هذا . ومن المفارقة أن كان هذا أكبر إعلان عن الذات . وعلى مستوى آخر، فبالإمكان النظر إلى سنوات خدمته فى الجيش على أنهاصفة طبية ذاتية لإيجاد توازن بين ما كان يشعر أنه غير سوى فى روحه كى يجعل نفسه إنساناً صحيحاً . فكتب إلى روبرت جريفز عام ١٩٢٣ «لقد أتيت هنا كى أكل القاذورات حتى اعتدت عليها» وأيضاً «ستكون حالة سبات للعقل، وسأخرج منها أقل غرابة فى أطوارى مما كنت عليه قبل دخولى؛ أو على الأقل، أقل غرابة فى أعين الآخرين» .

وقد لازمت التحاقه بالجندية السرية والمظهر التامرى . بيد أنه من الواضح لم يبذل الكثير من أجل إخفاء هويته الحقيقية . فقبل أن يترك مكتب التجنيد فى ذلك اليوم كان جونز يعلم من هو وقال «إن لورانس علم أننى عرفت إذ إننى حادثته طويلاً أثناء انتظار للقطار المتوجه إلى أكسبريدج» كما هاتف جونز أيضاً مركز تدريب المجندين فى أكسبريدج لينبه زميله هناك، الملازم طيار نيلسون، أن «لورانس العرب» كان فى طريقه إليهم تحت اسم مستعار . وهكذا، فمنذ اللحظة الأولى كان الجميع قد عرف سره باستثناء فنى الطائرات العاديين وضباط الصف الذين شاركهم لورانس الحياة . وقضى شهرين فى أكسبريدج حيث وجد الحياة حياة كد

وتعب يتبادل فيها أعمال السخرة بالمطبخ والتدريبات العسكرية والتمرينات الرياضية. وكان قد أمل أن تساعد القوات الجوية على الخروج من حالة الإنهاك وسوء التغذية التي كان عليها وطاقته التي استنزفها في كتابة «أعمدة الحكمة». وكان لورانس أكبر سناً من معظم المجندين إلا أنه كان يعاني الوهن، ومن ثم كان لا يستطيع مجاراتهم في التدريبات الرياضية وكان يرتبك أثناء التدريبات العسكرية. وعمد الضابط المعاون بريس الذي كان يتميز بالجمود إلى إذلاله، وكان من سوء حظ لورانس أنه تبجح وطلب منه غرفة خاصة يواصل فيها العمل في كتابه. ويعتبر هذا مؤشراً واضحاً لعدم توافقه مع وضعه كمجنّد جوى عادى. وربما كان هذا الطلب محاولة إرادية لغواية السلطة (كى يعاقب). وفيما بعد، كتب بريس أن العقوبة كانت توقع على «روس» باستمرار للقدارة وعدم إطاعة الأوامر والتمرد والتأخر عن العروض. وتذكر بريس أن «روس» كان يدافع عن نفسه بغطرسته الأكسفوردية قائلاً ببساطة إنه «كان يشعر دائماً بحالة من التعب في الصباح الباكر». واعتقد زملاؤه من فنيي الطائرات أنه كان شخصاً غريباً، وتذكر أحد زملائه في الغرفة أن فنيي الطائرات كانوا يجدونه نافعاً، إذ كانوا يقترضون منه، وكان يخبرهم بأمور الكتب ويسدى لهم النصائح الفنية. ورغم أنه، على أحد المستويات، كان يسعى لأن يتقبله زملاؤه، إلا أنه أبقى إرادياً على غرابة أطواره. وكتب إلى إدوارد جارنيت قائلاً إنه كان يشعر بالعزلة في الثكنات، وأنه كان مثل «اليعسوب وسط الزنابير» أو أنه كان «زنبوراً وسط اليعاسيب». وسرعان ما أكد ميله إلى التوافق مع زملائه دون الانتماء إليهم.

وكان بإمكان لورانس أن يحقق هدفه في أن يظل مجهولاً لو أنه رغب حقاً في ذلك. فلو قصد أن يترك «الكولونيل لورانس» خلفه وأن يعثر على شكل «الدودة داخل قوقعة اليرقة» وفقاً لتعبيره، لأمكنه هذا. وكما لاحظ برنارد شو بحصافة فقد كان لورانس يسعى للاختفاء دائماً في بؤرة الأضواء الساطعة وسط المسرح. فلم يكن هدفه الحقيقي أن يظل مجهولاً. فقد هدف من الالتحاق بالجيش إلى إذلال نفسه، وإلى أن يراه الناس وهو يحقر ذاته؛ أى أن يعاني ويراه الآخرون وهو يعاني. ومثلما كان لرحلاته الليلية للغطس في الجليد في نهر تشيرويل أيام الكلية هدف «إحداث صدمة بين التقليديين من الناس»، فقد كان لابد وأن تصل أنباء

خدمته «كداية» وسط صفوف المجندين إلى الشخصيات الرفيعة التى كان متاحاً للورانس أن يعيش بينها. إذا، فلا بد من الزج بهم للمشاركة فى انحطاطه. فقد التحق بالقوات الجوية كمجنّد. وفى الواقع، حاول معظم معارفه بمن فيهم ونستون تشرشل ولورد ترنشارد، إثناءه عن هذا. إلا أنه بمجرد اختياره لطريقه شرع يكتب سلسلة من الخطابات إلى عظماء البلاد وذوى النفوذ يحقر فيها ذاته طوعاً. ويمكن الإحساس برغبة لورانس الملموسة فى استعراض ظروف حياته الجديدة المقززة فى خطابه لبرنارد شو: «إنك تطلب تفصيلات عما أفعله فى القوات الجوية. فى الصباح، قمت بحك وتنظيف أرضية المطبخ.. كما قمت أمس بغسل الأطباق فى مطعم ضباط النظام (لا يراعى هؤلاء الضباط الأصول والنظافة فى الأكل. فأطباقهم كانت ملوثة بالزبدة وصلصة الطماطم، وكانت مياه الغسيل باردة). وعملت زبالاً، وكاتباً، ومنظفاً لزريبة الخنازير. وقمت بشئون الخادومات، ومساعد الطاهى. إلا أن الأمور ليست شديدة السوء..» وهناك توازن غريب بين حياة لورانس فى الخدمة العسكرية، وبين موقفه من «أعمدة الحكمة» الذى كان يقوم بمراجعتها أثناء أسابيعه الأولى فى القوات الجوية. فمرة أخرى، لم يجبره أحد على تأليف هذا الكتاب الذى يكشف فيه عن «أسرار» و«أمور» لم يطلب منه أحد الكشف عنها. إلا أنه بمجرد أن انتهى منه، وعمل على تداوله بحرص، بين المقربين، لم يكف عن النواح والتباكى على قصوره. فكتب إلى برنارد شو الذى كان قد تلقى نسخة أصلية «إن قلت عنه إنه هراء فساوأفكك وأطلق ضحكات سعيدة مردها أن حكى عليه قد تضاعف». وإلى إدوارد جارنيت كتب «أود لو لم يكتب هذا الكتاب الفظيع الغبى» وكأنه ليس له يد فى كتابته. ويعتبر موقف لورانس من نشر «أعمدة الحكمة» نافذة عرض لشخصيته. تلك الشخصية التى وضعها ليدل هارت بأنها شخصية امرأة «ترتدى حجاباً وتكشف ثدييها». فقد أكمل لورانس الكتاب عام ١٩٢٢، وكان بوسعه آنذاك نشره ونسيان كل شيء عنه. إلا أنه بدلاً من هذا شرع يدفعه تحت أنوف الجماهير، مغرياً إياهم به طوال ما تبقى من حياته. فبدأ بالإفراج عن ثمانى نسخ لأصدقائه المقربين. ثم أصدر طبعة محدودة للمشاركين بعد أربعة أعوام، وتبعها بنسخة مختصرة أسقط منها كل المادة الخلافية. واستمر يشتغل على النص لسنوات، ليضمن بهذا اهتمام الناس

بالكتاب، ومن ثم، الاهتمام به شخصياً إذ إنه لم يسمح للكاتب قط أن يتواري. إن هذا ليس سلوك شخص يسعى بحق إلى أن يظل مجهولاً.

فلو أراد حقاً أن يظل مجهولاً لما صادق جورج برناد شو - أحد أشهر كتاب بريطانيا - أو أى من الشخصيات القوية التى كان يرأسها بمن فيهم تشرشل ولورد ترنشارد وليو آمري - برلمانى الأميرالية - وحتى رئيس الوزراء السابق لويد جورج. فمثلاً كان فنى الطائرات المجدد، الذى أنهى لتوه إطعام الخنازير وتنظيف زرائبها، يخبر بطل صباه تشارلس داوتى، بقدر من التعالى، أن «ثمة ثلاثة أو أربعة أفراد فى وزارة الدفاع الحالية زملاء فى كلية أول سولز، ومعظم الآخرين أصدقاءى الشخصيين ومن بينهم دوق ديفونشاير واللورد سالسبرى وآمرى وود». ولا نعرف رد فعل داوتى على هذا. فقد كان يقدر محاولات لورانس مساعدته على إعادة نشر كتابه «الصحراء العربية»، والحصول على معاش مدنى له. إلا أن داوتى أعاد إليه «أعمدة الحكمة» دون تعليق، وقد يكون فى هذا تعليق كاف. وأيضاً، شرع لورانس فى مضايقة اللواء جوى السير أوليفر سوان رئيس التدريب وشئون الأفراد فى القوات الجوية الذى أمره ترنشارد أن يتخذ إجراءات تجنيد لورانس إلا أنه عارض هذا بقوة. ولذا، فلا بد وأن لورانس قد وجد سروراً عظيماً أن يخاطب الرجل باسمه، وهو الجندى وضيع المنزلة، إذ إنه يعلم أنه كان يسانده أعظم عظماء القوات الجوية. ورغم زعم لورانس أنه قد ترك خلفه «الكولونيل لورانس» إلا أن التناقض بين هويتى «لورانس العرب البطل القومى» و«روس الفنى الجوى من الطبقة الثانية» كان مصدراً للحبور والتسلية بالنسبة له؛ إذ كان هذا محاكاة ساخرة للهرمية الاجتماعية - ذلك الحس الطبقي الذى أفسد حياة والديه - وأصبح الأمر تسلية ومصدر متعة هائلة. وكما استطاع «لورانس العرب» التنقل سريعاً بين كونه «أمير مكة» و«ضابط المخابرات البريطانى»، فقد أصبح فى مقدور «روس» فى غضون اليوم الواحد أن يبحر بين مراتب «حارس زريبة الخنازير» و«الديبلوماسى الدولى». فكتب المجدد «روس» بعفوية، إلى مساعد قائد السلاح الجوى «سأوالى» إرسال مذكرة إليك مع كل تغيير لموقعى. ولم يرق لسوان هذا، وقد يكون قد راوده الإحساس أنه أداة تسلية فى ألعيب لورانس. فكتب عن هذا قائلاً «قد يخطر ببال أحدهم، وفقاً لهذه الخطابات، أننى كنت أتبادل معه الخطابات الحميمة، أو



حتى أننى كنت صديقه . بيد أننى فى الواقع كنت كارهاً للأمر برمته ، وحاولت إثباط أهمية المكاتبات بيننا . . . أما ما حدث أخيراً فى فارنبورو من اكتشاف لأمره ، فكان نتيجة إهمال وزارة المستعمرات فقط ، وولع لورانس ، المؤسف بإسدال حجاب من الغموض حوله .»

وبدأت النهاية فى نوفمبر حينما نقل لورانس فجأة من أكسبريدج إلى مدرسة القوات الجوية الملكية للتصوير فى فارنبورو . وفى البداية سره هذا ، وكتب إلى سوان قائلاً إنه أوشك أن يحرق المعسكر من فرحته لدى علمه بأنباء نقله . إلا أنه سرعان ما تغيرت حالته المزاجية لدى وصوله إلى موقعه الجديد إذ اكتشف أن برنامج التصوير الحالى قد بدأ بالفعل وأن عليه الانتظار حتى يناير قبل أن ينتظم فى البرنامج التالى . واشتكى إلى سوان موضحاً أنه إذا لم يبدأ تدريبه على التصوير فوراً فإنه يرغب فى الانتقال إلى موقع آخر . واعترف أنه استراح لنقله من أكسبريدج وذلك لأن الجانب الجسدى من التدريب كان مرهقاً ، وأنه رغم أن فارنبورو كانت «منتجعاً بهيجاً» بالمقارنة ، إلا أنها لا تمثل القوات الملكية الجوية التى أراد الكتابة عنها ، وأنه بدون تدريبه على التصوير ، سيصيبه الملل . وشغل هناك مكاناً كضابط مناوب فى مكتب المعاين إلى أن وصل أمر من القائد العام للقوات الجوية أن يقيد «روس» الجندى من الدرجة الثانية فى برنامج التصوير الجارى . وكان معظم المتدربين فى مدرسة التصوير قد علموا آنذاك عن شخصية «روس» السرية ، وعن وجود شخصية دولية مرموقة متخفية بشكل غير كامل كمجنّد متواضع بينهم ، مما أقلق الضباط الذين شكوا أنه قد زرع وسطهم كجاسوس لوزارة الطيران . واستمر لورانس فى عرض معاناته المفروضة ذاتياً فى صفوف المجتمع الراقى . فمثلاً ، كتب إلى إى . إم . فورستر أنه كان يكره «الحياة القذرة» فى الشكنات ، وأنه لا يحتمل التفكير فى حياة الفقر الممتدة أمامه . واعترف أنه كان يخشى زملاءه جسدياً ، ويكره ضوضاءهم ، وحيويتهم . إلا أنه أصر ، وكأنه يستجدى التناقض ، على أنه مثلهم تماماً ، وأعلن أنه لا يرغب فى ترك القوات الجوية لأية وظيفة أخرى .

وكان أثر هذا مثل أثر رجل يقوم بسجن نفسه فى زنزانة قدرة ثم يصيح من

خلال القبضان ناعياً الظروف المريعة في الزنزانة ويقول في نفس الوقت إنه يجد في المكان مكانه الحقيقي وأنه على استعداد لفعل أى شيء كى لا يغادر المكان . ومن الواضح أن لورانس لم يكن ملتزماً بالبقاء في صفوف المجندين ، كما ادعى . وفي الواقع ، فإنه غدا مستفزاً بشكل معلن مع الضباط في فارنبورو ( حدث أنه لدى انتقاد أحد الملائمين أدائه أن أجابه لورانس بالعربية والإغريقية القديمة مما جعل الضابط مضحكة الرجال الآخرين ) . وعلى حين أنه ادعى أن أحد الضباط قد خانته وكشف سره للصحافة ، فإن الأمر الأكثر احتمالاً هو أنه قد كشف بنفسه عن هويته . وفي الواقع ، فقد كان قد شرع في إذاعة اسمه المستعار وعنوانه دون حذر . وفي إحدى نوبات تدمير الذات ، كتب إلى ر . د . بلومنفيلد ، رئيس تحرير الديلى إكسبريس ، وأعطاه التفاصيل الكاملة لتجنيدته وتوسل إليه ألا يذيعها على الملأ . وكان هذا طلباً يستحيل أن يوفى به صحفى محترف ، وقد يكون بلومنفيلد قد أدرك أن لورانس كان يومئذ إليه ، ضمناً ، بضوء أخضر . كما أنه من المحتمل أن بلومنفيلد قد ألمح لأحد محرريه بتلك التفاصيل ، لأن الإكسبريس نشرت في صفحتها الأولى من عدد ٢٧ ديسمبر ١٩٢٢ خبراً عنوانه « ملك غير متوج عسكري مجند » ، وكشفت للعالم عن مخبأ لورانس ، وجعلت من المحال له أن يستمر في القوات الملكية الجوية . ولأسفه الظاهري ، أجبر لورانس على مغادرة القوات الجوية في يناير عام ١٩٢٣ . إلا أن إحباطه كان حقيقياً حينذاك ، لأنه في تلك الأثناء ، كان قد تعلق بطيار شاب أشقر جذاب المظهر يدعى ر . إن . جاي ، الذى شبه أحد زملائه جماله الوضاء بجمال إله إغريقى . ووصف لورانس نفسه جاي بأنه « ملائكى » ، إلا أنه ، من قبيل الاستعلاء قال إن لكنه برمنجهام الفجة تفسد هذا الجمال ، وكأنما من الطبيعى أن تحدث الآلهة الإغريقية بلكنة أكسفورد . ومثلما رأى لورانس أن تعلقه بالقضية العربية كان إلى حد ما ، تعبيراً عن علاقته بداهوم « النبيل » ، فقد بدأ إعجابه بالقوات الجوية كتنظيم ينمو مع تقدسه لجاي . واعتقد أن جاي يجسد الأفضل بين صفوفها ، وسرعان ما بدأ حماسه لسمو شباب القوات الملكية الجوية اللانهائى عن غيرهم من رجال القوات المسلحة . ورغم احتمال الطبيعة الأفلاطونية لعلاقته مع جاي ، كما كان الحال مع داهوم ، فإنهما حينما أجبرا على الافتراق ، كانت قد نمت بينهما حميمية عاطفية .

وكتب لورانس، فيما بعد، إلى جاي قائلاً «أنا وأنت .. كنا جد مختلفين .. وتطلب الأمر سيرورة بطيئة، وعطوفة، وملحة مثل عملية الإقامة فى الشكنات، كى تصهرنا معاً صهراً مريحاً. فلا يصبح الناس أصدقاء حتى يقول كل منهم ما يستطيع قوله، وحتى يمكنهم الجلوس معاً، أثناء العمل والراحة، دون حديث ... ولم نصل إلى هذه المرحلة تحديداً أبداً، لكننا كنا نقرب منها يومياً. وبما أن س. أ. قد توفى .. فلم تكن ثمة مخاطرة من حدوث ذلك».

طلب لورانس من ترنشارد، ومن وزير الطيران سام هور، إعادة تجنيده إلا أن مدة تسجيله كانت قد انتهت. ورغم أن ألعابه الخاصة بمكانته كانت مصدر تسلية له، إلا أنها كانت ضارة بجدية النظام فى القوات الجوية. ورد ترنشارد بأنه سيعيد النظر فى الأمر فقط إذا طلب لورانس تعيينه كضابط ... إلا أن هذا كان سيفسد على لورانس التأثير الذى يطلبه. وبحلول شهر فبراير كان قد نجح فى جذب الخيوط فى مكتب الحرب بمساعدة آلان داونى الذى كان قائد القنفذة وزميله أيام الحرب، والجنرال فيليب شتوود قائد طابور الصحراء فى فلسطين. ومن ثم، نجح فى أن يعاد تجنيده كجندى فى سلاح الدبابات الملكى. وفى مارس، وقع لورانس بالاستلام لفترة تجنيد قدرها سبع سنوات فى معسكر بوفنجتون فى دورست تحت اسم مستعار آخر وهو تى. إى. شو. إلا أنه لم يلحق بصفوف المجندين بمفرده هذه المرة، لأنه حينما دخل غرفة الحراسة فى بوفنجتون، كان برفقته شاب طويل أسكتلندى صارم المظهر، يدعى جون بروس، وكان قد التحق معه بالجيش كتابع له.

كان لورانس قد التقى ببروس فى لندن عام ١٩٢٢ بينما كان مازال يعمل فى مكتب المستعمرات. وحدث اللقاء فى شقة رجل يدعى إدوارد مرى فى ماى فير، وكان حينذاك يحاول إلحاق الشاب الأسكتلندى الذى كان يبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً، بوظيفة ما. وفى لقائهما الثانى، كشف لورانس لبروس عن شخصيته وقال إنه كان يبحث عن شاب قوى متيقظ يمكنه الوثوق به وكشف أمور على قدر كبير من السرية له. واعتقد بروس أنه شخص نزق وأجابه بأنه غير مؤهل لذلك. بيد أنه كان فى شدة الحاجة للعمل، وعرض عليه لورانس مرتباً سخياً قدرة ثلاثة

جنيهاً شهرياً كخادم له. وفي لقاءاتهما التالية جعل لورانس بروس يقسم على السرية التامة، وبدأ بإخباره بقصة خيالية طويلة ادعى فيها أنه واقع تحت سيطرة قريب له دعاه «الرجل المسن». وكانت فحوى القصة أنه مديون وواقع تحت ضغط من البنك الذي يتعامل معه، ولذا قرر أن يؤلف كتاباً على أمل أن يكسب من النقود ما يمكنه من تسديد ديونه ثم يتقاعد في الريف. وأخبره أنه تقدم إلى بنك تجارى طالباً قرضاً يعيش منه أثناء عمله على تأليف الكتاب إلا أن البنك طلب منه أن تكون له حقوق ملكية الكتاب وأن يوجد من يضمنه. وأضاف أنه حينما توفي والده عام ١٩١٩ ورث «الرجل المسن» نقوده، وطلب منه أن يضمنه. ووافق الرجل في البداية، إلا أنه حينما اكتشف أن لورانس ترك وظيفته في مكتب المستعمرات عدل عن رأيه ودعى لورانس «بابن الحرام» وألحق به قائمة طويلة من الاتهامات والخطايا من بينها إهانة الملك جورج في قصر باكنجهام، وهدم منصب اللورد كيرزون وإدارة ظهره لخالقه، وتلطيف اسم عائلته في الوحل. وقال لورانس إن «الرجل المسن» وافق على أن يتولى أموره المالية ويدير شأن ديونه بشرط توليه «كل الأمور التأديبية». وفي حالة عدم موافقته فسيذيع الرجل ظروف مولده. ومن ثم، أوجب عليه الحد من أنشطة حياته، والالتحاق بمجنداً بالجيش أو القوات الجوية، وقضاء وقته إما في الكتابة أو في أنشطة الجندية. وأنه لن يسمح أن يكون له أصدقاء من المستوى الرفيع سوى الأشخاص الذين يمارسون الكتابة. وأبلغ لورانس بروس أنه قد أقسم على الإنجيل أن يحترم كل رغبات «الرجل المسن»، وذكر أن الأمر قد يتطلب توقيع عقوبة جسدية عليه. وساورت الشكوك بروس، لا لأنه لم يصدق القصة، بل لأنه كانت تفصله عن لورانس فروق اجتماعية رهيبة، وعجب لسبب اختيار لورانس له لأداء هذه الوظيفة تحديداً، وأوضح له لورانس أنه لا يستطيع الوثوق بمعظم أصدقائه، وأن القليلين من الذين يستطيع الوثوق بهم كانوا على مستوى رفيع جداً، إلا أنهم قد يكونون على استعداد للمساعدة نظير استفادة شخصية وقال لبروس «أنت لا تعرف طبيعة هذه الاستفادة، ولن يشبئك ألا تستفيد شيئاً». ثم بعث به إلى بلدة أبردين وأخبره أنه سيستدعيه عندما يحتاجه.

وأثناء وجود لورانس في أكسبريدج وفارنبورو، كان أحياناً يتبادل الرسائل مع

بروس ويخبره عن مدى بغضه للقوات الجوية، كما أخبره أن «الرجل المسن» كان يعتقد أن هذه الحياة ليست بالقسوة المطلوبة، وأنه ليس من حقه أن يكون هناك إذ إن الرجل قد اتخذ الإجراءات لإحاقه بالجيش. وفى نوفمبر، طلب من بروس الحضور إلى فارنبورو. وحينما التقيا أخبره أنه تلقى عصا من التبولا وأن الرجل المسن يريد أن «يضرب بها عدة ضربات على ردفه» كعقوبة «لغشه إياه» والتحاقه بالقوات الجوية بدلاً من الجيش. إلا أنه قبل إرساله «العقوبة» كشف أمر تخفيه فى شخصية «روس» للصحافة، ومن ثم، أجبر على ترك الخدمة. وأخبر بروس أن «الرجل المسن» قد دفع مبلغ ثلاثين جنيهًا لضابط فى فارنبورو ليكشف القصة للصحافة. ثم فقد بروس صلاته بلورانس لبعض الوقت، لكنه حضر فى يناير عام ١٩٢٣، إلى لندن ليعمل فتوة فى أحد الملاهى الليلية، وترك رسالة للورانس بهذا المعنى فى شقته التى كان قد استعارها فى شارع بارتون. وبعد أيام قلائل ذهب لورانس للقائه وكان يبدو متسخاً، مهلهلاً، مريضاً، ومنهكاً. وأبلغه أنه كان ينام لعدة ليال فى مكان وعر، وكان فى واقع الأمر ينام فى العربة الجانبية الملحقة بالدراجة البخارية التى كان قد ابتاعها أثناء خدمته فى القوات الجوية. وأخبر لورانس بروس أن «الرجل المسن» كان يضغط عليه للالتحاق بسلاح الدبابات الملكية. وطبقاً لما قاله بروس، فإنه قرر التطوع بالجيش ليكون مع لورانس.

ومن المحتمل أن يكون شخص ما، ذو سلطة فى الجيش، قد علم عن العلاقة بين لورانس وبروس، إذ إن بروس قال إن تجنيده فى أبردين كان قد سبق الترتيب له. وأخبره لورانس أن عرضه للقى قبول «الرجل المسن» وأنه سيكتب إليه مباشرة بمجرد أن يتم تجنيدهما. وفى بوفينجتون أعطيا رقمين مسلسلين متتابعين وسريرين متجاورين فى نفس الكوخ. ولم تكن أزياءهما العسكرية على مقاسيهما، وأوكلا إلى فرقة من عشرين جندياً لتدريب مدته ستة عشر أسبوعاً. وكتب بروس «قمنا بتكوين رأى عن كل فرد فى الفرقة، وكانت مهمتى مراقبة الأشرار منهم، خاصة السكيرين، الذين كانوا كثيراً ما يقربون لورانس من أجل النقود... وحدث أن دخلت الكوخ ذات مرة لأجد أحدهم يهيل الشتائم القذرة على لورانس لأنه رفض منحه جنيهًا فقفزت عليه سريعاً وحدثت مشادة كبيرة». وبعد هذا، استأجر

لورانس كلاودز هيل، وهو منزل صغير مجاور للمعسكر، كملاذ من الحياة في الشكنات التي لا تكاد تحتل. وحدث هناك، عام ١٩٢٣، أن قام بروس بضرب لورانس لأول مرة. وعملت ترتيبات الضرب بدقة الطقوس. فبدأ لورانس بإخبار بروس أن «الرجل المسن» قد قرر أنه يجب أن يُعاقب، وأنه قد حكم عليه باثنتي عشرة ضربة. وهنا سلم إلى بروس خطاباً منسوخاً على الآلة الكاتبة وادعى أنه من «الرجل المسن»، يخبره فيه بأن يتسلم العصا من محطة السكك الحديدية المحلية وأن يقوم بتنفيذ العقوبة، ثم يقوم بكتابة تقرير بتنفيذها، ويصف سلوك لورانس أثناء الضرب. وفي البداية، أعلن بروس أنه لن يكون له شأن بهذا، إلا أن لورانس أصر على التنفيذ. وبما أن لورانس بدا راغباً في هذا، فقد وافق بروس في النهاية وقام بتنفيذ «الحكم» عصر ذاك اليوم، إلا أن «الرجل المسن» لم يرض لأن لورانس تلقى الضربات الاثنتي عشرة على الردفين وهو مرتد سرواله، فكان على بروس أن يعيد الكرة بعد أن تجرد لورانس من ملابسه. وقال بروس «وبعد أن فرغت من ضربه اثنى عشرة مرة قال لي لورانس «اضربني ضربة أخرى على سبيل الحظ». وكان الأمر مثيراً للغثيان. فقد كانت العصا تخترق الجلد وتمزق الأوعية الدموية حتى سالت دماؤه. وكان هو يرقد مكانه ويجز على أسنانه. ولم يتحرك أبداً. أما السؤال عما إن كان هذا هو الضرب الأول الذي تلقاه لورانس فيظل دون إجابة. ومن الغريب أن بروس أكد أنه «لم ير ندبات أخرى»، رغم ادعاء و. إي. جونز أنه قد رأى «عدداً كبيراً من الندبات حديثة العهد على ظهر لورانس» في مكتب التجنيد منذ أقل من سنة. وقال روس أيضاً إنه لم يكن الشخص الوحيد الذي قام بضرب لورانس بهذا الأسلوب لأنه اكتشف فيما بعد آثار ضرب بالعصا على ساقى لورانس أثناء عملهما معاً في صالة للألعاب في بورنماوث وأن لورانس أخبره أن ثمة «شخصاً آخر يعمل لحساب «الرجل المسن» قد أنزلها به». وقد قام بروس فيما بين عامي ١٩٢٣ و ١٩٣٥ بضرب لورانس في تسع مناسبات في كلاودز هيل وشارع بارتون وفي منزله بأبردين وأماكن أخرى في أسكتلندا. وقد حدث هذا، في مناسبة واحدة على الأقل، في حضور شاهد. وبالإضافة إلى هذا، كشف فيليب نايتلي وكولين سيمبسون، مراسلا الصنداي تايمز اللذان أخبرهما بروس بالقصة، في مقال لهما عام ١٩٦٨، أنهما يعرفان رجالاً آخرين استؤجروا لجلد لورانس، رغم

أنهما لا يعرفان إن كان هذا قد حدث قبل بروس أو بعده، أو فى تزامن معه. فإذا كان جونز قد رأى «ندبات» حديثة، على ظهر لورانس عام ١٩٢٢، يصبح من المحتمل أن اضطراب الجلد قد بدأ مع لورانس قبل لقائه ببروس فى وقت مبكر من ذاك العام. إلا أنه من المحتمل أيضاً زيف مقولة جونز، إذ كان بروس يضربه على الردفين باستمرار، لا على ظهره، مما يوحى بعنصر جنسى حاول مؤرخوه كبته، رغم أن بروس أكد باعترافه أن لورانس كان يصل لدرجة الذروة الجنسية كنتيجة للضرب. كما أن محاولة مؤرخيه «إضفاء القدسية» على مازوكية لورانس باقتراحهم أنه كان يحاول أن يحاكي ممارسات قديسى، العصور الوسطى تصطدم بهذه النقطة، فإن من كانوا يجلدون أنفسهم من قديسى العصور الوسطى كانوا يفعلون هذا على ظهورهم، لا على أردافهم.

وقد زعم البعض أن اضطرابه هذا كان نتيجة لما حدث له فى درعا. إلا أنه على حين أننا لا نملك دليلاً يدعم ادعاء قبض الأتراك على لورانس وضربهم إياه عام ١٩١٧، فإننا نعلم علم اليقين أن سارا كانت تضربه بشدة على ردفه وهوطفل، وأنه كان قد كشف عن ميول مازوكية مميزة كصبى، ومن ثم، فاضطراب الجلد فى الحقيقة كان ذروة حياة سادتها فانتازيا المازوكية وتحقير الذات اجتماعياً وجسدياً، وأصولها لا توجد فى درعا، مهما كان ما حدث أو لم يحدث، بل فى علاقة لورانس بأمه فى سنواته الأولى. فقد كانت درعا، فانتازيا كانت أم حقيقة، مجرد تعبير واحد عن سيرورة يمكن تتبعها مباشرة من شارع بولستيد فى تسعينيات القرن التاسع عشر، إلى كلاودز هيل فى عام ١٩٢٣. بيد أن ما يشير الاهتمام فى قصة بروس هو الأضواء التى تلقيها على مناحى أخرى فى شخصية لورانس. فإن هذه البنية المضخمة من الفانتازيا التى أخبر بها بروس، هى كذبة محسوبة من أولها إلى آخرها، إلا أنه قدمها بتفاصيل مذهشة مترابطة، فقد اخترع «الرجل المسن» وجعله يرأس بروس ويكتب له عشرات الخطابات التى كان لورانس هو الكاتب الحقيقى لها. وقد أحب بروس لورانس وأعجب به وكان فخوراً أنه تمكن من مساعدته. وحتى بعد وفاته، رفض الرجل الأسكتلندى أن يصدق أنه كذب عليه عن عمد وظل يعتقد لمدة خمسين عاماً فى وجود «الرجل المسن». وربما كان بروس ساذجاً عديم الخبرة، أعجبت به بلاغة لورانس وأبهره عقله وذكاؤه. إلا أنه لم

يكن غيباً. وكان هذا تعليقاً لا يعلوه تعليق على موهبة لورانس على الاختراع والتلاعب بالآخرين والإقناع. فقد استطاع إقناع إنسان آخر بوجود شخصية كانت من مجرد اختراعه، وأن يبقى على الفانتازيا ثلاثة عشر عاماً دون أن يكتشف أمره. وعن قصة «الرجل المسن» كتب آرني لجون ماك قائلاً: «طبقاً لفهمي الضئيل للحرب النفسية التي امتلك لورانس من أساليبها الكثير، يصبح التمويه المبالغ فيه أكثر معقولية كلما اقترب من الواقع، رغم عدم مقدرة الجمهور على معرفة هذا الواقع، ومن هذا المنطلق (كان لورانس) يعطى الكذب أساساً مختلطاً من الواقع». إلا أنه لم يخطر ببال آرني وماك أن يكون لورانس قد ألف كذباً مؤسساً على واقع مشوه في فترات أخرى من حياته... كوصفه لحادث درعا المزعوم مثلاً. كما لم يخطر بباليهما أن لورانس في هذه الحالة لم يكن يحارب الأتراك، بل كان يخدع شاباً سليم الطوية منحه ثقته واعتقد أنه صادقاً وكرس جزءاً كبيراً من حياته لمساعدته.

ورغم أنه كانت للورانس صداقات طوال حياته مع مشاهير من أمثال توماس هاردى وجورج برنارد شو وإي. إم. فورستر وروبرت جريفز وكثيرين غيرهم، إلا أنه لم يشعر بالأمن الحقيقي سوى مع ذلك الشاب الأسكتلندي غير المتعلم. وظل بروس قريباً من لورانس طوال ما تبقى من حياته. بيد أنه أصبح موضع سخرية من آرني وبوب بعد وفاة لورانس وعومل كما لو أن لورانس كان ضحيته. وحتى تشارلوت شو، قد لحقت بالمؤمراة وحاولت إسكاته. وكتب بروس «كانوا على استعداد لفعل أى شيء كي يمنعوا سبب صداقتنا من أن تصبح ملكية عامة.. لقد كان لديهم إحساس كبير بأهميتهم لدرجة ظنوا معها أنني بندقية سهل كسرهما.. ولو أنهم نجحوا ما كان لهذه القصة أن تروى أبداً».

وكان بروس تعيساً في الجيش، ومن ثم فقد ترك الخدمة سريعاً رغم أن لقاءاته ولورانس استمرت بعد ذلك على فترات. ولم يستطع لورانس نفسه أن يستقر في سلاح الدبابات، وبدأ يتباكى على سلاح الطيران. فكتب خطابات إلى ترنشارد وهور أخذت نغمتها تتعالى حتى وصلت إلى التلميح بالانتحار. وحدث ذات مرة، بينما كان ضيفاً في بيت ترنشارد في أثناء خدمته في سلاح الدبابات أن هدد بأن



«ينهى كل شىء» فى التو واللحظة»، وعندها، ابتسم ترنشارد وقال له إنه، إن لم يكن لديه مانع، فليفعّلها فى الحديقة لأنه لا يود أن تلوث سجاجيده. وفى مناسبة أخرى أجبر بروس أن يضرب يده بعنف على الحائط لينتزع المسدس حينما أعلن أنه سيطلق الرصاص على نفسه وتذكر بروس أن لورانس انفجر فى البكاء حينذاك. فلم يكن عدم رضاه عن الجيش، بل عن نفسه، وعن حاجته الدائمة «للبحث عن اللذة بالطرق المنحطة». ومرة أخرى وجه ناظره إلى القوات الجوية. وفى شهر يونيو عام ١٩٢٥ كتب إلى إدوارد جارنت قائلاً «لا أصلح للحياة.. وسأهيك مذكراتى عن الحياة فى معسكر المجندين فى القوات الجوية. وستحبّطك هذه المذكرات» وانزعج جارنت، وكتب خطاباً إلى جورج برنارد شو الذى بعث بالخطاب إلى ستانلى بولدوين رئيس الوزراء ومعه بطاقته. وأوحى أن انتحار لورانس سيتسبب فى فضيحة خاصة وأن كتاب لويل توماس «مع لورانس فى بلاد العرب» كان قد نشر لتوه ولقى استحساناً جماهيرياً. ودعمه جون بتشان، الذى كان لورانس قد أمسك به فى الشارع ذات مرة، وطلب منه العون، وتدخل بولدوين شخصياً. وفى أوائل شهر يونيو بعث ترنشارد إلى لورانس يخبره أنه سيتم نقله مرة أخرى إلى القوات الجوية.

وحينذاك شعر لورانس أنه قد نال كل ما أراد. وأذعن لوضعه كشخص عادى وثابر على هذا بإخلاص على مدى السنوات العشر التالية. ومن ثم، عُيّن فى كلية الطلبة العسكريين الجوية فى كرانويل بليנקولنشاير وكان هذا أحد أكثر الأماكن راحة واستمر يعمل فى كتابيه «أعمدة الحكمة» و«ثورة فى الصحراء» ويراجع مذكراته عن حياة المجندين فى القوات الجوية التى نشرها فيما بعد بعنوان «دار صك النقود». ثم نقل إلى كراتشى بالهند عام ١٩٢٦ بناء على طلبه كى يتحاشى الضجة الإعلامية التى توقع أن ترافق ظهور «ثورة فى الصحراء» وطبعة المشتركين من «أعمدة الحكمة». ورغم أن الكتابين حققاً نجاحاً مادياً فقد قرر لورانس ألا يتكسب من وراء الثورة العربية وتبرع بالنقود للصندوق التذكارى للقوات الجوية. وفى نوفمبر عام ١٩٢٧ عُيّن فى موقع على تل صغير فى ميرانشاه قرب حدود أفغانستان. ثم حدث تمرد فى أفغانستان خلال عامى ١٩٢٧-١٩٢٨ وورطته إحدى الصحف البريطانية وتدعى الإمبراير نيوز بأن نشرت أنه كان يعمل

كقنصل بريطاني متخف كشخص مقدس هناك . وأعيد طبع المقال في الهند وأدى إلى قلاقل ضُرب فيها شخص مقدس حقيقى على أنه لورانس حتى أوشك على الموت . وأصبح الموقف محرّجاً للحكومة البريطانية . ومن ثم تم نقله جواً في ٩ يناير ١٩٢٩ إلى كراتشى ثم إركابه بعد أيام قليلة السفينة س . س . راجبوتانا المتجهة إلى بلايموث . وعاد لورانس من الهند علناً . وتبعته الصحف من أول دقيقة وصل فيها إلى بريطانيا . وأصبحت خدمة «لورانس العرب» في القوات الجوية حقيقة معلنة . وكان لورانس يدرك أن مزيداً من الإثارة في الصحف قد تؤدي إلى القضاء على وضعه كمجنّد إلى الأبد . وحاول ألا يظهر علناً لفترة من الوقت . وشأن شخصيات عامة كثيرة في القرن العشرين ، كان لورانس يكره الصحافة فقط حينما لا يستطيع التحكم فيها . وكان ، كدعائى موهوب ، يدرك سطوتها منذ وقت مبكر في حياته . وفي عام ١٩١١ كان قد أسعده توظيف صحيفة التايمز من أجل التلاعب بالرأى العام ولكى يحصل لنفسه على وظيفة جيدة بأسلوب غير مباشر . ثم خاض معارك في الصحف بعد الحرب مباشرة من أجل إيجاد مساندة لآرائه عن قضية الشرق الأوسط . أما بعد كارثة الهند ، فقد بدأ يستوعب طبيعة الصحافة الحقيقية كسلاح ذى حدين .

وكانت سنوات لورانس الست الأخيرة في القوات الجوية أكثر سنوات حياته إرضاء . فقد كان قد وصل إلى أواسط العمر ، وأصبح سميك البنية واختفى الملمح «البناتى» من شخصيته . واستمر تقلب مزاجه بين الابتهاج والاكتئاب ، وتنقله بين غرفته في الشكنات وبين أصدقائه ذوى السطوة والثراء ، واستمر أيضاً في سعيه وراء التخفى وهو متأكد أن الجميع كانوا يعرفون ذلك . أما في أوقاته الأكثر اتزاناً ، فكان يشعر بالتوافق مع العالم . وكتب «إننى أقيس نفسى على الأشخاص الذين التقى بهم وأعمل معهم وأجد نفسى شخصاً عادياً ، لكننى نابه وعاقل . وبإمكانى القول أيضاً أننى أتمتع بشعبية» . فقد وجد ، بشكل جزئى على الأقل ، حساً بالمجتمع ؛ حساً بالانتماء «إلى المخلوقات العادية» ولم يعد يشعر بعدم الانتماء وسط الآخرين من الرجال . ومن ثم ، أخبر أحد الأمريكيين الذين كان يتراسل معهم أنه لا يوجد في العالم أبطال حقيقيون وأنه قد بدأ يرى التماثل بين البشر ، لا التمايز . واعترف ، هذا الرجل الذى كثيراً ما شعر بالخرج من مظهره أن الفرق بين «الرجل

الكبير جداً» و«الصغير جداً» هو مجرد بضع بوصات، وأن هذا الفرق يبدو ذا أهمية فقط للآدميين.

وفى البداية، تم تعيينه فى القوات الجوية بكاتروتر أون بلايموث ساوند، حيث نمت بينه وبين قائد الجناح سيدنى سميث وزوجته كلير صداقة حقيقية، وفيما بعد، عقب أن شاهد تحطم الزورق الطائر أيريس وقتل أفراد طاقمه الثمانية، شغل نفسه بحماس لتحسين أداء زوارق النجدة السريعة. واكتشف أن لديه موهبة خاصة فى الميكانيكا دعمها ولعه بالسرعة، وقد مارس هذا الولع بكثرة بالإبحار على زورقه الخاص الآلى بيسكيت، أما على البر، فقد أراضى هذا الولع عن طريق دراجته البخارية القوية «بونرجس» من طراز بروسوبيريور. وقد بدل لورانس، خلال سنوات، سبع دراجات بخارية من هذا الطراز، والتي كانت، حينذاك، من أقوى الدراجات البخارية. وكانت السرعة إحدى الرفاهيات القليلة التى أشبع ميله إليها إلى درجة الإفراط. وأيضاً، فقد شعر أنه لا يستطيع استعادة الإحساس المكثف بالوجود الذى خبره أثناء الحرب إلا وهو مسرع. فقال لروبرت جريفز «حينما أدفع بمركبتى.. بسرعة ٨٠ ميلاً أو شىء من هذا القبيل، أشعر أن الأرض تتشكل تحتى.. وتكاد الحياة تبعث فيها، فتعلو وتنخفض وتتفاضل وتتمايل على كل جانب كالبحر. إن هذه مكافأة السرعة.. وبإمكانى أن أكتب لك صفحات و صفحات عن شهوة الحركة السريعة». وكان بإمكانه، بينما هو مسرع، أن يتسامى على الجسد، ذلك الجزء الذى طالما احتقره وحاول كبحه وكتب فى إحدى محاولاته القليلة لنظم الشعر: «حينما نسرع، نلقى بأنفسنا خارج أجسادنا.. لا نستطيع أجسادنا أن تتسلق إلى السماء سوى فى سحابة بترول... العظام. الدم. اللحم. مضغوطة كلها داخلياً معاً».

واستمر يلتقى بروس بين حين وآخر، ويدعو زملاءه السابقين فى القوات الجوية وسلاح الدبابات لحضور حفلات موسيقية فى كلاودز هيل فى عطلات نهاية الأسبوع. واستمر أيضاً فى كتابة عشرات الخطابات إلى الفنانين والكتاب ومؤلفى الموسيقى وزملائه السابقين. وكون صداقات جديدة بين ذوى السلطة الذين كان ضمنهم نائب بلايموث فى البرلمان، نانسى آستور، وعضو البرلمان

العمالى عن شورديتش، إرنست ثيرتل. كما أصبح فى وضع الابن البديل لجورج برنارد شو، ودخل فى حوارات أدبية تتميز بالحيوية فى مئات الخطابات التى تبادلها مع زوجته تشارلوت شو. كما مارس كتابة عروض الكتب وكتابة المقدمات لها. ثم شرع فى ترجمة للأوديسة عن الإغريقية القديمة لناشر أمريكى، إلا أنه أصر على أن تنشر فى إنجلترا بدون اسمه، ثم كشف للمؤسسة الأدبية أنه يقوم بالعمل، وهدد بالتوقف حينما تسربت الأخبار للصحافة كأمر حتمى. ورغم أنه كانت تراوده أحياناً أفكار لتأليف المزيد من الكتب، إلا أنه لم يكتب شيئاً بعد «دار صك النقود» ذلك الكتاب الذى شعر ترنشارد أنه يدمر سمعة القوات الجوية وطلب منه أن يوقف نشره إلى ما بعد وفاته. وأيضاً، فقد صادق على سيرتين له كتبهما روبرت جريفز وباسيل ليدل هارت بعد أن دقق فى كل كلمة تقريباً، وطلب من كليهما نشر هوامش تعلن أنه لا علاقة له بالكتابين إطلاقاً، ثم شرع يشكو إلى معارفه من أن الكاتبين سمحا لنفسيهما «بتحريفات فنية» أكثر مما يتطلب الأمر. وانتقد هارت، الذى كان يكن له الإعجاب بإخلاص، لأنه وقع أسير السحرة وفشل فى اتخاذ موقع موضوعى من المادة، وسخر، من السيرة التى كتبها داعياً إياه «المديح III». وبدأ أيضاً يكتشف أنه رغم اعتقاده بأنه كاتب، فإن الحافز الإبداعي ينقصه. وكان يدرك أنه يملك فقط كل حيل الكتابة. إلا أنه لم يكن لديه شىء آخر يقوله. وأحياناً كان يؤدى هذا الإدراك إلى أن تمتلك منه حالات من القنوط والكآبة، فكتب «لا أعتقد أن الحياة بهيجة، ولا أحب أن أشعر أننى تسببت فى أن آتى بشخص إلى هذا العالم ليخبر أوقاتاً مثل التى خبرتها ومازلت أعانى منها... لم أجد بعد مبرراً لمواصلة الحياة، إلا أن المرء ليس بمقدوره الرحيل إنها لحالة مؤسفة». وأصبحت محطة القوات الجوية عالمه حينذاك، وأحياناً سجنه؛ فقد كان يمتلكه الخوف والتردد خارجها. وأخبر صديقاً جديداً له، وهو الكاتب هنرى ويليامسون، بأنه يشعر كساعة حائط توقف زبركها. وعرف أيضاً أنه لا ينتمى وأنه وجد ركناً له فقط فى الظروف غير العادية للثورة العربية. فقد كان حينذاك الرجل المناسب فى المكان المناسب وفى الوقت المناسب. وكسب الحرب فى الصحراء، واستعاد بعض الحرية للعرب بعد أن فقدوها لمدة خمسمائة عام، وقام بتأليف كتاب رائع عن تلك التجربة، كتاب لن يطويه النسيان. وأصبح أكثر

الرجال شهرة فى عصره. فقد كان ظاهرة. إلا أنه خلافاً للفنانين والكتاب والشعراء، فلن يتكرر إنجازه الوحيد أو يتحسن. ومن ثم كتب إلى السير إدوارد إلجار عام ١٩٣٢ بأسى «إن لديك حياة كاملة من الإنجازات، لكننى مجرد وهج فى مقلاة».

وفى ٢٢ فبراير عام ١٩٣٥ ترك لورانس الخدمة فى القوات الجوية، وقاد دراجته البخارية من طراز برو من آخر مكان عين فيه فى برلينجتون بليينكولن شاير إلى كلاودز هيل. وكتب «إن فقدانى سلاح الطيران يفقدنى معه الحس. ومن ثم لم يصبح لدى من الأحاسيس ما يمكننى التفریط فيه، لبعض الوقت. وفى الواقع، فكثير ما تعترينى الرغبة أن تسدل ستائر حياتى. فالأمر يبدو وكأننى قد انتهيت.. الآن». إلا أن الصحافة كانت قد علمت بتقاعده واقتفت أثره طوال الشهر التالى وتسببت فى اتعاس حياته إلى أن وصل إلى ترتيبات معينة مع أصحاب الصحف المختلفة أخذ بعدها الصحفيون فى التباعد عنه. وفى أبريل، كان وحيداً، وبدأ فى التخطيط لرحلة صيفية حول بريطانيا بالدراجة البخارية. كما فكر فى كتابة سيرة للسير روجر كيسمنت الشخصية الوطنية الأيرلندية. وبدأ فى دعوة أصدقائه إلى كوخه. ثم كتبت إليه نانسى آستور ملحة إلى احتمال تعيينه فى وظيفة حكومية، أو حتى إيكال مهمة إعادة تنظيم قوات الدفاع البريطانية له. فكتب إليها قائلاً إن الخيول البرية لن تستطيع جذبه خارج كلاودز هيل. وأخبرها أنه قد فقد إرادته «فقد حدث كسر ما فى كيانى».

وفى ١١ مايو عام ١٩٣٥، انطلق لورانس بدراجته البخارية «بونرجس» باتجاه قرية بوفينجتون لإرسال طرد كتب، وإرسال برقية إلى هنرى ويليامسون لدعوته إلى تناول الغداء معه يوم الثلاثاء التالى. وكانت هذه آخر مرة يركب فيها «لورانس العرب» دراجته. وفى حوالى الساعة الحادية عشرة وعشرين دقيقة انطلق بالدراجة عائداً إلى الكوخ. وكان الطريق بين بوفينجتون وكلاودز هيل مستقيماً، وتميزه سلسلة من المنحدرات التى كانت إحداها تخفى صبيين من قائدى الدراجات وهما فرانك فلتشر وبيرتى هارجريفز. اللذان كانا يقودان دراجتيهما فى نفس الاتجاه. وغير لورانس سرعته مرتين مبطئاً إياها ليقطع المنحدرات، وسمع بات

نويلز ، جاره وصديقه الذى كان يعمل فى حديقته فى مواجهة كلاودز هيل صوت ناقل الحركة الواضح . أما ما حدث تحديداً فى اللحظات التالية ، فقد ظل ، مثل أمور كثيرة فى حياة لورانس ، غامضاً . فقد ادعى الصبيان أنهما سمعا بوضوح صوت الدراجة البخارية قادمة وعمداً إلى قيادة دراجتيهما فى صف واحد . أما العريف كاتشوبل من سلاح المعدات الحربية الملكية الذى كان ينزه كلبه فى الأرض الخربة غرب الطريق ، فقد أخبر هيئة التحقيق فيما بعد أن لورانس كان قد تخطى عربة سوداء كانت قادمة من الاتجاه المغاير ، إلا أن الصبيان قالوا إنه لم تكن هناك ثمة عربة ، ولم يمكن اقتفاء أثر لمثل تلك المركبة . ولا يبدو محتملاً أن لورانس كان يقود دراجته بسرعة أكثر من ٤٠ ميلاً لأن نويلز سمع صوت تغيير النقلات بوضوح .

و حينما وجدت الدراجة فيما بعد ، كان ناقل الحركة مثبتاً على النقلة الثانية ، مع العلم أن أقصى سرعة للدراجة كانت ٨٠ ميلاً فى الساعة . ولن يعرف يقيناً ما إن كان لورانس قد فقد تركيزه لبرهة ، أم أن الصبيين كانا يقودان دراجتيهما جنباً إلى جنب ؛ فما يبدو ، أن الذى حدث هو أن لورانس جزّ عجلة بيرتى هارجريفز الخلفية وقذف بالصبي من على دراجته . وحينما انحرف ليتحاشى دماراً أكثر ، قُذف به من فوق مقود دراجته وارتمى على رأسه فى الطريق على بُعد خمس ياردات . ثم انحرفت الدراجة بعنف واستدارت وبعد ذلك سقطت ساكنة . وانتهى كل شئ فى ثوان . ورقد فى الطريق وهو يرتعد ، وكان رأسه كتله من الدماء . وفى الحال ، هرول إليه العريف كاتشوبل وحاول مسح الدم بمنديل . وفى هذه اللحظة ، وصلت شاحنة جيش فأوقفها كاتشوبل ووضع جسد لورانس على نقالة ، ثم نقل إلى مستشفى وول . وكان مخه قد تدمر دماراً شديداً ، ولم يستعد الوعى أبداً . وأخيراً ، دفع الراكب بنفسه بعيداً عن جسده ، خارج نطاق نقطة اللاعودة . وتوفى فى ١٩ مايو بعد ستة أيام من الحادث .

قمت بزيارة مقبرة لورانس فى ركن المدفن وقد مُيزت بحجر حفر عليه نفس النقش الذى زين واجهة مدرسته «امنحنى النور يا إلهى» ورأيت هذا توكيداً للإله الذى كان قد كف عن الاعتقاد فيه لمدة طويلة . . إلا أن هناك أثراً له أكثر إثارة للإعجاب يقع فى كنيسة سانت مارتن فى ويرهام ، أى فى ذلك القصر الذى ينتمى إلى العصور الوسطى والذى طالما حلم لورانس بأن يمتلكه ، إلا أنه لم ينجح فى

تحقيق هذا طوال حياته . وسانت مارتن هى إحدى أقدم الكنائس الأنجلوساكسونية فى دورست ، وهى على وجه التحديد البساطة العارية التى أحبها لورانس . حينما زرت الكنيسة ، ذات يوم دافئ ، فى نهاية أسفارى جميعها ، كان ضوء الشمس يتدفق شلالاً صغيراً مبرقشاً بخطوط رمادية داكنة من خلال نافذة ضخمة ، يسقط على تمثال لورانس الذى نحت كفارس صليبي فى زى عربى نحتته صديقه إريك كنجتون . وحينما وقفت أحملق فى وجهه الآمن ، الذى نحت من الحجر من أجل الأجيال القادمة ، أدركت إلى حد ما أننى قد أجبت على ذلك السؤال الذى وجهته لنفسى ذاك اليوم عند النبع فى وادى رُم . فقد اكتشفت أن لورانس ، مثلنا جميعاً ، متفرداً . فخليطه الفريد من الخصائص كان مطلوباً تحديداً فى إحدى لحظات التاريخ كى ينقذ الثورة العربية من النسيان ويأتى لها بالنجاح . لم يكن لورانس بطلاً ينتمى إلى منظومة الأبطال من قتلة التنين ، ذا قوة فوق بشرية جسداً وروحاً ، شجاعاً على الدوام ، صادقاً وشريفاً بشكل لا تشوبه شائبة ، أى أنه لم يكن الفارس الأبيض الذى حاولت أمه سارا خلقه . فمثل هذه المخلوقات ، كما كان لورانس يعلم ، تعيش فقط فى الخيال . بل على العكس ، كان رجلاً أدى به ضعفه الجسمانى ، وطبيعته الجنسية الغريبة ، ومظهره غير الجذاب ، وخوفه غير الطبيعى من الألم ، أن يطور قدرة غير عادية على التصميم والشجاعة والتراحم والتعاطف فلم يكن سلطوياً ، بل رجلاً منحه حساسيته القدرة على التوحد مع الرجال والنساء من جميع الطبقات والأجناس والمعتقدات ، رجلاً أتاح له شعوره بفقدان هوية ذاتية قوية أن يصبح أى شئ وأى شخص كان يشعر أن الآخرين يريدونه . فلم يكن لورانس بطلاً متخيلاً ، بل رجلاً حقيقياً به خليط من مواطن القوى والضعف . كان قائد واستراتيجياً ومحرضاً ومفكراً وفاعلاً وخالق أساطير ومضخماً للحقائق ومستغلاً للأسطورة . لقد كتبت ملايين الكلمات فى الشئ عليه ، أما بالنسبة لى فإن الكلمات الأكثر ملاءمة للإبقاء على ذكره هى تلك التى كتبها بنفسه لأحد أصدقائه قبل وفاته بسنوات «أنا بشر . فليست ثمة مخلوقات فوق بشرية كما نحب أن نتصور . فإن كان ثمة مخلوقات كهذه ، فإنى لم ألتق بها بعد» .

---

المراجع

---





### Archives

- The Bodleian Library, Oxford: Reserve Manuscript Collection (embargoed material on. T.E. Lawrence).
- The National Library of Scotland, Manuscripts Collection: Various files, rare books and manuscripts.
- The Public Record Office, Kew: Foreign Office and War Office Files; Arab Bureau Files; Intelligence Files.
- The British Library Additional Manuscripts Collection: Robertson-McMahon Correspondence; T.E. Lawrence - Letters to Charlotte Shaw; T.E. Lawrence - War Diaries and Pocket Diaries.
- King's College, University of London, Basil Liddell Hart Centre for Military Archives: Joyce Pierce Akaba Papers.
- Imperial War Museum, London: Knightley and Simpson Papers.

### Books and Journals

- Abdallah, King of Jordan, *Memoirs*, ed. Philip Graves, London, 1950.
- Admiralty War Staff - Intelligence Division, *A Handbook of Arabia*, Vol. 1, London, 1916.
- Aldington, Richard, *Lawrence of Arabia: A Biographical Enquiry*, London, 1955.
- Andrews, P., and Brunner, E., *The Life of Lord Nuffield*, London, 1955.
- Antonius, George, *The Arab Awakening*, London, 1938.
- Baker, Randall, *King Hussain and the Kingdom of the Hejaz*, Cambridge, 1979.
- Barbor, Patricia, *Desert Treks from Jeddah*, London 1996.
- Barker, A.J., *The Neglected War: Mesopotamia 1915 - 1916*, London, 1967.
- Bedarida, François, *A Social History of England 1851 - 1975*, London, 1979.
- Bell, Lady (ed.), *The Letters of Gertrude Bell*, 2 vols., London, 1927.
- Ben Yusuf, Ofer, and Khazanov, Anatoly, *Pastoralism in the Levant*, 1992.
- Berne, Eric, *Games People Play - The Psychology of Human Relationships*, New York, 1964.
- Betjeman, John, and Vaisey, D., *Victorian and Edwardian Oxford*, Oxford, 1971.

- Birdwood, Lord, *Nuri As Said, A Study in Arab Leadership*, London 1959.
- Blackmore, Charles, *In the Footsteps of Lawrence of Arabia*, London, 1986.
- Blunt, Lady Anne, *Bedouin Tribes of the Euphrates*, 2 vols., London, 1879.
- Bray, N. N. E., *Shifting Sands*, London 1934.
- Brill, E. J., *Mecca and the Tribes of Arabia - Some notes on Their Relations in Society and Religion from Jahiliyya to Islam*, ed. M. . Kister, London, 1990.
- Brown, Malcolm, *A Touch of Genius - the Life of T. E. Lawrence*, Oxford, 1988.
- Bullock, David L., *Allenby's War - The Palestinian - Arabian Campaign 1916 - 18*, London, 1987.
- Burbidge, W. F., *The Mysterious AC2 - A Biographical Sketch of Lawrence of Arabia*, London, 1943.
- Burckhardt, J. L., *Notes on the Bedouins and Wahhabys*, 2 vols, London, 1830.
- Candler, E., 'Lawrence in the Hedjaz', *Blackwood's*, 243 (December 1925).
- Charmley, John, *Lord Lloyd and the Decline of the British Empire*, London 1987.
- Clayton, Gilbert, *An Arabian Diary*, London, 1969.
- Cowan, Lyn, *New Ways in Psychoanalysis*, New York, 1966.
- Cowan, Lyn, *Masochism - A Jungian View*, Texas, 1982.
- Djemal, A., *Memories of a Turkish Statesman 1915-1919*, London, 1922.
- Donner, Fred McGraw, *The Early Islamic Conquests*, Princeton, 1981.
- Doughty, Charles M., *Travels in Arabia Deserta*, 2 vols, Cambridge, 1888.
- Ellis, Havelock, *Psychology of Sex*, New York, 1933.
- Eph'al, Israel, *The Ancient Arabs - Nomads on the Borders of the Fertile Crescent 9th-5th Centuries BC*, London 1982.
- Facey, William, and Grant, Gillian, *Saudi-Arabia - The First Photographers*, London 1996.
- Falls, Cyril, *et al.*, *Military Operations in Egypt and Palestine*, Vol.

- 1, 1928, Parts 1 and 2 (Official War History).
- Foucault, Michel, *History of Sexuality*, London, 1975.
- Glen, Douglas, *In the Steps of T. E. Lawrence*, London, 1934.
- Glubb, Jhon Bagot, *The Great Arab Conquests*, London, 1963.
- Graves, Robert, *Lawrence and the Arabs*, London, 1927.
- Graves, Robert, *T. E. Lawrence to His Biographer Robert Graves*, London, 1938.
- Gurney, O. R., *The Hittites*, London, 1972.
- Herbert A., *Mons, Anzac and Kut*, London, 1919.
- Hitti, Philip, *A History of the Arabs*, New York, 1937.
- Hogarth, David G., 'War and Discovery in Arabia', *Geographical Journal*, March 1920.
- James, Lawrence, *Imperial Warrior - Life Times of Sir Edmund Allenby*, London, 1993.
- James, Lawrence, *The Golden Warrior - The Life and Legend of Lawrence of Arabia*, revised edn, London, 1995.
- Jarvis, C. S., *Yesterday and Today in Sinai*, London, 1941.
- Kedourie, Elie, *In the Anglo-Arabian Labyrinth - the McMahon - Husayn Correspondence and Its Interpretations 1914 -1939*, Cambridge, 1976.
- Kirkbride, Alec, *A Crackle of Thorns*, London, 1956.
- Kirkbride, Alec, *An Awakening*, London, 1971.
- Kinghtley, Philip, and Simpson, Colin, *The Secret Lives of Lawrence of Arabia*, London, 1969.
- Knowles, Pat, *A Handful with Quietness*, London, 1992.
- Kressenstein, K. von, 'The Campaign in Palestine from the Enemy Side', *Journal of the Royal Society Institute*, Vol. 67, 1992.
- Lancaster, William, *The Rwala Beduin Today*, Cambridge, 1981.
- Lawrence, A. W. (ed.), *T. E. Lawrence by His Friends*, London, 1938.
- Lawrence, T. E., *The Seven Pillars of Wisdom*, Oxford text (limited edition), London, 1926.
- Lawrence, T. E., *The Seven Pillars of Wisdom*, London 1935.
- Lawrence, T. E., *Crusader Castles*, London, 1936.
- Lawrence, T. E., *The Mint*, London 1936.

- Lawrence, T. E., *The Letters of T. E. Lawrence*, ed. Edward Garnett, London, 1938.
- Lawrence, T. E., *et al.*, *The Home Letters of T. E. Lawrence and his Brothers*, ed. M. R. Lawrence, Oxford, 1954.
- Lawrence, T. E., *Fifty Letters 1920 -1935*, Texas, 1962.
- Lawrence, T. E., *Letters to E. T. Leeds*, ed. Jeremy Wilson, London, 1988.
- Lawrence, T. E., *The Letters of T. E. Lawrence*, ed. Malcolm Brown, Oxford, 1991.
- Lawrence, T. E., *Secret Despatches from Arabia*, ed. Malcolm Brown, London, 1991.
- Lawrence, T. E., and Wooley, L., *The Wilderness of Zinn*, London, 1915.
- Layard, Austin, *Nineveh and Its Remains*, London, 1848 - 9.
- Layard, Austin, *The Ruins of Nineveh and Babylon*, London, 1853.
- Lewis, Norman N., *Nomads and Settlers in Syria and Jordan 1800-1980*, Cambridge, 1987.
- Lewis, R., *Everyday Life in Ottoman Turkey*, London, 1971.
- Liddell Hart, Basil, *T. E. Lawrence: in Arabia and After*, London, 1934.
- Liddell Hart, Basil, *T. E. Lawrence to His Biographer Liddel Hart*, London, 1938.
- Lockman, J. N., *Scattered Tracks on the Lawrence Trail - 12 Essays on T. E. Lawrence*, Michigan, 1996.
- Lonnroth, Eric, *Lawrence of Arabia, An Historical Appreciation*, London, 1956.
- Lowe, Gordon R., *The Growth of Personality*, London, 1972.
- Mack, John, *A Prince of Our Disorder - The Life of T. E. Lawrence*, London, 1976.
- Marriot, Paul, *The Young Lawrence of Arabia 1888 - 1910*, Oxford, 1977.
- Marriot, Paul, and Argent, Yvonne, *The Last Days of T. E. Lawrence*, London, 1996.
- Mauger, Thierry, *The Bedouins of Arabia*, London, 1988.
- McCarthy, Fiona, *William Morris - A Life for Our Times*, London, 1991.

- Meeker, Michael, *Literature and Violence in North Arabia*, Cambridge, 1979.
- Meinerzhagen, Richard, *Middle East Diary 1917-1956*, London 1959.
- Meyers, Jeffrey, 'T. E. Lawrence and *Seven Pillars of Wisdom*' in *Homosexuality in Literature 1890-1930*, New York, 1987.
- Meyers, Jeffrey, *The Wounded Spirit - T. E. Lawrence's Seven Pillars of Wisdom*, New York, 1989.
- Meyers, Jeffrey, (ed.), *T. E. Lawrence: Soldier, Writer, Legend*, London, 1989.
- Miller, James, *The Passion of Michel Foucault*, New York, 1993.
- Montgomery-Hyde, H., *Solitary in the Ranks- Lawrence of Arabia as Airman and Private Soldier*, London, 1977.
- Morris, James, *The Hashemite Kings*, London, 1959.
- Morris, James, *Farewell The Trumpets - An Imperial Retreat*, London, 1978.
- Morris, Jan, *Oxford*, London 1965; Oxford, 1978.
- Mousa, Suleiman, *T. E. Lawrence - An Arab View*, Trans. Albert Burtos, London, 1966.
- Musil, Alois, *The North of Hegaz - A Preliminary Report of the Expedition of 1910*, P R O F O 882/1-3, 1916.
- Musil, Alois, *The Manners and Customs of the Rwala Bedouins*, New York, 1928.
- Neville, R. G., and Sloggett, T., *Oxford as it Was*, Oxford, 1979.
- Nicolle, D., *Lawrence and the Arab Revolts - Warfare and Soldiers of the Middle East, 1914-18*, London, 1989.
- O'Brien, Philip, *T. E. Lawrence: a Bibliography*, London, 1988.
- Ocapmo, Victoria, *338171' T.E'*, ed. D. Garnett, London, 1963.
- Orlans, Harold (ed.), *Lawrence of Arabia, Strange Man of Letters - the Literary Criticism and Correspondence of T. E. Lawrence*, London 1993.
- Park, James, *Sons, Mothers and Other Lovers*, London, 1995.
- Payne, Robert, *Lawrence of Arabia: a Triumph*, London, 1966.
- Pearson, E., *Awakening the Hero Within*, New York, 1991.
- Pratten, Dr John, *Social Stratification in Edwardian England*, 1985.
- Randell, John, *Sexual Variations*, London, 1973.

- Reik, Theodor, *Of Love and Lust: A Study of Human Sexual Emotions*, London, 1954.
- Reynolds, J. J., *Canon Christopher of St. Aldates*, London, 1967.
- Richards, Vyvyan, *Portrait of T. E. Lawrence, The Lawrence of the Seven Pillars of Wisdom*, London, 1936.
- Rolls, S. C., *Steel Chariots in the Desert*, London, 1937.
- Sachar, H., *The Emergence of the Middle East 1914-1924*, New York, 1969.
- Said, Edward, *Orientalism*, London, 1978.
- Schild, Marten, *Lawrence and Arabia and T. E. Lawrence: Essays on the Private Life of an Immaculate Hero and His Imperfect Shadow* (draft MS, unpublished).
- Seymour-Smith, Martin, *Robert Graves*, London, 1982.
- Sherwood, John, *No Golden Journey - A Biography of James Elroy Flecker*, 1973.
- Stewart, Desmond, *T. E. Lawrence*, London, 1977.
- Stirling, W. F., 'Tales of Lawrence of Arabia', *Cornhill Magazine*, 74 (1933).
- Stirling, W. F., *Safety Last*, London, 1953.
- Storr, Anthony, *Sexual Deviations*, London, 1973.
- Storrs, Ronald, *Orientations*, London, 1944.
- Sugarman, Sidney, *A Garland of Legends: Lawrence of Arabia and the Arab Revolt*, Worcester, 1992.
- Sweet, Louise E., 'Camel Raiding of the North Arabian Bedouin: a Mechanism of Ecological Adaptation', *American Anthropologist*, 67 (1965).
- Sydney Smith, Clare, *The Golden Reign - The Story of My Friendship with Lawrence of Arabia*, London, 1940.
- Tabachnick, S. E., and Matheson, R., *Images of Lawrence*, 1988.
- Thesiger, Wilfred, *Arabian Sands*, London, 1959.
- Thomas, Edward, *Oxford*, 1903.
- Thomas, Lowell, *With Lawrence in Arabia*, London, 1924.
- Turner, Adam, *The Making of David Lean's Lawrence of Arabia*, London 1994.
- Weintraub, Stanley, *Private Shaw and Public Shaw - A Dual Portrait of Lawrence of Arabia and GBS*, London, 1963.

- Weintraub, Stanley and Rodelle (eds.), *Evolution of a Revolt: Early Postwar Writings of T. E. Lawrence*, Pennsylvania, 1968.
- Williamson, Henry, *Genius of Friendship 'T. E. Lawrence'*, London, 1936.
- Wilson, Colin, *The Outsider*, London, 1956.
- Wilson, Jeremy, *T. E. Lawrence - Lawrence of Arabia, National Portrait Gallery Catalogue of the T. E. Lawrence Exhibition*, 1988.
- Wilson, Jeremy, *Lawrence of Arabia. The Authorised Biography of T. E. Lawrence*, London, 1989.
- Winstone, H. R. V., *The Illicit Adventure*, 1987.
- Winterton, Lord, *Fifty Tumultuous Years*, London, 1955.
- Winterton, Lord, 'Arabian Nights and Days', *Blackwood's Magazine*, 207 (may 1920).
- Woolley, C. Leonard, *Dead Towns and Living Men, being Pages from an Antiquary's Notebook*, London, 1932.
- Yardley, Michael, *Backing into the Limelight*, London, 1985.
- Young, Hubert, *The Independent Arabs*, London, 1933.



# المحتويات



الصفحة

٤	مقدمة: لورانس تفكيك الأسطورة بقلم عاصم الدسوقي
١٢	مقدمة المؤلف: وادي القمر بقلم مايكل آش
١٩	الباب الأول: الجوال ١٨٨٨ - ١٩١٦
٢٠	الفصل الأول: الملكة المزيفة تكشف عن نورها الأخاذ
٣٨	الفصل الثاني: امنحنى النوريا إلهي، سنوات الدراسة
٥٤	الفصل الثالث: عامه الأخير بالمدرسة وأعوامه الأولى بالجامعة
٧٦	الفصل الرابع: السلطان يحتسى الشاي كعادته، ثورة تركيا الفتاة
٨٦	الفصل الخامس: شاب شبه مرموق، أكسفورد وسوريا
١١٢	الفصل السادس: هوجارث يذهب للتقيب، أكسفورد وكرميش
١٣٦	الفصل السابع: البارون والنظام الإقطاعي، كرميش ومصر
١٥٦	الفصل الثامن: سلام لم تعرفه منطقة ما بين النهرين منذ أجيال
١٦٦	الفصل التاسع: أجبرني رجال التأمين على البقاء في مكانى
١٨٢	الفصل العاشر: القاهرة.. أشياء لا ينطق بها
٢٠٨	صور فوتوغرافية
٢١٧	الباب الثاني: المحارب أكتوبر ١٩١٦ - أكتوبر ١٩١٨
٢١٨	الفصل الحادي عشر: أكبر حدث في الشرق الأدنى منذ عام ١٥٥٠
٢٣٦	الفصل الثاني عشر: انقضت في وسطهم كالجسام، المهمة الأولى في الحجاز
٢٦٤	الفصل الثالث عشر: ليس جيشاً.. بل هو العالم يتحرك للانقضاض على الوجه
٢٨٤	الفصل الرابع عشر: لا أعتقد أن رجلاً إنجليزياً قد احتل هذه المكانة من قبل
٣١٢	الفصل الخامس عشر: لا أحد يعرف مكان الكابتن لورانس
٣٤٦	الفصل السادس عشر: هواة من الطراز الأول، عبور سيناء، غارة المدورة
٤٧٠	الفصل السابع عشر: أحمد بن باقر شركسى من القنيطرة، عملية اليرموك
	وحادث درعا

الصفحة

٤٠٢	الفصل الثامن عشر: أسوأ مادة تصلح للتشكيل - طفيلة وتل الشهم
٤٢٠	الفصل التاسع عشر: أطفئت أحلامى كشموع فى مهب رياح النجاح القوية
٤٥٣	الباب الثالث: الساحر ١٩١٨ - ١٩٣٥
٤٥٤	الفصل العشرون: مازال الكولونيل لورانس مستمر رغم أنى تنحيت جانبا
٤٧٤	الفصل الحادى والعشرون: نسرع لنلطف أنفسنا خارج أجسادنا
٤٩٩	المراجع
٥٠٧	المحتويات









## تهشيم الصورة

اقترن اسم لورانس في كتب التاريخ بثورة الشريف حسين أمير الحجاز ضد الحكم التركي في يوليو ١٩١٦ المعروفة بالثورة العربية الكبرى حتى لقد أصبح يعرف في الأدبيات «بلورانس العرب». وقد خلعت هذه الكتب على لورانس ألواناً من البطولة وصنوفاً من الشجاعة جعلت منه شخصية أسطورية تغلب لب القراء وتوقعهم أسرى سحرها. وربما ترجع «أسطورة» هذه الشخصية إلى الغموض الذي اكتنف صاحبها عند الذين التقوا به من العرب ومن الإنجليز على السواء، وهو غموض تعمد لورانس أن يظهر به أمام الآخرين، وحرص على تسجيله بأسلوب غير مباشر في رسائله إلى والدته وإخوته وأصدقائه، ثم كانت وفاته وهو على ظهر دراجته التي كان يعشق ركوبها وتشعره بأنه يدوس العالم لتجعل منه بطلاً تراجيدياً بالمعنى المسرحي.

ولم ينشغل العرب الذين التقوا بلورانس قبل الحرب العظمى وأثناء الصراع مع الأتراك بالتعرف على حقيقته، ولماذا يتصل بهم ويعرض خبراته لمساعدتهم في الإعداد للثورة. كما لم يتوقفوا أمام ما لاحظوه عليه من سلوك شاذ، بل لقد اطمأنوا إليه طالما اتضح لهم صدق تصوراتهم في التطبيق العملي، وطالما أنه يساعدهم «فعلاً» لإعلان مملكة عربية مستقلة طبقاً لمراسلات الشريف حسين مع هنري مكماهون المندوب السامي البريطاني في مصر (١٩١٥-١٩١٦). كما لم يدرك العرب آنذاك. ولم يكونوا منفردين في هذا. أن لورانس ينفذ خطة في استراتيجية بريطانية تمت صياغتها سراً منذ انضمت تركيا إلى جانب ألمانيا والنمسا في الحرب العظمى ضد إنجلترا وحلفائها.

.....

وليس من باب المغالاة القول إن المؤلف يثار من لورانس لسبب أو لآخر.. يريد أن ينزله من عرش مزيف توج عليه ملكاً للعرب أو زعيماً لهم، إذ نراه يتعقبه في رحلاته التي كتب عنها في مذكراته ويقارن ما ورد بها بما ورد بمفكرته الصغيرة وبما ورد في رسائله إلى الآخرين، ثم نراه يقيس المسافات بين كل الأماكن التي ذهب إليها لورانس والزمن الذي استغرقه التنقل عبر هذه الأماكن ليقول للقارئ في النهاية كم كان لورانس كذوباً ومخادعاً. ثم نراه يركز تركيزاً شديداً على شذوذه الجنسي ويعتبره مفتاح فهم شخصية لورانس. وليس من شك أن التركيز على هذه المداخل الشخصية يسهم في تهشيم الصورة المثالية التي أراد لها لورانس أن تستقر في مخيلة الناس وخاصة في مخيلة أهل الشرق حيث تحتل الأخلاق مرتبة عليا في تقويم حركة الناس وتصرفاتهم وسياساتهم. وحسناً فعل.

فهل نجح المؤلف في هذا؟ إنني أدعو القارئ العربي ليتعرف على العالم الخفى للورانس «العرب» داخل صفحات الكتاب.

عاصم الدسوقي